مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب
مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

الدكتور أحمد فريد رفاعي
مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة المصرية

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري

في عشرين جزءاً

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الثالث

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

اعتراف بالجميل

هذه السلسلة من المصادر العربية لمكتبة القراءة والثقافة الأدبية، مدينة لحضرة الأستاذ الجليل صاحب المعالي علي زكي العرابي باشا وزير المعارف، ووكيله الأستاذ العليم محمد العشماوي بك، وحضرة معاونيهما الأمجاد بتقرير مبدإ مراجعة الوزارة لأصولها النهائية خدمة للثقافة واللغة والأدب.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد .

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

العماد الأصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

***

﴿ كِتَابُ أَبِي الْمُطَرِّفِ إِلَى سُلْطَانِ إِفْرِيقِيَّةَ ﴾

كتاب أبي المطرف الى سلطان افريقية

« وَكَتَبَ » ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ إِلَى سُلْطَانِ إِفْرِيقِيَّةَ[1] الْوَارِثِ مُلْكَ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِتِلْكَ النَّوَاحِي ، الْمُسْتَوْلِي عَلَى الْبُلْدَانِ وَالضَّوَاحِي ، وَقَدْ كَانَ لِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَمَلٌ فِي أَخْذِهِ بِثَأْرِهِمْ ، وَضَمِّ انْتِثَارِهِمْ ، مَا صُورَتُهُ :

شَاقَـهُ غِبُّ[2] الْخَيَالِ الْوَارِدِ
بَارِقٌ هَاجَ غَرَامَ الْهَاجِـدِ[3]

---

(١) يريد به الأمير أبا زكريا يحيى بن الأمير الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر صاحب افريقية وكان الأمير عبد الواحد متزوجا أخت الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب المتوفى سنة ٥٩٥ (٢) الغب : عاقبة الشيء . (٣) الهاجد : النائم والساكن

صِـــدْقُ وَعْدٍ لِلتَّلَاقِ ثُمَّ مَا
طَرَقَا إِلَّا بِخُلْفِ ٱلْوَاعِـــدِ

وَكِلَا ٱلزَّوْرَيْنِ[١] مِنْ طَيْفٍ وَمِنْ
وَافِـــدٍ تَحْتَ ٱلدَّيَاجِي وَارِدِ

لَمْ يَكُنْ بَعْدَ ٱلسُّرَى[٢] مُسْتَمْتَعٌ
فِيــهِ لِلرَّائِي وَلَا لِلرَّائِدِ[٣]

وَشَـــدِيدٌ بَثُّ قَلْبٍ هَائِمٍ
يَشْتَكِيهِ عِنْدَ رَبْعٍ هَامِـدِ[٤]

بِالْأَمِيرِ ٱلْمُرْتَضَى عَزَّ ٱلْهُدَى   وَثَنَى عِطْفَ ٱلْمَلِيِّ[٥] ٱلْوَاجِدِ

---

(١) مثنى الزور : الزائر وهو فى الأصل مصدر وضع موضع الاسم كصوم ونوم بمعنى صائم ونائم (٢) السرى : سير الليل (٣) الرائد : الطالب والرسول الذى يرسله القوم لالتماس النجعة وطلب الكلأ ومساقط الغيث لينظر المكان الذى ينزلون فيه . والرود أيضا الذهاب والمجىء ، يقال : راد يرود رودانا اذا جاء وذهب ولم يطمئن ، والرائد الذى لا منزل له ، وراد الدار يرودها : سألها (٤) الهامد : الساكن والبالى المتغير (٥) الملى (مخفف ملىء) هو الغنى القادر ذو الثروة الواسعة والثقة . وعطفا كل شىء : جانباه ، ويقال هو ينظر فى عطفيه ، أى معجب بنفسه ، وجاء ثانى عطفه ، أى رخى البال مزهوا . وقد يقال للمتكبر المعجب والمعرض ، ويقال هز عطفيه : أى فرح وسر

وَبِهِ أَصْحَبَ[١] مَا كَانَ يُرَى
حَامِلًا أَنْفَ الْأَبِيِّ الشَّارِدِ

إِنَّمَا الْفَخْرُ لِمَوْلَانَا أَبِي
زَكَرِيَّاءَ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ

مَلِكٌ لَوْلَا حُلَاهُ[٢] الْغُرُّ لَمْ
يَجْرِ بِالْحَمْدِ لِسَانُ الْحَامِدِ

وَلَوَ انَّ الْعَذْبَ أَبْدَى رَغْبَةً
عَنْهُ لَمْ يَشْفِ غَلِيلَ الْوَارِدِ[٣]

فَضْلُهُ مِثْلُ سَنَى الشَّمْسِ وَهَلْ
لِسَنَا الشَّمْسِ يُرَى مِنْ جَاحِدِ؟

---

(١) للصحب التى تخضع وذل وانقاد بعد صعوبة ، أصحبت الدابة : انقادت واسترسلت وتبعت صاحبها بعد جموح وشماس (٢) الحلية: الصفة والصورة ، والحلية مايتزين به من المعادن النفيسة أو الأحجار الكريمة وجمعها (حلى) (٣) مثله لابن سناء الملك :

وأظمأ إن أبدى لى الماء منة ولو كان لى نهر المجرة موردا

يصفه بالإباء والأنفة والشمم وعزة النفس

قَهَرَ ٱلْبَغْيَ بِجِدٍّ صَادِعٍ

مَا تَعَدَّاهُ وَجَـدٍّ صَاعِـدِ(١)

إِنَّمَا آلُ أَبِي حَفْصٍ هُـدًى

لِلْوَرَى مِنْ غَائِبٍ أَوْ شَاهِـدِ

قَعَدُوا فَوْقَ ٱلنُّجُومِ ٱلزُّهْرِ عَنْ

هِمَمٍ نَبَّهْنَ عَـزْمَ ٱلْقَاعِـدِ

وَعَنِ ٱلْإِسْـلَامِ ذَادُوا(٢) عِنْدَمَا

فَـلَّ طُولُ ٱلْعَهْدِ غَرْبَ ٱلذَّائِدِ

أَيُّ فَخْرٍ عُمَـرِيٌّ ٱلْمُنْتَمَى ،

وَرِثُوهُ مَاجِـدًا عَنْ مَاجِـدِ ؟

مَا ٱلْفُتُـوحُ ٱلْغُـرُّ إِلَّا لَهُمُ

بَيْنَ مَاضٍ بَادِئٍ أَوْ عَائِدِ

---

(١) الجِد (بالكسر) الاجتهاد في الأمر ، ونقيض الهزل ، والتحقيق ، والجَد (بالفتح) الحظ والبخت والحظوة والرزق والعظمة ، وقد يكون الأول في البيت محرفاً عن الحد (بالحاء المهملة) وهو البأس والنفاذ في النجدة ، والحدة ، والغضب وحد السيف (٢) ذادوا : دافعوا

فِي مُحَيًّا لَاحِقٍ مِنْ سَابِقٍ
وَعَلَى الْمَوْلُودِ سِيمَى الْوَالِدِ (١)

وَلِيَحْيَى رَاجِحُ الْحِلْمِ الَّذِي
تَرَكَ الطَّوْدَ بِعِطْفَيْ مَائِدِ (٢)

عِقْدُ أَحْسَابِهِمُ تَمَّ بِهِ
مِثْلَ مَا تَمَّ حِسَابُ الْعَاقِدِ (٣)

أَيُّهَا الْجَامِعُ مَا قَدْ أَحْرَزُوا
جَمْعَ مَنْ هِمَّتُهُ فِي الزَّائِدِ

هَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ أَوْسَعْتَهَا
نَظَرًا يَكْلَأُ (٤) لَيْلَ الرَّاقِدِ

---

(١) السيمى والسيماء: العلامة يعرف بها الخير والشر، يريد أنهم ورثوا أسلافهم في مآثرهم فسيماهم في وجوههم (٢) الطود: الجبل، والعطف: الجانب، مائد: مائل مضطرب، يريد أنه أرجح حلما من الجبال وأوقر وأثبت وأهدأ وأرزن، وأن الجبال تخف اذا قيست الى حلمه، وأنها تخشاه وتفزع منه (٣) عقد الحاسب: حسب وعد (٤) كلأه: حرسه وحفظه، وكلأ النجم متى يطلع اذا رعاه، ورجل كالوء العين أي ساهرها لأن الساهر يوصف برقبة النجوم، واكتلأت عيني: سهرت، وأكلأتها أسهرتها، يعني أنه تنبلها وسهر لخائفها وقديات ليلها نائما

لَمْ تَزَلْ مِنْكَ بِخَيْرٍ طَارِفٍ
رِيشُهُ نَالَ قُدَامَى[١] تَالِدِ

وَلَهُمْ مِنْكَ لِيَوْمٍ حَاضِرٍ
وَغَدٍ رَأْىُ الْبَصِيرِ النَّافِذِ

أَرْشَدَ اللّٰهُ لِأَوْلَى نَظَرٍ
بِالْوَرَى رَأْىَ الْإِمَامِ الرَّاشِدِ

وَتَوَلَّاهُ بِتَوْفِيقِ الْأُلَى
سَعِدُوا مِنْ عَاقِدٍ أَوْ عَاهِدٍ[٢]

---

(١) الطارف والطريف: الحديث ، وهو خلاف التالد والتليد ، ومن معانى الريش الخصب والخير والزينة وحسن الحال ، وراش فلانا : أعانه وقواه ، وارتاش فلان حسنت حاله. وقال جرير:

سأشكر ان رددت على ريشى   وأنبت القوادم فى جناحى

وقدامى جمع قديم ، والقدامى أيضا قوادم الطير وهى ريشات فى مقدم الجناح ، واحده قادمة ، واللواتى يدحن الى أسفل الجناح تسمى المناكب ، والخوافى ما بعد المناكب ، والأباهر من بعد الخوافى — يريد أن خيره لا ينبهم ولا ينقطع عنهم بل هو متوال مستمر ومتواتر متتابع فحديثه متصل بقديمه ، ولاحقه يقوى سابقه . اه «أحمد تجاتى»

(٢) عقد البيع والحبل والعهد: شده و وثقه ، وأصل العقد نقيض الحل ثم

وَلَهُ فِي اللهِ أَرْقَى كَافِلٍ
بِالَّذِي يَبْغِي وَأَكْفَى عَاضِدِ[١]

نَصَرَ اللهُ تَعَالَى مَوْلَانَا وَأَيَّدَهُ ، وَشَدَّ مُلْكَهُ وَشَيَّدَهُ ، وَأَبْقَى لِلْفَضْلِ أَيَّامَهُ ، وَلِلْفَصْلِ أَحْكَامَهُ ، وَأَظْفَرَ بِأَعْنَاقِ الْأَشْقِيَاءِ حُسَامَهُ ، وَوَفَّرَ مِنِ اتِّسَاقِ[٢] النِّعَمِ وَالْآلَاءِ حُظُوظَهُ وَأَقْسَامَهُ ، وَالْحَمْدُ لِلهِ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى أَنْ جَعَلَ بِهِ حَرَمَ الْأُمَّةِ آمِنًا ، وَوَهَجَ[٣] الْفِتْنَةِ سَاكِنًا ، وَأَبْوَابَ الصِّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ لَا تَعْرِفُ إِلَّا وَاصِلًا أَوْ آذِنًا ، وَتَلَافَى فَلَّ الْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفَيْئَاتِهِ[٤] الَّتِي مِنْهَا يَنْتَظِرُونَ الْكَرَّ[٥] ، وَبِهَا يُوعَدُونَ الْفَتْحَ الْأَعَزَّ[٦] وَالنَّصْرَ الْأَغَرَّ ، فَهُمْ بَيْنَ

استعمل فى أنواع العقود من البيوعات والعهود والمواثيق ونحوها ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم، وعقد العهد واليمين: أكده ، والعقد الضمان والعهد ، والعقدة الولاية على البلد والبيعة المعقودة لولاتهم . والعهد: الموثق واليمين وما يكتب للولاة (من عهد اليه اذا أوصاه) والعهد الحفاظ ورعاية الذمة والحرمة (١) عضده (كنصره) وعاضده : أعانه ونصره ، وقواه وساعده (٢) اتسق الشيء : انتظم وتتابع واجتمع وانضم بعضه الى بعض ، واتساق القمر : امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة البدر (٣) الوهج: الاتقاد والاشتعال ، ووهج الطيب: انتشاره وأريجه (٤) الفيء والفيئة العود والرجوع (٥) الحملة على العدو (٦) من قوله تعالى : «وينصرك الله نصرا عزيزا»

جِدَتِهِ(١) قَبَضُوهَا، وَعِدَةٍ رَضُوهَا. وَٱرْتِقَابٍ لِلْفَتْحِ أَكْبَرُ هَمِّهِمْ مِنْهُ دَرْكُ ٱلثَّارِ، وَٱنْتِصَافٌ لِأَهْلِ ٱلْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ ٱلنَّارِ. فَأَمَّا ٱلْأَوْطَانُ فَقَدْ أَسْلَتْهُمْ(٢) عَنْهَا جِهَةٌ تُنْبِتُ ٱلْعِزَّ فِيمَا تُنْبِتُهُ، وَتَنْفِي مِنَ ٱلضَّيْمِ(٣) مَا تَنْفِي تُثْبِتُهُ، وَمَا ذِكْرُ ٱلسَّاخِطِ، عَلَى ٱلْمَحَلِّ ٱلسَّاقِطِ، مَنَازِلَ عَادَتْ عَلَى مَبَانِيهَا أَطْلَالًا، وَمَغَانِيهَا(٤) إِغْلَالًا. وَلِلْعَبْدِ حَالٌ يَسْتَقْبِلُ بِهَا مِنَ ٱلنَّظَرِ ٱلْكَرِيمِ — أَدَامَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى — مَا أَعْيُنُ ٱلْآمَالِ إِلَيْهِ صُورٌ(٥)، وَرَجَاءُ ٱلْجَمِيعِ عَلَيْهِ مَقْصُورٌ. ٱنْتَهَى.

---

(١) الجدة: الغنى والثروة (وجد الشيء يجد فهو جديد) يريد أن للمسلمين من الأمير بين خير عاجل واصل اليهم قد نالوه وقبضوه، وبر آجل قد وعدوا به وعدا حقا قد وثقوا به ورضوه. «أحمد نجاتي» (٢) سلاه وسلا عنه سلوا وسلوانا: اذا نسيه وذهل عن ذكره، وأسلاه عنه فتسلى — والعبارة مأخوذة من قول أبي الطيب * وكل مكان ينبت العز طيب * (٣) الضيم: الظلم والجور — وضامه حقه: نقصه اياه (٤) المغنى: المنزل الذى غنى به أهله ثم ظعنوا عنه، وقد يطلق على كل منزل — وغنى بالمكان أقام به — ويظهر أن (على) فى (عادت مبانيها الخ) زائدة (٥) صور، جمع أصور، وصوراء، من صور (كفرح): مال واشتاق، قال الشاعر:

الله يعلم أنا فى تلفتنا ... يوم الفراق الى أحبابنا صور

وهو أصور الى كذا اذا أمال عنقه ووجهه اليه، قال:

فقلت لها غضى فانى الى التى ... تريدين أن أحبو بها غير أصور

***

كتاب آخر لأبي المطرف

وَالْغَايَةُ فِي هَذَا الْبَابِ، مَا كَتَبَ بِهِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مِنْ جُمْلَةِ كِتَابٍ لِبَعْضِ ذَوِي الْأَلْبَابِ، وَنَصُّ مَحَلِّ الْحَاجَةِ مِنْهُ: نَخُصُّ الْجِهَةَ الْبَعِيدَةَ الصِّيتِ وَالِاسْمِ، الشَّهِيرَةَ الْعَمَلِ وَالْعِلْمِ، دُرَّةَ تَاجِنَا، وَضَوْءَ سِرَاجِنَا، وَنُكْتَةَ[1] احْتِجَاجِنَا ـ أَبْقَاهَا اللهُ تَعَالَى فِي أَعْيُنِنَا مَنَارًا، وَلِأَنْدَلُسِنَا فَخَارًا ـ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ بَقِيَتِ الْمَفَاخِرُ، فَقَدْ أَوْدَى الْمُفَاخِرُ، وَإِنْ أَضَاءَ الطَّالِعُ، فَقَدْ دَرَجَتِ[2] الْمَطَالِعُ، وَغَلَبَ عَلَيْهَا عُدَاةٌ زَوَوْا عَنْهَا وُجُوهَنَا، وَأَرَوْا فِيهَا

(١) النكتة هي اللطيفة المؤثرة في القلب، وتطلق على المسائل الحاصلة بالنقل المؤثرة في النفس، وأصله من نكت الأرض بقضيب أو أصبعه حتى أثر فيها، فعل المفكر المهموم. ونكت فلان ينكت اذا فكر وحدث نفسه مهتما، فسميت بذلك لما يقارنها من نكت الأرض غالبا للتفكير والاهتمام. وقد تكون من نكت العظم اذا أخرج مخه. ونكت كنانته: نثرها وأخرج مافيها

(٢) درج القوم اذا انقرضوا، من درجت الثوب اذا طويته ـ وقد تكون (درجت) هنا محرفة عن (دجت) أي أظلمت بقرينة مقابلته بقوله في القرينة قبلها: وان أضاء الطالع، يريد أن الممدوح المفتخر به والمستضاء بنوره وان بقي سليما منير الطالع قد باد من يفتخر به وأظلم المكان المحتاج الى استمداد نوره، يعني أنه بقي الأندلس ويئس سوء حظ أهلها

مَكْرُوهَنَا ، حَتَّى إِنِّى أَتَيْتُ بِشِعْرٍ فِيهِ اسْتِسْقَاءٌ لِلدِّيَارِ ، عَلَى عَادَةِ ٱلْأَشْعَارِ ، فَقُلْتُ :

زِدْنَا عَلَى ٱلنَّائِينَ⁽¹⁾ عَنْ أَوْطَانِهِمْ
وَإِنِ ٱشْتَرَكْنَا فِى ٱلصَّبَابَةِ وَٱلْجَوَى
إِنَّا وَجَدْنَاهُمْ قَدِ ٱسْتَسْقَوْا لَهَا
مِنْ بَعْدِ أَنْ شَطَّتْ بِهِمْ عَنْهَا ٱلنَّوَى
وَيَصُدُّنَا عَنْ ذَاكَ فِى أَوْطَانِنَا
مَعْ حُبِّهَا ٱلشِّرْكُ ٱلَّذِى فِيهَا ثَوَى⁽²⁾
حَسْنَاءُ طَاعَتُهَا ٱسْتَقَامَتْ بَعْدَنَا
لِعَدُوِّنَا أَفَيَسْتَقِيمُ لَهَا ٱلْهَوَى ؟

« قُلْتُ » وَمَا رَأَيْتُ وَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ هَـٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ⁽³⁾ فِى مَعْنَاهَا ، ٱلْعَالِيَةِ فِى مَبْنَاهَا ، فَإِنَّ فِيهَا ٱلْإِشَارَةَ إِلَى ٱسْتِيلَاءِ ٱلنَّصَارَى ـ دَمَّرَهُمُ ٱللَّهُ ـ عَلَى تِلْكَ ٱلدِّيَارِ ،

---

(١) النائين : النازحين البعيدين (٢) أقام طويلا، وفى الشرك تورية يدل عليها البيت بعده (٣) قد يكون هنا كلمة ساقطة نحو . . الأبيات الشريفة أو العالية أو الأبيات (من الأباء) فى معناها لموازنة الفاصلتين فى السجع بل ترصيعهما كما ترى

وَثُبُوتِ قَدَمِهِمْ فِيهَا عَلَى طِبْقِ[(١)] مَا حَصَلَ لَهُمْ فِيهِ اخْتِيَارٌ ، مَعَ إِدْمَاجِ حُبُّهِ لَهَا الَّذِي لَا يُشَكُّ فِيهِ وَلَا يُرْتَابُ ، وَاشْتِمَالِهَا عَلَى الْمَحَاسِنِ الَّتِي هِيَ بُغْيَةُ الرَّائِدِ وَنُجْعَةُ[(٢)] الْمُنْتَابِ . وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَإِذَا نَفَذَ سَهْمُ الْمَقْدُورِ فَلَا عِتَابَ .

***

وَمِمَّا يَسْتَوْلِي عَلَى الْخَوَاطِرِ ، وَيُزْرِي رِيَاضَ الْأَفْكَارِ بِسُحُبِ بَلَاغَتِهِ الْمَوَاطِرِ ، قَوْلُهُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ يُخَاطِبُ أَبَا الْحَسَنِ[(٣)] الرُّعَيْنِيَّ ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ : مخاطبة الرعيني

يَا صَاحِبِي وَالدَّهْرُ لَوْلَا كَرُّهُ[(٤)]

مِنْهُ عَلَى حِفْظِ الذِّمَامِ ذَمِيمُ

أُمُنَازِعِي أَنْتَ الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ

مَا فِيهِ لَا لَغْوٌ[(٥)] وَلَا تَأْثِيمُ

---

(١) هذا الشيء طبقه (بسكون الباء وفتحها) وطباقه أى على وفقه ، وتطابق الشيئان: تساويا واتفقا (٢) النجعة: طلب الكلأ فى موضعه (٣) قوله «أبا الحسن» : فى نسخة أبا الحزم (٤) الكرة :العطف والعودة، والذمام: العهد والحرمة وما يذم من يفرط فيه (٥) اللغو : الكلام السقط الذى لايعتد به ولايحصل منه على فائدة ولا نفع . ونازعه الحديث : جاذبه اياه

وَمُرَوِّضٌ مَرْعَى مُنَاىَ فَنَبْتُهُ
مِنْ طُولِ إِخْلَافِ الْغُيُومِ هَشِيمُ(١)

طَالَ اُعْتِبَارِى بِالزَّمَانِ وَإِنَّمَا
دَاءُ اُلزَّمَانِ كَمَا عَلِمْتَ . قَدِيمُ

مَجْفُوُّ حَظٍّ لَا يُنَادَى ثُمَّ لَا
يَنْفَكُّ عَنْهُ اُلْحَذْفُ وَاُلتَّرْخِيمُ

وَأَرَى إِمَالَتَهُ تَدُومُ وَقَصْرَهُ
فَعَلَامَ يُلْغَى اُلْمَدُّ وَاُلتَّفْخِيمُ ؟

وَعَلَامَ أَدْعُو وَاُلْجَوَابُ كَأَنَّمَا
فِيهِ بِنَصٍّ قَدْ أَتَى اُلتَّحْرِيمُ ؟

لَمْ أَلْقَ إِلَّا مُقْعَدًا غَيْرَ اُلْأَسَى
فَلَدَىَّ مِنْهُ مُقْعِدٌ وَمُقِيمُ»(٢)

---

(١) هشيم : يابس متكسر، وروض السيل القراح جعله روضة ، وكذلك أراضه (٢) أقعده عن الأمر : عوقه وثبطه وحبسه، وقعد للأمر : اهتم به. ويقال : هم مقعد مقيم أي مقلق يضطرب معه الفكر ويحار العقل . ويقال أخذه المقيم المقعد . كان الخليفة الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس وزيره محمد بن عبد الملك الزيات الا قام له اجلالا ، فكان القاضي أحمد بن أبي دواد اذا رأى الوزير قادما قام واستقبل القبلة يصلي ، فقال ابن الزيات

وَشَرَابَيَ الْهَمُّ الْمُعَتَّقُ⁽¹⁾ خَالِصًا
فَمَتَى يُسَاعِدُنِي عَلَيْهِ نَدِيمُ ؟

ـ غَارَاتُ أَيَّامٍ عَلَيَّ جَوَارِحُ
قَعَدِيَّهَا فِي طَبْعِهِ التَّحْكِيمُ⁽²⁾

صلى الضحى لما استفاد عداوتى　　وأراه ينسك بعدها ويصوم
لاتعد من عداوة مسمومة　　تركتك تقعد تارة وتقوم

(١) الخمر المعتقة القديمة التى قد عتقت زمانا قال الأعشى :

وسبيئة مما تعتق بابل　　كدم الذبيح سلبتها جريالها

وعتقت الخمر : قدمت وحسنت : شبه همه الذى يغاديه ويراوحه ومنه صبوحه وغبوقه بخمر معتقة صرفة يكرع منها مايفيض عنه فتمنى أن يساعده عليه شريك معين أوصديق مؤاس . « أحمدشاكر »

(٢) القعد والقعدة قوم من الخوارج قعدوا عن نصرة على كرم الله وجهه وعن مقاتلته ، وهم يرون التحكيم حقا غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس فلا يمضون الى القتال وقعدوا عن الغزو ، ومن يرى رأى هؤلاء الخوارج الحرورية قعدى ـ وقال أبو نواس وقد نهى عن شرب الخمر ونفسه معلقة بها فهو لا يشربها كرها ويستحسن شربها لغيره مشبها نفسه بالذى يرى التحكيم وقد قعد عنه :

كبر حظى منها اذا هى دارت　　أن أراها وأن أشم النسيما
فكأنى وما أحسن منها　　قعدى يزين التحكيما
لم يطق حمله السلاح الى الحر　　ب فأوصى المطيق ألا يقيما

(٢ ـ نقد الطيب ـ ثالث)

وَلَوَاعِجٌ(١) يَحْتَاجُ صَالِي حَرِّهَا أَمْرًا بِهِ قَدْ خُصَّ إِبْرَاهِيمُ

وَلَقَدْ أَقُولُ لِصَاحِبٍ هُوَ بِالَّذِي
أَدْرَكْتُ مِنْ عِلْمِ الزَّمَانِ عَلِيمُ
لَا يَأْسَ مِنْ رَوْحِ(٢) الْإِلَهِ وَإِنْ قَسَتْ
يَوْمًا قُلُوبُ الْخَلْقِ فَهْوَ رَحِيمُ

***

رسالة أخرى لأبي المطرف

وَيَهُزُّنِي(٣) وَيَسْتَفِزُّنِي مَا كَتَبَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ رِسَالَةٍ:
كَتَبْتُهُ إِلَى سَيِّدِي وَهُوَ السَّيِّدُ حَقِيقَةً ، وَأَخِي وَقَدْ كَتَبَ الدَّهْرُ بِذَلِكَ وَثِيقَةً ، أَبْقَى اللَّهُ تَعَالَى جَلَالَهُ مَحْرُوسًا ، وَرَبْعَ وَفَائِهِ لَا يَخْشَى دُرُوسًا(٤) ، مِنْ رِبَاطِ

(١) لواعج ، جمع لاعج وهو الهوى المحرق والجوى المؤلم ، صالى حرها : المقاسى شدتها والمحترق بنارها — وهو يشير فى البيت الى قصة الخليل ابراهيم عليه السلام الذى جعل الله النار بردا وسلاما عليه .
(٢) الروح هنا الرحمة ، وأصله الراحة والسرور والفرح ، وسميت الرحمة روحا لأن الروح والراحة بها (٣) هزه: حركه ، وهز الحادى الابل اذا نشطها بحدائه فتحركت فى سيرها وخفت — وكل من خف لأمر وارتاح له فقد اهتز ، والهزة: الأريحية. يقال أخذته لذلك الأمر هزة أى أريحية وحركة طرب وسرور ، وتقول هو يهتز للمعروف ، وهز عطفيه لكذا وهز منكبيه اذا طرب بموسرة. واستفزه : استخفه وحركه (٤) دروسا: محوا وزوالا

ٱلْفَتْحِ (١) وَأَنَا بِحَقِّهِ عَلِيمٌ، وَعَلَى عَهْدِهِ مُقِيمٌ، وَشَأْنِي تَوْقِيرٌ لَهُ وَتَعْظِيمٌ، وَحُبٌّ فِيهِ خَالِصٌ كَرِيمٌ. وَوَصَلَنِي خِطَابُهُ ٱلْخَطِيرُ ٱلْمَبْرُورُ فَكُنْتُ بِهِ كَالصَّائِمِ رَأَى ٱلْهِلَالَ، وَٱلْهَائِمِ (٢) عَايَنَ مَاءَ ٱلزُّلَالِ. عِلْقٌ (٣) لَيْسَ يُوَازِيهِ عِلْقٌ، وَسِحْرٌ لَكِنَّهُ حَلَالٌ طِلْقٌ (٤)، وَنَظْمٌ لِذِكْرِ ٱلطَّائِيِّ (٥) طَاوٍ، وَصَنْعَةٌ لَمْ يَرَهَا وَلَمْ يَرْوِهَا رَاءٍ وَلَا رَاوٍ، رَمَتِ ٱبْنَ ٱلرُّومِيِّ بِٱلْخُمُولِ، وَبَشَرَتِ (٦) ٱسْمَ بَشَّارٍ مِنَ ٱلْفُحُولِ، وَحَكَمَتْ بِأَنَّ ٱلنَّمَرِيَّ فِي نَمِرَةِ (٧) ٱلْهَوَانِ مُدْرَجٌ وَٱلسَّرِيَّ (٨)

(١) رباط الفتح: مدينة قرب سلا على نهر بالقرب من البحر المحيط بناها الأمير المنصور يعقوب بن تاشفين على هيئة الاسكندرية (٢) الهائم: العطشان كالهيمان. والهيام أشد العطش (٣) العلق: الشيء النفيس يتعلق القلب به ويتنافس فيه، والعلق [بفتحتين) المحبة اللازمة للقلب والهوى الدائم (٤) الطلق الحلال المطلق الذي لا حظر عليه، وأعطيته من طلق مالي أي من صفوه وطيبه (٥) أي أبي تمام (٦) بشرت: محت، وأصله من بشر الجلد: قشر بشرته التي ينبت عليها الشعر، أو أن يأخذ باطنه ويزيله بشفرة (٧) النمرة: شملة فيها خطوط بيض وسود، وبردة مخططة من صوف تلبسها الأعراب كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من البياض والسواد. ومنصور النمري الشاعر العباسي المشهور. وأدرجه: لفه وطواه وأدخله (٨) السري الرفاء الموصلي (تقدمت ترجمته) : والسراوة. السرو والشرف

عَنْ سَرَاوَةِ ٱلْإِحْسَانِ مُخْرَجٌ . فَأَمَّا ٱلنَّثْرُ فَصَهِيلٌ[١] لَايُجَاوِبُهُ ٱلرُّغَاءُ ، وَطِرَازٌ لَا يُحْسِنُهُ ٱلْبُلَغَاءُ ، وَقَدْ تَرِمُمَّهُ ٱلنُّقُودُ ، وَمَدًى تَنْقَطِعُ دُونَهُ ٱلضُّمَّرُ[٢] ٱلْقُودُ[٣] ، غَادَرَ ٱلصَّابِيَ وَصَبَاهُ[٤] غَيْرُ ذَاتِ هُبُوبٍ ، وَٱلصَّاحِبَ وَهُوَ مِنَ ٱلْعَجْزِ مَعَ شَرٍّ مَصْحُوبٍ ، وَٱلْمِيكَالِيَّ[٥] وَمِيكَالُهُ مَرْفُوضٌ ، وَٱلْحَرِيرِيَّ

(١) الصهيل صوت الفرس والجواد ، والرغاء : صوت البعير والضبع والنعام وذوات الخف ، ورغا البعير اذا ضج ، ورغا الصبي رغاء : بكى أشد البكاء . وأرغاه :قهره وأذله وذلك لأن البعير لا يرغو الا عن ذل واستكانة (٢) جمع ضامر من الضمر وهو الهزال ولحاق البطن وضمر الخيل وأضمرها : أعلفها حتى تسمن ثم ردها الى القوت بعد السمن فاضطمرت وذلك فى أربعين يوما وهذه المدة تسمى المضمار ، أوتضميرها أن تشد عليها سروجها وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ويشتد لحمها وتحمل عليها غلمان خفاف يجرونها ولا يعنفون بها فاذا فعل ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ولم يقطعها الشد . والمضمر الذى يضمر خيله لغزو أو سباق (٣) القود: جمع أقود وهو الطويل العنق والظهر من الابل والدواب والشديد الصلب (٤) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق (٥) يريد أبا الفضل الميكالى وهو الأمير عبيد الله بن أحمد واسطة عقد آل ميكال من كبار الأدباء وفحول البلغاء الذين جمعوا بين جودة النظم والنثر . وآل ميكال من بيت قديم عريق فى الفضل ، وقد مدح أبو بكر بن دريد بمقصورته المشهورة الشاه ابن ميكال وولديه عبد الله بن محمد بن ميكال ووالده

وَحَرِيرُهُ فِي سُوقِ الْكَسَادِ(١) مَعْرُوضٌ ، فَأَمَّا بَحْرُ رَئِيسِ أَرَّجَانَ(٢) ، فَقَدِ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ، وَأَبْقَاهُ فِي ضَحْضَاحٍ(٣) ، بَلْ تَرَكَهُ يَمْشِي بِإِذْرَحَ(٤) ضَاحٍ ، فَمَنْ ذَا

اسمعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال بن عبدالواحد بن جبريل بن القاسم ابن بكر (الأديب شيخ خراسان، ووجهها توفى سنة ٣٦٢) وأبو محمد عبد الله بن اسمعيل الميكالى كان أوجه الوجوه بخراسان وآدبهم وأكفأ الرؤساء وأفضلهم ، وابنه أبو جعفر محمد بن عبد الله كان متقدما فى الأدب متبحرا فى اللغة . وعبد الرحمن بن أحمد بن على بن اسماعيل بن عبد الله ابن محمد بن ميكال كان أوحد خراسان فى عصره أدبا وفضلا وخلقا ونسبا توفى سنة ٤٣٦ (ارجع الى يتيمة الدهر الثعالبى) — وربما كانت كلمة (ميكاله) محرفة عن (مكياله) (١) كسدت السوق : وقفت حركتها وبارت تجارتها (٢) لعله يريد أبا الفضل ابن العميد الكاتب المعروف ، وقد ورد عليه أبو الطيب المتنبي وهو بأرجان ومدحه بقصائد ، احداها التى أولها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا … وبكاك ان لم يجر دمعك أوجرى

ومنها عند تخلصها

أرجان أيتها الجياد فانه … عزمى الذى يذر الوشيج مكسرا

(٣) الضحضاح : الماء اليسير يكون فى الغدير وغيره لاغرق فيه ولاله غمر. وماء ضحضاح قريب القعر ، وقليل رقيق جار على وجه الأرض

(٤) لعل [بأذرح] محرفة عن (بأجرد) فان الكاتب لما جعل بحر رئيس أرجان ضحضاحا بعد أن استخرج بموحه منه اللؤلؤ والمرجان أراد أن يترقى فى المبالغة وتجريد هذا الرئيس من بلاغته اذا قرن الى

يجارِى فارسَ الصفَّيْنِ ، وإمامَ الصنفَيْنِ ، أبلغَ مَنْ خطَّ بقلمٍ ، وأشهرَ مِنْ نارٍ عَلَى عَلَمٍ (١) ، ومَاذَا يقالُ فِي أنامِلَ تُطرِّزُ بهَا

للمعوح فيدا له أن ينقل البحر الى ضحضاح ثم الى أجرد ضاح . والأجرد: المكان الذى لا نبات فيه. وأرض جرداء كذلك متجردة عن النبات . والضاحى البارز للشمس لا تكاد تغيب عنه .وضحا الرجل ضحوا برز للشمس [ويعنى بأجرد ضاح) مأخوذ من بيت من قطعة الليلى بنت زيد بن الصعق ترثى ابنها قيس بن زياد بن أبى سفيان بن عوف ابن كعب . ونسبها أبو على القالى لفاطمة بنت الأحجم بن دندنة الخزاعية ترثى زوجها الجراح (وكان أبوها الأحجم بن دندنة أحد سادات العرب كان قد تزوج خالدة بنت هاشم بن عبد مناف وهى أم فاطمة هذه) وأول الأبيات :

ياعين جودى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح

ومنها :

قد كنت لى جبلا ألوذ بظله فتركتنى أضحى بأجرد ضاحى

وهى أحد عشر بيتا ، وتمثلت بها السيدة عائشة ، أو السيدة فاطمة رضى الله عنهما بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد كنت أظن أن التحريف عن (بأذرح ضياح) يقال لبن ذراح ومذرح ضياح أى مذق قد مزج بالماء كثيرا حتى غلب عليه الماء ، والضياح كذلك . كأنه يريد أن يترك رئيس أرجان و بضاعته مزجاة و بلاغته كاسدة . ولكن أرى التقرير الأول أنسب بالمعنى وأبلغ فى الوصول الى المراد ، اه « أحمد نجاتى » (١) العلم : الجبل

الْمُصْحَفُ ، وَخَمَائِلُ (١) ، تَفْخَرُ بِهَا الرَّوْضَةُ الْأُنُفُ (٢) ، وَأَسْمٍ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا ظَاهِرٍ ، وَوَسْمٍ بِالْكِتَابَةِ وَالنَّجَابَةِ لَمْ يَكُنْ لِبَنِي وَهْبٍ (٣) وَآلِ طَاهِرٍ ، فَالزَّمَانُ يَأْثُرُ (٤) مَا يَنْثُرُ ، وَيُعَظِّمُ ، مَا يَنْظِمُ ، وَلَوْ أَنَّ الْأَزْمِنَةَ قَبْلَهُ غَمَرَتِ الْمَحَاضِرَ بِكُلِّ نَاجِمٍ (٥) ، وَنُشِرَتِ الْمَقَابِرُ عَنِ الصَّنَوْبَرِيِّ (٦) وَكُشَاجِمَ (٧) ، وَجَاءَتْ بِالْكُتَّابِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ ، وَالشُّعَرَاءِ

---

(١) خمائل جمع خميلة : وهي الشجرة ذات الأغصان الكثيرة الملتفة
(٢) الأنف من الرياض : مالم يرعه أحد (٣) من الأسر العريقة في النباهة والأدب في العصر العباسي ، وفي بني وهب يقول ابن الرومي :

كل شعب كنتم به آل وهب   فهو شعبي وشعب كل أديب

(٤) أثر الحديث (كضرب ونصر) نقله ورواه وحدث به عن قائليه وأخبر به ، ومنه حديث مأثور أي يخبر الناس به بعضهم بعضا وينقله خلف عن سلف (٥) ناجم : ناشئ وثابت. ونجم نجوما : ظهر وطلع. ونجمت ناجمة بموضع كذا أي نبحت (٦) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الحلبي شاعر محسن أجاد في وصف الرياض والبساتين والمتنزهات ، وكان يسمى حبيبا الأصغر لجودة شعره توفي سنة ٣٣٤ (٧) هو الشاعر الأديب محمود بن الحسين من شعراء سيف الدولة بن حمدان توفي سنة ٣٥٠ وكان قد أقام بمصر مدة ثم فارقها ثم عاد اليها فقال :

قد كان شوقي الى مصر يؤرقني   فالآن عدت وعادت مصر لي دارا

(وكشاجم) قيل هو لفظ منحوت مركب من أوائل كلمات يتصف بها

رَعِيلًا(١) بَعْدَ رَعِيلٍ ، لَطَالَ(٢) هٰذَا ٱلْعَصْرُ بِوَاحِدِهِ آلَافَهَا وَأَنْسَى بِخلفِهِ أَسْلَافَهَا . ٱنْتَهَى

***

كتاب أبي المطرف إلى صاحبيه

وَكَتَبَ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى إِلَى صَاحِبَيْنِ لَهُ فِي مَعْنَى مَا أَلْمَمْنَا بِهِ آنِفًا مَا صُورَتُهُ :

تَحِيَّــةٌ مِنْــكُمَا أَتَتْنِي ... طَابَتْ كَمَا طَابَ مُرْسِلَاهَا

وَيَالَهَا أَذْكَرَتْ عُهُودًا ... قَلْبِيَ وَٱللّٰهِ مَا سَلَاهَا

حَلَلْتُمَا فِي ٱلْبِــلَادِ أَرْضًا ... رِيحَ صَبَاهَا عَنِّي سَلَاهَا

لَمْ يَصْبُ قَلْبِي(٣) إِلَى سِوَاهَا ... يَوْمًا وَلَمْ يَسَلْ عَنْ سَلَاهَا(٤)

كِتَابِي أَيُّهَا ٱلْأَخَوَانِ ٱللَّذَانِ بِوُدِّهِمَا أَقُولُ ، وَعَنْ عَهْدِهِمَا لَا أَحُولُ . أَنْزَلَكُمَا ٱللّٰهُ تَعَالَى خَيْرَ مَنْزِلٍ ، وَجَعَلَكُمَا

وهى كونه كاتبا شاعرا أديبا جميلا مغنيا . ومن شعره :

والدهر حرب للحيي ... وسلم ذي الوجه الوقاح

وعلى أن أسعى وليـ ... ـس على إدراك النجاح

(١) الرعيل : الجماعة المتقدمة والقطعة من الخيل أو الرجال وغيرهما
(٢) أى فاق وعلا (٣) لم يصب : لم يشتق ، وصبا إليه : حن ومال (٤) سلا في البيت الثاني من السلو ، وفي الثالث أمر للاثنين بالسؤال ، وفي الأخير اسم لمدينة (سلا) . « أحمد تجاني »

مِنَ ٱلنَّوائِبِ وَٱلشَّوائِبِ[١] بِمَعْزِلٍ ، - مِنْ رِباطِ ٱلْفَتْحِ - وَلُبِّي قَدِيمًا مَلَكْتُمَا رِقَّهُ ، وَقَلْبِي تَعَلُّمًا وَتَعْلِيمًا عَرَفْتُمَا صِدْقَهُ ، كَيْفَ حَالُكُمَا مِنْ سَفَرٍ طَوَيْتُمَا خَبَرَهُ ، حِينَ تَجَشَّمْتُمَا[٢] غَرَرَهُ ؟ . وَكَيْفَ سَمَحَتْ نُفُوسُكُمَا بِأُمِّ ٱلْحُصُونِ وَذَاتِ ٱلظِّلَالِ وَٱلْعُيُونِ ، تُرْبَةِ ٱلْآبَاءِ ، وَمَنْزِلَةِ ٱلْجَمْحِيِّينَ ٱلنُّجَبَاءِ ، حَتَّى صَرَمْتُمَا[٣] حَبْلَهَا ، وَهَجَرْتُمَا حَزْنَهَا[٤] وَسَهْلَهَا ، وَخُضْتُمَا غُبْرَ ٱلْفِجَاجِ[٥] ، وَخُضْرَ ٱلْأَمْوَاجِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِتَغَلُّبِ ٱلْحَادِثِ ٱلنُّكْرِ[٦] ، وَتَأَلُّبِ ٱلْمَعْشَرِ ٱلْغُدُرِ ، وَمِنْ أَجْلِ ٱلدَّاهِيَةِ ٱلنَّكَادِ[٧] وَٱلْحَادِثَةِ ٱلشَّنِيعَةِ عَلَى ٱلْبِلَادِ ،

---

(١) الشوائب : العيوب والأدناس وما يكدر الصفو (٢) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة (٣) صرمتما : قطعتما (٤) حزنها : الحزن ماغلظ من الأرض فى ارتفاع ضد السهل (٥) الفجاج جمع فج وهو : الطريق الواسع الواضح بين جبلين . وغبر : جمع أغبر (٦) أمر نكر (بضم الكاف وسكونها) : شديد منكر ، وغدر جمع غدور من الغدر (ضد الوفاء) وهو نقض العهد وتضييعه (٧) النكاد : العسيرة الشديدة ويظهر أنها محرفة عن النآد ، الداهية العظيمة ، قال الكميت :

فإياكم وداهية نآدا أظلتكم بعارضها المخيل

(نعت به الداهية ، وقد يكون بدلا) وقال آخر :

أتانى أن داهية نآدا أتاك بها على سخط مبون

ونأدت الداهية فلانا : دهته وفدحته و بلغت منه

أَزْعَجْتُكُمْ حِينَ أَزْعَجَتْنَا ، وَأَخْرَجَتْكُمْ كَمَا أَخْرَجَتْنَا ، وَطَوَّحَتْ بِنَا طَوَائِحُهَا ، وَأَجْتَاحَتْ[1] ثَمَرَنَا وَشَجَرَنَا جَوَائِحُهَا[2] ، فَشُكْرًا لِلهِ تَعَالَى عَلَى قَضَائِهِ ، وَتَضَرُّعًا فِيمَا نَرْفَعُهُ مِنْ دُعَائِهِ ، وَهَنِيئًا لَنَا وَلَكُمْ مَعْشَرَ الشُّرَدَاءِ ، الْمُنْطَوِينَ مِنَ الشَّجَنِ[3] عَلَى شَرِّ دَاءٍ ، ذَلِكَ الطَّوْدُ الَّذِي إِلَيْهِ أَوَيْنَا ، وَفِي ظِلِّهِ ثَوَيْنَا ، وَعَنْ رَأْيِهِ تَرَيَانِ ، وَبِسَعْيِهِ تَسْعَيَانِ ، فَوَجْهُهُ الْمُبَارَكُ لَا يَعْدَمُ رَائِيهِ[4] نُجْحًا ، وَلَا يَعْدُو لِصُبْحِهِ إِذَا دَجَا لَيْلُ الْهَمِّ صُبْحًا . انتهى .

(١) اجتاحت : استأصلت وأهلكت (٢) جوائح : جمع جائحة وهى الداهية والبلية . وطوحت به الطوائح : ذهبت به كل مذهب ، وقذفته فى كل مهلكة (٣) الشجن : الهم والحزن (٤) يظهر أنها محرفة عن رائيه

***

ترجمة ابن المطرف

وَكَانَ أَبُو ٱلْمُطَرِّفِ بْنُ عُمَيْرَةَ* ٱلْمَذْكُورُ ـ كَمَا قَالَ فِيهِ بَعْضُ عُلَمَاءِ ٱلْمَغْرِبِ ـ قُدْوَةَ ٱلْبُلَغَاءِ، وَعُمْدَةَ ٱلْعُلَمَاءِ، وَصَدْرَ ٱلْجِلَّةِ ٱلْفُضَلَاءِ، وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ[1] بْنِ عُمَيْرَةَ ٱلْمَخْزُومِيُّ، وَنُكْتَةُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي قَدْ أَحْرَزَهَا وَأَوْدَعَهَا، وَشَمْسُهَا ٱلَّتِي أَخْفَتْ ثَوَاقِبَ[2] كَوَاكِبِهَا حِينَ أَبْدَعَهَا

(١) ابن محمد بن الحسن بن عميرة (٢) ثواقب كواكبها : نجومها المضيئة التى تثقب الظلام وتخترقه وتنفذ فيه . وفى ضمير كواكبها استخدام

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٧٧ ج ثالث بما يأتى : « الكاتب أبو المطرف أحمد بن عميرة » هو الآن عظيم الأندلس فى الكتابة ، وفى فنون من العلوم » وقد كتب عن زيان بن مردنيش ملك بلنسية ، وأخبرنى أبو عبد الله بن الأبار البلنسى ان زيان بن مردنيش أحضر يوما سجاما ، ثم أخرج له جائزة ، ودفع اليه أبو المطرف شعرا فلم يجزه فكتب اليه :

أرى من جاء بالموسى مواسى ... وراحة من أراح اللفح صفرا
فأنجح سعى ذا اذ قص شعرا ... وأخفق سعى ذا إذ قص شعرا

فأمر له باحسان .

وقد ترجم له أيضا لسان الدين بن الخطيب فى كتاب الاحاطة « ج ١ ص ٦٠ »

مُبْدِعُ ٱلْبَدَائِعِ ٱلَّتِي لَمْ يَحْظَ بِهَا قَبْلَهُ إِنْسَانٌ ، وَلَا يَنْطِقُ[1] عَنْ تِلَاوَتِهَا لِسَانٌ ، إِذْ كَانَ يَنْطِقُ عَنْ قَرِيحَةٍ صَحِيحَةٍ ، وَرَوِيَّةٍ بِدُرَرِ[2] ٱلْعِلْمِ فَصِيحَةٍ ، ذَلَّتْ لَهُ صَعْبُ ٱلْكَلَامِ ، وَصَدَّقَتْ رُؤْيَاهُ حِينَ وَضَعَ سَيِّدُ ٱلْمُرْسَلِينَ ـ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهُوَ ٱلَّذِي أُوتِيَ جَوَامِعَ ٱلْكَلِمِ ـ فِي يَدَيْهِ ٱلْأَقْلَامَ . وَأَصْلُ سَلَفِهِ مِنْ جَزِيرَةِ شَقْرَ ، وَوُلِدَ بِمَدِينَةِ بَلَنْسِيَةَ ، وَرَوَى عَنْ أَبِي ٱلْخَطَّابِ بْنِ وَاجِبٍ وَأَبِي ٱلرَّبِيعِ بْنِ سَالِمٍ وَٱبْنِ نُوحٍ وَٱلشَّلَوْبِينِ ٱلنَّحْوِيِّ وَٱبْنِ عَاتٍ وَٱبْنِ حَوْطِ ٱللّٰهِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْحُفَّاظِ . وَأَجَازَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ جَمَاعَةٌ ، وَكَانَ شَدِيدَ ٱلْعِنَايَةِ بِشَأْنِ ٱلرِّوَايَةِ فَأَكْثَرَ مِنْ سَمَاعِ ٱلْأَحَادِيثِ وَأَخْذِهِ عَنْ مَشَايِخِ أَهْلِهِ ، ثُمَّ تَفَنَّنَ فِي ٱلْعُلُومِ ، وَنَظَرَ فِي ٱلْمَعْقُولَاتِ

---

(١) قد تكون (ينطلق) (٢) يجوز أيضا أن تكون (بدرر) بكسر الدال جمع درة وهى كثرة اللبن وسيلانه ، ودر اللبن يدر : كثر وأقبل منه على الحالب شئ غزير : ومن المجاز : أدرالله لك أخلاف الرزق ، واستدر نعمة الله بالشكر — وفى حديث مأثور : استدروا الهدايا برد الظروف . ودرت الدنيا على أهلها اذا كثر خيرها وعم خصبها .

وَأُصُولِ الْفِقْهِ ، وَمَالَ إِلَى الْأَدَبِ فَبَرَعَ بَرَاعَةً عُدَّ فِيهَا مِنْ مُجِيدِي النَّظْمِ . فَأَمَّا الْكِتَابَةُ فَهُوَ فَارِسُهَا الَّذِي لَا يُجَارَى ، وَصَاحِبُ[١] عَيْنِهَا الَّذِي لَا يُبَارَى ، وَلَهُ وَعْظٌ عَلَى طَرِيقَةِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ[٢] ، وَرَسَائِلُ خَاطَبَ بِهَا الْمُلُوكَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْحَفْصِيِّينَ . وَلَهُ تَأْلِيفٌ فِي كَائِنَةِ مَيُورْقَةَ وَتَغَلُّبِ الرُّومِ عَلَيْهَا نَحَا فِي الْخَبَرِ عَنْهَا مَنْحَى الْإِمَامِ الْأَصْبَهَانِيِّ فِي الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ ، وَلَهُ كِتَابٌ تَعَقَّبَ فِيهِ عَلَى الْفَخْرِ الرَّازِيِّ فِي كِتَابِ الْمَعَالِمِ ، وَلَهُ كِتَابٌ رَدَّ بِهِ عَلَى كَمَالِ الدِّينِ الْأَنْصَارِيِّ[٣] فِي كِتَابِهِ

---

(١) لعله يشير الى الخليل بن أحمد مؤلف العين فى اللغة (يعنى أن للترجم مبتكر فى الكتابة نابغة ، هو فيها بمنزلة الخليل فى اللغة أول من ضبطها وحصر كلماتها وألف فيها معجما غريب الترتيب دقيق النظام (٢) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ينتهى نسبه الى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . كان علامة عصره وامام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ ، وصنف فى فنون جمة تآليف ممتعة وكانت له فى مجالس الوعظ أجوبة نادرة لطيفة تدل على قوة ذهن وحدة ذكاء وتوفى ببغداد سنة ٥٩٧ وتوفى والده سنة ٥١٤ (٣) هو أبو محمد عبد الكريم السماكى . «أحمد نجاتى»

ٱلْمُسَمَّى بِالتِّبْيَانِ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ٱلْمُطْلِعِ عَلَى إِعْجَازِ ٱلْقُرْآنِ ، وَسَمَّاهُ بِالتَّنْبِيهَاتِ عَلَى مَا فِي ٱلْبَيَانِ مِنَ ٱلتَّمْوِيهَاتِ ، وَلَهُ ٱخْتِصَارٌ نَبِيلٌ مِنْ تَارِيخِ ٱبْنِ صَاحِبِ ٱلصَّلَاةِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ .

***

عليه أبي المطرف في المناصب

وَرَدَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - حَضْرَةَ ٱلْإِمَامَةِ مَرَّاكُشَ صُحْبَةَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلرَّشِيدِ حِينَ قُفُولِهِ مِنْ مَدِينَةِ سَلَا ، وَٱسْتَكْتَبَهُ مُدَّةً يَسِيرَةً ، ثُمَّ صَرَفَهُ عَنِ ٱلْكِتَابَةِ وَقَلَّدَهُ قَضَاءَ هَيْلَانَةَ ، ثُمَّ نَقَلَهُ إِلَى قَضَاءِ سَلَا ، ثُمَّ نَقَلَهُ ٱلسَّعِيدُ إِلَى قَضَاءِ مِكْنَاسَةِ ٱلزَّيْتُونِ ، ثُمَّ قَصَدَ سَبْتَةَ ، وَأَخَذَ مَالَهُ فِي قَافِلَةِ بَنِي مَرِينٍ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ إِفْرِيقِيَّةَ ، وَوَصَفَ حَالَهُ فِي رِسَالَةٍ خَاطَبَ بِهَا ٱبْنَ ٱلسُّلْطَانِ أَبَا زَكَرِيَّا ٱلْحَفْصِيَّ ، وَهُوَ أَبُو زَكَرِيَّا ٱبْنُ ٱلسُّلْطَانِ أَبِي زَكَرِيَّا ، وَكَانَ صَاحِبَ بِجَايَةَ[1] لِأَبِيهِ . وَلَمْ يَزَلْ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى - مُذْ فَارَقَ ٱلْأَنْدَلُسَ مُتَطَلِّعًا لِسُكْنَى إِفْرِيقِيَّةَ

(١) مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب ، وأول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين الصنهاجي في حدود سنة ٤٥٧ ، وكانت قاعدة ملك بني حماد ، وتسمى الناصرية أيضا باسم بانيها

مَمْنُورَ الْقَلْبِ بِسُكْنَاهَا ، وَلَمَّا قَدِمَ تُونُسَ مَالَ إِلَى صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ وَالزُّهَّادِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ نُزْهَةً مِنَ الزَّمَانِ ، ثُمَّ اسْتُقْضِيَ بِالْأُرْبُسِ[1] مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ ، ثُمَّ بِقَابِسَ مُدَّةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ الْحَفْصِيُّ وَأَحْضَرَهُ مَجَالِسَ أُنْسِهِ ، وَدَاخَلَهُ مُدَاخَلَةً شَدِيدَةً حَتَّى تَغَلَّبَ عَلَى أَكْثَرِ أَمْرِهِ . وَمَوْلِدُهُ بِجَزَائِرِ شُقْرَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعَظَّمِ ، سَنَةَ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَتُوُفِّيَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ الْمُوفِيَةِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . أَلْحَقَهُ اللهُ رِضْوَانَهُ ، وَجَدَّدَ عَلَيْهِ غُفْرَانَهُ .

***

قَالَ ابْنُ الْأَبَّارِ فِي تُحْفَةِ الْقَادِمِ ، فِي حَقِّ أَبِي الْمُطَرِّفِ الْمَذْكُورِ : فَائِدَةُ هٰذِهِ الْمِائَةِ ، وَالْوَاحِدُ يَفِي بِالْفِئَةِ ، الَّذِي اعْتَرَفَ بِانْتِحَادِهِ[2] الْجَمِيعُ ، وَاتَّصَفَ بِالْإِبْدَاعِ فَمَاذَا يَتَّصِفُ بِهِ الْبَدِيعُ[3] ؟ ، وَمَعَاذَ اللهِ أَنْ أُحَابِيَهُ[4] بِالتَّقْدِيمِ ، لِمَا لَهُ مِنْ حَقِّ التَّسْلِيمِ ، كَيْفَ وَسَبْقُهُ الْأَشْهَرُ ، وَنُطْقُهُ الْيَاقُوتُ — وصف ابن الابار لأبي المطرف

(١) أظنها الأربس Al-orbos (٢) أي بتوحده وانفراده (٣) يريد البديع الهمذاني (٤) أن أحابيه : أن أختصه دون سواه . وحاباه : نصره واختصه ومال إليه

وَالْجَوْهَرُ ، تَحَلَّتْ بِهِ الصَّحَائِفُ وَالْمَهَارِقُ ، وَمَا تَخَلَّتْ عَنْهُ الْمَغَارِبُ وَالْمَشَارِقُ ، فَحَسْبِي أَنْ أَجْهَدَ فِي أَوْصَافِهِ ، ثُمَّ أَشْهَدَ بِعَدَمِ إِنْصَافِهِ ، هَـذَا عَلَى تَنَاوُلِ الْخُصُوصِ وَالْعُمُومِ لِذِكْرِهِ ، وَتَنَاوُبِ الْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ عَلَى شُكْرِهِ. ثُمَّ أَوْرَدَ لَهُ جُمْلَةً مِنْهَا قَوْلُهُ :

وَأَجَلْتُ فِكْرِي فِي وُشَاحِكِ[1] فَانْثَنَى
شَوْقًا إِلَيْكِ يَجُولُ فِي جَوَّالِ[2]
أَنْصَفْتِ غُصْنَ الْبَانِ إِذْ لَمْ تَدْعِهِ
لِتَأَوُّدٍ[3] مَعَ عِطْفِكِ الْمَيَّالِ
وَرَحِمْتِ دُرَّ الْعِقْدِ حِينَ ضَمَمْتِهِ
مُتَوَارِيًا عَنْ ثَغْرِكِ الْمُتَلَالِي

(١) الوشاح بضم الواو وكسرها: نسيج عريض مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها (٢) يصفها بنحافة الخصر وضمور البطن والهيف = وكان القياس (لم تدعيه) ان كان الخطاب لمؤنث وهو الظاهر أو لعله خاطب (شخص) المحبوبة، ومثله قول الشاعر :

نامت خلاخلها وجال وشاحها ... وجرى الوشاح على كثيب أهيل
فاستيقظت منه قلائدها التي ... عقدت على جيد الغزال الأكحل

(٣) تأود : انعطف وانحنى وتثنى وتمايل

كَيْفَ اللِّقَاءُ وَفَضْلُ وَعْدِكِ سِينُهُ
أَبَدًا تُخَلِّصُهُ لِلِاسْتِقْبَالِ ؟ ؟

وَكُمَاةُ(١) قَوْمِكِ نَارُهُمْ وَوَقِيدُهَا
لِلطَّارِقِينَ أَسِنَّةٌ وَعَوَالِي(٢)

وَلَهُ مِمَّا يُكْتَبُ عَلَى قَوْسٍ قَوْلُهُ :

مَا أَنْآدَ(٣) مُعْتَقِلُ الْقَنَا إِلَّا لِأَنْ
يَحْكِي تَأَطُّرَ قَامَتِي الْعَوْجَاءِ

تَحْنُو الضُّلُوعُ عَلَى الْقُلُوبِ وَإِنَّنِي
ضِلَعٌ ثَوَى فِيهَا بِأَعْضَلِ دَاءِ(٤)

وَلَهُ وَقَدْ أَهْدَى وَرْدًا :

(١) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع يتكمى فى سلاحه : أى يستتر ويتغطى (٢) عوالى : جمع عالية وهو أعلى القناة ورأسها . وخير من هذا البيت فى معناه قول الشاعر :

متى تزر قوم من تهوى زيارتها ... لايتحفوك بغير البيض والأسل

(٣) انآد (انفعل من الأود وهو العوج والانحناء) وآد العود يئوده فانآد أى انثنى واعوج مثل تأود . والأطر عطف الشىء تقبض على أحد طرفيه فتعوجه ، وأطره يأطره فتأطر : عطفه فانعطف كالعود تراه مستديرا اذا جمعت بين طرفيه. وفى البيت حسن تعليل على ما فيه (٤) أعضل داء : داء مستحكم لادواء له وهو الموت

خُذْهَا إِلَيْكَ أَبَا عَبْدِ ٱلْإِلٰهِ فَقَدْ
جَاءَتْكَ مِثْلَ خُدُودٍ زَانَهَا ٱلْخَفَرُ(١)
أَتَتْكَ تَحْكِي سَجَايَا مِنْكَ قَدْ عَذُبَتْ
لَـٰكِنْ تَمَيَّزُ هٰذَا دُونَهُ ٱلْغِيَرُ(٢)
إِنْ شِمْتَ(٣) مِنْهَا بُرُوقَ ٱلْغَيْثِ لَامِعَةً
فَسَوْفَ يَأْتِيكَ مِنْ مَاءٍ لَهَا مَطَرُ

***

كتاب أبي المطرف في الهدية

قَالَ: وَكَتَبَ إِلَيَّ مَعَ تُحْفَةٍ أَهْدَاهَا مُكَافِئًا عَنْ مِثْلِهَا:
يَا وَاحِدَ ٱلْأَدَبِ ٱلَّذِي قَدْ زَانَهُ
بِمَنَاقِبٍ جَمَلَتْهُ فَارِسَ مَنْصِبِهْ
بِالْفَضْلِ فِي ٱلْهِبَةِ ٱبْتَدَأْتَ فَإِنْ تُمِرْ
طَرْفًا ٱلْقَبُولِ لِمَا وَهَبْتَ خَتَمْتَ بِهْ

***

كتابه في الجمامة

قَالَ: وَلَهُ ٱرْتِجَالًا بِقَصْرِ ٱلْإِمَارَةِ مِنْ بَلَنْسِيَةَ، وَأَنَا حَاضِرٌ

---

(١) الخفر شدة الحياء (٢) غير الدهر: أحداثه وأحواله المتغيرة ــ يريد أن يفضل سجايا الممدوح وشمائله على رقة الورد ولطفه (٣) شمت البرق: نظرت الى سحابته أين تمطر

فِي صَبِيحَةِ بَعْضِ ٱلْجُمَعِ ، وَقَدْ حُجِمَ صَاحِبٌ لَنَا مِنْ أَهْلِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ، وَأَحْسَنَ إِلَى ٱلْحَجَّامِ بِالْخُصُوصِ :

أَرَى مَنْ جَاءَ بِالْمُوسَى مُوَاسِي
وَرَاحَةً[(١)] ذِي ٱلْقَرِيضِ تَعُودُ صِفْرَا
فَهَذَا مُخْفِقٌ إِنْ قَصَّ شِعْرًا
وَهَذَا مُنْجِحٌ إِنْ قَصَّ شَعْرًا[(٢)]

***

وَلَهُ أَيْضًا :

هُوَ مَا عَلِمْتَ مِنَ ٱلْأَمِيرِ فَمَا ٱلَّذِي ... تَزْدَادُ مِنْهُ وَفِيهِ لَا يُرْتَابُ — كتابه فى السخاء
لَا تَتَّقِي ٱلْأَجْنَادُ فِي أَيَّامِهِ ... فَقْرًا وَلَا يَرْجُو ٱلْغِنَى ٱلْكُتَّابُ

***

وَلَهُ بَعْدَ ٱنْفِصَالِهِ مِنْ بَلَنْسِيَةَ عَنْ وَحْشَةٍ فِي ذِي ٱلْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ : — كتابه فى مدح أميرين

أَسِيرُ بِأَرْجَاءِ ٱلرَّجَاءِ وَإِنَّمَا ... حَدِيثُ طَرِيقِي طَارِقُ ٱلْحَدَثَانِ[(٣)]

---

(١) راحة : أى يد ، وصفرا : أى خالية (٢) قص : الأولى من القصص ، وهو التحديث ، والثانية من القص أى القطع بالمقص — و بينهما جناس لفظى وكذا بين الشِّعر والشَّعر (٣) الحدثان : الليل والنهار

وَأُخْضِرُ نَفْسِي إِنْ تَقَدَّمْتُ خِيفَةً
لِعَضِّ[١] عِنَانٍ أَوْ لِعَضِّ زَمَانِ
أَيُتْرَكُ حَظِّي لِلْحَضِيضِ[٢] وَقَدْ سَرَى
لِإِمْكَانِهِ فَوْقَ الذُّرَا[٣] جَبَلَانِ ؟
وَأَخْبِطُ[٤] فِي لَيْلِ الْحَوَادِثِ بَعْدَمَا
أَضَاءَ لِعَيْنِي مِنْهُمَا الْقَمَرَانِ ؟
فَيَحْيَى لِآمَالِي حَيَاةٌ مُعَادَةٌ
وَإِنَّ عَزِيزًا عِزَّةٌ[٥] لِمَكَانِي
وَقَالُوا اقْتَرِحْ إِنَّ الْأَمَانِيَّ مِنْهُمَا
وَإِنْ كُنَّ فَوْقَ النَّجْمِ تَحْتَ ضَمَانِ
فَقُلْتُ إِذَا نَاجَاهُمَا بِقَضِيَّتِي   ضَمِيرِي لَمْ أَحْفِلْ بِشَرْحِ لِسَانِي

(١) (عض العنان) عض من عنان فرسه صو به وغض من غر به وحدته وعض الزمان : اشتداده وكلبه (٢) الحضيض : القرار من الأرض (٣) الذرا جمع ذروة وهو أعلى الجبل وقته (٤) أخبط : أسير على غير هدى (٥) في الأصل عزه ، وأرى أن (يحيي) أول البيت اسم لأحد الممدوحين ، وعزيزا في عجز البيت اسم للممدوح الآخر جعله عزة لمكانه كما جعل يحيي حياة له معادة ، فالبيت هكذا :

فيحيي لآمالي .... وان عزيزا عزة الخ

وأكثر أبيات القطعة ناطقة أنه يمدح أميرين ، وأحدهما الأمير يحيي قد تقدم مدحه له في غير موضع . «أحمد تجاني»

***

وَلَهُ أَيْضًا :

سَلَبَ ٱلْكَرَى[1] مِنْ مُقْلَتِي فَلَمْ يَجِئْ — رسالة أخرى

مِنْهُ عَلَى نَأْيٍ خَيَالٌ يَطْرُقُ

أَهْفُو[2] ٱرْتِيَاحًا لِلنَّسِيمِ إِذَا سَرَى

إِنَّ ٱلْغَرِيقَ بِمَا يَرَى يَتَعَلَّقُ

انْتَهَى مَا تَلَخَّصَ مِنْ تُحْفَةِ ٱلْقَادِمِ فِي ذِكْرِ ٱبْنِ عُمَيْرَةَ أَبِي ٱلْمُطَرِّفِ .

***

كتاب الاشارة إلى الكفار الغالبين

وَمِمَّا كَتَبَ أَبُو ٱلْمُطَرِّفِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ « وَفِي أَثْنَائِهِ إِشَارَةٌ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ٱلْغَالِبِينَ عَلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ » مَا نَصُّهُ :

أَلَا إِنَّ شَخْصَيْنَا عَلَى ٱلْقَطْعِ وَاحِدٌ

وَجَاحِدُ هَذَا لِلضَّرُورَةِ جَاحِدُ

فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقْ مَا نَطَقْتُ بِصِدْقِهِ

فَإِنَّكَ لِي لَاحٍ[3] وَلِلْوُدِّ لَاحِدُ

---

(١) الكرى : النوم ، والمقلة العين (٢) هفا الفؤاد ذهب في اثر الشيء وطرب ومال (٣) لاح : عائب . ولاحد : منكر جاحد

وَمَعَاذَ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَلْحَانِي ، أَوْ تَمْنَعَ أَنْفَكَ رِيحَ رَيْحَانِي ، وَكَيْفَ تَصُدُّ عَنِّي بِوَجْهِكَ ، أَوْ تَشْحَذُ لِي[١] غَرْبَ نَجْهِكَ ، وَأَنَا عَلَى غَيْبِكَ أَمِينٌ ، وَلِشِمَالِكَ يَمِينٌ ؟ وَلَكَمْ دَعَوْتَ بِي فَأَجَبْتُ ، وَٱسْتَغْنَيْتَ عَنِّي فَحُجِبْتُ ، وَأَرَدْتَ ٱلِاسْتِبْدَادَ فَمَا ٱسْتَطَعْتَ ، وَنَمَتَّ ٱلْوِدَادَ فَمَا أَحْسَنْتَ ٱلنَّمْتَ ، وَإِنَّمَا تُحْمَدُ فَرَاهَةُ ٱلْأَعْوَجِيِّ[٢] إِنْ جَرَى ، وَتُذْكَرُ فَضِيلَةُ ٱبْنِ ٱلسَّرِيِّ[٣] إِذَا سَرَا ، فَأَمَّا ٱلِاقْتِصَارُ عَلَى عِظَمِ يَدٍ ، وَٱلِانْتِظَارُ لِمَيْنٍ عَدِمَتِ ٱلسَّوَادَ ، فَخَطَأٌ

(١) تشحذلى غرب نجهك: غرب السيف حده ، والنجه استقبالك الرجل بما يكره وردك اياه عن حاجته أقبح رد قال الشاعر :

حياك ربك أيها الوجه ولغيرك البغضاء والنجه

ونجهه رده وانتهره وزجره وردعه واستقبله بما يكفه عنه فينقدع عنه أى ينكف ، ويجوز (فحجبت) بالبناء للمعلوم (٢) فراهة : حذق ومهارة ونشاط . والأعوجية منسوبة الى جواد كريم كان يقال له أعوج ، ويقال هذا الحصان من بنات أعوج ، وكان أعوج لبنى هلال بن عامر ، وكان أولا لكندة فأخذته بنو سليم فى بعض أيامهم ثم صار الى بنى هلال ، وليس فى العرب فحل أشهر منه ولا أكثر نسلا (٣) أى الشريف ، وسرا : شرف وقد تكون (الانتظار) محرفة عن (الانتصار) ، ألم بالبيت :

ان السرى هو السرى بنفسه وابن السرى اذا سرا أسراهما

مِنَ ٱلْقَائِلِ ، وَخَطَلٌ عِنْدَ ٱلْعَاقِلِ(١) ، وَلِلّٰهِ دَرُّ أَخِيكَ مِنْ مُغْمِضٍ طَرْفَ ٱلتَّطَرُّفِ(٢) ، قَارِىءٍ أَدَبَ ٱلصُّحْبَةِ عَلَى ٱلسَّبْعَةِ ٱلْأَحْرُفِ ؛ كَرَعَ فِي أَعَزِّ مَوْرِدٍ ، وَتَوَاضَعَ فِي شَرَفِ مَوْلِدٍ ، وَسَمَا بِنَفْسِهِ عَنْ أَنْ يَسْتَخِفَّهُ نَسَبٌ يَرْفَعُهُ ، وَحَسَبُ مَا مِنَّا أَحَدٌ يَدْفَعُهُ ، وَكَذَلِكَ ٱلْكِرَامُ يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ حَقًّا ، وَيَتَوَقَّوْنَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكِبْرِ مُوَقًّى ، وَلَمَهْدِى بِهِ وَظِلُّ ٱلثَّرْوَةِ بَارِدٌ ، وَشَيْطَانُ ٱلشَّبِيبَةِ مَارِدٌ ، وَبِشْرُهُ فِي ٱلْمُلِمَّاتِ يَرِفُّ(٣) ، وَقَدَمُهُ إِلَى ٱلْحَاجَاتِ تَخِفُّ ، يَصُونُ عِرْضَهُ بِمَالِهِ ، وَيُخْفِي صَدَقَةَ يَمِينِهِ عَنْ شِمَالِهِ ، وَيَقْسِمُ

(١) فى معناه :

لسنا وان أحسابنا كرمت ... يوما على الأحساب نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثل مافعلوا

(٢) رجل متطرف ومستطرف لايثبت على حال ، وتطرف على القوم أغار وطرفه عنه يطرفه اذا صرفه ورده ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

انك والله لذو ملة ... يطرفك الأدنى عن الأقدم

يقول يصرف بصرك عنه أى تستطرف الجديد وتنسى القديم (٣) من رف لونه يرف : برق وتلألأ ، ورف النبت : اهتز نضارة ونعمة ، ودخلت عليه فرف لى : هش فى تحبب وخضوع .

جِسْمَهُ فِى جُسُومٍ[1]، وَيَقُومُ بِالْحُقُوقِ غَيْرَ مَلُولٍ وَلَا مَلُومٍ، تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ[2]، وَمَا تَسْتَوِى الْبَدَنَةُ[3] الْمَهِيضَةُ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْقُرْبَانِ. وَعَرَّضْتَ بِذِكْرِ الْعَصْرِ الْخَالِى، وَالْقَصْرِ الْعَالِى، وَظِلٍّ مِنْ فَنَنٍ[4] وَرِيقٍ، وَعَيْشٍ مَعَ أَكْرَمِ فَرِيقٍ، وَمَا تَذْكُرُ مِنْ زَمَنٍ تَوَلَّى؟ وَعَهْدٍ عَلَى أَلَّا يَعُودَ تَأَلَّى[5]؟ فَارَقْنَاهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ، وَوَدَّعْنَا بِهِ الْأَطْيَبَيْنِ: الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ، فَعَفَتِ[6] الرُّسُومُ، وَأَفَلَتْ[7] تِلْكَ النُّجُومُ، وَرَمَتْنَا عَنْ قَوْسِهَا الرُّومُ، ثُمَّ خَلَّفَتْنَا فِى الْمَغَانِى، وَقَسَّمَتْنَا بَيْنَ الْأَسِيرِ وَالْعَانِى[8]، فَأَوْدَى[9] الْقَلْ

(١) من قول حاتم :

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

(٢) من قول أمية بن أبى الصلت :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

مثنى قعب : قدح ضخم غليظ (٣) البدنة من الابل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى الى مكة . مهيضة : كسيرة (٤) الفنن : الغصن المستقيم والوريق : ذو الورق الناضر (٥) أى حلف وأقسم (٦) عفت الرسوم : محى مابقى من أثر الديار (٧) أفلت النجوم : غابت (٨) العانى : الذليل الخاضع والعانى أيضا الأسير ، والتعنية الحبس (٩) أودى : ذهب وهلك

وَٱلْـكُثْرُ ، وَأُشْتُقَ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْـكُفْرُ ، فَـكَمْ كَأْسِ أُنْسٍ أَرَقْنَاهُ ، وَمَنْزِلِ فُرْقَةٍ (١) ٱلْأَبَدِ فَارَقْنَاهُ . ؟

وَذَكَرْتَ أَجْتِيَازَكَ بَيْنَ ٱلْمَلَـتَيْنِ ، وَقَطْعَكَ مَتْنَ ٱلْيَمِّ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَنَّكَ ٱنْتَقَلْتَ مِنْ ذَوَاتِ ٱلْأَلْوَاحِ (٢) ، إِلَى عَذَبَاتِ (٣) ٱلْأَدْوَاحِ ، وَمِنْ مُتَهَافِتِ ٱلشِّرَاعِ ، إِلَى مَنَابِتِ ٱلْيَرَاعِ (٤) ، وَمِنْ سُكْنَى بَيْتِ ٱلسُّكَّانِ (٥) إِلَى مَنْزِلٍ بِهِ ٱلْفَلَّاحُ وَٱلْمَلَّاحُ يَشْتَرِكَانِ ، حَيْثُ أَجْتَمَعَ ٱلضَّبُّ وَٱلنُّونُ (٦) وَأَيْنَعَ ٱلتِّينُ وَٱلزَّيْتُونُ ، وَظَلَّلَتِ ٱلسَّاحَاتُ ، وَذُلِّلَتِ ٱلثِّمَارُ

---

(١) لايبعد أن تكون محرفة عن : منزل رفقة الى الأبد الخ (٢) كناية عن السفينة (٣) العذبات : الأطراف وتقول : ما أرق عذبة لسانه ، والحق على عذبات ألسنتهم ، والدوحة الشجرة العظيمة ذات الفروع الممتدة (٤) اليراع القصب ، وتهافت الشيء تساقط وتطاير لخفته (٥) السكان ذنب السفينة ، ويسمى أيضا الخيزرانة والكوتل ، وهو ماتسكن به السفينة تمنع به من الحركة والاضطراب ، وتعدل به (٦) النون : الحوت العظيم وهو لا يسكن إلا الماء والضب لايسكن الا البر ، وقد أخذ الكاتب معناه من قول أبي عيينة المهلبي في قصر عيسى بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب :

ياوادي القصر نعم القصر والوادي ... من منزل حاضر إن شئت أو بادي
ترى قراقيره والعيس واقفة ... والضب والنون والملاح والحادي

القراقير جمع قرقور وهو السفينة الطويلة أو العظيمة

ٱلْبَاحَاتُ . فَلَا تُشْرِقْنَا يَا أُصَيْلُ(١) ، وَلَامُ تِلْكَ ٱلْأَرْضِ ٱلْوَبِيلُ(٢) . ٱنْتَهَى .

وَوَصَلَ هَذَا ٱلْكَلَامَ بِٱلْأَبْيَاتِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ قَرِيبًا وَهِيَ قَوْلُهُ :

* زِدْنَا عَلَى ٱلنَّائِينَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ * الخ :

***

كتاب تهنئة إلى ابن هود

وَكَتَبَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنْ أَهْلِ شَاطِبَةَ أَيَّامَ كَانَ قَاضِيًا بِهَا، مُهَنِّئًا أَمِيرَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱبْنَ هُودٍ ٱلْمُسْتَوْلِيَ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ آخِرَ دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِوُصُولِ ٱلْكِتَابِ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْكَرِيمِ إِلَيْهِ مِنْ بَغْدَادَ بِوِلَايَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ - إِذْ كَانَ ٱبْنُ هُودٍ حِينَ ثَارَ عَلَى ٱلْمُوَحِّدِينَ يَدْعُو إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلَّذِي كَانَ أَكْثَرُ ٱلْمُلُوكِ فِي ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ يَدِينُونَ بِطَاعَتِهِ - بِمَا نَصُّهُ بَعْدَ ٱلصَّدْرِ :

---

(١) هذا مثل ،وأصيل هنا هو أصيل بن عبد الله الهذلى (أو الغفارى) الصحابى رضى الله عنه ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مكة : حسبك يا أصيل لاتحزنا (٢) من قول عبد الله بن عنمة الضبي :

لام الأرض ويل ماأجنت   بحيث أضر بالحسن السبيل

الحسن هنا اسم كثيب فى بلاد ضبة سمى بذلك لحسنه و (لأمه الويل) قد تستعمل فى التعجب والتعظيم والتهويل . « أحمد نجاتى »

« أَمَّا بَعْدُ » فَكَتَبَ الْعَبِيدُ ـ كَتَبَ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ الْمُجَاهِدِيِّ الْمُتَوَكِّلِيِّ سَعَادَةً لَا تَبْلُغُ أَمَدًا إِلَّا تَخَطَّتْهُ ، وَيَدًا عُلُوُّهَا أَثْبَتَتْهُ أَيْدِي الْأَقْدَارِ وَخَطَّتْهُ ـ مِنْ شَاطِبَةَ ، وَبَرَكَاتُ الْأَمْرِ الْمُجَاهِدِيِّ الْمُتَوَكِّلِيِّ ، وَالْعَهْدِ الْوَاثِقِيِّ الْمُعْتَصِمِيِّ ، تَنْسَكِبُ كَالْمَطَرِ ، وَتَنْسَحِبُ عَلَى الْبَشَرِ ، وَتَقْضِي بِعَادَةِ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، وَسَعَادَةِ الْوِرْدِ وَالصَّدَرِ ـ وَالْحَمْدُ لِلهِ ـ وَعِنْدَ الْعَبِيدِ مِنْ أَدَاءِ فُرُوضِ الْخِدَمِ ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِ النِّعَمِ ، مَا عُقِدَتْ عَلَيْهِ ضَمَائِرُهُمْ ، وَسَمَتْ إِلَيْهِ نَوَاظِرُهُمْ ، وَاشْتَرَكَ فِيهِ بَادِيهِمْ وَحَاضِرُهُمْ ، فَجَنَابُ(١) أَمَلِهِمْ فَسِيحٌ ، وَمَتْجَرُ خِدْمَتِهِمْ رَبِيحٌ ، وَحَدِيثُ طَاعَتِهِمْ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَبِسَنَى(٢) النَّظَرِ الْعَلِيِّ اهْتِدَاؤُهُمْ ، وَفِي الْبَابِ الْكَرِيمِ رَجَاؤُهُمْ ، وَبِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ اعْتِزَازُهُمْ وَإِلَيْهَا اعْتِزَاؤُهُمْ ، وَاللهُ تَعَالَى يُنْهِضُهُمْ بِوَظَائِفِ الْمَثَابَةِ(٣)

(١) الجناب الناحية والفناء (٢) او : وبسنا أى ضوء ونور (٣) المثابة : للوضع الذى يثاب اليه أى يرجع اليه مرة بعد أخرى ويسكن اليه ومنه قوله تعالى «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا»

ٱلْعَلِيَّةِ ، وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى ٱلْمَنَاهِجِ ٱلسَّوِيَّةِ . وَوَصَلَ ٱلْكِتَابُ ٱلْكَرِيمُ مُتَحَلِّيًا بِرُوَاءِ ٱلْحَقِّ ، نَاطِقًا بِلِسَانِ ٱلصِّدْقِ ، وَاصِفًا مِنَ ٱلتَّشْرِيفِ ، وَٱلْفَخَارِ ٱلْمُنِيفِ ، مَا صَدَرَ عَنْ إِمَامِ ٱلْخَلْقِ ، فَلَا بَيَانَ أَعْجَبُ مِنْ ذَٰلِكَ ٱلْبَيَانِ ، وَلَا يَوْمَ كَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ تَبَدَّى نَظَرُهُ لِلْعِيَانِ ، أَوْ تَأَدَّى خَبَرُهُ فِي أَخْبَارِ ٱلزَّمَانِ نُشِرَتْ فِيهِ ٱلْخِلَعُ ٱلْعَبَّاسِيَّةُ فِي أَعْلَى ٱلصُّوَرِ ، وَبَرَزَ مِنْهَا لِلْعُيُونِ مَا يَعْثُرُ ٱلْبَلِيغُ عِنْدَ وَصْفِهِ فِي ذَيْلِ ٱلْحَصَرِ ، وَيُهْدِي سَوَادُهُ سَوَادَ ٱلْقَلْبِ وَٱلْبَصَرِ ، فَيَا لَمَشْهَدِهَا مَا أَعْجَبَ مَا كَانَ ، وَمَرْآهَا ٱلَّذِي رَاعَ ٱلْكُفْرَ وَرَاقَ(١) ٱلْإِيمَانَ ، وَأَشْبَهَ يَوْمَهُ بِالْأَنْدَلُسِ يَوْمَ خَرَجَتِ ٱلرَّايَاتُ ٱلسُّودُ مِنْ خُرَاسَانَ(٢) ، وَكَفَى بِهَٰذَا فَخَارًا لَا يَحْتَاجُ ثَابِتُهُ مُثْبِتًا ، أَنْ بَاشَرَتْ بُرْدًا(٣) بَاشَرَ ٱلْبَدَنَ ٱلَّذِي طَابَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، فَهُوَ عُلُوٌّ

---

(١) راع : أفزع وخوف ، وراق : أعجب وسر وأطرب (٢) يشير الى دعاة بني العباس (٣) البردة العباسية بردة خضراء كانت للنبي صلى الله عليه وسلم (وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم فان هذه فقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان معاوية قد اشتراها من آل كعب بن زهير) وانما تلك البردة العباسية هي التي

فِي ٱلْإِسْنَادِ وَلَا نَظِيرَ لَهُ فِي ٱلْعَوَالِي ، وَفَخَارٌ ضَلَّتْ عَنْ مِثْلِهِ ٱلْعُصُورُ ٱلْخَوَالِي ، وَجَلَّتْ بَهْجَتُهُ أَنْ تُخْلِقَ جِدَّتَهَا ٱلْأَيَّامُ وَٱللَّيَالِي. وَدَلَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْعَزِيزُ عَلَى ٱلتَّسْمِيَةِ ٱلْمُشْتَقَّةِ مِنَ ٱلْجِهَادِ ، وَٱلسِّمَةِ مِنْ سَيْفِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمَا لَا يَدْخُلُ فِي جِنْسِ ذَوَاتِ ٱلْأَغْمَادِ ، وَخَيْرُ ٱلْأَوْصَافِ مَا صَدَّقَهُ ٱلْمَوْصُوفُ ، وَٱلْكَرِيمُ ٱلنَّسَبِ نِسْبَتُهُ يُبَاهِي بِهَا ٱلدِّينُ وَتُزْهَى ٱلسُّيُوفُ.

فَإِنْ نَحْنُ سَمَّيْنَاكَ خِلْنَا سُيُوفَنَا
مِنَ ٱلتِّيهِ فِي أَغْمَادِهَا تَتَبَسَّمُ[(١)]

أعطاها النبي عليه الصلاة والسلام لأهل الأبلة لتبق عندهم بركة ، فاشتراها المنصور واتخذها فى شعار الخلافة موضع البردة التى كانت عند الأمويين.
وقال أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذرى المؤرخ المشهور يمدح الخليفة المستعين بالله العباسى :

ولو أن برد المصطفى اذ لبسته ... يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال ـ وقد أعطيته ولبسته ـ ... نعم هذه أعطافه ومناكبه

وقال الشريف الموسوى النقيب من قصيدة يمدح بها الخليفة الطائع :

لما رآك رأى النبي محمداً ... فى بردة الاجلال والاعظام

(١) هو لأبى الطيب المتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة بن حمدان سنة ٣٣٨ مطلعها :

***

مضمون الكتاب وَمِمَّا أَفَادَهُ ٱلْـكِتَابُ مِنَ ٱلْمُبْهِجِ بِطِيبِ أَنْبَائِهِ ، نَصُّ عَلَامَةِ سَيِّدِنَا صَلَوَاتُ ٱللهِ تَعَالَى عَلَيْـهِ وَعَلَى آبَائِهِ ، فَإِنَّهَا تَضَمَّنَتْ صِفَةً لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِفَاتِ ٱلْـكَمَالِ ، وَدَلَّتْ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ فِي خَلْقِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ٱلْأَعْمَـالَ ، وَأَشْعَرَتْنَا مَعْشَرَ ٱلْعَبِيدِ بِعِنَايَةٍ سَبَقَتْ بِالْمَقَامِ ٱلْمُجَاهِدِيِّ ٱلْمُتَوَكِّلِيِّ ـ أَحْسَنَ ٱللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ـ ، حِينَ تَوَلَّى خِلَافَةَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ـ ، فَإِنَّهُ لَمَّا شَايَعَهُ بِنَزْعَةٍ مُسَاعِدَةٍ ، وَنِيَّةٍ فِي مَشَارِعِ[1] ٱلصَّفَاءِ وَٱلْإِخْلَاصِ وَارِدَةٍ ، أُلْهِمَ زِيَادَةً فِي ٱلْعَلَامَةِ شَارَكَتِ ٱلْإِمَامَةَ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ،

اذا كان مدح فالنسيب مقدم ... أكل فصيح قال شعراً متيم؟

يقول اذا نحن دعونا باسمك (سيف) خلنا سيوفنا تتيه عجبا وتزهى دلالا وكبرا بمشاركتك لها فى التسمية فهى تبتسم تيها وفخرا واعجابا بنفسها فحقرت بذلك السلاح والرماح ، وهو من قول أبي نواس:

تتيه الشمس والقمر المنير ... اذا قلنا كأنهما الأمير

(١) جمع مشرعة ، وهى الشريعة أى مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون ويكون ماؤها عدا لاينقطع وظاهرا معينا لاينضب. وشرع الوارد اذا تناول الماء .

فَهَذِهِ كَرَامَةٌ فِي ٱلْعَلَامَةِ ، هِيَ عَلَامَةُ ٱلْكَرَامَةِ ، وَهِبَةٌ مِنْ مَوَاهِبِ ٱلْكَشْفِ يَجِدُهَا مَنِ ٱمْتَثَلَ قَوْلَهُ « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » فَكَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلِاسْتِقَامَةِ . وَتَضَمَّنَ ٱلْكِتَابُ ٱلْكَرِيمُ بَيْعَةَ أَهْلِ جَيَّانَ وَمَا مَعَهَا ، وَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْبَشَائِرَ وَمَا تَبِعَهَا ، لَفُرُوعٌ عَنْ هٰذَا ٱلْأَصْلِ ٱلصَّحِيحِ ، وَأَقْيِسَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلنَّصِّ ٱلصَّرِيحِ ، بِأَدِلَّةِ ٱلْخِلَافِ⁽¹⁾ قَدِ ٱسْتَقَلَّتْ ، وَشُبْهَةُ ٱلْخِلَافِ قَدْ بَطَلَتْ وَٱضْمَحَلَّتْ . وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى أَنْ مَنَحَ جَزِيلَ ٱلنَّعْمَاءِ ، وَشَرَحَ بِٱلْيَقِينِ صُدُورَ ٱلْأَوْلِيَاءِ ، وَشَرَّفَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ بِإِمَامَةِ نَجْلِ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْخُلَفَاءِ ، وَٱبْنِ عَمِّ سَيِّدِ ٱلرُّسُلِ وَخَاتَمِ ٱلْأَنْبِيَاءِ . وَٱلْعَبِيدُ يُهَنُّونَ بِهٰذِهِ ٱلنِّعَمِ ، ٱلَّتِي لَا يَسْتَقِلُّ بِذِكْرِهَا قَلَمٌ ، وَلَا يُقْطَعُ عَلَمٌ مِنْ وَصْفِهَا إِلَّا بَدَا عَلَمٌ⁽²⁾ ، وَبِهِمْ مِنَ ٱلْأَشْوَاقِ إِلَى مُشَاهَدَةِ ٱلْمَعَالِمِ ٱلسَّنِيَّةِ ،

(١) كذا بالأصل ويصح أن يكون أصل العبارة فأدلة الخلافة ، وقد ابتدأ ابن الخطيب بعض رسائله بقوله : الخلافة التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف الخ (٢) من قول جرير :

اذا قطعن علما بدا علم — حتى تناهين بنا الى الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم — في ضئضئ المجد وبؤبؤ الكرم

أي اذا فرغنا من أمر حدث أمر آخر . يريد أن وصفها لانهاية له .

وَتَمَّ ٱلْيُمْنِ ٱلطَّاهِرَةِ ٱلْعَلِيَّةِ ، مَا أَكَّدَهُ دُنُوُّ ٱلدَّارِ ، وَجَدَّدَهُ مَا تَجَدَّدَ لِلْمَقَامِ ٱلْعَالِي ٱلْمُتَوَكِّلِيِّ مِنْ نِعَمِ ٱللهِ تَعَالَى ٱلْجَلِيلَةِ ٱلْمِقْدَارِ ، وَٱلشَّاهِدَةِ لَهُ بِإِسْعَادِ ٱلْأَيَّامِ وَإِسْعَافِ ٱلْأَقْدَارِ ، فَلَوْ أَمْكَنَهُمُ ٱلْإِقْدَامُ لَأَقْدَمُوا ، وَلَوْ وَجَدُوا رُخْصَةً فِي ٱلْمَسِيرِ لَعَزَمُوا ، وَهُمْ يَسْتَلِمُونَ[1] ٱلْبِسَاطَ ٱلْأَشْرَفَ تَوَهُّمًا ، وَمِنْ أَمَلِهِمْ أَنَّهُمْ فِي ٱلْحَقِيقَةِ قَدِ ٱسْتَلَمُوا . انْتَهَى .

وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلدَّوْلَةَ ٱلْعَبَّاسِيَّةَ خُطِبَ لَهَا بِبِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَعَادَهَا ٱللهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّ مَا جَلَبْنَاهُ مِنْ ذَٰلِكَ وَغَيْرِهِ مُنَاسِبٌ لِلْمَقَامِ ، فَلَا ٱنْتِقَادَ وَلَا مَلَامَ

***

مخاطبة صاحب الأندلس إلى السلطان المنصور

« وَقَدْ رَأَيْتُ » أَنْ أَذْكُرَ هُنَا مُخَاطَبَةً صَدَرَتْ مِنَ ٱلْغَنِيِّ بِٱللهِ صَاحِبِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى ٱلسُّلْطَانِ ٱلْمَنْصُورِ أَحْمَدَ ٱبْنِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلنَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ مِنْ إِنْشَاءِ ٱلْوَزِيرِ

---

(١) استلم الحجر : لمسه إما بقبلة أو باليد ومسحه بكفه (مأخوذ من السلام وهو الحجر ، أو من السلام أى التحية ، فيكون معناه اللمس باليد تحريا لقبول السلام منه تبركا به)

الْكَبِيرِ لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ ، سَرَّحَهُ اللّهُ ـ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ ، وَنَصُّهَا :

***

مخاطبة الغنى بالله صاحب الاندلس الى السلطان ابن قلاون

الْأَبْوَابُ الَّتِي تُفْتَحُ لِنَصْرِهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَتَسْتَدِرُّ[1] مِنْ آفَاقِهَا سَحَابُ النَّعْمَاءِ ، وَتُجَلِّي بِأَنْوَارِ سَعْدِهَا دَيَاجِي الظَّلْمَاءِ ، وَتُعَرِّفُ نَكِرَةَ الْبِلَادِ وَالْبَادِي بِالِانْتِسَابِ إِلَى مَحَبَّتِهَا وَالِانْتِمَاءِ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْعُرُوضِ وَتَبَايُنِ الْحُدُودِ وَتَعَدُّدِ الْأَسْمَاءِ ، وَيُجْتَزَأُ مِنْ صِلَاتِ صَلَاتِهَا[2] عِنْدَ الْمَوَانِعِ مِنْ كَمَالِ حَالَاتِ صِفَاتِهَا بِالْإِيمَاءِ ، وَتَحْمِلُ لَهَا التَّحِيَّةَ ذَوَاتُ الدُّسُرِ[3] وَالْأَلْوَاحِ

---

(١) استدر الماء واللبن والدمع اذا كثر وسال جاريا ، واستدر الحلوبة : طلب درها ، والريح تدر السحاب وتستدره أى تستحلبه ، والاستدرار أيضا أن تمسح الضرع بيدك ثم يدر اللبن ويجرى (٢) صلات جمع صلة ، والصلاة الغرض منها الرحمة والدعاء ورضا سلطان مصر ، يعنى أن يكتفى منها بالقليل اذا عز الكثير ، بل ان قليلها كثير ــ وهنا عرض لتوجيهات فقهية كما عرض قبلها لتوجيهات منطقية ونحوية . (٣) الدسر : المسامير جمع دسار ؛ وذوات الدسر والألواح : السفينة ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » . والدسار أيضا حبل من ليف تشد به ألواح السفينة

طَاعَتَــهُ نَحْرَ ٱلصَّبَاحِ عَلَى كَتَدِ(١) ٱلْمَاءِ ، أَبْوَابُ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْــكَبِيرِ ، ٱلْجَلِيلِ ٱلشَّهِيرِ ، ٱلطَّاهِرِ ٱلظَّاهِرِ ، ٱلْأَوْحَدِ ٱلْأَسْعَدِ ، ٱلْأَصْعَدِ ٱلْأَمْجَدِ ، ٱلْأَعْلَى ٱلْعَادِلِ ، ٱلْعَالِمِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْكَامِلِ ، سُلْطَانِ ٱلْإِسْلَامِ وَٱلْمُسْلِمِينَ ، عِمَادِ ٱلدُّنْيَا وَٱلدِّينِ ، رَافِعِ ظِلَالِ ٱلْعَدْلِ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ، جَمَالِ ٱلْإِسْلَامِ ، عَلَمِ ٱلْأَعْلَامِ ، فَخْرِ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ ، مَلِكِ ٱلْبَرَّيْنِ وَٱلْبَحْرَيْنِ ، إِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ مُؤَمِّنِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْأَقْطَارِ ، عَاصِبِ(٢) تَاجِ ٱلْفَخَارِ ، هَازِمِ ٱلْفِرَنْجِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلتَّتَارِ ، ٱلْمَلِكِ ٱلْمَنْصُورِ ٱبْنِ ٱلْأَمِيرِ ٱلرَّفِيعِ ٱلْجَادَّةِ(٣) ، ٱلْــكَرِيمِ ٱلْوِلَادَةِ ، ٱلطَّاهِرِ ٱلظَّاهِرِ ، ٱلْــكَبِيرِ ٱلشَّهِيرِ ،

---

(١) الكتد : مجتمع الكتفين من الانسان وغيره ، أو هو أعلى الكتف ، او هو الكاهل او مابين الكاهل الى الظهر ، والثبج مثله ، تقول : نحمله على الأكباد فضلا عن الأكتاد (٢) عصب : شد ، وعصب التاج والعمامة شده (واسم ماشد به العصابة ، والتاج يسمى عصابة وكذا العمامة) قال عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قد عصبوه بتاج الملك يحمي المحجرينا

فجعل الملك معصبا لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التى عصبت برأس لابسها . واعتصب التاج على رأسه اذا استكف به ، ومنه قول ابن قيس الرقيات :

يعتصب التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

(٣) الجادة : سواء الطريق والمسلك .

الْمُعَظَّمُ الْمُمَجَّدُ الْأَسْمَى، الْمُوَقَّرُ الْأَعْلَى، فَخْرُ الْمِلَّةِ، سَيْفُ الْمِلَّةِ، تَاجُ الْإِمَارَةِ، عِزُّ الْإِسْلَامِ، مُسْتَظَلُّ الْأَنَامِ، قَمَرُ الْمَيْدَانِ، أَسَدُ الْحَرْبِ الْعَوَانِ(١) الْمُقَدَّسُ الْمُطَهَّرُ، الْأَمِيرُ أَحْمَدُ ابْنُ وَالِدِ السَّلَاطِينِ، وَمَالِكِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَيْفِ خِلَافَةِ اللهِ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَوَلِيِّ الْمُؤْمِنِينَ، سُلْطَانِ الْجِهَادِ وَالْحَجِّ، وَمُقِيمِ رَسْمِ الْعَجِّ(٢) وَالثَّجِّ، مُحْيِي مَعَالِمِ الدِّينِ، قَامِعِ الْمُعْتَدِينَ، قَاهِرِ الْخَوَارِجِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ، نَاصِرِ السُّنَّةِ، مُحْيِي الْمِلَّةِ، مَلِكِ الْبَرَّيْنِ وَالْبَحْرَيْنِ، سُلْطَانِ الْحَرَمَيْنِ، الْمَلِكِ الْعَادِلِ، الْعَالِمِ الْعَامِلِ، الْمَنْصُورِ الْمُؤَيَّدِ، الْمُعَانِ الْمُرَفَّعِ الْمُعَظَّمِ الْمُبَجَّلِ الْمُؤَمَّلِ، الْمُجَاهِدِ الْمُرَابِطِ الْمُغَازِي الْمُمَجَّدِ، الْمُكَمَّلِ الْمُطَهَّرِ، الْكَبِيرِ الشَّهِيرِ الْمُقَدَّسِ، الْمَلِكِ النَّاصِرِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ الصَّالِحِيِّ. جَعَلَ اللهُ فُسْطَاطَ

---

(١) العوان : من الحرب التى قوتل فيها مرة بعد مرة (٢) العج هنا : رفع الصوت بالتلبية ، والثج : سيلان دم الهدى والأضاحى (ويضرم مم الحج) وفى الحديث : « تمام الحج العج والثج »

دَعْوَتِهِ مَعْمُودًا(١) بِعَمُودِ الصُّبْحِ ، وَحَرَكَاتِ عَزْمِهِ مَبْنِيَّةً عَلَى الْفَتْحِ ، وَمُجْمَلَ سَعَادَتِهِ غَنِيًّا عَنِ الشَّرْحِ ، وَجِيَادَ أَوْصَافِهِ مُتَبَارِيَةً فِي مَيْدَانِ الْمَدْحِ ، وَزِنَادَ رَأْيِهِ وَارِيَةً(٢) عَلَى الْقَدْحِ ، مِنْ مُوجِبِ حَقِّهِ وُجُوبَ الشُّكْرِ الْخَمْسِ ، الْمُرَحِّبِ لِأَجْلِ أُفُقِهِ(٣) الشَّرْقِيَّةِ بِوِفَادَةِ(٤) الشَّمْسِ ، الْمُجَدِّدِ فِي الْيَوْمِ حُكْمَ مَا تَقَرَّرَ بَيْنَ السَّلَفِ ـ رَحِمَهُمُ اللهُ ـ بِالْأَمْسِ ، أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَنْدَلُسِ ، عَبْدِ اللهِ الْغَنِيِّ بِاللهِ الْغَالِبِ بِهِ ، مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ ، سَلَامٌ كَرِيمٌ كَمَا زَحَفَتْ رَايَةُ الصُّبْحِ تَقَدَّمُهَا طَلَائِعُ مُبَشِّرَاتِ الرِّيَاحِ ، يُفَاوِحُ أَرَجُهُ أَزَاهِيرَ(٥) الْأَدْوَاحِ ، وَيُحَاسِنُ طُرَرَ(٦)

(١) عمده يعمده: أقامه بعماد، كأعمده . وعمود الصبح ما تبلج من ضوئه وسطع ، وضرب الفجر بعموده (وهو الصبح المستطير) وفى الحديث : « أول وقت الفجر اذا انشق عمود الصبح » (٢) وارية : موقدة والزناد : جمع زند : وهو ما تقدح به النار ـ وورى الزند : خرجت ناره ، وفلان وارى الزناد كناية عن نجاحه وظفره ، واستوريته رأيا سألته أن يستخرج لى رأيا أمضي عليه وأستضيء به وقال الشاعر :

وجدنا زند جدهم وريا   وزند بنى هوازن غير وارى

(٣) الأفق : الناحية ، ويستعمل مفردا وجمعا كالفلك كما قال سيدنا العباس ابن عبد المطلب رضى الله عنه يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

« وأنت لما ولدت أشرقت الأر   ض وضاءت بنورك الأفق »

(٤) وفادة الشمس : قدومها وورودها . (٥) جمع أزهار جمع زهر ، وفى الأصل (زهير) محرفة (٦) جمع طرة وهى أن يقطع

ٱلْوُجُوهِ ٱلْمِلَاحِ ، يَخُصُّ أَبُوَّتَكُمُ ٱلَّتِى رَتَّبَ ٱلْعِزُّ فُصُولَهَا ، وَعَضَدَتْ نُصُوصُ ٱلنَّصْرِ نُصُولَهَا[١] ، وَرَحْمَةُ ٱللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ . أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ ٱللهِ ٱلَّذِى جَعَلَهُ فَاتِحَةَ ٱلْقُرْآنِ ، وَخَاتِمَةَ دُعَاءِ أَهْلِ ٱلْجِنَانِ ، وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَوْلَى مِنْ مَوَاهِبِ ٱلْإِحْسَانِ ، حَمْدًا وَشُكْرًا يَسْتَخْدِمَانِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ مَلَكَتَيِ ٱلْقَلْبِ وَٱللِّسَانِ ، وَٱلصَّلَاةِ وَٱلسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ زَهْرَةِ كِمَامَةِ[٢] ٱلْأَكْوَانِ ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱللُّغَاتِ وَٱلْأَلْوَانِ ، ٱلَّذِى أَذَلَّ بِعِزَّةِ ٱللهِ نُفُوسَ أَهْلِ ٱلطُّغْيَانِ ، وَعَلَّى بِدِينِهِ ٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْأَدْيَانِ ، وَزُوِيَتْ[٣] لَهُ ٱلْأَرْضُ فَرَأَى مُلْكَ أُمَّتِهِ يَبْلُغُ مَا زُوِيَ لَهُ فَكَانَ ٱلْخَبَرُ وَفْقَ ٱلْعِيَانِ ، وَٱلرِّضَا عَمَّنْ لَهُ مِنَ ٱلْأَصْحَابِ وَٱلْأَحْبَابِ

للجارية فى مقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج أو العصابة ، وسمى هذا الشعر طرة لأنها طرت أى قطعت من جملته. وأصل الطرة طرف كل شئ وحرفه، وعلم الثوب يخلط بجانبي البرد بحاشيته ، وللمرأة تطر شعرها : تحففه وتطره حتى يوف على جبهتها وتصففه، وطرت الجارية : اتخذت طرة (١) نصول جمع نصل وهو السيف (٢) الكمامة : غطاء الزهر (٣) زويت : طويت .

وَالْأَعْمَامِ وَالْأَخْوَالِ وَالْإِخْوَانِ ، صَلَاةً يُجَدِّدُهَا الْجَدِيدَانِ[١] وَيُمْلِيهَا الْمَلَوَانِ ، وَتَتَزَاحَمُ عَلَى تُرْبَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ مَعَ الْأَحْيَانِ ، مَا سَجَعَتْ طُيُورُ الْبَرَاعَةِ مِنْ أَعْوَادِ الْيَرَاعَةِ عَلَى الْأَفْنَانِ ، وَالْتَفَتَتْ عُيُونُ الْمَعَانِي مَا بَيْنَ أَجْفَانِ الْبَيَانِ ، وَالدُّعَاءِ لِأَبْوَابِكُمْ الشَّرِيفَةِ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى عِصْمَتَهُ تُقِيمُ بِهَا وَظِيفَتَيِ الْحِجَابَةِ وَالِاسْتِئْذَانِ ، وَضَرَبَ بِدَعْوَتِهَا الَّتِي هِيَ لَذَّةُ الْإِقَامَةِ وَالْأَذَانِ عَلَى الْآذَانِ[٢] ، وَاسْتَخْدَمَ بُرُوجَ الْفَلَكِ الدَّوَّارِ فِي أَمْرِهَا الْعَزِيزِ اسْتِخْدَامَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ ، حَتَّى يُثْلِمَ مَا فِي الْمُدَاقَعَةِ عَنْ حِمَاهَا مَخَالِبَ السِّرْحَانِ[٣] ، وَفِي

---

(١) الجديدان : الليل والنهار وكذا الملوان (٢) يعنو لدعوته الاسلامية أن تطرق كل أذن وتؤثر فى كل سمع (٣) السرحان فى الاصل الذئب والأسد ، ويطلق على بعض الكواكب ، وذنب السرحان : الفجر الكاذب والميزان معروف ، ومن معانيه العدل ، واسم لبرج فى السماء . ومما قيل فى وصفه :

ليزان النجوم على وصف وقد قسم الكواكب باعتبار
كجارية تدلت من يديها خيوط فى قناديل كبار

والزهرة كوكب أبيض مضىء سميت بذلك لضيائها واشراق نورها من الأزهار وهو الاشراق والانارة . ومنه أزهر الصبح أى أنار وأشرق . ومما قيل فى وصفها :

لاح الهلال فويق مغربه والزهرة الغراء لم تغب

الإشادَةِ بِمَدْلِهَا كَكِفَّتَيِ المِيزَانِ ، وَيُهْدِي لَهَا مِنَ الزَّهْرَةِ كُرَةَ المَيْدَانِ ، وَمِنَ الْهِلَالِ عِوَضَ الصَّوْلَجَانِ[1] وَأَبْقَى فِي عَوَامِلِهَا ضَمِيرَ الأَمْرِ وَالشَّأْنِ ، إِلَى يَوْمِ تَعْنُو[2] وُجُوهُ المُلُوكِ إِلَى المَلِكِ الدَّيَّانِ ، فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَى تِلْكَ الأَبْوَابِ كَتَبَ اللهُ لِعَتَبَتِهَا النُّصْرَةَ الدَّاخِلَةَ ، كَمَا أَخْجَلَ بِمَكَارِمِهَا السُّحُبَ البَاخِلَةَ ، وَجَعَلَ مَفَارِقَ[3] مَنَاصِلِهَا المُخْتَضِبَةِ مِنْ تَجِيعِ عِدَاهَا غَيْرَ نَاصِلَةٍ ، وَقَرَنَ بِكُلِّ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَادِهَا فَاصِلَةً[4] مِنْ دَارِ مُلْكِ الإِسْلَامِ بِالأَنْدَلُسِ حَمْرَاءِ

وهوى دوين مغيبها فهوت ... تبكي بدمع غير منسكب
فكأنها أسماء باكية ... عند انقصام سوارها الذهب

(١) الصولجان : العصا المتعوقة الرأس يعطف طرفها يضرب بها الكرة وكانت الكرة والصولجان من شارات الملك (٢) تعنو : تخضع (٣) المفارق : جمع مفرق : موضع فرق الشعر . والمنصل : السيف . والنجيع : الدم . ونصل الشعر : خرج من الخضاب وعاد الى لونه ، والناصل أيضا ما لا نصل له ، ففيه تورية مثل كثير من الألفاظ في هذه الرسالة — والغرض الدعوة بدوام غزو الأعداء وجهادهم والنيل منهم (٤) السبب معروف ، والسبب أيضا من مصطلحات علم العروض كالفاصلة ، والفاصل القاضي بين الحق والباطل . والفصل القطع وابانة أحد الشيئين عن الآخر ، وطعنة فاصلة وفيصل : تفصل بين القرنين وتفرق بينهما . والفاصلة

غَرْناطَةَ ـ وَصَلَ اللهُ سُبْحانَهُ عادَةَ النِّفاعِ عَنْ أَرْجائِها ، وَشَدَّ بِأَيْدِي الْيَقِينِ عُرا أَمَلِها فِي اللهِ وَرَجائِها ، حَيْثُ الْمَصافُ[1] الْمَعْقُودُ ، وَثَمَنُ النُّفُوسِ الْمَنْقُودُ ، وَنارُ الْحَرْبِ ذاتُ الْوُقُودِ ، حَيْثُ الأُفُقُ قَدْ تَرَدَّى بِالْقَتامِ[2] وَتَعَمَّمَ ، وَالسَّيْفُ قَدْ تَجَرَّدَ[3] وَتَيَمَّمَ ، وَغُبارُ الْجِهادِ يَقُولُ : أَنا الأَمانُ مِنْ دُخانِ جَهَنَّمَ ، حَيْثُ الإِسْلامُ مِنْ عَدُوِّهِ كَالشّامَةِ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ ، وَالتَّمْرَةِ مِنْ أَوْسُقِ[4] الْعِيرِ . حَيْثُ الْمَصارِعُ[5] تَتَزاحَمُ

الصغرى في العروض هي السببان المقرونان (ففي كلمتي سبب ، وفاصلة توجيه وتورية) والغرض أن سيوف جند السلطان لاتترك سببا من أسباب الأعداء الاقضت عليه (١) المصاف جمع المصف : موضع الصف في الحرب (٢) القتام : الغبار ، ويريد هنا الغبار الثائر في ميادين الحروب (٣) تجرد السيف : استل من غمده ، وتجرد للأمر اذا جد فيه ، ومنه تجرد العبادة وتجرد بالحج : تشبه بالحاج ، وفي حديث عمر : «تجردوا بالحج وان لم تحرموا» أي تشبهوا بهم وان لم تكونوا حجاجا . وتجرد من ثيابه للاحرام في الحج . وتيمم : قصد وتيمم الصعيد للصلاة ، وأصله التعمد والتوخي أي يقصد الصعيد الطيب : أي التراب الطاهر ، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم حقيقة لمسح الوجه واليدين بالتراب ، ولما كان السيف يقتحم الغبار ويشقه ويخوض فيه جعلهتيمما . ويصح أنه يتيمم الأعداء أي يقصدهم القتك بهم والقضاء عليهم (٤) أوسق : جمع وسق : وهو حمل البعير ، والعير : القافلة ، والابل التي تحمل الميرة . (٥) مصارع : جمع مصرع : مكان الصرع والقتل في الحرب .

ٱلْحُورُ عَلَى شُهَدَائِهَا . وَٱلْأَبْطَالُ يَعْلُو بِالتَّكْبِيرِ مَسْمَعُ نِدَائِهَا ، حَيْثُ ٱلْوُجُوهُ ٱلضَّاحِكَةُ ٱلْمُسْتَبْشِرَةُ قَدْ زَيَّنَتْهَا ٱلْكُلُومُ(١) بِدِمَائِهَا . وَإِنَّ هٰذَا ٱلْقُطْرَ ٱلَّذِي مُهِّدَتْ لِسِيَاسَتِنَا أَكْوَارُ(٢) مَطَايَاهُ ، وَجُعِلَتْ بِيَدِنَا ــ وَٱلْمِنَّةُ لِلّٰهِ ــ عِيَابُ(٣) عَطَايَاهُ ، قُطْرٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ ، مُرْبٍ(٤) يَوْمُهُ فِي ٱلْبِرِّ عَلَى أَمْسِهِ ، زَكِيُّ ٱلْمَنَابِتِ ، عَذْبُ ٱلْمَشَارِبِ ، مُتَمِّمُ ٱلْمَآمِلِ ، مُكَمِّلُ ٱلْمَآرِبِ ، فَارِهُ ٱلْحَيَوَانِ ، مُعْتَدِلُ ٱلسُّحَنِ(٥) وَٱلْأَلْوَانِ ، وَسِيطَةٌ فِي ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعَةِ ، شَاهِدَةٌ لِلّٰهِ بِإِحْكَامِ ٱلصَّنْعَةِ . أَمَّا خَيْلُهُ فَفَارِهَةٌ ، وَإِلَى ٱلرَّكْضِ(٦) شَارِهَةٌ ، وَأَمَّا سُيُوفُهُ فَلِمَوَاطِنِ ٱلْغُمُودِ كَارِهَةٌ ، وَأَمَّا أَسَلُهُ(٧) فَمُتَدَارِكَةُ ٱلْخَطْفِ ، وَأَمَّا عَوَامِلُهُ(٨) فَبَيِّنَةُ ٱلْحَذْفِ

(١) الكلوم : الجروح (٢) جمع كور : الرحل بأداته للبعير كالسرج وآلته للفرس (٣) عياب : صناديق ، والعيبة أيضا الحقيبة زبيل من أدم يجعل فيه الزرع المحصود (٤) أربى عليه : زاد (٥) السحن جمع السحنة : الهيئة واللون (٦) الركض : حث الحصان على الجرى ، والعدو السريع (٧) الأسل : الرماح (٨) عامل الرمح وعاملته : صدره دون السنان ،

وَأَمَّا نِبَالُهُ فَمَحْذُورَةُ الْقَذْفِ ، إِلَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ بِهِ فِي سَفَطٍ(١)
مَعَ الْحَيَّاتِ ، وَذَرِيعَةٌ(٢) لِلْمَنِيَّاتِ الْوَحِيَّاتِ ، وَهَدَفٌ(٣)
لِلنِّبَالِ ، وَأُكْلَةٌ لِلشِّبَالِ(٤) ، تَطَؤُهُمُ الْغَارَاتُ الْمُتَعَاقِبَةُ ،
وَتُخِيفُهُمُ الْحُدُودُ الْمُصَاقِبَةُ(٥) ، وَتَجُوسُ خِلَالَهُمُ الْعُيُونُ(٦)

وقيل ان السنان نفسه عامل ، ويقال الرمح بعامله والفرس بعوامله (العوامل : القوائم) (١) السفط : مايعبأ فيه الطيب ونحوه كالجوالق والقفة ، ومر أعرابى بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يدفن فقال :

هلا جعلتم رسول الله فى سفط من الألوة أحوى ملبسا ذهبا

ويروى :

ألا دفنتم رسول الله فى سفط من الألوة والكافور منضود

ويروى هذا البيت الثانى لحسان بن ثابت « الألوة : العود يتبخر به »
ولأبى حامد محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى الغرناطى :

تكتب العلم وتلقى فى سفط ثم لاتحفظ لاتفلح قط
انما يفلح من يحفظه بعد فهم وتوق من غلط

ولبعض الأندلسيين فى معنى مايقوله لسان الدين فى الرسالة :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها الا من الغلط
من جاور الشر لم تؤمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات فى سفط

(٢) الذريعة : الوسيلة والسبب ، والوحى : السريع العاجل (٣) الهدف : كل مايقصد بالرمى (٤) الشبال : جمع شبل وهو ولد الأسد (٥) أى المجاورة الملاصقة . وصاقبهم : قاربهم وواجههم ، وفى الحديث : « الجار أحق بصقبه » أراد الملاصقة والقرب أى بما يليه ويقرب منه والمراد به الشفعة . وقد تكون (تخيفهم) محرفة عن (تتحيفهم) أى تنتقصهم من حيفهم أى من نواحيهم وأطرافهم (٦) الجوس : التردد خلال الدور والبيوت فى الغارة

ٱلْمُرَاقَبَةُ ، وَتُرِيبُ(١) مِنْ أَشْكَالِ مُخَطَّطِهِمْ إِلَّا أَنْ يَتَفَضَّلَ ٱللَّهُ بِحُسْنِ ٱلْعَاقِبَةِ ، فَلَيْسَ إِلَّا ٱلصَّبْرُ ، وَٱلضَّرْبُ ٱلْهَبْرُ(٢) وَٱلْهَمْزُ(٣) وَٱلنَّبْرُ(٤) ، وَٱلْمُقَابَلَةُ وَٱلْجَبْرُ(٥) ، وَقَدْ حَالَ ٱلْبَحْرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِ مِلَّتِهِمْ ، وَأُسَاةِ(٦) عِلَّتِهِمْ ، يَقُومُونَ بِهَذَا ٱلْفَرْضِ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ ، وَيَعْرِضُونَ مِنْكَ يَوْمَ ٱلْعَرْضِ

قال تعالى : « فجاسوا خلال الديار » أى ترددوا بينها للغارة ، أو قتلوكم بين بيوتكم ، أو قطافوا فى خلال الديار ينظرون هل بقى أحد لم يقتلوه ، وجاسوا وحاسوا بمعنى واحد يذهبون ويجيئون ، والعيون : الجواسيس يترصدون و يتجسسون الأخبار . وخلال الديار : ماحوالها وما بين بيوتها

(١) رابه الأمر : نابه وأصابه وأدخل عليه شرا وخوفا . والريب صرف الدهر وحادثه مولفلها محرفة عن (وترتب) توجيه فى علم المنطق ، هو أن الافرنج يرتبون مقدمات الأشكال لتكون النتيجة الاستيلاء على البلاد فهم يستعدون بكل جهد و يفكرون فى كل وسيلة موصلة (٢) ضرب هبر وهبير ، أى هابر قاطع من اللحم قطعا (٣) الهمز : الدفع والضرب والكسر (٤) طعن نبر : مختلس سريع ، كأنه ينبر الرمح عنه أى يرفع بسرعة ، ومنه قول على : الطعنوا النبر وانظروا الشزر ، أى اختلسوا الطعن (٥) فى كلتا الكلمتين تورية وتوجيه بعلم الجبر والمقابلة الحروف (٦) جمع آس ، وأسا الجرح يأسوه : عالجه وداواه ، والآسى : الطبيب

أَحْسَنَ ٱلْقَرْضِ ، فَلَوْلَا بُعْدُ ٱلْمَدَى ، وَغَوْلُ[١] ٱلرَّدَى ، وَلَغَطُ[٢] ٱلْعِدَاء ، وَمَا عَدَا[٣] مِمَّا بَدَا ، لَسَمِعْتُمْ تَكْبِيرَ ٱلْحَمَلَاتِ وَزَئِيرَ تِلْكَ ٱلْقِلَّاتِ[٤] ، وَدَوِيَّ ٱلْحَوَافِرِ ، وَصَلِيلَ ٱلسُّيُوفِ مِنْ فَوْقِ ٱلْمَغَافِرِ[٥] ، وَصُرَاخَ ٱلثَّكَالَى[٦] وَٱرْتِفَاعَ ٱلْأَدْعِيَةِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ، وَلَوِ ٱرْتَفَعَ هٰذَا ٱلْمَكَانُ . وَهُوَ لِلْأَوْلِيَاء

---

(١) غاله : أهلكه وأخذه من حيث لايدرى ، وغالتهم تلك الأرض اذا هلكوا فيها . والغول : الخيانة أيضا . والغول: المهلكة والمنية (٢) اللغط : الصوت والجلبة والضوضاء ، وأصوات مبهمة لاتفهم (٣) ما عدا مما بدا : هذا مثل أى مامنعك مما ظهر لك أولا ، وفى حديث على رضى الله عنه أنه قال لطلحة أو الزبير يوم الجمل : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق فما عدا مما بدا ؟ وذلك أنه كان بايعه بالمدينة وجاء يقاتله بالبصرة، أى ما الذى صرفك ومنعك وحملك على التخلف بعد ما ظهر منك من التقدم فى الطاعة والمتابعة ؟ ، أو ما الذى بدا لك منى فصرفك عنى ، وقال ابن هنيء

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا   أرسلت سهم الحادثات فأقصدا

(٤) القلات : جمع قلة خلاف الكثرة وقد تقدم قوله : حيث الاسلام من عدوه كالشامة من جلد البعير الخ شبه هذه القلة بالأسود « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » أو قلات جمع قلة وهى الجماعة يجتمعون جميعا (٥) المغافر : جمع مغفر وهو غطاء الرأس يلبس تحت القلنسوة فى الحرب (٦) الثكالى : جمع الثكلى وهى التى فقدت ولدها الوحيد

مِثْلِكُمْ مِنْ حَيِّزِ ٱلْإِمْكَانِ ، لَمَقَلْتُمْ(١) مُقَلَ ٱلْأَسِنَّةِ ٱلزُّرْقِ ، حَالَةً مِنْ أَطْرَافِ قَصَبِ ٱلرِّمَاحِ مَحَالَّ ٱلْوُرْقِ(٢) ، وَأَبْصَرْتُمُ ٱلْقَنَا ٱلْخَطَّارَ قَدْ عَادَ أَخِلَّةً(٣) ، وَٱلسُّيُوفَ قَدْ صَارَتْ فَوْقَ بُدُورِ ٱلْخُوَذِ(٤) أَهِلَّةً ، وَعُقُودَ ٱلشَّهَادَةِ عِنْدَ قَاضِي ٱلسَّعَادَةِ مُسْتَقِلَّةً(٥) ، وَكَانَ كَمَا تَحْصُرُهُ عُلُومُكُمُ ٱلشَّرِيفَةُ حَدَقَ(٦) سُورِ ٱلْفَتْحِ ، وَآخِرَ وِلَاءِ ذَلِكَ ٱلْمَنْحِ ، عُرِضَ

(١) مقلتم : نظرتم ، مأخوذ من المقلة وهى الحدقة وشحمة العين التى تجمع السواد والبياض (٢) شبه أسنة الرماح فى أطرافها بالحمائم الورق فوق أطراف الغصون فى الارتفاع والحركة والصوت ، وكأن هؤلاء الفرسان الأسود يطربها عمل الأسنة فى الأعداء كما يطرب سجع الحمائم . وأنهم شغلوا عن السماع والطرب بالجهاد والحرب . ويقال أيضا : نصل أورق وهو الذى برد أو جلى ثم لوح بعد ذلك على الجمر حتى اخضر (٣) رمح خطار : يهتز اهتزازا شديدا . وأخلة : جمع خلال — : العود الذى يتخلل به ، شبه الرماح بها فى دقتها ، وأشار بذلك أيضا الى أنهم كانوا يوجرون أعداءهم الرماح أى يطعنونهم بها فى أفواههم (٤) الخوذ جمع الخوذة : المغفر (معرب) وفى الأصل خود وهو تحريف . وجعل السيوف أهلة اشارة لانحنائها وتقوسها من كثرة عملها والضرب بها وهو من قول الشاعر :

فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا

(٥) أى مرتفعة ذاهبة (٦) كذا بالأصل وربما كان محرفا عن (خندق) وهو حفير حول أسوار المدن ، أو تكون محرفة عن (حرف) أى آخر وطرف ونهاية ،

عَلَى ٱلْفَارُوقِ فَٱحْتَاطَ (١) ، وَأُغْرِيَ بِهِ مَنْ بَعْــدَهُ

(١) احتاط الرجل أخذ فى أموره بالأحزم ،واحتاط الرجل لنفسه أى أخذ بالثقة ، واشتاط واستشاط : غضب . ويظهر أن هذين الفعلين (احتاط ، واشتاط) مبدلان قد وضع كلاهما فى مكان الآخر وإن لم يكن ذلك واجبا متعينا فان الذى غضب عمر والذى أغرى فاحتاط عثمان وذلك أن معاوية بن أبى سفيان ألح على سيدنا عمر فى أيام ولايته على الشام أن يأذن له فى غزو البحر ، فكتب عمر الى عمرو بن العاص : صف لى البحر وراكبه فان نفسى تنازعنى اليه . فكتب اليه عمرو : انى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ان ركن خرق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، ليس الا السماء والماء ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان نجا برق . فلما قرأه عمر كتب الى معاوية : لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا ، وكيف أحمل الجنود فى هذا الكافر المستصعب ؟ ! وتالله لمسلم أحب الى مما حوت الروم ، فاياك أن تعرض لى وقد تقدمت اليك ، وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم اليه فى مثل ذلك . فلما ولى سيدنا عثمان لم يزل به معاوية حتى عزم عثمان على ذلك بأخرة (بعد احتياط وروية وتدبر وتفكير) وقال لمعاوية : لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه . ففعل . فكان معاوية أول من غزا فى البحر فى زمن عثمان بن عفان ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة فغزا خمسين غزاة مابين شاتية وصائفة فى البحر . وفى سنة ٢٥ وجه عبد الله بن سعد بن أبى سرح الخيل الى المغرب ، وكان عمرو بن العاص قد بعث قبل ذلك اليه بعثا فأصابوا غنائم ، وكتب عبد الله الى عثمان يستأذنه فى الغزو الى افريقية فأذن له ، (وفى سنة ٢٧ فتح عبد الله افريقية وكان عبد الله بن أبى سرح من

فَلَشْنَاطَ ، وَسَرَحَتْ خَيْلُ ٱبْنِ أَبِي سَرْحٍ ، فِي خَبَرٍ يَدْعُو إِلَى
شَرْحٍ ، حَتَّى إِذَا وَلَدَ مَرْوَانَ تَقَلَّدُوا كُرَتَهَا ٱلَّتِي هَوَتْ ،
وَقَضِمُوا(١) مَا أَنْضَجَتْ وَرَثَةُ ٱلْحَقِّ وَشَوَتْ ، وَيَدُهُمْ عَلَى
ٱلْأَمْرِ ٱحْتَوَتْ ، وَفَازَتْ مِنْهُ بِمَا نَوَتْ ، فَلَّ وَلَائِدَهُ(٢) ٱلْوَلِيدَ ،

جند مصر فأمره عثمان على جنده وأمده بالرجال وسرحه الى افريقية وسرح معه عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين وقال لعبد الله بن سعد : ان فتح الله عز وجل غدا افريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا ، وأمر العبدين على الجند ورماهما بالرجال وسرحهما الى الاندلس ، فأتياها من قبل البحر ، وخرجوا ومعهم البربر فأتوها من برها وبحرها ففتحها الله على المسلمين . وفي سنة ٢٨ غزا معاوية قبرس وغزاها أهل مصر وعليهم عبد الله ابن سعد بن أبي سرح حتى لقوا معاوية فكان على الناس وصالح أهلها . وفي سنة ٣٢ غزا معاوية مضيق القسطنطينية ومعه زوجته عاتكة ابنة قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف . وفي سنة ٣٣ غزا عبد الله ابن سعد بن أبي سرح افريقية مرة ثانية حين نقض أهلها العهد . ومات عثمان سنة ٣٥ وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري — وفي سنة ٥٣ تم فتح جزيرة رودس فتحها جنادة بن أمية الأزدي فنزلها المسلمون وعمروها . « أحمد تجاتي » . (١) قضم (كسمع) أكل بأطراف أسنانه ، أو بأطراف أضراسه ، أو قضم : أكل يابسا بمقدم الفم (وخضم أكل رطبا) (٢) جمع وليدة : الجارية والصبية الصغيرة ، مذكره وليد ، وقيده بعضهم بمن يولد في الرق . وتطلق الوليدة على الجارية والأمة والشابة

وَجَلَبَ لَهُ الطَّرِيفَ وَالتَّلِيدَ . وَطَرَقَتْ خَيْلُ طَارِقٍ ، وَضَاقَتْ عَنْ أَخْبَارِهِ الْمَهَارِقُ(١) وَجَلَتِ الْفَائِدَةُ ، وَظَهَرَ عَلَى الذَّخِيرَةِ الَّتِي مِنْهَا الْمَائِدَةُ ، ثُمَّ اسْتَرْسَلَ الْهَبُّ(٢) ، وَنَصَرَ الرَّبُّ ، وَيَكْثُرُ الطَّيْرُ حِينَ يُنْثَرُ الْحَبُّ(٣) ، وَصَرَفَتْ أَشْرَافُ الشَّامِ أَعِنَّتَهَا إِلَى الْتِمَاسِ خَيْرِهِ ، وَطَارَتْ بِأَجْنِحَةِ الْعَزَائِمِ تَيَمُّنًا بِطَيْرِهِ(٤) ، وَقَصَدَتْهُ الطَّلَائِعُ صُحْبَةَ بَلْجِ بْنِ بِشْرٍ

وان كانت كبيرة ، وقيل الوليدة : المولودة بين العرب وتسمى أيضا وصيفة — والوليد : هو الوليد بن عبد الملك بن مروان (١) المهارق : جمع مهرق وهي الصحيفة (٢) من معاني هب : سار ونشط وأسرع ، ومن المجاز : هب فلان حينا ثم قدم ، أي غاب دهرا ثم قدم — يشير الى توافد العرب الى بلاد الأندلس (٣) من قول بشار بن برد :

يكثر الطير حيث ينتثر الحب م وتغشى منازل الكرماء

(٤) من المجاز : الطائر والطير : ما تيمنت به أو تشاءمت ، وأصله في ذي الجناح ، والطائر : الحظ والبخت ، تقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير أو الشر على طريق الفأل والطيرة على مذهبهم في تسمية الشيء بما كان له سببا . والطير اسم من التطير ، ومنه قولهم : لا طير إلا طير الله كما يقال : لا أمر إلا أمر الله . وتيمن به : تبرك ، واليمين واليمن : البركة ضد الشؤم

وَغَيْرِهِ ، فَفُتِحَتِ ٱلْأَقْفَالُ ، وَنُفِلَتِ ٱلْأَنْفَالُ(١) ، وَنُجِحَ ٱلْفَالُ ، وَوُسِمَتِ ٱلْأَغْفَالُ(٢) ، وَٱفْتُتِحَتِ ٱلْبِلَادُ ٱلشَّهِيرَةُ ، وَٱنْتُقِيَتِ ٱلْمَذَارَى ٱلْخِيرَةُ(٣) ، وَٱقْتُنِيَتِ ٱلْفَخِيرَةُ ، وَتَجَاوَزَ ٱلْإِسْلَامُ ٱلدُّرُوبَ وَتَخَطَّى ، وَخَضَدَ ٱلْأَرْطَى(٤) ، وَأَرْكَبَ وَأَمْطَى ، وَٱسْتَوْثَقَ وَٱسْتَوْطَا ، وَتَثَاءَبَ وَتَمَطَّى ، حَتَّى تَمَدَّدَتْ مَرَاحِلُ ٱلْبَرِيدِ ، وَسَخِنَتْ عَيْنُ ٱلشَّيْطَانِ ٱلْمَرِيدِ(٥) ،

---

(١) النفل : الغنيمة ، ونفله النفل، ونفله وأنفله : أعطاه اياه ، ونفل الامام الجند جعل لهم ماغنموا وسوغهم اياه (٢) جمع غفل : وهو فى الأصل مالا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها ومالا عمارة فيه من الأرضين ، ومالاسمة عليه من الدواب ، ووسم الشيء : أعلمه بعلامة وأثر فيه أثرا (٣) خارت المرأة على صاحبتها خيرا وخيرة : فضلتها ، وخار الشيء انتقاه واختاره كتخيره ، والخيرة : اسم من اختاره عليهم اذا فضله وآثره ، تقول هذه خيرتى : أى مااخترته واصطفيته (٤) خضد العود : كسره وقطعه ، وأصل الخضد : كسر الشيء اللين من غير ابانة له ، وخضد الشجر قطع شوكه — والأرطى : شجر ينبت بالرمل شبيه بالغضا ينبت عصيا من أصل واحد يطول قدر قامة ورائحته طيبة ، ومنبته الرمل ولهذا أكثر شعراء العرب من ذكر تعوذ بقر الوحش بالأرطى ونحوها من شجر الرمل واحتفار أصولها للكنوس فيها والتبرد بها من الحر والانكراس فيها من المطر دون شجر الجلد، لأن الرمل احتفاره سهل، الانكراس : الاستتار والاتقاء (٥) أى ماتمرد ، وسخونة عينه : كناية عن حزنه وكدره بالأندلس

وَٱسْتَوْسَقَ⁽¹⁾ لِلْإِسْلَامِ مُلْكٌ ضَخْمُ ٱلسُّرَادِقِ ، مَرْهُوبُ ٱلْبَوَارِقِ⁽²⁾ ، رَفِيعُ ٱلْعَمَدِ ، بَعِيدُ ٱلْأَمَدِ ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ ٱلْآثَارُ وَٱلْأَخْبَارُ ، وَٱلْوَقَائِعُ ٱلْكِبَارُ ، وَٱلْأَوْدَاقُ⁽³⁾ وَٱلْأَمْطَارُ ، وَهَلْ يَخْفَى ٱلنَّهَارُ ؟ وَلِكُلِّ هُبُوبٍ رُكُودٌ⁽⁴⁾ وَٱلدَّهْرُ حَسُودٌ لِمَنْ يَسُودُ ، فَرَاجَعَتِ ٱلْفَرْخُ كَرَّتَهَا ، وَٱسْتَدْرَكَتْ مَعَرَّتَهَا ، فَدَوَّمَتْ⁽⁵⁾ جَوَارِحُهَا وَحَلَّقَتْ ، وَأَوْمَضَتْ بَوَارِقُهَا وَتَأَلَّقَتْ ، وَتَشَبَّثَتْ وَتَعَلَّقَتْ ، وَأَرْسَلَتِ ٱلْأَعِنَّةَ وَأَطْلَقَتْ ، وَرَاجَعَتِ ٱلْعَقَائِلَ ٱلَّتِي طُلِّقَتْ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا ٱلْحَاشِيَةُ⁽⁶⁾ ، وَلَا مِنَ ٱللَّيْلِ إِلَّا ٱلنَّاشِيَةُ⁽⁷⁾ ، وَسَقَطَتِ

---

(١) أى اجتمع وانتظم ، وفى حديث النجاشى : « واستوسق عليه أمر الحبشة » أى اجتمعوا على طاعته واستقر الملك فيه (٢) السيوف لبريقها (٣) الودق : المطر كله شديده وهينه (٤) أى سكون وثبات ، ويقال ركدت ريحهم أى زالت دولتهم وأخذ أمرهم يتراجع [٥) دوم الطائر اذا حلق فى الهواء ، وهو دورانه فى طيره ليرتفع الى السماء . وفى الأصل دومت وهو تعريض غيرمناسب . « أحمد تجاتى »

(٦) حاشية الكتاب : طرفه وطرته « وحشى تحشية : اذا كتب على حاشية الكتاب موقعة ، ثم سمى ما كتب حاشية مجازا » (٧) مسهل من ناشئة ، وفى التنزيل (أن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) قيل هى أول ساعة ، وقيل الناشئة والنشيئة اذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت

ٱلْغَاشِيَةُ(١) وَأَخْلَدَتِ(٢) ٱلْفِئَةُ ٱلْمُتَلَاشِيَةُ(٣) ، وَتَقَلَّصَتِ ٱلظِّلَالُ ٱلْفَاشِيَةُ(٤) إِلَّا أَنَّ ٱللهَ تَدَارَكَ بِقَوْمٍ رُجُحٍ مِنْ سَلَفِنَا أَثْبَتُوا فِي مُسْتَنْقَعِ ٱلْحَرْبِ أَقْدَامَهُمْ(٥) وَأَخْلَصُوا لِلهِ بَأْسَهُمْ وَإِقْدَامَهُمْ ، وَوَصَلُوا سُيُوفَهُمُ ٱلْبَارِقَةَ بِخُطَاهُمْ(٦) ، وَأَعْطَاهُمْ

---

(١) من معانى الغاشية: العذاب والعقوبة الجللة، ومنه قوله تعالى : «أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله » أى عقوبة مجللة تعمهم ، والغاشية : الداهية والغاشية : القيامة لأنها تغشى الخلق بأفزاعها فتعم ، و به فسر قوله تعالى : «هل أتاك حديث الغاشية»؟ (٢) أخلد الى الأرض: مال وركن واطمأن اليها وسكن (٣) المضمحلة ، قيل ان تلاشى عامى حتى اعترض التاج الكندى على قول ابن نباتة الخطيب : « وبقايا جسوم متلاشية » بأن تلاشى الشئ بمعنى اضمحل و بطل الاعتداد به لم يرد عن العرب ، وقيل كأنها منحوتة من لاشئ كبسمل وحمدل — ومما ورد منه قول الصنوبرى :

وتلاشى ضنح الدموع فما تـ ... ـلك عينى الا دما نضاحا

وورد فى حديث رواه السخاوى من أن معاوية سأل العباس رضى الله عنهما عن أبيه فقال : تلاشت الأحداث عند فضيلته ، وتباعدت الأنساب عند ذكر عشيرته الخ (٤) قلص الظل : انقبض وانضم وانزوى . وفشا : انتشر وامتد واتسع (٥) المستنقع : الموضع يستنقع فيه الماء أى يجتمع ، والعبارة مأخوذة من قول أبى تمام فى قصيدته المشهورة يرثى محمد بن حميد الطوسى

فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من دون أخمصك الحشر

(٦) من قوله :

نصل السيوف اذا قصرن بخطونا ... قدما ونلحقها اذا لم تلحق

وهو كناية عن فرط الشجاعة والاقدام

مَنْشُورُ[١] ٱلْعِزِّ مِنْ أَعْلَامِهِ ، حِينَ تَمَيَّنَ[٢] ٱلدِّينُ وَتَحَيَّزَ ، وَٱشْتَدَّ بِالْمُدَافَعَةِ وَتَمَيَّزَ ، وَعَادَتِ ٱلْحُرُوبُ سِجَالًا ، وَعَلِمَ ٱلرُّومُ أَنَّ لِلَّهِ رِجَالًا . وَقَدْ أَوْفَدَ جَدُّنَا ـ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ عَلَى أَبْوَابِ سَلَفِكُمْ مِنْ وَقَائِعِهِ فِي ٱلْعَدُوِّ كُلَّ مُبَشِّرَةٍ ، وَوُجُوهٍ بِهِ مُسْتَبْشِرَةٍ[٣] ضَحِكَتْ لَهَا ثُغُورُ ٱلثُّغُورِ[٤] ، وَسَرَتْ بِهَا فِي ٱلْأَعْطَافِ حُمَيَّا[٥] ٱلسُّرُورِ ، وَكَانَتِ ٱلْمُرَاجَعَةُ عَنْهَا شِفَاءً لِلصُّدُورِ ، وَتَمَائِمَ[٦] فِي دُرَرِ ٱلنُّحُورِ ، وَخَفَرًا[٧] فِي وُجُوهِ ٱلْبُدُورِ ، فَإِنَّ ذِمَامَ[٨] ٱلْإِسْلَامِ مَوْصُولٌ ، وَفُرُوعَهُ تَجْمَعُهَا

---

(١) المنشور ما كان غير مختوم من كتب السلطان ، وهو المشهور بالفرمان
(٢) يصح أن تكون :تبين ، وتحيز : تلبث وتمكث ، وشغل حيزا : أى ناحية (٣) فى الأصل : ووجودية منتشرة ، وهو تحريف (٤) ثغور الأولى موضع التبسم، والثانية موضع المخافة والحدود(٥) حميا الكاس:سورتها وشدتها أو إسكارها وبلوغها من شاربها ، ودبيب الشراب . وحميا الشباب سورته ونشاطه (٦) أصل التميمة خرزة رقطاء تنظم فى سير أو خيط ثم يعقد فى العنق ،وقال أبو ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لاتنفع

(٧) الخفر : شدة الحياء ، والغرض هنا لازم الحياء من حمرة الوجه وتورده ، وإشراقه ونضرته (٨) أى حق وحرمة وعهد

فِي أَهْلِهِ أُصُولٌ ، وَمَا أَقْرَبَ الْحَزْنَ مِمَّنْ دَارُهُ صُولٌ[١] ، وَالْمِلَّةُ وَالْبِنْيَةُ لِلَّهِ وَاحِدَةٌ ، وَالنُّفُوسُ لَامُنْكِرَةٌ لِلْحَقِّ وَلَا جَاحِدَةٌ ، وَالْأَقْدَارُ مَعْرُوفَةٌ ، وَالْآمَالُ إِلَى مَا يُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ مَصْرُوفَةٌ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ[٢] الِاسْتِدْعَاءُ ، أَمْكَنَ الدُّعَاءُ ، وَالْخَوَاطِرُ فَعَّالَةٌ ، وَالْكُلُّ عَلَى اللَّهِ عَالَةٌ ، وَالدِّينُ غَرِيبٌ وَالْغَرِيبُ يَحِنُّ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ عَلَى بُعْدِ مَحَلِّهِ .

انْتَهَى الْمَقْصُودُ مِنَ الْمُخَاطَبَةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْبَابِ ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ .

---

(١) مثل ، وهو من قول حنتج للرى من أبيات :

ماأقدر الله أن يدنى على شحط ... من داره الحزن ممن داره صول

وصول مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب (دربند) قرب بحر قزوين ، والحزن : الغليظ من الأرض ، وفى بلاد العرب بضمة حزون ، منها طريق بين المدينة وخيبر ، والحزن : بلاد يربوع وهى من أطيب البادية مرعى (٢) يمكن أن تكون محرفة عن [يمكن) . « أحمد تيمانى » .

***

« الْبَابُ الثَّالِثُ »

مكانة الدين بالأندلس

فِي سَرْدِ بَعْضِ مَا كَانَ لِلدِّينِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِزِّ السَّامِي الْعِمَادِ ، وَالْقَهْرِ فِي الرَّوَاحِ وَالْغُدُوِّ وَالتَّحَرُّكِ وَالْهُدُوِّ وَالِارْتِيَاحِ الْبَالِغِ غَايَةَ الْآمَادِ[1] ، وَإِعْمَالِ أَهْلِهَا لِلْجِهَادِ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْجِبَالِ وَالْوِهَادِ[2] ، بِالْأَسِنَّةِ الْمُشْرَعَةِ[3] وَالسُّيُوفِ الْمُسْتَلَّةِ مِنَ الْأَغْمَادِ .

***

« أَقُولُ » قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْبَابِ قَبْلَ هَذَا مَا كَانَ مِنْ نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتْحِهِمُ الْأَنْدَلُسَ وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ بِهَا إِلَى مَجِيءِ الدَّاخِلِ ، فَتَقَرَّرَتِ الْقَوَاعِدُ السُّلْطَانِيَّةُ ، وَعَلَتِ الْكَلِمَةُ الْإِيمَانِيَّةُ ، كَمَا نَسْرُدُهُ هُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

---

(١) الآماد : الغايات (٢) الوهاد : جمع وهدة وهى المطمئن من الأرض والمكان المنخفض (٣) شرع الرمح وأشرعه : سدده

***

زوال ملك بني أمية

« وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ » مِنْهُمُ ٱبْنُ حَزْمٍ : أَنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ كَانَتْ أَنْبَلَ دُوَلِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَنْكَاهَا[1] فِي ٱلْعَدُوِّ ، وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ ٱلْعِزِّ وَٱلنَّصْرِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ كَمَا سَتَرَى بَعْضَهُ .

« وَأَصْلُ هَذِهِ ٱلدَّوْلَةِ » كَمَا قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَمَّا نَزَلَ بِهِمْ بِالْمَشْرِقِ مَا نَزَلَ ،وَغَلَبَهُمْ بَنُو ٱلْعَبَّاسِ عَلَى ٱلْخِلَافَةِ ،وَأَزَالُوهُمْ عَنْ كُرْسِيِّهَا ، وَقَتَلَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَلِيٍّ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ ٱلْحَكَمِ آخِرَ خُلَفَائِهِمْ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، وَتَتَبَّعَ بَنِي مَرْوَانَ بِالْقَتْلِ فَطَلَبُوا بَطْنَ ٱلْأَرْضِ[2] مِنْ بَعْدِ ظَهْرِهَا ، وَكَانَ مِمَّنْ أَفْلَتَ[3] مِنْهُمْ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ هِشَامِ

---

(١) نكى العدو ونكى فيه اذا أصاب منه وقتل فيه وجرح فوهن لذلك

(٢) كناية عن شدة الاختفاء والاستتار (٣) الافلات: التخلص من الشئ فجأة من غير تمكث

ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَكَانَ قَوْمُهُ يَتَحَيَّنُونَ[١] لَهُ مُلْكاً بِالْمَغْرِبِ ، وَيَرَوْنَ فِيهِ عَلَامَاتٍ لِذَلِكَ يَأْثُرُونَهَا[٢] عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ[٣] ، وَكَانَ هُوَ قَدْ سَمِعَهَا مِنْهُ مُشَافَهَةً ، فَكَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ ، فَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَنَزَلَ عَلَى أَخْوَالِهِ نَفْزَةَ[٤] مِنْ بَرَابِرَةِ طَرَابُلُسَ ، وَشَعَرَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَبِيبٍ[٥] ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ ابْنَيِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا دَخَلَا إِفْرِيقِيَّةَ ـ فَلَحِقَ بِمُغِيلَةَ[٦]

(١) يتحينون : ينتظرون (٢) أى ينقلونها (٣) كان مسلمة من أشجع بنى أمية وأخبرهم بالحرب وكان قائدا مظفرا وغازيا منصورا وكانت له وقائع عظيمة فى أكثر غزوات بنى أمية وحروبهم . ولى الكوفة والبصرة والعراق فى زمن أخيه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ وعزل عنه سنة ١٣٧ وفرغ للغزو والجهاد (٤) نفزة قبيلة مشهورة من قبائل البربر الذين بالمغرب ، ومنهم النضر بن سعيد البلوطى النفزى . وفى الأصل (نفرة) بالراء المهملة وهو تصحيف (٥) عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة بن نافع الفهرى ، وتقدمت ترجمته (٦) من قبائل البربر أيضا ، وهناك قبائل من البربر سميت بها أماكن نزلوا بها منها نفزة ومغيلة وهوارة وصنهاجة وكتامة ومكناسة ، ونفزة قرية بالمغرب منها ابن أبى العاص النفزى شيخ الشاطبى ، ووجيه الدين موسى بن محمد النفزى محدث مات بمصر . ومغيلة اقليم من أعمال شذونة . ومكناسة مدينة بالمغرب بينها وبين مراكش ١٤ مرحلة نحو الشرق ، ومنها الى فاس مرحلة واحدة ، وبالمغرب بلدة أخرى مشهورة يقال لها مكناسة الزيتون حصينة مكينة فى طريق المار من فاس الى سلا

وَقِيلَ بِمِكْنَاسَةَ (١) ، وَقِيلَ بِقَوْمٍ مِنْ زَنَاتَةَ (٢) فَأَحْسَنُوا قَبُولَهُ ، وَاطْمَأَنَّ فِيهِمْ ، ثُمَّ لَحِقَ بِمَلِيلَةَ (٣) وَبَعَثَ بَدْرًا مَوْلَاهُ إِلَى مَنْ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ مَوَالِي الْمَرْوَانِيِّينَ وَأَشْيَاعِهِمْ ، فَاجْتَمَعَ بِهِمْ وَبَثُّوا لَهُ فِي الْأَنْدَلُسِ دَعْوَةً ، وَنَشَرُوا لَهُ ذِكْرًا ، وَوَافَقَ قُدُومُهُ مَا كَانَ مِنَ الْإِحَنِ (٤) بَيْنَ الْيَمَنِيَّةِ وَالْمُضَرِيَّةِ ، فَأَصْفَقَتِ (٥) الْيَمَنِيَّةُ عَلَى أَمْرِهِ ، لِكَوْنِ الْأَمْرِ كَانَ لِيُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفِهْرِيِّ وَصَاحِبِهِ الصُّمَيْلِ ، وَرَجَعَ بَدْرٌ مَوْلَاهُ إِلَيْهِ بِالْخَبَرِ فَأَجَازَ

على شاطئ البحر كان فيه مرسى للمراكب ومنها تجلب الحنطة الى شرق الأندلس — ومكناسة أيضا حصن بالأندلس من أعمال ماردة (١) قبيلة عظيمة من البربر وكان لهم بالأندلس رياسة وكثرة وخرج منهم على عبد الرحمن الداخل شقنا بن عبد الواحد سنة ١٥١ وكانوا من أهل مواطن ملوية ومليلة وغيرهما من المدن (٢) زناتة بكسر الزاى ، وقد تفتح ، قبيلة عظيمة بالمغرب وجيل قديم العهد فيه ذوو بأس وقوة ومنعة وهم بطون كثيرة متفرقون فى المواطن ، وهم الذين اختطوا مدينة تلمسان — ومنهم بنو مرين وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا وأعظمهم دولة ، ومنهم بنو عبد الواد يلونهم فى الكثرة والقوة ، وبنو توجين من بعدهم . وزناتة ناحية بسرقسطة (٣) مليلة مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر (٤) الاحن : الأحقاد والعداوة ، جمع احنة (٥) أى أجمعت واتفقت

ٱلْبَحْرَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي خِلَافَةِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ ، وَنَزَلَ بِسَاحِلِ ٱلْمُنَكَّبِ (١) ، وَأَتَاهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ إِشْبِيلِيَةَ فَبَايَعُوهُ ، ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى كُورَةِ رَيَّةَ (٢) ، فَبَايَعَهُ عَامِلُهَا عِيسَى بْنُ مُسَاوِرٍ ، ثُمَّ إِلَى شَذُونَةَ (٣) ، فَبَايَعَهُ عَتَّابُ بْنُ عَلْقَمَةَ ٱللَّخْمِيُّ ، ثُمَّ إِلَى مَوْزُورَ (٤) فَبَايَعَهُ ٱبْنُ ٱلصَّبَّاحِ (٥) ، وَنَهَدَ (٦) إِلَى قُرْطُبَةَ ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ ٱلْيَمَنِيَّةُ ، وَنُمِيَ خَبَرُهُ إِلَى وَالِي ٱلْأَنْدَلُسِ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلْفِهْرِيِّ — وَكَانَ غَازِيًا بِجِلِّيقِيَّةَ — فَٱمْتَعَضَ

---

(١) تقدم التعريف به (٢) رية : كورة واسعة بالأندلس متصلة بالجزيرة الخضراء وهى قبلى قرطبة (٣) مدينة وكورة تتصل بكورة موزور وهى منحرفة عن موزور الى الغرب مائلة الى القبلة وغربى قرطبة ، منها عتاب بن هرون بن عتاب بن بشر بن أيوب الشافعى الشذونى توفى سنة ٣١٨ ، وفى الأصل (شدونة) بالدال المهملة وهو تحريف (٤) موزور : كورة تتصل أعمالها بأعمال قرمونة وهى من قرطبة بين الغرب والقبلة كثيرة الزيتون والفواكه بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا ، ينسب إليها عبدالسلام بن السمح بن نائل بن عبد الله الهراوى الموزورى المحدث النحوى توفى بقرطبة سنة ٣٨٧ . وفى الأصل مورور بالراء المهملة محرفة (٥) اسمه يحيى بن يحيى (٦) نهد بالأمر: نهض به ومضى فيه ، ونهد لعدوه: صمد لهم وشرع فى قتالهم

عَسْكَرُهُ وَرَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ وَزِيرُهُ الصُّمَيْلُ بْنُ حَاتِمٍ بِالتَّلَطُّفِ لَهُ وَالْمَكْرِ بِهِ لِكَوْنِهِ صَغِيرَ السِّنِّ حَدِيثَ عَهْدٍ بِنِعْمَةٍ، فَلَمْ يَتِمَّ مَا أَرَادَهُ، وَارْتَحَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مِنَ الْمُنَكَّبِ فَاحْتَلَّ بِمَالَقَةَ فَبَايَعَهُ جُنْدُهَا، ثُمَّ بِرُنْدَةَ[1] ثُمَّ بِشَرِيش[2] كَذَلِكَ، ثُمَّ بِإِشْبِيلِيَةَ، فَتَوَافَتْ إِلَيْهِ جُنُودُ الْأَمْصَارِ، وَتَسَايَلَتِ[3] الْمُضَرِيَّةُ إِلَيْهِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَعَ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ غَيْرُ الْفِهْرِيَّةِ وَالْقَيْسِيَّةِ لِمَكَانِ الصُّمَيْلِ مِنْهُ زَحَفَ حِينَئِذٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلُ وَنَاجَزَهُمُ[4] الْحَرْبَ بِظَاهِرِ قُرْطُبَةَ، فَانْكَشَفَ يُوسُفُ وَلَجَأَ إِلَى غَرْنَاطَةَ فَتَحَصَّنَ بِهَا، وَأَتْبَعَهُ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَنَازَلَهُ، ثُمَّ رَغِبَ إِلَيْهِ يُوسُفُ فِي الصُّلْحِ، فَعَقَدَ لَهُ

(١) رندة : معقل حصين على نهر جار بين اشبيلية ومالقة . منها خطيبها البليغ اللغوي عبيد الله بن عاصم القيسي الرندى توفى سنة ٦٤٩ (٢) مدينة كبيرة على الوادى الكبير منها كانت قاعدة كورة شذونة ، قال مؤرخو الأندلس: هى بنت أشبيلية وواديها واديها منها شارح مقامات الحريري أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي ، ومنها جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله دخل مصر وتوفى سنة ٦٨٨ (٣) تسايلت الخ : جاءت من كل ناحية (٤) ناجزهم : بارزهم وقاتلهم ، ويقال تناجز القوم أى تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك وأنجزوه

عَلَى أَنْ يَسْكُنَ قُرْطُبَةَ ثُمَّ أَقْفَلَهُ مَعَهُ ، ثُمَّ نَقَضَ يُوسُفُ عَهْدَهُ وَخَرَجَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ وَلَحِقَ بِطُلَيْطُلَةَ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ زُهَاءَ عِشْرِينَ أَلْفاً مِنَ الْبَرْبَرِ ، وَقَدِمَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِلِقَائِهِ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ عُمَرَ الْمَرْوَانِيَّ ، وَكَانَ وَفَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، وَكَانَ أَبُوهُ عُمَرُ بْنُ(١) مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي كَفَالَةِ أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ بِمِصْرَ .

***

التمهيد لسلطان بني مروان بالأندلس

فَلَمَّا دَخَلَتِ الْمُسَوِّدَةُ أَرْضَ مِصْرَ خَرَجَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَؤُمُّ الْأَنْدَلُسَ فِي عَشَرَةِ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ مَشْهُورِينَ بِالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، حَتَّى نَزَلَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ ، فَعَقَدَ لَهُ عَلَى إِشْبِيلِيَةَ ، وَلِابْنِهِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى مُورُورَ ، وَسَارَ يُوسُفُ إِلَيْهِمَا ، وَخَرَجَا إِلَيْهِ وَلَقِيَاهُ ، وَتَنَاجَزَ الْفَرِيقَانِ فَكَانَتِ الدَّائِرَةُ(٢) عَلَى يُوسُفَ ، وَأَبْعَدَ

---

(١) توفي سنة ١١٥ ومن ذريته بالأندلس عبد الله بن الحسن (أو الحر) ابن سعيد بن بشر بن عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم توفي بالأندلس قريبا من سنة ٣١٠ هـ وعبد الملك بن عمر بن مروان يلقب صقر بني أمية وهو الذي كان سبب قطع الدعوة العباسية بالأندلس

(٢) الدائرة : كناية عن الغلبة والقهر .

ٱلْمَفَرَّ، وَٱغْتَالَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بِنَاحِيَةِ طُلَيْطُلَةَ وَٱحْتَزَّ رَأْسَهُ وَتَقَدَّمَ بِهِ إِلَى ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ، فَٱسْتَقَامَ أَمْرُهُ، وَٱسْتَقَرَّ بِقُرْطُبَةَ، وَثَبَّتَ قَدَمَهُ فِي ٱلْمُلْكِ، وَبَنَى ٱلْمَسْجِدَ ٱلْجَامِعَ وَٱلْقَصْرَ بِقُرْطُبَةَ، وَأَنْفَقَ فِيهِ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَمَاتَ قَبْلَ تَمَامِهِ، وَبَنَى مَسَاجِدَ. وَوَفَدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ، وَكَانَ يَدْعُو لِلْمَنْصُورِ ثُمَّ قَطَعَ دَعْوَتَهُ، وَمَهَّدَ ٱلدَّوْلَةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ، وَأَثَّلَ[1] بِهَا ٱلْمُلْكَ ٱلْعَظِيمَ لِبَنِي مَرْوَانَ وَٱلسُّلْطَانَ ٱلْعَزِيزَ، وَجَدَّدَ مَا طَمَسَ لَهُمْ بِٱلْمَشْرِقِ مِنْ مَعَالِمِ ٱلْخِلَافَةِ وَآثَارِهَا، وَٱسْتَلْحَمَ[2] ٱلثُّوَّارَ عَلَيْهِ عَلَى كَثْرَتِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي، وَقَطَعَ دَعْوَةَ آلِ ٱلْعَبَّاسِ مِنْ مَنَابِرِ ٱلْأَنْدَلُسِ، وَسَدَّ ٱلْمَذَاهِبَ مِنْهُمْ دُونَهَا، وَهَلَكَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ. وَكَانَ يُعْرَفُ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلدَّاخِلِ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ دَاخِلٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْوَانَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ.

---

(١) أثل : أصل وثبت (٢) استلحم الثوار الخ تبعهم وأرهقهم فى القتال ؛ واستلحم الرجل اذا احتوشه العدو فى القتال ، واستلحمه الخطب : نشب فيه

وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورُ يُسَمِّيهِ صَقْرَ قُرَيْشٍ، لِمَا رَأَى أَنَّهُ فَعَلَ بِالْأَنْدَلُسِ مَا فَعَلَ، وَمَا رَكِبَ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْأَخْطَارِ، وَأَنَّهُ نَهَدَ إِلَيْهَا مِنْ أَنْأَى دِيَارِ ٱلْمَشْرِقِ، مِنْ غَيْرِ عِصَابَةٍ وَلَا أَنْصَارٍ، فَغَلَبَ أَهْلَهَا عَلَى أَمْرِهِمْ، وَتَنَاوَلَ ٱلْمُلْكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ بِقُوَّةِ شَكِيمَةٍ⁽¹⁾ وَمَضَاءِ عَزْمٍ، حَتَّى ٱنْقَادَ لَهُ ٱلْأَمْرُ، وَجَرَى عَلَى ٱخْتِيَارِهِ، وَأَوْرَثَهُ عَقِبَهُ. وَكَانَ يُسَمَّى بِالْأَمِيرِ، وَعَلَيْهِ جَرَى بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمْ يَدَّعِ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ تَأَدُّبًا مَعَ ٱلْخِلَافَةِ بِمَقَرِّ ٱلْإِسْلَامِ وَمُنْتَدَى ٱلْعَرَبِ، حَتَّى كَانَ مِنْ عَقِبِهِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرُ — وَهُوَ ثَامِنُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ — فَتَسَمَّى بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا سَنَذْكُرُهُ، لِمَا رَأَى مِنْ ضَعْفِ خُلَفَاءِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ بَعْدَ ٱلثَّلَثِمِائَةِ وَغَلَبَةِ ٱلْأَعَاجِمِ عَلَيْهِمْ، وَكَوْنِهِمْ لَمْ يَتْرُكُوا لَهُمْ غَيْرَ ٱلِاسْمِ، وَتَوَارَثَ ٱلتَّلْقِيبَ

(١) الشكيمة: الأنفة والانتصار من الظلم وقوة القلب، وفلان شديد الشكيمة أى قوى النفس أبى أنف (وأصله من شكيمة اللجام وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس فيها الفأس، وفأس اللجام هى الحديدة القائمة فى الشكيمة) وفلان ذو شكيمة اذا كان ذا عارضة وحدة صارما لا ينقاد حازما

بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَنُو عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ.

***

ملك بني عبد الرحمن

« قَالَ أَبْنُ حَيَّانَ » : وَكَانَ لِبَنِي عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلِ بِالْعُدْوَةِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ مُلْكٌ ضَخْمٌ وَدَوْلَةٌ مُتَّسِعَةٌ ٱتَّصَلَتْ إِلَى مَا بَعْدَ ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ ، وَعِنْدَ مَا شُغِلَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ وَتَمْهِيدِ أَمْرِهِ قَوِيَ أَمْرُ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُمْ ، وَعَمَدَ فَرْوِيلَةُ بْنُ أَذْفُونْشَ مَلِكُهُمْ إِلَى ثُغُورِ ٱلْبِلَادِ فَأَخْرَجَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْهَا وَمَلَكَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَمَلَكَ مَدِينَةَ لُكَ(١) وَبُرْتُقَالَ(٢) وَسَمُّورَةَ(٣) وَقَشْتَالَةَ(٤)

---

(١) مدينة من أعمال فحص البلوط Luque (٢) Porto مدينة هي الآن عاصمة الاقليم المعروف المسمى بهذا الاسم على بعد نحو ٢٧٥ كيلو مترا من أشبونة أو لشبونة شمالا ، وقد كان لهذه المدينة شأن عظيم في أيام العرب، وقد كانوا يجيشونها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ أقدامهم فيها ولهذا لم يتركوا بها آثارا تذكر ، وكان للمنصور ابن أبي عامر قد دمرها وظلت خرابا مدة طويلة «نحو ٨٠ سنة» (٣) مدينة في وسط اسبانيا الشمالي من اقليم ليون الذي كان يشمل مدنا كثيرة منها سمورة وسلمنقه وقلمرية وغيرها (٤) قشتالة اسم لاقليم عظيم كانت قصبته طليطلة . وقد كونت بقية العتة اللاجئة الى صخرة جليقية مملكة قشتالة ثم كانوا سببا في اخراج المسلمين من جليقية وهي قشتيلية . وآل الأمر الى أن كان ملوك غرناطة يعطون الجزية عن يد لملوك قشتالة

وَشَقُوبِيَةَ(١)، وَصَارَتْ لِلْجَلَالِقَةِ، حَتَّى افْتَتَحَهَا الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ آخِرَ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ اسْتَعَادُوهَا بَعْدَهُ فِيمَا اسْتَعَادُوا مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِهَا حَسْبَمَا يُذْكَرُ وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ الْأَمْرُ. انتهى

***

مخاطبة عبد الرحمن لملك الفرنج

وَخَاطَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَارِلَةَ مَلِكَ الْإِفْرَنْجِ، وَكَانَ مِنْ طُغَاةِ الْإِفْرَنْجِ بَعْدَ أَنْ تَمَرَّسَ(٢) بِهِ مُدَّةً، فَأَصَابَهُ

زمنا طويلا وكانت مملكتهم قد اتسعت رقعتها فصارت مملكة عظيمة ذات عمالات فسيحة تشتمل على طليطلة وقشتالة وأشبيلية و بلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها. (١) Ségovie هي من قشتالة في الحد المتوسط من إسبانيا ما بين الجنوب والغرب ومنه مدينة طليطلة وطليرة ومدريد وأقليش ومكادة وويذة وشقوبية، ولم تلبث هذه الجهات بعد أن ملكها الافرنج، بل اتفق سنة ٤٠١ مات الأذفونش ملك جليقية وملك بعده ابنه وكان أشجع من أبيه وأحسن سياسة للملك وضبطا له فقوى أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد وملك هذه المدائن: ثلك، و برتقال، وشلمنقه، وسمورة، وشقوبية، وغيرها من معظم اقليم قشتالة العظيم. ولما آل أمر بقايا العرب بالأندلس إلى الاضمحلال والضعف تناسوا لغتهم وأساليبها وطغت عليهم العجمة الافرنجية حتى كان منهم (الدون عيسى دوجابر) الفقيه الأكبر بجامع شقوبية سنة ١٤٦٢ م بل انه ألف كتابا في الفقه الاسلامي باللغة الاسبانية وطبعته جمعية التاريخ الملوكية بمدريد سنة ١٨٥٣ (٢) تمرس به: احتك وتمسح ، ويقال فلان يتمرس بي أي يتعرض لي بالأذى والشر قال الشاعر:

صُلْبَ[1] ٱلْمَكْسِرِ ، تَامَّ ٱلرُّجُولِيَّةِ فَمَالَ مَعَهُ إِلَى ٱلْمُدَارَاةِ ، وَدَعَاهُ إِلَى ٱلْمُصَاهَرَةِ وَٱلسِّلْمِ ، فَأَجَابَهُ لِلسِّلْمِ وَلَمْ تَتِمَّ ٱلْمُصَاهَرَةُ .

قَالَ ٱبْنُ حَيَّانَ : وَلَمَّا أَلْفَى ٱلدَّاخِلُ ٱلْأَنْدَلُسَ ثَغْرًا قَاصِيًا غُفْلًا[2] مِنْ حِلْيَةِ ٱلْمُلْكِ عَاطِلًا أَرْهَفَ[3] أَهْلَهَا بِالطَّاعَةِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ، وَحَنَّكَهُمْ بِالسِّيرَةِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ ، وَأَخَذَهُمْ بِالْآدَابِ ، فَأَكْسَبَهُمْ عَمَّا قَلِيلٍ ٱلْمُرُوءَةَ ، وَأَقَامَهُمْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ[4] ، وَبَدَأَ فَدَوَّنَ ٱلدَّوَاوِينَ ، وَرَفَعَ ٱلْأَوَاوِينَ[5] ، وَفَرَضَ ٱلْأَعْطِيَةَ ، وَعَقَدَ

وأحق غريض عليه غضاضة تمرس بى من حينه وأنا الرقم

وتمارسوا فى الحرب : تضاربوا ، والممارسة : شدة علاج الشىء ومزاولته ، وفلان قد تمرس بالنوائب والخصومات اذا مارسها ، وما بفلان متمرس : اذا كان شجاعا لا ينال العدو منه . (١) يقال : فلان صلب المكسر ، وصلب العود وصلب المعاجم اذا كان قويا شديدا لا يستهان به ولا يطمع فيه . وفى الأصل صلب المكر ، محرفة (٢) غفلا : خاليا مجردا (٣) رهف : رق ولطف (٤) الطريقة : الحال والسيرة والمذهب وكل مسلك يسلكه الانسان فى فعل محمودا كان أو مذموما ، تقول فلان على طريقة حسنة ، وعلى طريقة سيئة ، والمراد هنا الحال الحسنة « وقوله تعالى : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) أى على طريقة الهدى وجاءت مرفقيال على التفخيم (٥) الأواوين : جمع ايوان : الصفة العظيمة كالأزج ، فارسى . ومنه ايوان كسرى ، وفى المحكم الايوان : شبه أزج غير مسدود الوجه . وهو المسمى بالعامية « لوان » والأزج : بيت يبنى طولا

الْأَلْوِيَةَ، وَجَنَّدَ الْأَجْنَادَ، وَرَفَعَ الْعِمَادَ(١)، وَأَوْثَقَ(٢) الْأَوْتَادَ. فَأَقَامَ لِلْمُلْكِ آلَتَهُ، وَأَخَذَ لِلسُّلْطَانِ عُدَّتَهُ، فَاعْتَرَفَ لَهُ بِذَلِكَ أَكَابِرُ الْمُلُوكِ، وَحَذِرُوا جَانِبَهُ، وَتَحَامَوْا حَوْزَتَهُ(٣). وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَانَتْ لَهُ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَقَلَّ لَهُ الْأَمْرُ فِيهَا. فَلِذَلِكَ مَا ظَلَّ عَدُوُّهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ بِصِدْقِ حِسِّهِ، وَبُعْدِ غَوْرِهِ(٤)، وَسَعَةِ إِحَاطَتِهِ، يَسْتَرْجِحُ(٥) عَبْدَ الرَّحْمَنِ كَثِيرًا وَيَعْدِلُهُ بِنَفْسِهِ، وَيُكْثِرُ ذِكْرَهُ، وَيَقُولُ: لَا تَعْجَبُوا لِامْتِدَادِ أَمْرِنَا مَعَ طُولِ مِرَاسِهِ، وَقُوَّةِ أَسْبَابِهِ، فَالشَّأْنُ فِي

(١) العماد : الأبنية الرفيعة جمع عمادة، ورجل رفيع العماد : أي سيد شريف (٢) أحكم وقوى، والجملة كناية عن احكام الأمور وتثبيت دعائم الدولة على أسس قوية ورفع قواعد الملك على بناء وطيد، ويقال وتد فلان رجله في الأرض اذا ثبتها، قال بشار :

ولقد قلت حين وتد في الأر ض ثبير أربى على ثهلان

، ووتد الرجل في بيته : أقام وثبت، ووتد الزرع : طلع نباته فثبت وقوى (٣) حوزة الرجل : ما في حيزه وملكه، والحوزة : الناحية. يقال فلان مانع حوزته : أي لما في حيزه، وحمى أبو بكر حوزة الاسلام : أي حدوده ونواحيه، والحوزة : بيضة الملك وحرماته (٤) رجل بعيد الغور : أي سديد الرأي جيده عميق التفكير بعيد النظر واسع الحيلة (٥) يسترجح الخ : يعده راجحا رزينا عاقلا.

أَمْرِ فَتَى قُرَيْشٍ ٱلْأَحْوَذِيِّ[١] ٱلْفَذِّ[٢] فِي جَمِيعِ شُؤُونِهِ، وَعَدَمِهِ لِأَهْلِهِ وَنَشَبِهِ،[٣] وَتَسَلِّيهِ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ بِمَدِّ مَرْقَى هِمَّتِهِ، وَمَضَاءِ عَزِيمَتِهِ، حَتَّى قَذَفَ نَفْسَهُ فِي لُجَجِ ٱلْمَهَالِكِ لِابْتِنَاءِ مَجْدِهِ، فَاقْتَحَمَ جَزِيرَةً شَاسِعَةَ ٱلْمَحَلِّ، نَائِيَةَ ٱلْمَطْمَعِ، عَصِيَّةَ ٱلْجُنْدِ، ضَرَبَ بَيْنَ جُنْدِهَا بِخُصُوصِيَّتِهِ، وَقَمَعَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ بِقُوَّةِ حِيلَتِهِ، وَأَسْتَمَالَ قُلُوبَ رَعِيَّتِهَا بِقَضِيَّةِ[٤] سِيَاسَتِهِ حَتَّى أَنْقَادَ لَهُ عَصِيُّهُمْ، وَذَلَّ لَهُ أَبِيُّهُمْ، فَاسْتَوَى فِيهَا عَلَى أَرِيكَتِهِ[٥]، مَلِكاً عَلَى قَطِيعَتِهِ[٦]، قَاهِرًا لِأَعْدَائِهِ، حَامِيًا

---

(١) الأحوذى: المشمر فى الأمور القاهر لها لا يشذ عليه شىء، ومن يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها، والرجل الجاد الخفيف فى أموره الحسن السياق لها. والحاذق السريع فى كل ما أخذ فيه (٢) الفذ: الفرد العديم النظير (٣) النشب: المال الأصيل من الناطق والصامت، والعقار، وأكثر ما يستعمل فى الأشياء الثابتة التى لا براح بها كالدور والضياع، والمال أكثر ما يستعمل فيما ليس بثابت كالدراهم والدنانير. (٤) كذا بالأصل: وربما كانت محرفة عن كلمة أخرى مثل: فيصل، فصل، فضيلة — والخصوصية: الفضل والميزة. والخصوص التفرد ببعض الشىء مما لا تشارك فيه الجملة. والفصل: القضاء بين الحق والباطل كالفيصل. والقضية: القضاء والحكم (٥) الأريكة فى الأصل سرير فى حجلة من دونه ستر، أو كل ما يتكأ عليه من سرير أو فراش أو منصة، والمراد كرسى المملكة (٦) القطيعة فى الأصل طائفة من أرض الخراج،

لِذِمَارِهِ[1] مَانِعاً لِحَوْزَتِهِ ، خَالِطاً ٱلرَّغْبَةَ إِلَيْهِ بِالرَّهْبَةِ مِنْهُ ، إِنَّ ذٰلِكَ لَهُوَ ٱلْفَتَى كُلُّ ٱلْفَتَى ، لَا يَكْذِبُ مَادِحُهُ . وَجَعَلَ أَبْنُ حَيَّانَ مِنَ ٱلنَّوَادِرِ ٱلْعَجِيبَةِ مُوَافَقَةَ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ هٰذَا لِأَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ فِي ٱلرُّجُولِيَّةِ[2] ، وَٱلِاسْتِيلَاءِ وَٱلصَّرَامَةِ وَٱلِاجْتِرَاءِ عَلَى ٱلْكَبَائِرِ وَٱلْقَسَاوَةِ ، فَإِنَّ أُمَّ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَرْبَرِيَّةٌ . وَكَانَ ٱلدَّاخِلُ يَقْعُدُ لِلْعَامَّةِ وَيَسْمَعُ مِنْهُمْ ، وَيَنْظُرُ بِنَفْسِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ ، فَيَصِلُ ٱلضَّعِيفُ مِنْهُمْ إِلَى رَفْعِ ظُلَامَتِهِ إِلَيْهِ دُونَ مَشَقَّةٍ . وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ أَدْرَكَ وَقْتَ طَعَامِهِ ، وَمَنْ وَافَقَ ذٰلِكَ مِنْ طُلَّابِ ٱلْحَوَائِجِ أَكَلَ مَعَهُ .

***

وصف عبد الرحمن الناصر

« وَفِي كِتَابِ أَبْنِ زَيْدُونَ » أَنَّهُ كَانَ أَصْهَبَ[3] خَفِيفَ ٱلْعَارِضَيْنِ ، بِوَجْهِهِ خَالٌ ، طَوِيلَ ٱلْقَامَةِ ، نَحِيفَ ٱلْجِسْمِ ، لَهُ

والاقطاع يكون تمليكا وغير تمليك . والغرض هنا تملكه

(١) الذمار : كل ما يلزم المرء حمايته وحفظه وان ضيعه لزمه اللوم . وسمي ذمارا لأنه يجب على أهله التذمر له — أي الغضب — اذا انتهكت حرمته

(٢) يقال هو رجل بين الرجولية والرجولة : اذا كان كاملا شهما قويا

(٣) الصهبة : لون حمرة أو شقرة في شعر الرأس

صَفِيرَتَانِ ، أَعْوَرَ أَخْشَمَ ـ وَالْأَخْشَمُ الَّذِي لَا يَشَمُّ (١) .
وَكَانَ يُلَقَّبُ بِصَقْرِ قُرَيْشٍ ، لِكَوْنِهِ تَغَرَّبَ وَقَطَعَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ ، وَأَقَامَ مُلْكاً قَدْ أَدْبَرَ وَحْدَهُ . وَلَمَّا ذَكَرَ الْحِجَارِيُّ أَنَّهُ أَعْوَرُ قَالَ : مَا أُنْشِدُ فِيهِ إِلَّا قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ :

لَكِنْ عُوَيْرٌ وَفَى بِذِمَّتِهِ (٢)   لَا عَوَرٌ شَانَهُ وَلَا قِصَرُ

***

دعاء العلاء لأبي جعفر المنصور

« وَقَالَ (٣) ابْنُ خَلْدُونَ » وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَارَ

---

(١) والأخشم أيضا واسع الأنف ، وفعله كفرح وهو مأخوذ من الخيشوم (٢) من أبيات يمدح بها عوير بن شجنة الطائي وهو أحد من أجار امرأ القيس وكان قد أجار هندا بنت حجر أخت امرىء القيس فوفى لها حتى أتى نجران فمدحه بوفاء الذمة ونزهه من كل عيب يشين غيره، وأول الأبيات الخمسة :

ان بني عوف ابتنوا حسبا   ضيعه الدخللون اذ غدروا

« الدخلل والدخيل الذى يداخل الرجل فى أمره وصاحبه عليه وهم خلصة المرء ـ يقول ان بنى عوف ابتنوا حسبا باجارتهم لى وذبهم عنى على حين ضيع ذلك الحسب خلصتى وقومى اذ لم ينصرونى على طلب ثارى» وقال أيضا يمدحه من أبيات أخرى :

وما فعلوا فعل العوير بجاره   لدى باب هند اذ تجرد قائما

يريد بقوله تجرد قائما أنه جد فى نصرته والدفع عنه. وله فيه من قصيدة :

عوير ومن مثل العوير ورهطه   وأسعد فى ليل البلابل صفوان
ثياب بنى عوف طهارى نقية   وأوجههم عند المشاهد غران

وصفوان رجل أيضا من الذين حموه وتحرموهم، والبلابل: الهموم والأفكار
(٣) فى ابن خلدون تسع وأربعون

ٱلْعَلَاءُ بْنُ مُغِيثٍ ٱلْيَحْصُبِيُّ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ، وَنَزَلَ بِبَاجَةِ(١) ٱلْأَنْدَلُسِ دَاعِيًا لِأَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ، وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ خَلْقٌ، فَسَارَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ إِلَيْهِ وَلَقِيَهُ بِنَوَاحِي إِشْبِيلِيَةَ فَقَاتَلَهُ أَيَّامًا، ثُمَّ ٱنْهَزَمَ ٱلْعَلَاءُ وَقُتِلَ فِي سَبْعَةِ آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَبَعَثَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بِرُءُوسِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى ٱلْقَيْرَوَانِ(٢) وَمَكَّةَ، فَأُلْقِيَتْ فِي أَسْوَاقِهَا سِرًّا وَمَعَهَا ٱللِّوَاءُ(٣) ٱلْأَسْوَدُ وَكِتَابُ ٱلْمَنْصُورِ لِلْعَلَاءِ، فَٱرْتَاعَ(٤) ٱلْمَنْصُورُ لِذٰلِكَ وَقَالَ: مَا هٰذَا إِلَّا شَيْطَانٌ وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي جَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ٱلْبَحْرَ ـ أَوْ كَلَامًا هٰذَا مَعْنَاهُ ـ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ ذٰلِكَ.

---

(١) باجة Béja كورة من أعمال غرناطة وهى الى الشمال والشرق منها وكان بها أطلال قصر عربى قديم، وبها كنيسة من عهد ملوك القوط وكان العرب قد حولتها مسجداً ثم تحول المسجد كنيسة فى إثر رحيل العرب عن الأندلس، وكانت باجة من أعمال بلنسية أيام بنى عباد، وبها ولد المعتمد بن عباد (٢) أمر عبد الرحمن بعض التجار بحمل رأس العلاء ورءوس جماعة من مشهوري أصحابه الخ، ثم حمل منها شيء الى مكة فوصلت وكان بها المنصور، وكان مع الرءوس لواء أسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء.
(٣) اللواء: الراية «العلم» واللواء الأسود راية بنى العباس وشعارهم السواد
(٤) ارتاع: فزع وهاله الأمر

وَكَثُرَتْ ثَوْرَةُ رُؤَسَاءِ الْعَرَبِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الدَّاخِلِ، وَنَافَسُوهُ مُلْكَهُ، وَلَقِيَ مِنْهُمْ خُطُوبًا عَظِيمَةً، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُ. وَاسْتَرَابَ[1] فِي آخِرِ أَمْرِهِ بِالْعَرَبِ لِكَثْرَةِ مَنْ قَامَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، فَرَجَعَ إِلَى اصْطِنَاعِ[2] الْقَبَائِلِ مِنْ سِوَاهُمْ وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي. ثُمَّ غَزَا بِلَادَ الْإِفْرَنْجِ وَالْبَشْكَنْسِ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ وَرَجَعَ بِالظَّفَرِ، وَكَانَ فِي نِيَّتِهِ أَنْ يُجَدِّدَ دَوْلَةَ بَنِي مَرْوَانَ بِالْمَشْرِقِ فَمَاتَ دُونَ ذٰلِكَ الْأَمَلِ. وَكَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، إِذْ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، وَمَاتَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ، وَقِيلَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ، فِي خِلَافَةِ الرَّشِيدِ، وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ بَرْبَرِيَّةٌ[3] اسْمُهَا رَاحُ، وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ بِدَيْرِ حَنَّا[4] مِنْ أَرْضِ دِمَشْقَ، وَقِيلَ بِالْعَلْيَا

---

(١) استراب: شك فيهم واتهمهم (٢) اصطناع القبائل: مصافتهم ببذل المعروف لهم واصطفائهم لصنائعه، واختيارهم لمعروفه وأياديه، واصطنعه: اذا رباه وخرجه وجعله موضعا لبره واحسانه (٣) كانت أمه من سبي إفريقية (٤) المعروف أن دير حنة بالحيرة، أما أديرة

مِنْ تَدْمُرَ ، وَمَاتَ أَبُوهُ[1] فِي أَيَّامِ أَبِيهِ هِشَامٍ سَنَةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ عَنْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَكَفَلَهُ وَإِخْوَتَهُ جَدُّهُمْ هِشَامٌ ، وَوَهَبَ لِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ هٰذَا جَمِيعَ الْأَخْمَاسِ

الشام ودمشق فقد كانت كثيرة منها دير خالد ، ودير زكى ودير سابر ودير فطرس ، ودير بطرس ، ودير محمد ، ودير مران ، ودير هند ، وغيرها ومعروف أن عبد الرحمن ولد بأرض دمشق وقيل بالعلياء من ناحية تدمر وفى الأصل (تعمير) محرفة . وتدمر مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام . والعلا اسم لموضع من ناحية وادى القرى بينها و بين الشام . وعلاة حلب بالشام (١) كان أبوه معاوية بن هشام شجاعا مغوارا و بطلا مقداما وقائدا ماهرا وكانت له فى الروم والترك وغيرهم وقائع مشهورة فاصلة، وكان له فيهم كل عام جهاد موفق ، فمن صائفة مظفرة الى غزوة منتصرة ، فما ورث عبد الرحمن الداخل الشجاعة عن كلالة ، ولكن : ألفى أباه بهذا الكسب يكتسب ، وحق على ابن الصقر أن يشبه الصقر ، وكان عبد الرحمن الداخل عالما حازما سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه لايخلد الى راحة ولايسكن الى دعة ، ولا يكل الامور الى غيره ولا ينفرد فى الأمور برأيه ، شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر ، يكثر لبس البياض وكان مع هذا جوادا سخيا حليما شاعرا لسنا فصيحا ، و بنى رصافة قرطبة تشبها بجده هشام بانى رصافة الشام ، ولما سكنها رأى نخلة فيها متفردة فقال

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى ... يسح و يستمرى السماكين بالوبل

« أحمد نجاتى »

الَّتِي اجْتَمَعَتْ لِلْخُلَفَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَقْطَعَهُ إِيَّاهَا، وَوَجَّهَ لِحِيَازَتِهَا مِنَ الشَّامِ سَعِيدَ بْنَ أَبِي لَيْلَى. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا قَصَدَ الْمَغْرِبَ مِنْ فِلَسْطِينَ خَرَجَ مَعَهُ أَرْبَعَةٌ: بَدْرٌ مَوْلَى أَبِيهِ وَأَبُو شُجَاعٍ، وَزِيَادٌ، وَعَمْرٌو، وَقِيلَ إِنَّ بَدْرًا لَحِقَهُ وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ، فَاللهُ أَعْلَمُ. وَخَلَّفَ مِنَ الْوَلَدِ عِشْرِينَ، مِنْهُمْ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا وَتِسْعُ إِنَاثٍ.

***

هرب عبدالرحمن الى الأندلس

«وَحَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ» أَنَّهُ لَمَّا هَرَبَ مِنَ الشَّامِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ قَاصِدًا الْأَنْدَلُسَ نَزَلَ بِمُغِيلَةَ، فَصَارَ بِهَا عِنْدَ شَيْخٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْبَرْبَرِ يُدْعَى وَانْسُوسَ وَيُكْنَى أَبَا قُرَّةَ، فَاسْتَتَرَ عِنْدَهُ وَقْتًا، وَلَحِقَ بِهِ بَدْرٌ مَوْلَى أَبِيهِ بِجَوْهَرٍ وَذَهَبٍ أَنْفَذَتْهُ أُخْتُهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ وَاسْتَتَبَّ أَمْرُهُ بِهِ سَارَ إِلَيْهِ أَبُو قُرَّةَ وَانْسُوسُ الْبَرْبَرِيُّ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ وَحَظِيَ عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَ زَوْجَتَهُ تَكْفَاتَ الْبَرْبَرِيَّةَ الَّتِي خَبَّأَتْهُ تَحْتَ ثِيَابِهَا عِنْدَ مَا فَتَّشَتْ رُسُلُ ابْنِ حَبِيبٍ بَيْتَهَا عَنْهُ، فَقَالَ لَهَا

عَبْدُ الرَّحْمٰنِ مُدَاعِبًا حِينَ اسْتَظَلَّتْ بِظِلِّهِ فِي الْأَنْدَلُسِ : لَقَدْ عَذَّبْتِنِي بِرِيحِ إِبْطَيْكِ بِاتِّكَافَاتٍ عَلَى مَا كَانَ بِي مِنَ الْخَوْفِ، وَسَطَعْتِنِي[1] بِأَنْتَنَ مِنْ رِيحِ الْجِيَفِ . فَكَانَ جَوَابُهَا لَهُ مُسْرِعَةً : بَلْ ذٰلِكَ كَانَ وَاللّٰهِ يَاسَيِّدِي مِنْكَ خَرَجَ وَلَمْ تَشْعُرْ بِهِ مِنْ فَرْطِ فَزَعِكَ . فَاسْتَظْرَفَ جَوَابَهَا ، وَأَغْضَى عَنْ مُوَاجَهَتِهَا بِمِثْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مِنْ آفَاتِ الْمِزَاحِ[2] . وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّهُ أَدَارَ السُّورَ بِقُرْطُبَةَ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ ـ

---

(١) يقال سطعته رائحة المسك تسطعه : اذا طارت الى أنفه ، وسطعت الرائحة سطوعا : فاحت وعلت .

(٢) قال الشاعر :

فاياك اياك المزاح فانه يجري عليك الطفل والدنس النذلا

وقالوا : المزاح يبدى المهانة ويذهب المهابة « والغالب فيه واتر ، والمغلوب ثائر . ولكن لابأس بالمفاكهة تخرج الرجل من حال العبوس ، والناس فى سجن مالم يتمازحوا، ولكن لابد من القصد فيه فان الافراط به يذهب البهاء ويجرى على المرء السفهاء ، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين وقد كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الا حقا » أحمد تجاني »

***

تولية هشام ■ وَوَلِّيَ ٱلْمُلْكَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ هِشَامٌ* بِعَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ » وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ ٱسْمُهَا حُلَلُ ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ بِمَارِدَةَ وَالٍ عَلَيْهَا ، وَكَانَ أَبُوهُ يُوَلِّيهِ فِي صِبَاهُ وَيُرَشِّحُهُ لِلْأَمْرِ ، وَكَانَ ٱلدَّاخِلُ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُ عَنِ ٱبْنِهِ سُلَيْمَانَ(١) وَهِشَامٍ

---

* ترجم له فى كتاب تاريخ العرب والاسلام لأبى العيون ■ ج ٢ ص ١٢٢ » بما يأتى :

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان : تولى الامارة بعهد من أبيه ، «من سنة احدى وسبعين ومائة الى سنة ثمانين ومائة» وقد غلب عليه الحلم والاحسان والزهد، اتبع سنة العدل فى الرعية فأحبته ، وأنشأ العمارات ، وعطف على الفقراء والمساكين ، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، فكان يبث العيون والأرصاد بين القرى والأمصار ليخبروه بتجددات الأحوال حتى يقوم بما يجب لها ، توفى سنة ثمانين ومائة هجرية (قلت) وكنية هشام أبو الوليد، وكانت أمه أم ولد، وكان أبيض أشهل مشربا بحمرة بعينيه حول، وكان عاملا عاقلا حازما ذا رأى سديد وشجاعة حكيمة محبا لأهل الخير والصلاح شديدا على الأعداء راغبا فى الجهاد، ■ بلغ من عز الاسلام فى أيامه أن رجلا توفى فى عهده وكان قد وصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته فطلب ذلك فلم يوجد فى دار الكفار أسير مسلم يشترى لقوة المسلمين وضعف أعدائهم . ومناقبه ـ رحمه الله ـ كثيرة ، وخلف من الذرية خمسة بنين «أحمد تجانى»

(١) أفضى اليه : وصل اليه . (٢) هو أكبر أبنائه وكان واليا على طليطلة

فَيُذَكِّرُ لَهُ أَنَّ هِشَامًا إِذَا حَضَرَ مَجْلِسًا أَمْتَلأَ أَدَبًا وَتَارِيخًا وَذِكْرًا لِأُمُورِ الْحَرْبِ وَمَوَاقِفِ الْأَبْطَالِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَإِذَا حَضَرَ سُلَيْمَانُ مَجْلِسًا أَمْتَلأَ سُخْفًا وَهَذَيَانًا(١) ، فَيَكْبُرُ هِشَامٌ فِي عَيْنِهِ بِمِقْدَارِ مَا يَصْغُرُ سُلَيْمَانُ . وَقَالَ يَوْمًا لِهِشَامٍ لِمَنْ هَذَا الشِّعْرُ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا(٢)
وَمِنْ خَالِهِ أَوْ مِنْ يَزِيدَ وَمِنْ حُجُرْ(٣)

سَمَاحَةَ ذَا مَعْ بِرِّ ذَا وَوَفَاءِ ذَا
وَنَائِلِ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرْ

فَقَالَ لَهُ يَاسَيِّدِي لِامْرِئِ الْقَيْسِ(٤) مَلِكِ كِنْدَةَ ،

---

(١) الهذيان : الكلام الذى لاطائل تحته (٢) جمع شمال ، هو الخلق والطبع
(٣) يقرأ بضم الجيم اتباعا لضمة الحاء قبله ، وسكون الراء .
(٤) هما من قصيدة يمدح فيها سعد بن الضباب ، وسعد هنا أخو امرئ القيس وذلك أن أم سعد كانت تحت حجر أبى امرئ القيس فطلقها وهي حامل ولم يعلم بها فتزوجها الضباب فولدت سعدا على فراشه فلحق به نسبه وسقط نسبه الى حجر ، وهذا يدل على أن العرب كانت تجعل الولد للفراش ، وأول القصيدة :

لعمرك ماقلبي الى أهله بحر ولا مقصر يوما فيأتيني بقر

وَكَأَنَّهُ قَالَهُ فِي ٱلْأَمِيرِ ـ أَعَزَّهُ ٱللهُ ـ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ٱسْتِحْسَانًا بِمَا سَمِعَ مِنْهُ وَأَمَرَ لَهُ بِإِحْسَانٍ كَثِيرٍ، وَزَادَ فِي عَيْنِهِ، ثُمَّ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَى ٱنْفِرَادٍ: لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ؟ وَأَنْشَدَهُ ٱلْبَيْتَيْنِ ـ فَقَالَ: لَعَلَّهُمَا لِأَحَدِ أَجْلَافِ(١) ٱلْعَرَبِ، أَمَالِي شُغْلٌ غَيْرُ حِفْظِ أَقْوَالِ بَعْضِ ٱلْأَعْرَابِ؟ فَأَطْرَقَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ وَعَلِمَ قَدْرَ مَا بَيْنَ ٱلِاثْنَيْنِ مِنَ ٱلْمَزِيَّةِ. وَلَمَّا وَلِيَ هِشَامٌ أَشْخَصَ(٢) ٱلْمُنَجِّمَ ٱلْمَعْرُوفَ بِالضَّبِّيِّ مِنْ وَطَنِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ إِلَى قُرْطُبَةَ ـ وَكَانَ فِي عِلْمِ ٱلنُّجُومِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِالْحَرَكَاتِ ٱلْعُلْوِيَّةِ بَطْلَيْمُوسَ زَمَانِهِ حِذْقًا وَإِصَابَةً ـ فَلَمَّا أَتَاهُ خَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ: يَاضَبِّيُّ لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ عَنَاكَ مِنْ أَمْرِنَا إِذْ بَلَغَكَ

يقال للرجل اذا نزلت به مصيبة فلم يصبر عليها: ماوجد فلان حرا، فهو يقول ان قلبه لم يكن فى الجزع حرا يعنى انه لم يصبر ـ وهذا من رقيق الغزل، أى أن قلبي يعتقد أن الجزع فى الحب أحسن من الصبر، والى هذا نظر أبو تمام اذ يقول:

الصبر أجمل غير أن تلذذا ... فى الحب أحرى أن يكون جميلا

وقوله ولا مقصر: أى ولا هو نازع عما هو عليه، وقوله فيأتينى بقر أى لم أستطع الصبر عنهم فأستقر وأهدأ (١) الجلف: الغليظ الجافى خلقه والأحمق، والجمع أجلاف (٢) أشخص: بعث، وشخص من بلد الى بلد اذا ذهب ـ وأشخصه من المكان: أزعجه وأقلقه فذهب

مَالَمْ نَدَعْ تَحْدِيدَ(١) ٱلنَّظَرِ فِيهِ ، فَأَنْشُدُكَ(٢) ٱللهَ إِلَّا مَا نَبَّأْتَنَا بِمَا ظَهَرَ لَكَ فِيهِ ، فَلَجْلَجَ(٣) وَقَالَ : أَعْفِنِي أَيُّهَا ٱلْأَمِيرُ ، فَإِنِّي أَلْمَمْتُ(٤) بِهِ وَلَمْ أُحَقِّقِ ٱلنَّظَرَ فِيهِ لِجَلَالَتِهِ فِي نَفْسِي ، فَقَالَ لَهُ قَدْ أَجَّلْتُكَ لِذَلِكَ ، فَتَفَرَّغْ لِلنَّظَرِ فِيمَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْهُ . ثُمَّ أَحْضَرَهُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ جِدٌّ مِنِّي مَعَ أَنِّي وَٱللهِ مَا أَثِقُ بِحَقِيقَتِهِ ، إِذْ كَانَ مِنْ غَيْبِ ٱللهِ ٱلَّذِي ٱسْتَأْثَرَ بِهِ ، وَلَـٰكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ مَا عِنْدَكَ فِيهِ ، فَالنَّفْسُ طُلَعَةٌ(٥) ، وَأَلْزَمَهُ ٱلصِّلَةَ أَوِ ٱلْعُقُوبَةَ(٦) ، فَقَالَ : أَعْلَمْ أَيُّهَا

---

(١) حد بصره فى الشىء : واليه ، وأحده : حدقه ورماه به ، والغرض هنا اطالة التفكير واعمال الروية فى الأمر وشدة الاهتمام به (٢) أى أسألك بالله

(٣) اللجلجة : أن يتكلم الرجل بلسان غير بين ، ونقص الكلام والتردد فيه وألا يخرج بعضه فى أثر بعض (٤) أى لم أحقق علمه ولم أتعمق فيه بل كدت أصل اليه وأقاربه ، ومنه اللمم وهو صغار الذنوب ، ويقال مايزورنا الا لماما : أى أحيانا على غير مواظبة (٥) أى تكثر التطلع الى الشىء والوقوف عليه ، ومنه حديث الحسن البصرى : ان هذه النفوس طلعة فاقدعوها بالمواعظ والا نزعت بكم الى شر غاية . وقال الشاعر :

وما تمنيت من مال ومن عمر … الا بما سر نفس الحاسد الطلعه

(٦) أى ألزمه أحد الأمرين اما أن يصدع بما يعلمه ويخبره به على جليته فيصله ، واما أن يكتمه ولايبوح به فيعاقبه

ٱلْأَمِيرُ أَنَّهُ سَوْفَ يَسْتَقِرُّ مُلْكُكَ ، سَعِيدًا جَدُّكَ ، قَاهِرًا لِمَنْ عَادَاكَ ، إِلَّا أَنَّ مُدَّتَكَ فِيهِ فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ ٱلنَّظَرُ تَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَعْوَامٍ أَوْ نَحْوَهَا . فَأَطْرَقَ[١] سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : يَاشَيْخُ مَا أَخْوَفَنِي أَنْ يَكُونَ ٱلنَّذِيرُ[٢] كَلَّمَنِي بِلِسَانِكَ ، وَٱللَّهِ لَوْ أَنَّ هَـٰذِهِ ٱلْمُدَّةَ كَانَتْ فِي سَجْدَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى لَقَلَّتْ طَاعَةً لَهُ . وَوَصَلَهُ وَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَزَهِدَ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَزِمَ أَفْعَالَ ٱلْخَيْرِ وَٱلْبِرِّ « وَمِنْ حِكَايَاتِهِ فِي ٱلْجُودِ » أَنَّهُ كَانَ قَاعِدًا لِرَاحَتِهِ فِي عُلِّيَّةٍ[٣] عَلَى ٱلنَّهْرِ فِي حَيَاةِ وَالِدِهِ ، فَنَظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قُدَمَاءِ صَنَائِعِهِ مِنْ أَهْلِ جَيَّانَ قَدْ أَقْبَلَ يُوضِعُ[٤] ٱلسَّيْرَ فِي ٱلْهَاجِرَةِ[٥] ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَدَّرَ شَرًّا وَقَعَ بِهِ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ سُلَيْمَانَ — وَكَانَ وَالِيًا

---

(١) أطرق الرجل اذا سكت وخصه بعضهم : اذا كان عن فرق وخوف ، وقيل اذا سكت وأطرق ببصره الى صدره ساكتا (٢) النذير المنذر الذى يعلم القوم بما يكون قد دهمهم من عدو أوغيره ، وهو المخوف أيضا — وأنذره بالأمر أعلمه به وحذره منه وخوفه فى ابلاغه — ونذر بالشىء : علمه فحذره (٣) العلية : الغرفة (٤) يوضع السير : يسرعه (٥) الهاجرة : وقت اشتداد الحر فى الظهيرة

عَلَى جِبَّانَ ـ فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَهْيَمْ(١) يَا كِنَانِيُّ فَلِأَمْرٍ مَّا ؟ وَمَا أَحْسِبُكَ إِلَّا مُزْعَجًا لِشَيْءٍ دَهَمَكَ(٢) . فَقَالَ : نَعَمْ يَاسَيِّدِى ، قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِى رَجُلًا خَطَأً فَحُمِلَتِ الدِّيَةُ عَلَى الْعَاقِلَةِ(٣) ، فَأُخِذَ بِهَا مِنْ كِنَانَةَ عَامَّةً وَحَمَلْنَا(٤) عَلَيَّ مِنْ بَيْنِهِمْ خَاصَّةً ، وَقَصَدَنِي أَخُوكَ بِالِاعْتِدَاءِ إِذْ عَرَفَ مَكَانِي مِنْكَ . فَمَدَّ هِشَامٌ يَدَهُ إِلَى جَارِيَةٍ كَانَتْ وَرَاءَ السِّتْرِ وَقَطَعَ قِلَادَةَ عِقْدٍ نَفِيسٍ كَانَ فِي نَحْرِهَا وَقَالَ لَهُ دُونَكَ(٥) هَذَا الْعِقْدَ يَا كِنَانِيُّ ، وَشِرَاؤُهُ عَلَيَّ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ . فَلَا تُخْدَعَنَّ(٦) عَنْهُ وَبِعْهُ وَأَدِّ عَنْ نَفْسِكَ

(١) مهيم كلمة استفهام معناها : ما حالك وما شأنك ؟ أوما حدثك ؟ أو ما الخبر ، وهى كلمة يمانية اسم فعل بمعنى أخبرنى ، ومنه الحديث أنه رأى على عبد الرحمن بن عوف وضرا من صفرة فقال مهيم ؟ فقال تزوجت امرأة من الأنصار على نواة من ذهب ، فقال أو لم ولو بشاة
(٢) دهمه الأمر (كمنع وسمع) غشيه ونزل به فجأة ، والدهم : الفاجأة
(٣) العاقلة : قرابة الرجل وعشيرته وعصبته من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ (٤) فى العبارة شيء من الغموض ولعل الأصل « وحمل على من بينهم خاصة » أو : وحملنا من بينهم خاصة (٥) أى خذ (٦) أى لا يخدعك بعض الناس بوهمك أنه غير ثمين فيشتريه منك بثمن بخس

وَعَنْ قَوْمِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ ٱلرِّجَالَ مِنِ ٱهْتِضَامِكَ(١).
فَقَالَ يَاسَيِّدِي لَمْ آتِكَ مُسْتَجْدِيًا(٢)، وَلَا لِضِيقِ ٱلْمَالِ
عَمَّا حُمِّلْتُهُ، وَلَكِنِّي لَمَّا ٱعْتَمَدْتُ(٣) بِظُلْمٍ صُرَاحٍ(٤) أَحْبَبْتُ
أَنْ يَظْهَرَ عَلَيَّ عِزُّ نَصْرِكَ، وَأَثَرُ ذَبِّكَ(٥) وَٱمْتِعَاضِكَ(٦)،
فَأَمْجُدَ(٧) بِذَلِكَ عِنْدَ مَنْ يَحْسُدُنِي عَلَى ٱلِانْتِمَاءِ إِلَيْكَ.
فَقَالَ هِشَامٌ: فَمَا وَجْهُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَنْ تَكْتُبَ إِلَى
أَخِيكَ فِي ٱلْإِمْسَاكِ عَنِّي، وَٱلْقِيَامِ بِذِمَّتِكَ(٨) لِي، فَقَالَ
أَمْسِكِ ٱلْعَقْدَ، وَرَكِبَ مِنْ حِينِهِ إِلَى وَالِدِهِ ٱلدَّاخِلِ،
وَٱسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ أَنْكَرَهُ، فَٱرْتَعَجَ وَقَالَ:
مَا أَتَى بِأَبِي ٱلْوَلِيدِ فِي هَذَا ٱلْوَقْتِ إِلَّا أَمْرٌ مُقْلِقٌ،
إِيذَنُوا لَهُ. فَلَمَّا دَخَلَ سَلَّمَ عَلَيْهِ وَمَثَلَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْهِ،
فَقَالَ لَهُ: ٱجْلِسْ يَاهِشَامُ، فَقَالَ: — أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ —
يَاسَيِّدِي وَكَيْفَ جُلُوسِي بِهَمٍّ وَذُلٍّ مُزْعِجٍ؟ وَحَقّ

(١) هضمه واهتضمه وتهضمه: اذا ظلمه وغصبه حقه وقهره.
(٢) مستجديا: طالبا جدوى، أى عطاء واحسانا (٣) أى قصدت (٤) صراح: أى بين واضح يعرفه الناس (٥) ذبك: دفاعك وحمايتك (٦) الامتعاض: أن يشق الأمر المكروه على الانسان ويغضب له ويعظم عليه (٧) أى أفتخر وأظهر المجد والشرف: وتماجد الرجل: ذكر مجده (٨) ذمة: عهد وحرمة

لِمَنْ قَامَ مَقَامِي أَلَّا يَجْلِسَ إِلَّا مُطْمَئِنًّا ، وَلَنْ يُقْعِدَنِي إِلَّا طِيبُ نَفْسِي بِإِسْعَافِ ٱلْأَمِيرِ لِحَاجَتِي ، وَإِلَّا رَجَعْتُ عَلَى عَقِبِي . فَقَالَ لَهُ : حَاشَ لَكَ مِنَ ٱنْقِلَابِكَ[1] خَائِبًا ، فَاقْعُدْ مُجَابًا مُشَفَّعًا . فَجَلَسَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : فَمَا ٱلْحَدَثُ ٱلْمُقْلِقُ ؟ فَأَعْلَمَهُ . فَأَمَرَ بِحَمْلِ ٱلدِّيَةِ عَنْهُ وَعَنْ عَشِيرَتِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ ، فَسُرَّ هِشَامٌ وَأَطْنَبَ فِي ٱلشُّكْرِ ، وَكَتَبَ ٱلْأَمِيرُ إِلَى وَلَدِهِ سُلَيْمَانَ فِي تَرْكِ ٱلتَّعَرُّضِ لِهَذَا ٱلْكِنَانِيِّ بِمَا لَمْ يَدُرْ فِي خَلَدِهِ .

***

وداع الكناني لهشام

وَلَمَّا دَخَلَ ٱلْكِنَانِيُّ لِوَدَاعِ هِشَامٍ قَالَ لَهُ : يَاسَيِّدِي ، قَدْ تَجَاوَزَتْ بِكَ حَدَّ ٱلْأُمْنِيَّةِ ، وَبَلَغْتُ غَايَةَ ٱلنَّصْرِ ، وَقَدْ أَغْنَى ٱللهُ عَنِ ٱلْعِقْدِ ٱلْمَبْذُولِ بَيْنَ يَدَي ٱلْعِنَايَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ، فَتُعِيدُهُ إِلَى صَاحِبَتِهِ . فَأَبَى مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : لَا سَبِيلَ إِلَى رُجُوعِهِ إِلَيْنَا . وَكَانَ هِشَامٌ يَذْهَبُ بِسِيرَتِهِ مَذْهَبَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ، وَكَانَ يَبْعَثُ بِقَوْمٍ مِنْ ثِقَاتِهِ إِلَى ٱلْكُوَرِ[2] ، فَيَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ

(١) أي رجوعك وعودتك (٢) الكور : جمع كورة ، وهي المدينة والصقع

عَنْ سِيَرِ عُمَّالِهِ، وَيُخْبِرُونَهُ بِحَقَائِقِهَا، فَإِذَا أُنْتَهَى إِلَيْهِ حَيْفٌ[1] مِنْ أَحَدِهِمْ أَوْقَعَ بِهِ وَأَسْقَطَهُ، وَأَنْصَفَ مِنْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهُ بَعْدُ.

وَلَمَّا وَصَفَهُ زِيَادُ بْنُ[2] عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُزَيِّنَ مَوْسِمَنَا[3] بِمِثْلِ هَذَا.

***

فتح أربونة وَفِي أَيَّامِهِ فُتِحَتْ أَرْبُونَةُ[4] الشَّهِيرَةُ، وَاشْتَرَطَ عَلَى الْمُعَاهِدِينَ مِنْ أَهْلِ جِلِّيقِيَّةَ مِنْ صِعَابِ شُرُوطِهِ انْتِقَالَ عَدَدٍ مِنْ

(١) الحيف: الظلم والجور (٢) زياد بن عبد الرحمن بن زياد دخل الأندلس مع عبد الرحمن الداخل وهو من أهل الشام، وكان منزل بني زياد بها مشهورا بين غزة وبيت المقدس. وابنه محمد بن زياد بن عبد الرحمن الأندلسي ولي القضاء بالأندلس في امارة عبد الرحمن بن الحكم وولي الصلاة في امارة ولده محمد بن عبد الرحمن، وتوفي هنالك سنة بضع وأربعين ومائتين. ومن نسله بالأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الله بن محمد بن زياد بن أحمد بن زياد بن عبد الرحمن من أهل قرطبة، وتولى القضاء في الفتنة ببعض الكور، ولد سنة ٣٤٧ وتوفي سنة ٤٣٠.

(٣) موسم الحج مجتمعه، وكذا موسم السوق، وأظن الامام رضي الله عنه يعرض ببعض خلفاء بني العباس (٤) أربونة: بفتح أوله ويضم ثم السكون وضم الباء الموحدة وسكون الواو ونون وهاء، بلد في طرف الثغر من بلاد الأندلس، وهي الآن بيد الافرنج بينها وبين قرطبة على ماذكرهابن الفقيه ألف ميل. والله أعلم. معجم البلدان (ج١ص١٧٦)

أَحْمَالَ ٱلتُّرَابِ مِنْ سُورِ أَرْبُونَةَ ٱلْمُفْتَتَحَةِ يَحْمِلُونَهَا إِلَى بَابِ قَصْرِهِ بِقُرْطُبَةَ ، وَبَنَى مِنْهُ ٱلْمَسْجِدَ ٱلَّذِي قُدَّامَ بَابِ ٱلْجِنَانِ، وَفَضَلَتْ مِنْهُ فَضْلَةٌ بَقِيَتْ مُكَوَّمَةً . وَقَاسَى مَعَ ٱلْمُخَالِفِينَ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ [1] وَغَيْرِهِمْ حُرُوبًا، ثُمَّ كَانَتِ ٱلدَّائِرَةُ لَهُ . وَقَصَدَ إِلَى بِلَادِ ٱلْحَرْبِ غَازِيًا، وَقَصَدَ أَلْبَةَ [2] وَٱلْقِلَاعَ فَلَقِيَ ٱلْعَدُوَّ وَظَفِرَ بِهِمْ ، وَفَتَحَ ٱللهُ عَلَيْهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ، وَبَعَثَ ٱلْعَسَاكِرَ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ مَعَ يُوسُفَ ٱبْنِ بُخْتٍ [3] ، فَلَقِيَ مَلِكَهَا ٱبْنَ مَنْدَه [4] وَهَزَمَهُ وَأَثْخَنَ [5] فِي ٱلْعَدُوِّ . وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ بَعَثَ وَزِيرَهُ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ ٱبْنَ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ بْنِ مُغِيثٍ لِغَزَاةِ ٱلْعَدُوِّ ، فَبَلَغَ أَلْبَةَ

(١) منهم أخوه سليمان غص بولايته فأظهر له الخلاف بطليطلة ولحق به أخوه عبد الرحمن فحاربه وظفر به حتى دخل في طاعته ولكنه ما لبث أن عاد الى خلافه فحاصره بتدمير ثم طلب العبور الى عدوة البربر بأهله وولده فأجازه هشام وأعطاه مالا جزيلا وأقام بعدوة المغرب وسار معه أخوه عبد الله (٢) مأخوذ من اسمها القديم Alaba وهي مدينة بين وادي نهر ابره واسناد جبال البرنات وكان عند ها فتوحات العرب « وألية مدينة من نواحي اشبيلية وأخرى من نواحي استجة » (٣) في ابن خلدون « نجية » وفي ابن الاثير (بخت) (٤) أظنها محرفة عن (برمند) فانه في سنة ١٧٣ ملك ملك جليقية الذي كان يدعى لدى العرب « مورقاط » وولى من بعده « برمند بن قلورية القس » (٥) أثخن في العدو : بالغ في جراحه والفتك فيه .

وَٱلْقِلَاعَ ، فَأَثْخَنَ فِي نَوَاحِيهَا ، ثُمَّ بَعَثَهُ فِي ٱلْعَسَاكِرِ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ إِلَى أَرْبُونَةَ وَجَرَنْدَةَ [١] فَأَثْخَنَ فِيهَا ، وَوَطِئَ أَرْضَ بَرْطَانِيَةَ ، وَتَوَغَّلَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ فِي بِلَادِ ٱلْكُفَّارِ وَهَزَمَهُمْ ، ثُمَّ بَعَثَ ٱلْعَسَاكِرَ مَعَ عَبْدِ ٱلْكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ إِلَى أَلْبَةَ وَٱلْقِلَاعِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ ، وَمَعَ أَخِيهِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ إِلَى بِلَادِ جِلِّيقِيَّةَ ، فَانْتَهَى إِلَى أَسْتُرْقَةَ ، فَجَمَعَ لَهُ مَلِكُ ٱلْجَلَالِقَةِ ، وَٱسْتَمَدَّ بِمَلِكِ ٱلْبَشْكَنْسِ [٢] ثُمَّ خَامَ [٣] عَنِ ٱللِّقَاءِ وَرَجَعَ أَدْرَاجَهُ [٤] ، وَأَتْبَعَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ ، وَكَانَ هِشَامٌ قَدْ بَعَثَ ٱلْجُيُوشَ

(١) وكان بجرندة حامية الفرنج فبدأ بها عبد الملك فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها فرحل عنها الى أربونة ففعل مثل ذلك (٢) استعان ملك الجلالقة بملك البشكنس وهم جيرانه ومن يليهم من المجوس وأهل تلك النواحي فصار في جمع عظيم فأقدم عليه عبد الملك فرجع الاذفونش هيبة له وتبعهم عبد الملك يقفو آثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوخ بلادهم وأوغل فيها وأقام بها يقتل ويغنم وعاد سالما (٣) خام عنه يخيم: نكص وجبن (٤) يقال رجع أدراجه أي عاد من حيث جاء ورجع في الطريق الذي جاء منه « وأدراج جمع درج وهو الطريق » وأكثر مايقال ذلك للمرء اذا طلب شيئا فلم يقدر عليه ورجع ولم يصب شيئا — ومثله « نكص على عقبيه »

مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، فَالْتَقَوْا بِعَبْدِ الْمَلِكِ، وَأَثْخَنُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَضَتْهُمْ عَسَاكِرُ الْفِرَنْجِ، فَنَالُوا مِنْهُمْ بَعْضَ الشَّيْءِ(١) ثُمَّ خَرَجُوا سَالِمِينَ ظَافِرِينَ.

***

تجديد قنطرة قرطبة

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّهُ جَدَّدَ الْقَنْطَرَةَ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ بِقُرْطُبَةَ كَمَا سَبَقَ، وَكَانَ بَنَاهَا السَّمْحُ الْخَوْلَانِيُّ عَامِلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فَأَحْكَمَ هِشَامٌ بِنَاءَهَا إِلَى الْغَايَةِ، وَقَالَ يَوْمًا لِأَحَدِ وُزَرَائِهِ: مَا يَقُولُ أَهْلُ قُرْطُبَةَ؟ فَقَالَ: يَقُولُونَ مَا بَنَاهَا الْأَمِيرُ إِلَّا لِيَمْضِيَ عَلَيْهَا إِلَى صَيْدِهِ وَقَنَصِهِ، فَآلَى(٢) هِشَامٌ عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَسْلُكَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْهَا بَعْدُ، وَوَفَى بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ. ثُمَّ تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَمِائَةٍ لِسَبْعِ سِنِينَ وَتِسْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ إِمَارَتِهِ، وَقِيلَ لِثَمَانٍ. وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، كَثِيرَ

---

(١) لاقفل المسلمون من غزوتهم هذه ضل الدليل بهم فنالهم مشقة شديدة ومات منهم خلق كثير ونفقت دوابهم وتلفت آلاتهم ثم سلموا وعادوا.

(٢) آلى على نفسه: أقسم وحلف

ٱلْغَزْوِ وَٱلْجِهَادِ ، وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَيْضًا إِكْمَالُ بِنَاءِ ٱلْجَامِعِ بِقُرْطُبَةَ ، وَكَانَ أَبُوهُ شَرَعَ فِيهِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّهُ أَخْرَجَ ٱلْمُصَدِّقَ(١) لِأَخْذِ ٱلزَّكَاةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وَعُمْرُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَوُلِدَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ .

***

تولية الحكم ابن هشام

وَوَلِيَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ ٱلْحَكَمُ بِعَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ فَٱسْتَكْثَرَ مِنَ ٱلْمَمَالِيكِ، وَٱرْتَبَطَ ٱلْخَيْلَ، وَٱسْتَفْحَلَ(٢) مُلْكُهُ، وَبَاشَرَ ٱلْأُمُورَ بِنَفْسِهِ ، وَفِي خِلَالِ فِتْنَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمَّيْهِ ٱغْتَنَمَ ٱلْعَدُوُّ ٱلْكَافِرُ ٱلْفُرْصَةَ فِي بِلَادِ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَقَصَدَ بَرْشِلُونَةَ(٣) فَمَلَكُوهَا سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ، وَتَأَخَّرَتْ

---

(١) المصدق : آخذ الصدقات أى الحقوق من الابل والغنم يقبضها و يجمعها لتصرف فى مصارفها. والمتصدق هو معطى الصدقة(٢) أى اشتد وعظم(٣) ثغر على البحر الأبيض المتوسط فى الشمال الشرقى من أسبانيا Barcelone بناها القرطاجيون فى شمال الساحل الشرقى وكانوا يسمونها مدينة برقة باسم القائد الفاتح (Barca) الذى بناها و بنوا فى جنوبها قطعة قرطاجنة. و بمدينة برشلونة عدة كنائس أثرية ، وكان يحتفل فيها بمصارعة الثيران

عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا دُونَهَا ، وَبَعَثَ الْحَكَمُ الْعَسَاكِرَ مَعَ الْحَاجِبِ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مُغِيثٍ إِلَى بِلَادِ الْجَلَالِقَةِ فَأَثْخَنُوا فِيهَا ، وَخَالَفَهُمُ الْعَدُوُّ إِلَى الْمَضَايِقِ ، فَرَجَعَ عَلَى التَّعْبِيَةِ ، وَظَفِرَ بِهِمْ وَخَرَجَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ ظَافِرًا .

وَكَانَتْ لَهُ الْوَقْعَةُ الشَّهِيرَةُ مَعَ أَهْلِ الرَّبَضِ(١) مِنْ قُرْطُبَةَ ، لِأَنَّهُ فِي صَدْرِ وِلَايَتِهِ كَانَ قَدِ انْهَمَكَ فِي لَذَّاتِهِ ، فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ بِقُرْطُبَةَ مِثْلُ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى اللَّيْثِيِّ(٢) صَاحِبِ مَالِكٍ ، وَأَحَدِ رُوَاةِ الْمُوَطَّإِ عَنْهُ ، وَطَالُوتَ الْفَقِيهِ

---

(١) الربض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن (٢) هو أبو محمد يحيى ابن يحيى بن كثير ، وكثير هو المكنى بأبي عيسى وهو الداخل الى الأندلس وهو كثير بن وسلاس بن شملل بن منقايا ، وهو أحد الأعلام البرزين من أهل قرطبة أصله من البربر من مصمودة ويتولى بني ليث ، سمع من زياد بن عبد الرحمن الموطأ ثم رحل الى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع الموطأ من الامام مالك بن أنس وسمع بمصر من الامام الليث ابن سعد وغيره وقدم الأندلس بعلم كثير فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى ابن دينار الى رأيه . ورحل ثانية الى الامام مالك فوجده عليلا فأقام عنده الى أن توفى رحمه الله وحضر جنازته ثم عاد الى الأندلس فكان امام وقته وواحد بلده علما وعقلا وثقة . قال محمد بن عمر بن لبابة : فقيه الأندلس

وَغَيْرِهِمَا، فَثَارُوا بِهِ وَخَلَعُوهُ وَبَايَعُوا بَعْضَ قَرَابَتِهِ، وَكَانُوا بِالرَّبَضِ الْغَرْبِيِّ مِنْ قُرْطُبَةَ، وَكَانَ مَحَلَّةً مُتَّصِلًا بِقَصْرِهِ(١)، فَقَاتَلَهُمُ الْحَكَمُ، فَغَلَبَهُمْ وَافْتَرَقُوا وَهَدَمَ دُورَهُمْ وَمَسَاجِدَهُمْ وَلَحِقُوا بِفَاسَ مِنْ أَرْضِ الْعُدْوَةِ، وَبِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ أَرْضِ الْمَشْرِقِ، وَنَزَلَ بِهَا جَمْعٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ ثَارُوا بِهَا فَزَحَفَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ صَاحِبُ مِصْرَ لِلْمَأْمُونِ ابْنِ الرَّشِيدِ وَغَلَبَهُمْ وَأَجَازَهُمْ إِلَى جَزِيرَةِ إِقْرِيطِشَ(٢)، فَلَمْ يَزَالُوا بِهَا إِلَى أَنْ مَلَكَهَا الْإِفْرَنْجُ مِنْ أَيْدِيهِمْ بَعْدَ مُدَّةٍ.

عيسى بن دينار ، وعللها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى ، وكان من اتهم في هيج الربض فر الى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أماناً وانصرف الى قرطبة ، وكان آخر من حدث عنه ابنه عبيد الله بن يحيى وتوفي يحيى رحمه الله سنة ٢٣٤ هـ (١) كان بالربض الغربي من قرطبة محلة متصلة بقصره

(٢) فتح بعض هذه الجزيرة في أيام هرون الرشيد ثم غزاها في أيام المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي واستمر يفتح فيها شيئاً فشيئاً حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وغزاها أيضاً شعيب بن عمر بن عيسى ، وقيل فتحت بعد سنة ٢٥٠ على يد عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ وكان من أهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط بالأندلس وتوارثها عنه عقبه سنين كثيرة وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن ألح عليها المستنصر في خلافة المطيع العباسي حتى فتحت

***

حروب الحكم وغزوه

وَكَانَتْ فِي أَيَّامِ ٱلْحَكَمِ حُرُوبٌ وَفِتَنٌ مَعَ ٱلثُّوَّارِ ٱلْمُخَالِفِينَ مِنْ أَهْلِ طُلَيْطُلَةَ وَغَيْرِهِمْ . وَفِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَتِسْعِينَ جَمَعَ لُذَرِيقُ بْنُ قَارِلَةَ مَلِكُ ٱلْفَرَنْجِ جُمُوعَهُ، وَسَارَ إِلَى حِصَارِ طَرْسُونَةَ (١)، فَبَعَثَ ٱلْحَكَمُ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱلرَّحْمَٰنِ فِي ٱلْعَسَاكِرِ فَهَزَمَهُ، وَفَتَحَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَعَادَ ظَافِرًا . وَلَمَّا كَثُرَ عَيْثُ (٢) ٱلْفَرَنْجِ فِي ٱلثُّغُورِ بِسَبَبِ ٱشْتِغَالِ ٱلْحَكَمِ بِٱلْخَارِجِينَ عَلَيْهِ، سَارَ بِنَفْسِهِ إِلَى ٱلْفَرَنْجِ سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ، فَٱفْتَتَحَ ٱلثُّغُورَ وَٱلْحُصُونَ وَخَرَّبَ ٱلنَّوَاحِيَ، وَأَثْخَنَ فِي ٱلْقَتْلِ وَٱلسَّبْيِ وَٱلنَّهْبِ، وَعَادَ إِلَى قُرْطُبَةَ ظَافِرًا.

عنوة سنة ٣٥٠ وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسى . وينسب اليها بعض الرواة منهم أبو بكر محمد ابن عيسى الاقريطشى وغيره (١) طرسونة : مدينة بينها و بين تطيلة أربعة فراسخ وهى من أعمالها وكان يسكنها العمال ومقاتلة المسلمين الى أن تغلب عليها الروم . وبمدينة طرسونة توفى أبو حفص سعيد بن محمد ابن سعيد الجحى المقرى سنة ٥٠٨ . وبها قتل السمح بن مالك الخولانى أمير الأندلس ، قتله الروم فى ذى الحجة يوم عرفة سنة ١٠٢

(٢) عيث : فساد ، وعاث : أفسد واعتدى وأخذ بغير رفق

« وَفِي سَنَةِ مِائَتَيْنِ » بَعَثَ ٱلْعَسَاكِرَ مَعَ ٱبْنِ مُغِيثٍ[١] إِلَى بِلَادِ ٱلْفِرَنْجِ ، فَخَرَّبَ وَهَدَّمَ عِدَّةَ حُصُونٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَلِيطُ مَلِكُ ٱلْجَلَالِقَةِ فِي جُمُوعٍ عَظِيمَةٍ وَتَنَازَلُوا عَلَى نَهْرٍ وَٱقْتَتَلُوا عَلَيْهِ أَيَّامًا ، وَنَالَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ ٱلنَّيْلِ ، وَأَقَامُوا كَذَلِكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، ثُمَّ كَثُرَتِ ٱلْأَمْطَارُ وَمَدَّ[٢] ٱلنَّهْرُ ، وَقَفَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ ظَافِرِينَ ظَاهِرِينَ[٣] وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَنَّدَ ٱلْأَجْنَادَ وَٱتَّخَذَ ٱلْعُدَّةَ ، وَكَانَ أَفْحَلَ بَنِي أُمَيَّةَ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَأَشَدَّهُمْ إِقْدَامًا وَنَجْدَةً ، وَكَانَ يُشَبَّهُ بِأَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ فِي شِدَّةِ ٱلْمُلْكِ ، وَتَوْطِيدِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَقَمْعِ ٱلْأَعْدَاءِ . وَكَانَ يُؤْثِرُ ٱلْفَقِيهَ زِيَادَ ٱبْنَ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ[٤] وَحَضَرَ يَوْمًا عِنْدَهُ وَقَدْ غَضِبَ فِيهِ

(١) هو الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن عبد المغيث ولم يكن عند الحكم من يوازيه فى قربه ومنزلته (٢) مد النهر : سال وكثر ماؤه وزاد (٣) اقرأ خبرهذه الغزوة فى تاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٠٠ (٤) هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن ناشرة بن حسين ابن المطلب بن الحرث بن دبة بن الحرث اللخمي ينتهى نسبه الى لخم ابن عدى ، وقيل انه من ولد حاطب بن أبى بلتعة ، كان من أهل قرطبة وممن روى عن مالك بن أنس من أهل الأندلس ، وروى عن عبد الله ابن عقبة وعن الليث بن سعد وموسى بن على بن رباح وغيرهم ، وروى

عَلَى غُلامٍ لَهُ لإِيصَالِهِ إِلَيْهِ كِتَابًا كَرِهَ وُصُولَهُ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ، فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ: ـ أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ـ فَإِنَّ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ حَدَّثَنِي فِي خَبَرٍ رَفَعَهُ، «أَنَّ مَنْ كَظَمَ غَيْظًا يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَاذِهِ مَلأَهُ اللهُ تَعَالَى أَمْنًا وَإِيمَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَأَمَرَ أَنْ يُمْسَكَ عَنِ الْخَادِمِ وَيُعْفَى عَنْهُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ وَقَالَ آللهِ(١) إِنَّ مَالِكًا حَدَّثَكَ بِهَذَا؟ فَقَالَ زِيَادٌ: آللهِ إِنَّ مَالِكًا حَدَّثَنِي بِهَذَا. وَكَانَتِ الْمَجَاعَةُ الشَّدِيدَةُ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ فَأَكْثَرَ فِيهَا مُوَاسَاةَ أَهْلِ الْحَاجَاتِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبَّاسُ بْنُ نَاصِحٍ الْجَزِيرِيُّ(٢) فِيهِ:

عنه يحيى بن يحيى الموطأ قبل أن يرحل الى مالك ، وكان زياد جامعا بين العلم والعمل والعفة والورع ، وكان الامير هشام بن الحكم يقول : صحبت الناس و بلوتهم فما رأيت رجلا يسر من الزهد أكثر مما يظهر إلا زياد بن عبد الرحمن ، وأراده هشام على القضاء فخرج هاربا بنفسه فقال هشام: ليت الناس كزياد حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا ، وتوفى زياد سنة ٢٠٤ قبل موت الحكم بعامين . « أحمد نجاتي » .

(١) آلله : قسم بمعنى والله (٢) وهو أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفي الشاعر من أهل الجزيرة رحل به أبوه صغيرا فنشأ بمصر وتردد بالحجاز طالبا

نَكِدَ الزَّمَانُ (١) فَآمَنَتْ أَيَّامُهُ

مِنْ أَنْ يَكُونَ بِعَصْرِهِ عُسْرُ

ظَلَمَ (٢) الزَّمَانُ بِأَزْمَةٍ فَجَلَا لَهُ (٣)

تِلْكَ الْكَرِيهَةَ جُودُهُ الْغَمْرُ (٤)

وَكَانَ نَقْشُ خَاتَمِهِ « بِاللهِ يَثِقُ الْحَكَمُ وَبِهِ يَعْتَصِمُ » .
وَذُكُورُ وَلَدِهِ عِشْرُونَ وَإِنَاثُهُمْ عِشْرُونَ . وَأُمُّهُ

لغة العرب ثم رحل به أبوه الى العراق فلقى الأصمعى وغيره من علماء البصرة والكوفة ثم انصرف عن الأندلس فكان لايزال يستفهم عمن نجم بالمشرق من الشعراء بعد ابراهيم بن هرمة فأخبر عن الحسن بن هانئ وأنشد بعض شعره فقال لأجهدن أن ألقى هذا الرجل، ثم رحل الى العراق فلقيه واستنشده « ويقال ان أبا نواس قضى لعباس بالفضل على نفسه » ثم عاد الى الأندلس فاتصل بالحكم بن هشام وخدمه ونظم فيه مدائح غراء فاستقضاه على شذونة والجزيرة ، وولى القضاء بعده ابنه عبد الوهاب ابن عباس وكان شاعرا ، ثم ابن ابنه محمد بن عبد الوهاب وكان شاعرا ، فهم ثلاثة قضاة فى نسق وثلاثة شعراء فى نسق ، وكان عباس من أهل العلم باللغة جزل الشعر يسلك فيه مذاهب العرب القديمة ، وكان له حظ من الفقه والرواية ، ولم يشتهر ذلك عنه لغلبة الشعر عليه . « أحمد نجاتى » .

(١) نكد عيشه كفرح : اشتد وعسر ، وأرض نكاد: قليلة الخير

(٢) ظلع الزمان : كمنع ظلعا : أصيب وضعف كالظالع يغمز فى مشيه .

(٣) جلا الأمر : كشفه ، وجلا الهم عنه : أذهبه . (٤) الغمر الكثير الواسع ، والغمر الكريم السخى الواسع الخلق ، ورجل غمر الرداء : واسع العطاء كثير المعروف والجود

جَارِيَةٌ أُمُّهَا زُخْرُفُ ، وَكَانَ أَسْمَرَ طُوَالًا أَشَمَّ نَحِيفًا .
وَمُدَّةُ مُلْكِهِ سِتٌّ وَعِشْرُونَ سَنَةً - سَامَحَهُ اللهُ - .

***

عدة المماليك

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَعَلَ لِلْمُلْكِ بِأَرْضِ الْأَنْدَلُسِ أُبَّهَةً ، وَاسْتَعَدَّ بِالْمَمَالِيكِ حَتَّى بَلَغُوا خَمْسَةَ آلَافٍ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافِ فَارِسٍ وَأَلْفَا رَاجِلٍ . ثُمَّ تُوُفِّيَ الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ آخِرَ سَنَةِ سِتٍّ وَمِائَتَيْنِ لِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ وِلَايَتِهِ . وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ . وَقَالَ ابْنُ خَلْدُونَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَنَّدَ بِالْأَنْدَلُسِ الْأَجْنَادَ وَالْمُرْتَزِقَةَ(١) وَجَمَعَ الْأَسْلِحَةَ وَالْعُدَدَ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْخَدَمِ وَالْحَوَاشِي وَالْحَشَمِ(٢)، وَارْتَبَطَ الْخُيُولَ عَلَى بَابِهِ، وَاتَّخَذَ الْمَمَالِيكَ وَكَانَ يُسَمِّيهِمُ الْخُرْسَ لِعُجْمَتِهِمْ ، وَحَكَى فِي عِدَّتِهِمْ مَا تَقَدَّمَ ثُمَّ قَالَ : وَكَانَتْ لَهُ عُيُونٌ يُطَالِعُونَهُ(٣) بِأَحْوَالِ النَّاسِ ، وَكَانَ

(١) ارتزقوا : أخذوا أرزاقهم «وهو مطاوع رزق الأمير الجند» والمرتزقة أصحاب الجرايات والرواتب الموظفة (٢) حشم الرجل : خاصته الذين يغضبون له من أهل أو عبيد أو جيرة أو خدم إذا أصابه أمر (٣) يطالعونه بأحوال الناس : يعرضونها عليه، وطالعه بحقيقة الأمر : إذا أطلعه عليه وأخبره به

يُبَاشِرُ ٱلْأُمُورَ بِنَفْسِهِ ، وَيُقَرِّبُ ٱلْفُقَهَاءَ وَٱلْعُلَمَاءَ وَٱلصَّالِحِينَ، وَهُوَ ٱلَّذِي وَطَّأَ[1] ٱلْمُلْكَ لِعَقِبِهِ بِالْأَنْدَلُسِ ، انْتَهَى .

***

وَكَانَ لَهُ فِيمَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ أَلْفَا فَرَسٍ مُرْتَبَطَةٍ عَلَى شَاطِىءِ ٱلنَّهْرِ بِقِبْلِيِّ قَصْرِهِ يَجْمَعُهَا دَارَانِ ، وَهُوَ ٱلْقَائِلُ لَمَّا قَتَلَ أَهْلَ ٱلرَّبَضِ وَهَدَّمَ دِيَارَهُمْ وَحَرَثَهَا[2] رباط الخيل على شاطئ النهر

رَأَبْتُ[3] صُدُوعَ ٱلْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعاً

وَقِدْماً لَأَمْتُ[4] ٱلشَّعْبَ مُذْ كُنْتُ يَافِعَا

فَسَائِلْ ثُغُورِي هَلْ بِهَا ٱلْيَوْمَ[5] ثُغْرَةٌ

أُبَادِرُهَا مُسْتَنْضِيَ[6] ٱلسَّيْفِ دَارِعَا ؟

تُنَبِّئْكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فِي قِرَاعِهِمْ

بِوَانٍ[7] وَقِدْماً كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعَا

---

(١) أى مهد وثبت (٢) أثلثها محرفة عن (خربها) (٣) رأب الصدع : أصلحه والصدع : الشق والكسر (٤) لأم الشعب : رتق الكسر وأصلح الفاسد (٥) الثغرة : موضع المخافة وهى فى الأصل كل جوبة أو عورة منفتحة وكل فرجة فى جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك (٦) مستنضى : مستله من غمده ، ورجل دارع : عليه درع كأنه ذو درع « مثل لابن وتامر » (٧) الوانى المقصر ، والونى : الضعف والفتور والتعب والكلال والاعياء، ونى فى الأمر ينى ونيا : ضعف وقصر وفتر ، وتوانى فى الأمر : قصر وأهمل

وَهَلْ زِدْتُ إِذْ وَفَّيْتُهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ
فَوَافَوْا مَنَايَا قُــدِّرَتْ وَمَصَارِعَا؟
فَهَذِي بِلَادِي إِنَّنِي قَدْ تَرَكْتُهَا
مِهَادًا[1] وَلَمْ أَتْرُكْ عَلَيْهَا مُنَازِعَا

***

أخلاق الحكم وعاداته

وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي حَقِّهِ: إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُجَاهِرِينَ بِالْمَعَاصِي السَّافِكِينَ لِلدِّمَاءِ وَلِذَلِكَ قَامَ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ وَالصُّلَحَاءُ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهُ تَنَصَّلَ[2] أَخِيرًا وَتَابَ ـ سَامَحَهُ اللَّهُ ـ:

وَمِنْ نَظْمِهِ قَوْلُهُ مُتَغَزِّلًا:

قُضُبٌ مِنَ الْبَانِ مَاسَتْ[3] فَوْقَ كُثْبَانِ
وَلَّيْنَ عَنِّي وَقَدْ أَزْمَعْنَ هِجْرَانِي

---

(١) المهاد جمع مهد وهو في الأصل الموضع يهيأ للصبي ويوطأ لينام فيه ومهد الفراش [كمنع] ومهده: بسطه ووطأه وجعله وثيرا لينا، وقوله تعالى: «ألم نجعل الأرض مهادا» أي بساطا وطيئا ممكنا سهلا للسالك في طرقه (٢) تنصل من ذنبه: خرج وتبرأ، واتقى منه واعتذر، والغرض هنا أنه تاب وأقلع واستقام (٣) ماس: تمايل وتثنى وتبختر وتهادى كالعروس

وَمِنْهَا :

مَنْ لِي بِمُقْتَضِبَاتِ(١) ٱلرُّوحِ مِنْ بَدَنِي

يَنْصِفُنِي فِي ٱلْهَوَى عِزِّي وَسُلْطَانِي

وَقِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يُمْسِكُ أَوْلَادَ ٱلنَّاسِ وَيَخْصِيهِمْ ، وَنُقِلَتْ عَنْهُ أُمُورٌ ، وَلَعَلَّهُ تَابَ مِنْهَا كَمَا قَدَّمْنَا ، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ .

***

شيء من بديع أخبار الحكم

وَمِنْ بَدِيعِ أَخْبَارِ ٱلْحَكَمِ أَنَّ ٱلْعَبَّاسَ ٱلشَّاعِرَ تَوَجَّهَ إِلَى ٱلثَّغْرِ فَلَمَّا نَزَلَ بِوَادِي ٱلْحِجَارَةِ سَمِعَ ٱمْرَأَةً تَقُولُ : وَاغَوْثَاهُ بِكَ يَاحَكَمُ ، لَقَدْ أَهْمَلْتَنَا حَتَّى كَلِبَ(٢) ٱلْعَدُوُّ عَلَيْنَا فَأَيَّمَنَا(٣) وَأَيْتَمَنَا ، فَسَأَلَهَا عَنْ شَأْنِهَا فَقَالَتْ : كُنْتُ مُقْبِلَةً مِنَ ٱلْبَادِيَةِ فِي رُفْقَةٍ فَخَرَجَتْ عَلَيْنَا خَيْلُ عَدُوٍّ فَقَتَلَتْ وَأَسَرَتْ ، فَصَنَعَ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا :

---

(١) مقتضبات الروح : قاطعاتها ومزهقاتها ، يريد عشيقاته (٢) كلب العدو علينا : اشتد وقسا ، وكلب الدهر على أهله اذا ألح واشتد (٣) أيمنا : أفقدنا أزواجنا

تَمَلْمَلْتُ(١) فِي وَادِي الْحِجَارَةِ مُسْنِدًا(٢)

أُرَاعِي نُجُومًا مَا يَرِدْنَ(٣) تَغَيُّرَا

إِلَيْكَ أَبَا الْعَاصِي نَضَيْتُ(٤) مَطِيَّتِي

تَسِيرُ بِهِمْ سَارِيًا(٥) وَمُهَجِّرَا

تَدَارَكْ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ بِنُصْرَةٍ

فَإِنَّكَ أَحْرَى أَنْ تُغِيثَ وَتَنْصُرَا

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَنْشَدَهُ الْقَصِيدَةَ، وَوَصَفَ لَهُ خَوْفَ الثَّغْرِ وَاسْتِصْرَاخَ(٦) الْمَرْأَةِ بِاسْمِهِ، فَأَنِفَ وَنَادَى فِي الْحِينِ بِالْجِهَادِ وَالِاسْتِعْدَادِ، فَخَرَجَ بَعْدَ ثَلَاثٍ إِلَى وَادِي الْحِجَارَةِ وَمَعَهُ الشَّاعِرُ، وَسَأَلَ عَنِ الْخَيْلِ الَّتِي أَغَارَتْ

---

(١) تململ: تقلب على الفراش غما (٢) مسئدا: سائرا الليل كله، والاسآد سرعة السير. وقد تكون مسندا محرفة عن مسهدا وهو أنسب بالسياق، فإن التململ هو أن ينبو بالرجل مضجعه من هم أو وصب أو حزن أو غير ذلك فيسهد ويبيت متقلبا على فراشه كأنه يتقلب على شوك القتاد. « أحمد نجاتي » (٣) لطاير بن (٤) أي هزلتها بالسير فذهب لحمها وقد تكون (نضيت) محرفة عن (نصصت) أي سقت (٥) ساريا: أي في السرى، وهو سير الليل، والمهجر السائر في الهاجرة وهو وقت شدة الحر نهارا (٦) أي استغاثة واستنجاد.

مِنْ أَيِّ أَرْضِ الْعَدُوِّ كَانَتْ ؟ فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ ، فَغَزَا تِلْكَ النَّاحِيَةَ وَأَثْخَنَ فِيهَا ، وَفَتَحَ الْحُصُونَ وَخَرَّبَ الدِّيَارَ وَقَتَلَ عَـدَدًا كَثِيرًا ، وَجَاءَ إِلَى وَادِي الْحِجَارَةِ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الْمَرْأَةِ وَجَمِيعِ مَنْ أُسِرَ لَهُ أَحَدٌ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ فَأُحْضِرَ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِ الْأَسْرَى بِحَضْرَتِهَا ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ : سَلْهَا هَلْ أَغَاثَهَا الْحَكَمُ ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ ـ وَكَانَتْ نَبِيلَةً ـ : وَاللهِ لَقَدْ شَفَى الصُّدُورَ ، وَأَنْكَى[1] الْعَدُوَّ ، وَأَغَاثَ الْمَلْهُوفَ فَأَغَاثَهُ اللهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ . فَارْتَاحَ لِقَوْلِهَا وَبَدَا السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ :

أَلَمْ تَرَ يَا عَبَّاسُ أَنِّي أَجَبْتُهَا
عَلَى الْبُعْدِ أَقْتَادُ الْخَمِيسَ[2] الْمُظَفَّرَا
فَأَدْرَكْتُ أَوْطَارًا وَبَرَّدْتُ غُـلَّةً
وَنَفَّسْتُ مَكْرُوبًا وَأَغْنَيْتُ مُعْسِرَا[3]

فَقَالَ عَبَّاسٌ : نَعَمْ ـ جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ ـ وَقَبَّلَ يَدَهُ

---

(١) أنكى العدو : قتل فيهم وجرح وأثخن (٢) أقتاد الخميس : أقود الجيش العظيم (٣) الغلة في الأصل حرارة العطش ، ونفس عن المكروب اذا فرج عنه همه وكشف كربه

***

مقتل الفقيه أبي زكريا القيسي

« وَمِمَّا عِيبَ بِهِ » أَنَّهُ قَتَلَ ٱلْفَقِيهَ أَبَا زَكَرِيَّا يَحْيَى ٱبْنَ مُضَرَ ٱلْقَيْسِيَّ(١) وَكَانَ قُدْوَةً فِي ٱلدِّينِ وَٱلْوَرَعِ ، سَمِعَ مِنْ سُفْيَانَ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وَرَوَى عَنْهُ مَالِكٌ وَقَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُضَرَ عَنْ سُفْيَانَ ٱلثَّوْرِيِّ أَنَّ ٱلطَّلْحَ ٱلْمَنْضُودَ هُوَ ٱلْمَوْزُ . وَكَانَ قَتْلَ ٱلْمَذْكُورِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ .

***

قيام عبد الرحمن ابنه بعده بالأمر

« وَقَامَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدُ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَٰنِ بِعَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ ثُمَّ لِأَخِيهِ ٱلْمُغِيرَةِ بَعْدَهُ » فَغَزَا عَبْدُ ٱلرَّحْمَٰنِ لِأَوَّلِ وِلَايَتِهِ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ وَأَبْعَدَ وَأَطَالَ ٱلْمَغِيبَ وَأَثْخَنَ فِي أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ هُنَالِكَ وَرَجَعَ .

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن مضر القيسى من أهل قرطبة وهو شامى الأصل سمع من سفيان بن سعيد الثورى ومالك بن أنس وروى عنه يحيى بن يحيى بالأندلس قبل رحلته وكان عالما متفننا ، وكان ممن قتل يوم ثورة الربض . وفى الأصل يحيى بن مطر الغسانى وهو تصحيف خطى . « أحمد نجاتى » .

* ترجم له فى كتاب تاريخ العرب والاسلام « ج ٢ لأبى اليمن ص ١٢٤ » بما يأتى :

عبد الرحمن الثانى بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان :

تولى بعد وفاة أبيه ابتداء من سنة ست ومائتين الى سنة ثمان وثلاثين

قدوم زرياب المغنى

وَقَدِمَ عَلَيْهِ سَنَةَ سِتٍّ وَمِائَتَيْنِ زِرْيَابُ(١)

ومائتين هجرية وكان معاصرا للمأمون العباسى وكان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة سخيا محبا للعلماء والأدباء ، وكان كجده هشام فى الحلم والاحسان وفى أيامه كثرت الآطام والعمارات فاتخذ القصور والمتنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وأقام الجسور وأكثر من المساجد فى القرى وغزا بلادا وفتح بها مدنا ووصلت جيوشه الى ليون بفرنسا ورموها بالمجانيق فهرب أهلها وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة . احتجب عن العامة وشغف بالشعراء والبارعين فى الموسيقى وهو أول من أحدثها فى الاندلس . فأحدثت فى الطرب عظيم الرقة . عاقب مرة جارية فعلت غير مراده بسد باب مكانها بقطع من فضة وكلفها هدم ذلك بيدها توفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين هجرية أقول : ولد عبد الرحمن بطليطلة أيام كان أبوه الحكم يتولاها لابيه هشام. واسم أمه حلاوة وكان بكر أبيه ، ووجد بخط أبيه أنه ولد لسبعة أشهر وكان جسيما وسيما حسن الوجه مليح الشمائل .

(١) زرياب بفتح الزاى بالفارسية معناه ماء الذهب عربوه بكسر الزاى وابدال الألف ياء وأطلقوا لفظ الزرياب على الذهب أو مائه وعلى الأصفر من كل شئ وغلب على الفتى هذا ببلده قيل لسواد لونه مع فصاحة لسانه شبه بطائر أسود غرد يسمى الزرياب — وكان شاعرا مطبوعا أستاذا فى الموسيقى وعنه أخذ الناس — وقال عبد الملك بن حبيب مع زهده وعلمه وورعه فى أبيات له :

زرياب قد أعطيتها جملة   وحرفتى أشرف من حرفته

وكان زرياب من أعلام المغنين بالشرق ، وأخذ الغناء عن الموصلى وبرز فيه حتى خشى على نفسه عاقبة هذا التبريز لمنزلة أستاذه من الخليفة الرشيد فهاجر الى الاندلس فأكرم أميرها وفادته وأحسن مثواه وغمره بفيض إنعامه. وعلت منزلته عندهم وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون ، وقد قدر دخله كل عام بنحو أربعة آلاف دينار ، وكان يجرى عندهم فى الغناء

ٱلْمُغَنِّي مِنَ ٱلْعِرَاقِ - وَهُوَ مَوْلَى ٱلْمَهْدِيِّ ، وَمُتَعَلِّمُ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ ، وَأَسْمُهُ عَلِيُّ بْنُ نَافِعٍ - فَرَكِبَ بِنَفْسِهِ لِتَلَقِّيهِ عَلَى مَا حَكَاهُ أَبْنُ خَلْدُونَ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ بِخَيْرِ حَالٍ ، وَأَوْرَثَ صِنَاعَةَ ٱلْغِنَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَخَلَّفَ أَوْلَادًا فَخَلَفَهُ كَبِيرُهُمْ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ فِي صِنَاعَتِهِ وَحُظْوَتِهِ .

***

غزوة ألبه والقلاع

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ أَغْزَى حَاجِبَهُ عَبْدَ ٱلْكَرِيمِ بْنَ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ إِلَى أَلْبَةَ وَٱلْقِلَاعِ ، فَخَرَّبَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْبِلَادِ وَأَنْتَسَفَهَا ، وَفَتَحَ كَثِيرًا مِنْ حُصُونِهِمْ ، وَصَالَحَ بَعْضَهَا عَلَى ٱلْجِزْيَةِ وَإِطْلَاقِ أَسْرَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱنْصَرَفَ ظَافِرًا . وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ بَعَثَ قَرِيبَهُ عُبَيْدَ ٱللّٰهِ بْنَ ٱلْبَلَنْسِيِّ فِي ٱلْعَسَاكِرِ لِغَزْوِ أَلْبَةَ وَٱلْقِلَاعِ ، فَسَارَ وَلَقِيَ ٱلْعَدُوَّ فَهَزَمَهُمْ وَأَكْثَرَ ٱلْقَتْلَ وَٱلسَّبْيَ ، ثُمَّ خَرَجَ لُذَرِيقُ مَلِكُ ٱلْجَلَالِقَةِ وَأَغَارَ عَلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ (١)

بجرى الوصلى بالعراق، وكان لديهم عمدة للفنين ،وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه ، ونهض بصناعة الغناء فى الأندلس واخترع الموسيقى نظاما خاصا جديدا وأضاف الى العود وترا خامسا وكان قبله على أربعة أوتار ،ووضع طرقا للغناء أصبحت علما خاصا اشتهرت به الأندلس لتفوقها فيه ولا يزال أثره باقيا بها الى اليوم. «أحمد نجاتى»

(١) مدينة تتصل بأعمال باروشة ، وكانت من أعظم المدن وأشرفها

بِالثَّغْرِ ، فَسَارَ إِلَيْهِ فَرْتُونُ بْنُ مُوسَى وَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ، وَأَكْثَرَ الْقَتْلَ وَالسَّبْيَ فِي الْعَدُوِّ وَالْأَسْرَ ، ثُمَّ سَارَ إِلَى الْحِصْنِ الَّذِي بَنَاهُ أَهْلُ أَلْبَةَ بِالثَّغْرِ (١) نِكَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ فَافْتَتَحَهُ وَهَدَمَهُ ، ثُمَّ سَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي الْجُيُوشِ إِلَى بِلَادِ جِلِّيقِيَّةَ فَدَوَّخَهَا (٢) وَافْتَتَحَ عِدَّةَ حُصُونٍ مِنْهَا، وَجَالَ فِي أَرْضِهِمْ وَرَجَعَ بَعْدَ طُولِ الْمُقَامِ بِالسَّبْيِ وَالْغَنَائِمِ . وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَعِشْرِينَ بَعَثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعَسَاكِرَ إِلَى أَرْضِ الْفَرَنْجَةِ، وَانْتَهَوْا إِلَى أَرْضِ بَرْطَانِيَةَ (٣) ، وَكَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ مُوسَى بْنُ

وأكثرها شجرا وماء . وكان طارق لما افتتح الأندلس ألفاها خرابا فعمرت في الاسلام . ومن أهل مدينة سالم أبو الحسن على بن ابراهيم بن فتح يعرف بابن الامام أخذ عن أبي عمر بن عبدالبر وأبي الوليد الباجي وغيرهما وكان من أهل النبل والمعرفة عالما أديبا توفى سنة ٤٧٩ . ومنهم أبو الأصبغ عيسى بن أبي يونس بن أسد اللخمي وتوفى بها سنة ٤٨٢ . وعيسى بن عبد الرحمن بن سعيد الأموى كان عالما حافظا وتوفى سنة ٤٩٨ ومنهم أبو الوليد يونس بن عيسى بن خلف الأنصارى المقرىء العالم توفى سنة ٥٠٨

(١) أي بازاء ثغور المسلمين (٢) دوخها : قهرها واستولى على أهلها

(٣) كورة واسعة من أعمال الثغر الأعلى من شرق الأندلس ، ومن أعمال الثغر الأعلى سرقسطة وكورة لاردة وكورة تطيلة وكورة وشقة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب وكورة برطانيا وكورة باروشة .

مُوسَى عَامِلُ تُطِيلَةَ [١] وَلَقِيَهُمُ ٱلْعَدُوُّ فَصَبَرَ حَتَّى هَزَمَ ٱللهُ عَدُوَّهُمْ ، وَكَانَ لِمُوسَى فِي هٰذِهِ ٱلْغَزَاةِ مَقَامٌ مَحْمُودٌ .

***

دخوله ببلونة والايقاع بالمشركين

وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ بَعَثَ ٱبْنَهُ مُحَمَّدًا بِالْعَسَاكِرِ وَتَقَدَّمَ إِلَى بَنْبِلُونَةَ [٢] فَأَوْقَعَ بِالْمُشْرِكِينَ عِنْدَهَا وَقَتَلَ غَرْسِيَةَ [٣] صَاحِبَهَا وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ مُلُوكِ ٱلنَّصَارَى . وَفِي أَيَّامِهِ ظَهَرَ ٱلْمَجُوسُ وَدَخَلُوا إِشْبِيلِيَةَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْعَسَاكِرَ مَعَ ٱلْقُوَّادِ مِنْ قُرْطُبَةَ ، فَنَزَلَ ٱلْمَجُوسُ مِنَ

(١) مدينة في شرق قرطبة كانت شريفة البقعة غزيرة المياه كثيرة الأشجار والانهار اختطت في أيام الحكم بن هشام بينها وبين سرقسطة ١٧ فرسخا وكان الفرنج قد ملكوا مدينة تطيلة سنة ١٨٧ وأسروا أميرها يوسف ابن عمروس ، ثم استخلصه المسلمون وفتحوا المدينة . ومن أهل تطيلة أبو عبد الله محمد بن عيسى بن القاسم الصدفي الفقيه الشاعر الأديب وتوفي سنة ٥٩٢ وممن ولي قضاء تطيلة الناصر وابنه المستنصر بالله محمد ابن أحمد بن عبدالله بن محمد بن سليمان بن صالح بن غانم المعافري السرقسطي

(٢) تقدم القول فيها وقد يسميها مؤرخو العرب بنبلونة وانما حكمها العرب اثنى عشرة سنة فحسب وهي الآن من أنظف مدن اسبانيا وأكثرها عناية بالنظام والاصلاح حتى ان جميع شوارعها وطرقاتها وأزقتها تضاء بمصابيح الكهرباء الساطعة

(٣) لقب بابن غرسية كثير من علماء الأندلس منهم العلامة الفقيه عبد الرحمن بن أحمد ، وهو لقب اسباني Carcia ولا يزال لقبا لأسرات اسبانية كثيرة .

مَرَاكِبِهِمْ، وَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَهَزَمُوهُمْ بَعْدَ مُقَامٍ صَعْبٍ، ثُمَّ جَاءَتْ الْعَسَاكِرُ مَدَدًا مِنْ قُرْطُبَةَ، فَقَاتَلَهُمُ الْمَجُوسُ فَهَزَمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَغَنِمُوا بَعْضَ مَرَاكِبِهِمْ وَأَحْرَقُوهَا، وَرَحَلَ الْمَجُوسُ إِلَى شَذُونَةَ، فَأَقَامُوا عَلَيْهَا يَوْمَيْنِ وَغَنِمُوا بَعْضَ الشَّيْءِ، وَوَصَلَتْ مَرَاكِبُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ فَأَقْلَعَ الْمَجُوسُ إِلَى لَبْلَةَ وَأَغَارُوا وَسَبَوْا، ثُمَّ إِلَى بَاجَةَ، ثُمَّ أَشْبُونَةَ، ثُمَّ انْقَطَعَ خَبَرُهُمْ حِينَ أَقْلَعُوا مِنْ أَشْبُونَةَ، وَسَكَنَتِ الْبِلَادُ، وَذٰلِكَ سَنَةَ ثَلَاثِينَ، وَتَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بِإِصْلَاحِ مَا خَرَّبُوهُ مِنَ الْبِلَادِ، وَأَكْثَفَ حَامِيَتَهَا[1].

***

دخول جليقية وحاصر مدينة ليون

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ بَعَثَ الْعَسَاكِرَ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ فَدَوَّخُوهَا وَحَاصَرُوا مَدِينَةَ لِيُونَ[2] وَرَمَوْهَا بِالْمَجَانِيقِ، وَهَرَبَ

(١) الأصل محرف وصوابه: (أكثف) أي جعل حاميتها كثيفة أي كثيرة عظيمة من الكثف: وهو الجماعة والحشد والكثرة والالتفاف. والكثيف اسم يوصف به العسكر والسحاب والماء. «أحمد نجاتي». (٢) مدينة من بلاد الجلالقة شمال أسبانيا، وهي غير ليون فرنسا، وكان عبد الرحمن الداخل قبل ذلك «وهو الذي بدأ بإصلاح ما فسد من داخل البلاد» قد سار الى (أرل) وبعد استيلائه عليها سار الى (بوردو) التي يسميها العرب برذال وبردال فاستولى عليها ثم قصد (ليون) و (بزانسون)

أَهْلُهَا عَنْهَا وَتَرَكُوهَا ، فَغَنِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ مَا فِيهَا وَأَحْرَقُوهَا ، وَأَرَادُوا هَدْمَ سُورِهَا فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ لِأَنَّ عَرْضَهُ كَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، فَثَلَمُوا فِيهِ ثُلْمَةً وَرَجَعُوا .

***

غزو برشلونة

ثُمَّ أَغْزَى عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ حَاجِبَهُ عَبْدَ ٱلْكَرِيمِ فِي ٱلْعَسَاكِرِ إِلَى بِلَادِ بَرْشِلُونَةَ ، فَعَاثَ فِي نَوَاحِيهَا ، وَأَجَازَ ٱلدُّرُوبَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْبُرْتَ إِلَى بِلَادِ ٱلْفَرَنْجَةِ[1] فَدَوَّخَهَا قَتْلًا وَأَسْرًا وَسَبْيًا وَحَاصَرَ مَدِينَتَهَا ٱلْعُظْمَى (جَرَنْدَةَ) وَعَاثَ[2] فِي نَوَاحِيهَا وَقَفَلَ ، وَقَدْ

فأخذها عنوة . وقد كان من أول ما دبره بقية السيف جهة جبال البرينات بسوء مكرهم وسياستهم أن كونوا لهم دولة سموها « ليون » وأقاموا عليها ملكا منهم وكانت هذه المملكة تجاور مملكة قشتالة غربا والى الشمال منها . ومن مدنها سمورة وشلمنقة وقلمرية وغيرها ، ثم أخذت أطرافها تمتد الى جهة الجنوب الشرقي حتى كان من ذلك مملكة (قشتالة) قام بالأمر فيها أمير منهم انتهى أمره أن صار ملكا ، وهكذا أخذت رقعة أملاكهم تتسع ودائرتها تنداح وتنفسح الى أن كان ما كان : ومعظم النار من مستصغر الشرر :

ان القذى يؤذى العيون قليله ولربما جرح البعوض الفيلا

(١) يريد حدود فرنسا الجنوبية الغربية وجهة جبال البرنيات : وأصل الدرب المضيق فى الجبال وكل مدخل الى الروم والافرنج درب من دروبها ومنه قولهم : أدرب القوم اذا دخلوا أرض العدو من بلاد الروم «أحمد تجانى»

(٢) عاث : أفسد

كَانَ مَلِكُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مِنْ وَرَائِهِمْ تُوفِلْسُ بَعَثَ إِلَى ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ بِهَدِيَّةٍ يَطْلُبُ مُوَاصَلَتَهُ وَيُرَغِّبُهُ فِي مُلْكِ سَلَفِهِ بِالْمَشْرِقِ مِنْ أَجْلِ مَا ضَيَّقَ بِهِ ٱلْمَأْمُونُ وَٱلْمُعْتَصِمُ«(١)، حَتَّى إِنَّهُ ذَكَرَهُمَا لَهُ فِي كِتَابِهِ لَهُ

(١) فى سنة ٢١٧ كتب توفيل بن ميخائيل بن جرجس صاحب الروم الى المأمون يسأله الصلح وعرض الفدية وبدأ بنفسه فى كتابه ومزج فيه اللين بالشدة والاستعطاف بالوعيد ، فكتب اليه المأمون رجع جوابه كتابا بليغا منصفا شديدا يتوعد وعيده ويحتقر تهديده ختمه بقوله : «وقد رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الابلاغ فى القول والأغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى» . وفى سنة ٢٢٣ فى خلافة المعتصم وقع توفيل بأهل زبطرة (مدينة بين ملطية وسميساط والحدث فى طرف بلاد الروم) فأسرهم وخرب ديارهم ، ثم مضى الى ملطية فأغار على أهلها وسبى كثيرا من مسلمات سيداتها ومثل بمن صار فى يده من المسلمين أشنع تمثيل ، فلما بلغ ذلك المعتصم هاله الأمر واستعظمه وصاح فى قصره النفير ، ووجه جماعة من قواده الى زبطرة فوجدوا ملك الروم قد عاد الى بلاده ، وشخص المعتصم غازيا الى بلاد الروم وقد تجهز جهازا لم يجهز مثله قبله خليفة قط ، وحالفه النصر العزيز فى غزاته ففتح مدينة عمورية وعاد وفى أيديه كثير من الأسرى ، وفى ذلك يقول أبو تمام فى قصيدته المشهورة :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

***

لبيت صوتا زبطريا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

وَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِابْنَيْ مَرَاجِلَ وَمَارِدَةَ(١) ، فَكَافَأَهُ الْأَمِيرُ

وهلك توفيل ملك الروم سنة ٢٢٧ وكانت مدة ملكه ١٢ سنة وملكت بعده امرأته تدورة وكان ابنها ميخائيل بن توفيل صبيا . « أحمد نجاتى »

(١) أم المأمون أم ولد فارسية تسمى مراجل ماتت أيام نفاسها به « وفى الأصل مراسل بالحاء وهو تحريف » وأم المعتصم من مولدات الكوفة واسمها ماردة وكانت أمها صغدية وكان أبوها قد نشأ بالبندنيجين « بلدة فى طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد » ومما يذكر أن المأمون كان شديد الميل الى العلويين والتقرب منهم والاحسان اليهم وأخباره فى ذلك مشهورة معهم ، وكان يفعل ذلك طبعا لا تكلفا حتى انه فى سنة ٢٠٢ زوج على بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، وزوج محمد بن على ابن موسى الرضا ابنته أم الفضل، وفى سنة ٢٠٤ دخل بغداد ولباسه ولباس أصحابه وأعلامهم الخضرة « شارة العلويين » ومكثوا كذلك حوالى شهر وساء ذلك بنى العباس وبعض قواد الجيش فعاد الى السواد وزى دولة آبائه ، ومن ذلك أنه توفى فى أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين العلوى فحضر الصلاة عليه بنفسه ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم ان رجلا من أبناء زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس — وهى ابنة عم المنصور — توفى بعده فأرسل له المأمون كفنا وبعث أخاه صالحا ليصلى عليه ويعزى أمه فانها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فقصدها صالح وعزاها عن الخليفة المأمون واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه ، فظهر غضبها وهاج الحزن والتأثر ثورة نفسها وقالت لابن ابنها تقدم فصل على أبيك ، وتمثلت :

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح بن الرشيد قل له : يابن مراجل أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته :
« أحمد يوسف نجاتى » .

عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ عَنِ ٱلْهَدِيَّةِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ يَحْيَى ٱلْغَزَالَ مِنْ[1] كِبَارِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَكَانَ مَشْهُورًا فِي ٱلشِّعْرِ وَٱلْحِكْمَةِ فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمَا ٱلْوُصْلَةَ، وَٱرْتَفَعَ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ذِكْرٌ عِنْدَ مُنَازِعِيهِ[2] مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ

***

عبد الرحمن الأوسط

وَيُعْرَفُ ٱلْأَمِيرُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بِٱلْأَوْسَطِ، لِأَنَّ ٱلْأَوَّلَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلُ، وَٱلثَّالِثَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْأَوْسَطُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ بِرَبِيعٍ ٱلْآخِرِ لِإِحْدَى وَثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ إِمَارَتِهِ، وَمَوْلِدُهُ بِطُلَيْطُلَةَ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ، وَكَانَ عَالِمًا بِعُلُومِ ٱلشَّرِيعَةِ وَٱلْفَلْسَفَةِ، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ أَيَّامَ هُدُوءٍ وَسُكُونٍ، وَكَثُرَتِ ٱلْأَمْوَالُ عِنْدَهُ، وَٱتَّخَذَ ٱلْقُصُورَ وَٱلْمُتَنَزَّهَاتِ، وَجَلَبَ إِلَيْهَا ٱلْمِيَاهَ مِنَ ٱلْجِبَالِ، وَجَعَلَ لِقَصْرِهِ[3] مَصْنَعًا[4] ٱتَّخَذَهُ ٱلنَّاسُ

---

(١) تقدم ذكره، وسيأتي له حديث آخر (٢) في الأصل (منافيه) وهو تصحيف وتحريف فاسد (٣) في الأصل (لفضله) وهو تحريف غير مناسب (٤) المصنع: حوض أو شبه صهريج يجتمع فيه ماء المطر وبه فسر بعضهم قوله تعالى: «وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون».

شَرِيعَةً[1] ، وَأَقَامَ ٱلْجُسُورَ ، وَبُنِيَتْ فِي أَيَّامِهِ ٱلْجَوَامِعُ بِكُوَرِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَزَادَ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ رُوَاقَيْنِ[2] وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَتِمَّهُ فَأَتَمَّهُ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ بَعْدَهُ ، وَبَنَى بِالْأَنْدَلُسِ جَوَامِعَ كَثِيرَةً ، وَرَتَّبَ رُسُومَ[3] ٱلْمَمْلَكَةِ ، وَٱحْتَجَبَ عَنِ ٱلْعَامَّةِ . وَعَدَدُ وَلَدِهِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ مِنَ ٱلذُّكُورِ ، وَخَمْسُونَ مِنَ ٱلْإِنَاثِ ، وَنَقْشُ خَاتَمِهِ : «عَابِدُ ٱلرَّحْمٰنِ بِقَضَاءِ ٱللهِ رَاضٍ » . وَفِي ذٰلِكَ قِيلَ :

خَاتَمٌ لِلْمُلْكِ أَضْحَى ... حُكْمُهُ فِي ٱلنَّاسِ مَاضِي
عَابِدُ ٱلرَّحْمٰنِ فِيهِ ... بِقَضَاءِ ٱللهِ رَاضِي

---

(١) أصل الشريعة مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها و يستقون و يوردونها دوابهم . والعرب لاتسميها شريعة حتى يكون للماء عدا لاانقطاع له و يكون ظاهرا معينا لايستقى بالرشاء . ونهر الشريعة بالقرب من بيت القدس ، بنى عليه السلطان برقوق جسرا فقالت فيه السيدة عائشة الباعونية :

بنى سلطاننا برقوق جسرا ... بعدل والأنام له مطيعة
مجاز فى الحقيقة للبرايا ... وأمر بالوقوف على الشريعة

(٢) الرواق : سقف فى مقدم البيت ، أو بيت كالفسطاط يحمل على سطاع واحد فى وسطه (٣) أى أوامر وقوانين ، ورسم له كذا أى أمره به ، فارتسم أى امتثل . ويقال أنا أرتسم مراسمك لا أتخطاها . وللرسوم كتاب مطبوع وجمعه مراسيم

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ هٰذَا ٱلنَّقْشَ وَبَقِيَ وِرَاثَةً لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ وَلَدِهِ

***

« قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ » وَفِي أَيَّامِهِ ٱنْتَهَى مَالُ ٱلْجِبَايَةِ إِلَى أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ فِي ٱلسَّنَةِ ، وَكَانَ قَبْلُ لَا يَزِيدُ عَلَى سِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا يُخَالِفُ هٰذَا فَلْيُرَاجَعْ، وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ تَوْقِيعَاتِهِ : مَنْ لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ طَلَبِهِ فَٱلْحِرْمَانُ أَوْلَى بِهِ ، وَمِنْ شِعْرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْمَذْكُورِ قَوْلُهُ : زيادة الضرائب

وَلَقَدْ تَعَارَضَ(١) أَوْجُهٌ لِأَوَامِرٍ
فَيَقُودُهَا ٱلتَّوْفِيقُ نَحْوَ صَوَابِهَا
وَٱلشَّيْخُ إِنْ يَحْوِ ٱلنُّهَى بِتَجَارِبٍ
فَشَبَابُ(٢) رَأْيِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ شَبَابِهَا

(١) أى يعارض بعضها بعضا وتشتبه على المرء ملتبسة مبهمة ، وعارضه: جانبه وعدل عنه ، وحقيقة المعارضة حينئذ أن يكون كلاهما فى عرض صاحبه ، وعارض الكتاب : قابله بكتاب آخر (٢) الشباب الفتاء وحداثة السن ،

***

ما قيل في جامع قرطبة

وَفِي زِيَادَتِهِ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلْمُثَنَّى (١) رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى:

بَنَيْتَ لِلّٰهِ خَيْرَ بَيْتٍ ... يَخْرَسُ عَنْ وَصْفِهِ ٱلْأَنَامْ
حُجَّ إِلَيْهِ بِكُلِّ (٢) أَوْبٍ ... كَأَنَّهُ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْحَرَامْ
كَأَنَّ مِحْرَابَهُ (٣) إِذَا مَا ... حُفَّ بِهِ ٱلرُّكْنُ وَٱلْمَقَامْ

وَقَالَ آخَرُ:

بَنَى مَسْجِدًا لِلّٰهِ لَمْ يَكُ مِثْلُهُ
وَلَا مِثْلُهُ لِلّٰهِ فِي ٱلْأَرْضِ مَسْجِدُ
سِوَى مَا ٱبْتَنَى ٱلرَّحْمٰنُ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلَّذِي
بَنَاهُ نَبِيُّ ٱلْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ

والشباب (بكسر الشين) ماشبت به النار أى أوقدت ،وشب الفرس يشب شبابا رفع يديه جميعا ولعب وقمص،وكذلك اذا حرن ، وأرى أن(شباب) الأولى يجوز أن تقرأ بالوجهين (١) ومن تغزل عبد الرحمن بن أحمد بن المثنى قوله :

ويفرط المحمود وفي التجني ... كافراط الروافض في علىّ
بلاحظنى بلحظ بابلى ... ويفعل بى فعال السامرىّ .

(٢) حج إليه: قصده، من كل أوب: من كل جهة (٣) قال الأزهرى: المحراب عند العامة الذى يفهمه الناس: مقام الامام من المسجد — والمحراب :الموضع الذى يتفرد به الملك فيتباعد عن الناس ، وصدر المجلس .

لَهُ مُسْنَدٌ حُمْرٌ وَخُضْرٌ كَأَنَّمَا
تَلُوحُ يَوَاقِيتٌ بِهَا وَزَبَرْجَــدُ

أَلَا يَا أَمِينَ اللهِ لَازِلْتَ سَالِماً
وَلَازِلْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ تُسَدَّدُ(١)

فَيَالَيْتَنَا نَفْدِيكَ مِنْ كُلِّ حَادِثٍ
وَأَنْتَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ تَخْلُدُ

وَكَانَ كَثِيرَ الْمَيْـلِ لِلنِّسَاءِ، وَوَلِعَ بِجَارِيَتِهِ طَرُوبَ وَكَلِفَ(٢) بِهَا كَلَفاً شَدِيداً، وَهِيَ الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا الْبَابَ بِبِدَرِ(٣) الْمَالِ حِينَ تَجَنَّتْ(٤) عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهَا حَلْياً قِيمَتُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ مِثْلَ هٰذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ مِنْ خِزَانَةِ الْمُلْكِ، فَقَالَ: إِنَّ لَابِسَهُ أَنْفَسُ مِنْهُ خَطَراً، وَأَرْفَعُ

---

(١) أى توفق الى السداد والصواب (٢) كلف بها: أحبها حباً شديداً وأولع بها حتى شغفته حبا (٣) جمع بدرة وهى كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار، وتقول: فلان يهب البدور وتهب البدور (٤) تجنت عليه: ادعت عليه ورمته بأنه لم يفعله تيها ودلالا قال الشاعر:

تجنى على الذنب والذنب ذنبه وعاتبنى ظلما وفى جنبه العتب

وكانوا يقولون: التجنى وافد القطيعة

قَدْرًا بوأ كْرَمُ جَوْهَرًا ، وَأَشْرَفُ عُنْصُرًا ، وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا مَا بَدَتْ لِيَ شَمْسُ النَّهَا

رِ طَالِعَةً ذَكَّرَتْنِي طَرُوبَا

أَنَا ابْنُ الْمَيَامِينِ[1] مِنْ غَالِبٍ

أُشِبُّ حُرُوبًا[2] وَأُطْفِي حُرُوبَا

وَخَرَجَ غَازِيًا إِلَى جِلِّيقِيَّةَ ، فَطَالَتْ غَيْبَتُهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا :

عَدَانِي عَنْكِ[3] مَزَارُ الْعِدَا

وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ سِهَامًا مُصِيبَا

فَكَمْ قَدْ تَخَطَّيْتُ مِنْ سَبْسَبٍ[4]

وَلَاقَيْتُ بَعْدَ دُرُوبٍ دُرُوبَا ؟

أُلَاقِي بِوَجْهِي سَمُومَ الْهَجِيـ[5]

ـرِ إِذْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبَا

---

(١) من اليمن وهو البركة (٢) أشب : أوقد (٣) عدانى : صرفني وعاقني ، يقال عدته عنه العوادى ، وعاقته العوائق ، وصرفته للوا نع . والمزار : الزيارة ولعل (سهاما) في البيت محرفة عن (لهاما) أى جيشا لهاما كثيرا يلتهم كل شيء (٤) السبسب : المفازة (٥) سموم الهجير : شدة حرارة القيظ وقت الظهر

تَدَارَكَ بِي أُفُقُ دِينَ الْهُدَى

فَأَحْيَيْتُهُ وَأَمَتُّ الصَّلِيبَا

وَسِرْتُ إِلَى الشِّرْكِ فِي جَحْفَلٍ[١]

مَلَأْتُ الْحُزُونَ بِهِ وَالسُّهُوبَا[٢]

***

عبد الرحمن الأوسط وجاريته طروب

« وَسَاقَ » بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ قَضِيَّةَ طَرُوبَ هٰذِهِ بِقَوْلِهِ : إِنَّ السُّلْطَانَ الْمَذْكُورَ أَغْضَبَهَا، فَهَجَرَتْهُ وَصَدَّتْ عَنْهُ وَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ ، وَلَزِمَتْ مَقْصُورَتَهَا[٣] ، فَاشْتَدَّ قَلَقُهُ لِهَجْرِهَا ، وَضَاقَ ذَرْعُهُ مِنْ شَوْقِهَا، وَجَهَدَ أَنْ يَتَرَضَّاهَا بِكُلِّ وَجْهٍ ، فَأَعْيَاهُ

(١) الجحفل : الجيش الكثير العدد (٢) جمع سهب وهو الفلاة والصحراء . والسهب بضم السين وسكون الهاء : المستوى من الأرض فى سهولة أو المستوية البعيدة ، أو الواسع من الأرض، قال الفضل بن العباس اللهبي :

حللنا من تهامة كل سهب ... نقى الترب أودية رحابا

(٣) المقصورة : الدار الواسعة المحصنة بالحيطان ، أو هى أصغر من الدار وقال الليث : اذا كانت دار واسعة محصنة بالحيطان فكل ناحية منها على حدتها مقصورة ، والمقصورة والقصارة ماقصر من الدار فلا يدخلها الا صاحبها والمقصورة الحجلة . وقصر الجارية بالحجاب اذا صانها : وقصر الستر عليها أرخاه ، قال حاتم الطائى :

وما تشتكيني جارتى غير أنني ... اذا غاب عنها زوجها لا أزورها

سيبلغها خيرى ويرجع بعلها ... اليها ولم تقصر على ستورها

ذَلِكَ ، فَأَرْسَلَ مِنْ خَاصَّةِ خِصْيَانِهِ مَنْ يُكْرِمُهَا عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، فَأَغْلَقَتْ بَابَ مَجْلِسِهَا فِي وُجُوهِهِمْ ، وَآلَتْ أَلَّا تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ طَائِعَةً وَلَوِ انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى الْقَتْلِ ، فَانْصَرَفُوا إِلَيْهِ وَأَعْلَمُوهُ بِقَوْلِهَا ، وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي كَسْرِ الْبَابِ عَلَيْهَا ، فَنَهَاهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِسَدِّ الْبَابِ عَلَيْهَا مِنْ خَارِجِهِ بِبِدَرِ الدَّرَاهِمِ ، فَفَعَلُوا وَبَنَوْا عَلَيْهَا بِالْبِدَرِ ، وَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ بِالْبَابِ ، وَكَلَّمَهَا مُسْتَرْضِيًا رَاغِبًا فِي الْمُرَاجَعَةِ عَلَى أَنَّ لَهَا جَمِيعَ مَا سُدَّ بِهِ الْبَابُ ، فَأَجَابَتْ وَفَتَحَتِ الْبَابَ ، فَانْهَالَتِ الْبِدَرُ فِي بَيْتِهَا ، فَأَكَبَّتْ(١) عَلَى رِجْلِهِ تُقَبِّلُهَا وَحَازَتِ الْمَالَ . وَكَانَتْ تُبْرِمُ(٢) الْأُمُورَ مَعَ مُضَرَ الْخَصِيِّ ، فَلَا يَرُدُّ شَيْئًا مِمَّا تُبْرِمُهُ . وَأَحَبَّ أُخْرَى اسْمُهَا مُدَّثِّرَةُ(٣) فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا ، وَأُخْرَى كَذَلِكَ اسْمُهَا الشِّفَاءُ ، . وَأَمَّا جَارِيَتُهُ قَلَمُ فَكَانَتْ

(١) أي أقبلت وتجانأت « المعنت » (٢) تبرم : تدبرها وتنقذها وتمضيها

(٣) اسم فاعل من ادثر بالثوب والدثار اذا اشتمل به وتلفف داخلا فيه والأصل متدثرة أدغمت التاء في الدال وشددت ، وقال الفراء في قوله تعالى : يأيها المدثر : يعني المتدثر بثيابه اذا نام وفي الحديث : « كان اذا نزل عليه الوحي يقول : دثروني دثروني » أي غطوني بما أدفأ به . وفلانة دثور الضحى تتدثر فتنام

أُدِيبَةً حَسَنَةَ الْخَطِّ رَاوِيَةً لِلشِّعْرِ حَافِظَةً لِلْأَخْبَارِ عَالِمَةً بِضُرُوبِ الْأَدَبِ . وَكَانَ مُولَعاً بِالسَّمَاعِ مُؤْثِراً لَهُ عَلَى جَمِيعِ لَذَّاتِه . وَلَهُ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ رَحِمَهُ اللهُ .

***

محمد بن عبد الرحمن الأوسط

وَلَمَّا مَاتَ وَلِيَ مَكَانَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ * فَبَعَثَ لِأَوَّلِ وِلَايَتِهِ عَسَاكِرَ مَعَ مُوسَى بْنِ مُوسَى صَاحِبِ طُلَيْطُلَةَ(١)

(١) كذا بالأصل ، والذى فى ابن خلدون وابن الأثير أنه صاحب « تطيلة » وهو الذى أرجحه فان موسى بن موسى كان عاملا على مدينة تطيلة من أيام الأمير عبد الرحمن « والد محمد » وكان من أعيان قواده ، ثم جرى بينه وبين القواد تحاسد ومنافسة أدت الى عصيانه على عبد الرحمن وثورته ثورة قتل فيها ابنه « لب بن موسى » ثم جرت حوادث قطيعة سنة ٢٤٩ كان فيها « غرسية » ملك الفرنجة سنة ٢٢٩ مساعدا لموسى الى أن طلب موسى المسالمة فأجيب اليها وأعطى ابنه اسماعيل رهينة وولاه عبد الرحمن مدينة تطيلة فسار موسى اليها وأخرج منها كل من يخافه واستقر فيها « أحمد يوسف نجاتى »

■ ترجم له فى كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى « ج ١ ص ٩ » يمانى : قال أحمد : ولى محمد بن عبد الرحمن فى الليلة التى توفى فيها أبوه وتوفى رحمه الله ليلة الخميس فى صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، فلبث فى ولايته أربعا وثلاثين سنة غير ثلاثة أيام . قال الرازى: ولى الأمير محمد ابن عبد الرحمن يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين وتوفى عشية الخميس لليلة بقيت من صفر سنة ثلاث وسبعين فكانت خلافته أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وسبعة عشر يوما، وبلغ من السن خمسا وستين سنة، وكان مولده فى ذى القعدة سنة سبع ومائتين.

فَعَاثَ[1] فِي نَوَاحِي أَلْبَةَ وَٱلْقِلَاعِ ، وَفَتَحَ بَعْضَ حُصُونِهَا وَرَجَعَ ، وَبَعَثَ عَسَاكِرَ أُخْرَى إِلَى نَوَاحِي بَرْشِلُونَةَ وَمَا وَرَاءَهَا ، فَعَاثُوا فِيهَا وَفَتَحُوا حُصُونًا مِنْ بَرْشِلُونَةَ وَرَجَعُوا .

***

حروب الأمير محمد

وَلَمَّا ٱسْتَمَدَّ أَهْلُ طُلَيْطُلَةَ ٱلْمُخَالِفُونَ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ ٱلْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ بِمَلِكَيْ جِلِّيقِيَّةَ وَٱلْبَشْكَنْسِ لَقِيَهُمُ ٱلْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ عَلَى وَادِي سُلَيْطَةَ[2] ، وَقَدْ أَكْمَنَ لَهُمْ فَأَوْقَعَ بِهِمْ ، وَبَلَغَتْ عِدَّةُ ٱلْقَتْلَى مِنْ أَهْلِ طُلَيْطُلَةَ وَٱلْمُشْرِكِينَ عِشْرِينَ أَلْفًا .

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ ظَهَرَتْ مَرَاكِبُ ٱلْمَجُوسِ[3] وَعَاثُوا فِي ٱلْأَنْدَلُسِ ، فَلَقِيَهُمْ مَرَاكِبُ ٱلْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ

(١) عاث : أفسد (٢) كذا بالأصل . وفي تاريخ ابن خلدون وابن الأثير « وادي سليط » في غير موضع . راجع ابن الأثير في حوادث سنة ٢٤٠

(٣) أصل هؤلاء الذين يسميهم كثير من مؤرخي العرب بالمجوس أنه في سنة ٢٢٩ ظهر على شواطئ أشبونة أكثر من خمسين سفينة تقل كثيرا من أقوام متوحشين قدموا من البلطيق وشواطئ النرويج يعرفون عند مؤرخي الافرنج بالنورمان ويسميهم مؤرخو العرب « المجوس » وما أظن أن المراد بهم عابدو النيران بل يرى بعضهم أنهم المعروفون لدى العرب

فَقَاتَلُوهُمْ وَغَنِمُوا مِنْهُمْ مَرَاكِبَيْنِ، وَاسْتُشْهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ(١). وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ أَغْزَى مُحَمَّدٌ إِلَى نَوَاحِي بَنْبَلُونَةَ، وَصَاحِبُهَا حِينَئِذٍ غَرْسِيَةُ بْنُ وَنْقَةَ، وَكَانَ يُظَاهِرُ أُرْدُنَ بْنَ أَذْفُنْش(٢)، فَعَاثَ فِي نَوَاحِي بَنْبَلُونَةَ، وَرَجَعَ وَقَدْ دَوَّخَهَا وَفَتَحَ كَثِيرًا مِنْ حُصُونِهَا وَأَسَرَ فَرْتُونَ(٣) أَبْنَ صَاحِبِهَا، فَبَقِيَ أَسِيرًا بِقُرْطُبَةَ عِشْرِينَ سَنَةً(٤). ثُمَّ بَعَثَ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ أَخَاهُ ٱلْمُنْذِرَ فِي ٱلْعَسَاكِرِ إِلَى نَوَاحِي ٱلْأَلْبَةِ وَٱلْقِلَاعِ، فَعَاثُوا فِيهَا وَجَمَعَ لُذَرِيقُ لِلِقَائِهِمْ فَلَقِيَهُمْ وَٱنْهَزَمَ، وَأَثْخَنَ ٱلْمُسْلِمُونَ فِي ٱلْمُشْرِكِينَ بِٱلْقَتْلِ وَٱلْأَسْرِ، فَكَانَ فَتْحًا لَا كِفَاءَ لَهُ(٥).

باسم « للأجوج » أو « يأجوج ومأجوج » وأنت ترى فى كثير من كتب التفسير أن بعض أحبار اليهود يقول ان يأجوج ومأجوج فى منتهى الشمال حيث لايستطيع أحد سواهم السكنى فيه، ولقد عنا هؤلاء البربر المتوحشون مفسدين فى أرض الأندلس وأزعجوا كثيرا من نواحيها وسكان الشواطئ فيها وهدموا كثيرا من مبانيها (١) ارجع الى خبر هذه الغزوة فى تاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٤٥ ومابعدها فهو أوضح وأكثر فائدة (٢) هو صاحب جليقية (٣) هو ابن غرسية وكان شجاعا مقداما و بطلا صنديدا (٤) بعد ذلك أطلقه الأمير من أسره وأباح له أن يعود الى وطنه ولكنه آثر طائعا مختارا أن يقيم بمدينة قرطبة الى أن بلغ من الكبر عتيا (٥) لا كفاء له : لامثيل ولانظير له، قال حسان بن ثابت :

وروح القدس ليس له كفاء * أى جبريل عليه السلام ليس له نظير ولامثيل

غزو بلاد الجلالقة

ثُمَّ غَزَا ٱلْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ بِنَفْسِهِ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ بِلَادَ ٱلْجَلَالِقَةِ(١) فَأَثْخَنَ وَخَرَّبَ . وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ أَغْزَى ٱلْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ ٱبْنَـهُ ٱلْمُنْذِرَ إِلَى دَارِ ٱلْحَرْبِ(٢) .

وَفِي ٱلسَّنَةِ ٱلَّتِي بَعْدَهَا إِلَى بَنْبَلُونَةَ ، فَدَوَّخَهَا وَرَجَعَ(٣) .

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ أَغْزَاهُ أَيْضًا إِلَى دَارِ ٱلْحَرْبِ ، فَعَاثَ فِي نَوَاحِيهَا وَفَتَحَ حُصُونًا(٤)

وَفِي أَيَّامِ ٱلْأَمِيرِ مُحَمَّـدٍ خُرِّبَتْ مَارِدَةُ(٥) وَهُدِمَتْ

---

(١) كانت فى الشمال الغربى من أسبانيا (٢) انظر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٦٣ ويريد بدار الحرب جليقية (٣) انظر حوادث سنة ٢٦٤ فى ابن الأثير (٤) ارجع الى ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٦٨ (٥) ماردة : كورة واسعة متصلة بحوز فريش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة وهى على نهر بطليوس « الوادى اليانع » الى الشرق منها . وكانت احدى القواعد التى تخيرتها للملوك للسكنى من القياصرة والروم. قال ياقوت : وهى مدينة رائعة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب ، ولها حصون وقرى . ومن أهل ماردة أبو عبد الله مالك بن معروف يروى عن عبد الملك بن حبيب ، وتوفى سنة ٢٦٤ . ومنهم أبو اسحق ابرهيم بن محمد بن ثبات كان فقيها حافظا ثبتا وهو من أهل ماردة وسكن قرطبة وتوفى سنة ٥٤١ .

وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ . وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَأَى بِالْمَشْرِقِ هَـذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ قَبْلَ أَنْ تُخَرَّبَ (١) مَارِدَةُ بِأَعْوَامٍ ، وَلَمْ يُعْلَمْ قَائِلُهَا وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ .

---

(١) كان لهذه المدينة من اسمها نصيب فان الثورات لم تكد تهدأ فيها منذ أيام الحكم بن هشام ففي سنة ١٩١ عصى أصبغ بن عبد الله ووافقه أهل ماردة على الأمير الحكم وأخرجوا عامله ،واتصل الأمر بالحكم فسار اليها وحاصرها وبينما هو مجد في الحصار أتاه الخبر عن أهل قرطبة أنهم شقوا عصا الطاعة فرجع مبادرا اليها وعاقب من آثار الفتنة عقابا صارما كان عبرة لسواهم ولم يزل أهل ماردة تارة يطيعون وتارة يعصون الى سنة ١٩٢ فضعف أمر أصبغ لأن الحكم والى ارسال الجيوش اليه واستمال طائفة من أعيان أهل ماردة وثقاته من أصحابه فالوا الى الأمير وتركوا أصبغ حتى أخوه فضعفت نفسه وألقى يد السلم وأرسل يطلب الأمان من الحكم فأمنه ففارق ماردة وحضر عند الحكم وأقام بقرطبة . وفي سنة ١٩٤ عاود أهل ماردة الخلاف على الحكم ونبذوا طاعته فسار بنفسه اليهم وقاتلهم ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد الى محاربتهم والنيل منهم ومن مدينتهم في هذه السنة ، وفي سنتي ١٩٥ ، ١٩٦ طمع الفرنج في ثغور المسلمين وقصدوها بالغارة وعاثوا فيها فسادا وكان الأمير الحكم مشغولا بأهل ماردة فلم يتفرغ للفرنج حتى بلغه الخبر بشدة الأمر وفظاعة ما يرتكبه الفرنجة مع أهل الثغور فلم يثن عزمه عنهم شدة بل سار اليهم وأذاقهم وبال أمرهم وعاد الى قرطبة مظفرا. ومن أعظم الأسباب في اضطراب ماردة وتمردها وتوالي الثورات فيها أن كان بين المسيحيين من سكانها ولويس ملك الفرنج تراسل واتفاق يبطنونه . كما أن ملك الجلالقة « مملكة ليون

وَيْلٌ[1] لِمَارِدَةَ ٱلَّتِي مَرَدَتْ[2]
وَتَكَبَّرَتْ عَنْ عُدْوَةِ ٱلنَّهْرِ
كَانَتْ تُرَى لَهُمُ بِهَا زَهَـــرٌ
فَخَلَتْ مِنَ ٱلزَّهَرَاتِ كَالْقَفْرِ

القديمة » فى شمالى أسبانيا عاث بجيوشه سنة ٣٠٢ فى أرض ماردة يحرق ويقتل فانتقم منه الناصر وغزا أرض ليون سنة ٣٠٤ » فلا عجب أن دمرت ماردة وأن يرحل عنها كثير من صالحى أهلها الى سواها » ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سويد القيسي كان أصله من ماردة ففارقها الى بطليوس وكان عالما فقيها ذا منزلة عظيمة فى فنون من العلوم وتوفى سنة ٣٠٠ ومنهم أبو عبد الله محمد بن مروان بن رزيق كان أصله من ماردة ثم سكن بطليوس ورحل الى المشرق سنة ٣٠٩ مع أخيه عبد الملك وروى عن كثير من أهل الأندلس والمشرق وكان مع هذا تاجرا عاقلا حليما واستقدمه الأمير المنتصر بالله وكتب عنه وتوفى سنة ٣٣٩ عن ٩٥ سنة ـ وماردة كانت مدينة ذات شهرة ذائعة فى أيام العرب وكانت لاتزال فيها الى عهد قريب آثار جليلة تشهد بفخامتها ، ولا أدرى مافعل الثائرون الآن بها فقد قضى على كثير من هذه الآثار النفيسة . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) الويل : حلول الشر والهلاك والعذاب (٢) مرد : عتا وعصى . والعدوة شاطئ الوادى وشفيره وحافته ، وعدوة كل شئ طواره وهو ماانقاد معه من عرضه وطوله ، يقال لزمت عدوة الطريق أو النهر أو الجبل أى طواره

فَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْحُ(١) حِينَ غَزَا

بِجَمِيعِهِمْ مِنْ صَاحِبِ الْأَمْرِ

ثُمَّ تُوُفِّيَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فِي شَهْرِ صَفَرَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ لِخَمْسٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ إِمَارَتِهِ، وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَمِائَتَيْنِ.

***

المنذر بن الأمير محمد

وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ الْمُنْذِرُ * وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ وَأَقَامَ فِي

(١) الويح: كلمة ترحم وتوجع، وقد تستعمل بمعنى ويل وقال سيبويه: الويل لمن وقع فى الهلكة أو بلية لايترحم عليه، والويح زجر لمن أشرف على الهلكة، ويقال لمن وقع فى بلية يرحم ويدعى له بالتخلص منها. ووقعت ويل فى القرآن الكريم لمستحق العذاب بجرائمهم، وأما ويح فان النبي صلى الله عليه وسلم قالها لعمار بن ياسر ويحك يابن سمية بؤسا لك تقتلك الفئة الباغية، كأنه أعلم بمايبتلى به من القتل فتوجع لهوترحم

* ترجمه فى كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى «ج ١ ص ٩» بمايأتى:

قال أحمد: ولى الأمير المنذر بن محمد يوم الأحد لثلاث مضين من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين وتوفى ـ رحمه الله تعالى ـ بيشتر سنة خمس وسبعين ومائتين. وقال الرازى: توفى الأمير المنذر ـ رحمه الله ـ فجأة فى علته بيشتر يوم السبت للنصف من صفر سنة خمس وسبعين وكانت خلافته سنة وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما، و بلغ من السن ستا وأربعين سنة. ودفن فى القصر وصلى عليه الأمير أخوعبدالله بن محمد

ٱلْمُلْكِ سَنَتَيْنِ إِلَّا نِصْفَ شَهْرٍ ، وَتُوُفِّيَ مُنْتَصَفَ صَفَرٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَفِيهِ قِيلَ(١):

بِٱلْمُنْذِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ صَلَحَتْ بِلَادُ ٱلْأَنْدَلُسْ

***

عبد الله بن محمد ثُمَّ وَلِيَ أَخُوهُ عَبْدُ ٱللهِ * قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ: كَانَ خَرَاجُ ٱلْأَنْدَلُسِ قَبْلَهُ ثَلَثَمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، مِائَةَ أَلْفٍ لِلْجُيُوشِ ، وَمِائَةَ أَلْفٍ لِلنَّفَقَةِ فِي ٱلنَّوَائِبِ وَمَا يَعْرِضُ ، وَمِائَةَ أَلْفٍ ذَخِيرَةً وَوَفْرًا ، فَأَنْفَقَ ٱلْوَفْرَ حِينَ ٱضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ نَوَاحِي ٱلْأَنْدَلُسِ بِٱلثُّوَّارِ وَٱلْمُتَغَلِّبِينَ فِي تِلْكَ ٱلسِّنِينَ ، وَقَلَّ

(١) القائل ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وبعده :

فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

* ترجم له في كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي « ج ١ ص ٩ » بما يأتي : قال أحمد :

ولي عبد الله بن محمد سنة خمس وسبعين ومائتين وتوفي — رحمه الله — ليلة الخميس أول يوم من ربيع الأول سنة ثلثمائة وقال الرازي : توفي الأمير عبد الله ليلة الخميس مستهل ربيع الأول سنة ثلاثمائة وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة وخمسة عشر يوما ودفن في القصر يوم الخميس مستهل ربيع الأول وبلغ من السن اثنتين وسبعين سنة .

ٱلْخَرَاجُ(١). انْتَهَى. وَمِنْ نَظْمِ ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱللّٰهِ قَوْلُهُ :

يَا مُهْجَةَ ٱلْمُشْتَاقِ مَا أَوْجَعَكْ

وَيَا أَسِيرَ ٱلْحُبِّ مَا أَخْشَعَكْ

وَيَا رَسُولَ ٱلْعَيْنِ مِنْ لَحْظِهَا

بِالرَّدِّ وَٱلتَّبْلِيغِ مَا أَسْرَعَكْ(٢)

(١) سبب ذلك اضطراب البلاد وتوالى الفتن فيها حتى ارتبكت أحوال الأندلس ارتباكا شديدا وأصبحت ميدانا للقتال وتنازع القبائل الفاتحة وسواها ، فان زعماء الكور الأندلسية انتهزوا فرصة الشقاق التى دب بين الأسرة المالكة للوصول الى أغراضهم وهو الاستقلال بما تحت أيديهم من الأقاليم والبلاد بل انهم سولت لهم أنفسهم أن يثلوا عرش الدولة الأموية فناصبوها العداء واعتدوا على كور قرطبة وأعمالها (٢) فى معنى أبيات الأمير عبد الله قول ابراهيم بن المهدى :

اذا كلمتنى بالعيون الفواتر ... رددت عليها بالدموع البوادر
فلا يعلم الواشون ما دار بيننا ... وقد قضيت حاجاتنا فى الضمائر

وقول محمد بن عيسى :

اذا نحن خفنا الكاشحين ولم نطق ... كلاما تكلمنا بأعيننا سرا

وقال على بن هشام :

فلمت اعاه وودعت خفية ... فكان جوابى كسر عين وحاجب

وقال ابن أبى طاهر :

ومجلس لذة لم نقو فيه ... على شكوى ولا عد الذنوب
فلما لم نطق فيه كلاما ... تكلمت العيون عن القلوب
وفى غمز الحواجب مستراد ... لحاجات المحب الى الحبيب

تَنْهَبُ بِالسِّرِّ فَتَأْتِي بِهِ

فِي مَجْلِسٍ يَخْفَى عَلَى مَنْ مَعَكْ

كَمْ حَاجَةٍ أَنْجَزْتَ إِبْرَازَهَا

تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ مَا أَطْوَعَكْ؟!

وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ عُنْوَانُ فَضْلِهِ، وَبَرَاعَةُ اسْتِهْلَالِ نُبْلِهِ(١).

وَكَانَ الْوُزَرَاءُ يُطَالِعُونَ بِآرَائِهِمُ الْخَلِيفَةَ فِي بِطَاقَةٍ، فَطَالَمَهُ

وقال صردر :

وإذا تلاحظت العيون تفاوضت ... وتحدثت عما تجن قلوبها

بالسر والافواه صامتة فما ... تخفى عليك صحيحها ومريبها

ومن أحسن ماقيل فيمن يفهم اشارة العين :

يكاد يفهم عنك الوحي ناظره ... كأن عينيه تفتران عن أذن

والقول فى هذا الغرض كثير ، وقصاراه أن :

عين المحب الى الاحباب ناظرة ... وسمعه لنداء الوصل ينتظر

« أحمد نجاتى » .

(١) ومن غزله فى صباه :

ويحى على شادن كحيل ... فى مثله يخلع العذار

كأنما وجنتاه ورد ... خالطه النور والبهار

قضيب بان اذا تثنى ... يدير طرفا به احورار

فصفو ودى عليه وقف ... ماطرد الليل والنهار

وَزِيرَهُ ٱلنَّضْرُ(١) بْنُ سَلَمَةَ بِرَأْيِهِ فِي أَمْرٍ فِي وَرَقَةٍ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهَا لَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ ٱلرَّأْيُ فَكَتَبَ :

أَنْتَ يَا نَضْرُ آبِدَهْ(٢)   لَيْسَ تُرْجَى لِفَائِدَهْ
إِنَّمَا أَنْتَ عُدَّةٌ   لِكَنِيفٍ(٣) وَمَائِدَهْ

وَتُوُفِّيَ ٱلْأَمِيرُ عَبْدُ ٱللهِ سَنَةَ ثَلَثِمِائَةٍ ، وَمُدَّةُ مُلْكِهِ نَحْوٌ مِنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً .

---

(١) هو أبو محمد نضر بن سلمة بن الوليد بن أبي بكر بن عبيد بن بلج ابن عبيد الكلابي القيسي من أهل قرطبة استقضاه الأمير عبد الله بن محمد بقرطبة مرتين ثم استوزره بعد ذلك وتوفي سنة ٣٠٢ « أحمد تيمانى »

(٢) الآبدة : الداهية ، والأوابد الوحوش والطير تقيم بأرض شتاءها وصيفها ، ويقال جاء فلان بآبدة : أي داهية يبقى ذكرها على الأبد

(٣) هو المرحاض مأخوذ من الكنف وهو الستر والناحية لأن الانسان يقضي حاجته به في أستر النواحي وكان الأمير يقول لوزيره : أعاتبني لتأكل :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

عبد الرحمن الناصر « وَوَلِيَ حَافِدُهُ (١) عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ * ٱلنَّاصِرُ ٱبْنُ أَبْنِهِ مُحَمَّدٍ قَتِيلِ أَخِيهِ ٱلْمُطَرِّفِ (٢) »

(١) الحافد والحفيد ابن الابن (٢) كان المطرف قد أكثر السعاية فى أخيه محمد عند أبيهما ودبت عقارب وشايته حتى تمكنت وظهر سخط الأمير عبد الله على ابنه محمد فلحق حينئذ بغربى الأندلس « ببلد عمر بن حفصون الثائر بالأندلس وهو الذى افتتح الخلاف بها وفارق الجماعة أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٧٠ وانضم اليه كثير من الجند عن فى قلبه مرض فى الطاعة وابتنى قلعة هناك واستولى على غرب الأندلس الى رندة وكانت له هناك حوادث عظيمة الى أن انقرض أمر بنى حفصون سنة ٣١٥ » ثم استأمن وعاد فبالغ المطرف فى السعاية به حتى حبسه أبوه ببعض حجر القصر وخرج لبعض غزواته واستخلف ابنه المطرف على قصره فقتل أخاه فى محبسه منتهكا بذلك حرمة والده وحزن الأمير عبد الله على ابنه القتيل وضم ولده عبد الرحمن الى قصره وهو ابن يوم فربى مع والده ، ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة سنة ٢٨٣ ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ففتك المطرف به لعداوة بينهما « فسطا به أبوه الأمير عبد الله وقتله بثار أخيه محمد وبالوزير . وأحمد يوسف نجاتى »

* ترجم له فى كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى «ج ١ ص ١٠» بما يأتى : قال أحمد : ولى أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله صبيحة يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة وتوفى — رحمه الله — يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة خمسين وثلثمائة ومولده فيما ذكره الرازى يوم الخميس عند انبلاج الصبح لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة سبع وسبعين ومائتين فكانت خلافته خمسين سنة وستة أشهر ويومين .

وَكَانَتْ وِلَايَتُهُ مِنَ الْغَرِيبِ لِأَنَّهُ كَانَ شَابًّا ، وَأَعْمَامُهُ وَأَعْمَامُ أَبِيهِ حَاضِرُونَ ،فَتَصَدَّى إِلَيْهَا وَاحْتَازَهَا(١) دُونَهُمْ ،وَوَجَدَ الْأَنْدَلُسَ مُضْطَرِبَةً بِالْمُخَالِفِينَ ، مُضْطَرِمَةً بِنِيرَانِ الْمُتَغَلِّبِينَ ؛ فَأَطْفَأَ تِلْكَ النِّيرَانَ، وَاسْتَنْزَلَ(٢) أَهْلَ الْعِصْيَانِ ، وَاسْتَقَامَتْ لَهُ الْأَنْدَلُسُ فِي سَائِرِ جِهَاتِهَا بَعْدَ نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ أَيَّامِهِ ، وَدَامَتْ أَيَّامُهُ نَحْوَ خَمْسِينَ سَنَةً اسْتَفْحَلَ(٣) فِيهَا مُلْكُ بَنِي أُمَيَّةَ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ .

***

سبب تلقيب عبد الرحمن الناصر بالخلافة

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَسَمَّى مِنْهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَا الْتَاثَ(٤) أَمْرُ الْخِلَافَةِ بِالْمَشْرِقِ ، وَاسْتَبَدَّ مَوَالِي الْأَتْرَاكِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَبَلَغَهُ أَنَّ الْمُقْتَدِرَ قَتَلَهُ مُؤْنِسٌ(٥) الْمُظَفَّرُ مَوْلَاهُ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ

(١) احتازها : ضمها اليه (٢) أى أخضع وأذل وقهر ، واستنزل فلانا : حط عن مرتبته ، ويقال قهروا أعداءهم واستنزلوهم من صياصيهم (٣) استفحل الخ : عظم واتسع (٤) التاث : التبس واضطرب واختلط (٥) مؤنس الخادم كان مملوك الخليفة المعتضد ، ومن القواد ذوى المكانة والمنزلة الرفيعة فى الدولة العباسية ، فكان يتصرف فى أمورها كما يشاء حتى كادت أعمالها الجليلة كلها تكون بيده ، ابتدأت الوحشة بينه وبين الخليفة المقتدر فى

وَثَلَثِمِائَةٍ، فَتَلَقَّبَ بِأَلْقَابِ الْخِلَافَةِ . وَكَانَ كَثِيرَ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ

سنة ٣١٥ بدسائس بعض خدم القصر وتدخلهم فى شؤون الدولة » ولى المقتدر الخلافة سنة ٢٩٥ بعد وفاة الخليفة المكتفى بالله على بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق بن المتوكل » وانضم الى مؤنس كثير من الرجال والجيش ، وكان من آثار ذلك أن خلع المقتدر فى سنة ٣١٧ وبويع أخوه القاهر بالله محمد بن المعتضد » بتدبير أشياع مؤنس » فبقى القاهر يومين ثم أعيد المقتدر بعد فتن وثورات شديدة كانت فيها الدولة فوضى والجيش منقسما . وفى سنة ٣١٨ خلع المقتدر على ابنه أبى العباس الراضى وأقطعه بلاد المغرب ومصر والشام وجعل مؤنسا المظفر يخلفه فيها – وفى سنة ٣١٩ تجددت الوحشة بين مؤنس والمقتدر واشتدت حتى آلت الى قتل المقتدر بعد ، وفى المحرم من سنة ٣٢٠ سار مؤنس الى الموصل مغاضبا المقتدر ومعه أنصاره ومماليكه وأصحابه وكثير من الفرسان والرجال واستولى على الموصل بعد قتال انتصروا فيه على بنى حمدان ، ثم عاد مؤنس الى بغداد فكانت فيها فتنة شعواء وثورة تلظت نارها ، قتل فيها الخليفة المقتدر وان لم يكن مؤنس راغبا فى ذلك ، قتله قوم من المغاربة والبربر فى تلك الثورة العمياء الطائشة . ولما قتلوه رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وسلبوه جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة لم يرعوا لحرمة الى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفنه وعفى قبره – وكان ما فعله مؤنس سببا لجراءة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يخطر لهم على بال ، فاشتد ضعف الدولة وخرق سياج هيبتها ، على أن المقتدر – عفا الله عنه – أهمل من أحوال الخلافة كثيرا وحكم فيها النساء والخدم ، وفرط فى الأموال وهى عصب الدولة وقوتها ، وكان يعزل ويولى من الوزراء بحسب الهوى وميل

وَالْغَزْوِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ ، إِلَى أَنْ هُزِمَ عَامَ الْخَنْدَقِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ ، وَمَحَّصَ(١) اللَّهُ فِيهَا الْمُسْلِمِينَ ،

المتغلبين عليه ممن كان طوع أيديهم . ثم بويع محمد بن المعتضد فى شوال سنة ٣٢٠ ولقب بالقاهر بالله فأساء الى حرمة المقتدر حتى عامل والدته الشكلى معاملة قاسية غير شريفة . وفى سنة ٣٢١ استوحش مؤنس والوزير أبو على بن مقلة وأتباعهما من القاهر وضيقوا عليه وعلى أسبابه، ثم قبض القاهر على مؤنس بعد تدبير طويل وحبسه وقتله فى شعبان سنة ٣٢١ . والى مؤنس المظفر تنسب قرية المونسية بالصعيد على شرقى النيل ، وهى فى جزيرة من أعمال قوص أنشأها مؤنس فى أيام المقتدر بالله أيام قدومه مصر لقتال المغاربة . « أحمد يوسف نجاتى »

(١) التمحيص: الابتلاء والاختبار وبه فسر قوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا » أى يبتليهم، وقال ابن اسحاق : جعل الله الأيام دولا بين الناس ليمحص المؤمنين بما يقع عليهم من قتل أو ألم أو ذهاب مال . ومحص الشىء : خلصه عما يشوبه كالذهب والمعادن النفيسة تمحص مما يشوبها من تراب ونحوه .

وكان سبب قعود الناصر عن الغزو أنه فى سنة ٣١٤ حل بالبلاد قحط شديد وأصابها محل تحتاج فيه الى المؤازرة والمعونة وبذل عناية الملك فى اتقاء شره وسوء مغبته واشتد القحط وعم المحل وعظم البلاء فى سنة ٣١٥ فاستسقى الناس أبا عبد الله أحمد بن بقى بن مخلد قاضى قرطبة وفاضلها الورع الزاهد . وأرسلت الكتب الى الكور والأقاليم فى الاستسقاء والتوجه الى الله تعالى فى دفع البلاء فأسقى الله البلاد وجادهم الغيث ــ توفى أحمد ابن بقى سنة ٣٢٤ ــ رحمه الله ــ . ثم ضنت السماء بمائها فى سنة ٣١٧ فعاد المحل وغلت الأسعار واستسقى الناس بجامع قرطبة

فَقَعَدَ عَنِ ٱلْغَزْوِ بِنَفْسِهِ ، وَصَارَ يُرَدِّدُ ٱلصَّوَائِفَ(١) فِي كُلِّ سَنَةٍ ، فَأَوْطَأَ عَسَاكِرَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ بِلَادِ ٱلْفِرَنْجِ مَا لَمْ يَطَئُوهُ قَبْلُ فِي أَيَّامِ سَلَفِهِ ، وَمَدَّتْ إِلَيْهِ أُمَمُ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ وَرَاءِ ٱلدُّرُوبِ يَدَ ٱلْإِذْعَانِ(٢) ، وَأَوْفَدُوا عَلَيْهِ رُسُلَهُمْ وَهَدَايَاهُمْ مِنْ رُومَةَ وَٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي سَبِيلِ ٱلْمُهَادَنَةِ وَٱلسِّلْمِ وَٱلِاعْتِمَالِ(٣) فِيمَا يَعِنُّ فِي مَرْضَاتِهِ ، وَوَصَلَ إِلَى

(١) جمع صائفة أى غزوة ، وأصلها أن العرب كانت تغزو الروم فى الصيف لمكان البرد والثلج هناك — وفى الأصل « طوائف » محرفة (٢) هذا لقوة بطشه واتساع ملكه وبسطة نفوذه وتأييد العلم والمال والقوة له ، فقد مكنته قوته البرية أن يطفئ نيران الفتن والثورات ويقهر نصارى الشمال ، ومكنته قواه البحرية أن يقبض بها على مدينة سبتة مفتاح المغرب وغيرها لمد للملوك اليه أيديهم يخطبون وده ويتمنون ما عنده وأرسل اليه قسطنطين بن ليون ملك الروم بهدية ذات خطر وكذلك أرسل اليه عاهل ألمانيا رسل المودة ، وبعث اليه شارل Charles ملك الفرنجة

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

***

ما مضوا لم يقاتلوك ولكن القتال الذى كفاك القتالا

(٣) فى ابن خلدون : (والاحتمال) وما هنا أولى ، واعتمل : اضطرب فى العمل ، أو عمل لغيره ، أو عمل بجهد لغيره أو لنفسه

سُدَّتِهِ(١) الْمُلُوكُ مِنْ أَهْلِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ الْمُتَاخِمِينَ(٢) لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِجِهَاتِ قَشْتَالَةَ وَبَنْبُلُونَةَ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا مِنَ الثُّغُورِ الْجُوفِيَّةِ(٣) فَقَبَّلُوا يَدَهُ، وَالْتَمَسُوا رِضَاهُ، وَاحْتَقَبُوا(٤) جَوَائِزَهُ، وَامْتَطَوْا مَرَاكِبَهُ. ثُمَّ سَمَا إِلَى مُلْكِ الْعُدْوَةِ، فَتَنَاوَلَ سَبْتَةَ(٥)، وَتَقَبَّلَ الْفُرْضَةَ(٦) مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَثَلَثِمِائَةٍ، وَأَطَاعَهُ بَنُو إِدْرِيسَ أُمَرَاءُ الْعُدْوَةِ(٧) وَمُلُوكُ زَنَاتَةَ وَالْبَرْبَرِ، وَأَجَازَ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ

---

(١) السدة : باب الدار والبيت ، وفناء البيت ، والسدة كالصفة تكون بين أيدى البيت ، وفى حديث أبى الدرداء أنه أتى باب معاوية فلم يأذن له فقال : من يغش سدد السلطان يقم ويقعد . (٢) المتاخمين : الملاصقين والمجاورين ، والتخم هو الحد (٣) الجوف فى الأصل المطمئن من الأرض . والجوف كورة كبيرة بالأندلس من ناحية الغرب قرب البحر المحيط فيها الطمئنان على باقى الأندلس تشتمل على نواح وقرى ، وهو المراد هنا ، والجوف عمل آخر بالأندلس من اقليم أكشونية . وفى الأصل « الحوفية بالحاء محرفة » (٤) احتقبوا : جمعوا وحملوا (٥) سبتة : مدينة حصينة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، وقد كان مرساها أجود مرسى على البحر (٦) الفرضة : المرفأ « محط السفن » الميناء (٧) دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى معروفة تنسب الى ادريس بن حسن بن حسن بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب ، قامت هناك من سنة ١٧٢ — سنة ٣١٩ حين دخلت دعوة المروانيين خلفاء قرطبة الى المغرب

مِنْهُمْ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ أَخْبَارِهِ[١] ، وَبَدَأَ أَمْرَهُ أَوَّلَ وِلَايَتِهِ بِتَخْفِيفِ الْمَغَارِمِ[٢] عَنِ الرَّعَايَا . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ . وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ يَوْمَ تَوَلَّى الْمُلْكَ :

بَدَا الْهِلَالُ جَدِيدًا وَالْمُلْكُ غَضٌّ جَدِيدُ
يَا نِعْمَةَ اللّٰهِ زِيدِي إِنْ كَانَ فِيكِ مَزِيدُ
إِنْ كَانَ لِلصَّوْمِ فِطْرٌ فَأَنْتَ لِلدَّهْرِ عِيدُ

وَأَرَادَ بِأَوَّلِ الْأَبْيَاتِ أَنَّهُ وَلِيَ مُسْتَهَلَّ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ كَمَا عُلِمَ[٣] .

***

غزوة مورة وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ خَلْدُونَ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ فَصَّلَهُ الْمَسْعُودِيُّ ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أَجْرَى ذِكْرَ مُخَالَفَةِ أُمَيَّةَ

(١) في الأصل أجناده عرفة (٢) المغارم: الغرامات ـ جمع مغرم (٣) يوافق ١٥ أكتوبر سنة ٩١٢

أَبْنِ إِسْحٰقَ(١) عَلَى ٱلنَّاصِرِ ، وَدُخُولِهِ أَرْضَ ٱلنَّصَارَى ، وَدَلَالَتِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى عَوْرَاتِ ٱلْمُسْلِمِينَ مَا مُلَخَّصُهُ : وَغَزَا عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ صَاحِبُ ٱلْأَنْدَلُسِ سَمُّورَةَ(٢) دَارَ ٱلْجَلَالِقَةِ ، وَكَانَ عَبْـدُ ٱلرَّحْمٰنِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، وَكَانَتِ ٱلْوَقْعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُذْمِيرَ مَلِكِ ٱلْجَلَالِقَةِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَٰثِمِائَةٍ ، بَعْدَ ٱلْكُسُوفِ ٱلَّذِي كَانَ فِي هٰذَا ٱلشَّهْرِ بِثَلَاثَةِ

(١) فى سنة ٣٢٧ عصى أمية بن اسحق بمدينة شنترين على الأمير عبد الرحمن . وسبب ذلك أنه كان له أخ اسمه أحمد وكان وزيرا لعبد الرحمن فقتله عبد الرحمن وكان أمية بشنترين فلما بلغه ذلك عصى فيها والتجأ الى ردمير ملك الجلالقة ودله على عورات المسلمين ، ثم خرج أمية فى بعض الأيام يتصيد فمنعه أصحابه من دخول البلد فسار الى ردمير فاستوزره وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالقة الخ . ثم ان أمية استأمن الى عبد الرحمن فقبله وأكرمه .

(٢) هى مدينة الجلالقة على نهر دويرة، والى الجنوب منها سلمنقه ، والى الشمال ليون « وتكاد المدن الثلاث تكون على خط رأسي ينتهى الى أقصى شمال أسبانيا » وقد غزاها بعد ذلك المنصور بن أبى عامر وخرج معه الامام الورع محمد بن أبى الحسام طاهر القيسى التدميرى المعروف بالشهيد وشهد معه فتح مدينة سمورة وفتح مدينة قلمرية من قواعد جليقية ، ثم رحل الى الثغر وواصل الرباط بفرو يه المخوفة وكان ذا بأس وشدة وشجاعة باع نفسه والله تعالى بأن له الجنة ، ولم يزل مرابطا بمدينة طليرة الى أن استشهد مقبلا غير مدبر حميد القلم ، وذلك فى سنة ٣٧٩ ـ رحمه الله تعالى ـ

أيّامٍ فكانَتْ للمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ ثابُوا[1] بَعْدَ أَنْ حُوصِرُوا وأُلجِئُوا إلى المدينة، فقتلوا مِنَ المُسْلِمِينَ بَعْدَ عُبُورِهِمُ الخَنْدَقَ خَمْسِينَ أَلْفًا، وقِيلَ: إنَّ الَّذِي مَنَعَ رُذْمِيرَ مِنْ طَلَبِ مَنْ نَجَا مِنَ المُسْلِمِينَ أُمَيَّةُ بْنُ إِسْحٰقَ، وخَوَّفَهُ الكَمِينَ[2]، ورَغَّبَهُ فِيمَا كانَ فِي عَسْكَرِ المُسْلِمِينَ مِنَ الأَمْوالِ والعُدَّةِ والخَزائِنِ، ولَوْلا ذلِكَ لأَتَى عَلَى جَمِيعِ المُسْلِمِينَ.

ثُمَّ إِنَّ أُمَيَّةَ اسْتَأْمَنَ بَعْدَ ذلِكَ إلى عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، وتَخَلَّصَ مِنْ رُذْمِيرَ، وقَبِلَهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ أَحْسَنَ قَبُولٍ. وقَدْ كانَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بَعْدَ هٰذِهِ الوَقْعَةِ جَهَّزَ عَسَاكِرَهُ مَعَ عِدَّةٍ مِنْ قُوَّادِهِ إلى الجَلالِقَةِ، فكانَتْ لَهُمْ بِهِمْ عِدَّةُ حُرُوبٍ هَلَكَ فِيهَا مِنَ الجَلالِقَةِ ضِعْفُ ما قُتِلَ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي الوَقْعَةِ الأُولَى، وكانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ إلى هٰذِهِ الغايَةِ. ورُذْمِيرُ مَلِكُ الجَلالِقَةِ إلى هٰذَا الوَقْتِ، وهُوَ سَنَةَ سِتٍّ وعِشْرِينَ وثَلاثِمِائَةٍ. انْتَهَى.

---

(١) أي عادوا (٢) الكمين: القوم يستخفون في مكمن ثم ينتهزون غرة العدو فينقضون عليه.

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مَا مُلَخَّصُهُ: إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ غَزَا فِي أَزْيَدَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ ، فَنَزَلَ عَلَى دَارِ مَمْلَكَةِ الْجَلَالِقَةِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ مَعْمُورَةٌ ، وَعَلَيْهَا سَبْعَةُ أَسْوَارٍ مِنْ أَعْجَبِ الْبُنْيَانِ قَدْ أَحْكَمَتْهَا الْمُلُوكُ السَّالِفَةُ ، وَبَيْنَ الْأَسْوَارِ فُصْلَانٌ[1] وَخَنَادِقُ وَمِيَاهٌ وَاسِعَةٌ ، وَافْتَتَحَ مِنْهَا سُورَيْنِ ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَهَا ثَارُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ الْإِحْصَاءُ[2] وَمِمَّنْ عُرِفَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وَقِيلَ خَمْسِينَ أَلْفًا، وَكَانَتْ لِلْجَلَالِقَةِ وَالْبَشْكَنْسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . انْتَهَى كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ .

« رَجْعٌ إِلَى أَخْبَارِ النَّاصِرِ » فَنَقُولُ: إِنَّ النَّاصِرَ — رَحِمَهُ اللّٰهُ — كَانَ لَهُ نَظْمٌ ، وَمِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ قَوْلُهُ :

لَا يَضُرُّ الصَّغِيرَ حِدْثَانُ سِنٍّ
إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي سُعُودِ الصَّغِيرِ

(١) جمع فصيل وهو حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد، يقال : وتقوا سور البلد بكباش وفصيل. وفي الأصل (فصلات) محرفة(٢) كان في هذا الموضع بياض بالأصل وكان في العبارة تحريف كثير وسقط يخل بالمعنى ويفسد السياق والصواب ما كتبناه نقلا عن المسعودي . « أحمد نجاتي »

كَمْ مُقِيمٍ فَازَتْ يَدَاهُ بِغُنْمٍ (١)

لَمْ تَنَلْهُ بِالرَّكْضِ (٢) كَفُّ مُغِيرِ

هٰكَذَا أُلْفِيَتْ ٱلْبَيْتَيْنِ مَنْسُوبَيْنِ إِلَيْهِ بِخَطِّ بَعْضِ ٱلْأَكَابِرِ، ثُمَّ كُتِبَ بِإِثْرِهِ مَا نَصُّهُ: ٱلصَّحِيحُ أَنَّهُمَا لِغَيْرِهِ، وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ. ٱنْتَهَى.

***

هدية ابن شهيد للناصر

وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ـ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ ـ قَدِ ٱسْتَحْجَبَ مُوسَى بْنَ مُحَمَّدِ ٱبْنِ حُدَيْرٍ (٣)، وَٱسْتَوْزَرَ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ بْنَ جَهْوَرَ، وَأَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ شُهَيْدٍ، وَأَهْدَى لَهُ ٱبْنُ شُهَيْدٍ هَدِيَّتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ ٱلْمُتَعَدِّدَةَ ٱلْأَصْنَافِ. وَقَدْ ذَكَرَهَا ٱبْنُ حَيَّانَ

---

(١) الغنم: بالضم، مايؤخذ من المحاربين عنوة (٢) الركض: العدو والاسراع. والمغير: الذي يهجم على العدو ويوقع به. (٣) كان من أهل الفضل والأدب والشعر ومن بيت رياسة ورفعة توفى سنة ٣٢٠ وابنه أبو المطرف عبد الرحمن بن موسى بن محمد بن حدير كان وزيرا خيرا ذا دين وفضل توفى سنة ٣٦٩ — ومن هذا البيت أبو بكر محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن حدير القرطبي ولى الشرطة بقرطبة وعلت حاله فأسفرت عن خلق كريم وأصل شريف وكان فاضلا أديبا وعاقلا حليما، توفى سنة ٣٧٨. «أحمد نجاتى»

وَٱبْنُ خَلْدُونَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ . قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَهِيَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ضَخَامَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَٱتِّسَاعِ أَحْوَالِهَا، وَكَانَ ذَٰلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ لِثَمَانٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى ٱلْأُولَى ، وَهِيَ هَدِيَّةٌ عَظِيمَةُ ٱلشَّأْنِ ، وَٱشْتَهَرَ ذِكْرُهَا إِلَى ٱلْآنَ ، وَٱتُّفِقَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُهْدِ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ ٱلْأَنْدَلُسِ بِمِثْلِهَا ، وَقَدْ أَعْجَبَتِ ٱلنَّاصِرَ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ جَمِيعًا ، وَأَقَرُّوا أَنَّ نَفْسًا لَمْ تَسْمَحْ بِإِخْرَاجِ مِثْلِهَا ضَرْبَةً[1] عَنْ يَدِهَا ، وَكَتَبَ مَعَهَا رِسَالَةً حَسَنَةً بِالِاعْتِرَافِ لِلنَّاصِرِ بِالنِّعْمَةِ وَٱلشُّكْرِ عَلَيْهَا ، فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلنَّاسُ وَكَتَبُوهَا .

***

أول من لقب بذي الوزارتين بالأندلس

وَزَادَ ٱلنَّاصِرُ وَزِيرَهُ هَٰذَا حُظْوَةً وَٱخْتِصَاصًا ، وَأَسْمَى مَنْزِلَتَهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْوُزَرَاءِ جَمِيعًا، وَأَضْعَفَ لَهُ رِزْقَ ٱلْوِزَارَةِ وَبَلَّغَهُ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ أَنْدَلُسِيَّةٍ ، وَبَلَغَ مَعْرُوفُهُ إِلَى أَلْفِ دِينَارٍ، وَثَنَّى لَهُ ٱلْعَطِيَّةَ لِتَثْنِيَتِهِ لَهُ ٱلرِّزْقَ فَسَمَّاهُ ذَا ٱلْوِزَارَتَيْنِ

(١) أي مرة واحدة

لِنَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَسَمَّى بِذَلِكَ بِالْأَنْدَلُسِ امْتِثَالًا لِاسْمِ صَاعِدِ بْنِ مَخْلَدٍ[١] وَزِيرِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادَ ، وَأَمَرَ بِتَصْدِيرِ[٢]

---

(١) هو من وزراء العصر العباسي ومشهوري كتابه الذين تولوا جلائل الأعمال ، ففي سنة ٢٦٥ استكتب أبو أحمد الموفق صاعد ابن مخلد وخلع عليه ، وفي سنة ٢٦٩ سمي صاعد ذا الوزارتين ، وفي سنة ٢٧١ شخص الى فارس لحرب عمرو بن الليث الصفار ، وقدم من فارس سنة ٢٧٢ ودخل واسط فأمر الموفق جميع القواد أن يستقبلوه فاستقبلوه وترجلوا له وقبلوا كفه وهو لا يكاد يكلمهم تيها وإعجابا — ولكنه ما لبث أن لحق وزراء بني العباس فقبض الموفق عليه بواسط وعلى أسبابه وانتهبت منازلهم ، وقبض على ابنيه أبي عيسى العلاء وأبي صالح ببغداد وعلى أخيه عبدون بسامرا — وفي صاعد بن مخلد يقول ابن الرومي من قصيدته الدالية الغراء التي يمدحه بها :

كأن أباه حين سماه صاعدا ... درى كيف يرقى في المعالي ويصعد؟

والبحتري فيه وفي ابنيه وأخيه مدائح رائعة وفيه يقول من قصيدة :

لقد وفق الله الموفق للتي ... تباعد عن غي الملوك رشيدها

رأى صاعدا أهلا لأشرف رتبة ... يشق على ساري النجوم صعودها

فكيف رأيتم عدله وقد التقت ... مساوية شاة البلاد وسيدها ؟

جزى الله عنا صالحا آل مخلد ... وتمت لهم نعمى يدوم خلودها

وفيه يقول :

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة ... حتى يسلمها اليه عداه

وأقام صاعد في الوزارة سبع سنين وكان ذا ثروة طائلة وغنى واسع وتوفي بالحبس سنة ٢٧٦. اه . «أحمد تيجاني»

(٢) أي بتقديمه وجعله صدر المجلس . والصدر أعلى مقدم كل شيء وأوله ، ويقال : صدره فتصدر ، أي جلس في صدر المجلس وأعلاه

فِرَاشِهِ فِي ٱلْبَيْتِ ، وَتَقْدِيمِ ٱسْمِهِ فِي دَفْتَرِ ٱلْأَرْزَاقِ أَوَّلَ ٱلتَّسْمِيَةِ ، فَعَظُمَ مِقْدَارُهُ فِي ٱلدَّوْلَةِ جِدًّا .

***

وصف الهدية وَتَفْسِيرُ هَدِيَّتِهِ ٱلْمَذْكُورَةِ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي كِتَابِ ٱبْنِ خَلْدُونَ عَلَى مَا يُحَرَّرُ : خَمْسُمِائَةِ أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ[1] ٱلْعَيْنِ ، وَأَرْبَعُمِائَةِ رِطْلٍ مِنَ ٱلتِّبْرِ ، وَمُصَارَفَةُ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ[2] وَمِنْ سَبَائِكِ ٱلْفِضَّةِ مِائَتَا[3] بِدْرَةٍ - وَٱقْتَصَرَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ عَلَى خَمْسِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ فَقَطْ - وَٱثْنَا عَشَرَ رِطْلًا مِنَ ٱلْعُودِ ٱلْهِنْدِيِّ ٱلَّذِي يُخْتَمُ عَلَيْهِ كَالشَّمْعِ ، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ رِطْلًا مِنَ ٱلْعُودِ ٱلْمُتَخَيَّرِ ، وَمِائَةُ رِطْلٍ مِنَ ٱلْعُودِ ٱلشِّبْهِ ٱلْمُنْتَقَى . هَكَذَا ذَكَرَهُ ٱبْنُ خَلْدُونَ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ مُسْتَنِدًا إِلَى ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي وَجَّهَهُ ٱبْنُ شُهَيْدٍ مَعَ ٱلْهَدِيَّةِ : إِنَّ ٱلْعُودَ ٱلْعَالِيَ مِنْ ذَلِكَ أَرْبَعُمِائَةِ رِطْلٍ ، مِنْهَا قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ رِطْلًا . وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَمِائَةُ أُوقِيَّةٍ مِنَ ٱلْمِسْكِ ٱلذَّكِيِّ ٱلْمُفَضَّلِ فِي جِنْسِهِ . ٱنْتَهَى .

---

(١) تطلق العين على الدينار المضروب وعلى الذهب الخالص (٢) فى الأصل من سبائك بدون واو ، وقبله : مصارفه بدل مصارفة وهو تحريف يغير المعنى ويعوق الفهم (٣) فى الأصل فى مائتى وهو تحريف

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ نَقْلًا عَنِ ٱلْكِتَابِ ٱلْمَصْحُوبِ مَعَ ٱلْهَدِيَّةِ : إِنَّ ٱلْمِسْكَ مِائَتَا أُوقِيَّةٍ وَٱثْنَتَا عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ، وَمِنَ ٱلْعَنْبَرِ ٱلْأَشْهَبِ⁽¹⁾ ٱلْبَاقِي عَلَى خِلْقَتِهِ بِغَيْرِ صِنَاعَةٍ خَمْسُمِائَةِ أُوقِيَّةٍ ، مِنْهَا قِطْعَةٌ عَجِيبَةٌ مُلَمْلَمَةُ[2] ٱلشَّكْلِ وَزْنُ مِائَةِ أُوقِيَّةٍ . هٰكَذَا فِي تَارِيخِ ٱبْنِ خَلْدُونَ . وَفِي ٱبْنِ ٱلْفَرَضِيِّ : إِنَّ ٱلْكُلَّ مِائَةُ أُوقِيَّةٍ ، وَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةَ أَرْبَعُونَ أُوقِيَّةً ، وَمِنَ ٱلْكَافُورِ ٱلْمُرْتَفِعِ ٱلنَّقِيِّ ٱلذَّكِيِّ ثَلَثُمِائَةِ أُوقِيَّةٍ ، قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَمِنَ ٱللِّبَاسِ ثَلَاثُونَ شُقَّةً مِنَ ٱلْحَرِيرِ ٱلْمُخَتَّمِ ٱلْمَرْقُومِ بِٱلذَّهَبِ كَلِبَاسِ[3] ٱلْخُلَفَاءِ مُخْتَلِفَةَ ٱلْأَلْوَانِ وَٱلصَّنَائِعِ ، وَعَشْرَةُ أَفْرِيَةٍ[4] مِنْ عَالِي جُلُودِ ٱلْفَنَكِ[5]

(١) قال ابن البيطار : وأجود العنبر الأشهب القوى ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر ، وأردؤه الأسود (٢) الملم والململم : المجتمع المدور المضموم ، والمستدير (٣) في ابن خلدون « لباس الخلفاء مختلفة الألوان » (٤) جمع فروة أو فرو ، والمسموع في جمعه أفر للقلة وفراء للكثرة (٥) الفنك جنس من الثعالب أصغر من الثعلب المعروف وفروته من أحسن الفراء وأطيبها ، ويطلق الفنك على الجلد الذي يلبس أي على الفرو ، وهو لفظ معرب . ويجلب الفنك كثيرا من بلاد الصقالبة

الْخُرَاسَانِيَّةِ . وَخَالَفَهُ ابْنُ الْفَرَضِيِّ إِذْ قَالَ : وَمِنْ أَنْوَاعِ الثِّيَابِ ثَلَاثُونَ شُقَّةً ، وَخُلُجٌ خَاصَّةٌ[(١)] لِلِبَاسِهِ بِيضَاءُ وَمُلَوَّنَةٌ ، وَخَمْسُ ظِهَارٍ[(٢)] شَعِيبِيَّةٌ[(٣)] خَاصَّةٌ لَهُ ، وَعَشْرُ فِرَاءٍ مِنْ عَالِي الْفَنَكِ ، مِنْهَا سَبْعَةٌ بِيضٌ خُرَاسَانِيَّةٌ ، وَثَلَاثٌ مُلَوَّنَةٌ ، وَسِتَّةُ مَطَارِفَ[(٤)] عِرَاقِيَّةٌ خَاصَّةٌ لَهُ ، وَثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ مِلْحَفَةً[(٥)] زُهْرِيَّةً لِكُسْوَتِهِ ، وَمِائَةُ مِلْحَفَةٍ زُهْرِيَّةٍ لِرُقَادِهِ

---

(١) فى الأصل : خنج خاصية وهو تحريف . والخلج والخلاج ضرب من البرود المخططة قال ابن أحمر :

اذا انفرجت عنه سمادير خلقه يبردين من ذاك الخلاج المسهم

(٢) ظهائر جمع ظهارة وهى ضد البطانة ، فبطانة الثوب ما ولى منه الجسد وكان داخلا ، والظهارة ماعلا وظهر ولم يل الجسد (٣) كذا بالأصل ولعله نسبة الى شعيب وهى الزيادة التى تكون من أديمين يقابلان ، أو من قطعتين شعبت احداهما الى الأخرى أى ضمت (٤) المطارف : جمع مطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام (٥) الملحفة والملحف واللحاف : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه . وفى اللسان : الملحفة عند العرب هى الملاءة السمط فاذا بطنت ببطانة أو حشيت فهى عند العوام ملحفة والعرب لاتعرف ذلك . ولعل الزهرية منسوبة الى الزهرى . قال ياقوت : الزهرى منسوب الى الزهراء مدينة السلطان بقرطبة « ومدينة الزهراء بناها الأمير عبد الرحمن الناصر هذا فى سنة ٣٢٥ » وممن ينسب الى الزهرى أبو على الحسين بن محمد بن أحمد الغسانى الزهرى ثم الجيانى الحافظ نزيل قرطبة كان امام أهل الأندلس فى علم الحديث وأضبطهم للكتاب وأتقنهم لروايته وأوسعهم سماعا مع الحظ الوافر من الأدب . توفى سنة ٤٩١

« وَلَمْ يَذْكُرِ ٱبْنُ خَلْدُونَ ذٰلِكَ ، وَٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ أَعْرَفُ لَا سِيَّمَا وَقَدِ ٱسْتَنَدَ إِلَى كِتَابِ ٱلْمُهْدِي ، وَصَاحِبُ ٱلْبَيْتِ أَدْرَى » . قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَعَشَرَةُ قَنَاطِيرَ شُدَّ فِيهَا مِائَةُ جِلْدِ سَمُّورٍ[1] ، وَقَالَهُ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ أَيْضًا ، وَزَادَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَسِتَّةٌ مِنَ ٱلسُّرَادِقَاتِ ٱلْعِرَاقِيَّةِ ، وَثَمَانٌ وَأَرْبَعُونَ مِنَ ٱلْمَلَاحِفِ ٱلْبَغْدَادِيَّةِ لِزِينَةِ ٱلْخَيْلِ مِنَ ٱلْحَرِيرِ وَٱلذَّهَبِ ، ثُمَّ قَالَا مَعًا : وَأَرْبَعَةُ آلَافِ رِطْلٍ مِنَ ٱلْحَرِيرِ ٱلْمَغْزُولِ ، وَأَلْفُ رِطْلٍ مِنْ لَوْنِ[2] ٱلْحَرِيرِ ٱلْمُنْتَقَى لِلِاسْتِغْزَالِ ، وَزَادَ

(١) الذى فى ابن خلدون : وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد، والسمور حيوان برى يشبه السنور . وزعم بعض الناس أنه النمس ، وليس به ولكنه يشبهه، والبقعة التى هو فيها هى التى أثرت فى تغير لونه » وقال عبد اللطيف البغدادى : انه حيوان جرىء ليس فى الحيوانات أجرأ منه على الانسان ولا يؤخذ الا بالحيل، وذلك بأن تدفن له جيفة فيغتال بها ، ولحمه حار والترك يأكلونه، وجلده لا يدبغ كسائر الجلود ، اه وتقدم وصفه والقول فيه. وقال فى المصباح : والسمور حيوان من بلاد الروس وراء بلاد الترك يشبه النمس ومنه أسود لامع وأشقر ، وحكى لى بعض الناس أن أهل تلك الناحية يصيدون الصغار منها فيخصون الذكور منها ويرسلونها ترعى فاذا كان أيام الثلج خرجوا للصيد فما كان فحلا فاتهم وما كان خصيا استلقى على قفاه فأدركوه وقد سمن وحسن شعره . اه . (٢) ليس فى ابن خلدون كلمة لون .

ابْنُ خَلْدُونَ: وَثَلَاثُونَ شُقَّةً مِنَ الْفَرْبُونِ(١) لِسُرُوجِ الْهِبَاتِ، وَزَادَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ فِي الْحَرِيرِ الْمَذْكُورِ: قِيلَ إِنَّهُ قَبَضَهُ مِنْهُ صَاحِبُ الطِّرَازِ(٢) وَلَمْ يَأْتِ بِهِ مَعَ الْهَدِيَّةِ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ لِصَاحِبِ الطِّرَازِ وَأَثْبَتَهُ فِي الدَّفْتَرِ. قَالَا: وَثَلَاثُونَ بِسَاطًا مِنَ الصُّوفِ مُخْتَلِفَةَ الصَّنَاعَاتِ طُولُ كُلِّ بِسَاطٍ مِنْهَا عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَقَالَ ابْنُ خَلْدُونَ: مُنْتَقَاةً مُخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ، قَالَا: وَمِائَةُ قِطْعَةٍ مُصَلَّيَاتٌ مِنْ وُجُوهِ الْفُرُشِ الْمُخْتَلِفَةِ - زَادَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ: الصَّنَاعَاتِ(٣) مِنْ جِنْسِ الْبُسُطِ - قَالَا: وَخَمْسَةَ عَشَرَ نَوْنَخًا(٤) مِنْ عَمَلِ الْخَزِّ الْمَقْطُوعِ شَطْرُهَا، قَالَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ: وَسَائِرُهَا مِنْ جِنْسِ الْبُسُطِ. قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ: وَمِنَ السِّلَاحِ وَالْعُدَّةِ ثَمَانِمِائَةٍ مِنَ التَّجَافِيفِ(٥) الْمُزَيَّنَةِ

(١) الذى فى المحيط: الفربيون والفرفيون: شجر كالخس عليه شعر وله شوك، ومنه أسود حديد الشوك يقال له ألبانة المغربية. اهـ وفيه: الثياب الفرقبية ثياب بيض من كتان.
(٢) الطراز: الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة، وثوب ينسج للسلطان (٣) يعني أن ابن الفرضي قال فى المصليات: من وجوه الفرش المختلفة الصناعات الخ (٤) أظنها محرفة عن نخا، والذى فى ابن خلدون: وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها. والنخ بساط طويل طوله أكثر من عرضه، وهو فارسى معرب وجمعه نخاخ (٥) التجافيف: جمع تجفاف وهو آلة للحرب من حديد وغيره يلبسه الفرس وقد يلبسه الانسان

أَيَّامَ الْبُرُوزِ وَالْمَوَاكِبِ ، وَقَالَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ مِائَةُ تِجْفَافٍ بِأَبْدَعِ الصِّنَاعَاتِ وَأَغْرَبِهَا وَأَكْمَلِهَا . قَالَا : وَأَلْفُ تُرْسٍ[1] سُلْطَانِيَّةٌ ، وَمِائَةُ أَلْفٍ مِنْهُم ـ زَادَ ابْنُ خَلْدُونَ : مِنَ النِّبَالِ الْبَارِعَةِ الصَّنْعَةِ . قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ : وَمِنَ الظَّهْرِ خَمْسَةَ عَشَرَ فَرَسًا مِنَ الْخَيْلِ الْعِرَابِ[2] الْمُتَخَيَّرَةِ لِرِكَابِ السُّلْطَانِ فَائِقَةَ النُّعُوتِ . وَقَالَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ : وَمِنَ الْخَيْلِ مِائَةُ فَرَسٍ ، مِنْهَا مِنَ الْخَيْلِ الْعِرَابِ الْمُتَخَيَّرَةِ لِرِكَابِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ فَرَسًا ، وَخَمْسٌ مِنْ عُرْضِ[3] هٰذِهِ الْخَيْلِ مُسْرَجَةٌ مُلْجَمَةٌ لِمَرَاكِبِ الْخِلَافَةِ ، مَجَالِسُ سُرُوجِهَا خَزٌّ عِرَاقِيٌّ ، وَثَمَانُونَ فَرَسًا مِمَّا يَصْلُحُ لِلْوُصَفَاءِ[4] وَالْحَشَمِ . وَقَالَ ابْنُ خَلْدُونَ : مِائَةُ فَرَسٍ مِنَ الْخَيْلِ

أيضا ليقيه فى الحرب ، ومنه حديث أبى موسى : « كان على تجافيفه الديباج » وفى الحديث «أعد للفقر تجفافا » قال ابن الأثير التجفاف ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ـ والذى فى ابن خلدون : من تجافيف الزينة أيام البروز الحسن وتجفاف لفظ معرب (١) الترس : ما يتوقى به من السلاح وجمعه أتراس ، وتراس ، وترسة ، وتروس ، ورجل تارس : ذو ترس تقول لا يستوى الراجل والفارس ، ولا الأكشف والتارس (٢) العراب : الأصيلة الكريمة التى ليس فيها هجونة (٣) من عرض هذه الخيل : أى من أقواها ـ يقال : ناقة عرض أسفار : أى قوية عليها . (٤) الوصفاء : الخدم ـ جمع وصيف ووصيفة .

ٱلَّتِي تَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ فِي ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلْغَزَوَاتِ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفُرَضِيِّ : وَخَمْسَةُ أَبْغُلٍ عَالِيَةِ ٱلرُّكَّابِ، وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَعِشْرُونَ مِنْ بِغَالِ ٱلرُّكَّابِ مُسْرَجَةٌ مُلْجَمَةٌ لِمَرَاكِبِ ٱلْخِلَافَةِ، مُحَالِسُ سُرُوجِهَا خَزٌّ جَعْفَرِيٌّ[1] عِرَاقِيٌّ. قَالَ : وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَرْبَعُونَ وَصِيفاً وَعِشْرُونَ جَارِيَةً مِنْ مُتَخَيَّرِ ٱلرَّقِيقِ بِكُسْوَتِهِمْ وَجَمِيعِ آلَاتِهِمْ، وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ فِي ٱلْجَوَارِي: مُتَخَيَّرَاتٌ بِكُسْوَتِهِنَّ وَزِينَتِهِنَّ، وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ: وَمِنْ سَائِرِ ٱلْأَصْنَافِ قَرْيَةٌ تُغِلُّ آلَافاً مِنْ أَمْدَادِ[2] ٱلزَّرْعِ ، وَمِنَ ٱلصَّخْرِ لِلْبُنْيَانِ مَا أُنْفِقَ عَلَيْهِ فِي عَامٍ وَاحِدٍ ثَمَانُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَعِشْرُونَ أَلْفَ عُودٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ مِنْ أَجْمَلِ ٱلْخَشَبِ وَأَصْلِبِهِ[3] وَأَقْوَمِهِ، قِيمَتُهَا خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ . ٱنْتَهَى .

---

(١) لعلها منسوبة الى الجعفرية وهي محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد تنسب الى الخليفة جعفر المتوكل العباسي . والجعفري اسم قصر بناه المتوكل بن المعتصم قرب مدينة سامراء فاستحدث عنده مدينة وانتقل اليها وأقطع القواد منها قطائع فصارت أكبر من سامراء (٢) أمداد : جمع مد ، وهو مكيال قدر مرطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز

(٣) في ابن خلدون وأصلبه ·

***

كتاب ابن شهيد للمصحوب مع الهدية

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ نَقْلًا عَنْ كِتَابِ ٱبْنِ شُهَيْدٍ ٱلْمَصْحُوبِ مَعَ ٱلْهَدِيَّةِ عِنْدَ مَا ذَكَرَ ٱلرَّقِيقَ مَا صُورَتُهُ : وَكَانَ قَدْ أَرْبَى(١) — أَيَّدَهُ ٱللهُ — بِابْتِيَاعِهِمْ مِنْ مَالِ ٱلْأَخْمَاسِ، فَابْتَعْتُهُمْ مِنْ نِعْمَتِهِ عِنْدِي، وَصَيَّرْتُهُمْ مِنْ بَعْثِي، وَمَعَ ذَٰلِكَ عَشْرُ قَنَاطِيرِ سُكَّرٍ طَبَرْزَدٍ(٢) لَا سُحَاقَ(٣) فِيهِ. وَفِي آخِرِ ٱلْكِتَابِ: وَلَمَّا عَلِمْتُ تَطَلُّعَ مَوْلَايَ — أَيَّدَهُ ٱللهُ تَعَالَى — إِلَى قَرْيَةِ كَذَا بِالْقَنْبَانِيَةِ(٤) ٱلْمُنْقَطِعَةِ ٱلْغَرْسِ شَرَّفَهَا وَتَرْدَادَهُ — أَيَّدَهُ ٱللهُ تَعَالَى —

(١) لعلها من الرباء وهو الطول والمنة (٢) الطبرزذ « طبرزل ، طبرزن » السكر ، فارسى معرب عن « تبرزد » والتبر والطبر الفأس بالفارسية « والذى يشقق به الحطب وما يشاكله ، وأصل معناه « ما نحت بالفأس » كأنه نحت بها من نواحيه » ولذا سميت طبرستان لقطع شجرها و « استان » الوضع أو الناحية (٣) من سحق الشيء « كمنع » اذا دقه ، فالسحاق كالدقاق فتات الشيء وكساره (٤) قنبانية أو كنبانية : ناحية بالأندلس قرب قرطبة من عملها ينسب اليها أبو عبدالله محمد بن قاسم بن محمد الأموى القرطبى الجالطى الكنبيانى وكان بصيرا بالفقه والأدب وولى الصلاة والخطبة بجامع مدينة الزهراء فكان آخر خطيب قام على منبره ورحل الى المشرق وحج سنة ٣٧٠ وأخذ هنالك عن جماعة من العلماء وكان من أهل الرواية والدراية والحفظ والمعرفة الى الدين والصلاح ومكارم الأخلاق والحلم وحسن المعاشرة لاخوانه والسماحة وقضاء الحاجات وتقلد أيضا أحكام الشرطة للخليفة هشام بن الحكم فكان محمود

لِذِكْرِهَا ، لَمْ أَهْنَأْ بِعَيْشٍ حَتَّى أَعْمَلْتُ الْحِيلَةَ فِي ابْتِيَاعِهَا بِأَحْوَازِهَا⁽¹⁾ ، وَأَكْتَبْتُ وَكِيلَهُ ابْنَ بَقَنَّةَ⁽²⁾ الْوَثِيقَةَ فِيهَا بِاسْمِهِ ، وَضَمَّهَا إِلَى ضِيَاعِهِ ، وَكَذَلِكَ صَنَعْتُ فِي قَرْيَةِ شِبُوَةَ مِنْ نَظَرِ جَيَّانَ ، عِنْدَ مَا اتَّصَلَ بِي مِنْ وَصْفِهِ وَتَطَلُّعِهِ إِلَيْهَا ، فَمَا زِلْتُ أَتَصَدَّى لِمَسَرَّتِهِ بِهَا حَتَّى ابْتَعْتُهَا الْآنَ بِأَحْوَازِهَا ، وَجَمِيعِ مَنَازِلِهَا وَرُبُوعِهَا ، وَاحْتَازَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْوَكِيلُ ابْنُ بَقَنَّةَ ، وَصَارَ فِي يَدِهِ لَهُ أَبْقَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَرْجُو

في حكومته ، ثم قتلته البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة سنة ٤٠٣ ويطلق هذا الاسم « قنبانية » على الروابي والسهول الممتدة جنوب قرطبة على الضفة اليسرى من الوادي الكبير ، وكلمة (شرفها) هنا نابية ، فلعلها محرفة عن بشرفها مثلا يعنى أن تطلعه إليها بسبب ماقدر لها من نيل الشرف . والشرف كل نشز من الأرض قد أشرف على ماحوله كشرف اشبيلية من سوادها « أحمد يوسف نجاتي » . (١) حوز الدار وحيزها ما انضم إليها من المرافق والمنافع وكل ناحية على حدة حوز ، والحوز من الأرض أن يتخذها رجل ويبين حدودها فيستحقها ويحوزها ولا يكون لأحد فيها حق معه والحوزة الناحية والحد (٢) كذا بالأصل وأظنه محرفا عن (بقنة) بفتح الباء والقاف وتشديد النون المفتوحة ، فهناك أبو تميم المعز بن محمد بن بقنة ذكره في جنية الملتمس وقال فيه : أديب حافظ من أهل بيت وزارة وجلالة يروى من أبي القاسم الأفليلي وغيره توفي سنة ٤٨٨ . اه . وأظن أن وكيل الناصر من أصول المعز بن محمد هذا ـ وأحمد بن بقنة كان وزير دولة العلويين من بني حمود بالأندلس وقد جعلناها (بقنة) بدل (بقية) بعد ذلك . « أحمد يوسف نجاتي »

أَنَّهُ سَيُرْفَعُ فِيهَا(١) فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ آلَافُ أَمْدَادٍ مِنَ ٱلْأَطْعِمَةِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى. وَلَمَّا عَلِمْتُ نَافِذَ عَزْمِهِ ـ أَبْقَاهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ فِي ٱلْبُنْيَانِ وَكَلَفَهُ بِهِ، وَفَكَّرْتُ فِي عَدَدِ ٱلْأَمَاكِنِ ٱلَّتِي تَطَلَّعُ نَفْسُهُ ٱلْكَرِيمَةُ إِلَى تَخْلِيدِ آثَارِهِ فِي بُنْيَانِهَا ـ مَدَّ ٱللهُ تَعَالَى فِي عُمُرِهِ وَأَوْفَى بِهَا عَلَى أَقْصَى أَمَلِهِ ـ عَلِمْتُ أَنَّ أُسَّهُ(٢) وَقِوَامَهُ ٱلصَّخْرُ وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنْهُ، فَأَثَارَتْ لِي هِمَّتِي وَنَصِيحَتِي حِكْمَةَ حِيلَةٍ أَحْكَمَهَا سَعْدُكَ وَجَدُّكَ ٱللَّذَانِ يَبْغِيَانِ مَا لَا يُتَوَهَّمُ عَلَيْهِ حِيلَةً أُقِيمُ لَكَ فِيهَا بِعَامٍ وَاحِدٍ عَدَدَ مَا كَانَ يَقُومُ عَلَى يَدَيْ عَبْدِكَ ٱبْنِ عَاصِمٍ فِي عِشْرِينَ عَامًا؛ وَيَنْتَهِي تَحْصِيلُ ٱلنَّفَقَةِ فِيهِ إِلَى نَحْوِ ٱلثَّمَانِينَ أَلْفًا، أُعَجِّلُ شَأْنَهُ فِي عَامٍ سِوَى ٱلتَّوْفِيرِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي يُبْدِيهِ ٱلْعِيَانُ قَبْلًا إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى. وَكَذَلِكَ مَا ثَابَ إِلَيَّ فِي أَمْرِ ٱلْخَشَبِ لِهٰذِهِ ٱلْبِنْيَةِ ٱلْمُكَرَّمَةِ، فَإِنَّ ٱبْنَ خَلِيلٍ عَبْدَكَ ٱلْمُجْتَهِدَ ٱلدَّءُوبَ ٱنْتَهَى فِي تَحْصِيلِ عَدَدِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ إِلَى ثَلَثِمِائَةِ

---

(١) قد تكون محرفة عن (منها) (٢) أس البناء : أصله وأساسه

أَلْفِ عُودٍ، وَنَيِّفٍ[1] عَلَى عِشْرِينَ أَلْفَ عُودٍ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ فِي ٱلسَّنَةِ إِلَّا نَحْوُ ٱلْأَلْفِ[2] عُودٍ، فَفَتَحَ لِي سَمْعُكَ رَأْيًا أُقِيمُ لَهُ بِتَمَامِهِ جَمِيعَ هٰذَا ٱلْخَشَبِ ٱلْعَامَ عَلَى كَمَالِهِ بِوُرُودِ ٱلْجَلِيبَةِ[3] لِوَقْتِهَا، وَقِيمَتُهُ عَلَى ٱلرُّخْصِ مَا بَيْنَ ٱلْخَمْسِينَ أَلْفًا وَٱلسِّتِّينَ أَلْفًا. ٱنْتَهَى.

***

وَمِنْ غَرِيبِ مَا يُحْكَى عَنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرِ ٱلْمَذْكُورِ أَنَّهُ أَرَادَ ٱلْفَصْدَ، فَقَعَدَ بِٱلْبَهْوِ[4] فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمُشْرِفِ بِأَعْلَى مَدِينَتِهِ بِٱلزَّهْرَاءِ، وَٱسْتَدْعَى ٱلطَّبِيبَ لِذَٰلِكَ، وَأَخَذَ ٱلطَّبِيبُ ٱلْآلَةَ وَجَسَّ يَدَ ٱلنَّاصِرِ، فَبَيْنَمَا هُوَ إِذْ أَطَلَّ زُرْزُورٌ[5] فَصَعِدَ عَلَى إِنَاءِ ذَهَبٍ بِٱلْمَجْلِسِ وَأَنْشَدَ: إنشاد الزرزور

---

(١) نيف زاد (٢) هذا الاستعمال لاتجيزه اللغة والأولى أن يقال نحو ألفي عود أو ألفي العود (٣) الجليبة، الجلب والجلبة اسم لما يجلب من الشيء أي يؤتى به من موضع الى الآخر من مثل خيل وابل ومتاع وسبي ونحو ذلك (٤) البهو: البيت المتقدم أمام البيوت — وأصل البهو السعة، يقال هم في بهو من العيش أي في سعة ورغد (٥) الزرزور: طائر من نوع العصفور يشبه القبرة، سمي بذلك لزرزرته أي تصويته وهو طائر رقيق معتدل المزاج يتبع الربيع وطيب الهواء، وللشيخ برهان الدين القيراطي

قد قلت لما مر بي معرضا وكفه يحمل زرزورا

ياذا الذي عذبني مطله ان لم تزر حقا فزرزورا

أَيُّهَا الْقَاصِدُ رِفْقًا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَا
إِنَّمَا تَقْصِدُ عِرْقًا فِيهِ مَحْيَا الْعَالَمِينَا

وَجَعَلَ يُكَرِّرُ ذَلِكَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ، فَاسْتَظْرَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرُ ذَلِكَ غَايَةَ الِاسْتِظْرَافِ، وَسُرَّ بِهِ غَايَةَ السُّرُورِ، وَسَأَلَ عَمَّنْ اهْتَدَى إِلَى ذَلِكَ وَعَلَّمَ الزُّرْزُورَ، فَذُكِرَ لَهُ أَنَّ السَّيِّدَةَ الْكُبْرَى مَرْجَانَةَ أُمَّ وَلِيِّهِ وَلِيِّ عَهْدِهِ الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ صَنَعَتْ ذَلِكَ، وَأَعَدَّتْهُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ، فَوَهَبَ لَهَا مَا يُنِيفُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ.

***

هدية ابن شهيد — وَذَكَرَ ابْنُ بَسَّامٍ أَنَّ أَبَا عَامِرِ بْنَ شُهَيْدٍ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الْوَزِيرَ أُهْدِيَ لَهُ غُلَامٌ مِنَ النَّصَارَى لَمْ تَقَعِ الْعُيُونُ عَلَى شِبْهِهِ، فَلَمَحَهُ النَّاصِرُ فَقَالَ لِابْنِ شُهَيْدٍ: أَنَّى لَكَ هَذَا؟ فَقَالَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ النَّاصِرُ: تُتْحِفُونَنَا بِالنُّجُومِ وَتَسْتَأْثِرُونَ بِالْقَمَرِ، فَاسْتَعْذَرَ(١) وَاحْتَفَلَ فِي هَدِيَّةٍ بَعَثَهَا مَعَ الْغُلَامِ: وَقَالَ يَا بُنَيَّ كُنْ مَعَ جُمْلَةِ مَا بُعِثَتْ بِهِ: وَلَوْلَا الضَّرُورَةُ مَا سَمَحَتْ بِكَ نَفْسِي، وَكَتَبَ مَعَهُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

(١) أي سأل العذر وطلبه

أَمَوْلَايَ هَذَا ٱلْبَدْرُ سَارَ لِأُفْقِكُمْ
وَلِلْأُفْقِ أَوْلَى بِالْبُدُورِ مِنَ ٱلْأَرْضِ
أُرَضِّيكُمُ بِالنَّفْسِ وَهِيَ نَفِيسَةٌ
وَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ بِمُهْجَتِهِ يُرْضِي

فَحَسُنَ ذَلِكَ عِنْدَ ٱلنَّاصِرِ، وَأَتْحَفَهُ بِٱلْجَزِيلِ، وَتَمَكَّنَتْ عِنْدَهُ مَكَانَتُهُ. ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَهْدِيَتْ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ ٱلدُّنْيَا، فَخَافَ أَنْ يَنْتَهِيَ ذَلِكَ إِلَى ٱلنَّاصِرِ فَيَطْلُبَهَا، فَتَكُونَ كَقِصَّةِ ٱلْغُلَامِ، فَٱحْتَفَلَ فِي هَدِيَّةٍ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْأُولَى وَبَعَثَهَا مَعَهَا، وَكَتَبَ لَهُ:

أَمَوْلَايَ هَذِي ٱلشَّمْسُ وَٱلْبَدْرُ أَوَّلًا
تَقَدَّمَ كَيْمَا يَلْتَقِي ٱلْقَمَرَانِ
قِرَانٌ لَعَمْرِي بِالسَّعَادَةِ قَدْ أَتَى
فَدُمْ مِنْهُمَا فِي كَوْثَرٍ وَجِنَانِ
فَمَا لَهُمَا وَٱللهِ فِي ٱلْحُسْنِ ثَالِثٌ
وَمَالَكَ فِي مُلْكِ ٱلْبَرِيَّةِ ثَانِي

فَتَضَاعَفَتْ مَكَانَتُهُ عِنْدَهُ . ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ الْوُشَاةِ رَفَعَ لِلْمَلِكِ أَنَّهُ بَقِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغُلَامِ حَرَارَةٌ (١)، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يَذْكُرُهُ حِينَ تُحَرِّكُهُ الشَّمُولُ (٢)، وَيَقْرَعُ (٣) السِّنَّ عَلَى تَعَذُّرِ الْوُصُولِ (٤) ، فَقَالَ لِلْوَاشِي : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ، وَإِلَّا طَارَ رَأْسُكَ . وَأَعْمَلَ النَّاصِرُ حِيلَةً فِي أَنْ كَتَبَ عَلَى لِسَانِ الْغُلَامِ رُقْعَةً مِنْهَا : يَا مَوْلَايَ ، تَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ لِي عَلَى انْفِرَادِي ، وَلَمْ أَزَلْ مَعَكَ فِي نَعِيمٍ ، وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ مُشَارِكٌ فِي الْمَنْزِلَةِ ، مُحَاذِرٌ مَا يَبْدُو مِنْ سَطْوَةِ الْمَلِكِ ، فَتَحَيَّلْ فِي اسْتِدْعَائِي مِنْهُ . وَبَعَثَهَا مَعَ غُلَامٍ صَغِيرِ السِّنِّ ، وَأَوْصَاهُ أَنْ يَقُولَ مِنْ عِنْدِ فُلَانٍ ، وَإِنَّ الْمَلِكَ لَمْ يُكَلِّمْهُ

---

(١) أى لوعة وحرقة ووجد ، ويجوز أن تكون حزازة وهى الألم فى القلب من غيظ أو نحوه من كل ما حز فى القلب وحاك فى الصدر (٢) الشمول : الخمر أو الباردة منها سميت شمولا لأن ريحها تشمل الناس وتعمهم أو لأنها عرضت لنسيم الشمال فبردت وطابت (٣) يقرع السن : كناية عن الندم والحسرة والأسف (٤) تذكرت هنا قول البحترى :

يذكرنيك والذكرى عناء ... مشابه فيك طيبة الشكول
نسيم الروض فى ريح شمال ... وصوب المزن فى راح شمول

قطُّ إنْ سأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا وَقَفَ أَبُو عَامِرٍ عَلَى تِلْكَ ٱلرِّسَالَةِ، وَٱسْتَخْبَرَ ٱلْخَادِمَ، عَلِمَ مِنْ سُؤَالِهِ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلْغُلَامِ، وَمَا تَكَلَّمَ بِهِ فِي مَجَالِسِ ٱلْمُدَامِ، فَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِ ٱلرُّقْعَةِ وَلَمْ يَزِدْ حَرْفًا:

أَمِنْ بَعْدِ إِحْكَامِ ٱلتَّجَارِبِ يَنْبَغِي
لَدَيَّ سُقُوطُ ٱلطَّيْرِ فِي غَابَةِ ٱلْأَسَدْ؟
وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَغْلِبُ ٱلْحُبُّ قَلْبَهُ
وَلَا جَاهِلٌ مَا يَدَّعِيهِ أُولُو ٱلْحَسَدْ
فَإِنْ كُنْتَ رُوحِي قَدْ وَهَبْتُكَ طَائِعًا
وَكَيْفَ يَرُدُّ ٱلرُّوحُ إِنْ فَارَقَ ٱلْجَسَدْ؟

فَلَمَّا وَقَفَ ٱلنَّاصِرُ عَلَى ٱلْجَوَابِ تَعَجَّبَ مِنْ فِطْنَتِهِ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى ٱسْتِمَاعِ وَاشٍ بِهِ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ خَلَصْتَ مِنَ ٱلشَّرَكِ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ عَقْلِي بِٱلْهَوَى غَيْرُ مُشْتَرَكٍ. فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَزَادَتْ مَحَبَّتُهُ عِنْدَهُ. وَمِمَّنْ ذَكَرَ هَذِهِ ٱلْحِكَايَةَ صَاحِبُ مَطَالِعِ ٱلْبُدُورِ(١) فِي مَنَازِلِ ٱلسُّرُورِ.

(١) تأليف الشيخ الأديب علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي وهو كتاب نفيس جعل فيه لمنازل السرور خمسين بابا.

***

عزوات الناصر

وَأَخْبَارُ ٱلنَّاصِرِ طَوِيلَةٌ جِدًّا، وَقَدْ مُنِحَ ٱلظَّفَرَ عَلَى ٱلثُّوَّارِ، وَٱسْتَنْزَلَهُمْ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ[1] حَتَّى صَفَا لَهُ ٱلْوَقْتُ. وَكَانَتْ لَهُ فِي جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ ٱلْيَدُ ٱلْبَيْضَاءُ، فَمِنْ غَزَوَاتِهِ أَنَّهُ غَزَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَثِمِائَةٍ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ، وَمَلِكُهَا أُرْدُونُ بْنُ أَذْفُونَشَ[2]، فَاسْتَنْجَدَ بِٱلْبَشْكَنْسِ[3] وَٱلْإِفْرَنْجَةِ، وَظَاهَرَ شَانْجَةَ[4] بْنَ فَرْوِيلَةَ صَاحِبُ بَنْبَلُونَةَ أَمِيرَ ٱلْبَشْكَنْسِ، فَهَزَمَهُمْ وَوَطِئَ بِلَادَهُمْ وَدَوَّخَ أَرْضَهُمْ وَفَتَحَ مَعَاقِلَهُمْ وَخَرَّبَ حُصُونَهُمْ،

(١) للعقل: للملجأ والحصن (٢) كان أولاد اذفنش الثالث « فى أول امارة الملك الناصر عبد الرحمن بن محمد » فى شمال أسبانيا يقتسمون حكومة أبيهم فقسموها الى ثلاث ممالك فأخذ منهم غرسية الأرض التى بين نهر دويرة واستوريا والبرارى القوطية المسماة قمبوس Campos وجعل عاصمته مدينة ليون « نهر دويرة نهر عظيم تقع عند مصبه مدينة برتغال وعليه فى الوسط مدينة سمورة وبالقرب من نهاية فرع منه يتجه شمالا تقع مدينة ليون » وملك أخوه « أردن » جليقية « الطرف الشمالى الغربى من أسبانيا » وأخوهما فرويلة كان يملك أستوريا (٣) تقدم القول فيهم، وقد كان الافرنج يسمونهم بسكس Basques أو فوتكس Yacons ولعل الاسم العربى منحوت من هاتين الكلمتين وسماهم الاصطخرى فى كتاب المسالك والممالك « بكونس » (٤) أو هو شانجة بن غرسية، وقد التقى جيش الناصر وجمع شانجة على حصن أرنيط « فى شرق الأندلس من

ثُمَّ غَزَا بَنْبِلُونَةَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَدَخَلَ دَارَ ٱلْحَرْبِ، وَدَوَّخَ ٱلْبَسَائِطَ، وَفَتَحَ ٱلْمَعَاقِلَ، وَخَرَّبَ ٱلْحُصُونَ، وَأَفْسَدَ ٱلْعَمَائِرَ، وَجَالَ فِيهَا، وَتَوَغَّلَ فِي قَاصِيَتِهَا، وَٱلْعَدُوُّ يُحَاذِيهِ فِي ٱلْجِبَالِ وَٱلْأَوْعَارِ وَلَمْ يَظْفَرْ مِنْهُ بِشَيْءٍ . ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ ظَفِرَ بِبَعْضِ ٱلثُّوَّارِ عَلَيْهِ ـ وَكَانَ ٱسْتَمَدَّ بِالنَّصَارَى ـ فَقَتَلَ ٱلنَّاصِرُ مَنْ كَانَ مَعَ ٱلثَّائِرِ مِنَ ٱلنَّصَارَى أَهْلِ أَلْبَةَ، وَفَتَحَ ثَلَاثِينَ مِنْ حُصُونِهِمْ . وَبَلَغَهُ ٱنْتِقَاضُ طُوطَةَ (١) مَلِكَةِ ٱلْبَشْكَنْسِ فَغَزَاهَا فِي

أعمال تطيلة كانت مطلة على أرض العدو » فاقتتلا فهزم جمع شانجة وولوا الأدبار، ثم بلغ الناصر خبر اجتماع الملجين أردن وشانجة وتعاضدهما فأوغل في بلادهما واقتفت جيوشه آثار خيلهما وجندهما حتى هزموهم وشتتوا شملهم (١) هي أرملة شانجة ـ وقد كان أردن ملك ليون مات قبل الشروع في غزوة بنبلونة وخلفه أخوه فرويلة فلم يمكث في الملك الا سنة واحدة لم يقاتل فيها للسلمين الا أنه أمد شانجة ملك نفارة في حروبه مع الناصر سنة ٣١٢ فانهزم جمع شانجة ـ ثم مات فرويلة سنة ٩٢٥ فتنازع مملكة ليون ولدا أردن شانجة وأذفنش فتغلب الثاني لأن صهره ملك نفارة ظاهره وأعانه، ومع هذا لم ييأس شانجة فانه عند تتويج اذفونش في مدينة « شنت ياقب » نهض الى مدينة ليون واستولى عليها ثم عاد اذفنش فاستخلصها منه بمساعدة النقاريين سنة ٩٢٨ ففر شانجة بن أردن الى جليقية القصوى الى أن مات سنة ٩٢٩ م وتوافق سنة ٣١٤ هـ

بَنْبِلُونَةَ ، وَدَوَّخَ أَرْضَهَا وَاسْتَبَاحَهَا وَرَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ . ثُمَّ غَزَا غَزْوَةَ الْخَنْدَقِ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ ، فَانْهَزَمَ وَأُصِيبَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ ، وَقَعَدَ بَعْدَهَا عَنِ الْغَزْوِ بِنَفْسِهِ ، وَصَارَ يُرَدِّدُ الْبُعُوثَ وَالصَّوَائِفَ إِلَى الْجِهَادِ ، وَبَعَثَ جُيُوشَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ ، فَمَلَكَ سَبْتَةَ وَفَاسًا وَغَيْرَهُمَا مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَطَارَ صِيتُهُ وَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ كَمَا سَبَقَ . وَلَمَّا هَلَكَ شَانْجَةُ بْنُ فَرْوِيلَةَ مَلِكُ الْبَشْكُنْسِ قَامَ بِأَمْرِهِمْ بَعْدَهُ أُمُّهُ طُوطَةُ (١) وَكَفَلَتْ وَلَدَهُ ، ثُمَّ انْتَقَضَتْ عَلَى النَّاصِرِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ ، فَغَزَا النَّاصِرُ بِلَادَهَا ، وَخَرَّبَ نَوَاحِيَ بَنْبِلُونَةَ ، وَرَدَّدَ عَلَيْهَا كَمَا مَرَّ الْغَزَوَاتِ . وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِينَ غَزَا إِلَى خَشْتَمَةَ (٢) ثُمَّ رَحَلَ إِلَى بَنْبِلُونَةَ ، فَجَاءَتْهُ طُوطَةُ بِطَاعَتِهَا ، وَعَقَدَ لِابْنِهَا غَرْسِيَةَ عَلَى بَنْبِلُونَةَ ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى أَلْبَةَ

(١) المشهورة كما تقدم أنها أرملة شانجة ، رحلت الى الملك الناصر وكان غازيا فى بنبلونة وقدمت طاعتها فعقد لابنها غرسية على بنبلونة (٢) كذا بالأصل وهى محرفة عن «وخشمة» Osma والاسم العربى « وخشمة » فى كتاب نزهة المشتاق ، وفى سنة ٣٢٧ اجتاز الناصر نهر دويرة وانساب جيشه فى أرض العدو كالسيل الجارف مخربا القلاع التى كان يمر بها ومنها رباط ، وخشمة ، وشنت اشتيبن ، وحاصر مدينة سمورة واشتدت خيامه

وَبَسَائِطِهَا فَدَوَّخَهَا وَخَرَّبَ حُصُونَهَا . ثُمَّ اقْتَحَمَ جِلِّيقِيَّةَ، وَمَلِكُهَا يَوْمَئِذٍ رُذْمِيرُ بْنُ أَرْدُون فَخَامَ(١) عَنْ لِقَائِهِ ، وَدَخَلَ وَخَشْمَة(٢) فَنَازَلَهُ النَّاصِرُ فِيهَا ، وَهَدَّمَ بُرْغَش(٣) وَكَثِيرًا مِنْ

على طول نهر دويرة ودوخ بلاد الجلالقة ، وكانت سيوف كلتا الطائفتين تنوش الأخرى وتنال منها. هـنا ومدينـة « شنت ياقب » أو ياقوب Santiago فى نهاية الطرف الشمالى لاسبانيا « البرتغال الآن » وكانت من بلاد جليقية ذات حصن منيع ، ويقال ان لفظها منحوت من الكلمتين الروميتين « سنكتوس يعقوبوس » « القديس يعقوب » ومن ذلك أخذ الأسبانيون لفظ « سنت ياغو » وقد زحف عليها المنصور بن أبى عامر فى أيام دولته. وكنا قد سهونا عن التعليق على هذه الكلمة بما يحققها فى صفحة ٢٥٩ فتدار كنا ذلك هنا كما تلافينا سهوا فى صفحة ٢٥٧ من الجزء الأول يتعلق بمدينة « بردو » أو « بردال ، برذيل » فتلافيناه فى هذا الجزء فى غير موضع أنظر صفحة ١٣٥ (١) خام عن لقائه : جبن ونكص (٢) كانت فى الأصل « خشتمة كما تقدم » فأصلحت (٣) برغش أو برعش Burgos قرية قرب طليطلة ، وقد كان الناصر فتح مدينة طليطلة سنة ٣٢٠ — وكان « رامير » ملك ليون قد شتت شمل جيش من المسلمين كان يحاصر وخشمة سنة ٩٣٣ م فأثار ذلك حمية الأمير عبد الرحمن سنة ٩٣٤ م وأبت عليه همته الا أن ينتقم لجيشه ويجعل سهول وخشمة تشهد له بالنصر كما شهدت على جيشه بالخذلان فغزاها ، وأراد أن يستنزل رامير من قلعتها الى ميادين القتال فاستعصم بها فترك الناصر فئة تحاصرها واتجه الى الشمال فنالت جيوشه ولاسيما الأفارقة فى بلاد أعدائهم وخربوا مدينة برغش قاعدة قشتالة وكثيرا من الحصون . هذا وبرغش مشهورة بكنائسها وقد كان فى إحدى هذه الكنائس لواء بديع الشكل استولى عليه الأسبانيون من العرب فى واقعة العقاب المشهورة « أحمد يوسف نجاتى »

مَعَاقِلِهِمْ وَهَزَمَهُمْ مِرَارًا وَرَجَعَ . ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَهَا غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ السَّابِقَةُ ، وَهَابَتْهُ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ . ثُمَّ وَفَدَتْ عَلَيْهِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ رُسُلُ صَاحِبِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَهَدِيَّتُهُ ـ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ قُسْطَنْطِينُ ـ وَاحْتَفَلَ النَّاصِرُ لِقُدُومِهِمْ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ ، قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ : رَكِبَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَسَاكِرُ بِالسِّلَاحِ فِي أَكْمَلِ شِكَّةٍ[1] ، وَزُيِّنَ الْقَصْرُ الْخِلَافِيُّ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَأَصْنَافِ السُّتُورِ ، وَجُمِّلَ السَّرِيرُ الْخِلَافِيُّ بِمَقَاعِدِ الْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَةِ وَالْأَعْمَامِ وَالْقَرَابَةِ ، وَرُتِّبَ الْوُزَرَاءُ ، وَالْخَدَمَةُ فِي مَوَاقِفِهِمْ ، وَدَخَلَ الرُّسُلُ فَهَالَهُمْ مَا رَأَوْهُ[2] وَقَرُبُوا حَتَّى أَدَّوْا رِسَالَتَهُمْ ، وَأَمَرَ يَوْمَئِذٍ الْأَعْلَامَ أَنْ يَخْطُبُوا فِي ذَلِكَ الْمَحْفِلِ ، وَيُعَظِّمُوا مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَالْخِلَافَةِ ، وَيَشْكُرُوا

---

(١) الشكة : مايلبس من السلاح ،وشك فى السلاح : أى دخل فى سلاح تام وعدة كاملة (٢) تذكرت هنا قول البحترى :

لحظوك أول لحظة فاستصغروا　　من كان يعظم عندهم و يجل

وقول أبى الطيب من قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند دخول رسول الروم سنة ٣٤٣ :

اذا عاينتك الرسل هانت نفوسها　　عليها وما جاءت به والمراسل

« أحمد يوسف نجاتى » .

نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَى ظُهُورِ دِينِهِ وَإِعْزَازِهِ وَذِلَّةِ عَدُوِّهِ ، فَٱسْتَعَدُّوا لِذَٰلِكَ ، ثُمَّ بَهَرَهُمْ هَوْلُ ٱلْمَجْلِسِ فَوَجَمُوا(١) وَشَرَعُوا فِي ٱلْقَوْلِ فَٱرْتُتِجَ(٢) عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ فِيهِمْ أَبُو عَلِيٍّ ٱلْقَالِي وَافِدُ ٱلْعِرَاقِ(٣) ، كَانَ فِي جُمْلَةِ ٱلْحَكَمِ وَلِيِّ ٱلْعَهْدِ وَنَدَبَهُ لِذَٰلِكَ ٱسْتِئْثَارًا فَعَجَزَ ، فَلَمَّا وَجَمُوا كُلُّهُمْ قَامَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ ٱلْبَلُّوطِيُّ(٤) مِنْ غَيْرِ ٱسْتِعْدَادٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا تَقَدَّمَ لَهُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ ذَٰلِكَ ، فَخَطَبَ وَٱسْتَحْضَرَ وَجَلَّى(٥) فِي ذَٰلِكَ ٱلْقَصْدِ ، وَأَنْشَدَ شِعْرًا طَوِيلًا ٱرْتَجَلَهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ، فَفَازَ بِفَخْرِ ذَٰلِكَ ٱلْمَجْلِسِ

---

(١) وجموا : سكتوا واستولت عليهم الهيبة والذعر (٢) فأرتج عليهم : استغلق عليهم الكلام فلم يقدر واعليه ، وأوصدت أمامهم أبوابه (٣) استدعاه الناصر لتربية ابنه الحكم وتهذيبه فقد كان يختار لذلك كبار الأساتذة وفحول العلماء — وكان أبو على القالى ذا حظوة عند بنى العباس وصيت ذائع فى العراقين — فكان بصاحب الحكم فى قصر الزهراء ويختلف اليه فى ذلك القصر نخبة العلماء وصفوة الأدباء فشب ذا شغف باللغة وعلومها وآدابها ، ودخل القالى قرطبة فى شعبان سنة ٣٣٠ واستوطنها وأملى كتابه الأمالى بها ، ومدحه هناك الشاعر المشهور يوسف بن هرون الرمادى بقصيدة جيدة رائعة ، وتوفى أبو على بقرطبة سنة ٣٥٦ (٤) ستأتى ترجمته (٥) جلى الفرس جاء سابقا فى الحلبة ، والمصلى الذى يأتى وراءه ثانيا ، وجلى الأمر وجلاه إذا كشفه وأظهره ، وقد انجلى الأمر والهم وتجلى : زال كما تنجلى الظلمة

وَعَجِبَ ٱلنَّاسُ مِنْ شَأْنِهِ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مَا وَقَعَ، وَأُعْجِبَ بِهِ ٱلنَّاصِرُ وَوَلَّاهُ ٱلْقَضَاءَ بَعْدَهَا، وَأَصْبَحَ مِنْ رِجَالَاتِ ٱلْمَعَالِمِ[1]. وَأَخْبَارُهُ مَشْهُورَةٌ. وَخُطْبَتُهُ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ مَنْقُولَةٌ فِي كُتُبِ ٱبْنِ حَيَّانَ وَغَيْرِهِ. ثُمَّ ٱنْصَرَفَ هٰؤُلَاءِ ٱلرُّسُلُ، وَبَعَثَ ٱلنَّاصِرُ مَعَهُمْ هِشَامَ بْنَ هُذَيْلٍ[2] بِهَدِيَّةٍ حَافِلَةٍ لِيُؤَكِّدَ ٱلْمَوَدَّةَ وَيُحْسِنَ ٱلْإِجَابَةَ. وَرَجَعَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ وَقَدْ أَحْكَمَ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ وَجَاءَتْ مَعَهُ رُسُلُ قُسْطَنْطِينَ. ثُمَّ جَاءَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكِ ٱلصَّقَالِبَةِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ دُوقُوهُ[3] وَرَسُولٌ آخَرُ مِنْ مَلِكِ ٱلْأَلْمَانِ[4]، وَرَسُولٌ آخَرُ مِنْ مَلِكِ

---

(١) جمع معلم، وأصل المعلم ما يستدل به على الطريق من الأثر، ومعلم الشيء مظنته فيقال هو معلم للخير ومن معالمه، يريد من الرجال المشهورين المبرزين الذين يدعون في مواقف الحشد والقول في الجامع وأنه صار من أعلام العلم الخافقة ومن أعلام البلاغة الشاهقة (٢) كان وزيرا للناصر. (٣) يسميه ابن الخطيب «دوقوه» وابن خلدون «هوتو» وقال ابن عذارى المراكشي: في سنة ٣٤٤ قدمت رسل «هوتو» ملك الصقالبة على الناصر، وبعض مؤرخي قرطبة يسمونه «أوتون» ولعل من يسميه «دوقو» أخذ ذلك من لقبه «Duc» (٤) كان عاهل الألمانيا في عصر الناصر هو «أوتون» «Othon» فقد ارتقى عرش ألمانيا في سنة ٣٢٤ هـ «الموافقة سنة ٩٣٦م» وتوفي سنة ٣٦٢ هـ، سنة ٩٧٣ م وكان قد أخضع الصقالبة وأحرز تفاقي)

ٱلْإِفْرَنْجَةِ (١) وَرَاءَ ٱلْبُرْتِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أُوقَةُ وَرَسُولَ آخَرُ مِنْ مَلِكِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ بِقَاصِيَةِ ٱلْمَشْرِقِ ـ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَلَدَةُ (٢) ـ وَٱحْتَفَلَ ٱلنَّاصِرُ لِقُدُومِهِمْ ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِ ٱلصَّقَالِبَةِ رَبِيعاً ٱلْأُسْقُفَ إِلَى مَلِكِهِمْ «دُوقُوهْ» وَرَجَعَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ . «وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ» جَاءَ رَسُولُ أُرْدُونَ يَطْلُبُ ٱلسِّلْمَ فَعَقَدَ لَهُ ، ثُمَّ بَعَثَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ يَطْلُبُ إِدْخَالَ فِرْدَلَنْدَ (٣) قُومَسَ قَشْتِيلَةَ فِي عَهْدِهِ ، فَأَذِنَ لَهُ فِي

(١) كان دوق فرنسا في ذلك العصر «هوغوش Hugues» المتوفى سنة ٣٤٥هـ ٩٥٦م ويحرف المؤرخون اسمه الى « أوقة » والبرت هي جبال البرانس

(٢) لعل اسم « كلدة » أو « كارة » كما يسميه بعضهم محرف عن « كارلة» أو « كارلوس » أو «شارل» Charles (٣) كذا بالأصل ، ويعني به «فردنند» زعيم قشتالة أو قشتيلة « Castell » وفي بعض المراجع الافرنجية أن شانجة هو ابن أخت غرسية ، وأردن أخو شانجة من أم أخرى ، واستمال شانجة اليه فردنند زعيم قشتالة وزوج خالته «فان أم شانجة وامرأة فردنند أختان أمهما طوطة » وانما مال فردنند الى شانجة دون صهره أردن لأن الأحوال قضت عليه بذلك فدعا رجاله الى حمل السلاح وسار معه شانجة وجيش من النفاريين لنزع تاج الملك عن أردن ، وكانت مدينة بنبلونة حاضرة نفارة . والقومس الأمير والملك الشريف كلة « معربة »

وقال الفضل بن العباس اللهبي :

ذَلِكَ وَأُدْخِلَ فِي عَهْدِهِ ، وَكَانَ غَرْسِيَةُ بْنُ شَانْجَةَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى جِلِّيقِيَّةَ بَعْدَ أَبِيهِ شَانْجَةَ بْنِ فُرْوِيلَة(١)، ثُمَّ انْتَقَضَ عَلَيْهِ أَهْلُ جِلِّيقِيَّةَ ، وتَوَلَّى كِبْرَهُمْ قَوْمَسُ قَشْتِيلَةَ فِرْدِنَنْـدُ الْمَذْكُورُ، وَمَالَ إِلَى أُرْدُونَ بْنِ رُذْمِيرَ ، وَكَانَ غَرْسِيَةُ بْنُ شَانْجَةَ حَافِدًا(٢) لِطُوطَةَ مَلِكَةِ الْبَشْكَنْسِ ، فَامْتَعَضَتْ(٣) لِحَافِدِهَا غَرْسِيَةَ ، وَوَفَدَتْ عَلَى النَّاصِرِ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ مُلْقِيَةً بِنَفْسِهَا فِي عَقْدِ السِّلْمِ لَهَا وَلِوَلَدِهَا شَانْجَةَ بْنِ رُذْمِيرَ الْمَلِكِ وَإِعَانَةِ حَافِدِهَا غَرْسِيَةَ بْنِ شَانْجَةَ عَلَى مُلْكِهِ وَنَصْرِهِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَجَاءَ الْمَلِكَانِ مَعَهَا ، فَاحْتَفَلَ النَّاصِرُ لِقُدُومِهِمْ وَعَقَدَ الصُّلْحَ لِشَانْجَةَ وَأُمِّهِ ، وَبَعَثَ الْعَسَاكِرَ مَعَ غَرْسِيَةَ مَلِكِ جِلِّيقِيَّةَ ، فَرَدَّ عَلَيْـهِ مُلْكَهُ، وَخَلَعَ الْجَلَالِقَةُ طَاعَةَ أُرْدُونَ إِلَيْـهِ ، وَبَعَثَ إِلَى النَّاصِرِ يَشْكُرُهُ عَلَى فَعْلَتِهِ.

وأبي هاشم هما ولماتي قومس منصبي ولم يك شيئا
والقمس الرجل الشريف ، وأنشد ابن الأعرابي:
وعلمت أني قد منيت بنيطل اذ قيل كان من آل دوفن قس
والقامسة البطارقة واحده قس ■ أحمد مجاني ■

(١) Fruela

(٢) الحافد والحفيد : ابن الابن (٣) امتعضت : امتلأت غضبا .

وَكَتَبَ إِلَى ٱلْأُمَمِ فِي ٱلنَّوَاحِي بِذَلِكَ، وَبِمَا ٱرْتَكَبَهُ فَرْدِنَنْدُ قُومَسُ قَشْتِيلَةَ فِي نَكْثِهِ[١] وَوُثُوبِهِ وَيُعَيِّرُهُ بِذَلِكَ عِنْدَ ٱلْأُمَمِ، وَلَمْ يَزَلِ ٱلنَّاصِرُ عَلَى مُوَالَاتِهِ وَإِعَانَتِهِ إِلَى أَنْ هَلَكَ[٢]، وَلَمَّا

(١) نكثه : نقضه للعهد .(٢) خلاصة ماصح من هذه الحادثة ملخصا من المصادر العربية والافرنجية أنه لمامات أردن الثالث ملك ليون في آخر سنة ٣٤٥هـ (مارس سنة ٩٥٧م) خلفه على مملكة ليون من كان ينازعه فيها وهو أخوه شانجة (وفى تاريخ ابن عذارى المراكشى وتاريخ ابن خلدون أن الذى كان ينازع أردن بن ردمير هو أخوه غرسية) وبعد سنة من حكمه ائتمر به الأشراف وخلعوه لاستبداده وعمله على خضد شوكتهم ومحو نفوذهم وولوا عليهم أردن بن أذفنش واستأثر لنفسه بالحكم المطلق فمقتوه وتبرموا بحكمه ، واتخذ فردنند زعيم قشتيلة سخط اليونيين على ملكهم ذريعة لخلعه فآمر به هو والجيش فخلعوه فى فصل الربيع من سنة ٩٥٨ م واختاروا من بيت الملك أردن بن أذفنش الرابع ملكا عليهم وزوجه فردنند ابنته براقة (Urraca أرملة أردن الثالث بن رامير الذى كان ملكا على ليون) فهرب شانجة الى بنبلونة حاضرة نبارة (أو البشكنس) وشكا أمره الى جدته الملكة طوطة التى كانت تحكم نبارة باسم ابنها غرسية ، ثم سار فى وفد الى قرطبة سنة ٣٤٧ مظهرا أنه يقصد التداوى عند أطباء العرب الماهرين الذين حذقوا صناعة الطب فى ذلك الحين لكن نم عليه وعلى أن غرضه كان سياسيا خروجه فى جيش من المسلمين سنة ٣٤٨ للاغارة على مملكة ليون وقد تم استرجاعها اليه فى سنة ٣٤٩ وبعد مدة هاجم جيش النصارين قشتالة وهاجم جيش المسلمين مملكة ليون بصحبة شانجة فاستولى الجيش أولا على مدينة سمورة ، وفى شهر ابريل سنة ٩٥٩ خضع لشانجة جزء عظيم من المملكة وقد قاومت عاصمتها زمنا ولكن فرار أردن الرابع منها الى استوريا أسقطها سنة ٩٦٠م

وَصَلَ رَسُولُ « شَارْلَ » مَلِكِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ بِالشَّرْقِ كَمَا تَقَدَّمَ وَصَلَ مَعَهُ رَسُولُ مَلِكِ بَرْشِلُونَةَ وَطَرَّكُونَةَ رَاغِبًا فِي ٱلصُّلْحِ ، فَأَجَابَهُ ٱلنَّاصِرُ ، وَوَصَلَ بَعْدَهُ رَسُولُ صَاحِبِ رُومَةَ يَخْطُبُ ٱلْمَوَدَّةَ فَأُجِيبَ . ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ بِبَعْضِ ٱخْتِصَارٍ .

***

ملك الناصر وضخامته

وَلْنُفَصِّلْ بَعْضَ مَا أَجْمَلَهُ فَنَقُولُ : ذَكَرَ ٱبْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ مُلْكَ ٱلنَّاصِرِ بِالْأَنْدَلُسِ كَانَ فِي غَايَةِ ٱلضَّخَامَةِ وَرِفْعَةِ ٱلشَّأْنِ ، وَهَادَتْهُ ٱلرُّومُ وَٱزْدَلَفَتْ[1] إِلَيْهِ تَطْلُبُ مُهَادَنَتَهُ وَمُتَاحَفَتَهُ بِعَظِيمِ ٱلذَّخَائِرِ ، وَلَمْ تَبْقَ أُمَّةٌ سَمِعَتْ بِهِ مِنْ مُلُوكِ ٱلرُّومِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلْمَجُوسِ وَسَائِرِ ٱلْأُمَمِ إِلَّا وَفَدَتْ عَلَيْهِ خَاضِعَةً رَاغِبَةً ، وَٱنْصَرَفَتْ عَنْهُ رَاضِيَةً ، وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ صَاحِبُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ٱلْعُظْمَى[2] فَإِنَّهُ هَادَاهُ وَرَغِبَ فِي مُوَادَعَتِهِ ،

والقرى هنا قال ان حفيد طوطة ملكة البشكنس التى انتقض عليه أهل جليقية هو غرسية بن شانجة لا شانجة بن أردن مع أنه قال فى تاريخ الحكم بن الناصر فى حوادث سنة ٣٥٤ ثم كانت وفادة أردن بن أذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير الخ

(١) ازدلف : تقرب وابتغى اليه القربة والمنزلة (٢) هو قسطنطين بن

***

وفود رسل قسطنطين على الناصر

وَكَانَ وُصُولُ أَرْسَالِهِ(١) فِى صَفَرٍ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلاثِينَ وَثَلثِمِائَةٍ، وَتَقَدَّمَ فِى كَلَامِ ٱبْنِ خَلْدُونَ أَنَّهَا سِتٌّ وَثَلاثُونَ، فَٱللهُ أَعْلَمُ أَيُّهُمَا أَصَحُّ؟ وَتَأَهَّبَ ٱلنَّاصِرُ لِوُرُودِهِمْ، وَأَمَرَ أَنْ يُتَلَقَّوْا أَعْظَمَ تَلَقٍّ وَأَفْخَمَهُ، وَأَحْسَنَ قَبُولٍ وَأَكْرَمَهُ، وَأَخْرَجَ إِلَى لِقَائِهِمْ بِبَجَايَةَ(٢) يَحْيَى بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ

لِيون ملك الروم والترجيح أن ذلك كان سنة ٣٣٨هـ التى توافق سنة ٩٤٩م فقد بعث فيها ملك الروم الى الناصر رسلا يحملون هدية وكتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التى كانت بين أسلافهما على خلفاء بغداد

(١) جمع رسل وهو فى الأصل القطيع من كل شىء ويستعمل فى الناس حقيقة أو مجازا ومنه الحديث: ان الناس دخلوا عليه بعد موته أرسالا يصلون عليه، أى أفواجا وفرقا متقطعة يتلو بعضهم بعضا

(٢) كذا بالأصل والظاهر أنها بجانة بفتح الباء وتشديد الجيم ثم نون بعد الألف وهى مدينة بالأندلس من أعمال كورة البيرة بينها و بين المرية شمالا فرسخان { على نهير تقع مدينة المرية على قرب مصبه بالبحر الأبيض } والمرية مدينة كبيرة من كورة البيرة وقد كانت هى و بجانة بابى الشرق منها يركب التجار وفيها ترسو السفن وكان بالمرية مرفأ ومرسى السفن والمراكب يضرب ماء البحر سورها وكان فيها ترتيب الأسطول الذى للمسلمين ومنها يخرج الى غزو البحر) قال أبو عمر أحمد بن دراج القسطلى:

متى تلحظوا قطر المرية تظفروا ... ببحر ندى ميناه در ومرجان
وتستبدلوا من موج بحر شجاكم ... ببحر لكم منه لجين وعقيان

وكانت بجانة قد خربت فانتقل أهلها الى المرية، أما بجاية فهى مدينة

أَلْلَّيْثِ[١] وَغَيْرَهُ لِخِدْمَةِ أَسْبَابِ ٱلطَّرِيقِ، فَلَمَّا صَارُوا بِأَقْرَبِ ٱلْمَحَلَّاتِ مِنْ قُرْطُبَةَ خَرَجَ إِلَى لِقَائِهِمُ ٱلْقُوَّادُ فِي ٱلْعَدَدِ وَٱلْعُدَّةِ وَٱلتَّعْبِيَةِ، فَتَلَقَّوْهُمْ قَائِدًا بَعْدَ قَائِدٍ، وَكَمُلَ ٱخْتِصَاصُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنْ أَخْرَجَ إِلَيْهِمُ ٱلْفَتَيَيْنِ ٱلْكَبِيرَيْنِ ٱلْخَصِيَّيْنِ يَاسِرًا وَتَمَّامًا[٢] إِبْلَاغًا فِي ٱلِاحْتِفَالِ بِهِمْ، فَلَقِيَاهُمْ بَعْدَ ٱلْقُوَّادِ، فَٱسْتَبَانَ لَهُمْ بِخُرُوجِ ٱلْفَتَيَيْنِ إِلَيْهِمْ بَسْطُ ٱلنَّاصِرِ وَإِكْرَامُهُ، لِأَنَّ ٱلْفِتْيَانَ حِينَئِذٍ هُمْ عُظَمَاءُ ٱلدَّوْلَةِ، لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْخَلْوَةِ مَعَ ٱلنَّاصِرِ وَحَرَمِهِ وَبِيَدِهِمُ ٱلْقَصْرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ، وَأُنْزِلُوا بِمُنْيَةِ وَلِيِّ ٱلْعَهْدِ ٱلْحَكَمِ ٱلْمَنْسُوبَةِ إِلَى نُصَيْرٍ بِعُدْوَةِ قُرْطُبَةَ فِي ٱلرَّبَضِ[٣] وَمُنِعُوا مِنْ لِقَاءِ ٱلْخَاصَّةِ وَٱلْعَامَّةِ جُمْلَةً

على ساحل البحر بين افريقية والمغرب وكان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين فى حدود سنة ٤٥٧ بعد هذه الحادثة بنحو ١٢٠ سنة (١) هو من القواد (٢) كانا كبيرى للوالى الذين كانوا أولى سلطان فى قصر الخلافة وكانوا حين ذاك من عظماء الدولة فكان ذلك دليلا على مزيد الاحتفاء وعظيم الاحتفال بالوافدين، وياسر الفتى ممن قتل فى حادثة الأمير عبد الله وتهمته سنة ٣٣٨ (٣) أى رصافة قرطبة محلة بها، والمعروف أنهم أنزلوا فى قصر فى ضاحية قرطبة

وَمِنْ مُلَابَسَةِ النَّاسِ طُرًّا ، وَرَتَّبَ لِحِجَابَتِهِمْ رِجَالًا تَخَيَّرُوا مِنَ الْمَوَالِي وَوُجُوهِ الْحَشَمِ ، فَصَيَّرُوا عَلَى بَابِ قَصْرِ هٰذِهِ الْمُنْيَةِ سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلًا لِأَرْبَعِ دُوَلٍ، لِكُلِّ دَوْلَةٍ أَرْبَعٌ مِنْهُمْ.

***

رحلة الناصر الى قصر قرطبة

وَرَحَلَ النَّاصِرُ لِدِينِ اللهِ مِنْ قَصْرِ الزَّهْرَاءِ إِلَى قَصْرِ قُرْطُبَةَ لِدُخُولِ وُفُودِ الرُّومِ عَلَيْهِ، فَقَعَدَ لَهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ لِإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي بَهْوِ الْمَجْلِسِ الزَّاهِرِ قُعُودًا حَسَنًا نَبِيلًا ؛ وَقَعَدَ عَنْ يَمِينِهِ وَلِيُّ الْعَهْدِ مِنْ بَنِيهِ الْحَكَمُ ، ثُمَّ عَبْدُ اللهِ(١)، ثُمَّ

(١) كان عبدالله بن الناصر فقيها شافعيا متنسكا وأخباريا عارفا وشاعرا مطبوعا ضاربا فى اللغة وآدابها بأوفر سهم ومن شعره :

أما فـؤادى فـكاتم ألمـه ... لو لم يبح ناظرى بما كتمه
ماأوضح السقم فى ملاحظ من ... يهوى وان كان كاتما سقمه
ظللت أبكى وظل يعذلنى ... من لم يقاس الهوى ولا علمه
اليك عن عاشق بكى أسفا ... حبيبه فى الهوى وان ظلمه
ظلت جيوش الأسى تقاتله ... مذ نذرت أعين اللاح دمه

وروى عن كثير من فضلاء الأندلس منهم الامام أحمد بن محمد بن عبدالبر ، وعنى عناية عظيمة بسماع العلم وحمله والتأليف فيه ، وكان يكثر من مجالسة العلماء ويستريح الى الاجتماع بهم ، وهو أحد النجباء من أبناء الخلفاء ، ثم سعى به الى والده فحبسه فى آخر خلافته تحت الرقابة الشديدة وكان قتلهم مع الفقيه ابن عبد البر بتهمة سعيه فى قتل أخيه ولى العهد ثم قتل فى ثانى أيام الأضحى من سنة ٣٣٩ ، أو سنة ٣٣٨ «أحمد تجانى»

عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ(١) ، ثُمَّ ٱلْأَصْبَغُ ثُمَّ مَرْوَانُ(٢) وَقَعَدَ عَنْ يَسَارِهِ

---

(١) يكنى أبا الأصبغ كان أديبا شاعرا ، وولد له ولد ثم دخل الكتاب لما بلغ السابعة وظهرت منه نجابة فأول لوح كتبه بعث به إلى أخيه المستنصر بالله وكتب إليه بهذه الأبيات :

هاك يامولاى خطا   خطه فى اللوح خطا
ابن سبع فى سنيه   لم يطق اللوح ضبطا
لم يقرفى الضاد طا   وى ألفاظا وخطا
دمت يامولاى حتى   يلد ابن ابنك سبطا

(٢) من ذريته أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، كان أديبا رقيقا وشاعرا مكثرا مفلقا ، وهو فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه ، سجن وهو ابن ١٦ سنة ومكث فى السجن ١٦ وعاش بعد إطلاقه من السجن ١٦ سنة فلقب بالطليق وأكثر شعره فى السجن ، كان فيما ذكر يتعشق جارية كان أبوه قد رباها معه وذكرها له ثم بدا له فاستأثر بها وأنه اشتدت غيرته لذلك فانتضى سيفا وانتهز فرصة من بعض خلوات أبيه معها فقتله فسجن وذلك فى أيام المنصور ابن أبى عامر ، ومن شعره :

غصن يهتز فى دعص نقا   يجتنى منه فؤادى حرقا
أطلع الحسن لنا من وجهه   قمرا ليس يرى ممتحقا
وربا عن طرف ريم أحور   لحظه سهم لقلبى فوقا

ومنه :

أصبحت شمسا وفوه مغربا   ويد الساقى المحيى مشرقا
فإذا ما غربت فى فمه   تركت فى الخد منه شفقا

وتوفى نحو سنة ٤٠٠ . أبو أحمد يوسف نجاتى

ٱلْمُنْذِرِ[١] ثُمَّ عَبْدُ ٱلْجَبَّارِ، ثُمَّ سُلَيْمَانُ، وَتَخَلَّفَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ لِأَنَّهُ كَانَ عَلِيلًا لَمْ يُطِقِ ٱلْحُضُورَ، وَحَضَرَ ٱلْوُزَرَاءُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَوَقَفَ ٱلْحُجَّابُ مِنْ أَهْلِ ٱلْخِدْمَةِ مِنْ أَبْنَاءِ ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْمَوَالِي وَٱلْوُكَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ بُسِطَ صَحْنُ ٱلدَّارِ أَجْمَعُ بِعِتَاقِ ٱلْبُسُطِ وَكَرَائِمِ ٱلدَّرَانِكِ[٢]، وَظُلِّلَتْ أَبْوَابُ ٱلدَّارِ وَحَنَايَاهَا بِظُلَلِ[٣] ٱلدِّيبَاجِ وَرَفِيعِ ٱلسُّتُورِ

***

وصف هدية قسطنطين لعبد الرحمن الناصر

فَوَصَلَ رُسُلُ مَلِكِ ٱلرُّومِ حَائِرِينَ مِمَّا رَأَوْهُ مِنْ بَهْجَةِ ٱلْمُلْكِ وَفَخَامَةِ ٱلسُّلْطَانِ، وَدَفَعُوا كِتَابَ مَلِكِهِمْ صَاحِبِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ٱلْعُظْمَى قُسْطَنْطِينَ بْنِ لِيُونَ وَهُوَ فِي رَقٍّ[٤] مَصْبُوغٍ لَوْنًا سَمَاوِيًّا مَكْتُوبًا بِٱلذَّهَبِ بِٱلْخَطِّ ٱلْإِغْرِيقِيِّ وَدَاخِلَ ٱلْكِتَابِ مُدْرَجَةٌ[٥] مَصْبُوغَةٌ أَيْضًا مَكْتُوبَةٌ

---

(١) كان ابنه عبد العزيز بن المنذر ذا حظ وافر من الأدب وحسن الشعر وعناية باللغة وآدابها (٢) جمع درنك وهو « والدرنوك والدرنيك والدرموك » الطنفسة وضرب من البسط ذو خمل قصير كخمل المناديل، وتشبه به فروة البعير والأسد، والدرانيك تكون ستورا وتكون فرشا وفيها الصفرة والخضرة — وهو لفظ معرب. (٣) جمع ظلة وهي ما يستظل به من الشمس ويستتر به من الحر والبرد (٤) الرق: الجلد الرقيق يكتب فيه (٥) طرس مدرج: أي مطوي وملفوف ضمن الكتاب

بِفِضَّةٍ بِخَطٍّ إِغْرِيقِيٍّ أَيْضًا ، فِيهَا وَصْفُ هَدِيَّتِهِ ٱلَّتِي أَرْسَلَ بِهَا وَعَدَدُهَا ، وَعَلَى ٱلْكِتَابِ طَابَعُ ذَهَبٍ وَزْنُهُ أَرْبَعَةُ مَثَاقِيلَ ، عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُ صُورَةُ ٱلْمَسِيحِ ، وَعَلَى ٱلْآخَرِ صُورَةُ قُسْطَنْطِينَ ٱلْمَلِكِ وَصُورَةُ وَلَدِهِ[1] ، وَكَانَ ٱلْكِتَابُ بِدَاخِلِ دُرْجٍ[2] فِضَّةٍ مَنْقُوشٍ عَلَيْهِ غِطَاءُ ذَهَبٍ ، فِيهِ صُورَةُ قُسْطَنْطِينَ ٱلْمَلِكِ مَعْمُولَةً مِنَ ٱلزُّجَاجِ ٱلْمُلَوَّنِ ٱلْبَدِيعِ ، وَكَانَ ٱلدُّرْجُ دَاخِلَ جَعْبَةٍ[3] مُلَبَّسَةٍ بِالدِّيبَاجِ ، وَكَانَ فِي تَرْجَمَةِ عُنْوَانِ[4] ٱلْكِتَابِ فِي سَطْرٍ مِنْهُ : قُسْطَنْطِينُ وَرُومَانِينُ[5] ٱلْمُؤْمِنَانِ بِالْمَسِيحِ ٱلْمَلِكَانِ ٱلْعَظِيمَانِ مَلِكَا ٱلرُّومِ ، وَفِي سَطْرٍ آخَرَ : إِلَى ٱلْعَظِيمِ ٱلِاسْتِحْقَاقِ ٱلْفَخْرِ

---

(١) ابنه رومانوس (٢) أى علبة والدرج حفش النساء وهو سفيط صغير تدخر فيه المرأة طيبها وأدواتها وخف متاعها — والدرج الذى يكتب فيه ، يقال: أنفذته فى درج الكتاب أى فى طيه وداخله ، وفى درج الكتاب كذا وكذا ، أى فى ضمنه وطيه (٣) الجعبة فى الأصل كنانة النشاب وهى من خشب مستديرة واسعة من أعلاها ، وقد تطلق الجعبة على أكبر أوانى الشرب (٤) أى مفتتحه ومقدمته (٥) كذا بالأصل ، والمعروف أنه كان فى السطر الاول من مفتتح الكتاب ما ترجمته : من قسطنطين و رمانوس المؤمنين بالمسيح الخ وفى السطر الثانى : الى العظيم صاحب المجد الشريف النسب الخ . « أحمد يوسف نجاتى » .

ٱلشَّرِيفِ ٱلنَّسَبِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْحَاكِمِ عَلَى ٱلْعَرَبِ بِٱلْأَنْدَلُسِ ـ أَطَالَ ٱللّٰهُ بَقَاءَهُ ـ

***

احتفال الناصر بالهدية

وَلَمَّا ٱحْتَفَلَ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللّٰهِ هٰذَا الِاحْتِفَالَ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ ٱلْخُطَبَاءُ وَٱلشُّعَرَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِتَذْكُرَ جَلَالَةَ مَقْعَدِهِ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ ، وَتَصِفَ مَا تَهَيَّأَ مِنْ تَوْطِيدِ ٱلْخِلَافَةِ فِي دَوْلَتِهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلْأَمِيرِ ٱلْحَكَمِ ٱبْنِهِ وَلِيِّ عَهْدِهِ بِإِعْدَادِ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ مِنَ ٱلْخُطَبَاءِ، وَيُقَدِّمُهُ أَمَامَ نَشِيدِ ٱلشُّعَرَاءِ ، فَأَمَرَ ٱلْحَكَمُ صَنِيعَهُ ٱلْفَقِيهَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْبَرِّ ٱلْكَشْكِينَانِيَّ [1] بِٱلتَّأَهُّبِ لِذَلِكَ وَإِعْدَادِ خُطْبَةٍ بَلِيغَةٍ يَقُومُ بِهَا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخَلِيفَةِ ـ وَكَانَ يَدَّعِي مِنَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِ غَيْرِهِ ، وَحَضَرَ ٱلْمَجْلِسَ ٱلسُّلْطَانِيَّ ـ فَلَمَّا قَامَ يُحَاوِلُ ٱلتَّكَلُّمَ بِمَا رَأَى هَالَهُ [2]

(١) فى الأصل « الكيبانى » وهو تحريف . والفقيه المذكور هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد البر المعروف بالكشكينانى « نسبة الى قرية كشكينان من قنبانية قرطبة » (٢) هاله وبهره: غلبه وقهره، والبهر أيضا الكرب يعترى الانسان اذا كلف فوق الجهد ، كأنه قطع بهره أى نفسه ومنه :

ان البخيل اذا سألت بهرته وترى الكريم يراح كالمختال

وَبَهَرَهُ هَوْلُ الْمَقَامِ وَأُبَّهَةُ(١) الْخِلَافَةِ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى لَفْظَةٍ ، بَلْ غُشِيَ عَلَيْهِ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ .

***

خطبة أبي علي القالي

فَقِيلَ لِأَبِي عَلِيٍّ الْبَغْدَادِيِّ إِسْمٰعِيلَ بْنِ الْقَاسِمِ الْقَالِي ، صَاحِبِ الْأَمَالِي وَالنَّوَادِرِ ، وَهُوَ حِينَئِذٍ ضَيْفُ الْخَلِيفَةِ الْوَافِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِرَاقِ ـ وَأَمِيرُ الْكَلَامِ ، وَبَحْرُ اللُّغَةِ : قُمْ فَارْقَعْ هٰذَا الْوَهْيَ(٢) . فَقَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هٰكَذَا ذَكَرَ ابْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُهُ . وَكَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ السَّابِقُ يَقْتَضِي أَنَّ الْقَالِيَ هُوَ الْمَأْمُورُ بِالْكَلَامِ أَوَّلًا وَالْمُعَدُّ لِذٰلِكَ ، وَنَحْوُهُ فِي الْمَطْمَحِ ، وَالْخَطْبُ سَهْلٌ . ثُمَّ انْقَطَعَ الْقَوْلُ بِالْقَالِي ، فَوَقَفَ سَاكِتًا مُفَكِّرًا فِي كَلَامٍ

---

(١) أي عظمة ومهابة (٢) الوهي : الشق في الشيء وتخرقه ، وهى الشيء إذا تخرق وانشق أو استرخى رباطه ـ ويروى « المؤمن موه راقع » كأنه يوهي دينه بمعصيته ، ويرقعه بتوبته ، وفي المثل :

خل سبيل من وهى سقاؤه ومن أريق بالفلاة ماؤه

يضرب لمن لا يستقيم أمره ولا تصلح حاله ـ ويقال : أوهيت وهيا فارقعه وغادر وهية لا ترقع » أي فتقا لا يقدر على رتقه

يَدْخُلُ بِهِ إِلَى ذِكْرِ مَا أُرِيدَ مِنْهُ وَقَالَ فِي الْمَطْمَحِ : إِنَّ أَبَا عَلِيٍّ الْقَالِيَّ انْقَطَعَ وَبُهِتَ(١) ، وَمَا وَصَلَ إِلَّا قَطَعَ ، وَوَقَفَ سَاكِتًا مُتَفَكِّرًا ، لَا نَاسِيًا وَلَا مُتَذَكِّرًا ،

***

خطبة منذر ابن سعيد

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ وَكَانَ مِمَّنْ حَضَرَ فِي زُمْرَةِ الْفُقَهَاءِ قَامَ مِنْ ذَاتِهِ ، بِدَرَجَةٍ مِنْ مِرْقَاتِهِ(٢) فَوَصَلَ افْتِتَاحَ أَبِي عَلِيٍّ لِأَوَّلِ خُطْبَتِهِ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ ، وَنَادَى مِنَ الْإِحْسَانِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ كُلَّ مُجِيبٍ(٣) ، يَسُحُّهُ سَحًّا(٤) كَأَنَّمَا كَانَ يَحْفَظُهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ ، وَبَدَأَ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ الْبَغْدَادِيُّ فَقَالَ : أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالتَّعْدَادِ لِآلَائِهِ ، وَالشُّكْرِ لِنَعْمَائِهِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَفِيِّهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَادِثَةٍ مَقَامًا ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَإِنِّي قَدْ قُمْتُ فِي

(١) البهت : الانقطاع والحيرة ، وقد بهت (كعلم ونصر وكرم وعنى) — وبناؤه للمجهول أفصح وأشهر — اذا انقطع وسكت حائرا فهو مبهوت (٢) المرقاة : الدرجة من رقى اليه اذا صعد (٣) يعنى أنه كان يدعو جيد القول فيجيبه ولا يتأبى عليه ولا يستعصى (٤) السح : الصب للتتابع الكثير ، ومن المجاز : استنشدته قصيدة فسحها علىّ سحا

مَقَامٍ كَرِيمٍ ، بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ عَظِيمٍ ، فَأَصْغُوا إِلَيَّ مَعْشَرَ ٱلْمَلَإِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَتْقِنُوا(١) عَنِّي بِأَفْئِدَتِكُمْ . إِنَّ مِنَ ٱلْحَقِّ أَنْ يُقَالَ لِلْمُحِقِّ صَدَقْتَ ، وَلِلْمُبْطِلِ كَذَبْتَ ، وَإِنَّ ٱلْجَلِيلَ - تَعَالَى فِي سَمَائِهِ ، وَتَقَدَّسَ بِصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ - أَمَرَ كَلِيمَهُ مُوسَى - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ - أَنْ يُذَكِّرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ(٢) ٱللَّهِ - جَلَّ وَعَزَّ - عِنْدَهُمْ ، وَفِيهِ وَفِي رَسُولِ ٱللَّهِ - صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُسْوَةٌ(٣) حَسَنَةٌ ، وَإِنِّي أُذَكِّرُكُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ عِنْدَكُمْ ، وَتَلَافِيهِ لَكُمْ بِخِلَافَةِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّتِي لَمَّتْ شَعَثَكُمْ(٤) ، وَآمَنَتْ سِرْبَكُمْ(٥) وَرَفَعَتْ قُوتَكُمْ(٦)

(١) أى احفظوه وعوه ، وفى الطمح : وأمنوا ، أى صدقوا (٢) أيام الله نعمه (وبه فسر قوله تعالى : لايرجون أيام الله ، وقوله تعالى : وذكرهم بأيام الله) - وقد يراد بها أيضا العقوبات والنقم ، وبه فسرت الآية الثانية - وغرض الخطيب هنا للعنى الأول أى النعم والمنن (٣) أسوة : قدوة (٤) لمت شعثكم : جمعت متفرقكم وأصلحت أحوالكم ولمت ما كان منتشرا من أموركم (٥) السرب الطريق والبال « يقال هو واسع السرب أى رخى البال » والمال - والسرب فى قوله صلى الله عليه وسلم : «من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » هو القلب « يقال فلان آمن السرب أى آمن القلب مطمئنه » والسرب النفس والأهل والمال والولد « يقال فلان آمن السرب أى لايغزى ماله ونسعه لعزه - والسرب فى الأصل جماعة البقر والظباء والقطا والنساء « وفلان آمن فى سربه أى فى منقلبه ومتصرفه وسائر أحواله (٦) كذا بالأصل ، وفى الطمح : ورفعت خوفكم ، وهو أولى وأظهر

بَعْدَ(١) أَنْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ، وَمُسْتَضْعَفِينَ فَقَوَّاكُمْ، وَمُسْتَذَلِّينَ فَنَصَرَكُمْ، وَلَّاهُ اللهُ رِعَايَتَكُمْ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ إِمَامَتَكُمْ، أَيَّامَ ضَرَبَتِ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا(٢) عَلَى الْآفَاقِ، وَأَحَاطَتْ بِكُمْ شُعَلُ(٣) النِّفَاقِ، حَتَّى صِرْتُمْ فِي مِثْلِ حَدَقَةِ الْبَعِيرِ(٤)، مِنْ ضِيقِ الْحَالِ وَنَكَدِ الْعَيْشِ(٥) وَالتَّغْيِيرِ(٦)، فَاسْتَبْدَلْتُمْ بِخِلَافَتِهِ مِنَ الشِّدَّةِ بِالرَّخَاءِ(٧) وَانْتَقَلْتُمْ بِيُمْنِ

(١) فى المطمح « وكنتم قليلا فكثركم الخ » وهو أقوى فى السياق ونسق العبارة (٢) يريد عموم الفتنة وتمكنها فى البلاد وقوة سلطانها فى الدولة. (٣) فى المطمح : تشعل، جعل النفاق نارا مشتعلة لأنه يؤدى الى التهلكة ويوقد نار الفتنة والبغضاء (٤) أى فى رغد ولين : وفى حديث الأحنف ابن قيس: نزلوا فى مثل حديقة البعير، أى فى خصب ورغد، شبهه بحدقة البعير لأنها ربا من الماء، قال ابن الأثير شبه بلادهم فى كثرة مائها وخصبها بالعين لأنها توصف بالنداوة وكثرة الماء ولأن المخ « النقى » لايبقى فى شىء من الأعضاء بقاءه فى العين فهو فيها دائم ثابت ــ ، « من » فى قوله « من ضيق العيش الخ » للبدل أو بمعنى بعد (٥) أى ضيقه وعسره وشدته (٦) لعلها من غير الدهر وهى أحداثه وأحواله المغيرة ، وتغير الشىء عن حاله : تحول، وغيره: حوله وبدله وجعله غير ما كان ، وفى التنزيل العزيز « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقد تكون فى الخطبة محرفة عن التقتير، وهو الضيق والرمقة من العيش والقلة فى النفقه (٧) كذا بالأصل والمطمح ، والواجب حذف الباء

سِيَاسَتِهِ إِلَى تَمْهِيدِ(١) كَنَفِ الْعَافِيَةِ بَعْدَ اسْتِيطَانِ الْبَلَاءِ ، أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ مَعَاشِرَ الْمَلَإِ : أَلَمْ تَكُنِ الدِّمَاءُ مَسْفُوكَةً(٢) فَحَقَنَهَا ، وَالسُّبُلُ مَخُوفَةً فَأَمَّنَهَا ، وَالْأَمْوَالُ مُنْتَهَبَةً فَأَحْرَزَهَا(٣) وَحَصَّنَهَا ، أَلَمْ تَكُنِ الْبِلَادُ خَرَابًا فَعَمَرَهَا ، وَثُغُورُ الْمُسْلِمِينَ مُهْتَضَمَةً(٤) فَحَمَاهَا وَنَصَرَهَا ؟ فَاذْكُرُوا آلَاءَ(٥) اللهِ عَلَيْكُمْ بِخِلَافَتِهِ ، (٦) وَتَلَافِيَهُ جَمْعَ كَلِمَتِكُمْ بَعْدَ افْتِرَاقِهَا بِإِمَامَتِهِ ، حَتَّى أَذْهَبَ اللهُ عَنْكُمْ غَيْظَكُمْ ، وَشَفَى صُدُورَكُمْ ، وَصِرْتُمْ يَدًا(٧) عَلَى عَدُوِّكُمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ

(١) مهد الفراش : وطأه وليّنه ، والكنف : الحرز والستر وحسن الولاية ، والظل « يقال هو يعيش فى كنف فلان أى فى ظله وحماه » ، والكنف : الجانب والناحية (٢) سفك الدم والدمع والماء : صبه وأراقه ، ومن المجاز : سفك الكلام اذا نثره من فيه بسرعة ، وحقنه « كضرب ونصر » حبسه وصانه وحفظه « يقال حقن دم فلان اذا أنقذه من القتل بعد ما وجب عليه » ، ومنع من اراقته وازهاق روحه ، أى جمعه وحبسه عليه (٣) أى صانها وحفظها وجعلها فى حرز حصين (٤) أى مغتصبة مقهورة ، ومنتقصة مظلومة (٥) أى نعمه ومننه (٦) وتلافيه : وتداركه (٧) أى قوة وجماعة وفى الحديث : « وهم يد على من سواهم » يعنى أن مثل المؤمنين مع كثرتهم فى وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضا وأن تختلف بها الجهات فى التصرف كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين

بَأْسُكُمْ(١) بَيْنَكُمْ ، فَأَنْشُدُكُمُ اللهَ أَلَمْ تَكُنْ خِلَافَتُهُ قُفْلَ الْفِتْنَةِ بَعْدَ انْطِلَاقِهَا مِنْ عِقَالِهَا ؟ أَلَمْ يَتَلَافَ(٢) صَلَاحَ الْأُمُورِ بِنَفْسِهِ بَعْدَ اضْطِرَابِ أَحْوَالِهَا ؟ وَلَمْ يَكِلْ ذَلِكَ إِلَى الْقُوَّادِ وَالْأَجْنَادِ ، حَتَّى بَاشَرَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْمُهْجَةِ(٣) وَالْأَوْلَادِ ، وَاعْتَزَلَ النِّسْوَانَ ، وَهَجَرَ الْأَوْطَانَ ، وَرَفَضَ الدَّعَةَ وَهِيَ مَحْبُوبَةٌ ، وَتَرَكَ الرُّكُونَ إِلَى الرَّاحَةِ وَهِيَ مَطْلُوبَةٌ ، بِطَوِيَّةٍ(٤) صَحِيحَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَرِيحَةٍ ، وَبَصِيرَةٍ(٥) ثَابِتَةٍ نَافِذَةٍ ثَاقِبَةٍ(٦) ، وَرِيحٍ هَابَّةٍ(٧) غَالِبَةٍ . وَنُصْرَةٍ مِنَ اللهِ وَاقِعَةٍ وَاجِبَةٍ(٨) ، وَسُلْطَانٍ قَاهِرٍ ، وَجَدٍّ ظَاهِرٍ ، وَسَيْفٍ مَنْصُورٍ ، تَحْتَ عَدْلٍ مَشْهُورٍ ، مُتَحَمِّلًا لِلنَّصَبِ ، مُسْتَقِلًّا لِمَا

لان كلمة التوحيد جامعة لهم واتفاق الأهواء مؤلف بين قلوبهم فهم مجتمعون على أعدائهم وأمرهم واحد (١) البأس : الشدة فى الحرب والعذاب الشديد (٢) أى يتداركه ويلحق (٣) أى النفس والروح (٤) أى نية وضمير (٥) البصيرة : قوة القلب المدركة ، والفطنة ، واليقين والمعرفة (٦) أى تخترق حجب الخفايا وظلم المشكلات وتنفذ الى ما وراءها ، وتكشف بنور ذكائها ما أخفى على غيرها (٧) من معانى الريح : القوة ، والغلبة والنصرة ، والدولة ، ويقال :

اذا هبت رياحك فاغتنمها   فان لكل عاصفة سكونا

(٨) أى لازمة ثابتة

نَالَهُ فِي جَانِبِ اللهِ مِنَ التَّعَبِ ، حَتَّى لَانَتِ الْأَحْوَالُ بَعْدَ شِدَّتِهَا ، وَانْكَسَرَتْ شَوْكَةُ الْفِتْنَةِ عِنْدَ حِدَّتِهَا ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا غَارِبٌ[1] إِلَّا جَبَّهُ ، وَلَا نَجَمَ[2] لِأَهْلِهَا قَرْنٌ إِلَّا جَذَّهُ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَةِ اللهِ إِخْوَانًا ، وَبِلَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِشَمْلِكُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ أَعْوَانًا ، حَتَّى تَوَاتَرَتْ[3] لَدَيْكُمُ الْفُتُوحَاتُ ، وَفَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِخِلَافَتِهِ أَبْوَابَ الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ ، وَصَارَتْ وُفُودُ الرُّومِ وَافِدَةً عَلَيْهِ وَعَلَيْكُمْ ، وَآمَالُ الْأَقْصَيْنَ وَالْأَدْنَيْنَ مُسْتَخْدَمَةً إِلَيْهِ وَإِلَيْكُمْ ، يَأْتُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ[4] عَمِيقٍ ، وَبَلَدٍ سَحِيقٍ ، لِأَخْذِ حَبْلٍ[5] بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا « لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ » وَلِهَذَا الْأَمْرِ مَا بَعْدَهُ[6] ،

---

(١) غارب كل شيء : أعلاه . وجبه : قطعه وأزاله (٢) نجم الشيء : ظهر وطلع ، ومنه نجوم النبات والقرن والكوكب والناب . وفي الأصل نجح وهو تحريف . وجذ الشيء : قطعه (٣) أي تتابعت وتوالت (٤) الفج : الطريق الواسع الواضح بين جبلين في قبل جبل ، وهو أوسع من الشعب ، وعميق بعيد ، وكذلك السحيق النائي (٥) يطلق الحبل مجازا على العهد والميثاق . والصلة : الرابطة (٦) كناية عن عظيم خطره وشأنه ووجوب الاهتمام والعناية به والتفكير فيه

وَتِلْكَ أَسْبَابٌ ظَاهِرَةٌ بَادِيَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى أُمُورٍ بَاطِنَةٍ خَافِيَةٍ ، دَلِيلُهَا قَائِمٌ ، وَجَفْنُهَا غَيْرُ نَائِمٍ « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الآيَةَ . وَلَيْسَ فِي تَصْدِيقِ مَا وَعَدَ اللَّهُ ارْتِيَابٌ « وَلِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ »(١) وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ «فَاحْمَدُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى آلائِهِ ، وَاسْأَلُوهُ الْمَزِيدَ مِنْ نَعْمَائِهِ ، فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ بِخِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ـ أَيَّدَهُ اللَّهُ بِالْعِصْمَةِ وَالسَّدَادِ ، وَأَلْهَمَهُ خَالِصَ التَّوْفِيقِ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ـ أَحْسَنَ النَّاسِ حَالًا ، وَأَنْعَمَهُمْ(٢) بَالًا ، وَأَعَزَّهُمْ قَرَارًا ، وَأَمْنَعَهُمْ دَارًا ، وَأَكْثَفَهُمْ(٣) جَمْعًا ، وَأَجْمَلَهُمْ صُنْعًا ، لَا تُهَاجُونَ(٤) وَلَا تُذَادُونَ ، وَأَنْتُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى أَعْدَائِكُمْ

---

(١) قوله تعالى : «ولكل نبأ مستقر» أي لكل ما أنبأتكم به من الله عز وجل ـ غاية ونهاية ترونه في الدنيا والآخرة (٢) كناية عن الدعة وراحة القلب ورخاء الحال والهدوء والاطمئنان . والبال : الخاطر ، والحال التي ينطوي عليه الانسان (٣) أي أكثرهم . والكثف : الجماعة . والكثافة : الكثرة والالتفاف (٤) هاجه : أثاره وأفزعه وأقلقه من مأمنه . وهاج الابل اذا حركها . ويقال : هاج هائجه : اذا اشتد غضبه وثار ، وهدأ هائجه : سكنت فورته وحدته . وذاده : دفعه وصده ومنعه

ظَاهِرُونَ ، فَاسْتَعِينُوا عَلَى صَلَاحِ أَحْوَالِكُمْ بِالْمُنَاصَحَةِ لِإِمَامِكُمْ ، وَالْتِزَامِ الطَّاعَةِ لِخَلِيفَتِكُمْ وَابْنِ عَمِّ نَبِيِّكُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . فَإِنَّ مَنْ نَزَعَ يَدًا مِنَ الطَّاعَةِ وَسَعَى فِي تَفْرِيقِ الْجَمَاعَةِ ، وَمَرَقَ(١) مِنَ الدِّينِ ، فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ فِي التَّعَلُّقِ بِعِصْمَتِهَا(٢) ، وَالتَّمَسُّكِ بِعُرْوَتِهَا ، حِفْظَ الْأَمْوَالِ وَحَقْنَ الدِّمَاءِ ، وَصَلَاحَ الْخَاصَّةِ وَالدَّهْمَاءِ(٣) ، وَأَنَّ بِقِوَامِ الطَّاعَةِ تُقَامُ الْحُدُودُ ، وَتُوَفَّى الْعُهُودُ ، وَبِهَا وُصِلَتِ الْأَرْحَامُ وَوَضَحَتِ الْأَحْكَامُ ، وَبِهَا سَدَّ اللَّهُ الْخَلَلَ ، وَأَمَّنَ السُّبُلَ ، وَوَطَّأَ الْأَكْنَافَ ، وَرَفَعَ الِاخْتِلَافَ ، وَبِهَا طَابَ لَكُمُ الْقَرَارُ ، وَاطْمَأَنَّتْ بِكُمُ الدَّارُ ، فَاعْتَصِمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِالِاعْتِصَامِ بِهِ ، فَإِنَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُولُ : « أَطِيعُوا اللَّهَ

---

(١) مرق : خرج . وفي الحديث وذكر الخوارج : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » أي يجوزونه ويخرقونه ويتعدونه كما يخرق السهم المرمي به ويخرج منه (٢) أصل العصمة الحبل والسبب وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه، والعصمة : المنع والربط والوقاية (٣) أي جماعة الناس والعدد الكثير والسواد الأعظم منهم.

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » الآيَةَ . وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَحَاطَ بِكُمْ فِي جَزِيرَتِكُمْ هٰذِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْمُشْرِكِينَ ، وَصُنُوفِ الْمُلْحِدِينَ ، السَّاعِينَ فِي شَقِّ[1] عَصَاكُمْ ، وَتَفْرِيقِ مَلَاكُمْ[2] الْآخِذِينَ فِي مُخَاذَلَةِ دِينِكُمْ ، وَهَتْكِ[3] حَرِيمِكُمْ ، وَتَوْهِينِ دَعْوَةِ نَبِيِّكُمْ ـ صَلَوَاتُ اللّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ـ أَقُولُ قَوْلِي هٰذَا وَأَخْتِمُ بِالْحَمْدِ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، مُسْتَغْفِرًا اللّٰهَ الْغَفُورَ الرَّحِيمَ ، فَهُوَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

***

منذر بن سعيد وَسَاقَ ابْنُ سَعِيدٍ فِي الْمُغْرِبِ هٰذِهِ الْحِكَايَةَ فَقَالَ مَا صُورَتُهُ : مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ الْبَلُّوطِيُّ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ ، خَطِيبٌ مِصْقَعٌ[4] ، وَلَهُ كُتُبٌ مُؤَلَّفَةٌ

(١) أى تفريق جماعتكم وتشتيت ائتلافكم. والعصا: الجماعة (٢) الملأ: الجماعة والقوم ذوو الشارة والتجمع للادارة ، وقد يطلق على الأشراف من القوم ووجوههم ورؤسائهم ومقدميهم الذين يرجع الى قولهم (٣) حريم الرجل وحرمه : مايحميه ويقاتل عنه (٤) مصقع : بليغ ماهر فى خطبته مأخوذ من قول ابن الأعرابى : الصقع: البلاغة فى الكلام والوقوع على المعانى ، والمصقع: العالى الصوت ، من الصقع وهو رفع الصوت ومتابعته ، أومن لايرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع ، قال قيس بن عاصم المنقرى :

فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلسُّنَّةِ وَٱلْوَرَعِ ، وَٱلرَّدُّ عَلَى أَهْلِ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلْبِدَعِ ، شَاعِرٌ بَلِيغٌ ، وُلِدَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَوَّلُ سَبَبِهِ فِي ٱلتَّعَلُّقِ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ ، لَمَّا ٱحْتَفَلَ لِدُخُولِ رَسُولِ مَلِكِ ٱلرُّومِ صَاحِبِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ بِقَصْرِ قُرْطُبَةَ ٱلِاحْتِفَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَهَرَ ذِكْرُهُ ، أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ ٱلْخُطَبَاءُ وَٱلشُّعَرَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِذِكْرِ جَلَالَةِ مَقْعَدِهِ ، وَوَصْفِ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ تَوْطِيدِ ٱلْخِلَافَةِ ، وَرَمْيِ مُلُوكِ ٱلْأُمَمِ بِسِهَامِ بَأْسِهِ وَنَجْدَتِهِ ، وَتَقَدَّمَهُ (١) إِلَى ٱلْأَمِيرِ ٱلْحَكَمِ ٱبْنِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ بِإِعْدَادِ مَنْ يَقُومُ لِذَلِكَ مِنَ ٱلْخُطَبَاءِ ، وَيُقَدِّمُهُ أَمَامَ إِنْشَادِ ٱلشُّعَرَاءِ ، فَتَقَدَّمَ (٢) ٱلْحَكَمُ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ ٱلْبَغْدَادِيِّ ضَيْفِ ٱلْخَلِيفَةِ وَأَمِيرِ ٱلْكَلَامِ وَبَحْرِ ٱللُّغَةِ أَنْ يَقُومَ ، فَقَامَ وَحَمِدَ ٱللهَ

خطباء حين يقوم قائلنا   بيض الوجوه مصاقع لسن

وقيل ان المصقع صيغة مبالغة من صقع الديك اذا صاح و رفع صوته ، لرفع صوته فى التبليغ ، أو من الصقع وهو جانب الشئ لأن الخطيب القادر يأخذ فى كل جانب من الكلام ، ويذهب فيه كل ناحية اه . « أحمد نجاتى » .

(١) لعلها : وتقدم (٢) تقدم اليه فى كذا اذا أمره وأوصاه به

وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ انْقَطَعَ وَبُهِتَ فَمَا وَصَلَ وَلَا قَطَعَ، وَوَقَفَ سَاكِتًا مُفَكِّرًا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَامَ قَائِمًا بِدَرَجَةٍ مِنْ مِرْقَاةِ أَبِي عَلِيٍّ، وَوَصَلَ افْتِتَاحَهُ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ، بَهَرَ الْعُقُولَ جَزَالَةً[1]، وَمَلَأَ الْأَسْمَاعَ جَلَالَةً. ثُمَّ ذَكَرَ الْخُطْبَةَ كَمَا سَبَقَ، وَقَالَ بَعْدَ إِيرَادِهَا مَا صُورَتُهُ: فَصَلَّبَ[2] الْعِلْجُ، وَغُلِبَ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ: هَذَا كَبِيرُ الْقَوْمِ أَوْ كَبْشُ الْقَوْمِ. وَخَرَجَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ حُسْنِ مَقَامِهِ[3]، وَثَبَاتِ جَنَانِهِ، وَبَلَاغَةِ لِسَانِهِ. وَكَانَ النَّاصِرُ أَشَدَّهُمْ تَعَجُّبًا مِنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى ابْنِهِ الْحَكَمِ - وَلَمْ يَكُنْ يُثْبِتُ مَعْرِفَتَهُ - فَسَأَلَهُ عَنْهُ،

(١) الجزل من الكلام: المتين الجيد والقوى الشديد خلاف الركيك
(٢) ذلك امارة تعظيم واجلال، ويقال ثوب مصلب أى فيه نقش كالصليب. وفى خبر مقتل سيدنا عمر أن ابنه عبد الله رضى الله عنهما خرج فضرب جفنى الأعجمى فصلب بين عينيه أى ضربه حتى صارت الضربة كالصليب، وصلب الحلو اذا جعل عليها صليبين (٣) المقام فى الأصل اسم لموضع القيام ثم سمى به المكان والمجلس والموقف ثم توسعوا فسموا مايقام به فى المجلس من خطبة أو موعظة ونحوها مقامة ومقاما، يكونان المكان والفعل.

فَقَالَ لَهُ : هٰذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ الْبَلُّوطِي(١) ، فَقَالَ : وَاللهِ لَقَدْ أَحْسَنَ مَاشَاءَ ، وَلَئِنْ أَخَّرَنِي اللهُ بَعْدُ لَأَرْفَعَنَّ مِنْ ذِكْرِهِ ، فَضَعْ يَدَكَ يَاحَكَمُ عَلَيْهِ وَاسْتَخْلِصْهُ(٢) ، وَذَكِّرْنِي بِشَأْنِهِ فَمَا لِلصَّنِيعَةِ مَذْهَبٌ عَنْهُ . ثُمَّ وَلَّاهُ الصَّلَاةَ وَالْخَطَابَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالزَّهْرَاءِ ، ثُمَّ تُوُفِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى(٣) الْقَاضِي فَوَلَّاهُ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ وَأَقَرَّهُ عَلَى الصَّلَاةِ بِالزَّهْرَاءِ . وَمِنْ شِعْرِهِ فِي هٰذِهِ الْوَاقِعَةِ قَوْلُهُ :

مَقَالٍ كَحَدِّ السَّيْفِ وَسْطَ الْمَحَافِلِ
فَرَقْتُ بِهِ مَا بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلِ
بِقَلْبٍ ذَكِيٍّ(٤) تَرْتَمِي جَمَرَاتُهُ
كَبَارِقِ رَعْدٍ عِنْدَ رَعْشِ الْأَنَامِلِ

(٤) منسوب الى موضع هناك قريب من قرطبة يقال له فحص البلوط وكان يسكنه البربر (٢) استخلصه لنفسه وأخلصه اذا استخصه وقربه (٣) هو الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن يحيي بن يحيي الليثي، ولي قضاء الجماعة بقرطبة ، وله رحلة الى المشرق. وكان فقيها جليلا عالما موصوفا بالعقل والدين والعدل ومن أهل الأدب والشعر والمروءة والظرف ، وكان شديدا فى الحق واقامة الحدود لاتلحقه فى ذلك هوادة ولاتأخذه فيه لومة لائم . وتوفى سنة ٣٣٩ (٤) الذكاء : سرعة الفطنة وحدة

فَمَا دَحَضَتْ(١) رِجْلِي وَلَا زَلَّ مِقْوَلِي

وَلَا طَاشَ(٢) عَقْلِي يَوْمَ تِلْكَ الزَّلَازِلِ(٣)

وَقَدْ حَدَّقَتْ حَوْلِي عُيُونٌ إِخَالُهَا(٤)

كَمِثْلِ سِهَامٍ أُثْبِتَتْ فِي الْمَقَاتِلِ

لِخَيْرِ إِمَامٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ

لِمُقْتَبَلٍ أَوْ فِي الْعُصُورِ الْأَوَائِلِ

الفؤاد بقوة ادراكه وسرعة فهمه . والذكاء : سرعة اقتراح النتائج ، من ذكت النار اذا اشتعلت واشتد لهبها ، والذكوة الجمرة الملتهبة ، وقال بعض المادحين :

لولم يجل ماء الندى فيه لأحرقه ذكاؤه

(١) دحضت رجله : زلقت ، وفي حديث وفد مذحج : « نجباء غير دحض الأقدام » ، الدحض : جمع داحض : وهم الذين لاثبات لهم ولا عزيمة في الأمور . والمقول: اللسان (٢) الطيش : النزق وخفة العقل وذهابه حتى يجهل صاحبه مايحاول وطاش اذا خف بعد رزانته ، وطاش السهم عن الهدف اذا تجاوزه وعدل عنه ولم يقصد الرمية . وفي المطبوع طار بدل طاش ، ويقال فيه طيرة ، أي خفة وطيش ، وهو ساكن الطائر أي وقور لا حركة له (٣) في المطبوع « البلابل » جمع بلبال وهو شدة الهم والوساوس في الصدر (٤) في المطبوع « أجلها » مع تقديم البيت الذي بعده على هذا البيت ضمير أجلها عائد على الامام الناصر ، يعني أنه جعل عيون الحفل تجول في المجلس وتدور زائغة حول ما فيه .

تَرَى ٱلنَّاسَ أَفْوَاجًا يَؤُمُّونَ بَابَهُ
وَكُلُّهُمُ مَا بَيْنَ رَاجٍ وَآمِلِ
وَفُودُ مُلُوكِ ٱلرُّومِ وَسْطَ فِنَائِهِ[١]
مَخَافَةَ بَأْسٍ أَوْ رَجَاءَ لِنَائِلِ[٢]
فَعِشْ سَالِمًا أَقْصَى حَيَاةٍ مُؤَمَّلًا
فَأَنْتَ رَجَاءُ ٱلْكُلِّ حَافٍ[٣] وَنَاعِلِ
سَتَمْلِكُهَا مَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ
إِلَى دَرْبِ قُسْطَنْطِينَ أَوْ أَرْضِ بَابِلِ

ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ سَعِيدٍ، وَهُوَ يُؤَيِّدُ كَلَامَ ٱبْنِ خَلْدُونَ أَنَّ ٱلْمَأْمُورَ بِٱلْخُطْبَةِ هُوَ ٱلْقَالِي.

***

اعجاب الناصر بخطبة المنذر ابن سعيد

وَذُكِرَ أَنَّ ٱلنَّاصِرَ قَالَ لِٱبْنِهِ ٱلْحَكَمِ بَعْدَ أَنْ سَأَلَهُ عَنْهُ: لَقَدْ أَحْسَنَ مَا شَاءَ، فَلَئِنْ كَانَ حَبَّرَ[٤] خُطْبَتَهُ هٰذِهِ وَأَعَدَّهَا مَخَافَةَ أَنْ يَدُورَ مَا دَارَ

(١) فناء الدار: ما اتسع من أمامها وامتد من جوانبها (٢) أي عطاء وجود
(٣) وفي المطمح: «فأنت رجاء كل حاف وناعل» وهو أولى لغة وإن كان يلزم عليه قبض مفاعيلن الأولى وهو قليل عروضا (٤) تحبير الكلام والشعر والخط: تحسينه وتبيينه والتنميق فيه، من الحبر وهو الحسن والبهاء والوشي وأثر النعمة

فَيَتَلَافَى ٱلْوَهْيَ فَإِنَّهُ لَبَدِيعٌ مِنْ قُدْرَتِهِ وَٱحْتِيَاطِهِ ، وَلَئِنْ كَانَ أَتَى بِهَا عَلَى ٱلْبَدِيهَةِ(١) لِوَقْتِهِ فَإِنَّهُ لَأَعْجَبُ وَأَغْرَبُ .

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : وَلَمَّا فَرَغَ مُنْذِرٌ مِنْ خُطْبَتِهِ أَنْشَدَ :

هٰـذَا ٱلْمَقَامُ(٢) ٱلَّذِي مَا عَابَهُ فَنَدٌ
لٰـكِنَّ قَائِلَهُ(٣) أَزْرَى بِهِ ٱلْبَلَدُ
لَوْ كُنْتُ فِيهِمْ غَرِيباً كُنْتُ مُطَّرَفاً(٤)
لٰـكِنَّنِي مِنْهُمُ فَاغْتَالَنِي ٱلنَّـكَدُ

وَيُرْوَى بَدَلَ هٰذَا ٱلشَّطْرِ :

* وَلَا دَهَانِي لَهُمْ بَغْيٌ وَلَا حَسَدُ *

لَوْلَا ٱلْخِـلَافَةُ ـ أَبْقَى ٱللّٰهُ حُرْمَتَهَا ـ
مَا كُنْتُ أَرْضَى بِأَرْضٍ مَا بِهَا أَحَدُ(٥)

---

(١) أى القول بلا روية وتفكر ، والارتجال أسرع من البديهة ، والروية بعدهما ـ وبدهه بالأمر : استقبله به مفاجأة (٢) الذى فى الطمح للقال ـ والفند : الخطأ فى القول والرأى ، والكذب ، والخرف وانكار العقل لهم أو مرض ـ وفنده : كذبه وعجزه وخطأ رأيه وضعفه (٣) فى الطمح : صاحبه ، وأزرى به : عابه وحط من شأنه ، ويشير البيت الى معنى قولهم : زامر الحى لايطرب (٤) أى مختارا محمودا طريفا ، وتطرف الشيء : اختاره واصطفاه ، وأصل مطرف متطرف فأبدلت التاء طاء وأدغمت

(٥) يشير الى قول أبى فراس :

انتهى . قُلْتُ : كَأَنَّهُ عَرَّضَ بِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْقَالِي وَتَقْدِيمِهِمْ إِيَّاهُ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ . وَٱللهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ نَظْمِ مُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ قَوْلُهُ :

ٱلْمَوْتُ حَوْضٌ وَكُلُّنَا نَرِدُ
لَمْ يَنْجُ مِمَّا يَخَافُهُ أَحَدُ
فَلَا تَكُنْ مُغْرَمًا بِرِزْقِ غَدٍ
فَلَسْتَ تَدْرِي بِمَا يَجِيءُ غَدُ
وَخُذْ مِنَ ٱلدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ
وَيَسْلَمُ ٱلرُّوحُ مِنْكَ وَٱلْجَسَدُ(١)
وَٱلْخَيْرُ وَٱلشَّرُّ لَا تُذِعْهُ فَمَا
فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا ٱلتَّشْنِيعُ وَٱلْحَسَدُ(٢)

ملأ كثرالناس لابل ماأقلهم ... الله يعلم أنى لم أقل فندا
انى لأفتح عينى حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

(١) من قول الأول :

وخذ من الدهر ماأتاك به ... من قر عينا بعيشه نفعه

(٢) كأنه يشير الى معنى قول بعضهم :

لاتظهرن لعاذل أو عاذر ... حاليك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين حرارة ... فى القلب مثل شماتة الأعداء

وَلَهُ ، وَقَدْ آذَاهُ شَخْصٌ فَخَاطَبَهُ بِالْكُنْيَةِ فَقِيلَ لَهُ :
أَيُؤْذِيكَ وَأَنْتَ تُخَاطِبُهُ بِالْكُنْيَةِ[1]؟ فَقَالَ :

لَا تَعْجَبُوا مِنْ أَنَّنِي كَنَّيْتُهُ　　مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ سَبَّنَا وَأَذَانَا
فَاللَّهُ قَدْ كَنَّى أَبَا لَهَبٍ وَمَا　　كَنَّاهُ إِلَّا خِزْيَةً وَهَوَانَا

***

من تاريخ منذر ابن سعيد

وَقَالَ فِي الْمَطْمَحِ : مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ الْبَلُّوطِيُّ آيَةُ حَرَكَةٍ[2] وَسُكُونٍ، وَبَرَكَةٍ لَمْ تَكُنْ مُعَدَّةً وَلَا تَكُونُ ، وَآيَةُ سَفَاهَةٍ[3]

---

(١) الكنية في الأصل لفظ يطلق على الشخص للتعظيم والتوقير ، وقد تقوم مقام الاسم فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه كأبي لهب واسمه عبدالعزى ، عرف بكنيته فسماه الله بها ، وقد يدعى المرء بكنيته ليكون ذلك كناية عن معنى تصلح الكنية له بحسب معناها الأصلي قبل أن تكون اسماعلما نحو «تبت يدا أبي لهب» كناية عن كونه من أهل جهنم لأنه ملابس اللهب وصاحب النار ، فإن معنى أبي لهب بالنظر الى الوضع الأول ذات ملازمة النار بل من تتولد منه النار لأنه وقود لها ـ هذا وقد كانت الكنى في الأندلس مشهورة كأنها أعلام فلكل رجل من فضلائها كنية لايكاد يعرف الا بها (٢) في المطمح : في سكون (٣) السفاهة والسفه: نقيض الحلم ، والغرض أن المنذر كان يضع الحلم في موضعه والجهل في موضعه ولا غرو فقد قال الشاعر الحكيم :

لئن كنت محتاجا الى الحلم انني　　الى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم　　ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

فِي تَحَلُّمٍ ، وَجَهَامَةٍ [١] وَرَعٍ فِي طَيِّ تَبَسُّمٍ ، إِذَا جَدَّ وَجَدَ [٢] ، وَإِذَا هَزَلَ نَزَلَ ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لَمْ يَنْزِلْ لِلْوَرَعِ مِنْ مَرْقَبٍ [٣] ، وَلَا اكْتَسَبَ إِثْمًا وَلَا احْتَقَبَ [٤] ، وَلِيَ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَنَاهِيكَ [٥] مِنْ عَدْلٍ أَظْهَرَ ، وَمِنْ فَضْلٍ أَشْهَرَ [٦]

فمن رام تقويمى فانى مقوم ومن رام تعويجى فانى معوج

وقال الأول :

أحلامنا تزن الجبال رزانة ويزيد جاهلنا على الجهال

والمرء الحازم يلبس لكل حال لبوسها فهو :

جهول اذا أزرى التحلم بالفتى حليم اذا أزرى بذى الحسب الجهل

فكالسيف ان لاينته لان متنه وحداه ان خاشنته خشنان

(١) جهم جهامة وجهومة وجهمه « كمنعه وسمعه » وتجهمه : اذا استقبله بوجه باسر كريه مكفهر وأن يغلظ له فى القول — والدهر يتجهم الكرام

(٢) فى المطمح : تجرد « وهوأظهر » من جرد السيف من غمده فتجرد اذا استله ، وتجرد لأمره اذا جد فيه ، فهو كقول الطغرائى :

حلو الفكاهة مرالجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

وماأعدلقول بعض الأدباء :

عندى انقباض وحشمة فاذا لاقيت أهل السماح والكرم

أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ماقلت غير محتشم

(٣) المرقب والمرقبة : الموضع المرتفع المشرف يعلوه المرء ليرقب منه مايريد مراقبته ومراعاته ، وما أوفيت عليه من علم أو رابية لتنظر من بعد

(٤) يقال : احتقب فلان الاثم اذا جمعه واحتمله (٥) وناهيك الخ : أى حسبك وكافيك . وهو تعجب (٦) فى المطمح : اشتهر .

وَمِنْ جَوْرٍ قَبَضَ[١]، وَمِنْ حَقٍّ رَفَعَ، وَمِنْ بَاطِلٍ خَفَضَ، وَكَانَ مَهِيبًا صَلِيبًا صَارِمًا، غَيْرَ جَبَانٍ وَلَا عَاجِزٍ وَلَا مُرَاقِبٍ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ فِي اسْتِخْرَاجِ حَقٍّ وَرَفْعِ ظُلْمٍ، وَاسْتَمَرَّ فِي الْقَضَاءِ إِلَى أَنْ مَاتَ النَّاصِرُ لِدِينِ اللهِ، ثُمَّ وَلِيَ ابْنُهُ الْحَكَمُ فَأَقَرَّهُ، وَفِي خِلَافَتِهِ اسْتَعْفَى مِرَارًا فَمَا أُعْفِيَ[٢]، وَتُوُفِّيَ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ مُدَّةَ وِلَايَتِهِ قَضِيَّةُ جَوْرٍ، وَلَا عُدَّتْ عَلَيْهِ فِي حُكُومَتِهِ زَلَّةٌ، وَكَانَ غَزِيرَ الْعِلْمِ، كَثِيرَ الْأَدَبِ، مُتَكَلِّمًا بِالْحَقِّ، مُتَبَيِّنًا بِالصِّدْقِ، لَهُ كُتُبٌ مُؤَلَّفَةٌ فِي السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ وَالْوَرَعِ وَالرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ، وَكَانَ خَطِيبًا بَلِيغًا وَشَاعِرًا مُحْسِنًا، وُلِدَ عِنْدَ وِلَايَةِ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ[٣] وَتُوُفِّيَ سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ[٤]. وَمِنْ شِعْرِهِ فِي الزُّهْدِ قَوْلُهُ:

كَمْ تَصَابَى[٥] وَقَدْ عَلَاكَ الْمَشِيبُ

وَتَعَامَى[٦] عَمْدًا وَأَنْتَ اللَّبِيبُ؟

---

(١) قبض: منع وأزال. (٢) في المطمح: وفي خلافته توفي، بعد أن استعفى مرارا فما أعفي (٣) أي في سنة ٢٧٣ (٤) في المطمح ٣٣٥ وما هنا هو الصواب (٥) تصابى الكبير: مال إلى اللهو والصبو وعمل عمل الصبا (٦) تعامى: تتغافل حتى كأنك أعمى لا تبصر رشدك

كَيْفَ تَلْهُــو وَقَدْ أَتَاكَ نَذِيرُ
أَنْ سَيَأْتِي الْحِمَامُ (١) مِنْكَ قَرِيبُ؟
يَاسَقِيماً قَدْ حَانَ مِنْــهُ رَحِيــلٌ
بَعْدَ ذَاكَ الرَّحِيلِ يَوْمٌ عَصِيبُ (٢)
إِنَّ لِلْمَوْتِ سَــكْرَةً فَارْتَقِبْهَا
لَا يُدَاوِي إِذَا أَتَتْكَ طَبِيبُ (٣)
كَمْ تَوَانَى (٤) حَتَّى تَصِيرَ رَهِيناً
ثُمَّ تَأْتِيــكَ دَعْوَةٌ فَتُجِيبُ؟
بِأُمُــورِ الْمَعَادِ أَنْتَ عَلِيمٌ
فَاعْمَلَنْ جَاهِداً لَهُ يَا رَبِيبُ (٥)

---

(١) الحمام بالكسر : قضاء الموت وقدره ، من قولهم حم كذا أى قدر ، وفى المطمح : أن يوم الحمام منك قريب (٢) أى شديد ، وأظنه من العصب وهو جفاف الريق ويبسه فى الفم (٣) فى المطمح : لايداويك ان أتتك طبيب (٤) توانى : أى تقصر ، وكل ما احتبس به شىء فهو رهينه كما أن الانسان رهين عمله ، ومنه قوله تعالى : « كل امرىء بما كسب رهين » أى يحبس بعمله — و يقال هو رهن بكذا ورهين ورهينة أى لازم له لاينفك عنه ، والخلق رهائن الموت ، والناس رهن المنية (٥) الربيب : المربوب ، من ربه اذا أصلحه وساسه ورباه وأحسن القيام عليه ، أى يامن

وَتَذَكَّرْ يَوْمًا تُحَاسَبُ فِيهِ
إِنَّ مَنْ يَذَّكِرْ فَسَوْفَ يُنِيبُ (١)
لَيْسَ مِنْ سَاعَةٍ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا
لِلْمَنَايَا بِهَا عَلَيْكَ رَقِيبُ
وَلَعَلَّنَا نَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ مُنْذِرٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ

***

« رَجْعٌ لِأَخْبَارِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ » حُكِيَ أَنَّهُ لَمَّا أَعْذَرَ(٢) لِأَوْلَادِ ابْنِهِ أَبِي مَرْوَانَ عُبَيْدِ اللهِ اتَّخَذَ لِذَلِكَ صَنِيعًا عَظِيمًا بِقَصْرِ الزَّهْرَاءِ لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُنْذَرَ(٣) لِشُهُودِهِ الْفُقَهَاءُ الْمُشَاوَرُونَ وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعُدُولِ وَوُجُوهِ من أخبار الناصر

ربا كمولاك وكان الله جل وعلا — ربا مالكا ومدبرا مصلحا ، والعباد مربوبون لله تعالى أى مملوكون ، ورب المعروف والصنيعة والنعمة : نماها وأتمها وزادها وأصلحها (١) أى يتوب ويرجع الى الله تعالى مطيعا له ويقبل عليه راجيا رحمته وخاشيا عذابه (٢) أعذر القوم : اذا عمل لهم طعام الختان وأعده ، وذلك الطعام هو العذار والاعذار والعذيرة والعذير ، وأصل الاعذار الختان ثم استعمل فى الطعام الذى يصنع فيه والوليمة التى تعمل له (٣) أى أن يعلم ويخبر — وأصل الانذار الابلاغ فى أمر مخوف ، وقد يستعمل فى مطلق الابلاغ ولا سيما الأمور الرسمية ، كأن من تخلف عنها يكون ملوما فهو ينذر بها

ٱلنَّاسِ ، فَتَخَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمُ ٱلْمُشَاوَرُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ (١) وَٱفْتُقِدَ مَكَانُهُ لِارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ ، فَسَأَلَ فِى ذَٰلِكَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلنَّاصِرُ ، إِذْ أَبُو إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ ٱلْمَالِكِيَّةِ ٱلَّذِينَ عَلَيْهِمُ ٱلْمَدَارُ ، وَوَجَدَ (٢) ٱلنَّاصِرُ بِسَبَبِ ذَٰلِكَ عَلَى أَبِى إِبْرَاهِيمَ ، وَأَمَرَ ٱبْنَهُ وَلِىَّ ٱلْعَهْدِ ٱلْحَكَمَ بِٱلْكِتَابِ إِلَيْهِ وَٱلتَّفْنِيدِ (٣) لَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْحَكَمُ رُقْعَةً نُسْخَتُهَا :

***

خطاب الناصر الى أبى ابراهيم

« بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حَفِظَكَ ٱللَّهُ وَتَوَلَّاكَ ، وَسَدَّدَكَ وَرَعَاكَ ، لَمَّا ٱمْتَحَنَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَوْلَاىَ وَسَيِّدِى — أَبْقَاهُ ٱللَّهُ — ٱلْأَوْلِيَاءَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعِدُّ بِهِمْ (٤) وَجَدَكَ

---

(١) هو الفقيه اسحق بن ابراهيم بن مسرة من أهل قرطبة ، وأصله من طليطلة وهو من موالى بعض أهلها ، كان حافظا الفقه على مذهب الامام مالك متقدما فيه ، وكان مشاورا فى الأحكام صدرا فى الفتيا وقورا مهيبا توفى بطليطلة سنة ٣٥٢ وكان قد خرج غازيا مع المستنصر بالله وسنه يومئذ خمس وسبعون سنة (٢) أى غضب (٣) أى اللوم وتخطئته فى رأيه فى التأخر

(٤) يجوز أن تكون محرفة عن « يستعدبهم » أى يستعين بهم ويستنصرهم ويتقوى بهم على مخالفيه

مُتَقَدِّمًا فِي الْوِلَايَةِ، مُتَأَخِّرًا عَنِ الصِّلَةِ(١)، عَلَى أَنَّهُ قَدْ أَنْذَرَكَ - أَبْقَاهُ اللَّهُ - خُصُوصًا لِلْمُشَارَكَةِ فِي السُّرُورِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ - لَا أَعْدَمَهُ اللَّهُ تَوَالِيَ الْمَسَرَّةِ - ثُمَّ أُنْذِرْتَ مِنْ قَبْلُ إِبْلَاغًا فِي التَّكْرِمَةِ، فَكَانَ مِنْكَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّخَلُّفِ مَا ضَاقَتْ عَلَيْكَ فِيهِ الْمَعْذِرَةُ، وَاسْتَبْلَغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي إِنْكَارِهِ وَمُعَاتَبَتِكَ عَلَيْهِ، فَأَعْيَتْ عَلَيْكَ(٢) عَنْكَ الْحُجَّةُ، فَعَرِّفْنِي - أَكْرَمَكَ اللَّهُ -، مَا الْعُذْرُ الَّذِي أَوْجَبَ تَوَقُّفَكَ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ، وَمُشَاهَدَةِ السُّرُورِ الَّذِي سُرَّ بِهِ، وَرَغِبَ الْمُشَارَكَةَ فِيهِ؟ لِنُعَرِّفَهُ - أَبْقَاهُ اللَّهُ - بِذَلِكَ فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ الْعَزِيزَةُ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ».

***

رد أبي ابراهيم الى الناصر

فَأَجَابَهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ: « سَلَامٌ عَلَى الْأَمِيرِ سَيِّدِي وَرَحْمَةُ اللَّهِ، قَرَأْتُ - أَبْقَى اللَّهُ الْأَمِيرَ سَيِّدِي - هَذَا الْكِتَابَ

(١) يشهد له بولائه ومحبته وينكر عليه انقطاعه وقلة اتصاله به والتشرف بزيارته

(٢) لعلها : علينا ، يعنى أن أمير المؤمنين اشتد فى انكاره هذا التخلف وفى لومك عليه وأردنا أن نعتذر عنك فلم نجد عذرا مقبولا ولا حجة بالنة لأنه لا شئ ينبغى أن يعوقك عن اجابة دعوته بالغا مابلغ

وَفَهِمْتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ تَوَقُّفِي لِنَفْسِي، إِنَّمَا كَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدِنَا — أَبْقَى اللهُ سُلْطَانَهُ — لِعِلْمِي بِمَذْهَبِهِ وَسُكُونِي إِلَى تَقْوَاهُ، وَاقْتِفَائِهِ لِأَثَرِ سَلَفِهِ الطَّيِّبِ — رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ — فَإِنَّهُمْ يَسْتَبْقُونَ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ بَقِيَّةً لَا يَمْتَهِنُونَهَا[1] بِمَا يَشِينُهَا، وَلَا بِمَا يَغُضُّ[2] مِنْهَا وَيَطْرُقُ إِلَى تَنْقِيصِهَا[3]، يَسْتَعِدُّونَ بِهَا لِدِينِهِمْ، وَيَتَزَيَّنُونَ بِهَا عِنْدَ رَعَايَاهُمْ وَمَنْ يَفِدُ عَلَيْهِمْ مِنْ قُصَّادِهِمْ، فَلِهَذَا تَخَلَّفْتُ، وَلِعِلْمِي بِمَذْهَبِهِ تَوَقَّفْتُ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى». فَلَمَّا أَقْرَأَ الْحَكَمُ أَبَاهُ النَّاصِرَ لِدِينِ اللهِ جَوَابَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ إِسْحَقَ أَعْجَبَهُ وَاسْتَحْسَنَ اعْتِذَارَهُ، وَزَالَ مَا بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ.

٭٭٭

رسالة الحكم إلى الفقيه أبي ابراهيم المذكور

وَكَانَ الْفَقِيهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْمَذْكُورُ مُعَظَّمًا عِنْدَ النَّاصِرِ وَابْنِهِ الْحَكَمِ، وَحَقٌّ لَهُمَا أَنْ يُعَظِّمَاهُ، وَقَدْ حَكَى الْفَقِيهُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ مُفَرِّجٍ[4] قَالَ: كُنْتُ أَخْتَلِفُ

(١) امتهنه: استخدمه وابتذله واحتقره. وشانه: عابه (٢) غض منه اذا نقص من قيمته وقصر به ووضع من قدره (٣) أي يكون طريقا موصلا اليه
(٤) هو أحمد بن محمد بن يحيي بن مفرج مولى الامام عبد الرحمن بن الحكم كان من أهل قرطبة توفى سنة ٣٣٦

إِلَى ٱلْفَقِيهِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى - فِيمَنْ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ لِلتَّفَقُّهِ وَٱلرِّوَايَةِ ، فَإِنِّي لَعِنْدَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ فِي مَجْلِسِهِ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْمَنْسُوبِ لِأَبِي عُثْمَانَ(١) ٱلَّذِي كَانَ يُصَلِّي بِهِ قُرْبَ دَارِهِ بِحَوْمَةِ قَصْرِ قُرْطُبَةَ ، وَمَجْلِسُهُ حَافِلٌ بِجَمَاعَةِ ٱلطَّلَبَةِ وَذَلِكَ بَيْنَ ٱلصَّلَاتَيْنِ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ خَصِيٌّ مِنْ أَصْحَابِ ٱلرَّسَائِلِ جَاءَ مِنْ عِنْدِ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْحَكَمِ ، فَوَقَفَ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ : يَا فَقِيهُ أَجِبْ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ - أَبْقَاهُ ٱللَّهُ - فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ خَرَجَ(٢) فِيكَ ، وَهَا هُوَ ذَا قَاعِدٌ يَنْتَظِرُكَ ، وَقَدْ أُمِرْتُ بِإِعْجَالِكَ ، فَٱللَّهَ ٱللَّهَ ، فَقَالَ : سَمْعًا وَطَاعَةً لِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا عَجَلَةَ ، فَٱرْجِعْ إِلَيْهِ وَعَرِّفْهُ - وَفَّقَهُ ٱللَّهُ - عَنِّي أَنَّكَ وَجَدْتَنِي فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ ٱللَّهِ تَعَالَى ، مَعِي

---

(١) أظنه أبا عثمان عبد الله بن يحيي بن ادريس من أهل قرطبة كان متفننا في ضروب العلم ، وكان الشعر أشهر أدواته لم يتقدمه فيه أحد في وقته مع معرفته بالآثار وجمعه للسنن وحفظه للغريب والمثل ، وكان عالما ثقة متواضعا شريفا سريا بنفسه وبسلفه ، ولي أحكام الشرطة ثم ولي الوزارة فما زادته منها الخطط الرفيعة الا تواضعا وفضلا ونبلا ، وكان يؤذن في مسجده ويقيم الصلاة فيه وهو وزير » توفي سنة ٣٥٢ - رحمه الله تعالى - . «أحمد يوسف نجاتي » (٢) خرج فيك : صدر في شأنك

طُلَّابُ الْعِلْمِ أُسْمِعُهُمْ حَدِيثَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَهُمْ يُقَيِّدُونَهُ عَنِّي ، وَلَيْسَ يُسْكِتُنِي تَرْكُ مَا أَنَا فِيهِ حَتَّى يَتِمَّ الْمَجْلِسُ الْمَعْهُودُ لَهُمْ فِي رِضَا اللهِ وَطَاعَتِهِ ، فَذَلِكَ أَوْكَدُ مِنْ مَسِيرِي إِلَيْهِ السَّاعَةَ ، فَإِذَا انْقَضَى أَمْرُ مَنِ اجْتَمَعَ إِلَيَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُحْتَسِبِينَ فِي ذَاتِ اللهِ السَّاعِينَ لِمَرْضَاتِهِ مَشَيْتُ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ ، وَمَضَى الْخَصِيُّ يُهَيْنِمُ[1] مُتَضَاجِرًا مِنْ تَوَقُّفِهِ ، فَلَمْ يَكُ إِلَّا رَيْثَمَا[2] أَدَّى جَوَابَهُ وَانْصَرَفَ سَرِيعًا سَاكِنَ الطَّيْشِ ، فَقَالَ لَهُ يَافَقِيهُ أَنْهَيْتُ[3] قَوْلَكَ عَلَى نَصِّهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ـ أَبْقَاهُ اللهُ ـ فَأَصْغَى إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ لَكَ : جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا عَنِ الدِّينِ وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْتَعَهُمْ[4] بِكَ ، وَإِذَا أَنْتَ أَوْعَيْتَ[5] فَامْضِ إِلَيْهِ رَاشِدًا ـ إِنْ شَاءَ اللهُ

(١) أي يتكلم بصوت خفي لا يفهم ، وهو شبه قراءة غير بينة (٢) قدر ما (٣) أنهيت : أوصلت وأبلغت (٤) أمتعه الله بكذا : أبقاه ليتمتع به طويلا ، وينتفع به كثيرا (٥) وعى الحديث : حفظه وقبله وفهمه ، كأوعاه

تَعَالَى ـ ، وَقَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَبْقَى مَعَكَ حَتَّى يَنْقَضِيَ شُغْلُكَ وَتَمْضِيَ مَعِي ، فَقَالَ لَهُ : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وَلَكِنِّي أَضْعُفُ عَنِ الْمَشْيِ إِلَى بَابِ السُّدَّةِ^(١) ، وَيَصْعُبُ عَلَيَّ رُكُوبُ دَابَّةٍ لِشَيْخُوخَتِي وَضَعْفِ أَعْضَائِي ، وَبَابُ الصِّنَاعَةِ الَّذِي يَقْرُبُ إِلَيَّ مِنْ أَبْوَابِ الْقَصْرِ الْمُكَرَّمِ أَحْوَطُ لِي وَأَقْرَبُ وَأَرْفَقُ بِي ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ـ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى ـ أَنْ يَأْمُرَ بِفَتْحِهِ لِأَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْهُ هَوْنَ عَلَيَّ الْمَشْيَ وَوَدَعَ[2] جِسْمِي ، وَأُحِبُّ أَنْ تَعُودَ وَتُنْهِيَ إِلَيْهِ ذَلِكَ عَنِّي حَتَّى تَعْرِفَ رَأْيَهُ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ تَعُودُ إِلَيَّ ، فَإِنِّي أَرَاكَ فَتًى شَدِيدًا[3] ، فَكُنْ عَلَى الْخَيْرِ مُعِينًا ، وَمَضَى عَنْهُ الْفَتَى ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ حِينٍ وَقَالَ : يَا فَقِيهُ قَدْ أَجَابَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا سَأَلْتَ ، وَأَمَرَ بِفَتْحِ بَابِ الصِّنَاعَةِ وَانْتِظَارِكَ مِنْ قِبَلِهِ ، وَمِنْهُ خَرَجْتُ إِلَيْكَ ، وَأُمِرْتُ بِمُلَازَمَتِكَ مُذَكِّرًا بِالنُّهُوضِ عِنْدَ فَرَاغِكَ . وَقَالَ : أَفْعَلُ رَاشِدًا ، وَجَلَسَ الْخَصِيُّ جَانِبًا حَتَّى

(١) السدة : باب الدار ، والظلة فوقه . تقول رأيته قاعدا فى سدة داره. وفى الحديث : «والشعث الرؤوس لاتفتح لهم السدد» . (٢) ودع الشيء «ككرم ووضع» ودعا، ودعة ، ووداعة : سكن واستقر وصار الى الدعة والراحة فهو وديع (٣) يجوز أن تكون (سديدا) من السداد

أكْمَلَ أبُو إبْرَاهِيمَ مَجْلِسَهُ بِأكْمَلِ وَأفْسَحِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُ غَيْرَ مُنْزَعِجٍ وَلا قَلِقٍ ، وَلَمَّا انْفَضَضْنَا عَنْهُ قَامَ إلَى دَارِهِ فَأصْلَحَ مِنْ شَأْنِهِ ، ثُمَّ مَضَى إلَى الْخَلِيفَةِ الْحَكَمِ فَوَصَلَ إلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ ، وَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْ لِقَائِهِ ، ثُمَّ صَرَفَهُ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ ، فَأُعِيدَ إغْلاقُهُ عَلَى أثَرِ خُرُوجِهِ .

قَالَ مُفَرِّجٌ : وَلَقَدْ تَعَمَّدْنَا فِي تِلْكَ الْعَشِيَّةِ إثْرَ قِيَامِنَا عَنِ الشَّيْخِ أبِي إبْرَاهِيمَ الْمُرُورَ بِهَذَا الْبَابِ الْمَعْهُودِ إغْلاقُهُ بِدَبْرِ الْقَصْرِ الَّذِي تَجَشَّمَ[1] الْخَلِيفَةُ لَهُ فَوَجَدْنَاهُ مَفْتُوحًا كَمَا وَصَفَ الْخَصِيُّ ، وَقَدْ حَفَّهُ الْخَدَمُ وَالْأعْوَانُ مُنْزَعِجِينَ مَا بَيْنَ كَنَّاسٍ وَفَرَّاشٍ مُتَأَهِّبِينَ لِانْتِظَارِ أبِي إبْرَاهِيمَ ، فَاشْتَدَّ عَجَبُنَا لِذَلِكَ ، وَطَالَ تَحَدُّثُنَا عَنْهُ . انْتَهَى . فَهَكَذَا تَكُونُ الْعُلَمَاءُ مَعَ الْمُلُوكِ ، وَالْمُلُوكُ مَعَ الْعُلَمَاءِ ، - قَدَّسَ اللَّهُ تِلْكَ الْأرْوَاحَ - .

***

وفاة الناصر ثُمَّ تُوُفِّيَ النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ ثَانِيَ أوْ ثَالِثَ شَهْرِ رَمَضَانَ

---

(١) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة وحمل نفسه عليه

مِنْ عَامِ خَمْسِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ، أَعْظَمَ مَا كَانَ سُلْطَانُهُ ، وَأَعَزَّ مَا كَانَ ٱلْإِسْلَامُ بِمُلْكِهِ .

***

وفرة الضرائب والأموال في عهد الناصر

« قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ » خَلَّفَ ٱلنَّاصِرُ فِي بُيُوتِ ٱلْأَمْوَالِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ أَلْفٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . ٱنْتَهَى . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ كَانَ يُقَسِّمُ ٱلْجِبَايَةَ أَثْلَاثًا ثُلُثٌ لِلْجُنْدِ وَثُلُثٌ لِلْبِنَاءِ ، وَثُلُثٌ مُدَّخَرٌ ، وَكَانَتْ جِبَايَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ يَوْمَئِذٍ مِنَ ٱلْكُوَرِ وَٱلْقُرَى خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفٍ وَأَرْبَعمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَمِنَ ٱلسُّوقِ وَٱلْمُسْتَخْلَصِ سَبْعَمِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَسِتِّينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَأَمَّا أَخْمَاسُ ٱلْغَنَائِمِ ٱلْعَظِيمَةِ فَلَا يُحْصِيهَا دِيوَانٌ .

***

أيام السرور في عهد الناصر

وَحُكِيَ أَنَّهُ وُجِدَ بِخَطِّ ٱلنَّاصِرِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ : أَيَّامُ ٱلسُّرُورِ

---

(١) المستخلص : المستحصل .

الّتي صفَتْ لهُ دُونَ تَكْدِيرٍ، يوْمُ كذا مِن شهرِ كذا من سنةِ كذا، ويومُ كذا من كذا، وعُدّتْ تلكَ الأيّامُ فكانتْ أربعةَ عشرَ يوماً. فاعْجبْ أيُّها العاقلُ لهذهِ الدُّنيا وعدمِ صفائها، وبُخلِها بكمالِ الأحوالِ لأوليائِها، هذا الخليفةُ النّاصرُ حِلْفُ السُّعودِ، المضروبُ بهِ المَثَلُ في الارتقاءِ في الدُّنيا والصُّعودِ، ملَكَها خمسينَ سنةً وستّةَ أو سبعةَ أشهرٍ وثلاثةَ أيّامٍ، ولم تصفُ لهُ إلّا أربعةَ عشرَ يوماً. فسبحانَ ذي العِزّةِ القائمةِ، والمملكةِ الدّائمةِ، لا إلهَ إلّا هوَ.
وممّا يُنسبُ للنّاصرِ من الشّعرِ — وقيلَ لابنهِ الحكمِ قولُهُ:

مَا كُلُّ شيْءٍ فَقَدْتُ إلّا عوّضَني اللهُ مِنْهُ شيّاً
إنّي إذا ما مَنَعْتُ خيْري تباعَدَ الخيرُ مِنْ يديّاً
مَنْ كانَ لي نعمةٌ عليْهِ فإنّها نِعمةٌ عليّا

وممّا زيّنَ اللهُ بهِ دولةَ النّاصرِ وُزراؤُهُ الّذين من جُملتِهم ابنُ شُهيدٍ، قالَ في المطمح:

***

أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَرَ بْنِ شُهَيْدٍ* مُفْخَرُ الْإِمَامَةِ « الوزير ابن شهيد

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب المجلد الأول من الأصل فى ظهر « ص ٤ » : بترجمة مسهبة نقتطف منها ما يأتى :

أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك بن مروان بن ذى الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى ابن شهيد

هو أعظم هـذا البيت شهرة فى البلاغة ، وقال ابن بسام فى وصفه : شيخ الحضرة وفتاها ، ونادرة الفلك الدوار « وأعجوبة الليل والنهار ، وأطنب فى الثناء على نظمه ونثره وأدبه . وقال عنه ابن حيان : كان يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام ، ولم يوجد له بعد موته كتب يستعين بها على ماجرت به عادة البلغاء والأدباء . وله من قصيدة يمدح بها ابن الناصر :

ورعيت من وجه السماء خميلة   خضراء لاح البدر من غدرانها
وكأن ثر النجم ضأن عنـدها   وكأنما الجوزاء راعى ضأنها

وله رسالة يخاطب بها أبا بكر بن حزم سماها بالتوابع والزوابع .
ومن شعره الذى ضمنه تلك الرسالة :

ومرقبة لا يدرك الطرف رأسها   تزل بهـا ريح الصبا فتحدر
تكلفتها والليل قد جاش بحره   وقد جعلت أمواجه تتكسر

وقوله :

أبى دمعنا يجرى مخافة شامت   فنظمه فوق المحاجر ناظم
وراق الهوى منا عيونا كريمة   تبسمن حتى ماتروق المباسم

وقاسى فى مرضه شدة ، وتوفى يوم الجمعة آخر جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة ولم يشهد على قبر أحد ماشهد عـلى قبره من البكاء والعويل . وأنشد عليه من المراثى جملة موفورة .

وَزَهْرُ تِلْكَ ٱلْكِمَامَةِ(١)، وَحَاجِبُ(٢) ٱلنَّاصِرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ، وَحَامِلُ ٱلْوِزَارَتَيْنِ عَلَى سُمُوِّهِمَا(٣) فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ، ٱسْتَقَلَّ(٤) بِٱلْوِزَارَةِ عَلَى ثِقَلِهَا، وَتَصَرَّفَ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ عَلَى حَدِّ نَظَرِهَا وَٱلْتِفَاتِ مُقَلِهَا(٥)، وَظَهَرَ عَلَى أُولٰئِكَ ٱلْوُزَرَاءِ، وَٱشْتَهَرَ مَعَ كَثْرَةِ ٱلنُّظَرَاءِ، وَكَانَتْ إِمَارَةُ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ أَسْعَدَ إِمَارَةٍ، بَعُدَ عَنْهَا كُلُّ نَفْسٍ بِٱلسُّوءِ أَمَّارَةٍ، فَلَمْ يَطْرُقْهَا صَرْفٌ(٦)، وَلَمْ يَرْمُقْهَا مَحْذُورٌ بِطَرْفٍ، فَفَرَعَ(٧) ٱلنَّاسُ فِيهَا هِضَابَ ٱلْأَمَانِي وَرُبَاهَا(٨)، وَرَتَعَتْ ظِبَاؤُهَا فِي ظِلَالِ ظُبَاهَا(٩) وَهُوَ

(١) هي: وعاء النور وغطاؤه، يشبه المملكة بنور ذات كمامة وجعل ابن شهيد زهرتها وأطيب شيء فيها (٢) في الأصل صاحب وما هنا أولى (٣) في الأصل سموها محرفة (٤) أي نهض وقام بأعبائها قويا قادرا (٥) يريد أنه تصرف في كل أمورها الى أقصى ماتشمله وأبعد ما تتناوله (٦) صرف الدهر: حدثانه ونوائبه لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها (٧) فرع الجبل ونحوه صعد وعلا، وفي الأصل قرع محرفة (٨) الهضبة: الجبل المنبسط على وجه الأرض أو كل جبل خلق من صخرة واحدة، أو هو الطويل من الجبال الممتنع المنفرد. والربوة ما ارتفع من الأرض «كأنها ربت بنفسها في مكان». يريد أن الناس تمكنوا من نيل أمانيهم العظيمة وأدركوا كل آمالهم البعيدة (٩) الظبا جمع ظبة وهي حد السيف أو السنان أو نحوه من الأسلحة كالنصل والخنجر. والغرض أن الأمن

أَسَدٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ (١) رَابِضٌ ، وَيَظَلُّ أَبَدًا عَلَى قَائِمِ سَيْفِهِ قَابِضٌ (٢) ، يَرُوعُ الرُّومَ طَيْفُهُ (٣) وَيَجُوسُ خِلَالَ تِلْكَ الدِّيَارِ خَيْفُهُ (٤) ، وَيَرْوَى مِنْ نَجِيعِهِمْ (٥) كُلَّ آوِنَةٍ سَيْفُهُ ، وَابْنُ شُهَيْدٍ يَنْتِجُ (٦) الْآرَاءَ وَيُلْقِحُهَا (٧) ، وَيَنْقُدُ تِلْكَ الْأَنْحَاءَ

فيها قد استتب والعدل قد انتشر وصينت الأعراض وظل ضعيفها يتمتع بكل حقوقه فى ظل الأمن وسياج العدل وحراسة القوة (١) البرثن مخلب الأسد وهو السبع كالاصبع للانسان ، ور بض الأسد والظبى وغيره من الدواب: مثل برك فى الابل وجثم فى الطير ، ومنه قوله ﷺ الضحاك ابن سفيان بن عوف العامرى وقد بعثه الى قومه بنى عامر بن صعصعة : «اذا أتيتهم فاربض فى دارهم ظبيا » ، أى أقم فيهم آمنا كالظبى الآمن الوادع ، أولا تأمنهم بل كن يقظا متنبها مستوفزا فانك بين أظهر قوم من الكفار فاذا رابك منهم ريب نفرت عنهم شاردا كما ينفر الظبى (٢) من قول الفرزدق : « وقائم سيفى من يدى بمكان » وقائم السيف مقبضه (٣) الطيف الخيال الطائف فى النوم ، والطيف:الغضب (ففيه تورية) (٤) كذا بالأصل والمطامح وأراها محرفة عن : ضيفه ، أو صيفه ، جعل جيشه الذى يغزو الروم ضيفا أو أسند الغزو الى الصيف لأنه زمانه، وهو مجاز حسن مألوف جميل فى هذا المقام بديع (٥) النجيع : الدم المصبوب أو الأسود منه ، أو دم الجوف خاصة ، يقال : طعنة تمج النجيع ، وفى الأصل بدل «من نجيعهم» « بل بحسم » وهو تحريف غريب (٦) نتج الناقة ونحوها اذا ولى نتاجها وولادتها (٧) لقحت الناقة ونحوها حملت، وألقحها الفحل ولقحها ، شبه استنباط الآراء السديدة بعد التفكير بنتاج

وَنُقَحُهَا ، وَالدَّوْلَةُ مُشْتَمِلَةٌ (١) بِثَنَائِهِ ، مُتَجَمِّلَةٌ بِسَنَائِهِ (٢) ، وَكَرَمُهُ مُنْتَشِرٌ عَلَى الآمَالِ ، وَيَكْثُرُ (٣) الأَوْلِيَاءِ بِذَلِكَ الإِجْمَالِ ، وَكَانَ لَهُ أَدَبٌ تَزْخَرُ لُجَجُهُ ، وَتَبْهَرُ حُجَجُهُ ، وَشِعْرُهُ رَقِيقٌ لَا يُنْقَدُ ، وَيَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

تَرَى الْبَدْرَ مِنْهَا طَالِعًا فَكَأَنَّمَا
يَجُولُ وِشَاحَاهَا عَلَى لُؤْلُؤٍ رَطْبِ

الحامل ، ويجعل تلك الآراء ، التي هي وليدة الفكر وبنات القرائح بمنزلة ما تضعه الحامل، ومن المجاز : ألقحت الرياح السحاب والشجر، وألقح بينهم شرا مثلا اذا أسداه وسببه له (١) اشتمل بالثوب : أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده وهو التلفع ، وربما اضطجع فيه على هذه الحالة، يريد أن الدولة كانت في حماه مستريحة هادئة وقارة مطمئنة، وقوله بثنائه (بالنون) أي كفايته وحسن نيابته (٢) كذا بالمطمح وهو أولى من (ثنائه) كما في الأصل، والسناء : الرفعة والشرف وعلو القدر ، والسناء (بكسر السين) مصدر ساناه اذا راضاه وداناه وأحسن معاشرته (٣) كذا بالمطمح ، وفي الأصل : ويكسو ، وما في المطمح أولى ولذا آثرناه . والغرض أن أولياء المرء وأنصاره يكثرون بالكرم والبذل :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

وأجمل الصنيعة : حسنها وكثرها

بَعِيدَةُ مَهْوَى(١) الْقُرْطِ مُخْطَفَةُ(٢) الْحَشَى
وَمُفْعَمَةُ الْخَلْخَالِ مُفْعَمَةُ الْقُلْبِ(٣)
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَرْحَلْنَ فَوْقَ رَوَاحِلٍ
وَلَا سِرْنَ يَوْمًا فِي رِكَابٍ وَلَا رَكْبِ(٤)
وَلَا أَبْرَزَتْهُنَّ الْمُدَامُ لِنَشْوَةٍ(٥)
وَشَدْوٍ(٦) كَمَا تَشْدُو الْقِيَانُ عَلَى الشَّرْبِ(٧)

***

عبد الملك بن جهور

وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَزِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جَهْوَرٍ(٨) مُتَوَلِّي

---

(١) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول العنق وحسن الجيد. والقرط: الشنف يعلق فى شحمه الأذن ، قال :

أكلت دما ان لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

(٢) أى ضامرة منطوية (٣) القلب : السوار « يصفها بربالة الساق والمعصم » وهو من قول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

وكم ليلة قد بتها غـــير آثم بساجية الحجلين ريانة القلب

(٤) يريد أنهن حضريات ذوات رفاهية ودعة ورغـد عيش، ولسن من الباديات اللواتى يرتحلن مع أهلهن فوق الابل المنجعة (٥) النشوة: السكر أو أوله (٦) الشدو : الغناء .والقيان : المغنيات يريد أنهن مع ترفهن لسن من الاماء ولا ممن يبتذلن فى الغناء والمنادمة بل هن عقيلات مصونات وحضريات محصنات (٧) الشرب : أى الشاربين : جمع شارب. هذا والأبيات فيها صاحب بغية الملتمس للشاعر الأديب سعدون بن عمر « كان فى زمن عبد الرحمن الناصر » وهى من قصيدة يمدح بها سعيد بن المنذر الأموى ، وقبلها :

منعمة يصبو اليها أخو النهى ومن حسن أروى ما يجن وما يصبي

وهذا هو الذى أراه وأميل اليه . « أحمد يوسف نجاتى » . (٨) هو الوزير الجليل أبو مروان عبد الملك بن جهور كان اديبا شاعرا «وتقدمت ترجمته»

الْأَمْرِ مَعَهُ ، وَمُشَارِكِهِ فِي التَّدْبِيرِ إِذَا حَضَرَ مُجْتَمَعَهُ ، مُنَافَسَةٌ ، لَمْ تَنْفَصِلْ لَهُمَا بِهَا مُدَاخَلَةٌ وَلَا مُلَابَسَةٌ ، وَكِلَاهُمَا يَتَرَبَّصُ بِصَاحِبِهِ[1] دَائِرَةَ السَّوْءِ ، وَيَغَصُّ مِنْهُ غُصَصَ الْأُفُقِ بِالنَّوْءِ[2] ، فَاجْتَازَ يَوْمًا إِلَى رَبَضِهِ ، وَمَالَ إِلَى زِيَارَتِهِ وَلَمْ تَكُنْ مِنْ غَرَضِهِ ، فَلَمَّا اسْتَأْمَرَ[3] عَلَيْهِ ، تَأَخَّرَ خُرُوجُ الْإِذْنِ إِلَيْهِ ، فَثَنَى عِنَانَهُ حَنَقًا[4] عَلَى حُجَّابِهِ ، وَضَجَرًا مِنْ حِجَابِهِ[5] ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَرِّضًا ـ وَكَانَ يُلَقَّبُ بِالْحِمَارِ ـ :

أَتَيْنَاكَ لَا عَنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا إِلَيْكَ وَلَا قَلْبٍ إِلَيْكَ مَشُوقِ
وَلَكِنَّنَا زُرْنَا بِفَضْلِ حُلُومِنَا
فَكَيْفَ تُلَاقِي بِرَّنَا بِعُقُوقِ[6] ؟!

فَرَاجَعَهُ ابْنُ جَهْوَرٍ بِنَضْ[7] مِنْهُ ، بِمَا كَانَ يَشِيعُ عَنْهُ ،

(١) يتربص به الدائرة : ينتظر وقع المكروه ونزول البلاء به (٢) النوء : المطر ، وغص اذا شرق : يريد أن كليهما يجد الآخر كأنه غصة في صدره وشجا في حلقه ، ويمتلئ منه غماً وغيظاً . وفي الأصل «ينص فيه» ولعلها محرفة عن «منه» (٣) الائتمار والاستئمار : المشاورة والتآمر (٤) حنقا : غيظا ، وثنى عنانه : أي انصرف عائدا (٥) في الأصل أحجابه ، وفي المطمح حجابه ولا بأس بها ، وخير منهما أن تكون محرفة عن « أصحابه » أي الذين كان معهم يأمرون به ، وهم لا يخفون على أبي عامر (٦) العقوق : الخلاف والعصيان والقطيعة ، وعدم البر والصلة (٧) ينض منه : ينقص ويضع من قدره .

بِأَنَّ جَدَّهُ أَبَا هِشَامٍ ، كَانَ بَيْطَارًا بِالشَّامِ ، بِقَوْلِهِ :

حَجَبْنَاكَ لَمَّا زُرْتَنَا غَيْرَ تَائِقٍ(١)

بِقَلْبِ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ(٢)

وَمَا كَانَ بَيْطَارُ الشَّامِ بِمَوْضِعٍ

يُبَاشِرُ فِيهِ بِرَّنَا بِخَلِيقِ

وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ يَتَغَزَّلُ :

حَلَفْتُ بِمَنْ رَمَى فَأَصَابَ قَلْبِي

وَقَلَّبَهُ عَلَى جَمْرِ الصُّدُودِ

لَقَدْ أَوْدَى تَذَكُّرُهُ بِجِسْمِي(٣)

وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّ النَّفْسَ تُودِي

---

(١) تاق اليه اذا اشتاق ونزعت نفسه اليه(٢) من قول أبي نواس :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

ومثله لبعض الأدباء :

واذا سمعت من الرجال حديثهم ... ان كان يخبث قولهم أو ينفس

أدركت ماتحوى الصدور فربما ... نطق اللسان بما تكن الأنفس

وجه الفتى كصحيفة ولطالما ... قرأ الضمير بها اللبيب الأكيس

ولرب ذى ضغن تبسم ثغره ... ملقا وفى ثوبيه ذئب أطلس

كالحية الرقطاء فى أنيابها ... سم زعاف لان منها الملمس

(٣) فى الأصل « بقلبي » وفى الطمع « بقلبى » وكلاهما تحريف — وفى جنية الملتمس « بجسمى » وهو المناسب للمعنى والسياق « أحمد يوسف نجاتى »

فَقِيـدٌ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِقَلْبِي

فَوَاعَجَبًا لِمَوْجُودٍ فَقِيـدِ !

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَدِيَّةِ ابْنِ شُهَيْدٍ وَبَعْضِ أَخْبَارِهِ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ

***

الحكم المستنصر بالله ابن الناصر

وَلَمَّا تُوُفِّيَ النَّاصِرُ لِدِينِ اللهِ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ وَلِيُّ عَهْدِهِ الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ* فَجَرَى عَلَى رَسْمِهِ، وَلَمْ يَفْقِدْ

* ترجم له فى كتاب تاريخ العرب والاسلام لأبى العيون « ج ٢ ص ١٢٦ » بما يأتى

الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله تولى الحكم بعد وفاة أبيه من سنة خمسين وثلثمائة الى سنة ست وستين وثلثمائة ، فسار على نهج سالفه وأعمل فكره فيما فيه سعادة الرعية ، وكثرة المنافع العامة ، ورغب عن الزخرفة والترف ، وفى أول عهده طمع فيه بعض الملوك المجاورين له فأراهم عين القوة ، فأذعنوا له ، وأهدوا اليه هدايا جمعت أنفس الآثار ، فحمل رسلهم أحسن محمل وأجزل عطاءهم وكان يحب العلم ويكرم العلماء ويعضد المؤلفين ، فلقد أهدى لصاحب كتاب الأغانى ألف دينار من الذهب العين ، وعنى بجمع الكتب عناية كبرى حتى كان عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين فهرسا توفى ـ رحمه الله تعالى ـ بقرطبة سنة ست وستين وثلثمائة

مِنْ تَرْتِيبِهِ إِلَّا شَخْصُهُ ، وَوَلِيَ حِجَابَتَهُ جَعْفَرٌ الْمُصْحَفِيُّ[١] ، وَأَهْدَى لَهُ يَوْمَ وِلَايَتِهِ هَدِيَّةً كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَصْنَافِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَيَّانَ فِي الْمُقْتَبِسِ : وَهِيَ مِائَةُ مَمْلُوكٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ نَاشِبَةً[٢] عَلَى خُيُولٍ صَافِنَةٍ[٣] كَامِلُو الشِّكَّةِ وَالْأَسْلِحَةِ مِنَ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَالدَّرَقِ[٤] وَالتَّرَاسِ وَالْقَلَانِسِ الْهِنْدِيَّةِ ، وَثَلَاثُمِائَةٍ وَنَيِّفٌ وَعِشْرُونَ دِرْعًا مُخْتَلِفَةَ الْأَجْنَاسِ . وَثَلَاثُمِائَةِ خُوذَةٍ[٥] كَذَلِكَ ، وَمِائَةُ بَيْضَةٍ هِنْدِيَّةٍ ، وَخَمْسُونَ[٦] خَشَبِيَّةً مِنْ بَيْضَاتِ الْفِرَنْجَةِ مِنْ غَيْرِ

---

(١) فى الأصل جعفر « الصقلبي » وهو تحريف فاحش — وهو أبو الحسن جعفر بن عثمان المعروف بابن المصحفي كان من أهل العلم والأدب البارع وله شعر بديع يدل على رقة طبعه وسعة أدبه ، وسيأتى حديث عنه فى النفح

(٢) ناشبة : رامية بالنشاب ، ووزن فاعل هنا للنسب نحو تامر ولابن ، والنشاب السهام (٣) خيول صافنة : كل منها قائم على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة دون قيد بيد أو رجل وهو أمارة النشاط والفراهة :

ألف الصفون فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا

(٤) الدرقة : الحجفة تتخذ من جلود ليس فيها خشب ولا عقب ، والحجفة ترس من جلد بلا خشب ولا عقب (٥) الخوذة : المغفر ما يجعله المحارب على رأسه ليقيه « وهو لفظ معرب » وكذا البيضة (٦) كذا بالأصل وفى ابن خلدون « وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الفرنجة غير الحبش التى يسمونها الطاشانية » وما فى الأصل هنا أظهر

ٱلْخَشَبِ يُسَمُّونَهَا ٱلطَّاشَانِيَّةَ[١] ، وَثَلَثُمِائَةِ حَرْبَةٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ ، وَمِائَةُ تُرْسٍ سُلْطَانِيَّةٌ ، وَعَشَرَةُ جَوَاشِنَ[٢] فِضَّةٍ مُذَهَّبَةٍ ، وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ قَرْنًا مُذَهَّبَةً مِنْ قُرُونِ ٱلْجَامُوسِ . ٱنْتَهَى .

***

فتوحات الحكم المستنصر بالله

قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَلِأَوَّلِ وَفَاةِ ٱلنَّاصِرِ طَمِعَ ٱلْجَلَالِقَةُ فِي ٱلثُّغُورِ ، فَغَزَا ٱلْحَكَمُ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِنَفْسِهِ وَٱقْتَحَمَ بَلَدَ «فِرْلَنْدِينَ غَنْدَ شَابٍ»[٣] فَنَازَلَ شَنْتَ أَشْتَبِينَ[٤] وَفَتَحَهَا عَنْوَةً وَٱسْتَبَاحَهَا وَقَفَلَ ، فَبَادَرُوا إِلَى عَقْدِ ٱلسِّلْمِ مَعَهُ ، وَٱنْقَبَضُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ . ثُمَّ أَغْزَى غَالِبًا مَوْلَاهُ بِلَادَ جِلِّيقِيَّةَ ، وَسَارَ إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ[٥] لِدُخُولِ دَارِ ٱلْحَرْبِ ، فَجَمَعَ لَهُ ٱلْجَلَالِقَةُ

---

(١) فى الأصل « الطشطانة » (٢) الجوشن : الدرع أو زرد يلبسه الصدر والحيزوم (٣) كذا بالأصل وغرضه « فرتند » أمير قشتالة (٤) شنت اشتبان Saint Sebastien أو San Steban يسمى بهذا الاسم عدة مواضع بأسبانيا منها واحد بشمالها الغربى وواحد باقليم شلمنقة بأسبانيا الغربية ، ومنها موضع باقليم وشقة فى الشمال الشرقى ومنها اثنان بقشتالة القديمة ، وأشهرها هذا الثغر الواقع على بحر برديل « خليج غسقونيا » الى الشمال الشرقى من برغش « من بلاد قشتالة » وقد وصلت جيوش الحكم الى هذه المدينة كما وصلت زمن المنصور بن أبى عامر الى « شانت ياقوب » فى طرف الشمال الغربى (٥) على نهر متفرع من نهر طرطوشة وتقدم القول فيها

وَلَقِيَهُمْ فَهَزَمَهُمْ وَاسْتَبَاحَهُمْ، وَأَوْطَأَ الْعَسَاكِرَ بَلَدَ فَرْدِنَنْد وَدَوَّخَهَا، وَكَانَ شَانْجَةُ بْنُ رُدْمِيرَ مَلِكُ الْبَشْكَنْسِ[1] قَدِ انْتَقَضَ، فَأَغْزَاهُ الْحَكَمُ التُّجِيبِيَّ[2] صَاحِبَ سَرَقُسْطَةَ فِي الْعَسَاكِرِ، وَجَاءَ مَلِكُ الْجَلَالِقَةِ لِنَصْرِهِ فَهَزَمَهُمْ ـ وَامْتَنَعُوا بِقُورِيَةَ[3] وَعَاثُوا فِي نَوَاحِيهَا ـ وَقَفَلَ. ثُمَّ أَغْزَى الْحَكَمُ أَحْمَدَ بْنَ يَعْلَى وَيَحْيَى بْنَ مُحَمَّدٍ التُّجِيبِيَّ إِلَى بِلَادِ بَرْشِلُونَةَ، فَعَاثَتِ الْعَسَاكِرُ فِي نَوَاحِيهَا. وَأَغْزَى هُذَيْلَ بْنَ هَاشِمٍ وَمَوْلَاهُ غَالِبًا إِلَى بِلَادِ الْقُومَسِ، فَعَاثَا فِيهَا وَقَفَلَا. وَعَظُمَتْ فُتُوحَاتُ الْحَكَمِ وَقُوَّادِ الثُّغُورِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِهَا فَتْحُ قُلُمْرِيَةَ[4] مِنْ بِلَادِ الْبَشْكَنْسِ عَلَى يَدِ غَالِبٍ، فَعَمَرَهَا الْحَكَمُ وَاعْتَنَى بِهَا. ثُمَّ فَتَحَ قَطْلُونِيَةَ[5] عَلَى يَدِ قَائِدِ

(١) بالشمال الشرقى (٢) يحيى بن محمد (٣) مدينة من نواحى ماردة وهى النصف بينها وبين سمورة مدينة الافرنج (٤) مدينة من بلاد البرتقال Coimbra الى الشمال من أشبونة فى نحو منتصف للسافة بين مدينة برتقال ومدينة أشبونة على نهر فى وسط البلاد يصب فى المحيط ـ وهى الآن دار العلم ومحط رحال للمعارف فى بلاد البرتقال بها كثير من الجامعات والمتاحف وبها بستان بديع يقصده الزائرون (٥) كذا بالأصل والتحريف فى ابن خلدون أشد. وأظنها « قطلونية » الاقليم الذى به برشلونة وطركونة بالشمال الشرقى

وَشْقَةَ[1]، وَغَنِمَ فِيهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلسِّلَاحِ وَٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْأَثَاثِ وَفِي بَسِيطِهِ مِنَ ٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَٱلرَّمَكِ[2] وَٱلْأَطْعِمَةِ وَٱلسَّبْيِ مَا لَا يُحْصَى

« وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ » سَارَ غَالِبٌ إِلَى بَلَدِ أَلْبَةَ[3] وَمَعَهُ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلتُّجِيبِيُّ، وَقَاسِمُ بْنُ مُطَرِّفِ بْنِ ذِي ٱلنُّونِ، فَٱبْتَنَى حِصْنَ غُرْمَاجَ وَدَوَّخَ بِلَادَهُمْ وَٱنْصَرَفَ. وَظَهَرَتْ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ مَرَاكِبُ ٱلْمَجُوسِ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ، وَأَفْسَدُوا بَسَائِطَ أُشْبُونَةَ، وَنَاشَبَهُمُ ٱلنَّاسُ ٱلْقِتَالَ، فَرَجَعُوا إِلَى مَرَاكِبِهِمْ، وَأَخْرَجَ ٱلْحَكَمُ ٱلْقُوَّادَ لِاحْتِرَاسِ ٱلسَّوَاحِلِ

(١) وشقة بلدة بالشمال الشرقي شرق تطيلة « بأرغون »

(٢) جمع رمكة وهي الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل « وهو لفظ معرب » (٣) ألبة Alaba تقدم التعريف بها وأنها الى الشمال الشرقي بين وادي نهر ابره Ebre « أو وادي نهر طرطوشة قريبا من منابعه » وسفوح جبال البرت وعندها انتهت فتوحات العرب بالأندلس — وبتلك الجهات حصن غرماج ، وبه توفي غازيا أبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن هلال القيسي من أهل طليطلة : كان رجلا صالحا ورعا زاهدا متمسكا بدينه لايزال لسانه رطبا بتلاوة القرآن الكريم مشاركا في التفسير والحديث فرق جميع ماله وانقطع الى الله عز وجل ولزم المرابطة بالثغور حتى توفي بحصن غرماج — رحمه الله تعالى — ويقال ان نصارى هذه الأنحاء يقصدونه ويتبركون بقبره. وبالأصل « عرماج » بالعين المهملة وهو تحريف . « أحمد يوسف نجاتي »

وَأَمَرَ قَائِدَ ٱلْبَحْرِ عَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ بْنَ رُمَاحِس[١] بِتَعْجِيلِ حَرَكَةِ ٱلْأُسْطُولِ[٢]، ثُمَّ وَرَدَتِ ٱلْأَخْبَارُ بِأَنَّ ٱلْعَسَاكِرَ نَالَتْ مِنْهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنَ ٱلسَّوَاحِلِ. ثُمَّ كَانَتْ وِفَادَةُ أُرْدُونَ بْنِ أَذْفُونْشَ مَلِكِ ٱلْجَلَالِقَةِ، وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّاصِرَ لَمَّا أَعَانَ عَلَيْهِ شَانْجَةَ بْنَ رُذْمِيرَ وَهُوَ ٱبْنُ عَمِّهِ وَهُوَ ٱلْمَمْلَكُ مِنْ قَبْلِ أُرْدُونَ، وَحَمَلَ ٱلنَّصْرَانِيَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَٱسْتَظْهَرَ[٣] أُرْدُونُ بِصِهْرِهِ

(١) لعله من ذرية عبدالرحمن بن الرماحس بن الرسارس بن الكران بن واقد بن وهيب بن جابر بن عويبة بن واثلة بن الفاكه بن عمرو بن الحارث ابن كنانة. والرماحس معناه فى اللغة الشجاع الجرىء المقدام، والأسد، والرماحس بن عبد العزى بن الرماحس بن الرسارس الكنانى كان على شرطة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية. وتقدم أن المجوس هؤلاء هم النورمان (٢) اطلاق هذا الاسم على المركب الحربى المعد للقتال فى البحر وقع فى الشعر العربى بعد العصر الأول فى كلام المولدين ولم يرد فى شعر عربى قديم ومنه قول على بن محمد الأيادى يصف أسطول الامام القائم الفاطمى المتوفى سنة ٣٣٤ من قصيدة مطلعها:

اعجب بأسطول الامام محمد ... وبحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر ... يبدو لعين الناظر المستعجب

ومنها:

ينحين فيا ينهين الطافـــة ... ويجئن فعل الطائر المتغرب
كمنافض الحيات رحن لواغبا ... حتى يقفن بيرد ماء المشرب

(٣) استظهر: استعان

فرِدِلَنْدَ قوْمَس قَشْتِيلَة ، تَوَقُّعَ مُظَاهَرَةَ الْحَكَمِ لِشَانْجَة كَمَا ظَاهَرَهُ أَبُوهُ النَّاصِرُ ، فَبَادَرَ إِلَى الْوِفَادَةِ عَلَى الْحَكَمِ مُسْتَجِيرًا بِهِ ، فَاحْتَفَلَ لِقُدُومِهِ ، وَعَبَّى الْعَسَاكِرَ[1] لِيَوْمِ وِفَادَتِهِ ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا وَصَفَهُ ابْنُ حَيَّانَ كَمَا وَصَفَ أَيَّامَ الْوِفَادَاتِ قَبْلَهُ ، وَوَصَلَ إِلَى الْحَكَمِ وَأَجْلَسَهُ وَوَعَدَهُ بِالنَّصْرِ مِنْ عَدُوِّهِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَكَتَبَ بِوُصُولِهِ[2] مُلْقِيًا بِنَفْسِهِ ، وَعَاقَدَهُ عَلَى مُوَالَاةِ الْإِسْلَامِ وَمُقَاطَعَةِ فِرِدِلَنْدَ الْقَوْمَس ، وَأَعْطَى عَلَى ذَلِكَ صَفْقَةَ[3] يَمِينِهِ ، وَرَهَنَ وَلَدَهُ غَرْسِيَة ، وَدُفِعَتِ الصِّلَاتُ وَالْحُمْلَانُ[4] لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ ، وَانْصَرَفَ مَعَهُ وُجُوهُ نَصَارَى الذِّمَّةِ لِيُوَطِّدُوا[5] لَهُ الطَّاعَةَ عِنْدَ رَعِيَّتِهِ وَيَقْبِضُوا رَهْنَهُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ بَعَثَ ابْنُ عَمِّهِ شَانْجَةُ بْنُ رُذْمِير بِبَيْعَتِهِ

---

(١) عبى العساكر وعبأهم : جهزهم وأعدهم (٢) فى ابن خلدون : وخلع عليه لما جاء ملقيا بنفسه الخ (٣) يقال : أصفق يده بكذا اذا اتفق عليه ، وأصفقوا على كذا اذا أطبقوا عليه واجتمعوا — والصفقة الاجتماع على الشىء والاتفاق عليه — وصفق على يده صفقا وصفقة اذا ضرب يده على يده وذلك عند وجوب البيع وتمامه والاتفاق عليه (٤) الحملان (بضم الحاء) ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة (٥) فى ابن خلدون : ليوطئوا ، وذلك سنة ٣٥١

وَطَاعَتِهِ مَعَ قَوَامِسِ أَهْلِ جِلِّيقِيَّةَ وَسَمُّورَةَ وَأَسَاقِفَتِهِمْ[١] يَرْغَبُ فِي قَبُولِهِ، وَيَمُتُّ[٢] بِما فَسَلَ أَبُوهُ النَّاصِرُ مَعَهُ، فَتَقَبَّلَ سِتَّتَهُمْ عَلَى شُرُوطٍ شَرَطَهَا، كَانَ مِنْهَا هَدْمُ الْحُصُونِ وَالْأَبْرَاجِ الْقَرِيبَةِ مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ بَعَثَ مَلِكَا بَرْشِلُونَةَ وَطَرَّكُونَةَ[٣] وَغَيْرُهُمَا يَسْأَلَانِ تَجْدِيدَ الصُّلْحِ وَإِقْرَارَهُمَا عَلَى مَا كَانَا عَلَيْهِ، وَبَعَثَا بِهَدِيَّةٍ وَهِيَ عِشْرُونَ صَبِيًّا مِنَ الْخِصْيَانِ الصَّقَالِبَةِ، وَعِشْرُونَ قِنْطَارًا مِنْ صُوفِ السَّمُّورِ، وَخَمْسَةُ قَنَاطِيرَ مِنَ الْقَصْدِيرِ، وَعَشَرَةُ أَذْرُعٍ صَقْلَبِيَّةٍ، وَمِائَتَا سَيْفٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ، فَتَقَبَّلَ الْهَدِيَّةَ، وَعَقَدَ[٤] عَلَى أَنْ يَهْدِمُوا

---

(١) الأساقفة: جمع أسقف وأسقف «بتشديد الفاء وتخفيفها» وهو ما كان فوق القسيس ودون المطران، وقد تطلق على المطران نفسه، وعلى الملك المتخاشع في مشيته، وهو لفظ معرب تكلموا به قديما (٢) مت اليه بكذا: توسل وتوصل بنحو قرابة أو حرمة أو دالة أو غير ذلك:

تمتّ بأرحام اليك وشيجة ولاقرب بالأرحام مالم تقرب

والماتّة الحرمة والوسيلة، وجمعها موات (٣) بلدة متصلة بأعمال طرطوشة وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر جنوبي برشلونة منها نهر علان يصب مشرقا الى نهر ابره وهو نهر طرطوشة وهي بين طرطوشة و برشلونة و بين كل واحدة منهما ١٧ فرسخا (٤) في ابن خلدون: وعقد لهم على أن يهدموا الحصون التي بقرب الثغور الخ

ٱلْحُصُونَ ٱلَّتِي تَضُرُّ بِالثُّغُورِ ، وَأَلَّا يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ أَهْلَ مِلَّتِهِمْ، وَأَنْ يُنْذِرُوا بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلنَّصَارَى فِي ٱلْإِجْلَابِ[1] عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ وَصَلَتْ رُسُلُ غَرْسِيَةَ بْنِ شَانْجَةَ مَلِكِ ٱلْبَشْكَنْسِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْأَسَاقِفَةِ وَٱلْقَوَامِسِ يَسْأَلُونَ ٱلصُّلْحَ ـ بَعْدَ أَنْ كَانَ تَوَقَّفَ وَأَظْهَرَ ٱلْمَكْرَ ـ فَعَقَدَ[2] لَهُمُ ٱلْحَكَمُ ، فَاغْتَبَطُوا وَرَجَعُوا . ثُمَّ وَفَدَتْ عَلَى ٱلْحَكَمِ أُمُّ لُذَرِيقَ ٱبْنِ بَلَاشْكَ[3] ٱلْقَوْمَسِ بِالْقُرْبِ مِنْ جِلِّيقِيَّةَ ـ وَهُوَ ٱلْقَوْمَسُ ٱلْأَكْبَرُ ـ فَأَخْرَجَ ٱلْحَكَمُ لِتَلَقِّيهَا أَهْلَ دَوْلَتِهِ ، وَٱحْتَفَلَ لِقُدُومِهَا فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ مَشْهُورٍ ، فَوَصَلَتْ وَأُسْعِفَتْ ، وَعَقَدَ ٱلسِّلْمُ لِابْنِهَا كَمَا رَغِبَتْ ، وَدَفَعَ لَهَا مَالًا تُقَسِّمُهُ بَيْنَ وَفْدِهَا دُونَ مَا وُصِلَتْ بِهِ هِيَ ، وَحُمِلَتْ عَلَى بَغْلَةٍ فَارِهَةٍ بِسَرْجٍ وَلِجَامٍ مُثْقَلَيْنِ بِالذَّهَبِ وَمِلْحَفَةِ دِيبَاجٍ ، ثُمَّ عَاوَدَتْ مَجْلِسَ ٱلْحَكَمِ لِلْوَدَاعِ فَعَاوَدَهَا بِالصِّلَاتِ لِسَفَرِهَا وَٱنْطَلَقَتْ.

***

غزوة العدوة بالمغرب الأقصى

ثُمَّ أَوْطَأَ عَسَاكِرَهُ أَرْضَ ٱلْعُدْوَةِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى

(١) أجلب عليه اذا توعده بشر أو جمع له الجموع ، وفى التنزيل : «وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» ، أي اجمع عليهم وتوعدهم بالشر (٢) فى الاصل (فقعد) محرفة (٣) فى ابن خلدون : بلاكش

وَالْأَوْسَطِ ، وَتَلَقَّى دَعْوَتَهُ مُلُوكُ زَنَاتَةَ مِنْ مَغْرَاوَةَ وَمِكْنَاسَةَ فَبَثُّوهَا فِي أَعْمَالِهِمْ وَخَطَبُوا بِهَا عَلَى مَنَابِرِهِمْ ، وَزَاحَمُوا بِهَا دَعْوَةَ الشِّيعَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ . وَوَفَدَ عَلَيْهِ مِنْ بَنِي خَزَرَ[1] وَبَنِي

(١) فى الاصل « الحرز » محرفة وفى ابن خلدون : ووفد عليه ملوكهم من آل خزر الخ . وخلاصة المعروف فى التاريخ أنه لما انتقض المغرب على العبيديين وفشت فيه دعوة الأمويين بالأندلس ثار بمدينة سجلماسة قائم من ولد الشاكر لله « محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار بن اليسع من ملوك البربر » وتلقب المنتصر بالله ، ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة ٣٥٢ فقتله وقام بالأمر مكانه وتلقب المعتز بالله وأقام على ذلك مدة ، وكان أمر مكناسة يومئذ قد تداعى الى الاختلال وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب الى أن زحف « خزرون » بن فلفول من ملوك مغراوة الى سجلماسة سنة ٣٦٦ وبرز اليه أبو محمد المعتز فهزمه « خزرون » وقتله واستولى على بلده وبعث برأسه الى قرطبة مع كتابه بالفتح « وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر بقرطبة » فعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها وجاء عهد الخليفة بذلك فأقام دعوة هشام بن الحكم فى نواحيها وضبطها وقام بأمرها الى أن توفى فكانت أول دعوة أقيمت لهم فى أمصار المغرب الأقصى ، وانقرض أمر مكناسة من المغرب أجمع ، وانتقلت الدولة الى مغراوة وبنى يفرن . وبعد وفاة خزرون ولى أمر سجلماسة ابنه « وانودين بن خزرون » الخ وفى سنة ٤٤٦ دخلت سجلماسة فى ملك المرابطين لأول أمرهم وانقرضت دولة بنى خزرون منها وتداولها من بعدهم من ملوك الموحدين ثم ملوك بنى مرين . اه ملخصا من صبح الأعشى وتاريخ ابن خلدون وغيرهما . « أحمد يوسف نجاتى »

أَبِي ٱلْعَافِيَةِ(١) ، فَأَجْزَلَ صِلَتَهُمْ وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُمْ وَأَحْسَنَ مُنْصَرَفَهُمْ . وَاسْتَنْزَلَ بَنِي إِدْرِيسَ(٢) مِنْ مُلْكِهِمْ بِالْعُدْوَةِ فِي نَاحِيَةِ ٱلرِّيفِ ، وَأَجَازَهُمُ ٱلْبَحْرَ إِلَى قُرْطُبَةَ ، ثُمَّ أَجْلَاهُمْ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ .

***

شغف الحكم بالعلوم

وَكَانَ مُحِبًّا لِلْعُلُومِ مُكْرِمًا لِأَهْلِهَا ، جَمَّاعًا لِلْكُتُبِ فِي أَنْوَاعِهَا بِمَا لَمْ يَجْمَعْهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَهُ . قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ : أَخْبَرَنِي تَلِيدٌ ٱلْخَصِيُّ - وَكَانَ عَلَى خِزَانَةِ ٱلْعُلُومِ

(١) هو موسى بن أبي العافية من مكناسة من قبائل البربر وكان أميراً على مكناسة بعد أن استنزل مصالة بن حبوس « البربرى الذى كان من أكبر قواد عبيد الله المهدى » يحيى بن ادريس بفاس الى طاعة المهدى سنة ٣٠٥ وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية على مكناسة وسائر ضواحي المغرب وأمصاره وأجلى موسى الأدارسة عنه ، ثم خطب للخليفة الناصر الأموى، وبعد حوادث استفحل أمر ابن أبي العافية بالمغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط وبثوا دعوة الأموية فى أعمالها ، وتوفى موسى سنة ٣١٧ وقام بالأمر بعده ابنه مدين وتوفى سنة ٣٤٥ فعقد الناصر لأخيه أبى جعله على عمله حتى تغلب على فاس وأعمالها مغراوة « ثم بنو زيرى بن عطية بن عبدالله بن خزر بن محمد بن خزر بن حفصى من زناتة. وأحمد يوسف نجاتى

(٢) الأدارسة هم بنو ادريس الأكبر بن حسن بن حسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ، كان لهم دولة بالمغرب من سنة ١٧٠ الى زمن الحكم كما هنا

وَالْـكُتُبِ بِدَارِ بَنِي مَرْوَانَ — أَنَّ عَدَدَ الْفَهَارِسِ[1] الَّتِي فِيهَا تَسْمِيَةُ الْـكُتُبِ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ فِهْرِسَةً ، وَفِي كُلِّ فِهْرِسْتٍ عِشْرُونَ وَرَقَةً لَيْسَ فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ أَسْمَاءِ الدَّوَاوِينِ لَا غَيْرُ ، وَأَقَامَ لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ سُوقًا نَافِقَةً[2] جُلِبَتْ إِلَيْهِ بَضَائِعُهُ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ .

***

وفود أبو علي القالي

قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ خَلْدُونَ: وَلَمَّا وَفَدَ عَلَى أَبِيهِ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي صَاحِبُ كِتَابِ الْأَمَالِي مِنْ بَغْدَادَ أَكْرَمَ مَثْوَاهُ[3] وَحَسُنَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، وَأَوْرَثَ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ عِلْمَهُ، وَاخْتَصَّ بِالْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ وَاسْتَفَادَ عِلْمَهُ . وَكَانَ يَبْعَثُ فِي شِرَاءِ الْـكُتُبِ إِلَى الْأَقْطَارِ رِجَالًا مِنَ التُّجَّارِ ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمُ

---

(١) الفهرس (بالكسر) الكتاب الذى تجمع فيه الكتب معرب ، وقد اشتقوا منه فعلا فقالوا : فهرس كتابه فهرسة ، وقد يقال فهرسة الفهرس ، والكثير أن يقال فيه فهرست وجعل التاء أصلية ، ومعناها فى اللغة جملة العدد للكتب ، والكلمة الفارسية الأصلية هى :(فهرست) ومعناها اجمال الأشياء لتحديد أسمائها وحصرها مطلقا على الترتيب

(٢) نافقة : رائجة (٣) أكرم مثواه : أكرم وفادته ، والمثوى : النزل، ومصدر ثوى أى أقام ، وقوله تعالى فى سورة يوسف : «أحسن مثواى» أى تولانى فى طول مقامى بالإكرام

ٱلْأَمْوَالَ لِشِرَائِهَا، حَتَّى جَلَبَ مِنْهَا إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ مَا لَمْ يَعْهَدُوهُ، وَبَعَثَ فِي كِتَابِ ٱلْأَغَانِي إِلَى مُصَنِّفِهِ أَبِي ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْفَهَانِيِّ — وَكَانَ نَسَبُهُ فِي بَنِي أُمَيَّةَ — وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فِيهِ بِأَلْفِ دِينَارٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلْعَيْنِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِنُسْخَةٍ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَهُ إِلَى ٱلْعِرَاقِ. وَكَذَلِكَ فَعَلَ مَعَ ٱلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْهَرِيِّ(١) ٱلْمَالِكِيِّ فِي شَرْحِهِ لِمُخْتَصَرِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْحَكَمِ(٢)، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَجَمَعَ بِدَارِهِ ٱلْحُذَّاقَ فِي صِنَاعَةِ ٱلنَّسْخِ، وَٱلْمَهَرَةَ فِي ٱلضَّبْطِ وَٱلْإِجَادَةِ فِي ٱلتَّجْلِيدِ

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح بن عمر بن حفص ابن عمر بن مصعب بن الزبير بن سعد بن كعب ينتهى نسبه الى سعد ابن زيد مناة بن تميم، الفقيه المالكي المشهور كان مقدم أصحابه فى وقته ومن أهل العبادة والورع والزهد دعى الى القضاء ببغداد فامتنع منه. وكان مولده سنة ٢٨٩ وتوفى سنة ٣٧٥ وهو منسوب الى مدينة أبهر مدينة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل، والعجم يسمونها أوهر. وقال بعضهم ان أبهر مركب من آب وهو الماء، وهر وهى الرحا كأنه ماء الرحا

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع الفقيه المالكي المصرى كان أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وأفضت اليه رياسة الطائفة المالكية بعد أشهب، وروى عن مالك الموطأ سماعا، ولد سنة ١٥٠ وتوفى بمصر سنة ٢١٤ وقبره الى جانب قبر الامام الشافعى وتوفى ابنه عبد الرحمن سنة ٢٥٧ وقبره الى جانب قبر أبيه

فَأَوْعَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَاجْتَمَعَتْ بِالْأَنْدَلُسِ خَزَائِنُ مِنَ الْكُتُبِ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعْدِهِ ، إِلَّا مَا يُذْكَرُ عَنِ النَّاصِرِ الْعَبَّاسِيِّ ابْنِ الْمُسْتَضِيءِ (١) ، وَلَمْ

(١) هو الامام المستضيء بالله الحسن بن يوسف المستنجد بن أحمد المقتفي ابن عبد الله القائم بن القادر بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق ابن المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد ، وكان عادلا حسن السيرة رءوفا رحيما دمث الأخلاق موطأ الأكناف ، وأمه أم ولد أرمنية اسمها غضة ، بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستنجد بالله في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ وفي أيامه زالت دولة العبيديين بمصر وخطب له بمصر والشام واليمن وبرقة ودانت الملوك لطاعته ، وكان يطلب الامام عبد الرحمن بن الجوزي « المتوفى سنة ٥٩٧ » ويأمره بعقد مجلس الوعظ ويجلس حينئذ يسمع ، وتوفي رحمه الله سنة ٥٧٥ فبويع لولده الامام أحمد الناصر لدين الله وطالت مدة خلافته نحو ٤٧ سنة، وكان مع عنايته بالعلوم وجمع الكتب بخلاف أبيه قاسيا شديدا خرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد ، وتوفيت أمه زمرد سنة ٥٩٩ وتوفي ابنه الأمير علي سنة ٦١٢ فوجد عليه وجدا شديدا ، وأكثر الشعراء من المراثي فيه ، وكان الامام الناصر أديبا يقول الشعر ويعتني به ، ولما استقر الملك الأفضل علي الأيوبي بصرخد سنة ٥٩٢ كتب الى الخليفة الامام الناصر يشكو من عمه العادل أبي بكر وأخيه العزيز عثمان « وهم ملوك الشام ومصر » وأول الكتاب :

مولاي ان أبا بكر وصاحبه　　عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقي　　من الأواخر مالاقى من الأول

فكتب الامام الناصر جوابه :

وافى كتابك يابن يوسف معلنا　　بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

تَزَلْ هَذِهِ ٱلْـكُتُبُ بِقَصْرِ قُرْطُبَةَ إِلَى أَنْ بِيعَ أَكْثَرُهَا فِي حِصَارِ ٱلْبَرْبَرِ ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهَا وَبَيْعِهَا ٱلْحَاجِبُ وَاضِحٌ مِنْ مَوَالِي ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَنُهِبَ مَا بَقِيَ مِنْهَا عِنْدَ دُخُولِ ٱلْبَرْبَرِ قُرْطُبَةَ وَٱقْتِحَامِهِمْ إِيَّاهَا عَنْوَةً . ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ بِبَعْضِ ٱخْتِصَارٍ .

***

بيعة الحكم المستنصر بالله

« وَلْنَبْسُطِ ٱلْـكَلَامَ عَلَى ٱلْحَـكَمِ فَنَقُولُ » : إِنَّ ٱلْحَـكَمَ ٱلْمُسْتَنْصِرَ ٱعْتَلَى سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ ثَانِيَ يَوْمِ وَفَاةِ أَبِيهِ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ ، وَقَامَ بِأَعْبَاءِ ٱلْمُلْكِ أَتَمَّ قِيَامٍ ، وَأَنْفَذَ ٱلْـكُتُبَ إِلَى ٱلْآفَاقِ بِتَمَامِ ٱلْأَمْرِ لَهُ ، وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى بَيْعَتِهِ ، وَٱسْتَقْبَلَ مِنْ يَوْمِهِ ٱلنَّظَرَ فِي تَمْهِيدِ سُلْطَانِهِ ، وَتَثْقِيفِ مَمْلَـكَتِهِ ، وَضَبْطِ قُصُورِهِ ، وَتَرْتِيبِ أَجْنَادِهِ . وَأَوَّلُ مَا أَخَذَ ٱلْبَيْعَةَ عَلَى صَقَالِبَةِ

غصبوا عليا حقه اذ لم يكن   بعد النبي له بيثرب ناصر

ومن شعره يشير الى ولده الظاهر :

بليت حتى بأدنى الناس من خلدي   يريد موتي وبالأرواح أفديه

وتوفي الناصر سنة ٦٢٢ فقام بالأمر بعده ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ولم تطل مدة خلافته سوى تسعة أشهر .

قَصْرِهِ الْفِتْيَانَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْخُلَفَاءِ الْأَكَابِرِ ، كَجَعْفَرٍ صَاحِبِ الْخَيْلِ وَالطِّرَازِ ، وَغَيْرِهِ مِنْ عُظَمَائِهِمْ، وَتَكَفَّلُوا بِأَخْذِهَا عَلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ طَبَقَتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَوْصَلَ إِلَى نَفْسِهِ فِي الْمَيْلِ دُونَ هَؤُلَاءِ الْأَكَابِرِ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْوُصَفَاءِ وَالْمُقَدَّمِينَ وَالْعُرَفَاءِ فَبَايَعُوهُ ، فَلَمَّا كَمَلَتْ بَيْعَةُ أَهْلِ قَصْرِهِ تَقَدَّمَ إِلَى عَظِيمِ دَوْلَتِهِ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ[١] بِالنُّهُوضِ[٢] فِي أَخِيهِ شَقِيقِهِ أَبِي مَرْوَانَ عُبَيْدِ اللهِ الْمُتَخَلِّفِ بِأَنْ يُلْزِمَهُ الْحُضُورَ لِلْبَيْعَةِ دُونَ مَعْذِرَةٍ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى مُوسَى ابْنِ أَحْمَدَ بْنِ حُدَيْرٍ بِالنُّهُوضِ أَيْضًا عَنْ أَبِي الْأَصْبَغِ عَبْدِ الْعَزِيزِ[٣] شَقِيقِهِ الثَّانِي ، فَمَضَى إِلَيْهِمَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي طَلِيعٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَأَتَيَا بِهِمَا إِلَى قَصْرِ مَدِينَةِ

---

(١) هو الحاجب أبو الحسن الوزير جعفر بن عثمان المعروف بابن المصحفى وستأتى ترجمته (٢) بالنهوض فى أخيه : بالاسراع اليه (٣) تقدمت ترجمته هو وموسى بن أحمد بن حدير . ومن أسرة ابن حدير أبو عمر أحمد ابن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير من أهل قرطبة ولى خطة الوزارة وأحكام المظالم وكان صلبا فى أحكامه مهيبا فى الحق ، ولد سنة ٢٥٥ وتوفى سنة ٣٢٧ وابنه أبو عثمان سعيد بن أحمد ولى أحكام الشرطة فى صدر دولة المؤيد بالله ثم لزم بيته وانقبض عن الخدمة الى وفاته وكان رجلا فاضلا زاهدا ذا حظ من الفقه والحديث توفى سنة ٣٩١ هذا ومن ذرية الناصر أبو الوليد هشام ابن عبيد الله بن الناصر من أهل قرطبة كان ممن خير من بقى من أهل بيت

ٱلزَّهْرَاء ، وَقَعَدَ غَيْرُهُمَا مِنْ وُجُوهِ ٱلرِّجَالِ فِي ٱلْخَيْلِ لِإِتْيَانِ غَيْرِهِمَا مِنَ ٱلْإِخْوَةِ ـ وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً ـ فَوَافَى جَمِيعُهُمْ ٱلزَّهْرَاءَ فِي ٱللَّيْلِ ، فَنَزَلُوا فِي مَرَاتِبِهِمْ بِفُصْلَانِ(١) دَارِ ٱلْمُلْكِ ، وَقَعَدُوا فِي ٱلْمَجْلِسَيْنِ ٱلشَّرْقِيِّ وَٱلْغَرْبِيِّ ، وَقَعَدَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِٱللَّهِ عَلَى سَرِيرِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْبَهْوِ ٱلْأَوْسَطِ مِنَ ٱلْأَبْهَاءِ ٱلْمُذَهَّبَةِ ٱلْقِبْلِيَّةِ ٱلَّتِي فِي ٱلسَّطْحِ ٱلْمُمَرَّدِ(٢) فَأَوَّلُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ٱلْإِخْوَةُ فَبَايَعُوهُ وَأَنْصَتُوا لِصَحِيفَةِ ٱلْبَيْعَةِ ، وَٱلْتَزَمُوا ٱلْأَيْمَانَ ٱلْمَنْصُوصَةَ بِكُلِّ مَا ٱنْعَقَدَ فِيهَا ، ثُمَّ بَايَعَ بَعْدَهُمُ ٱلْوُزَرَاءُ وَأَوْلَادُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ ، ثُمَّ أَصْحَابُ ٱلشُّرْطَةِ ، وَطَبَقَاتُ أَهْلِ

الخلافة عفافا ومروءة وفضلا وأدبا وعناية بجمع الكتب ، وقد رغب الخليفة سليمان فى كتبه فقومت واشتراها . وتوفى سنة ٤٠٠ ، ومنهم أبو مروان عبد الملك بن يزيد بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان ابن عبد الرحمن الناصر من أهل قرطبة كان ذا عناية باللغة وآدابها وحفظها والقيام عليها وألف كتابا فى مثلثها نحا فيه منحى أبى محمد البطليوسى على حروف المعجم وسماه « بحر الدرر وروض الفكر » كتب عنه فى سنة ٥٢١ هـ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن سليمان بن الناصر عبد الرحمن بن محمد وكان حافظا الفقه على مذهب الامام مالك مقدما فيه متفننا فى العلوم والمعارف توفى بمدينة فيرة سنة ٥٤٢ « أحمد يوسف نجاتى » (١) فصلان دار الملك : جمع فصيل : حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد (٢) الممرد : الأملس والتمريد فى البناء : التمليس والتسوية ، وبناء ممرد مطول علس

ٱلْمَشْمَةِ ، وَقَعَدَ ٱلْإِخْوَةُ وَٱلْوُزَرَاءُ وَٱلْوُجُوهُ(١) عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، إِلَّا عِيسَى بْنَ فُطَيْسٍ(٢) فَإِنَّهُ كَانَ قَائِمًا يَأْخُذُ ٱلْبَيْعَةَ عَلَى ٱلنَّاسِ ، وَقَامَ ٱلتَّرْتِيبُ عَلَى ٱلرَّسْمِ فِي مَجَالِسِ ٱلِاحْتِفَالِ ٱلْمَعْرُوفَةِ، فَاصْطَفَّ فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلَّذِي قَعَدَ فِيهِ أَكَابِرُ ٱلْفِتْيَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا إِلَى آخِرِ ٱلْبَهْوِ، كُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ، عَلَيْهِمُ ٱلظَّهَائِرُ ٱلْبِيضُ شِعَارُ ٱلْحُزْنِ(٣) ، قَدْ تَقَلَّدُوا فَوْقَهَا

(١) الوجوه : جمع وجه : سيد القوم . (٢) هو عيسى بن فطيس ابن أصبغ بن فطيس بن سليمان ، واسم فطيس بن سليمان عثمان، وفطيس لقب له واسم في ولده ، ومن ذريته عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ابن فطيس قاضي الجماعة بقرطبة كان من جهابذة المحدثين وفحول العلماء المبرزين المفتنين في سائر العلوم ، جمع من الكتب في أنواع العلوم مالم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، تولى قضاء قرطبة سنة ٣٩٤ مع خطته العليا في الوزارة فاستقل بالعمل ونهض به على خير حال وذلك في أيام المظفر عبد الملك بن أبي عامر قيم الدولة وتوفي صدر الفتنة البربرية سنة ٤٠٢ ودفن بتربة سلفه على باب منازلهم وقرب مسجدهم وصلى عليه ابنه أبو عبد الله محمد — وكان مولده سنة ٣٤٨ ، وكان قبل القضاء صاحب المظالم ، وابنه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس كان من أهل الثقة والمعرفة والفهم سريا نبيلا سمع من أبيه وغيره وتوفي سنة ٤٠٩ (٣) كان البياض شعار الحزن في الأندلس . واسمع هذا التعليل البديع لابن شاطر السرقسطي :

قد كنت لاأدري لأية علة ... صار البياض لباس كل مصاب
حتى كساني الدهر سحق ملاءة ... بيضاء من شيب لفقد شبابي
فبذا تبين لي اصابة من رأى ... لبس البياض على نوى الأحباب

ٱلسُّيُوفَ ، ثُمَّ تَلَاهُمُ ٱلْفِتْيَانُ ٱلْوُصَفَاءُ عَلَيْهِمُ ٱلدُّرُوعُ ٱلسَّابِغَةُ[١] وَٱلسُّيُوفُ ٱلْحَالِيَةُ صَفَّيْنِ مُنْتَظِمَيْنِ فِي ٱلسَّطْحِ ، وَفِي ٱلْفُصْلَانِ ٱلْمُتَّصِلَةِ بِهِ ذَوُو ٱلْأَسْنَانِ[٢] مِنَ ٱلْفِتْيَانِ ٱلصَّقَالِبَةِ ٱلْخِصْيَانِ لَابِسِينَ ٱلْبَيَاضَ بِأَيْدِيهِمُ ٱلسُّيُوفُ ، يَتَّصِلُ بِهِمْ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ طَبَقَاتِ ٱلْخِصْيَانِ ٱلصَّقَالِبَةِ ، ثُمَّ تَلَاهُمُ ٱلرُّمَاةُ مُتَنَكِّبِينَ[٣] قِسِيَّهُمْ وَجِعَابَهُمْ ، ثُمَّ وَصَلَتْ صُفُوفُ هَؤُلَاءِ ٱلْخِصْيَانِ ٱلصَّقَالِبَةِ وَصُفُوفُ ٱلْعَبِيدِ ٱلْفُحُولِ شَاكِينَ[٤] فِي ٱلْأَسْلِحَةِ ٱلرَّائِقَةِ وَٱلْعُدَّةِ ٱلْكَامِلَةِ ، وَقَامَتِ ٱلتَّعْبِيَةُ فِي دَارِ ٱلْجُنْدِ وَٱلتَّرْتِيبُ مِنْ رَجَّالَةِ[٥] ٱلْعَبِيدِ عَلَيْهِمُ ٱلْجَوَاشِنُ وَٱلْأَقْبِيَةُ ٱلْبِيضُ وَعَلَى رُؤُوسِهِمُ ٱلْبَيْضَاتُ ٱلصَّقْلِيَّةُ ، وَبِأَيْدِيهِمُ ٱلتِّرَاسُ ٱلْمُلَوَّنَةُ وَٱلْأَسْلِحَةُ ٱلْمُزَيَّنَةُ ٱنْتَظَمُوا صَفَّيْنِ إِلَى آخِرِ ٱلْفَصْلِ[٦] ، وَعَلَى بَابِ ٱلسُّدَّةِ ٱلْأَعْظَمِ ٱلْبَوَّابُونَ وَأَعْوَانُهُمْ ، وَمِنْ خَارِجِ بَابِ ٱلسُّدَّةِ فُرْسَانُ ٱلْعَبِيدِ إِلَى بَابِ ٱلْأَقْبَاءِ[٧] وَٱتَّصَلَ

(١) السابغة : الطويلة الواسعة . (٢) ذوو الأسنان : أصحاب الأعمار : جمع سن وهو العمر أو مقداره في الناس وغيرهم ، مؤنثة : (٣) متنكبين : متقلدين قد وضعوها على مناكبهم (٤) شاكين في الأسلحة : أي ذوي شوكة وحدة في أسلحتهم ، ورجل شاكي السلاح وشائكه : أي حديده والشاكي الأسد أيضا (٥) رجالة العبيد : جمع راجل وهو خلاف الفارس (٦) الفصل : الحاجز بين الشيئين والحد بين الأرضين ، وقد تقدم شرح (الفصلان) (٧) جمع قبو وهو الطاق المعقود بعضه الى بعض

بِهِمْ فُرْسَانُ ٱلْحَشَمِ وَطَبَقَاتُ ٱلْجُنْدِ وَٱلْعَبِيدِ وَٱلرَّمْلَةِ مَوْكِبًا[1] إِثْرَ مَوْكِبٍ إِلَى بَابِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلشَّارِعِ إِلَى ٱلصَّحْرَاءِ. فَلَمَّا تَمَّتِ ٱلْبَيْعَةُ أُذِنَ لِلنَّاسِ بِالِانْفِضَاضِ إِلَّا ٱلْإِخْوَةَ وَٱلْوُزَرَاءَ وَأَهْلَ ٱلْخِدْمَةِ، فَإِنَّهُمْ مَكَثُوا بِقَصْرِ ٱلزَّهْرَاءِ إِلَى أَنِ ٱحْتُمِلَ جَسَدُ ٱلنَّاصِرِ - رَحِمَهُ ٱللهُ - إِلَى قَصْرِ قُرْطُبَةَ لِلدَّفْنِ هُنَالِكَ فِي تُرْبَةِ ٱلْخُلَفَاءِ

***

الوفود بباب الحكم

«وَفِي ذِي ٱلْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ خَمْسِينَ» تَكَاثَرَتِ ٱلْوُفُودُ بِبَابِ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْحَكَمِ مِنَ ٱلْبِلَادِ لِلْبَيْعَةِ وَٱلْتِمَاسِ ٱلْمَطَالِبِ مِنْ أَهْلِ طُلَيْطُلَةَ وَغَيْرِهَا مِنْ قَوَاعِدِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَأَصْقَاعِهَا، فَتَوَصَّلُوا إِلَى مَجْلِسِ ٱلْخَلِيفَةِ بِمَحْضَرِ جَمِيعِ ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْقَاضِي مُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ وَٱلْمَلَإِ[2]، فَأُخِذَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَيْعَةُ وَوُقِّعَتِ ٱلشَّهَادَاتُ فِي نُسَخِهَا

***

خروج بنى أفلح الناصرى لتلقى غالب الناصرى

«وَفِي آخِرِ صَفَرٍ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ» أَخْرَجَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْحَكَمُ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ مَوْلَيَيْهِ مُحَمَّدًا وَزِيَادًا ٱبْنَيْ أَفْلَحَ ٱلنَّاصِرِيِّ بِكَتِيبَةٍ[3] مِنَ ٱلْحَشَمِ لِتَلَقِّي غَالِبٍ ٱلنَّاصِرِيِّ

(١) الموكب: الجماعة ركبانا أومشاة، أوركاب الابل للزينة (٢) الملأ: الأشراف من القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع الى قولهم

(٣) الكتيبة: الجماعة من الجيش المتقدمة

الَّذِي خَرَجُوا إِلَيْهِ - صَاحِبِ مَدِينَةِ سَالِم - الْمُورِدِ لِلطَّاغِيَةِ أُرْدُونَ بْنِ أَذْفُونْشَ الْخَبِيثِ فِي الدَّوْلَةِ، الْمُتَمَلِّكِ عَلَى طَوَائِفَ مِنَ الْأُمَمِ الْجَلَالِقَةِ، وَالْمُنَازِعِ لِابْنِ عَمِّهِ الْمُمَلَّكِ قَبْلَهُ شَانْجَةَ بْنِ رُذْمِيرَ، وَتَبَرَّعَ هٰذَا اللَّعِينُ أُرْدُونُ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَابِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللهِ مِنْ ذَاتِهِ غَيْرَ طَالِبٍ إِذْنًا وَلَا مُسْتَظْهِرٍ بِعَهْدٍ، وَذَٰلِكَ عِنْدَ مَا بَلَغَهُ اعْتِزَامُ الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللهِ فِي عَامِهِ ذَٰلِكَ عَلَى الْغَزْوِ إِلَيْهِ، وَأَخْذِهِ فِي التَّأَهُّبِ لَهُ، فَاحْتَالَ فِي تَأْمِيلِ[1] الْمُسْتَنْصِرِ بِاللهِ وَالِارْتِمَاءِ عَلَيْهِ، وَخَرَجَ قَبْلَ أَمَانٍ يُعْقَدُ لَهُ أَوْ ذِمَّةٍ تَعْصِمُهُ فِي عِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ وُجُوهِ أَصْحَابِهِ تَكَنَّفَهُمْ غَالِبٌ النَّاصِرِيُّ الَّذِي خَرَجُوا إِلَيْهِ، فَجَاءَ بِهِ نَحْوَ مَوْلَاهُ الْحَكَمِ، وَتَلَقَّاهُمْ أَبُو أَفْلَحَ بِالْجَيْشِ الْمَذْكُورِ فَأَنْزَلَاهُمْ، ثُمَّ تَحَرَّكَا بِهِمْ ثَانِيَ يَوْمِ نُزُولِهِمْ إِلَى قُرْطُبَةَ، فَأَخْرَجَ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ إِلَيْهِمْ هِشَامًا[2] الْمُصْحَفِيَّ فِي جَيْشٍ

---

(١) التأميل: الرجاء (٢) هو جد أبي الوليد هشام بن محمد بن هشام بن محمد بن عثمان بن نصر بن عبد الله بن حميد بن سلمة بن عباد بن يونس القيسي المعروف بابن المصحفي من أهل قرطبة، روى عن أبي المطرف بن فطيس القاضي

عَظِيمٍ كَامِلِ ٱلتَّعْبِيَةِ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى بَابِ قُرْطُبَةَ فَمَرُّوا بِبَابِ قَصْرِهَا ، فَلَمَّا انْتَهَى أُرْدُونُ إِلَى مَا بَيْنَ بَابِ ٱلسُّدَّةِ وَبَابِ ٱلْجِنَانِ سَأَلَ عَنْ مَكَانِ رَمْسِ[1] ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ ، فَأُشِيرَ إِلَى مَا يُوَازِي مَوْضِعَهُ مِنْ دَاخِلِ ٱلْقَصْرِ فِي ٱلرَّوْضَةِ ، فَخَلَعَ قَلَنْسُوَتَهُ وَخَضَعَ نَحْوَ مَكَانِ ٱلْقَبْرِ وَدَعَا ثُمَّ رَدَّ قَلَنْسُوَتَهُ إِلَى رَأْسِهِ . وَأَمَرَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِإِنْزَالِ أُرْدُونَ فِي دَارِ ٱلنَّاعُورَةِ ، وَقَدْ كَانَ تَقَدَّمَ فِي فَرْشِهَا بِضُرُوبِ ٱلنِّطَاءِ وَٱلْوِطَاءِ[2] ، وَٱنْتَهَى مِنْ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغَايَةِ ، وَتَوَسَّعَ لَهُ فِي ٱلْكَرَامَةِ وَلِأَصْحَابِهِ ، فَأَقَامَ بِهَا ٱلْخَمِيسَ وَٱلْجُمُعَةَ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلسَّبْتِ تَقَدَّمَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ بِاسْتِدْعَاءِ أُرْدُونَ وَمَنْ مَعَهُ ، بَعْدَ إِقَامَةِ ٱلتَّرْتِيبِ ، وَتَعْبِيَةِ ٱلْجُيُوشِ ، وَٱلِاحْتِفَالِ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُدَدِ وَٱلْأَسْلِحَةِ وَٱلزِّينَةِ ، وَقَعَدَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ عَلَى سَرِيرِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنْ مَجَالِسِ ٱلسَّطْحِ ، وَقَعَدَ ٱلْإِخْوَةُ وَبَنُوهُمْ وَٱلْوُزَرَاءُ

وصاعد اللغوى ، وعباس بن أصبغ وغيرهم ، وكان عالما بالآداب واللغات مفيدا لما مع الذكاء والفهم وحدث عنه ابنه أبو بكر محمد بن هشام وتوفى سنة ٤٤٠ (١) الرمس . القبر (٢) الوطاء : بكسر الواو وفتحها ، خلاف الغطاء أى الفراش الوطيء السهل الوثير يريح جنب النائم

وَوُزَرَاؤُهُمْ صَفًّا فِي ٱلْمَجْلِسِ ، فِيهِمُ ٱلْقَاضِي مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ وَٱلْحُكَّامُ وَٱلْفُقَهَاءُ ، فَأَتَى مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْقَاسِمِ بْنُ طُمَيْسٍ بِالْمَلِكِ أُرْدُونَ وَأَصْحَابِهِ ، وَعَالَى لَبُوسِهِ ثَوْبٌ دِيبَاجِيٌّ رُومِيٌّ أَبْيَضُ وَبِلِيوَانٌ مِنْ جِنْسِهِ وَفِي لَوْنِهِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ رُومِيَّةٌ مَنْظُومَةٌ بِجَوْهَرٍ ، وَقَدْ حَفَّتْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ نَصَارَى وُجُوهِ ٱلذِّمَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ يُؤْنِسُونَهُ وَيُبَصِّرُونَهُ ، فِيهِمْ وَلِيدُ بْنُ حَيْزُونَ قَاضِي ٱلنَّصَارَى بِقُرْطُبَةَ ، وَعُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ قَاسِمٍ مُطْرَانُ طُلَيْطُلَةَ وَغَيْرُهُمَا ، فَدَخَلَ بَيْنَ صَفَّيِ ٱلتَّرْتِيبِ يُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ فِي نَظْمِ ٱلصُّفُوفِ ، وَيُحِيلُ ٱلْفِكْرَ فِي كَثْرَتِهَا وَتَظَاهُرِ أَسْلِحَتِهَا وَرَائِقِ حِلْيَتِهَا ، فَرَاعَهُمْ مَا أَبْصَرُوهُ ، وَصَلَّبُوا[1] عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَتَأَمَّلُوا نَاكِسِي رُءُوسِهِمْ ، غَاضِّينَ مِنْ أَجْفَانِهِمْ ، قَدْ سُكِّرَتْ[2]

(١) صلب المسيحي : رسم صورة الصليب بيده على نفسه ، وصلب الرهبان : اتخذوا الصليب (٢) سكرت أبصارهم : حيرت أو غطيت وغشيت وحبست عن الابصار ومنعت من النظر وسكنت عنه ، من السكر بالشراب ، وقيل في قوله تعالى : «لقالوا انما سكرت أبصارنا» أغشيت وسدت بالسحر فيتخايل بأبصارنا غير ما نرى ، أو غشيها ما منعها من النظر ، وقال أبو عبيدة : سكرت أبصار القوم اذا دير بهم وغشيهم كالسمادير فلم يبصروا ، وقال أبو عمرو بن العلاء : مأخوذ من سكر الشراب كأن العين لحقها ما يلحق شارب المسكر اذا شرب

أَبْصَارُهُمْ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بَابِ ٱلْأَقْبَاءِ أَوَّلِ بَابِ قَصْرِ ٱلزَّهْرَاءِ، فَتَرَجَّلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ خَرَجَ إِلَى لِقَائِهِ ، وَتَقَدَّمَ ٱلْمَلِكُ أُرْدُونُ وَخَاصَّةُ قَوَامِسِهِ عَلَى دَوَابِّهِمْ حَتَّى ٱنْتَهَوْا إِلَى بَابِ السُّدَّةِ، فَأُمِرَ ٱلْقَوَامِسُ بِالتَّرَجُّلِ هُنَالِكَ وَٱلْمَشْيِ عَلَى ٱلْأَقْدَامِ ، فَتَرَجَّلُوا ، وَدَخَلَ ٱلْمَلِكُ أُرْدُونُ وَحْدَهُ رَاكِبًا مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ طُمَيْسٍ ، فَأُنْزِلَ فِي بُرْطُلِ[1] ٱلْبَهْوِ ٱلْأَوْسَطِ مِنَ ٱلْأَبْهَاءِ ٱلْقِبْلِيَّةِ ٱلَّتِي بِدَارِ ٱلْجُنْدِ ، عَلَى كُرْسِيٍّ مُرْتَفِعٍ مَكْسُوِّ ٱلْأَوْصَالِ[2] بِالْفِضَّةِ . وَفِي هٰذَا ٱلْمَكَانِ بِعَيْنِهِ نَزَلَ قَبْلَهُ عَدُوُّهُ وَمُنَاوِئُهُ شَانْجَةُ بْنُ رُذْمِيرَ ٱلْوَافِدُ عَلَى ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللَّهِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ فَقَعَدَ أُرْدُونُ عَلَى ٱلْكُرْسِيِّ ، وَقَعَدَ أَصْحَابُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَخَرَجَ ٱلْإِذْنُ لِأُرْدُونَ ٱلْمَلِكِ مِنَ ٱلْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ ، فَتَقَدَّمَ يَمْشِي وَأَصْحَابُهُ يَتْبَعُونَهُ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى ٱلسَّطْحِ ، فَلَمَّا قَابَلَ ٱلْمَجْلِسَ ٱلشَّرْقِيَّ ٱلَّذِي فِيهِ

(١) البرطل والبرطلة : شبه المظلة الصيفية وليست عند الأصمعي من كلام العرب (٢) جمع وصل وهو المفصل

ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِٱللهِ وَقَفَ وَكَشَفَ رَأْسَهُ وَخَلَعَ بُرْنُسَهُ(١) ، وَبَقِيَ حَاسِرًا إِعْظَامًا لِمَا بَانَ لَهُ مِنَ ٱلدُّنُوِّ إِلَى ٱلسَّرِيرِ، وَٱسْتُنْهِضَ فَمَضَى بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ ٱلْمُرَتَّبَيْنِ فِي سَاحَةِ ٱلسَّطْحِ إِلَى أَنْ قَطَعَ ٱلسَّطْحَ وَٱنْتَهَى إِلَى بَابِ ٱلْبَهْوِ ، فَلَمَّا قَابَلَ ٱلسَّرِيرَ خَرَّ سَاجِدًا سُوَيْعَةً ، ثُمَّ ٱسْتَوَى قَائِمًا ، ثُمَّ نَهَضَ خَطَوَاتٍ وَعَادَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ، وَوَالَى ذٰلِكَ مِرَارًا إِلَى أَنْ قَدِمَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخَلِيفَةِ ، وَأَهْوَى(٢) إِلَى يَدِهِ فَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا ، وَكَرَّ رَاجِعًا مُقَهْقِرًا عَلَى عَقِبِهِ إِلَى وِسَادٍ دِيبَاجٍ مُثْقَلٍ بِالذَّهَبِ جُعِلَ لَهُ هُنَالِكَ ، وَوُضِعَ عَلَى قَدْرِ عَشَرَةِ أَذْرُعٍ مِنَ ٱلسَّرِيرِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَٱلْبُهْرُ(٣) قَدْ عَلَاهُ ، وَأُنْهِضَ خَلْفَهُ مَنِ ٱسْتَدْنَى مِنْ قَوَامِسِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، فَدَنَوْا مُمْتَثِلِينَ فِي تَكْرِيرِ ٱلْخُنُوعِ(٤) ، وَنَاوَلَهُمُ ٱلْخَلِيفَةُ يَدَهُ فَقَبَّلُوهَا ، وَٱنْصَرَفُوا مُقَهْقِرِينَ(٥) فَوَقَفُوا عَلَى رَأْسِ مَلِكِهِمْ

---

(١) البرنس : قلنسوة طويلة وكان الناس يلبسونها في صدر الاسلام ، أو هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به دراعة كان أو جبة ، قيل انه غير عربي (٢) أهوى : مال وانحنى وقدم : تقدم (٣) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الاعياء (٤) الخنوع : الخضوع والذل (٥) مقهقرين ومتقهقرين : راجعين القهقرى أي الى خلف .

***

عزل شانجة وتولية أردون

وَوَصَلَ بِوُصُولِهِمْ وَلِيدُ بْنُ خَيْزُونَ قَاضِي ٱلنَّصَارَى بِقُرْطُبَةَ فَكَانَ ٱلتُّرْجُمَانَ عَنِ ٱلْمَلِكِ أُرْدُونَ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ، فَأَطْرَقَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْحَكَمُ عَنْ تَكْلِيمِ ٱلْمَلِكِ أُرْدُونَ إِثْرَ قُعُودِهِ أَمَامَهُ وَقْتًا كَيْمَا يُفْرِخَ رَوْعُهُ(١) ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ قَدْ خُفِّضَ(٢) عَلَيْهِ ٱفْتَتَحَ تَكْلِيمَهُ فَقَالَ : لِيَسُرَّكَ إِقْبَالُكَ وَتَغْبِطْكَ تَأْمِيلُكَ ، فَلَدَيْنَا لَكَ مِنْ حُسْنِ رَأْيِنَا وَرُحْبِ قَبُولِنَا فَوْقَ مَا قَدْ طَلَبْتَهُ . فَلَمَّا تُرْجِمَ لَهُ كَلَامُهُ إِيَّاهُ، تَطَلَّقَ(٣) وَجْهُ أُرْدُونَ ، وَٱنْحَطَّ عَنْ

---

(١) فرخ الروع وأفرخ : ذهب فزعه ـ ومن أمثالهم المتقشرة في كشف الكرب عن الجبان عند المخاوف قولهم أفرخ روعك ، أي سكن جأشك ، وليذهب رعبك وفزعك فان الأمر ليس على ماتحاذر . وكتب معاوية الى زياد : أفرخ روعك قد وليناك الكوفة ، وكان يخاف أن يوليها غيره . وأفرخ فؤاد الرجل اذا خرج روعه وانكشف عنه الفزع كما تفرخ البيضة اذا انفلقت عن الفرخ فخرج . وأصل الانفراخ : الانكشاف ، وقد قلبه ذو الرمة لمعرفته بالمعنى فقال :

ولى يهز انهزاما وسطها زعلا   جذلان قد أفرخت عن روعه الكرب

فالروع في الفؤاد كالفرخ في البيضة ، وأفرخ روعه اذا دعى له أن يسكن روعه ويذهب

وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة   من الخوف أفرخ أكثر الروع باطله

(٢) يقال : خفض عليك جأشك ، أي سكن قلبك ، والخفض الدعة والسكون (٣) تطلق وجهه : تهلل فرحا وعلاه البشر والسرور

رُتْبَتِهِ فَقَبَّلَ ٱلْبِسَاطَ وَقَالَ : أَنَا عَبْدُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَوْلَاىَ ٱلْمُتَوَرِّكُ[1] عَلَى فَضْلِهِ ، ٱلْقَاصِدُ إِلَى مَجْدِهِ ، ٱلْمُحَكَّمُ فِي نَفْسِهِ وَرِجَالِهِ ، فَحَيْثُ وَصَّنِي مِنْ فَضْلِهِ ، وَعَوَّضَنِي مِنْ خِدْمَتِهِ ، رَجَوْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِيهِ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَنَصِيحَةٍ خَالِصَةٍ . فَقَالَ لَهُ ٱلْخَلِيفَةُ : أَنْتَ عِنْدَنَا بِمَحَلِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ حُسْنَ رَأْيِنَا ، وَسَيَنَالُكَ مِنْ تَقْدِيمِنَا لَكَ ، وَتَفْضِيلِنَا إِيَّاكَ عَلَى أَهْلِ مِلَّتِكَ مَا يَغْبِطُكَ ، وَتَتَعَرَّفُ بِهِ فَضْلَ جُنُوحِكَ[2] إِلَيْنَا ، وَٱسْتِظْلَالِكَ بِظِلِّ سُلْطَانِنَا ، فَعَادَ أُرْدُونُ إِلَى ٱلسُّجُودِ عِنْدَ فَهْمِهِ مَقَالَةَ ٱلْخَلِيفَةِ ، وَٱبْتَهَلَ دَاعِياً وَقَالَ : إِنَّ شَانْجَةَ ٱبْنَ عَمِّي تَقَدَّمَ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمَاضِي مُسْتَجِيرًا بِهِ مِنِّي ، فَكَانَ مِنْ إِعْزَازِهِ إِيَّاهُ مَا يَكُونُ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ أَعَاظِمِ ٱلْمُلُوكِ وَأَكَارِمِ ٱلْخُلَفَاءِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ وَأَمَّلَهُمْ ، وَكَانَ قَصَدَهُ قَصْدَ مُضْطَرٍّ قَدْ شَنَأَتْهُ[3] رَعِيَّتُهُ ، وَأَنْكَرَتْ سِيرَتَهُ ، وَٱخْتَارَتْنِي

---

(١) أي المعتمد، ويقال : تورك على الدابة اذا ثنى رجله ووضع أحد وركيه في السرج ليستريح وذلك اذا أعيا وتعب (٢) جنوحك : ميلك والتجاؤك
(٣) شنأته : أبغضته وكرهته

لِمَكَانِهِ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ مِنِّي - عَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ - وَلا دُعَاءٍ إِلَيْهِ، فَتَسَلَّمْتَهُ وَأَخْرَجْتَهُ عَنْ مُلْكِهِ مُضْطَرًّا مُضْطَهَدًا فَتَطَوَّلَ[١] عَلَيْهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِأَنْ صَرَفَهُ إِلَى مُلْكِهِ، وَقَوَّى سُلْطَانَهُ، وَأَعَزَّ نَصْرَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَقُمْ بِفَرْضِ النِّعْمَةِ الَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ، وَقَصَّرَ فِي أَدَاءِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِ وَحَقِّهِ وَحَقِّ مَوْلَايَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَنَا قَدْ قَصَدْتُ بَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ مِنْ قَرَارَةِ سُلْطَانِي، وَمَوْضِعِ أَحْكَامِي، مُحَكِّمًا لَهُ فِي نَفْسِي وَرِجَالِي وَمَعَاقِلِي[٢] وَمَنْ تَحْوِيهِ مِنْ رَعِيَّتِي، فَشَتَّانَ[٣] مَا بَيْنَنَا بِشُوَّةِ الثِّقَةِ وَمَطْرَحِ[٤] الْهِمَّةِ. فَقَالَ الْخَلِيفَةُ: قَدْ سَمِعْنَا قَوْلَكَ، وَفَهِمْنَا مَعْزَاكَ[٥]، وَسَوْفَ يَظْهَرُ مِنْ إِقْرَاضِنَا إِيَّاكَ عَلَى الْخُصُوصِيَّةِ شَأْنُهُ، وَيَتَرَادَفُ[٦] مِنْ إِحْسَانِنَا إِلَيْكَ أَضْعَافُ مَا كَانَ مِنْ أَبِينَا - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - إِلَى نِدِّكَ[٧]، وَإِنْ كَانَ

---

(١) تطول عليه. امتن عليه وأنعم (٢) المعاقل: الملاجئ والحصون، جمع معقل. (٣) شتان: اسم فعل ماض بمعنى افترق (٤) أي بعد، وطرحه واطرحه: أبعده، وطرف مطرح، وطريح: بعيد النظر (٥) أي غرضك وقصدك، وعزا الشيء: أراده وطلبه (٦) يترادف: يتعاقب ويتوالى ويتتابع (٧) الند: المثل والنظير

لَهُ فَضْلُ ٱلتَّقَدُّمِ بِالْجُنُوحِ إِلَيْنَا وَٱلْقَصْدِ إِلَى سُلْطَانِنَا فَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يُؤَخِّرُكَ عَنْهُ، وَلَا يَنْقُصُكَ مِمَّا أَنَلْنَاكَ، وَسَنَصْرِفُكَ مَغْبُوطًا[1] إِلَى بَلَدِكَ، وَنَشُدُّ أَوَاخِيَّ[2] مُلْكِكَ، وَنُمَلِّكُكَ جَمِيعَ مَا أَنْحَاشَ[3] إِلَيْكَ، وَنَعْقِدُ لَكَ بِذَلِكَ كِتَابًا يَكُونُ بِيَدِكَ، وَنُقَرِّرُ بِهِ حَدَّ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱبْنِ عَمِّكَ، وَنَقْبِضُهُ[4] عَنْ كُلِّ مَا يَتَصَرَّفُهُ مِنَ ٱلْبِلَادِ إِلَى يَدِكَ، وَسَيَتَرَادَفُ عَلَيْكَ مِنْ إِفْضَالِنَا فَوْقَ مَا ٱحْتَسَبْتَهُ، وَٱللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ. فَكَرَّرَ أَرْدُونُ ٱلْخُضُوعَ، وَأَسْهَبَ فِي ٱلشُّكْرِ، وَقَامَ لِلِانْصِرَافِ مُقَهْقِرًا لَا يُوَلِّي ٱلْخَلِيفَةَ ظَهْرَهُ، وَقَدْ

(١) مغبوطا : حسن الحال مسرورا فى نعمة حسنة . والغبطة حسن الحال والمسرة والنعمة (٢) الأواخى « بتشديد الياء » جمع آخية وآخيّة ، وهي فى الأصل عود يعرض فى حائط أو فى حبل يدفن طرفاه فى الأرض ويبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة « وانما تؤخى الآخية فى سهولة الأرض لأنها أرفق بالحبل من الأوتاد الناشزة عن الأرض وهى أثبت فى الأرض السهلة من الوتد » والآخية أيضا : العتب والحرمة والذمة. وتقول لى عند الأمير أخية ثابتة ، وشد الله بينكما أواخى الاخاء وحل أوارى الرياء، وشددت آخية الملاعلها الهرالأرن « أى المرح ذو النشاط والقوى، والآرى» : الآخية» (٣) مطاوع قولهم : حاش عليه الصيد وأحاشه اذا نفره نحوه وساقه اليه وجمعه عليه وأعانه على صيده . وأنحاش عنه ضده : أى نفر وتقبض (٤) نقبضه : نعزله أو نمنعه ونصرفه

تَكَفَّلَهُ الْفِتْيَانُ مِنْ جُمْلَةِ الْفِتْيَانِ ، فَأَخْرَجُوهُ إِلَى الْمَجْلِسِ الْغَرْبِيِّ فِي السَّطْحِ ، وَقَدْ عَلَاهُ الْبُهْرُ وَأَذْهَلَهُ الرَّوْعُ مِنْ هَوْلِ مَا بَاشَرَهُ ، وَجَلَالَةِ مَا عَايَنَهُ مِنْ فَخَامَةِ الْخِلِيفَةِ وَبَهَاءِ الْعِزَّةِ . فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ الْمَجْلِسَ وَوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَقْعَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَالِيًا مِنْهُ انْحَطَّ سَاجِدًا إِعْظَامًا لَهُ . ثُمَّ تَقَدَّمَ الْفِتْيَانُ بِهِ إِلَى الْبَهْوِ الَّذِي بِجَوْفِيِّ هَذَا الْمَجْلِسِ ، فَأَجْلَسُوهُ هُنَالِكَ عَلَى وِسَادٍ مُثْقَلٍ بِالذَّهَبِ ، وَأَقْبَلَ نَحْوَهُ الْحَاجِبُ جَعْفَرٌ ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ قَامَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَهُ ، وَأَوْمَأَ إِلَى تَقْبِيلِ يَدِهِ فَقَبَضَهَا الْحَاجِبُ عَنْهُ ، وَانْحَنَى إِلَيْهِ فَعَانَقَهُ ، وَجَلَسَ مَعَهُ[1] فَبَسَطَهُ ، وَوَعَدَهُ مِنْ إِنْجَازِ عِدَاتِ الْخَلِيفَةِ لَهُ بِمَا ضَاعَفَ سُرُورَهُ . ثُمَّ أَمَرَ الْحَاجِبُ جَعْفَرٌ فَصُبَّتْ عَلَيْهِ الْخِلَعُ الَّتِي أَمَرَ لَهُ بِهَا الْخَلِيفَةُ ـ وَكَانَتْ دُرَّاعَةً[2] مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ ، وَبُرْنُسًا مِثْلَهَا لَهُ لَوْزَةٌ مُفْرَغَةٌ مِنْ خَالِصِ التِّبْرِ مُرَصَّعَةٌ بِالْجَوْهَرِ وَالْيَاقُوتِ مَلَأَتْ عَيْنَ الْعِلْجِ[3] تَجِلَّةً ـ

---

(١) يريد بشره بالغبطة وهنأه بها (٢) الدراعة : كالجبة مشقوقة المقدم
(٣) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم . والتجلة : العظمة

فَخَرَّ سَاجِدًا وَأَعْلَنَ بِالدُّعَاءِ . ثُمَّ دَعَا الْحَاجِبُ أَصْحَابَهُ رَجُلًا رَجُلًا فَخَلَعَ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ ، فَكَمَلَ جَمِيعُ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَصْلُحُ لَهُمْ ، وَخَرَّ جَمِيعُهُمْ خَاضِعِينَ شَاكِرِينَ . ثُمَّ انْطَلَقَ الْمَلِكُ أُرْدُونُ وَأَصْحَابُهُ ، وَقُدِّمَ لِرِكَابِهِ فِي أَوَّلِ الْبَهْوِ الْأَوْسَطِ فَرَسٌ مِنْ عِتَاقِ خَيْلِ الرُّكَابِ ، عَلَيْهِ سَرْجٌ حَلْيٍ وَلِجَامٌ حَلْيٍ مُفَرَّغٍ ، وَانْصَرَفَ مَعَ ابْنِ طُمَيْسٍ إِلَى قَصْرِ الرُّصَافَةِ مَكَانِ تَضْيِيفِهِ ، وَقَدْ أُعِدَّ لَهُ فِيهِ كُلُّ مَا يَصْلُحُ لِمِثْلِهِ مِنَ الْآلَةِ وَالْفُرُشِ وَالْمَاعُونِ ، وَاسْتَقَرَّ أَصْحَابُهُ فِيمَا لَا كِفَاءَ[1] لَهُ مِنْ سَعَةِ التَّضْيِيفِ وَإِرْغَادِ الْمَعَاشِ ، وَاسْتَشْعَرَ النَّاسُ مِنْ مَسَرَّةِ هَذَا الْيَوْمِ وَعِزَّةِ الْإِسْلَامِ فِيهِ مَا أَفَاضُوا مِنَ التَّبَجُّحِ[2] بِهِ وَالتَّحَدُّثِ عَنْهُ أَيَّامًا

٭٭٭

تبارى الخطباء بمجلس الخليفة

وَكَانَتْ لِلْخُطَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ بِمَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ فِي هَذَا

(١) لا كفاء له : لا مساوى ولا نظير له (٢) التبجح بالشيء : الفرح به والافتخار والمباهاة

اَلْيَوْمِ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ ، وَإِنْشَادَاتٌ لِأَشْعَارٍ مُحْكَمَةٍ مِتَانٍ ، يَطُولُ اَلْقَوْلُ فِي اَخْتِيَارِهَا . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اَلْمَلِكِ اَبْنِ سَعِيدٍ اَلْمُرَادِيِّ [1] مِنْ قَصِيدَةٍ حَيْثُ يَقُولُ :

مُلْكُ اَلْخَلِيفَةِ آيَةُ اَلْإِقْبَالِ
وَسُعُودُهُ مَوْصُولَةٌ بِنَوَالِ
وَاَلْمُسْلِمُونَ بِعِزَّةٍ وَبِرِفْعَةٍ
وَاَلْمُشْرِكُونَ بِذِلَّةٍ وَسِفَالِ [2]
أَلْقَتْ بِأَيْدِيهَا اَلْأَعَاجِمُ نَحْوَهُ
مُتَوَقِّعِينَ لِصَوْلَةِ اَلرِّئْبَالِ [3]

(١) عبد الملك بن سعيد المرادى الخازن شاعر أديب كثير الشعر موصوف بالفضل ، ومن شعره فى وصف ناعورة :

ناهيك ناعورة تعالت ... على صفاتى مع اقتدارى
يحملها الماء بانقياد ... وتحمل الماء باقتسار
تذكر طورا حنين ناى ... وتارة من زئير ضارى
تسقى بساتين حلويات ... غرائب الروض والثمار
طلوع عبد العزيز فيها ... كالشمس فى جنة القرار

وقال فيمن حجبه :

ماحدناك اذ وقفنا ببابك ... الذى كان من طويل حجابك
قد دعنا الزمان فيك وقلنا ... أبعد الله كل دهر أتى بك

(٢) السفال ، بفتح السين ، نقيض العلاء .

(٣) الصولة : القوة والبطش ، والرئبال : الأسد

هَـذَا أَمِيرُهُمُ أَتَاهُ آخِـذًا
مِنْـهُ أَوَاصِرَ(١) ذِمَّـةٍ وَحِبَالِ
مُتَوَاضِعًا لِجَلَالِهِ مُتَخَشِّعًا
مُتَبَرِّعًا لَمَّا يُرَعْ بِقِتَالِ
سَيَنَالُ بِالتَّأْمِيلِ لِلْمَلِكِ(٢) الرِّضَا
عِـزًّا يَعُمُّ عِـدَاهُ بِالْإِذْلَالِ
لَا يَوْمَ أَعْظَمُ لِلْوُلَاةِ مَسَرَّةً
وَأَشَـدُّهُ غَيْظًا عَلَى الْأَقْيَالِ(٣)
مِنْ يَوْمِ أُرْدُونَ الَّذِي إِقْبَالُهُ
أَمَلُ الْمَدَى وَنِهَايَةُ الْإِقْبَالِ
مَلِكُ الْأَعَاجِمِ كُلِّهَا ابْنُ مُلُوكِهَا
وَالِي الرَّعَاعِ إِلَى الْأَعَاجِمِ وَالِي
إِنْ كَانَ جَاءَ ضَرُورَةً فَلَقَدْ أَتَى
عَنْ عِزِّ مَمْلَـكَةٍ وَطَوْعِ رِجَالِ

---

(١) جمع آصرة : وهي ما عطفك على غيرك من رحم وقرابة أو معروف ومنة . والآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخباء الى وتد . (٢) الملك الرضا : المرضي ، وهو وصف بالمصدر . ونظيره رجل عدل : أي عادل أو « الرضا » مفعول « سينال » وقوله : عزا الخ بدل منه (٣) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس دون الملك .

فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلْمُنِيلِ إِمَامَنَا
حَظَّ ٱلْمُلُوكِ بِقَدْرِهِ(١) ٱلْمُتَعَالِي
هُوَ يَوْمُ حَشْرِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُمْ
لَمْ يُسْأَلُوا فِيهِ عَنِ ٱلْأَعْمَالِ
أَضْحَى ٱلْقَضَاءُ مُخَيِّمًا بِجُيُوشِهِ
وَٱلْأُفْقُ أَقْتَمُ(٢) أَغْبَرُ ٱلسِّرْبَالِ
لَا يَهْتَدِي ٱلسَّارِي ٱللَّيْلِ تَمَامِهِ
إِلَّا بِضَوْءِ صَوَارِمٍ وَعَوَالِي(٣)
وَكَأَنَّ أَجْسَامَ ٱلْكُمَاةِ تَسَرْبَلَتْ
مُذْ عُرِّيَتْ عَنْهُ جُسُومَ صِلَالِ(٤)

(١) قد تكون (القدرة) (٢) القتمة الغبرة أوسواد ليس بشديد ، والقتام الغبار ، والسربال القميص أوالدرع أوكل مالبس (٣) السارى : السائر عامة الليل ، والصوارم : السيوف القواطع ، والعوالى : الرماح (٤) فى الأصل «ضلال» وهو تحريف فاسد ، والصلال : جمع صل : وهو الحية شبه ماعلى الكماة والجنود من الأسلحة والدروع بجلد الحيات وهو تشبيه مألوف لدى العرب لما فيه من الدوائر التى تشبه حلق الدرع ، قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمى العباسى :

وعليّ سابغة الدروع كأنها ... سلخ كسابغة الشجاع الأرقم

وسابغة الحية : سلخها وجلدها. وقال أبو العلاء المعرى فى الدرعيات :

كأثواب الأراقم مزقتها ... فخاطتها بأعينها الجراد

وَكَأَنَّمَا ٱلْعِقْبَانُ(١) عِقْبَانُ ٱلْفَـلَا
مُنْقَضَّةٌ لِتَخَطُّفِ ٱلْضُّـلَّالِ
وَكَأَنَّ مُقْتَضَبَ ٱلْقَنَا مُهْتَزَّةً
أَشْطَانُ(٢) نَازِحَةٍ بَعِيدَةِ جَالِ
وَكَأَنَّمَا قِبَلَ ٱلتَّجَافِيفِ أُكْتِسَتْ
نَارًا تُؤَجِّجُهَا بِلَا إِشْعَالِ(٣)

ولبعض الأعراب يصف درعا فشبهها فى صفائها وما فيها من الحلق الدقيقة بسلخ الحية :

وشرة تهزأ بالنصال كأنها من خلع الهلال

والهلال هنا : الحية، وهزؤها بالنصال : ردها اياها غير مؤثرة فيها .

« أحمد يوسف نجاتى » .

(١) جمع عقاب ، طائر من العتاق الجوارح (٢) المقتضبة من اقتضب الغصن اذا قطعه ومنه القضيب وهو ما قطع من الأغصان للسهام والقسى — وأشطان : جمع شطن وهو الحبل الشديد الفتل يستقى به أو عام . والجال والجول : ناحية البئر وجانبها أو جدارها ، أو كل ناحية من نواحيها الى أعلاها من أسفلها ، ونازحة أى بعيدة صفة لبئر « محذوفة » ومعنى البيت مأخوذ من قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم

(٣) التجفاف : آلة للحرب يلبسه الفرس والانسان ليقيه فى الحرب من سلاح وآلة ، وأجج النار أوقدها — يصف هذه التجافيف بالتوهج والبريق واللمعان . و يظهر لى أن البيت : وكأنما قبل التجافيف اكتست الخ والقبل : جمع قبلة : وهو شئ من عاج مستدير يتلألأ يعلق فى صدر المرأة أو الصبي أو الفرس .

٭٭٭

خزانة الحكم العلمية

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي حَقِّ ٱلْحَكَمِ ٱلْمُسْتَنْصِرِ، عَنْ فَتَاهُ تَلِيدٍ صَاحِبِ خِزَانَتِهِ ٱلْعِلْمِيَّةِ، فِيمَا حَدَّثَ عَنْهُ ٱلْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ: إِنَّ عِدَّةَ ٱلْفَهَارِسِ ٱلَّتِي فِيهَا تَسْمِيَةُ ٱلْكُتُبِ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ فَهْرَسَةً، فِي كُلِّ فَهْرَسَةٍ عِشْرُونَ وَرَقَةً لَيْسَ فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ ٱلدَّوَاوِينِ فَقَطْ. ٱنْتَهَى.

وَقَدْ قَدَّمْنَاهُ عَنِ ٱبْنِ خَلْدُونَ، وَنَقَلَهُ ٱبْنُ ٱلْأَبَّارِ فِي ٱلتَّكْمِلَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي حَقِّ ٱلْحَكَمِ: إِنَّهُ كَانَ حَسَنَ ٱلسِّيرَةِ، مُكْرِمًا لِلْقَادِمِينَ عَلَيْهِ، جَمَعَ مِنَ ٱلْكُتُبِ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ كَثْرَةً وَنَفَاسَةً، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهَا كَانَتْ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفِ مُجَلَّدٍ، وَإِنَّهُمْ لَمَّا نَقَلُوهَا أَقَامُوا سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي نَقْلِهَا.

وَكَانَ عَالِمًا نَبِيهًا صَافِيَ ٱلسَّرِيرَةِ، وَسَمِعَ مِنْ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغَ[1]،

---

(١) هو أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطا البياني مولى الوليد بن عبد الملك امام حافظ من أئمة الحديث مكثر مصنف، كان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره، وروى عنه جماعة من أكابر أهل بلده، وكان أصله من مدينة بيانة ثم سكن قرطبة وبها توفي سنة ٣٤٠.

وَأَحْمَدَ بْنِ دُحَيْمٍ (١) وَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ ٱلْخُشَنِيِّ (٢) وَزَكَرِيَّا بْنِ خَطَّابٍ (٣) وَأَكْثَرَ عَنْهُ ، وَأَجَازَ لَهُ ثَابِتُ ٱبْنُ قَاسِمٍ (٤) ، وَكَتَبَ عَنْ خَلْقٍ كَثِيرٍ سِوَى هَؤُلَاءِ . وَكَانَ يَسْتَجْلِبُ ٱلْمُصَنَّفَاتِ مِنَ ٱلْأَقَالِيمِ وَٱلنَّوَاحِي بَاذِلًا فِيهَا مَا أَمْكَنَ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ حَتَّى ضَاقَتْ عَنْهَا خَزَائِنُهُ ،

(١) هو أبو عمر أحمد بن دحيم بن خليل بن عبد الجبار بن حرب من أهل قرطبة أخذ عن كثير من الأندلس ورحل الى الشرق سنة ٣١٥ وكان محدثا جليلا ثقة ولاه الامام الناصر أحكام القضاء بمدينة طليطلة ولم يزل قاضيا الى أن توفى سنة ٣٣٨ فى الطاعون ، وكان مولده سنة ٢٧٨ — وفى الأصل « رحيم » محرفة (٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن زيد بن الحسن بن كليب بن أبى ثعلبة الخشنى صاحب رسول الله ﷺ من أهل قرطبة كان ذاحظ عظيم من علوم اللغة والأدب والحديث وأدخل الأندلس كثيرا من اللغة والشعر الجاهلى بعد عودته من رحلته الى الشرق ، وأراده الأمير محمد على القضاء فأبى ، توفى سنة ٢٨٦ — ولعل المستنصر انما سمع من ابنه محمد بن محمد ابن عبد السلام المتوفى سنة ٣٣٣ وكان عالما فاضلا زاهدا أخذ عن أبيه وغيره وكان مشاورا فى الأحكام (٣) هو أبو يحيى زكريا بن خطاب بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن اسمعيل بن حزم الكلبي من أهل تطيلة عالم محدث استقدمه المستنصر بالله وهو ولى عهد فسمع منه أكثر روايته وكان ثقة مأمونا وولى القضاء بموضعه بعد عمر بن يوسف بن الامام فى سنة ٣٣٧ (٤) ثابت بن قاسم بن ثابت السرقسطى محدث لغوى عالم مليح الخط جيد الكتاب توفى سنة ٣٥٢

وَكَانَ ذَا غَرَامٍ بِهَا قَدْ آثَرَ ذَلِكَ عَلَى لَذَّاتِ ٱلْمُلُوكِ، فَاسْتَوْسَعَ عِلْمُهُ وَدَقَّ نَظَرُهُ وَجَمَّتِ ٱسْتِفَادَتُهُ. وَكَانَ فِي ٱلْمَعْرِفَةِ بِالرِّجَالِ وَٱلْأَخْبَارِ وَٱلْأَنْسَابِ أَحْوَذِيًّا[1] نَسِيجَ وَحْدِهِ، وَكَانَ ثِقَةً فِيمَا يَنْقُلُهُ، بِهَذَا وَصَفَهُ ٱبْنُ ٱلْأَبَّارِ وَبِأَضْعَافِهِ، وَقَالَ: عَجَبًا لِابْنِ ٱلْفَرَضِيِّ وَٱبْنِ بَشْكُوَالَ كَيْفَ لَمْ يَذْكُرَاهُ وَقَلَّمَا يُوجَدُ كِتَابٌ مِنْ خَزَائِنِهِ إِلَّا وَلَهُ فِيهِ قِرَاءَةٌ أَوْ نَظَرٌ فِي أَيِّ فَنٍّ كَانَ، وَيَكْتُبُ فِيهِ نَسَبَ ٱلْمُؤَلِّفِ وَمَوْلِدَهُ وَوَفَاتَهُ، وَيَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِغَرَائِبَ لَا تَكَادُ تُوجَدُ إِلَّا عِنْدَهُ لِعِنَايَتِهِ بِهَذَا ٱلشَّأْنِ؛ وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلنَّظْمِ قَوْلُهُ:

إِلَى ٱللهِ أَشْكُو مِنْ شَمَائِلِ مُسْرِفٍ

عَلَيَّ ظَلُومٍ لَا يَدِينُ بِمَا دِنْتُ

---

(١) الأحوذي السريع في كل ما أخذ فيه، والجاد في أموره القاهر لها لا يشذ عليه شيء — ويقال هو نسيج وحده: يضرب مثلا لكل من بولغ في مدحه كقولك: هو واحد عصره، وفريد قومه، فنسيج وحده أي لا نظير له في العلم وغيره، وأصله في الثوب لأن الثوب اذا كان رفيعا كريما لم ينسج على منواله غيره ولا يعمل على مثاله مثله لدقته. وفي حديث عائشة أنها ذكرت عمر فقالت: «كان والله أحوذيا نسيج وحده» أرادت أنه كان منقطع القرين عديم النظير

نَأَتْ عَنْهُ دَارِي فَاسْتَزَادَ صُدُودُهُ
وَإِنِّي عَلَى وَجْدِي ٱلْقَدِيمِ كَمَا كُنْتُ
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ شَوْقِيَ بَالِغٌ
مِنَ ٱلْوَجْدِ مَا بَلَّغْتُهُ لَمْ أَكُنْ بِنْتُ[1]

وَقَوْلُهُ :

عَجِبْتُ وَقَدْ وَدَّعْتُهَا كَيْفَ لَمْ أَمُتْ
وَكَيْفَ ٱنْثَنَتْ بَعْدَ ٱلْوَدَاعِ يَدِي مَعِي ؟؟
فَيَا مُقْلَتِي ٱلْعَبْرَى[2] عَلَيْهَا ٱسْكُبِي دَمًا
وَيَا كَبِدِي ٱلْحَرَّى عَلَيْهَا تَقَطَّعِي

وَتُوُفِّيَ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - بِقَصْرِ قُرْطُبَةَ ثَانِيَ صَفَرٍ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ لِسِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ خِلَافَتِهِ، وَكَانَ أَصَابَهُ ٱلْفَالِجُ[3] فَلَزِمَ ٱلْفِرَاشَ إِلَى أَنْ هَلَكَ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - وَكَانَ قَدْ شَدَّدَ فِي إِبْطَالِ ٱلْخَمْرِ فِي مَمْلَكَتِهِ تَشْدِيدًا عَظِيمًا .

(١) بنت : بعدت (٢) عين عبرى : باكية ، ورجل عبران : باك حزين ، من العبرة وهي الدمع ، وحرى مؤنث حران وفعلهما حر يحر «من باب تعب» فهو حران إذا عطش . وفي الحديث : «في كل كبد حرى أجر» أي في سقيها أو في صبر صاحبها » (٣) الفالج : الشلل واسترخاء أحد شق البدن فيبطل احساسه وحركته

***

«وَوَلِيَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ هِشَامٌ* صَغِيرًا» ، سِنُّهُ تِسْعُ سِنِينَ ، هشام بن الحكم
وَلَا يُنَافِيهِ قَوْلُ ٱبْنِ خَلْدُونَ : قَدْ نَاهَزَ ٱلْحُلُمَ[1] ، وَكَانَ ٱلْحَكَمُ قَدِ ٱسْتَوْزَرَ لَهُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ ، وَنَقَلَهُ مِنْ خُطَّةِ ٱلْقَضَاءِ إِلَى وِزَارَتِهِ ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ أُمُورَهُ فَٱسْتَقَلَّ . قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَتَرَقَّتْ حَالُ ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ عِنْدَ ٱلْحَكَمِ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ ٱلْحَكَمُ وَبُويِعَ هِشَامٌ وَلُقِّبَ ٱلْمُؤَيَّدَ ، بَعْدَ أَنْ قُتِلَ لَيْلَتَئِذٍ ٱلْمُغِيرَةُ أَخُو ٱلْحَكَمِ ٱلْمُرَشَّحُ لِأَمْرِهِ ، تَنَاوَلَ ٱلْفَتْكَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ هٰذَا ، بِمُمَالَأَةٍ[2] مِنْ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ ٱلْمُصْحَفِيِّ حَاجِبِ أَبِيهِ وَغَالِبٍ مَوْلَى ٱلْحَكَمِ صَاحِبِ مَدِينَةِ

---

(١) أي قارب البلوغ (٢) مالأه ممالأة : ساعده وعاونه واتفق معه

* ترجم له في تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي « ج ٢ ص ١٠ » بما يأتي : بويع لهشام أمير المؤمنين أعزه الله بالخلافة صبيحة يوم الاثنين لخمس خلون من صفر سنة ست وستين وثلثمائة ومولده في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وثلثمائة .

سَالِمٍ ، وَمِنْ خِصْيَانِ ٱلْقَصْرِ يَوْمَئِذٍ وَرُؤَسَائِهِمْ فَائِقٌ[1] وَجَوْذَرٌ ، فَقَتَلَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ ٱلْمُغِيرَةَ بِمُمَالَأَةِ مَنْ ذُكِرَ ، وَتَمَّتِ ٱلْبَيْعَةُ لِهِشَامٍ . ثُمَّ سَمَا لِابْنِ أَبِي عَامِرٍ أَمَلٌ فِي ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى هِشَامٍ لِمَكَانِهِ فِي ٱلسِّنِّ ، وَثَابَ لَهُ رَأْيٌ فِي ٱلِاسْتِبْدَادِ ، فَمَكَرَ بِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَضَرَبَ بَيْنَ رِجَالِهَا ، وَقَتَلَ بَعْضًا بِبَعْضٍ ، وَكَانَ مِنْ رِجَالِ ٱلْيَمَنِيَّةِ مِنْ مَعَافِرَ ، دَخَلَ جَدُّهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ مَعَ طَارِقٍ ، وَكَانَ عَظِيمًا فِي قَوْمِهِ ، وَكَانَ لَهُ فِي ٱلْفَتْحِ أَثَرٌ

---

(١) كذا بالأصل « فائق وجودر » بتحريف الاسمين والذى أعرفه أن اسمه فاتن لافائق . وجوذر هذا هو جوذر الحكمى الخادم بقصر قرطبة كان يعنى باللغة العربية ويدقق فى فهم معانيها ، وكان ذا ثقة وأمانة ومعرفة ، حتى لقد أجمع أهل الدولة أنه لم يقم على رأس أمير بالأندلس من هذا الجيل الصقلبى الفظ الغليظ القلب القاسى الطبع كهذين الخادمين فاتن وجوذر سعة معرفة وصدق خدمة ولطف إشارة ، مع رحب صدر ، وشدة احتمال ، وحسن معاملة . وفاتن ، وجوذر ، اسمان لطيفان من أسماء الوصفاء ومقدمى الفتيان . « أحمد يوسف نجاتى » .

***

وَعَظُمَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ* هٰـذَا وَغَلَبَ عَلَى ٱلْمُؤَيَّدِ وَمَنَعَ — المنصور بن أبي عامر

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب «ج ١ ص ٥٧» بترجمة مسهبة نقتطف منها ما يأتى :

المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر المعافرى الذى حجب المؤيد ، وكان فى منزلة سلطان ، هو مذكور فى كتب كثيرة ، ولابن حيان فيه كتاب مفرد . قال الحميدى : أصله من الجزيرة الخضراء ، وله بها قدر وأبوة ، وورد شابا الى قرطبة ، فطلب العلم والأدب وتمهر ، وكانت له همة لم تزل ترتقى الى أن اعتنت به صبح أم هشام المؤيد ، فصارت له الحجابة وكان له مجلس معروف فى الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم ، وغزواته نيف وخمسون غزوة ، وله فتوح كثيرة ، وكان فى أكثر زمانه لا يخل بغزوتين فى السنة . ومن خط ابن حيان : هو أبو عامر محمد بن عبد الله ابن عامر بن أبى عامر محمد بن الوليد بن سويد بن عبد الملك ، وعبدالملك جده هو الداخل للأندلس مع طارق بن زياد أول الداخلين من العرب وهو وسيط فى قومه ، ثم حصلت وحشة بين صبح أم هشام الخليفة وبين المنصور الحاجب ، آل الأمر فيها الى أن كانت الغلبة له ، وأخذ الأموال التى كانت فى القصر مخزنة ، ونقلها الى داره ، ووكل بالقصر من أراد وثق من أراد ، وصارت الدولة باطنا وظاهرا على حكمه ، وكان فى أثناء ذلك مريضا ، ولما أفاق وصل الى الخليفة هشام واجتمع به واعترف له بالاضطلاع بالدولة ، فخرست ألسنة الحسدة ، وعلم ما فى نفوس الناس لظهور هشام ورؤيته ، ومات المنصور فى صفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة . وذكر ابن حيان أنه مات ليلة الاثنين لثلاث بقين من رمضان سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة وأوصى أن يدفن حيث يقبض ، فدفن فى قصره بمدينة سالم ، واضطرب الوالى على ابنه عبد الرحمن وقالوا : انما نحن فى حجر آل أبى عامر الدهر كله .

ٱلْوُزَرَاءِ مِنَ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهِ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلْأَيَّامِ يُسَلِّمُونَ وَيَنْصَرِفُونَ. وَأَرْضَخَ[1] لِلْجُنْدِ فِي ٱلْعَطَاءِ، وَأَعْلَى مَرَاتِبَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقَمَعَ[2] أَهْلَ ٱلْبِدَعِ، وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَشَجَاعَةٍ وَبَصَرٍ بِٱلْحُرُوبِ وَدِينٍ مَتِينٍ. ثُمَّ تَجَرَّدَ لِرُؤَسَاءِ ٱلدَّوْلَةِ مِمَّنْ عَانَدَهُ وَزَاحَمَهُ، فَمَالَ عَلَيْهِمْ وَحَطَّهُمْ عَنْ مَرَاتِبِهِمْ، وَقَتَلَ بَعْضًا بِبَعْضٍ - كُلُّ ذَٰلِكَ عَنْ هِشَامٍ وَخَطِّهِ وَتَوْقِيعِهِ - حَتَّى ٱسْتَأْصَلَهُمْ وَفَرَّقَ جُمُوعَهُمْ، وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِالصَّقَالِبَةِ ٱلْخِصْيَانِ ٱلْخُدَّامِ بِٱلْقَصْرِ، فَحَمَلَ ٱلْحَاجِبَ ٱلْمُصْحَفِيَّ عَلَى نَكْبَتِهِمْ، فَنَكَبَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ ٱلْقَصْرِ، وَكَانُوا ثَمَانِمِائَةٍ أَوْ يَزِيدُونَ. ثُمَّ أَصْهَرَ[3] إِلَى غَالِبٍ مَوْلَى ٱلْحَكَمِ، وَبَالَغَ فِي خِدْمَتِهِ وَٱلتَّنَصُّحِ لَهُ، وَٱسْتَعَانَ بِهِ عَلَى ٱلْمُصْحَفِيِّ فَنَكَبَهُ وَمَحَا أَثَرَهُ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ. ثُمَّ ٱسْتَعَانَ عَلَى غَالِبٍ بِجَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمْدُونَ[4] «صَاحِبِ ٱلْمَسِيلَةِ وَقَائِدِ ٱلشِّيعَةِ» مَمْدُوحِ ٱبْنِ هَانِئٍ

---

(١) أرضخ الجند: أعطاهم قليلا من كثير، والرضيخة والرضاخة القليل من العطية (٢) أى قهرهم وأذلهم وردهم عما يريدون (٣) أصهر اليه: صار له صهرا (٤) هو صاحب المسيلة وأمير الزاب وكان أبوه على قد بنى المسيلة فكانت معروفة بهم، وجرت بين

بِالْفَائِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ وَغَيْرِهَا(١)، وَهُوَ النَّازِعُ إِلَى الْحُكْمِ

جعفر وزيرى بن مناد جد المعز بن باديس احن ومشاجرات أفضت الى القتال فتواقفا ونشبت بينهما معركة حامية قتل زيرى فيها ، وقام ولده بلكين بن زيرى مقامه، واستظهر على جعفر وأجلب عليه فلم أن ليس له به طاقة فغادر بلاده وعلكته وهرب الى الأندلس فقتل بها سنة ٣٦٤ « والمسيلة » مدينة بالمغرب من أعمال الزاب كانت تسمى المحمدية اختطها سنة ٣١٥ أبو القاسم محمد بن المهدى الملقب بالقائم حين كان ولى عهد أبيه المهدى الفاطمى . والزاب كورة عظيمة بافريقية بين تلمسان وسجلماسة ، ينسب اليها محمد بن الحسن التيمى الطبنى كان فى أيام الحكم المستنصر . هذا ولأبى القاسم ابن هانئ الأندلسى فى جعفر بن على مدائح فائقة يجاوز حسنها حد الوصف وهو القائل فيه :

المدنفان من البرية كلها   جسمى وطرف بابلى أحور
والمشرقات النيرات ثلاثة   الشمس والقمر المنير وجعفر

وله فيه :

ألا أيها الوادى المقدس بالندى   وأهل الندى قلبى اليك مشوق
ويا أيها القصر المنيف قبابه   على الزاب لايبعد اليك طريق
ويامالك الزاب الرفيع عماده   بقيت لجمع المجد وهو تريق
على ملك الزاب السلام مرددا   وريحان مسك بالسلام فتيق

(١) عدة هذه القصيدة سبعون بيتا ، ومطلعها :

أليلتنا اذ أرسلت واردا وحفا   وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا
وبات لنا ساق يقوم على الدجا   بشمعة نجم ماتقط ولا تطفا

وبعد أن وصفه بأبيات قال :

جعلنا حشايانا ثياب مدامنا   وقدت لنا الظلماء من جلدها لحفا
فمن كبد تدنى الى كبد هوى   ومن شفة توحى الى شفة رشفا

أَوَّلَ الدَّوْلَةِ، وَبِمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ زِنَاتَةَ وَالْبَرْبَرِ، ثُمَّ قَتَلَ جَعْفَرًا بِمُمَالَأَةِ أَبْنِ عَبْدِ الْوَدُودِ(١) وَابْنِ جَهْوَرٍ وَابْنِ ذِي النُّونِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ. ثُمَّ لَمَّا خَلَا الْجَوُّ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْخِلَافَةِ، وَالْمُرَشَّحِينَ لِلرِّيَاسَةِ

ثم وصف الليل ونجومه فى نحو عشرين بيتا حتى قال :

كأن لواء الشمس غرة جعفر   رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

ثم مدحه بقول جزل بالبأس والاقدام والكرم والجود وفضله على غيره من الملوك والرؤساء حتى قال :

فتى تسحب الدنيا به خيلاءها   وقد طمحت طرفا وقد شمخت أنفا

و بالغ فيها ماشاء كعادته ثم ختمها بقوله :

أمنت بك الأيام وهى مخوفة   ولو بيديك الخلف أمنتنى الحتفا

وله فى جعفر نحو عشرين قصيدة غراء ، ومن أشهرها أيضا قصيدته البائية التى مطلعها :

أحبب بهاتيك القباب قبابا   لا بالحداة ولا الركاب ركابا

فيها قلوب العاشقين تخالها   عنا بأيدى البيض أو عنابا

ومنها :

فكأنما ضرب السماء سرادقا   بالزاب أو رفع النجوم قبابا

فرشت لأيدى الليوث خدودها   ورضين مايأتى وكن غضابا

قد طيب الأفواه طيب ثنائه   من أجل ذا تجد الثغور عذابا

ولو ان أقطار البلاد تبت بكم   لسكنتم الأخلاق والآدابا

(١) هو الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى عقد له المنصور ابن أبى عامر على المغرب الأقصى وأنفذه اليه فى سنة ٣٧٦ ومكث به ضابطا للأعمال حتى قتل فى بعض الحروب سنة ٣٨١ . «أحمد يوسف نجاتى»

رَجَعَ إِلَى الْجُنْدِ ، فَاسْتَدْعَى أَهْلَ الْعُدْوَةِ مِنْ رِجَالِ زَنَاتَةَ وَالْبَرَابِرَةِ فَرَتَّبَ مِنْهُمْ جُنْدًا ، وَاصْطَنَعَ أَوْلِيَاءَ ، وَعَرَّفَ عُرَفَاءَ[1] مِنْ صِنْهَاجَةَ ، وَمَغْرَاوَةَ ، وَبَنِي يَفْرَنَ ، وَبَنِي بِرْزَالَ ، وَمِكْنَاسَةَ[2] ، وَغَيْرِهِمْ ، فَتَغَلَّبَ عَلَى هِشَامٍ وَحَجَرَهُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهُوَ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ مِنْ تَعْظِيمِ

---

(١) جمع عريف : وهو رئيس القوم وسيدهم ، أو النقيب وهو دون الرئيس ، سمى به لأنه عرف بذلك أو لمعرفته بسياسة القوم . والعريف أيضا : القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلى أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم (٢) كل هؤلاء من قبائل البربر المشهورة وقد كانت الدولة لزناتة ومكناسة ثم انتقلت الى مغراوة وبنى يفرن فى زمن حجابة المنصور بن أبى عامر — وكانت مكناسة لأول الفتح العربى بنواحى أواسط المغرب الأقصى والأوسط — وكان محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط — وغلب مغراوة على مدينة فاس وأعمالها واستفحل أمرهم بالمغرب وأزاحوا مكناسة عن ضواحيه وأعماله حتى أيام المنصور ابن أبى عامر — وكان من دعاة الناصر أبو زيد مخلد اليفرنى الزناتى الخارجى ثار على الشيعة بأفريقية وأوقع بهم واستولى على مدينة القيروان وعلى رقادة ، ونشر فيهما الدعوة لأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، ووفدت رسل منه ومن أهل القيروان فى سنة ٣٣٤ الى قرطبة يخبرون الخليفة بهذا الفتح المبين والفوز العظيم ، ولكن أبا يزيد لم يلبث أن ظهرت مساويه فانفض جنوده من حوله وخذلوه ، وكان من حديث خروجه ماهو معروف فى التاريخ . وفى الأصل « وبنى يمزز » وهو تحريف .

ٱلْخِلَافَةِ وَٱلْخُضُوعِ لَهَا، وَرَدِّ ٱلْأُمُورِ إِلَيْهَا، وَتَرْدِيدِ ٱلْغَزْوِ وَٱلْجِهَادِ، وَقَدَّمَ رِجَالَ ٱلْبَرَابِرَةِ وَزَنَاتَةَ، وَأَخَّرَ رِجَالَ ٱلْعَرَبِ وَأَسْقَطَهُمْ مِنْ مَرَاتِبِهِمْ، فَتَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ ٱلِاسْتِقْلَالِ بِالْمُلْكِ، وَٱلِاسْتِبْدَادِ بِالْأَمْرِ. وَبَنَى لِنَفْسِهِ مَدِينَةً لِنُزُلِهِ(١) سَمَّاهَا ٱلزَّاهِرَةَ، وَنَقَلَ إِلَيْهَا خَزَائِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَسْلِحَةِ، وَقَعَدَ عَلَى سَرِيرِ ٱلْمُلْكِ، وَأَمَرَ أَنْ يُحَيَّا بِتَحِيَّةِ ٱلْمُلُوكِ، وَتَسَمَّى بِالْحَاجِبِ ٱلْمَنْصُورِ، وَنَفَذَتِ ٱلْكُتُبُ وَٱلْمُخَاطَبَاتُ وَٱلْأَوَامِرُ بِاسْمِهِ، وَأَمَرَ بِالدُّعَاءِ لَهُ عَلَى ٱلْمَنَابِرِ بِاسْمِهِ عَقِبَ ٱلدُّعَاءِ لِلْخَلِيفَةِ، وَمَحَا رَسْمَ ٱلْخِلَافَةِ بِالْجُمْلَةِ، وَلَمْ يَبْقَ لِهِشَامٍ ٱلْمُؤَيَّدِ مِنْ رُسُومِ ٱلْخِلَافَةِ أَكْثَرُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ عَلَى ٱلْمَنَابِرِ وَكَتْبِ ٱسْمِهِ فِي ٱلسِّكَّةِ وَٱلطُّرُزِ(٢)، وَأُغْفِلَ دُونَهُ بِمَا سِوَى ذَلِكَ، وَجَنَّدَ ٱلْبَرَابِرَةَ وَٱلْمَمَالِيكَ، وَٱسْتَكْثَرَ مِنَ ٱلْعَبِيدِ وَٱلْعُلُوجِ(٣) لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى تِلْكَ ٱلرُّتْبَةِ وَقَهْرِ مَنْ

(١) النزل: للنزل ويفسر قوله تعالى: «انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا» ومكان نزل: ينزل فيه كثيرا. (٢) الطرز: جمع طراز، وهو علم الثوب
(٣) العلوج: جمع علج: وهو فى اصطلاح العرب الرجل الضخم القوى من كفار العجم، وكانوا بالمغرب يطلقون لفظ علج على الجند من الافرنج الذين ربما اتخذهم السلطان لخاصته «أحمد يوسف نجاتى»

تَطَاوَلَ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْمِلْيَةِ ، فَظَفِرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَا أَرَادَ . وَرَدَّدَ ٱلْغَزْوَ بِنَفْسِهِ إِلَى دَارِ ٱلْحَرْبِ ، فَغَزَا سِتًّا وَخَمْسِينَ غَزْوَةً فِي سَائِرِ أَيَّامِ مُلْكِهِ ، لَمْ تَنْتَكِسْ[1] لَهُ فِيهَا رَايَةٌ وَلَا فُلَّ[2] لَهُ جَيْشٌ ، وَمَا أُصِيبَ لَهُ بَعْثٌ ، وَمَا هَلَكَتْ لَهُ سَرِيَّةٌ[3] ، وَأَجَازَ عَسَاكِرَهُ إِلَى ٱلْعُدْوَةِ ، وَضَرَبَ[4] بَيْنَ مُلُوكِ ٱلْبَرَابِرَةِ ، وَضَرَبَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، فَٱسْتَوْثَقَ لَهُ مُلْكُ ٱلْمَغْرِبِ ، وَأَخْبَتَتْ لَهُ مُلُوكُ[5] زَنَاتَةَ ، وَٱنْقَادُوا لِحُكْمِهِ ، وَأَطَاعُوا سُلْطَانَهُ ، وَأَجَازَ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ إِلَى مُلُوكِ مَغْرَاوَةَ بِفَاسَ مِنْ آلِ خَزَرَ . وَلَمَّا سَخِطَ زِيرِى بْنُ عَطِيَّةَ[6] مَلِكُهُمْ

(١) لم تنتكس له فيها راية ، كناية عن أنه لم يهزم ولا في واحدة منها (٢) فل الجيش : هزم (٣) السرية : قطعة من الجيش (٤) وضرب بين الخ : أفسد بينهم وقد تكون محرفة عن « ضرى » أى أغرى وذلك عندى أظهر (٥) أخبتت : تواضعت وخضعت (٦) هو زيرى بن عطية بن عبد الله بن خزر بن محمد بن خزر بن حفص من مغراوة من بطون زناتة من البربر كان أمير بنى خزر فى وقته وانتهت إليه رياستهم وإمارتهم فى البداوة « وكان بنو مغراوة بالمغرب الأوسط من زمن قديم ثم صار لصنهاجة فى سنة ٣٦٩ فلحق مغراوة فيمن بقى من بنى خزر بالمغرب الأقصى وأمراؤهم يومئذ محمد بن الخير ، ومقاتل وزيرى ابنا عطية ، وخزرون بن فلفول ووصلوا الى سبتة وأميرهم المنصور بن أبى عامر ، ثم أراد العزيز بن نزار العبيدى ملك مصر أن يسترد ملكه بالمغرب سنة ٣٧٥

لَمَّا بَلَغَهُ مَا بَلَغَهُ مِنْ إِعْلَانِهِ بِالنَّيْلِ مِنْهُ، وَالنَّضِّ مِنْ مَنْصِبِهِ، وَالتَّأَفُّفِ[1] لِحَجْرِ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ، أَوْقَعَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ، وَنَزَلَ فَاسَ وَمَلَكَهَا، وَعَقَدَ لِمُلُوكِ زَنَاتَةَ عَلَى مَمَالِكِ الْمَغْرِبِ وَأَعْمَالِهِ مِنْ سِجِلْمَاسَةَ وَغَيْرِهَا، وَشَرَّدَ زِيرِي بْنَ عَطِيَّةَ إِلَى تَاهَرْتَ[2]، فَأَبْعَدَ الْمَفَرَّ، وَهَلَكَ فِي مَفَرِّهِ

فقاتله المنصور بجيش أعاش اليه زيرى بن عطية ومن معه من بنى خزر فى جموع مغراوة فهزم جيش العزيز، ثم عقد المنصور بن أبى عامر على المغرب الأقصى للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى سنة ٣٧٦ يعاونه مغراوة خصوصا زيرى فسار الحسن بن أحمد حتى نزل بفاس وضبط أعمال المغرب، وتوفى مقاتل بن عطية سنة ٣٧٨ واستقل أخوه زيرى بن عطية برياسة مغراوة، و بعد وفاة الحسن بن أحمد بن عبد الودود سنة ٣٨١ عقد المنصور على المغرب لزيرى بن عطية وكتب اليه بعهده وأمره بضبط المغرب فاستفحل ملكه وغلب على تلمسان واختط مدينة وجدة سنة ٣٨٤ وأنزلها عساكره، ثم فسد مابينه و بين المنصور فعقد المنصور لمولاه واضح على المغرب وجهزه لحرب زيرى بن عطية فى جيش عظيم ثم أتبعه المنصور ابنه المظفر عبد الملك فهزم زيرى وجرح فى المعركة وفر الى فاس فامتنع عليه أهلها فلحق بالصحراء جريحا، ثم شبت الحرب بينه و بين صنهاجة بالمغرب الأوسط وفتح تاهرت وتلمسان وأعمالها وأقام الدعوة فيها لهشام بن عبد الملك خليفة الأندلس وحاجبه المنصور من بعده وبقى على ذلك حتى توفى سنة ٣٩١ و بويع من بعده ابنه المعز بن زيرى فجرى على سنن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصور من بعده حتى توفى المنصور. و بقى المعز فى ولايته حتى توفى سنة ٤١٧ «أحمد يوسف نجاتى»

(١) التأفف: التضجر والتغضب (٢) تاهرت أو تيهرت مدينة بمملكة تونس

ذَلِكَ . ثُمَّ قَفَلَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ إِلَى قُرْطُبَةَ وَٱسْتَعْمَلَ مَوْلَاهُ وَاضِحًا عَلَى ٱلْمَغْرِبِ . وَهَلَكَ ٱلْمَنْصُورُ أَعْظَمَ مَا كَانَ مُلْكًا ، وَأَشَدَّ ٱسْتِيلَاءً ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ، بِمَدِينَةِ سَالِمٍ مُنْصَرَفَهُ مِنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ ، وَدُفِنَ هُنَالِكَ ، وَذَلِكَ لِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ مُلْكِهِ . ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ ، وَبَعْضُهُ بِالْمَعْنَى وَزِيَادَةٍ يَسِيرَةٍ . وَلَا بَأْسَ أَنْ نَزِيدَ عَلَيْهِ فَنَقُولَ : مِمَّا حُكِيَ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى قَبْرِ ٱلْمَنْصُورِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ :

آثَارُهُ تُنْبِيكَ عَنْ أَخْبَارِهِ

حَتَّى كَأَنَّكَ بِالْعِيَانِ تَرَاهُ

تَاللهِ لَا يَأْتِي ٱلزَّمَانُ بِمِثْلِهِ

أَبَدًا وَلَا يَحْمِي ٱلثُّغُورَ سِوَاهُ

من أعمال بجاية وكانت قاعدة المغرب الأوسط ، وكانت فى القديم مدينتين القديمة وكانت مدينة جليلة حتى سموها بغداد المغرب ، وتاهرت الجديدة على مرحلتين منها وهى أعظم من القديمة خصبة كثيرة الزرع وكانت بها البساتين المونقة والفواكه الحسنة ، وهى شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج والأنداء والضباب والأمطار

***

رأي ابن هود — وَعَنْ شُجَاعٍ مَوْلَى ٱلْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ: لَمَّا تَوَجَّهْتُ إِلَى أَذْفُونْشَ وَجَدْتُهُ فِي مَدِينَةِ سَالِمٍ، وَقَدْ نَصَبَ عَلَى قَبْرِ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ سَرِيرَهُ، وَٱمْرَأَتُهُ مُتَّكِئَةٌ إِلَى جَانِبِهِ، فَقَالَ لِي يَاشُجَاعُ: أَمَا تَرَانِي قَدْ مَلَكْتُ بِلَادَ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَجَلَسْتُ عَلَى قَبْرِ مَلِكِهِمْ؟ قَالَ فَحَمَلَتْنِي ٱلْغَيْرَةُ أَنْ قُلْتُ لَهُ: لَوْ تَنَفَّسَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْقَبْرِ وَأَنْتَ عَلَيْهِ مَا سَمِعَ مِنْكَ مَا يُكْرَهُ سَمَاعُهُ، وَلَا ٱسْتَقَرَّ بِكَ قَرَارٌ، فَهَمَّ بِي فَحَالَتِ ٱمْرَأَتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَقَالَتْ لَهُ: صَدَقَكَ فِيمَا قَالَ، أَيَفْخَرُ مِثْلُكَ بِمِثْلِ هٰذَا؟.

***

فذلكة في ترجمة المنصور — وَهٰذَا تَلْخِيصُ تَرْجَمَةِ ٱلْمَنْصُورِ مِنْ كَلَامِ ٱبْنِ سَعِيدٍ. قَالَ — رَحِمَهُ ٱللّٰهُ — : تَرْجَمَةُ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَعْظَمِ ٱلْمَنْصُورِ أَبِي عَامِرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ أَبِي عَامِرِ ٱبْنِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلْمَعَافِرِيِّ مِنْ قَرْيَةِ تَرْكُشَ(١)، وَعَبْدُ ٱلْمَلِكِ جَدُّهُ هُوَ ٱلْوَافِدُ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَ

(١) المعروف أن أصله من الجزيرة الخضراء، وهي مدينة مشهورة

طَارِقٍ فِي أَوَّلِ الدَّاخِلِينَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَمَّا الْمَنْصُورُ فَقَدْ ذَكَرَهُ أَبْنُ حَيَّانَ فِي كِتَابِهِ الْمَخْصُوصِ بِالدَّوْلَةِ الْعَامِرِيَّةِ ، وَالْفَتْحُ فِي الْمَطْمَحِ ، وَالْحِجَارِيُّ فِي الْمُسْهِبِ ، وَالشَّقُنْدِيُّ(١) فِي الطُّرَفِ ، وَذَكَرَ الْجَمِيعُ أَنَّ أَصْلَهُ مِنْ قَرْيَةِ تَرْكُشَ ، وَأَنَّهُ رَحَلَ إِلَى قُرْطُبَةَ وَتَأَدَّبَ بِهَا ، ثُمَّ اقْتَعَدَ(٢) دُكَّانًا عِنْدَ بَابِ الْقَصْرِ يَكْتُبُ فِيهِ لِمَنْ يَعِنُّ لَهُ كَتْبٌ مِنَ

من أشرف المدن وأطيبها أرضا تمايلى جبل الفتح من المغرب على الساحل . وكانت آخر البلاد البحرية الاسلامية للأندلس وهي من كور اشبيلية مما يلي جانب نهرها من الجنوب — والى الشمال منها كورة أركش وهي من كور اشبيلية الجنوبية ، وأركش مدينة ومعقل في غاية المنعة و على نهر يصب في البحر عند جزيرة قادس » (١) كذا بالأصل وقد يكون محرفا عن الشقندى فهناك أبو عمر أحمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الكلاعى القرطبي ، وكان يسكن عدوة النهر بشقندة وكان فقيها صالحا ثقة وتوفى سنة ٣٩١ وأبو محمد عبد الله بن عبيد الله بن وجيه ابن عبد الله الكلاعى الشقندى من أهل قرطبة أيضا كان محدثا جليلا أخذ عنه هشام بن محمد بن هلال المتوفى سنة ٤٢٠ وأخوه قاسم بن محمد ابن هلال المتوفى سنة ٤٥٨ — وقتندة بلدة بالأندلس ثغر سرقسطة استشهد بها سنة ٥١٤ امام المحدثين بالأندلس أبو على الحسين بن محمد ابن فيره السرقسطي الصدفي ، واستشهد بهذه الوقعة أيضا أبو عبد الله محمد بن يحيي بن عبد الله بن زكريا قاضي مدينة المرية ، وسيأتى نقله عن الشقندى كثيرا (٢) اقتعد دكانا : اتخذ دكانا يقعد فيه

ٱلْخَدَمِ وَٱلْمُرَافِقِينَ لِلسُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ طَلَبَتِ ٱلسَّيِّدَةُ صُبْحُ أُمُّ ٱلْمُؤَيَّدِ مَنْ يَكْتُبُ عَنْهَا، فَعَرَّفَهَا بِهِ مَنْ كَانَ يَأْنَسُ إِلَيْهِ بِالْجُلُوسِ مِنْ فِتْيَانِ ٱلْقَصْرِ ، فَتَرَقَّى إِلَى أَنْ كَتَبَ عَنْهَا فَٱسْتَحْسَنَتْهُ ، وَنَبَّهَتْ عَلَيْهِ ٱلْحَكَمَ ، وَرَغِبَتْ فِي تَشْرِيفِهِ بِالْخِدْمَةِ ، فَوَلَّاهُ قَضَاءَ بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ ، فَظَهَرَتْ مِنْهُ نَجَابَةٌ فَتَرَقَّى إِلَى ٱلزَّكَاةِ وَٱلْمَوَارِيثِ بِإِشْبِيلِيَةَ ، وَتَمَكَّنَ فِي قَلْبِ ٱلسَّيِّدَةِ بِمَا ٱسْتَمَالَهَا بِهِ مِنَ ٱلتُّحَفِ وَٱلْخِدْمَةِ مَا لَمْ يَتَمَكَّنْ لِغَيْرِهِ ، وَلَمْ يُقَصِّرْ مَعَ ذَلِكَ فِي خِدْمَةِ ٱلْمُصْحَفِيِّ ٱلْحَاجِبِ ، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ ٱلْحَكَمُ

***

هشام بن الحكم وَوَلِيَ ٱبْنُهُ هِشَامٌ ٱلْمُؤَيَّدُ وَهُوَ ٱبْنُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَجَاشَتِ[1] ٱلرُّومُ ، فَجَهَّزَ ٱلْمُصْحَفِيُّ ٱبْنَ أَبِي عَامِرٍ لِدِفَاعِهِمْ ، فَنَصَرَهُ ٱللهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قُلُوبِ ٱلنَّاسِ ، وَكَانَ جَوَادًا عَاقِلًا ذَكِيًّا ، ٱسْتَعَانَ بِالْمُصْحَفِيِّ عَلَى ٱلصَّقَالِبَةِ ، ثُمَّ بِغَالِبٍ عَلَى ٱلْمُصْحَفِيِّ ، وَكَانَ غَالِبٌ صَاحِبَ

(١) أى تحركت واستعدت، وجاشت الحرب بين الطائفتين اذا بدأت أن تغلى وتشتعل نارها. ومن المجاز جاش صدره اذا غلى غيظا ، وجاش البحر : اذا هاج واضطربت أمواجه

مَدِينَةَ سَالِمٍ ، وَتَزَوَّجَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ ٱبْنَتَهُ أَسْمَاءَ ، وَكَانَ أَعْظَمَ عُرْسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، ثُمَّ بِجَعْفَرِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ مَمْدُوحِ ٱبْنِ هَانِئٍ عَلَى غَالِبٍ ، ثُمَّ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ هِشَامٍ ٱلتُّجِيبِيِّ عَلَى جَعْفَرٍ ، وَلَهُ فِي ٱلْحَزْمِ وَٱلْكَيْدِ وَٱلْجَلَدِ مَا أَفْرَدَ لَهُ ٱبْنُ حَيَّانَ تَأْلِيفاً . وَعَدَدُ غَزَوَاتِهِ ٱلْمُنْشَأَةِ مِنْ قُرْطُبَةَ نَيِّفٌ وَخَمْسُونَ غَزْوَةً وَلَمْ تُهْزَمْ لَهُ رَايَةٌ ، وَقَبْرُهُ بِمَدِينَةِ سَالِمٍ فِي أَقْصَى شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْ شِعْرِهِ :

رَمَيْتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ
وَخَاطَرْتُ وَٱلْحُرُّ ٱلْكَرِيمُ يُخَاطِرُ
وَمَا صَاحِبِي إِلَّا جَنَانٌ مُشَيَّعٌ(١)
وَأَسْمَرُ خَطِّيٌّ وَأَبْيَضُ بَاتِرُ(٢)

---

(١) الجنان : القلب ، والمشيع :الشجاع القوى الجرىء ، وسمى به لأن قلبه لايخذله كأنه يشيعه بغيره أو بقوة قلبه ، أو شيع قلبه بما يركب به كل هول ، ويقال قد شيعته نفسه على ذلك وشايعته ، أى تبعته وشجعته ، وشيع فلانا اذا شجعه وجرأه وقواه ، ومنه تشييع النار بالقاء الحطب عليها لقوتها قال كثير :

فياقلب كن عنها صبورا فانها يشيعها بالصبر قلب مشيع

(٢) الأسمر الرمح ، والخطى منسوب الى الخط موضع باليمامة وهو خط هجر

فَسُدْتُ بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ
وَفَاخَرْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ أُفَاخِرُ
وَمَا شِدْتُ بُنْيَانًا وَلَـكِنْ زِيَادَةً
عَلَى مَا بَنَى عَبْدُ ٱلْمَلِيكِ[1] وَعَامِرُ
رَفَعْنَا ٱلْمَوَالِيَ بِالْمَوَالِيِّ مِثْلَهَا
وَأَوْرَثْنَاهَا فِي ٱلْقَدِيمِ مَعَافِرُ[2]
وَجُودُهُ مَعَ صَاعِدٍ ٱلْبَغْدَادِيِّ ٱللُّغَوِيِّ[3] مَشْهُورٌ .

تنسب اليه الرماح الخطية لأنها كانت تحمل من بلاد الهند فتقوم به ، وقيل الخط مرفأ السفن بالبحرين واليه تنسب الرماح لأنها تباع به لا لأنه منبتها وهى نسبة جرت مجرى الاسم العلم وقد كثر مجيئه فى أشعار العرب ، قال زهير :

وهل ينبت الخطى الا وشيجه وتغرس الا فى منابتها النخل ؟

وقال عمرو بن كلثوم :

بسمر من قنا الخطى لدن ذوابل أو ببيض يختلينا

وقال غيره :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

والأبيض : السيف ، والباتر : الحاد القاطع (١) هما من جدوده كما ترى فى نسبته (٢) العالية : القناة المستقيمة ، يعنى أنهم شيدوا لأنفسهم مجداً سامياً قديماً متوارثاً بالشجاعة والحروب . ويروى صدر البيت : * رفعنا الموالى بالموالى حديثة * (٣) هو أبو العلاء صاعد بن الحسن ابن عيسى الربعى اللغوى البغدادى ، رحل الى الاندلس فى أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور بن أبى عامر حوالى سنة ٣٨٠ وكان صاعد

وَصَدَرَ عَنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ شُهَيْدٍ وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْهُ : هشام عبد الملك ابن شهيد

أَنَا شَيْخٌ وَٱلشَّيْخُ يَهْوَى ٱلصَّبَايَا
يَا بِنَفْسِي أَقِيكَ كُلَّ ٱلرَّزَايَا
وَرَسُولُ ٱلْإِلٰهِ أَسْهَمَ فِي ٱلْفَيْ
ءِ لِمَنْ لَمْ يُخِبْ(١) فِيهِ ٱلْمَطَايَا

باللغة والأخبار والآداب سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة ممتع الحديث فأكرمه المنصور وزاد في الاحسان اليه والافضال عليه، وكان مع ذلك محسنا في السؤال حاذقا في استخراج الأموال ، وجمع له كتاب الفصوص في اللغة والأدب نحا فيه منحى أبي على القالي في أماليه وأثابه عليه خمسة آلاف دينار . ولما كان صاعد متهما بالكذب في نقله والوضع في حديثه رفض الناس كتابه ، ولما ظهر للمنصور جراءته على العلم وعدم أمانته في النقل وقلة تثبته في الرواية رمى كتاب الفصوص في النهر لأنه قيل له ان جميع مافيه لاصحة له ، فقال بعض شعراء عصره :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص ... وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما سمع صاعد هذا البيت أنشد :

عاد الى عنصره انما ... يخرج من قعر البحور الفصوص

وتوفي صاعد بصقلية سنة ٤١٧ — عفا الله عنه — (١) الخبب : الاسراع في العدو ، وخبت الطى وأخبها صاحبها ، يعنى أنه عليه الصلاة والسلام ربما جعل في الغنيمة سهما لمن لم يحضرها ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِثَلَاثِ جَوَارٍ مِنْ أَجْمَلِ السَّبْيِ ، وَكَتَبَ مَعَهُنَّ ، وَكَانَتْ وَاحِدَةٌ أَجْمَلَهُنَّ ، قَوْلَهُ :

قَدْ بَعَثْنَا بِهَا كَشَمْسِ النَّهَارِ
فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَهَا(١) أَبْكَارِ
وَامْتَحَنَّا بِعُذْرَةِ الْبِكْرِ إِنْ كُنْ
تَ تُرَجِّي بَوَادِرَ الْإِعْذَارِ
فَاجْتَهِدْ وَابْتَدِرْ فَإِنَّكَ شَيْخٌ
قَدْ جَلَا لَيْلَهُ بَيَاضُ النَّهَارِ
صَانَكَ اللهُ مِنْ كَلَالِكَ فِيهَا
فَمِنَ الْعَارِ كَلَّةُ(٢) الْمِسْمَارِ

فَافْتَضَّهُنَّ مِنْ لَيْلَتِهِ ، وَكَتَبَ لَهُ بُكْرَةً :

---

(١) المهاة : البقرة الوحشية ، والبلورة التى تبص من بياضها وصفائها ، فإذا شبهت المرأة بالمهاة من البياض فإنما يراد صفاء لونها وإذا شبهت بها فى حسن العينين فإنما تعنى البقرة فى حسن عينيها ، وبها يضرب المثل فى سمن المرأة وجمالها وشدة ميلها إلى الرجل ، وقال جميل :

لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة كأن أباها الظبي أو أمها مها

(٢) كلة المسمار وكلاله : عدم نفاذه .

قَدْ فَضَضْنَا خِتَامَ ذَاكَ ٱلسِّوَارِ
وَٱصْطَبَغْنَا مِنَ ٱلنَّجِيعِ(١) ٱلْجَارِي

وَصَبَرْنَا عَلَى دِفَاعٍ وَحَرْبٍ
فَلَعِبْنَا بِالدُّرِّ أَوْ بِالدَّرَارِي

وَقَضَى ٱلشَّيْخُ مَا قَضَى بِحُسَامٍ
ذِي مَضَاءٍ عَضْبِ ٱلظُّبَا بَتَّارِ

فَاصْطَنِعْهُ فَلَيْسَ يَجْزِيكَ كُفْرًا
وَٱتَّخِذْهُ فَحْلًا عَلَى ٱلْكُفَّارِ(٢)

---

(١) اصطبغنا : ائتدمنا . والنجيع الجارى : المراد دم البكارة — يريد أنه قضى وطرامنهن (٢) لايخفى مافى هذه الأبيات والتى قبلها من الكنايات التى هى فى مثل هذا المقام أبلغ من الافصاح وأستر من التصريح ، ومثل هذه الكناية قول بعض الظرفاء فيمن عاقه عن اقتحام مثل هذه المركة عنرذات العذرة :

فارس ماض بحربته ... مولع بالطعن فى الظلم
رام أن يدمى فريسته ... فاتقته من دم بدم

وللصاحب بن عباد فى هذا المعنى الا أنه أقرب الى التصريح :

قلى على الجرة ياأبا العلا ... فهل فتحت الموضع المقفلا؟
وهل فككت الختم عن كيسه ... وهل كحلت الناظر الأكحلا؟؟
ان قلت ياهذا نعم صادقا ... أبعث نثارا يملأ المنزلا
وان تحيتى من حياء بلا ... أبعث اليك القطن والمغزلا

وكتب الأستاذ ابن العميد الى أبى الحسن بن هند وصبيحة عرسه من أبيات :

***

التاجر والحدأة وَقَدِمَ بَعْضُ ٱلتُّجَّارِ وَمَعَهُ كِيسٌ فِيهِ يَاقُوتٌ نَفِيسٌ، فَتَجَرَّدَ لِيَسْبَحَ فِي ٱلنَّهْرِ وَتَرَكَ ٱلْكِيسَ - وَكَانَ أَحْمَرَ - عَلَى ثِيَابِهِ، فَرَفَعَتْهُ حِدَأَةٌ فِي مَخَالِبِهَا، فَجَرَى تَابِعاً لَهَا وَقَدْ ذَهِلَ، فَتَغَلْغَلَتْ(١) فِي ٱلْبَسَاتِينِ، وَٱنْقَطَعَتْ عَنْ عَيْنِهِ، فَرَجَعَ مُتَحَيِّراً فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى بَعْضِ مَنْ يَأْنَسُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: صِفْ حَالَكَ لِابْنِ أَبِي عَامِرٍ، فَتَلَطَّفَ فِي وَصْفِ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: نَنْظُرُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِكَ، وَجَعَلَ يَسْتَدْعِي أَصْحَابَ تِلْكَ ٱلْبَسَاتِينِ، وَيَسْأَلُ خُدَّامَهَا عَمَّنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ تَبْدِيلُ حَالٍ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ شَخْصاً يَنْقُلُ ٱلزِّبْلَ ٱشْتَرَى حِمَاراً، وَظَهَرَ مِنْ حَالِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِجِيئَتِهِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ أَحْضِرِ ٱلْكِيسَ ٱلْأَحْمَرَ، فَتَمَلَّكَ ٱلرُّعْبُ قَلْبَهُ وَٱرْتَعَشَ وَقَالَ: دَعْنِي آتِي بِهِ مِنْ مَنْزِلِي، فَوَكَّلَ بِهِ مَنْ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَجَاءَ بِالْكِيسِ وَقَدْ نَقَصَ مِنْهُ

قد رضت طرفك خاليا فهل استلنت جماحا؟
وقدحت زندك جاهدا فهل استبنت له اقتداحا؟
وطرقت منغلقا فهل حسن الإله له انفتاحا

(١) فتغلغلت الخ: فدخلت فيها وأوغلت واختفت عن الأبصار

مَالاَيَقْدَحُ فِي مَسَرَّةِ صَاحِبِهِ ،فَجَبَرَهُ(١) وَدَفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ . فَقَالَ: وَٱللَّهِ لَأُحَدِّثَنَّ فِي مَشَارِقِ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا أَنَّ ٱبْنَ أَبِي عَامِرٍ يَحْكُمُ عَلَى ٱلطُّيُورِ وَيُنْصِفُهُمْ مِنْهَا ، وَٱلْتَفَتَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ إِلَى ٱلزَّبَّالِ فَقَالَ لَهُ : لَوْ أَتَيْتَ بِهِ أَغْنَيْنَاكَ ، لَكِنْ تَخْرُجُ كَفَافًا(٢) لاَ عِقَابًا وَلاَ ثَوَابًا . وَتُوُفِّيَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فِي غَزَاتِهِ لِلإِفْرَنْجِ بِصَفَرٍ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ، وَحُمِلَ فِي سَرِيرِهِ عَلَى أَعْنَاقِ ٱلرِّجَالِ ، وَعَسْكَرُهُ يَحُفُّ بِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ ، وَدَامَتْ دَوْلَتُهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً ، غَزَا فِيهَا ٱثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ غَزْوَةً ، وَاحِدَةٌ فِي ٱلشِّتَاءِ وَأُخْرَى فِي ٱلصَّيْفِ . ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ سَعِيدٍ ، وَفِي بَعْضِهِ مُخَالَفَةٌ لِبَعْضِ كَلَامِ ٱبْنِ خَلْدُونَ

(١) جبره : أى آعه (٢) يفسره مابعده، وقال المجنون :

فيارب سو الحب بيني وبينها   يكون كفافا لا علي ولا ليا

***

جعفر بن عثمان المصحفي

وَقَالَ ٱلْفَتْحُ فِي ٱلْمَطْمَحِ فِي حَقِّ ٱلْمُصْحَفِيِّ* ٱلْحَاجِبِ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ ٱلْمُصْحَفِيِّ مَا صُورَتُهُ : تَجَرَّدَ لِلْعَلْيَا ، وَتَمَرَّدَ(١) فِي طَلَبِ ٱلدُّنْيَا ، حَتَّى بَلَغَ ٱلْمُنَى ، وَتَسَوَّغَ(٢) ذَلِكَ ٱلْجَنَى ، وَوَصَلَ إِلَى ٱلْمُنْتَهَى ، وَحَصَلَ عَلَى مَا ٱشْتَهَى ، دُونَ مَجْدٍ تَفَرَّعَ مِنْ دَوْحَتِهِ ، وَلَا فَخْرٍ نَشَأَ بَيْنَ مَغْدَاهُ وَرَوْحَتِهِ ،

(١) تمرد الخ: عصى وجاوز حد مثله ، ولم يقبل موعظة (٢) طلب لهنيئا سائغا

* ترجم له في كتاب بغية الملتمس للضبي « ج٣ ص ٢٤٠ » من المكتبة الأندلسية بترجمة موجزة نذكرها :

جعفر بن عثمان أبو الحسن الوزير الحاجب المعروف بابن المصحفي ، كان من أهل العلم والأدب البارع ، وله شعر كثير رائع ، يدل على قوة طبعه ، وسعة أدبه ، وهو كان الوزير الناظر في الأمور قبل المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ثم «ندى(١)» المنصور بصبح وتمويلها عليه ، وتقلب فنكب جعفرا ومات في تلك النكبة ، أنشد له أبو محمد بن حزم :

يا ذا الذي أودعني سره ... لا ترج أن تسمعه مني
لم أجره بعدك في خاطري ... كأنه مامر في أذني

وله :

أجاري الزمان على حاله ... مجاراة نفسي لأنفاسها
اذا نفس صاعد شقها ... توارت به دون جلاسها
وان عكفت نكبة الزمان ... عكفت بصدري على رأسها

(١) أي اجتمع ولعلها محرفة عن « ونرق »

فَمَا دُونَ مُسَابَقَةٍ ، وَرَمَى إِلَى رُتْبَةٍ لَمْ تَكُنْ لِنَفْسِهِ مُطَابَقَةً ، فَبَلَغَ بِنَفْسِهِ ، وَنَزَعَ(١) عَنْ جِنْسِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَفِلُ(٢) وَيَطَّلِعُ ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ مَطْلَعٍ إِلَى مَطْلَعٍ ، حَتَّى أَلَاحَ(٣) فِي أُفُقِ الْخِلَافَةِ ، وَارْتَاحَ إِلَيْهِ(٤) مُعْظَمُهَا كَنَشْوَانِ السُّلَافَةِ ، وَاسْتَوْزَرَهُ الْمُسْتَنْصِرُ ، وَعَنْهُ قَدْ كَانَ يَسْمَعُ وَبِهِ يُبْصِرُ ، وَحَجَبَ(٥) الْإِمَامَ ، وَأَسْكَبَ بِرَأْيِهِ ذَلِكَ الْغَمَامَ(٦) ، فَأَدْرَكَ لِنَيْلِكَ مَا أَدْرَكَ ، وَنَصَبَ لِأَمَانِيِّهِ الْحَبَائِلَ وَالشَّرَكَ ، فَاقْتَنَى اقْتِنَاءَ مُدَّخِرٍ ، وَأَزْرَى بِمَنْ سِوَاهُ وَسَخِرَ ، وَاسْتَنْطَقَهُ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَنَجْمُهُ غَائِرٌ لَمْ يَلُحْ(٧) ، وَسِرُّهُ مَكْتُومٌ لَمْ يَبُحْ ، فَمَا عَطَفَ ، وَلَا جَنَى مِنْ رَوْضَةِ دُنْيَاهُ

---

(١) أى ابتعد (٢) أى يعزل و ينخفض (٣) لاح النجم وألاح : بدا وأضاء وأشرق ، قال المتلمس :

وقد ألاح سهيل بعد ما هجعوا   كأنه ضرم بالكف مقبوس

(٤) فى المطمح : وارتاح اليها بعطفه ولعل « معظمها » فى الأصل محرفة عن « معطفها » وهو أحسن ، وارتاح الانسان الى الشىء وراح يراح اذا نشط وسر به ، ومنه راح للمعروف يراح راحة اذا أخذته له هزة وأريحية ، والسلافة والسلاف : الخمر وهو أول ما يعصر منها وأخلصها وأفضلها (٥) أى كان حاجبا له ، والأحسن أن تكون : وحجب للامام ، فانه يقال فلان يحجب للأمير اذا كان حاجبا له (٦) يريد أنه نال نوال الأمير الجم وكان حاذقا فى استدرار بره وانعامه وأنه كان يحسن التصرف فى أمور الدولة بأصالة رأيه (٧) أى قبل أن يشرق طالع سعده .

وَلَاقَطَفَ ، وَأَقَامَ فِي تَدْبِيرِ الْأَنْدَلُسِ مَا أَقَامَ وَبُرْهَانُهُ[١] مُسْتَقِيمٌ ، وَمِنَ الْفِتَنِ عَقِيمٌ ، وَهُوَ يَجْرِي مِنَ السَّعْدِ فِي مَيْدَانٍ رَحْبٍ ، وَيَكْرَعُ[٢] مِنَ الْعِزِّ فِي مَشْرَبٍ عَذْبٍ ، وَيَفُضُّ[٣] خِتَامَ السُّرُورِ ، وَيَنْهَضُ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى لَبَّةٍ مَزْرُورٍ[٤] ، وَكَانَ لَهُ أَدَبٌ بَارِعٌ ، وَخَاطِرٌ إِلَى نَظْمِ الْقَرِيضِ مُسَارِعٌ ، فَمِنْ مَحَاسِنِهِ الَّتِي بَثَّهَا إِينَاسُ دَهْرِهِ وَإِسْعَادُهُ ، وَقَالَهُ حِينَ أَلْهَتْهُ سَلْمَاهُ وَسُعَادُهُ ، قَوْلُهُ :

لِئِنْ نَأَيْتَ فَي قَلْبِي عَلَيْكَ شُجُونُ
وَبَيْنَ ضُلُوعِي لِلشُّجُونِ فُنُونُ

نَصِيبِي مِنَ الدُّنْيَا هَوَاكَ وَإِنَّهُ عَذَابِي وَلَكِنِّي عَلَيْهِ ضَنِينُ

وَمَتَأَتِّي هَـٰذِهِ التَّرْجَمَةُ مِنَ الْمَطْمَحِ الصَّغِيرِ

---

(١) برهانه مستقيم: البرهان، الدليل ـ أى طريقه معتدل. (٢) فى الأصل (وباع) وأظنها محرفة عن (ويكرع) يقال كرع فى الماء والاناء اذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا باناء ، أو أن يدخل النهر ثم يشرب حتى يروى (٣) الفض فى الأصل: فك خاتم الكتاب يقال فضضت الخاتم عن الكتاب وفضضت ختمه ، ويستعمل مجازا فى غير الكتاب كما قال الفرزدق :

فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

(٤) فى أصل آخر: وينهض بملك على لبته مزرور ولا بأس بها (أى بملك تام حسن مرغوب فيه)

- إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - بِمَا فِيهِ بَعْضُ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ فِي الْبَابِ الرَّابِعِ .

***

غزو ابن أبي عامر بلاد الشرك

وَقَالَ فِي الْمَطْمَحِ فِي حَقِّ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ : إِنَّهُ تَمَرَّسَ بِبِلَادِ الشِّرْكِ أَعْظَمَ تَمَرُّسٍ(١)، وَمَحَا مِنْ طَوَاغِيتِهَا كُلَّ تَجَبُّرٍ وَتَغَطْرُسٍ(٢)، وَغَادَرَهُمْ صَرْعَى الْبِقَاعِ، وَتَرَكَهُمْ أَذَلَّ مِنْ وَتِدٍ بِقَاعٍ(٣)، وَوَالَى عَلَى بِلَادِهِمُ الْوَقَائِعَ ،

(١) تمرس بالشيء وامترس به : احتك ، وتمارسوا في الحرب : اذا تضاربوا ومارسه : عالجه وزاوله ، والمراسة الشدة ، ورجل مرس: شديد .

(٢) يطلق الطاغوت على الكاهن والأصنام ورأس كل ضلال، وكل ما عبد من دون الله ، وعلى مردة أهل الكتاب، والطاغية: الجبار العنيد ، والأحمق المتكبر الظالم ، والتجبرف: التكبر والجفوة ، وهو يتجبرف عليهم اذا كان يركبهم بما يكرهون ولا يهاب شيئا ، والتغطرس: التكبر والتطاول والغطرسة: الاعجاب بالنفس والظلم والتعسف (٣) القاع :أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية حرة لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط قد انفرجت عنها الجبال والآكام وليس فيها حصا ولا حجارة ولا تنبت الشجر وما حواليها أرفع منها ، فيكون الوتد المدقوق فيها ظاهرا مكشوفا لكل شيء لا يحجبه حاجز ما، ويضرب المثل في الرضا بالذل والصبر على الهوان بالوتد والعير الأهلي كما قال المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به … الا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته … وذا يشج فلا يرثي له أحد

ولهذا يقال فلان ثالث الأذلين ، وفقرة المطمح مأخوذة من قول عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت :

وَسَدَّدَ إِلَى أَكْبَادِهِمْ سِهَامَ ٱلْفَجَائِعِ ، وَأَغَصَّ بِالْحِمَامِ أَرْوَاحَهُمْ ، وَنَغَّصَ بِتِلْكَ ٱلْآلَامِ بُكُورَهُمْ وَرَوَاحَهُمْ ، وَمِنْ أَوْضَحِ ٱلْأُمُورِ هُنَالِكَ ، وَأَفْصَحِ ٱلْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ ، أَنَّ أَحَدَ رُسُلِهِ كَانَ كَثِيرَ ٱلِانْتِيَابِ[1] لِذَلِكَ ٱلْجَنَابِ ، فَسَارَ فِي بَعْضِ مَسِيرَاتِهِ إِلَى غَرْسِيَةَ صَاحِبِ ٱلْبَشْكَنْسِ ، فَوَالَى فِي إِكْرَامِهِ ، وَتَنَاهَى فِي بِرِّهِ وَٱحْتِرَامِهِ ، فَطَالَتْ مُدَّتُهُ ، فَلَا مُتَنَزَّهَ إِلَّا مَرَّ عَلَيْهِ مُتَفَرِّجًا ، وَلَا مَنْزِلَ إِلَّا سَارَ عَلَيْهِ مُعَرِّجًا ، فَحَلَّ فِي ذَلِكَ ، أَكْثَرَ ٱلْكَنَائِسِ هُنَالِكَ .

***

قصة امرأة أسيرة

فَبَيْنَمَا هُوَ يَجُولُ فِي سَاحَتِهَا ، وَيُجِيلُ ٱلْعَيْنَ فِي مِسَاحَتِهَا ، إِذْ عَرَضَتْ لَهُ ٱمْرَأَةٌ قَدِيمَةُ[2] ٱلْأَسْرِ ، قَوِيَّةٌ عَلَى طُولِ ٱلْكَسْرِ[3] فَكَلَّمَتْهُ وَعَرَّفَتْهُ بِنَفْسِهَا وَأَعْلَمَتْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : أَيَرْضَى ٱلْمَنْصُورُ أَنْ يَنْسَى بِتَنَعُّمِهِ بُؤْسَهَا ،

ولولاهم لـكنت كحوت بحر هوى فى مظلم الغمرات داجى
وكنت أذل من وتد بقاع يشجج رأسه بالفهر واجى

الفهر : حجر يدق به ، والواجي أصله واجئ من وجأ الوتد : اذا دقه
(١) أى التردد ، والجناب : الناحية وما قرب من محلة القوم (٢) قد تكون محرفة عن «قوية» (٣) يعنى أنها ذات احتمال لشدائد الأسر وقوة على ما تقاسيه

وَتَمَتَّعَ بِلَبُوسِ الْعَافِيَةِ وَقَدْ نَضَّتْ[١] لَبُوسَهَا ، وَزَعَمَتْ أَنَّ لَهَا عِدَّةَ سِنِينَ بِتِلْكَ الْكَنِيسَةِ مُحْتَبَسَةً ، وَبِكُلِّ ذُلٍّ وَصَغَارٍ مُلْبَسَةً ، وَنَاشَدَتْهُ اللهَ فِي إِنْهَاءِ قِصَّتِهَا ، وَإِبْرَاءِ غُصَّتِهَا ، وَاسْتَحْلَفَتْهُ بِأَغْلَظِ الْأَيْمَانِ ، وَأَخَذَتْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ أَوْكَدَ مَوَاثِيقِ الرَّحْمَنِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَنْصُورِ عَرَّفَهُ بِمَا يَجِبُ تَعْرِيفُهُ بِهِ وَإِعْلَامُهُ ، وَهُوَ مُصْغٍ إِلَيْهِ حَتَّى تَمَّ كَلَامُهُ ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : هَلْ وَقَفْتَ هُنَاكَ عَلَى أَمْرٍ أَنْكَرْتَهُ ، أَمْ لَمْ تَقِفْ عَلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتَهُ ؟ فَأَعْلَمَهُ بِقِصَّةِ الْمَرْأَةِ وَمَا خَرَجَتْ عَنْهُ[٢] إِلَيْهِ ، وَبِالْمَوَاثِيقِ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِ ، فَعَتَبَهُ وَلَامَهُ ، عَلَى أَنْ لَمْ يَبْدَأْ بِهَا كَلَامَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ لِلْجِهَادِ مِنْ فَوْرِهِ ، وَعَرَضَ مِنْ أَجْنَادٍ فِي نَجْدِهِ وَغَوْرِهِ[٣] ، وَأَصْبَحَ غَازِيًا عَلَى سَرْجِهِ ،

(١) نضا ثوبه ونضاه « بالتشديد للكثرة » اذا ألقاه عن نفسه ، ونضاه من ثوبه : اذا جرده،ونضا ثوبه عنه:اذا خلعه ،قال امرؤ القيس :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الالبسة المتفضل

وأنضى الثوب اذا أبلاه. وأخلقه بكثرة اللبس (٢) يريد بما باحت له به وما أفضت به اليه من أسرارها وأحوالها (٣) النجد :المكان المرتفع ضد الغور ، يريد عموم الامكنة والجهات وأطلق الأصل : وعرض من الأجناد من في نجده وغوره

مُبَاهِيًا مَرْوَانَ يَوْمَ مَرْجِهِ (١) ، حَتَّى وَافَى أَبْنَ شَانْجَةَ فِي جَمْعِهِ ، فَأَخَذَتْ مَهَابَتُهُ بِبَصَرِهِ وَسَمْعِهِ ، فَبَادَرَ بِالْكِتَابِ إِلَيْهِ يَتَعَرَّفُ مَا ٱلْجَلِيَّةُ ؟ وَيَحْلِفُ لَهُ بِأَعْظَمِ أَلِيَّةٍ (٢) ، أَنَّهُ مَا جَنَى ذَنْبًا ، وَلَا جَفَا عَنْ مَضْجَعِ ٱلطَّاعَةِ جَنْبًا ، فَنَفَّذَ أَرْسَالَهُ وَقَالَ لَهُمْ : كَانَ قَدْ عَاقَدَنِي أَلَّا يَبْقَى بِبِلَادِهِ مَأْسُورَةٌ وَلَا مَأْسُورٌ ، وَلَوْ حَمَلَتْهُ فِي حَوَاصِلِهَا ٱلنُّسُورُ ، وَقَدْ بَلَغَنِي بَعْدُ بَقَاءُ فُلَانَةَ ٱلْمُسْلِمَةِ فِي تِلْكَ ٱلْكَنِيسَةِ ، وَوَاللهِ لَا أَنْتَهِي عَنْ أَرْضِهِ حَتَّى أَكْنَسِحَهَا (٣) . فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ٱلْمَرْأَةَ فِي أَثْنَتَيْنِ مَعَهَا ، وَأَقْسَمَ أَنَّهُ مَا أَبْصَرَهُنَّ ، وَلَا سَمِعَ بِهِنَّ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ ٱلْكَنِيسَةَ ٱلَّتِي أَشَارَ بِعِلْمِهَا قَدْ بَالَغَ فِي هَدْمِهَا ، تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ فِي

(١) يعنى مروان بن الحكم فى مرج راهط « راهط اسم رجل من قضاعة » وكانت به واقعة مشهورة، ومرج راهط بدمشق بين قيس وتغلب ، ولما مات يزيد بن معاوية سنة ٦٥ وولى ابنه معاوية بن يزيد مائة يوم وكان ما كان وانقسم أهل الشام قسمين اجتمع حزب منهما الى الضحاك بن قيس الفهرى وحزب مع مروان و وقعت بينهما تلك الواقعة التى قتل فيها الضحاك واستقام الأمر لمروان. (٢) أى يمين وقسم (٣) من كسح البيت والبئر ونحوهما : كنسه ، وأغاروا عليهم فا كتسحوهم أى أفقروهم وأخذوا مالهم كله

ٱلْأَخْذِ فِيهِ بِطَوْلِهِ(١) فَٱسْتَحْيَا مِنْهُ، وَصَرَفَ ٱلْجَيْشَ عَنْهُ، وَأَوْصَلَ ٱلْمَرْأَةَ إِلَى نَفْسِهِ، وَأَلْحَقَ(٢) تَوَحُّشَهَا بِأُنْسِهِ، وَغَيَّرَ مِنْ حَالِهَا، وَعَادَ بِسَوَاكِبِ نُعْمَاهُ عَلَى جَدْبِهَا وَإِمْحَالِهَا، وَحَمَلَهَا إِلَى قَوْمِهَا، وَكَحَّلَهَا بِمَا كَانَ شَرَدَ مِنْ نَوْمِهَا. ٱنْتَهَى.

***

وصف ابن أبي عامر — وَقَالَ فِي ٱلْمَطْمَحِ أَيْضًا فِي حَقِّهِ مَا نَصُّهُ: فَرْدًا نَابِهٍ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُ، وَصَوَّبَهُ وَٱسْتَحْزَمَهُ(٣)، فَإِنَّهُ كَانَ أَمْضَاهُمْ سِنَانًا وَأَذْكَاهُمْ جَنَانًا، وَأَتَمَّهُمْ جَلَالًا، وَأَعْظَمَهُمْ ٱسْتِقْلَالًا، فَآلَ أَمْرُهُ إِلَى مَا آلَ، وَأَوْهَمَ ٱلْعُقُولَ بِذَلِكَ ٱلْمَآلِ، فَإِنَّهُ كَانَ آيَةَ ٱللَّهِ فِي ٱتِّفَاقِ سَعْدِهِ، وَقُرْبِهِ مِنَ ٱلْمُلْكِ بَعْدَ بُعْدِهِ، بَهَرَ بِرِفْعَةِ ٱلْقَدْرِ، وَٱسْتَظْهَرَ بِٱلْأَنَاةِ(٤) وَسَعَةِ ٱلصَّدْرِ، وَتَحَرَّكَ فَلَاحَ نَجْمُ ٱلْهُدُوِّ، وَتَمَلَّكَ فَمَا خَفَقَ بِأَرْضِهِ لِوَاءُ عَدُوٍّ، بَعْدَ خُمُولٍ كَابَدَ مِنْهُ غُصَصًا وَشَرَقًا، وَتَعَذُّرِ مَأْمُولٍ طَارَدَ فِيهِ سَهَرًا وَأَرَقًا، حَتَّى أَنْجَزَ لَهُ ٱلْمَوْعُودُ، وَقَرَّ نَحْسَهُ أَمَامَ تِلْكَ

---

(١) الطول والطائلة الفضل والمنة، ويطلق أيضا على القدرة والغنى والسعة. وتطول عليهم وطال: امتن وأنعم (٢) في بعض المراجع: وألحف (٣) نسبه الى الصواب والحزم وفي بعض المراجع: وصرفه واستخدمه (٤) الأناة: الصبر والحلم

السُّعُودِ؛ فَقَامَ بِتَدْبِيرِ الْخِلَافَةِ ، وَأَصْعَدَ مَنْ كَانَ لَهُ فِيهَا إِنَافَةٌ[(١)]، وَسَاسَ الْأُمُورَ أَحْسَنَ سِيَاسَةٍ ، وَدَاسَ الْخُطُوبَ بِأَخْشَنِ دِيَاسَةٍ . فَانْتَظَمَتْ لَهُ الْمَسَالِكُ ، وَاتَّضَحَتْ بِهِ الْمَسَالِكُ ، وَانْتَشَرَ الْأَمْنُ فِي كُلِّ طَرِيقٍ ، وَاسْتُشْعِرَ الْيُمْنُ بِكُلِّ فَرِيقٍ ، وَمَلَكَ الْأَنْدَلُسَ بِضْعًا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ، لَمْ تُدْحَضْ[(٢)] لِسَادَتِهَا حُجَّةٌ ، وَلَمْ تَزْخَرْ لِمَكْرُوهٍ بِهَا لُجَّةٌ ، لَبِسَتْ فِيهِ الْبِلَادُ الْإِشْرَاقَ، وَتَنَفَّسَتْ عَنْ مِثْلِ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ[(٣)]، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ أَحْمَدَ أَيَّامٍ ، وَسِهَامُ بَأْسِهِ أَشْدَّ سِهَامٍ ، غَزَا الرُّومَ شَاتِيًا وَصَائِفًا ، وَمَضَى فِيمَا يَرُومُ زَاجِرًا وَعَائِفًا[(٤)]

(١) أناف على الشيء اذا ارتفع وأشرف وتطلع اليه ، ويقال لكل مشرف على غيره انه لمنيف (٢) تدحض : تبطل ، والحجة : العام
(٣) يشير الى قول الشاعر :

وشممت من أرض الشآم نسيم أنفاس العراق ،

فى أبيات تقدمت فى الجزء الأول صفحة ١٥٣ وان كان لبعض أبياتها رواية أخرى (٤) زجر الطير زجرا : تفاءل به ، وهو يزجر الطير وصافها وأصله أن يرمى الطائر بعصاة أو يصيح به فان ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به وان ولاه مياسره تطير منه ، وهو ضرب من التكهن يقول انه يكون كذا وكذا ، وقال الزجاج : الطير وغيرها التيمن بسنوحها والتشؤم ببروحها ، وعاف الطير وغيرها من السوانح عيافة أى زجرها وذلك أن يعتبر بأسمائها ومساقطها ومرها وأصواتها فيتسعد

فَمَا مَرَّ لَهُ غَيْرُ سَنِيحٍ (١) ، وَلَا فَازَ إِلَّا بِالْمُعَلَّى لَا بِالْمَنِيحِ (٢).
فَأَوْغَلَ فِي تِلْكَ الشِّعَابِ ، وَتَغَلْغَلَ حَتَّى رَاعَ لَيْثَ الْغَابِ . وَمَشَى تَحْتَ أَلْوِيَتِهِ صِيدُ (٣) الْقَبَائِلِ ، وَاشْتَجَرَتْ (٤) فِي ظِلِّهَا بِيضُ الظُّبَا وَسُمْرُ الذَّوَابِلِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي الْأَرْوَاحَ

ويتشاءم ، وهو من عادة العرب، وفي شعرهم كثير منه ، والعائف: المتكهن بالطير أو غيرها من السوانح (١) سنح الظبي سنوحا اذا مر من مياسرك الى ميامنك وهو ضد برح ، ومن أمثالهم : من لي بالسانح بعد البارح أي بالمبارك بعد الشؤم ، والسنيح : هو السانح وهو أحسن حالا من البارح عندهم في التيمن (٢) المعلى : هو السهم الذي له سبعة أنصباء اذا فاز وهو أفضل قداحهم والمنيح : قدح بلا نصيب ، وهو من القداح الثقل التي ليست لها فرض ولا أنصباء ولا عليها غرم وانما يثقل بها القداح الأربعة التي ليس لها غنم ولا غرم أولها المصدر ثم المضعف ثم المنيح ثم السفيح وفي حديث جابر « كنت منيح أصحابي يوم بدر » أي لم أكن ممن يضرب له بسهم مع المجاهدين لصغري فكنت بمنزلة السهم اللغو الذي لافوز له ولا خسر عليه ، أو المنيح السهم من سهام الميسر لانصيب له الا أن يمنح صاحبه شيئا (٣) جمع أصيد ومؤنثه صيداء ، وهو من رفع رأسه كبرا ، ومن لايلتفت من زهوه واعجابه يمينا ولا شمالا ، والأصيد أيضا الأسد لأنه يختال في مشيته ولا يلتفت كأن به صيدا « وهو ميل العنق »(٤) أي اشتبكت وتداخلت، ورماح شواجر ومشتجرة ومتشاجرة: متداخلة مختلفة ومتشابكة ، قال البحتري :

شواجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها

بِغَيْرِ سَوْمٍ[١] ، وَيَنْتَضِي ٱلصِّفَاحَ عَلَى كُلِّ رَوْمٍ[٢] ، وَيَتْلِفُ مَنْ يَتَسَاقُ لِلْخِلَافَةِ وَيَنْقَادُ[٣] ، وَيَخْطَفُ مِنْهُمْ كُلَّ كَوْكَبٍ وَقَّادٍ[٤] ، حَتَّى ٱسْتَبَدَّ وَٱنْفَرَدَ ، وَأَنِسَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلطَّاعَةِ مَانَفَرَ وَشَرَدَ ، . وَٱنْتَظَمَتْ لَهُ ٱلْأَنْدَلُسُ بِالْعُدْوَةِ ، وَٱجْتَمَعَتْ فِي مُلْكِهِ ٱجْتِمَاعَ قُرَيْشٍ بِدَارِ ٱلنَّدْوَةِ[٥] ، وَمَعَ هٰذَا لَمْ يَخْلَعِ ٱسْمَ ٱلْحِجَابَةِ ، وَلَمْ يَدَعِ ٱلسَّمْعَ لِخَلِيفَتِهِ وَٱلْإِجَابَةَ . ظَاهِرٌ يُخَالِفُهُ ٱلْبَاطِنُ ، وَٱسْمٌ تُنَافِرُهُ مَوَاقِعُ ٱلْحُكْمِ وَٱلْمَوَاطِنِ . وَأَذَلَّ قَبَائِلَ ٱلْأَنْدَلُسِ بِإِجَازَةِ ٱلْبَرَابِرِ ، وَأَخْمَلَ[٦] بِهِمْ أُولٰئِكَ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْأَكَابِرَ ، فَإِنَّهُ قَاوَمَهُمْ بِأَضْدَادِهِمْ ، وَٱسْتَكْثَرَ مِنْ أَعْدَادِهِمْ ، حَتَّى تَغَلَّبُوا عَلَى ٱلْجُمْهُورِ ، وَسَلَبُوا عَنْهُمُ ٱلظُّهُورَ ، وَوَثَبُوا عَلَيْهِمُ ٱلْوُثُوبَ ٱلْمَشْهُورَ ، ٱلَّذِي أَعَادَ

(١) أى يأخذها و يطلبها و يستولى عليها بدون أن يساوم أصحابها فى ثمنها
(٢) انتضى السيف : استله ، والصفاح : السيوف العريضة ، والروم للطلب والرام (٣) أى كل من تحدثه نفسه بالدنو منها والطمع فيها (٤) يريد كل عظيم ذى شهرة ومنزلة و رفعة قدر ، ومن هو بين قومه كالكوكب الوقاد علو منزلة واهتداء به كما قيل :

يابن الكواكب من أئمة هاشم والرجح الأحساب والأحلام

(٥) دار الندوة معروفة كانت بمكة بناها قصى بن كلاب وسميت بذلك لأنهم كانوا يندون فيها ، أى يجتمعون للمشاورة وعقد الألوية فى الحرب
(٦) وأخمل الخ : جعلهم خاملين ساقطين لاذكر لهم .

أَكْثَرَ ٱلْأَنْدَلُسِ قَفْرًا يَبَابًا(١)، وَمَلَأَهَا وَحْشًا وَذِئَابًا، وَأَعْرَاهَا مِنَ ٱلْأَمَانِ، بُرْهَةً مِنَ ٱلزَّمَانِ. وَعَلَى هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فَهُوَ وَٱبْنُهُ ٱلْمُظَفَّرُ كَانَا آخِرَ سَعْدِ ٱلْأَنْدَلُسِ، وَحَدَّ ٱلسُّرُورِ بِهَا وَٱلتَّأَنُّسِ. وَغَزَوَاتُهُ فِيهَا شَائِقَةُ ٱلْأَثَرِ، رَائِقَةٌ كَٱلسَّيْفِ ذِي ٱلْأُثُرِ(٢)، وَحَسَبُهُ(٣) وَافِرٌ، وَنَسَبُهُ مُعَافِرُ، وَلِذَا قَالَ يَفْتَخِرُ: رَمَيْتُ بِنَفْسِي، ٱلْأَبْيَاتَ. وَزَادَ هُنَا بَعْدَ قَوْلِهِ: — وَأَبْعِضْ بِآرَبٍ بَيْتًا وَهُوَ:

وَإِنِّي لَزَجَّاءُ ٱلْجُيُوشِ إِلَى ٱلْوَغَى … أُسُودٌ تُلَاقِيهَا أُسُودٌ خَوَادِرُ(٤)

---

(١) اليباب: الخراب الخالى، وحوض يباب: لاماء فيه، وتقول: دارهم خراب يباب لاحارس ولاباب (٢) أثر السيف «بضمتين» وأثره، فرنده ورونقه، وتسلسله وديباجته — والاثر «بفتح فسكون» أكثر وأفصح (٣) الحسب: مايعده المرء من مفاخر آبائه، ويطلق على مساعى الرجل ومآثر سلفه، وعلى المال والكرم وشرف الفعال (٤) زجاه وزجاه وأزجاه: ساقه ودفعه، والوغى فى الأصل: الصوت والجلبة، ومنهم من خصه فى الحرب فقال هو غمغمة الابطال فى حومة الحرب، ويطلق على الحرب نفسها لمافيها من الصوت والجلبة. والخوادر: جمع خادر، والأسد الخادر: المقيم فى عرينه، والخدر: أجمة الأسد، وأخدر الأسد: لزم أجمته وأقام واتخذها خدرا كخدر «كفرح» فهو خادر ومخدر، وقال الأخيلية فى توبة بن الحير:

فتى كان أحيا من فتاة حيية … وأشجع من ليث بخفان خادر

وَكَانَتْ أُمُّهُ تَمِيمِيَّةً فَحَازَ الشَّرَفَ بِطَرَفَيْهِ(١) وَالْتَحَفَ بِعِطْرَفَيْهِ ، وَلِذَا قَالَ الْقَسْطَلِيُّ(٢) فِيهِ :

تَلَاقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرُبٍ
شُمُوسٌ تَلَالَا فِي الْعُلَا وَبُدُورُ

مِنَ الْحِمْيَرِيِّينَ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ
سَحَائِبُ تَهْمِي(٣) بِالنَّدَى وَبُحُورُ

وَتَصَرَّفَ قَبْلَ وِلَايَتِهِ فِي شَتَّى الْوِلَايَاتِ ، وَجَاءَ مِنَ التَّحَدُّثِ بِمُنْتَهَى أَمْرِهِ بِآيَاتٍ ، حَتَّى صَحَّ زَجْرُهُ ، وَجَاءَ بِصُبْحِهِ فَجْرُهُ(٤) ، تُؤْثَرُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ ، فِيهَا عَجَبٌ

---

(١) أى من جهتى الأب والأم فهو كريم الطرفين معم مخول. ومن شجر لايخلف ثمره، ومن ماء لايخاف كدره :

وقد يوقد الزندان نارا لقابس فتضحى من الزندين أعلى وأعظما

(٢) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى ابن دراج القسطلى كاتب الانشاء لابن أبى عامر وكان شاعرا مفلقا وكاتبا مجيدا وعالما متقدما ، وكان بالأندلس كالمتنبي بصقع الشام ، ولد سنة ٣٤٧ وتوفى سنة ٤٢١ منسوب الى مدينة قسطلة بالأندلس . ومن قوله فى قصيدة:

ان كان واديك ممنوعا فموعدنا وادى السكرى فلنلق فيه ألقاك

(٣) تهمى : تسيل سيلا متتابعا وتهطل (٤) يريد أنه انتقل من حال الى حال أرقى منها — والفجر ضوء الصباح وهو حمرة الشمس فى سواد الليل

وَٱعْتِبَارٌ، وَكَانَ أَدِيباً مُحْسِناً، وَعَالِماً مُتْقِناً، فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِمُلْكِ مِصْرَ وَٱلْحِجَازِ، وَيَسْتَدْعِي صُدُورَ تِلْكَ ٱلْأَعْجَازِ(١)

مَنَعَ ٱلْعَيْنَ أَنْ تَذُوقَ ٱلْمَنَامَا
حُبُّهَا أَنْ تَرَى ٱلصَّفَا وَٱلْمَقَامَا
لِي دُيُونٌ بِالشَّرْقِ عِنْدَ أُنَاسٍ
قَدْ أَحَلُّوا بِالْمَشْعَرَيْنِ ٱلْحَرَامَا(٢)
إِنْ قَضَوْهَا نَالُوا ٱلْأَمَانِيَ وَإِلَّا
جَعَلُوا دُونَهَا رِقَاباً وَهَامَا(٣)

(١) صدر كل شيء: مقدمه وأوله، ويقال أخذ الأمر بصدره أي بأوله، والأمور بصدورها ـ وعجز الشيء مؤخره (٢) المشعر: موضع المناسك في الحج وشعاره، أي علامته وآثاره وأعماله وكل ما جعل علما لطاعة الله تعالى كالوقوف والطواف والسعي والرمي وغير ذلك، والمشعر: المتعبد من متعبداته، ومنه سمي المشعر الحرام لأنه معلم العبادة وموضع لها وهو بالمزدلفة، وقيل المشعر الحرام مابين جبل مزدلفة من مأزمي عرفة الى محسر وليس المأزمان ولا محسر من المشعر (٣) جمع هامة: أي الرأس يريد أنهم ان لم يتقاضوا ديونهم بالحسنى اقتضوها بالحرب وبري الرقاب وإطاحة الهام عن الأجسام ـ وهو وعيد خفي بل صريح للفاطميين والعباسيين وبني حمدان وكل من ملك مصر والشام والعراق والحجاز من بلاد الشرق

عَنْ قَرِيبٍ تَرَى خُيُولَ هِشَامِ
يَبْلُغُ ٱلنِّيلَ خَطْوُهَا وَٱلشَّآمَا

أَنْتَهَى مَا نَقَلْتُهُ مِنَ ٱلْمَطْمَحِ .

***

شجاعة المنصور وحظه

وَفِي ٱلْمَنْصُورِ ٱلْمَذْكُورِ أَيْضًا قَالَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي ٱلْمَغْرِبِ مَازِجًا كَلَامَهُ بِبَعْضِ كَلَامِ ٱلْفَتْحِ ، بَعْدَ ذِكْرِ أَسْتِبَاتَتِهِ بِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، وَذِكْرِ قَتْلِهِ لِجَعْفَرَ أَبْنِ عُثْمَانَ ، فَقَالَ بَعْدَهُ مَا صُورَتُهُ : ثُمَّ أَنْفَرَدَ بِنَفْسِهِ وَصَارَ يُنَادِي هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ(١) فَلَمَّا لَمْ يَجِدْهُ حَمَلَ ٱلدَّهْرَ عَلَى حُكْمِهِ ، فَانْقَادَ لَهُ وَسَاعَدَهُ ، فَاسْتَقَامَ أَمْرُهُ مُنْفَرِدًا بِمَمْلَكَةٍ لَا سَلَفَ لَهُ فِيهَا . وَمِنْ أَوْضَحِ ٱلدَّلَائِلِ عَلَى سَعْدِهِ أَنَّهُ لَمْ يُنْكَبْ قَطُّ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا ، وَمَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ هَزِيمَةٌ ، وَمَا أَنْصَرَفَ عَنْ مَوْطِنٍ إِلَّا قَاهِرًا غَالِبًا ، عَلَى كَثْرَةِ مَا زَاوَلَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ، وَمَارَسَ مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ ، وَوَاجَهَ مِنَ ٱلْأُمَمِ ، وَإِنَّهَا لَخَاصَّةٌ مَا أَحْسِبُ أَحَدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ شَارَكَهُ فِيهَا .

---

(١) مأخوذ من قوله :

ولقد بححت من الندا ء بجمعكم هل من مبارز؟

***

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا أُعِينَ بِهِ مَعَ قُوَّةِ سَعْدِهِ وَتَمَكُّنِ كرم المنصور ونبله
جَدِّهِ ، سَعَةُ جُودِهِ وَكَثْرَةُ بَذْلِهِ ، فَقَدْ كَانَ فِي ذٰلِكَ
أُعْجُوبَةَ الزَّمَانِ ، وَأَوَّلَ مَا أَتَّكَأَ عَلَى أَرَائِكِ الْمُلُوكِ
وَارْتَفَقَ(١) ، وَانْتَشَرَ عَلَيْهِ لِوَاءُ السَّعْدِ وَخَفَقَ ، حَطَّ
صَاحِبَهُ الْمُصْحَفِيَّ ، وَأَثَارَ لَهُ كَامِنَ حِقْدِهِ الْخَفِيِّ ، حَتَّى أَصَارَهُ
لِلْهُمُومِ لَبِيسًا(٢) ، وَفِي غَيَابَاتِ(٣) السِّجْنِ حَبِيسًا ، فَكَتَبَ
إِلَيْهِ يَسْتَعْطِفُهُ بِقَوْلِهِ :

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيْنَ الْعَفْوُ وَالْكَرَمُ
إِذْ قَادَنِي نَحْوَكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ ؟
يَاخَيْرَ مَنْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا
تَرْثِي لِشَيْخٍ رَمَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ(٤) ؟

---

(١) ارتفق : اتكأ على مرفق يده ، أو على المرفقة : وهي المخدة .
(٢) اللبيس : الثوب قد أكثر لبسه فأخلق وبلى ، واللبيس المثل ، وهو من الملابسة ، أي المخالطة (٣) غيابة كل شيء قعره وماستر ما كان فيه وغيبه كالجب والوادي والقبر وغيرها ، ومنه قوله تعالى : « وألقوه في غيابة الجب » وقيل الغيابة في الأصل قعر البئر ثم نقلت لكل خفي غامض ، وفي الأصل غابات محرفة (٤) رثى له : اذا رحمه ورق له ، ويريد بالقلم ما كتبه الله في لوح قضائه :

يَالَقْتَ فِي ٱلسُّخْطِ(١) فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ

إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا مَا ٱسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا

فَمَا زَادَهُ ذٰلِكَ إِلَّا حَنَقًا وَحِقْدًا ، وَمَا أَفَادَتْهُ ٱلْأَبْيَاتُ إِلَّا تَضَرُّمًا وَوَقْدًا ، فَرَاجَعَهُ بِمَا أَيْأَسَهُ ، وَأَرَاهُ مَرْمَسَهُ(٢) ، وَأَطْبَقَ(٣) عَلَيْهِ مَحْبِسَهُ ، وَضَيَّقَ تَرَوُّحَهُ(٤) مِنَ ٱلْمِحْنَةِ وَتَنَفُّسَهُ :

ٱلْآنَ يَاجَاهِلًا زَلَّتْ بِكَ ٱلْقَدَمُ

تَبْغِي ٱلتَّكَرُّمَ لَمَّا فَاتَكَ ٱلْكَرَمُ ؟

أَغْرَيْتَ بِي مَلِكًا لَوْلَا تَثَبُّتُهُ

مَاجَازَ لِي عِنْدَهُ نُطْقٌ وَلَا كَلِمُ

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

وفى بعض المراجع : فماء عندك القلم . وقد يريد بالقلم قلمه الكاتب فقد كان وزيرا (١) فى الأصل « فى الخط » محرفة (٢) المرمس والرمس : القبر ، وقد يستعار للسجن فهو قبر الأحياء (٣) أطبقه : غطاه وجعله مطبقا عليه ، ومنه الجنون المطبق الذى يغطى العقل ويستره ـ والمطبق سجن تحت الأرض (٤) من الروح وهو برد نسيم الريح « وسميت ريحا لأن الغالب عليها فى هبوبها المجىء بالروح والراحة وانقطاع هبوبها يكسب الكرب والغم والأذى » وأراح : تنفس ، وأراح واستراح : رجعت نفسه إليه بعد الإعياء ، وصار ذا راحة

فَايْأَسْ مِنَ الْعَيْشِ إِذْ قَدْ صِرْتَ فِي طَبَقٍ (١)
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَا اسْتُنْقِمُوا (٢) نَقِمُوا
نَفْسِي إِذَا سَخِطَتْ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ
وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ الْعُرْبُ وَالْعَجَمُ

***

آثار المنصور ومناقبه

وَكَانَ مِنْ أَخْبَارِهِ الدَّاخِلَةِ فِي أَبْوَابِ الْبِرِّ وَالْقُرْبَةِ بُنْيَانُ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَمِنْ ذٰلِكَ بِنَاؤُهُ قَنْطَرَةً عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ الْأَعْظَمِ، ابْتَدَأَ بِنَاءَهَا الْمَنْصُورُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَفَرَغَ مِنْهَا فِي النِّصْفِ مِنْ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ، وَانْتَهَتِ النَّفَقَةُ عَلَيْهَا إِلَى مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَعَظُمَتْ بِهَا الْمَنْفَعَةُ، وَصَارَتْ صَدْرًا فِي مَنَاقِبِهِ الْجَلِيلَةِ، وَكَانَتْ هُنَالِكَ قِطْعَةُ أَرْضٍ لِشَيْخٍ مِنَ الْعَامَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْقَنْطَرَةِ عُدُولٌ عَنْهَا، فَأَمَرَ الْمَنْصُورُ أُمَنَاءَهُ بِإِرْضَائِهِ

---

(١) الطبق : غطاء كل شئ ووجه الأرض ، والطبق : الدرك من أدراك جهنم ، والبيت الأخير يشير الى قول معن بن أوس المزنى :
اذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكد عليه بوجه آخر الدهر تقبل
(٢) استنقموا : طلبوا للانتقام — ونقموا : عاقبوا .

فِيهَا، فَحَضَرَ ٱلشَّيْخُ عِنْدَهُمْ فَسَاوَمُوهُ(١) بِالْقِطْعَةِ، وَعَرَّفُوهُ وَجْهَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَأَنَّ ٱلْمَنْصُورَ لَا يُرِيدُ إِلَّا إِنْصَافَهُ فِيهَا، فَرَمَاهُمُ(٢) ٱلشَّيْخُ بِالْغَرَضِ ٱلْأَقْصَى عِنْدَهُ فِيمَا ظَنَّهُ أَنَّهَا لَا تَخْرُجُ عَنْهُ بِأَقَلَّ مِنْ عَشَرَةِ دَنَانِيرَ ذَهَبًا كَانَتْ عِنْدَهُ أَقْصَى ٱلْأُمْنِيَّةِ، وَشَرَطَهَا صِحَاحًا، فَاغْتَنَمَ ٱلْأُمَنَاءُ غَفْلَتَهُ، وَنَقَدُوهُ ٱلثَّمَنَ، وَأَشْهَدُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخْبَرُوا ٱلْمَنْصُورَ بِخَبَرِهِ، فَضَحِكَ مِنْ جَهَالَتِهِ، وَأَنِفَ مِنْ غَبْنِهِ(٣) وَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى عَشَرَةَ أَمْثَالِ مَا سَأَلَ، وَتُدْفَعَ لَهُ صِحَاحًا كَمَا قَالَ، فَقَبَضَ ٱلشَّيْخُ مِائَةَ دِينَارٍ ذَهَبًا، فَكَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ عَقْلِهِ، وَأَنْ يُجَنَّ عِنْدَ قَبْضِهَا مِنَ ٱلْفَرَحِ، وَجَاءَ مُحْتَفِلًا فِي شُكْرِ ٱلْمَنْصُورِ، وَصَارَتْ قِصَّتُهُ خَبَرًا سَائِرًا

« وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا » بِنَاءُ قَنْطَرَةٍ عَلَى نَهْرِ إِسْتِجَةَ(٤) وَهُوَ

---

(١) ساوموه بالقطعة : عينوا ثمنها (٢) رماهم الشيخ الخ : ألقى إليهم بقصده البعيد فى الثمن (٣) غبنه : خداعه فى الثمن وغلبه فيه . (٤) إستجة Ecija اسم لكورة تتصل أعمالها بأعمال قرطبة وبين مدينة استجة وقرطبة نحو ٣٥ ميلا وهى الى الجنوب الغربى منها على رافد من روافد نهر اشبيلية العظيم « أو نهر قرطبة » يسمى نهر شنيل أو نهر سنجيل وهو نهر غرناطة وكان طارق بن زياد أيام الفتح قد حارب

نَهْرُ شِنِّيل[١] ، وَتَجَشَّمَ لَهَا أَعْظَمَ مُؤْنَةٍ ، وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ الْوَعْرَةَ وَالشِّعَابَ[٢] الصَّعْبَةَ

فل عسكر لذريق بعد استيلائه على إستجة ثم ورد عينا من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت عين طارق . وفي سنة ٢٣٥ كان بالاندلس سيل عظيم خرب جسر استجة وأتلف الارحاء وغرق نهر اشبيلية ١٦ قرية ومن أهل استجة كثير من العلماء والأدباء منهم أبو عبدالله محمد بن اسحق بن ابراهيم بن مطرف النصرى العالم اللغوى النحوى العروضي والشاعر الأديب توفي سنة ٣٦٣ وأبو القاسم أحمد بن يوسف ابن اسحق بن ابراهيم الفقيه الأديب الشاعر توفي سنة ٣٧٢ وأبو القاسم أصبغ بن قاسم بن أصبغ الفقيه الأديب توفي سنة ٣٦٣ وابنه اسحق بن محمد كان كأبيه في علومه ومعارفه وكان طبيبا أديبا وشاعرا مطبوعا وكاتبا بليغا وفقيها فاضلا توفي سنة ٣٧٠ (١) نهر شنيل (Jenil (Xenil يسمى أيضا نهر غرناطة وعليه مدينة إستجة وهو يشق إقليم غرناطة ويروى سهوله بوسائل الرى وترعه التي أوجدها العرب من قبل ثم يمر بقرطبة ومدينة لوشة ويصب بعد ذلك في الوادى الكبير ويدير عددا كبيرا من الأرحاء كأرحاء ناصح وغيرها . وقد افتتح الناصر مدينة إستجة سنة ٣٠٠ وفيه يقول أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان من أبيات :

وقد سل شنيل فرندا مهندا ... فضي فوق در ذر فيه عقيق
اذا نم فيه طيب نشر أرا كة ... أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ... ثغور أقاح في الرياض أنيق

وقد ولع شعراء الأندلس بوصف هذا الوادى وتفضيل نهر شنيل على نهر النيل بزيادة الشين التي هي ألف بحساب الجمل فكأنه ألف ضعف بالنسبة للنيل على عادة التحليق في سماء الخيال الشعرى ، وقد سبق في الجزء الأول شيء من ذلك « أحمد يوسف نجاتي » (٢) الشعاب الصعبة : الطرق في الجبل غير الممهدة .

٭٭٭

قوة إيمان المنصور « وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا » أَنَّهُ خَطَّ بِيَدِهِ مُصْحَفًا كَانَ يَحْمِلُهُ مَعَهُ فِي أَسْفَارِهِ وَغَزَوَاتِهِ ، يَدْرُسُ فِيهِ وَيَتَبَرَّكُ بِهِ . وَمِنْ قُوَّةِ رَجَائِهِ أَنَّهُ اعْتَنَى بِجَمْعِ مَا عَلِقَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْغُبَارِ فِي غَزَوَاتِهِ وَمَوَاطِنِ جِهَادِهِ ، فَكَانَ الْخَدَمُ يَأْخُذُونَهُ عَنْهُ بِالْمَنَادِيلِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِنْهُ صُرَّةٌ ضَخْمَةٌ عَهِدَ بِتَصْيِيرِهِ فِي حَنُوطِهِ[1] ، وَكَانَ يَحْمِلُهَا حَيْثُ سَارَ مَعَ أَكْفَانِهِ تَوَقُّعًا لِحُلُولِ مَنِيَّتِهِ ، وَقَدْ كَانَ اتَّخَذَ الْأَكْفَانَ مِنْ أَطْيَبِ مَكْسَبِهِ ، مِنَ الضَّيْعَةِ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ أَبِيهِ وَغَزْلِ بَنَاتِهِ ، وَكَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَوَفَّاهُ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ ، فَكَانَ كَذَلِكَ . وَكَانَ مُتَّسِمًا[2] بِصِحَّةِ بَاطِنِهِ ، وَاعْتِرَافِهِ بِذَنْبِهِ ، وَخَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَكَثْرَةِ جِهَادِهِ ، وَإِذَا ذُكِّرَ بِاللَّهِ ذَكَرَ ، وَإِذَا خُوِّفَ مِنْ عِقَابِهِ ازْدَجَرَ ، وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَزِّهًا[3] عَنْ كُلِّ مَا يَفْتَتِنُ بِهِ الْمُلُوكُ ، سِوَى

(١) الحنوط كل طيب يخلط قيت خاصة لأكفانهم وأجسامهم من ذريرة أو مسك أو عنبر أو كافور وغيره. (٢) متصفا وموسوما (٣) متنزها : مترفعا

الخَمْرِ، لَـكِنَّهُ أَقْلَعَ عَنْهَا قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَتَيْنِ، وَكَانَ عَدْلُهُ فِي الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ، وَبَسْطُ الحَقِّ عَلَى الأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ مِنْ خَاصَّتِهِ وَحَاشِيَتِهِ أَمْرًا مَضْرُوبًا بِهِ المَثَلُ

***

« وَمِنْ عَدْلِهِ » أَنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ العَامَّةِ بِمَجْلِسِ فَنَادَى: يَانَاصِرَ الحَقِّ، إِنَّ لِي مَظْلِمَةً عِنْدَ ذَلِكَ الوَصِيفِ الَّذِي عَلَى رَأْسِكَ وَأَشَارَ إِلَى الفَتَى صَاحِبِ الدَّرَقَةِ(١)، وَكَانَ لَهُ فَضْلُ مَحَلٍّ عِنْدَهُ. ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ دَعَوْتُهُ إِلَى الحَاكِمِ فَلَمْ يَأْتِ، فَقَالَ لَهُ المَنْصُورُ: أَوَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ الفُطَيْسِ بِهٰذَا العَجْزِ وَالمَهَانَةِ، وَكُنَّا نَظُنُّهُ أَمْضَى مِنْ ذَلِكَ؟ اذْكُرْ مَظْلِمَتَكَ(٢) يَاهٰذَا، فَذَكَرَ الرَّجُلُ مُعَامَلَةً كَانَتْ جَارِيَةً بَيْنَهُمَا فَقَطَعَهَا مِنْ غَيْرِ نَصَفٍ(٣)، فَقَالَ المَنْصُورُ: مَا أَعْظَمَ بَلِيَّتَنَا بِهٰذِهِ الحَاشِيَةِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الصِّقْلِيِّ وَقَدْ ذُهِلَ عَقْلُهُ، فَقَالَ لَهُ: ادْفَعِ الدَّرَقَةَ إِلَى فُلَانٍ وَانْزِلْ صَاغِرًا: وَسَاوِ خَصْمَكَ فِي

(١) هي ترس من جلود ليس فيه خشب (٢) المظلمة: بكسر اللام، ماتظلمه الرجل (٣) النصف: بالتحريك، اسم من الانصاف وهو العدل

مَقَامِهِ حَتَّى يَرْفَعَكَ ٱلْحَقُّ أَوْ يَضَعَكَ ، فَفَعَلَ وَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِ شُرْطَتِهِ ٱلْخَاصِّ بِهِ : خُذْ بِيَدِ هٰذَا ٱلْفَاسِقِ ٱلظَّالِمِ ، وَقَدِّمْهُ مَعَ خَصْمِهِ إِلَى صَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ ، لِيُنَفِّذَ عَلَيْهِ حُكْمَهُ بِأَغْلَظِ مَا يُوجِبُهُ ٱلْحَقُّ مِنْ سِجْنٍ أَوْ غَيْرِهِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَعَادَ ٱلرَّجُلُ إِلَيْهِ شَاكِرًا ، فَقَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ : قَدِ ٱنْتَصَفْتَ(١) أَنْتَ ، ٱذْهَبْ لِسَبِيلِكَ ، وَبَقِيَ ٱنْتِصَافِي أَنَا مِمَّنْ تَهَاوَنَ بِمَنْزِلَتِي ، فَتَنَاوَلَ ٱلصَّقْلَبِيَّ بِأَنْوَاعٍ مِنَ ٱلْمَذَلَّةِ ، وَأَبْعَدَهُ عَنِ ٱلْخِدْمَةِ .

***

قصة البورق مع التاجر المغربي

« وَمِنْ ذَلِكَ » قِصَّةُ فَتَاهُ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْبُورَقِ مَعَ ٱلتَّاجِرِ ٱلْمَغْرِبِيِّ ، فَإِنَّهُمَا تَنَازَعَا فِي خُصُومَةٍ تَوَجَّهَتْ فِيهَا ٱلْيَمِينُ عَلَى ٱلْفَتَى ٱلْمَذْكُورِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَكْبَرُ خَدَمِ ٱلْمَنْصُورِ ، وَإِلَيْهِ أَمْرُ دَارِهِ وَحَرَمِهِ ، فَدَافَعَ(٢) ٱلْحَاكِمَ ، وَظَنَّ أَنَّ جَاهَهُ يَمْنَعُ مِنْ إِحْلَافِهِ(٣) ، فَصَرَخَ ٱلتَّاجِرُ بِٱلْمَنْصُورِ فِي

(١) انتصف : عدل وأن يأخذ الحق ويعطي الحق (٢) دافع الحاكم : رده في القول ، وزاحمه فيه . (٣) تحليفه اليمين : كاستحلافه

طَرِيقِهِ إِلَى ٱلْجَامِعِ ، مُتَظَلِّمًا مِنَ ٱلْفَتَى ، فَوَكَّلَ بِهِ فِي ٱلْوَقْتِ مَنْ حَمَلَهُ إِلَى ٱلْحَاكِمِ ، فَأَنْصَفَهُ مِنْهُ وَسَخِطَ عَلَيْهِ ٱلْمَنْصُورُ ، وَقَبَضَ نِعْمَتَهُ مِنْهُ ، وَنَفَاهُ .

***

قصة فصاد المنصور « وَمِنْ ذَلِكَ » قِصَّةُ مُحَمَّدٍ فَصَّادِ ٱلْمَنْصُورِ ، وَخَادِمِهِ وَأَمِينِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّ ٱلْمَنْصُورَ ٱحْتَاجَهُ يَوْمًا إِلَى ٱلْفَصْدِ[1] وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّعَهُّدِ لَهُ ، فَأَنْفَذَ رَسُولَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَأَلْفَاهُ ٱلرَّسُولُ مَحْبُوسًا فِي سِجْنِ ٱلْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ زُوبٍ[2] لِحَيْفٍ ظَهَرَ مِنْهُ عَلَى ٱمْرَأَتِهِ ، قَدَّرَ أَنَّ سَبِيلَهُ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ يَحْمِيهِ

(١) الفصد : شق العرق واسالة الدم (٢) كذا بالاصل وأنا أظنها محرفة عن « زرب » وهو أبو بكر محمد بن يبقى بن محمد بن زرب بن يزيد ابن مسلمة قاضي الجماعة بقرطبة كان فقيها نبيلا وفاضلا جليلا وعنى بدرس الرأى فتقدم فيه أهل وقته وكان أحفظ أهل زمانه لفقه مذهب مالك . شوور فى الاحكام صدرا من ولاية محمد بن اسحق « ابن منذر بن ابراهيم بن محمد بن السليم بن أبى عكرمة الداخل إلى الأندلس قاضى الجماعة بقرطبة بعد وفاة المنذر بن سعيد سنة ٣٥٦ » فلما توفى القاضى محمد بن اسحق ولى محمد بن زرب قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٦٧ فى أوائل الدولة العامرية ، وكان ابن زرب قاضيا عدلا صالحا وفقيها جليلا بصيرا بالعربية والحساب حسن الحديث كثير المروءة نفع الناس بعلمه وبجاهه وتوفى سنة ٣٨١ وكان مولده سنة ٣١٧ ـ رحمه الله ـ « أحمد يوسف نجاتى »

مِنَ الْعُقُوبَةِ ، فَلَمَّا عَادَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَنْصُورِ بِقِصَّتِهِ أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ السِّجْنِ مَعَ رَقِيبٍ مِنْ رُقَبَاءِ السِّجْنِ يَلْزَمُهُ إِلَى أَنْ يَفْرُغَ مِنْ عَمَلِهِ عِنْدَهُ ، ثُمَّ يَرُدَّهُ إِلَى مَحْبِسِهِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى مَا رَسَمَهُ ، وَذَهَبَ الْفَاسِدُ إِلَى شَكْوَى مَا نَالَهُ ، فَقَطَعَ عَلَيْهِ الْمَنْصُورُ وَقَالَ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُ الْقَاضِي وَهُوَ فِي عَدْلِهِ ، وَلَوْ أَخَذَنِي بِالْحَقِّ مَا أَطَقْتُ الِامْتِنَاعَ مِنْهُ ، عُدْ إِلَى مَحْبِسِكَ ، وَاعْتَرِفْ بِالْحَقِّ فَهُوَ الَّذِي يُطْلِقُكَ ، فَانْكَسَرَ[1] الْحَاجِمُ ، وَزَالَتْ عَنْهُ رِيحُ الْعِنَايَةِ ، وَبَلَغَتْ قِصَّتُهُ لِلْقَاضِي فَصَالَحَهُ مَعَ زَوْجَتِهِ ، وَزَادَ الْقَاضِي شِدَّةً فِي أَحْكَامِهِ

***

قصة الشيخ مع المنصور

وَقَالَ ابْنُ حَيَّانَ : إِنَّهُ كَانَ جَالِسًا فِي بَعْضِ اللَّيَالِي وَكَانَتْ لَيْلَةً شَدِيدَةَ الْبَرْدِ وَالرِّيحِ وَالْمَطَرِ ، فَدَعَا بِأَحَدِ الْفُرْسَانِ وَقَالَ لَهُ : انْهَضِ الْآنَ إِلَى فَجِّ طَيَالِسَ وَأَقِمْ فِيهِ ، فَأَوَّلُ خَاطِرٍ[2] يَخْطُرُ عَلَيْكَ سُقْهُ إِلَيَّ ، قَالَ : فَنَهَضَ الْفَارِسُ ، وَبَقِيَ فِي الْفَجِّ فِي الْبَرْدِ وَالرِّيحِ وَالْمَطَرِ وَاقِفًا عَلَى فَرَسِهِ ، إِذْ وَقَفَ عَلَيْهِ قُرْبَ الْفَجْرِ شَيْخٌ هَرِمٌ عَلَى حِمَارٍ لَهُ ، وَمَعَهُ آلَةُ

(١) انكسر الحاجم : غلب على أمره (٢) أى أول مار يمر بك

الْحَطَب ، فَقَالَ لَهُ الْفَارِسُ : إِلَى أَيْنَ تُرِيدُ يَا شَيْخُ ؟ فَقَالَ : وَرَاءَ حَطَب ، فَقَالَ الْفَارِسُ فِي نَفْسِهِ : هَذَا شَيْخٌ مِسْكِينٌ نَهَضَ إِلَى الْجَبَلِ يَسُوقُ حَطَباً ، فَمَاذَا عَسَى أَنْ يُرِيدَ الْمَنْصُورُ مِنْهُ ؟ قَالَ : فَتَرَكْتُهُ فَسَارَ عَنِّي قَلِيلًا ، ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي قَوْلِ الْمَنْصُورِ ، وَخِفْتُ سَطْوَتَهُ(١) ، فَنَهَضْتُ إِلَى الشَّيْخِ وَقُلْتُ لَهُ : ارْجِعْ إِلَى مَوْلَانَا الْمَنْصُورِ ، فَقَالَ لَهُ : وَمَاذَا عَسَى أَنْ يُرِيدَ الْمَنْصُورُ مِنْ شَيْخٍ مِثْلِي ؟ سَأَلْتُكَ بِاللهِ أَنْ تَتْرُكَنِي أَذْهَبُ لِطَلَبِ مَعِيشَتِي ، فَقَالَ لَهُ الْفَارِسُ : لَا أَفْعَلُ ، ثُمَّ قَدِمَ بِهِ عَلَى الْمَنْصُورِ ، وَمَثَّلَهُ(٢) بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ جَالِسٌ لَمْ يَنَمْ لَيْلَتَهُ تِلْكَ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ لِلصَّقَالِبَةِ : فَتِّشُوهُ ، فَفَتَّشُوهُ فَلَمْ يَجِدُوا مَعَهُ شَيْئاً ، فَقَالَ فَتِّشُوا بَرْذَعَةَ حِمَارِهِ ، فَوَجَدُوا دَاخِلَهَا كِتَاباً مِنْ نَصَارَى كَانُوا قَدْ نَزَعُوا إِلَى الْمَنْصُورِ ، يَخْدُمُونَ عِنْدَهُ إِلَى أَصْحَابِهِمْ مِنَ النَّصَارَى ، لِيَغْضَبُوا وَيَقْتُلُوا فِي إِحْدَى النَّوَاحِي الْمَرْطُومَةِ(٣) ، فَلَمَّا

(١) سطوته : بطشه وصولته (٢) أي أوقفه ، ومثل بين يديه مثولا وتمثل : قام شاخصا (٣) كذا بالأصل وقد تكون « المرطومة » من رطمه في الوحل رطما : أي الجهات ذات الوحل من كثرة الأمطار

أَنْبَلَجَ[1] ٱلصُّبْحُ أَمَرَ بِإِخْرَاجِ أُولَئِكَ ٱلنَّصَارَى إِلَى بَابِ ٱلزَّاهِرَةِ ، فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ ، وَضُرِبَتْ رَقَبَةُ ٱلشَّيْخِ مَعَهُمْ .

***

نادرة المنصور والتاجر

ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا ٱلْمُؤَرِّخُ قِصَّةَ ٱلْجَوْهَرِيِّ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا نَقْلَهَا مِنْ مُغْرِبِ ٱبْنِ سَعِيدٍ ، وَلَكِنَّا رَأَيْنَا إِعَادَتَهَا بِلَفْظِ هَذَا ٱلْمُؤَرِّخِ لِأَنَّهُ أَتَمُّ مَسَاقًا ، إِذْ قَالَ عَطْفًا عَلَى دَهَائِهِ : وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ ٱلْجَوْهَرِيِّ ٱلتَّاجِرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا جَوْهَرِيًّا مِنْ تُجَّارِ ٱلْمَشْرِقِ ، قَصَدَ ٱلْمَنْصُورَ مِنْ مَدِينَةِ عَدَنٍ بِجَوْهَرٍ كَثِيرٍ وَأَحْجَارٍ نَفِيسَةٍ ، فَأَخَذَ ٱلْمَنْصُورُ مِنْ ذَلِكَ مَا ٱسْتَحْسَنَهُ ، وَدَفَعَ إِلَى ٱلتَّاجِرِ ٱلْجَوْهَرِيِّ صُرَّتَهُ ، وَكَانَتْ قِطْعَةً يَمَانِيَةً ، فَأَخَذَ ٱلتَّاجِرُ فِي ٱنْصِرَافِهِ طَرِيقَ ٱلرَّمْلَةِ عَلَى شَطِّ ٱلنَّهْرِ ، فَلَمَّا تَوَسَّطَهَا وَٱلْيَوْمُ قَائِظٌ[2] ، وَعَرَقُهُ مُنْصَبٌّ ، دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى ٱلتَّبَرُّدِ فِي ٱلنَّهْرِ ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ وَتِلْكَ ٱلصُّرَّةَ عَلَى ٱلشَّطِّ ، فَمَرَّتْ حِدَأَةٌ فَٱخْتَطَفَتِ ٱلصُّرَّةَ تَحْسَبُهَا لَحْمًا ، وَصَاعَدَتْ فِي ٱلْأُفُقِ بِهَا ذَاهِبَةً ، فَقَطَعَتِ ٱلْأُفُقَ ٱلَّذِي تَنْظُرُ إِلَيْهِ عَيْنُ ٱلتَّاجِرِ ، فَقَامَتْ[3] قِيَامَتُهُ ،

---

(١) أى أشرق وأضاء (٢) اليوم قائظ : أى شديد الحر (٣) قامت قيامته : أى انزعج واضطرب

وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَدْفِعَ (١) ذَلِكَ بِحِيلَةٍ ، فَأَسَرَّ الْحُزْنَ فِي نَفْسِهِ ، وَلَحِقَهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ عِلَّةٌ اضْطَرَبَ فِيهَا ، وَحَضَرَ الدَّفْعُ إِلَى التُّجَّارِ ، فَحَضَرَ الرَّجُلُ لِذَلِكَ بِنَفْسِهِ ، فَاسْتَبَانَ لِلْمَنْصُورِ مَا بِالرَّجُلِ مِنَ الْمَهَانَةِ وَالْكَآبَةِ وَفَقْدِ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ النَّشَاطِ وَشِدَّةِ الْعَارِضَةِ (٢)، فَسَأَلَهُ الْمَنْصُورُ عَنْ شَأْنِهِ ، فَأَعْلَمَهُ بِقِصَّتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : هَلَّا أَتَيْتَ إِلَيْنَا بِحِدْثَانِ (٣) وُقُوعِ الْأَمْرِ ، فَكُنَّا نَسْتَظْهِرُ عَلَى الْحِيلَةِ ، فَهَلْ هُدِيتَ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي أَخَذَ الطَّائِرُ إِلَيْهَا ؟ قَالَ : مَرَّ مُشَرِّقًا عَلَى سَمْتِ (٤) هَذَا الْجَبَلِ الَّذِي يَلِي قَصْرَكَ ـ يَعْنِي الرَّمْلَةَ ـ فَدَعَا الْمَنْصُورُ شُرْطِيَّهُ الْخَاصَّ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : جِئْنِي بِمَشْيَخَةِ أَهْلِ الرَّمْلَةِ السَّاعَةَ ، فَمَضَى وَجَاءَ بِهِمْ سَرِيعًا ، فَأَمَرَهُمْ

(١) يقال استدفع الله السوء والشر : إذا طلب منه أن يدفعها عنه

(٢) العارضة والعارض : البيان واللسن والفصاحة ، والجلد والصرامة وفلان شديد العارضة أي ذو جلدوقوة، ومنه قول عمرو بن الأهتم حين سئل عن الزبرقان بن بدر التميمي ـ رضي الله عنهما ـ فقال : مطاع في أدنيه شديد العارضة مانع ماوراء ظهره

(٣) حدثان الأمروحداثته : أوله وابتداؤه

(٤) السمت : الطريق ، وسمت الطريق . قصده وناحيته .

بِالْبَحْثِ عَمَّنْ غُيِّرَ حَالُ الْإِقْلَالِ مِنْهُمْ سَرِيعًا، وَانْتَقَلَ عَنِ الْإِضَاقَةِ[١] دُونَ تَدْرِيجٍ، فَتَنَاظَرُوا فِي ذَلِكَ، ثُمَّ قَالُوا: يَا مَوْلَانَا مَا نَعْلَمُ إِلَّا رَجُلًا مِنْ ضُعَفَائِنَا، كَانَ يَعْمَلُ هُوَ وَأَوْلَادُهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَيَتَنَاوَلُونَ السَّبْقَ بِأَقْدَامِهِمْ عَجْزًا عَنْ شِرَاءِ دَابَّةٍ، فَابْتَاعَ الْيَوْمَ دَابَّةً، وَاكْتَسَى هُوَ وَوَلَدُهُ كِسْوَةً مُتَوَسِّطَةً، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ مِنَ الْغَدِ، وَأَمَرَ التَّاجِرَ بِالْغُدُوِّ إِلَى الْبَابِ، فَحَضَرَ الرَّجُلُ بِعَيْنِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ، فَاسْتَدْنَاهُ وَالتَّاجِرُ حَاضِرٌ، وَقَالَ لَهُ سَبَبٌ[٢] ضَاعَ مِنَّا وَسَقَطَ إِلَيْكَ، مَا فَعَلْتَ بِهِ؟ قَالَ: هُوَ ذَا يَا مَوْلَايَ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى حُجْزَةِ[٣] سَرَاوِيلِهِ، فَأَخْرَجَ الصُّرَّةَ بِعَيْنِهَا، فَصَاحَ التَّاجِرُ طَرَبًا، وَكَادَ يَطِيرُ فَرَحًا، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: صِفْ لِي حَدِيثَهَا، فَقَالَ: بَيْنَا أَنَا أَعْمَلُ فِي جِنَانٍ[٤] تَحْتَ نَخْلَةٍ إِذْ

(١) أي الفقر وسوء الحال كالضيقة، وأضاق: اذا ضاق عليه معاشه.

(٢) السبب: كل مايتوصل به الى شيء غيره، ويقال سبب الله لك سبب خير (٣) أي موضع التكة — واحتجز الرجل: حمل الشيء في حجزته — وهو طيب الحجزة: أي عفيف طاهر طيب الأزار، وأخذت بحجزته أي اعتصمت به والتجأت اليه مستجيرا (٤) جنان: بالكسر جمع جنة: الحديقة ذات النخل والثمر.

بِقَطْعَتِ أَمَامِي ، فَأَخَذْتُهَا وَرَاقَنِي مَنْظَرُهَا ، فَقُلْتُ : إِنَّ الطَّائِرَ أَخْتَلَسَهَا مِنْ قَصْرِكَ لِقُرْبِ الْجِوَارِ ، فَاجْتَزْتُ بِهَا ، وَدَعَتْنِي فَاقَتِي إِلَى أَخْذِ عَشَرَةِ مَثَاقِيلَ عُيُونًا[1] كَانَتْ مَعَهَا مَصْرُورَةً ، وَقُلْتُ : أَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي كَرَمِ مَوْلَايَ أَنْ يَسْمَحَ لِي بِهَا ، فَأَعْجَبَ الْمَنْصُورَ مَا كَانَ مِنْهُ ، وَقَالَ لِلتَّاجِرِ خُذْ صُرَّتَكَ وَانْظُرْهَا ، وَأَصْدُقْنِي عَنْ عَدَدِهَا ، فَفَعَلَ وَقَالَ : وَحَقِّ رَأْسِكَ يَا مَوْلَايَ مَا ضَاعَ مِنْهَا شَيْءٌ سِوَى الدَّنَانِيرِ الَّتِي ذَكَرَهَا ، وَقَدْ وَهَبْتُهَا لَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : نَحْنُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْكَ ، وَلَا نُنَغِّصُ عَلَيْكَ فَرَحَكَ ، وَلَوْلَا جَمْعُهُ بَيْنَ الْإِصْرَارِ وَالْإِقْرَارِ لَكَانَ ثَوَابُهُ مَوْفُورًا[2] عَلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ لِلتَّاجِرِ بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ عِوَضًا مِنْ دَنَانِيرِهِ ، وَلِلْجَانِي[3] بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ ثَوَابًا لِتَأَنِّيهِ[4] عَنْ فَسَادِ مَا وَقَعَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : لَوْ بَدَأَنَا بِالِاعْتِرَافِ قَبْلَ الْبَحْثِ لَأَوْسَعْنَاهُ جَزَاءً ، قَالَ :

(١) عيونا : جمع عين : الذهب المضروب (٢) الجزاء الموفور : التام الذى لم ينقص منه شيء ، وفره له ، وفرة : كثره وأكمله وجعله وافرا — وتوفر عليه اذا رعى حرماته وبره (٣) الجانى : الجانى .

(٤) أو لتأنيه أى حسن تلطفه واحتياله

فَأَخَذَ التَّاجِرُ يَبُثُّ بِالثَّنَاءِ عَلَى الْمَنْصُورِ، وَقَدْ عَاوَدَهُ نَشَاطُهُ، وَقَالَ: وَاللهِ لَأَبُثَّنَّ[1] فِي الْأَقْطَارِ عَظِيمَ مُلْكِكَ، وَلَأُبَيِّنَنَّ أَنَّكَ تَمْلِكُ طَيْرَ أَعْمَالِكَ كَمَا تَمْلِكُ أَنْفُسَهَا فَلَا تَنْتَصِمُ[2] مِنْكَ وَلَا تَمْتَنِعُ، وَلَا تُؤْذِي جَارَكَ. فَضَحِكَ الْمَنْصُورُ وَقَالَ: أَقْصِدْ[3] فِي قَوْلِكَ يَغْفِرِ اللهُ لَكَ. فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ تَلَطُّفِ الْمَنْصُورِ فِي أَمْرِهِ، وَحِيلَتِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرْبَتِهِ.

***

غزوة المنصور لمدينة « شنت ياقب »

« وَمِنْ ذَلِكَ » غَزْوَةُ الْمَنْصُورِ لِمَدِينَةِ « شَنْتَ يَاقُبَ[4] »

---

(١) بث الخبر والحديث: نشره وأذاعه وفرقه فى الجهات (٢) أى تحتمى الى ماعصمها و يمنعها، واعتصم بالجبل اذا لاذبه متحصنا (٣) القصد فى الشىء الاعتدال وعدم الافراط كالاقتصاد (٤) شنت ياقب « أو ياقو » وتسمى أيضا سنتكياك Santiago أو Sanctyac فى نهاية الطرف الشمالى الغربى لأسبانيا « شمال بلاد البرتغال » وهى مدينة ذات حصانة ومنعة وكانت من بلاد جليقية وفى سنة ٢٤٩ أغار نصارى جليقية على بلاد المسلمين فعاثوا فيها فسادا فأمر الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم قواده وولاته بجمع الجيوش للجهاد فخرج بهم وانضم اليهم فرسان ماردة وسار الى جليقية ودخل مدينة شنت ياقب فلما استطاع الجلالقة أن يثبتوا على مقاومته بل تقهقروا والتجأوا الى القلاع القائمة على الصخور المنيعة هناك فرجع الأمير من طريق طلبيرة أو من طريق سمورة وأرسل فرسان ماردة من طريق سلمنقة وواصل سيره مع فرسان قرطبة متجها الى طليطلة.

قَلْمِيَةَ غَلِيسِيَةَ (١)، وَأَعْظَمَ مَشَاهِدِ النَّصَارَى الْكَائِنَةِ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ، وَكَانَتْ كَنِيسَتُهَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْكَعْبَةِ عِنْدَنَا — وَلِلْكَعْبَةِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى — فِيهَا يَحْلِفُونَ، وَإِلَيْهَا يَحُجُّونَ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ رُومَةَ وَمَا وَرَاءَهَا (٢)، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْقَبْرَ الْمَزُورَ فِيهَا قَبْرُ يَاقُبَ

واسم هذه المدينة منحوت من كلمتين روميتين «سنكيتوس يعقو بوس» «أي القديس يعقوب» ومن ذلك أخذ الأسبانيون لفظ «ستياغو» وفي معجم ياقوت شنت ياقب قلعة حصينة بالأندلس، وربما مدوا حركة القاف فقالوا ياقوب كما في نزهة المشتاق. وقد علقنا على هذه المدينة هنا وفي الجزء الثاني بما يزيل سهو تعليق الجزء الأول صفحة ٢٥٩.

(١) Galice وجبال غليسية في الشمال الغربي وهو يعني اقليم جليقية

(٢) وفيها كانت تتوج ملوكهم فقد توج بها أذفنش «أخو شانجة» ابن أردن سنة ٣١٤ هـ. الموافق سنة ٩٢٥ م. وفي زحف المنصور على هذه المدينة كان مما استعد به المنصور أن استأجر مرتزقة من الأسبان ولعله أول من عمل هذا بالأندلس. ولكن شتان ما بين عمل المنصور هذا واستخدامه غيره لهم فان المنصور كان يستخدمهم في حروبه لمقاومة نصارى الشمال فكانوا سهاما مصوبة الى مقاتل بني جلدتهم — أما بنو هود وغيرهم من بعده فقد كانوا يستأجرون هؤلاء المرتزقة لا ليضرب بهم أهل ملتهم بل ليخضد بها من شوكة بني جنسه من العرب المسلمين فقد كان بنو هود بسرقسطة يستأجرون البطل دريك الذي عرف عند العرب باسم السيد قنبطور وكان مشهورا بالشجاعة وقوة البأس ليقاوم برجاله مسلمي العرب الذين كان بينهم و بين ابن هود حروب

الْحَوَارِيُّ أَحَدِ الِاثْنَيْ عَشَرَ، وَكَانَ أَخَصَّهُمْ بِعِيسَى - عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَهُمْ يُسَمُّونَهُ أَخَاهُ لِلُزُومِهِ إِيَّاهُ، وَيَلْقُبُ بِلِسَانِهِمْ يَعْقُوبُ، وَكَانَ أُسْقُفًا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَجَعَلَ يَسْتَقْرِي الْأَرَضِينَ دَاعِيًا لِمَنْ فِيهَا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْقَاصِيَةِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ فَمَاتَ بِهَا، وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً، فَاحْتَمَلَ أَصْحَابُهُ رِمَّتَهُ، فَدَفَنُوهَا بِهَذِهِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي كَانَتْ أَقْصَى أَثَرِهِ. وَلَمْ يَطْمَعْ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ فِي قَصْدِهَا وَلَا الْوُصُولِ إِلَيْهَا، لِصُعُوبَةِ مَدْخَلِهَا، وَخُشُونَةِ مَكَانِهَا، وَبُعْدِ شُقَّتِهَا[1] فَخَرَجَ الْمَنْصُورُ إِلَيْهَا مِنْ قُرْطُبَةَ، غَازِيًا بِالصَّائِفَةِ[2] يَوْمَ السَّبْتِ لِسِتٍّ بَقِينَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ، وَهِيَ غَزْوَتُهُ الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ، وَدَخَلَ عَلَى مَدِينَةِ قُورِيَةَ[3] فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ

عند انقسام أمر الأندلس وتغلب ملوك الطوائف، وبهذا مهدوا للاسبانيين عقد الاستيلاء على دول العرب بجزيرة الأندلس واحدة بعد أخرى حتى كان ما كان والأمر لله، « أحمد يوسف نجاتي » (١) الشقة: المسافة البعيدة والسفر البعيد والناحية التي يقصدها المسافر يلحقه في الوصول إليها مشقة (٢) الصائفة: الغزوة في الصيف (٣) قورية (Coria) مدينة من نواحي

غَلِيسِيَةَ[1] وَافَاهُ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنَ ٱلْقَوَامِسِ ٱلْمُتَمَسِّكِينَ بِالطَّاعَةِ فِي رِجَالِهِمْ ، وَعَلَى أَتَمِّ ٱحْتِفَالِهِمْ ، فَصَارُوا فِي عَسْكَرِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَكِبُوا فِي ٱلْمُغَاوَرَةِ[2] سَبِيلَهُمْ ، وَكَانَ ٱلْمَنْصُورُ تَقَدَّمَ فِي إِنْشَاءِ أُسْطُولٍ كَبِيرٍ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمَعْرُوفِ بِقَصْرِ أَبِي دَانِسَ[3] مِنْ سَاحِلِ غَرْبِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَجَهَّزَهُ بِرِجَالِهِ[4] ٱلْبَحْرِيِّينَ وَصُنُوفِ ٱلْمُتَرَجِّلِينَ ، وَحَمَلَ ٱلْأَقْوَاتَ وَٱلْأَطْعِمَةَ وَٱلْعُدَدَ وَٱلْأَسْلِحَةَ ٱسْتِظْهَارًا عَلَى نُفُوذِ ٱلْعَزِيمَةِ

طلوة وهي النصف بينها و بين سمورة مدينة الافرنج ، وهي على نهير من روافد نهر تاجه صاعد شمالا ، وكان الأمير عبد الرحمن الداخل غزاها سنة ٢٥٨ هـ (١) يريد جليقية Calicie في الشمال الغربي - وقد غزا العرب هذه الجهات كثيرا وفي سنة ٢٥٩ أغار الناصر على أرض جليقية وكانت بينهما معركة حامية على مرنهر سهجون Sabagun المتجه الى نهر دوره وكانت خسارة الفريقين عظيمة (٢) كذا بالأصل ولعلها للتغاور وهي الاغارة ، وغاوروا ، وتغاوروا أغار بعضهم على بعض - ويقال فوز الرجل والجيش وتفوز اذا خرج من أرض الى أرض كهاجر (٣) في الأصل (وانس) وهي محرفة عن «دانس» وفي قصر أبي دانس استشهد أبو بكر محمد بن عبد النور بن أحمد بن محمد بن عمر بن عبد الخير بن عبد النور بن عبد الكريم السبئي الاشبيلي الفقيه المحدث ذو الفضل والزهد والصلاح قتل شهيدا في واقعة قصر أبي دانس سنة ٦١٤ (٤) رجالة ، رجال ، رجال : جمع رجل : ورجل ، رجيل ، ورجلان الماشي غير الراكب ومنه قوله تعالى : « فرجالا أو ركبانا » ، والمترجل الذي ينزل عن دابته ويركب رجليه ويمشي راجلا

إلى أَنْ خَرَجَ بِمَوْضِعِ بُرْتُقَالَ عَلَى نَهْرِ دُوَيْرُه(١) فَدَخَلَ فِي النَّهْرِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي عَمِلَ الْمَنْصُورُ عَلَى الْعُبُورِ مِنْهُ فَعَقَدَ هُنَالِكَ مِنْ هٰذِهِ(٢) الْأُسْطُولِ جِسْرًا بِقُرْبِ الْحِصْنِ الَّذِي هُنَالِكَ، وَوَجَّهَ الْمَنْصُورُ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْمِيرَةِ(٣) إِلَى الْجُنْدِ فَتَوَسَّعُوا فِي التَّزَوُّدِ مِنْهُ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، ثُمَّ نَهَضَ مِنْهُ يُرِيدُ شَنْتَ يَاقُبَ فَقَطَعَ أَرَضِينَ مُتَبَاعِدَةَ الْأَقْطَارِ، وَقَطَعَ بِالْعُبُورِ عِدَّةَ أَنْهَارٍ كِبَارٍ وَخُلْجَانٍ يَمُدُّهَا الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ، ثُمَّ أَفْضَى الْعَسْكَرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى بَسَائِطَ(٤) جَلِيلَةٍ مِنْ بِلَادِ فِرْطَارِسَ(٥) وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى جَبَلٍ شَامِخٍ

(١) مدينة « برتقال » ثغر معروف عند مصب نهر دويره في المحيط. نهر دويره (Duéro) نهر عظيم يخترق بلاد البرتغال وأسبانيا وله روافد كثيرة يتجه بعضها شمالا وينزل بعضها جنوبا وعليه مدن عدة منها سمورة و « سلمنقة » على أحد روافده المتجهة الى الجنوب، وليون الى أقصى الشمال على نهير يتفرع من أحدها والفدويرة وغيرها (٢) كذا بالأصل ولعله أراد به معنى السفن فأنث اسم الاشارة (٣) الميرة: الطعام للدخر والزاد (٤) البسيطة، البسائط: الأرض المستوية المنبسطة الواسعة (٥) كذا بالأصل وفي بعض المراجع (فرطارش) وأظنه يعني بلاد الجلالقة والأقسام التي تتاخمها لأرجاعنها « استوريا » والبراري القوطية المسماة قمبوس Campos وجليقية تقع جنوب سلمنقة تجد شواطئ "نهر (ترماس Tormes) ولكنها بعيدة عما يقصد.

شَدِيدِ ٱلْوَعَرِ(١) لَا مَسْلَكَ فِيهِ وَلَا طَرِيقَ، وَلَمْ يَهْتَدِ ٱلْأَدِلَّاءُ إِلَى سِوَاهُ، فَقَدَّمَ ٱلْمَنْصُورُ ٱلْفَعَلَةَ بِالْحَدِيدِ لِتَوْسِعَةِ شِعَابِهِ وَتَسْهِيلِ مَسَالِكِهِ، فَقَطَعَهُ ٱلْعَسْكَرُ وَعَبَرُوا بَعْدَهُ وَادِيَ مِنْيَهْ وَٱنْبَسَطَ ٱلْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي بَسَائِطَ عَرِيضَةٍ، وَأَرَضِينَ أَرِيضَةٍ، وَٱنْتَهَتْ مُغِيرَتُهُمْ(٢) إِلَى دَيْرِ قَشَانَ(٣) وَبَسِيطِ بَلَنْبُو عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ، وَفَتَحُوا حِصْنَ شَنْتَ بَلَايَهْ وَغَنِمُوهُ وَعَبَرُوا سِبَاحَةً(٤) إِلَى جَزِيرَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ لَجَأَ إِلَيْهَا خَلْقٌ عَظِيمٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلنَّوَاحِي فَسَبَوْا مَنْ فِيهَا مِمَّنْ لَجَأَ إِلَيْهَا، وَٱنْتَهَى ٱلْعَسْكَرُ إِلَى جَبَلِ مُرَاسِيهِ ٱلْمُتَّصِلِ مِنْ أَكْثَرِ جِهَاتِهِ بِالْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَتَخَلَّلُوا أَقْطَارَهُ وَٱسْتَخْرَجُوا مَنْ كَانَ فِيهِ وَحَازُوا غَنَائِمَهُ، ثُمَّ أَجَازَ ٱلْمُسْلِمُونَ بَعْدَ هَذَا خَلِيجًا فِي مَعْبَرَيْنِ أَرْشَدَ ٱلْأَدِلَّاءُ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ نَهْرَ أَيْلَةَ، ثُمَّ أَفْضَوْا إِلَى بَسَائِطَ وَاسِعَةِ ٱلْعِمَارَةِ كَثِيرَةِ ٱلْفَائِدَةِ، ثُمَّ ٱنْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَاقُبَ صَاحِبِ ٱلْقَبْرِ تِلْوَ مَشْهَدِ قَبْرِهِ

(١) وعر المكان: «من باب كرم، وعد، ولع» وعورة، ووعارة، ووعرا ضد سهل (٢) جنودهم وخيلهم المغيرة ولفظ (أريضة) ساقط من الأصل (٣) في بعض المراجع (قشطان) (٤) في الأصل (بساحته) وهو تحريف

عِنْدَ ٱلنَّصَارَى فِى ٱلْفَضْلِ يَقْصِدُ نُسَّاكُهُمْ لَهُ مِنْ أَقَاصِى بِلَادِهِمْ وَمِنْ بِلَادِ ٱلْقِبْطِ وَٱلنُّوبَةِ وَغَيْرِهِمَا فَغَادَرَهُ ٱلْمُسْلِمُونَ قَاعًا ، وَكَانَ ٱلنُّزُولُ بَعْدَهُ عَلَى مَدِينَةِ شَنْتَ يَاقُبَ ٱلْبَائِسَةِ وَذَلِكَ يَوْمَ ٱلْأَرْبِعَاءِ لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ ثَلَثِمِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَثَمَانِينَ ، فَوَجَدَهَا ٱلْمُسْلِمُونَ خَالِيَةً مِنْ أَهْلِهَا، فَحَازَ ٱلْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَهَا ، وَهَدَمُوا مَصَانِعَهَا وَأَسْوَارَهَا وَكَنِيسَتَهَا وَعَفَّوْا(١) آثَارَهَا ، وَوَكَّلَ ٱلْمَنْصُورُ بِقَبْرِ يَاقُبَ مَنْ يَحْفَظُهُ وَيَدْفَعُ ٱلْأَذَى عَنْهُ ، وَكَانَتْ مَصَانِعُهَا بَدِيعَةً مُحْكَمَةً ، فَغُودِرَتْ هَشِيمًا (٢) كَأَنْ لَمْ تَغْنَ (٣) بِالْأَمْسِ ،

(١) عفوا : محوا وأزالوا .

(٢) المصانع : الحصون واحده مصنعة ، والمبانى من القصور وغيرها قال : البعيث :

بنى زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم ترفع من الطين

وقال لبيد :

بلينا وماتبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

وهشم الشيء : كسره فهو هشيم . والهشيم نبت يابس متكسر ، ومنه قوله تعالى : « فأصبح هشيما تذروه الرياح » (٣) غنى بالمكان : أقام به وغنى القوم فى دارهم : اذا طال مقامهم فيها مستغنين عن غيرها ، ومنه قوله تعالى : « كأن لم يغنوا فيها » أى يقيموا فيها — وغنى يغنى : بقى

وَأنْتَسفَتْ بُيُوتُهُ[1] بَعْدَ ذَلِكَ سَائِرَ الْبَسَائِطِ، وَانْتَهَتِ الْجُيُوشُ إِلَى مَدِينَةِ شَنْتَ مَانْكُشْ مُنْقَطَعِ هٰذَا الصُّقْعِ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ، وَهِيَ غَايَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا قَبْلَهُمْ مُسْلِمٌ، وَلَا وَطِئَهَا لِغَيْرِ أَهْلِهَا قَدَمٌ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَهَا لِلْخَيْلِ مَجَالٌ، وَلَا وَرَاءَهَا انْتِقَالٌ، وَانْكَفَأَ الْمَنْصُورُ عَنْ بَابِ شَنْتَ يَاقُبَ وَقَدْ بَلَغَ غَايَةً لَمْ يَبْلُغْهَا مُسْلِمٌ قَبْلَهُ، فَجَعَلَ عَلَى طَرِيقِهِ الْقَصْدَ إِلَى عَمَلِ بُرْمُنْدَ بْنِ أُرْدُونَ يَسْتَقْرِيهِ عَائِثًا وَمُفْسِدًا حَتَّى وَقَعَ فِي عَمَلِ الْقَوَامِسِ الْمُعَاهِدِينَ الَّذِينَ فِي عَسْكَرِهِ فَأَمَرَ بِالْكَفِّ عَنْهَا، وَمَرَّ مُجْتَازًا حَتَّى خَرَجَ عَلَى حِصْنِ بَلِيقِيَةَ مِنَ افْتِتَاحِهِ فَأَجَازَ هُنَالِكَ الْقَوَامِسَ بِجُمْلَتِهِمْ عَلَى أَقْدَارِهِمْ وَكَسَاهُمْ وَكَسَا رِجَالَهُمْ وَصَرَفَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَكَتَبَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَلِيقِيَةَ

وعاش . قال الشاعر :

غنيت دارنا تهامة فى الدهـ ــر وفيها بنو معـد حلولا

ويقال الشيء اذا فنى : كأن لم يغن بالأمس ، أى كأن لم يكن (١) نسف البناء وانتسفه : اذا قلعه من أصله ، ونسف الجبال دكها وذراها ، ونسفت الريح الشيء وانتسفته : سلبته وأزالته . وكلمة (بيوته) . ساقطة من الأصل

وَكَانَ مَبْلَغُ مَا كَسَاهُ فِي غَزَاتِهِ هٰذِهِ لِمُلُوكِ الرُّومِ وَلِمَنْ حَسُنَ غَنَاؤُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَخَمْسًا وَثَمَانِينَ شُقَّةً مِنْ صُنُوفِ الْخَزِّ الطِّرَازِيِّ(١) وَوَاحِدًا وَعِشْرِينَ كِسَاءً مِنْ صُوفِ الْبَحْرِ وَكِسَاءَيْنِ عَنْبَرِيَّيْنِ وَأَحَدَ عَشَرَ سِقْلَاطُونًا(٢) وَخَمْسَ عَشْرَةَ مُرَيَّشًا(٣) وَسَبْعَةَ أَنْمَاطٍ(٤) دِيبَاجٍ وَثَوْبَيْ دِيبَاجٍ رُومِيٍّ وَفَرْوَيْ فَنَكٍ(٥)، وَوَافَى جَمِيعُ الْعَسْكَرِ قُرْطُبَةَ غَانِمًا، وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ وَالْمِنَّةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَجِدْ بِشَنْتَ يَاقُبَ إِلَّا شَيْخًا مِنَ الرُّهْبَانِ جَالِسًا عَلَى الْقَبْرِ، فَسَأَلَهُ عَنْ مُقَامِهِ فَقَالَ: أُونِسُ يَعْقُوبَ، فَأَمَرَ بِالْكَفِّ عَنْهُ(٦). قَالَ

(١) الطراز: الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة، وثوب ينسج للسلطان، ويقال ثوب طرازى، والطرازى الرقام والذى يعمل الطراز (٢) تقدم شرحه (٣) المريش: البرد الوشى بخطوط جميلة على أشكال الريش، كقولهم برد مسهم اذا كان فيه خطوط كالسهام (٤) جمع نمط: وهو ظهارة الفراش «ملاءة» وضرب من البسط، ونوع من الثياب المصبغة له خمل رقيق، ولا يكادون يقولون نمط الا لما كان ذالون من حمرة أو صفرة أو خضرة (٥) سبق شرحه. (٦) بدا لنا هنا أن نعرض على القارىء صورة موجزة لحال مسلمى الأندلس مع الفرنجة سكان البلاد الأصليين فى مدة المنصور بن أبى عامر ومن قبله ومن بعده فنقول: لما افتتح المسلمون الأندلس أبقلت أمم

وَحَدَّثَ شُعْلَةُ قَالَ قُلْتُ لِلْمَنْصُورِ لَيْلَةً أَطَالَ سَهَرَهُ فِيهَا :

النصرانية أمامهم وانحازوا الى سيف البحر من جانب الجوف وتجاوزوا الدروب من وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية وملكوا عليهم « بلايه » كما تقدم وتوفى سنة ١٣٣ ، ثم اتصل ملكهم فى أعقاب « أذفونش » من الجلالقة بعد أن انتهوا الى جليقية وأمكنهم استرداد بعض مدنهم التى كانت العرب قد افتتحتها كلها ، وذلك حين اشتغال عبد الرحمن الداخل بتمهيد أمره وتوطيد ملكه ، الى أن ولى منهم « ردمير بن أردون » آخر ملوكهم المستبدين بأمرهم سنة ٣١٩ فى زمن الخليفة الناصر فأتيح للناصر التغلب عليه ، حتى كانت وقعة الخندق وابتلى الله المؤمنين ليمحص ما فى قلوبهم . ثم مات ردمير سنة ٣٣٩ فدب دبيب الشقاق فى ملك الجلالقة الى أن قام بأمرهم « ردمير بن شانجة » فقوى سلطانه بعد وفاة أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله وعظمت نكايته فى المسلمين حتى قيض الله لهم الغازى العظيم والفاتح الشهير المنصور بن أبى عامر فأثخن فى أرض ردمير وأغار على أعمالهم وغزاهم مرارا وحاصرهم فى عقر داره وافتتح « سانت مانكش » وخربها فتطوعت الجلالقة بردمير فعاد الى طاعة المنصور سنة ٣٧٤ وتوفى على أثر ذلك ، واتفقت الجلالقة على « برمند بن أردون » فعقد له المنصور على سمورة وليون وما اتصل بهما من أعمال غليسية الى البحر المحيط ، ثم انتقض على المنصور فغزاه سنة ٣٧٨ واسترد ليون وسمورة وغيرها ولم يبق بيد الجلالقة الا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بينهم وبين البحر ولم يزل المنصور به حتى فرض عليه الجزية فأعطاها عن يد صاغرا ، ونزل المسلمون بمدينة سمورة سنة ٣٨٩ وولى المنصور عليها « أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى » وصار الجلالقة كلهم فى طاعة المنصور كأنهم عمال له ، ثم انتقض « برمند بن أردون » فغزاه المنصور ودوخ بلاده حتى بلغ « شنت ياقب » فهدمها ونقل أبوابها الى مدينة قرطبة فجعلها فى سقف الزيادة التى أضافها الى المسجد الأعظم . ثم جاءت بعد

قَدْ أَفْرَطَ مَوْلَانَا فِي ٱلسَّهَرِ وَبَدَنُهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْمِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُحَرِّكُهُ عَدَمُ ٱلنَّوْمِ مِنْ عِلَّةِ ٱلْعَصَبِ ، فَقَالَ : يَاشُعْلَةُ ٱلْمَلِكُ لَا يَنَامُ إِذَا نَامَتِ ٱلرَّعِيَّةُ وَلَوِ ٱسْتَوْفَيْتُ نَوْمِي لَمَا كَانَ فِي دُورِ هٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْعَظِيمِ عَيْنٌ نَائِمَةٌ . ٱنْتَهَى مَانَقَلْتُهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْمَذْكُورِ

وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَذْكُرَ هُنَا أَخْبَارًا نَقَلْتُهَا مِنْ كِتَابِ ٱلْأَزْهَارِ ٱلْمَنْثُورَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ ٱلْمَأْثُورَةِ :

⁂

المنصور وواتر مار البرزالي

« قَالَ فِي ٱلزَّهْرَةِ ٱلتَّاسِعَةِ وَٱلْعِشْرِينَ » تَقَدَّمَ إِلَى ٱلْمَنْصُورِ وَاتِرَ مَارُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ٱلْبَرْزَالِي[1] أَحَدُ جُنُودِ ٱلْمَغَارِبَةِ وَقَدْ جَلَسَ لِلْعَرْضِ وَٱلتَّمْيِيزِ وَٱلْمَيْدَانُ غَاصٌّ بِالنَّاسِ

ه الفتنة البربرية فضعف أمر المسلمين وتغلب أعداؤهم على ما كان المنصور قد تغلب عليه من قبل بقشتالة وجليقية ، ثم أخذوا ينقصون البلاد من أطرافها، لا بل نسلوا من حدب الجزيرة من أواسطها فاستولوا على البلاد والمدن شيئا فشيئا . وزحف ملك أرغون فاستولى على كثير من المدن ومنها الزهراء والزاهرة وسائر القواعد والثغور الشرقية وأنحاز المسلمون إلى سيف البحر وملكوا عليهم ابن الأحمر بعد ولاية ابن هود، ثم تداركهم قضاء ربك وهو عادل حكمه بينهم بالحق وهو خير الحاكمين . «أحمد يوسف نجاتي»

(١) في الأصل (البربرى والى) وهو تصحيف ، والتصحيح من النطقة الأوربية

فَقَالَ لَهُ بِكَلَامٍ يُضْحِكُ ٱلثَّكْلَى : يَامَوْلَايَ مَالِي وَلَكَ أَشْكُو فَإِنِّي فِي ٱلْقَفَصِ ، فَقَالَ وَمَا ذَاكَ يَاوَارْزَمَارُ ، وَأَيْنَ دَارُكَ ٱلْوَاسِعَةُ ٱلْأَقْطَارِ ؟ فَقَالَ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا وَٱللهِ نِعْمَتُكَ ، أَعْطَيْتَنِي مِنَ ٱلضِّيَاعِ مَا أَنْصَبُّ عَلَيَّ مِنْهَا مِنَ ٱلْأَطْعِمَةِ مَا مَلَأَ بُيُوتِي وَأَخْرَجَنِي عَنْهَا ، وَأَنَا بَرْبَرِيٌّ مُجَوَّعٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْبُؤْسِ ، أَتُرَانِي أُبْعِدُ ٱلْقَمْحَ عَنِّي ؟ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِي ، فَتَطَلَّقَ⁽¹⁾ ٱلْمَنْصُورُ وَقَالَ لِلهِ دَرُّكَ مِنْ فَذٍّ عَيِيٍّ ، لَيْتَكَ فِي شُكْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَبْلَغُ عِنْدَنَا وَآخَذُ بِقُلُوبِنَا مِنْ كَلَامِ كُلِّ أَشْدَقَ⁽²⁾ مُتَزَيِّدٍ وَبَلِيغٍ مُتَفَنِّنٍ⁽³⁾ وَأَقْبَلَ عَلَى

---

(١) انبسط وجهه مشرقا بشرا وسرورا (٢) أصل الشدق سعة الشدقين ويكنى به عن البلاغة وقوة اللسن فيقال : خطيب أشدق ، أى بليغ مجيد ، ورجل أشدق أى متفوه ذو بيان ، ولقب بالأشدق سعيد بن خالد ابن سعيد بن العاص لفصاحته ، وولده عمرو بن سعيد الأشدق أحد خطباء العرب المصاقع . وفى الحديث : « كان يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه » ، أى بجوانب الفم وانما يكون ذلك لرحب شدقيه ، والعرب تتمدح بذلك ، وفى حديث جابر رضى الله عنه أنه حدثه رجل بشىء ، فقال من سمعت هذا ؟ فقال من ابن عباس ، قال من الشدقم ، أى الواسع الشدق ، ويوصف به البليغ المنطيق المفوه ، ويقال : تشدق اذا لوى شدقه للتفصح ، ويقال هو متشدق فى منطقه ومتفيهق اذا كان يتوسع فيه ويتزيد ، والتشدق أيضا التوسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز ، وقد نهى عن ذلك (٣) افتن الرجل وتفنن اذا أخذ فى فنون من القول ،

مَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فَقَالَ يَا أَصْحَابَنَا هٰكَذَا فَلْتُشْكَرِ ٱلْأَيَادِي وَتُسْتَدَامُ ٱلنِّعَمُ، لَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْجَحْدِ ٱللَّازِمِ وَٱلتَّشَكِّي ٱلْمُبَرِّحِ[1]، وَأَمَرَ لَهُ بِأَفْضَلِ ٱلْمَنَازِلِ ٱلْعَالِيَةِ.

***

المنصور والبرابرة الثلاثة

« وَفِي ٱلْمُوفِيَةِ ثَلَاثِينَ » مَا نَصُّهُ: أَصْبَحَ ٱلْمَنْصُورُ صَبِيحَةَ أَحَدٍ وَكَانَ يَوْمَ رَاحَةٍ لِلْخَدَمَةِ ٱلَّذِينَ أُعْفُوا فِيهِ مِنْ قَصْدِ ٱلْخِدْمَةِ فِي مَطَرٍ وَابِلٍ غِبَّ[2] أَيَّامٍ مِثْلِهِ، فَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ لَا عَهْدَ بِمِثْلِهِ وَلَا حِيلَةَ لِلْمُوَاظِبِينَ لِقَصْدِنَا فِي مُكَابَدَتِهِ فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ شَذَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنِ ٱلتَّقْرِيرِ[3] فَأَغْرَبَ

وافتن فى حديثه وفى خطبته اذا جاء بالأفانين « وأفانين الكلام أساليبه وطرقه » وافتن فى خصومته اذا توسع وتصرف ، وفنن وتفنن اذا اشتق فى فن بعد فن ، ويقال : رجل مفن يأتى فى حديثه بالعجائب ، ورجل معن مفن ، ذو عنن واعتراض واجادة لكل ما يعن له ، وذو فنون من الكلام يذهب فيه كل مذهب (١) الشديد من البرح وهو الشدة والأذى والمشقة والعذاب الشديد (٢) عقب ، بعد ، اثر ، ومنه : غب الصباح يحمد القوم السرى (٣) لعله من قر بالمكان يقر قرارا اذا ثبت وسكن ، وأقره فيه وقرره ، وفى بعض المراجع « التقدير » وهو أظهر ، وأغرب الفرس فى جريه والرجل فى ضحكه اذا بالغا . والغرب : النشاط والتمادى فى الأمر

فِي ٱلْبُكُورِ ؟ أُخْرُجْ وَتَأَمَّلْ ـ يَقُولُهُ لِحَاجِبِهِ ـ فَخَرَجَ وَعَادَ إِلَيْهِ ضَاحِكاً وَقَالَ يَامَوْلَاىَ عَلَى ٱلْبَابِ ثَلَاثَةٌ مِنَ ٱلْبَرَابِرَةِ: أَبُو ٱلنَّامِسِ بْنُ صَالِحٍ وَٱثْنَانِ مَعَهُ، وَهُمْ بِحَالٍ مِنَ ٱلْبَلَلِ إِنَّمَا تُوصَفُ بِالْمُشَاهَدَةِ، فَقَالَ أَوْصِلْهُمْ إِلَيَّ وَعَجِّلْ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فِي حَالِ ٱلْمَلَّاحِ بَلَلًا وَنَدَاوَةً، فَضَحِكَ إِلَيْهِمْ وَأَدْنَى مَجْلِسَهُمْ، وَقَالَ خَبِّرُونِي كَيْفَ جِئْتُمْ وَعَلَى أَيِّ حَالٍ وَصَلْتُمْ، وَقَدِ ٱسْتَكَانَ(١) كُلُّ ذِي رُوحٍ فِي كِنِّهِ، وَلَاذَ كُلُّ طَائِرٍ بِوَكْرِهِ(٢) ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلنَّاسِ بِكَلَامِهِ: يَامَوْلَاىَ لَيْسَ كُلُّ ٱلتُّجَّارِ قَعَدَ عَنْ سُوقِهِ، وَإِذَا عُذِرَ ٱلتُّجَّارُ عَلَى طَلَبِ ٱلرِّبْحِ بِالْفُلُوسِ فَنَحْنُ أَعْذَرُ بِإِدْرَاكِهَا بِالْبِدَرِ وَمِنْ غَيْرِ رُءُوسِ ٱلْأَمْوَالِ(٣) وَهُمْ يَتَنَاوَبُونَ ٱلْأَسْوَاقَ عَلَى

(١) ربما كان محرفا عن (استكن) أى استتر، والكن: البيت يرد البرد والحر، ومنه قوله تعالى «وجعل لكم من الجبال أكنانا» والكن: وقاء كل شىء وستره. أما استكان الرجل فمعناه خضع وذل، وهو اما على وزن افتعل من السكون أشبعت حركة عينه فجاءت ألفا، وأما استفعل من السكون أو من كان يكين اذا خضع وذل (٢) لاذ بالشىء يلوذ اذا استتر به وتحصن، ولاذ به: لجأ إليه وعاذ به. والوكر: عش الطائر وموضعه الذى يبيض فيه ويفرخ، ووكر الطائر (كوعد): أتى الوكر أو دخله (٣) الفلوس جمع فلس وهو فى الأصل اسم

أَقْدَامِهِمْ وَيُذِيلُونَ فِي قَصْدِهَا ثِيَابَهُمْ ، وَنَحْنُ نَأْتِيكَ عَلَى خَيْلِكَ ، وَنُذِيلُ⁽¹⁾ عَلَى صَهَوَاتِهَا مَلَابِسَكَ ، وَنَجْعَلُ الْفَضْلَ فِي قَصْدِكَ مَضْمُونًا إِذْ جَعَلَهُ أُولَئِكَ طَمَعًا وَرَجَاءً ، فَتَرَى لَنَا أَنْ نَجْلِسَ عَنْ سُوقِنَا هٰذَا ؟ فَضَحِكَ الْمَنْصُورُ وَدَعَا بِالْكُسَا وَالصِّلَاتِ فَدُفِعَتْ لَهُمْ ، وَانْصَرَفُوا مَسْرُورِينَ بِنُقُودِهِمْ .

***

المنصور والفق الأدب — « وَفِي الزَّهْرَةِ الرَّابِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ » مَا نَصُّهُ : كَانَ

لأقل ما يتعامل به قيمة » ومن ذلك قولهم أفلس الرجل اذا لم يبق له مال كأنما صارت دراهمه فلوسا وزيوفا بعد أن كان ذا دنانير ودراهم » والبدرة كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار

(١) تناوب المكان : تردد عليه مرة بعد مرة » وتناوبوا الأمر اذا قاموا به نوبة بعد نوبة . أذال الشيء : أهانه « ضد صانه » ولم يحسن القيام عليه ، ومنه اذالة الخيل أي امتهانها والحمل عليها ، وأذالت المرأة قناعها اذا أرسلته وأرخته . وصهوة الفرس مقعد الفارس أو موضع اليد منه . وصهوة الجبل أعلاه . ومعنى قول أبي الناس البربري مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة بن حمدان :

أسير الى أقطاعه في ثيابه … على طرفه من داره بحسامه

وقد سبقه النابغة بقوله

وان تلادى ان نظرت وشكتي … ومهرى وما ضمت الى الأنامل

حباؤك والعيس العتاق كأنها … هجان المها تردى عليها الرحائل

بِقُرْطُبَةَ عَلَى عَهْدِ ٱلْحَاجِبِ ٱلْمَنْصُورِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ فَتًى مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ ، قَدْ رَقَّتْ حَالُهُ[1] فِي ٱلطَّلَبِ ، فَتَعَلَّقَ بِكُتَّابِ ٱلْعَمَلِ ، وَٱخْتَلَفَ إِلَى ٱلْخِزَانَةِ مُدَّةً حَتَّى قُلِّدَ بَعْضَ ٱلْأَعْمَالِ ، فَٱسْتَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْمَالِ ، فَلَمَّا ضُمَّ إِلَى ٱلْحِسَابِ أَبْرَزَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ[2] فَرُفِعَ خَبَرُهُ إِلَى ٱلْمَنْصُورِ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَزِمَ ٱلْإِقْرَارَ بِمَا بَرَزَ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ : يَا فَاسِقُ مَا ٱلَّذِي جَرَّأَكَ عَلَى مَالِ ٱلسُّلْطَانِ تَنْتَهِبُهُ ؟ فَقَالَ : قَضَاءٌ غَلَبَ ٱلرَّأْيَ وَفَقْرٌ أَفْسَدَ ٱلْأَمَانَةَ ، فَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ وَٱللهِ لَأَجْعَلَنَّكَ نَكَالًا[3] لِغَيْرِكَ ، لِيُحْضَرْ كَبْلٌ[4] وَحَدَّادٌ

(١) يقال فلان رقيق الحال ورقيق الدين اذا لم يكن له حظ من دنيا أو دين . وفى ماله رقق أى قلة (٢) أى ظهر أنه اختلس من الخزانة هذا المبلغ ، وكل ما ظهر بعد خفاء فقد برز (٣) النكال العبرة والعقوبة التى تجعل المرء وغيره ينكل عن الامر أى ينكص عنه ويرجع ويجبن ، ونكل به اذا عاقبه فى جرم أجرمه عقوبة تنكل غيره ، وصنع به صنيعا يحذر سواه عن ارتكاب مثله اذا رآه . وقوله تعالى « فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها » معناه والله أعلم جعلنا هذه الفعلة عبرة تنكل أن يفعل مثلها فاعل فيناله مثل الذى نال اليهود المعتدين فى السبت . (٤) الكبل « وقد تكسر الكاف» القيد، وكبله « كضرب » وكبله : حبسه فى سجن أو غيره

فَأَحْضِرَ الفَتَى مُكَبَّلَ ٱلْفَتَى، وَقَالَ ٱحْمِلُوهُ إِلَى ٱلسِّجْنِ، وَأَمَرَ ٱلضَّابِطَ بِامْتِحَانِهِ وَالشِّدَّةِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَوَّاهِ أَوَّاهِ وَكَمْ ذَا أَرَى
أَكْثَرَ مِنْ تَكْرَارِ أَوَّاهِ؟
مَا لِامْرِئٍ حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ
ٱلْحَــــوْلُ وَٱلْقُوَّةُ لِلّٰهِ

فَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ رُدُّوهُ. فَلَمَّا رُدَّ قَالَ : أَتَمَثَّلْتَ أَمْ قُلْتَ؟ قَالَ لَا بَلْ قُلْتُ، فَقَالَ حُلُّوا عَنْهُ كَبْلَهُ، فَلَمَّا حُلَّ عَنْهُ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَمَا تَرَى عَفْوَ أَبِي عَامِرٍ
لَا بُدَّ أَنْ تَتْبَعَهُ مِنَّــهْ
كَذَلِكَ ٱللّٰهُ إِذَا مَا عَفَا
عَنْ عَبْــدِهِ أَدْخَلَهُ ٱلْجَنَّــهْ

فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ، وَسَوَّغَهُ ذَلِكَ ٱلْمَالَ وَأَبْرَأَهُ مِنَ ٱلتَّبِعَةِ فِيهِ.

***

« وَفِي ٱلْخَامِسَةِ وَٱلْأَرْبَعِينَ » عُرِضَ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ٱسْمُ أَحَدِ خَدَمِهِ فِي جُمْلَةِ مَنْ طَالَ سِجْنُهُ — وَكَانَ شَدِيدَ ٱلْحِقْدِ عَلَيْهِ — فَوَقَّعَ عَلَى ٱسْمِهِ بِأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى إِطْلَاقِهِ حَتَّى يَلْحَقَ بِأُمِّهِ ٱلْهَاوِيَةِ[1] ، وَعَرَفَ ٱلرَّجُلُ بِتَوْقِيعِهِ فَاهْتَمَّ وَٱغْتَمَّ وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي ٱلدُّعَاءِ وَٱلْمُنَاجَاةِ ، فَأَرِقَ ٱلْمَنْصُورُ إِثْرَ ذَلِكَ وَٱسْتَدْعَى ٱلنَّوْمَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَأْتِيهِ عِنْدَ تَنَوُّمِهِ آتٍ[2] كَرِيهُ ٱلشَّخْصِ عَنِيفُ ٱلْأَخْذِ المنصور والسجين

(١) أى الهالكة ، من هوى فلان اذا مات ، قال النابغة :

وقال الشامتون هوى زياد لكل منية سبب متين

وهوى يهوى هويا: سقط من علو الى سفل ، وأمه هاوية :دعاء، أى هلكت أمه ، وهوت أمه فهى هاوية أى ثاكلة، وقيل فى قوله تعالى « فأمه هاوية » ان مسكنه النار ، وقيل أم رأسه هاوية فيها أى ساقطة . وقد يستعمل « هوت أمه » على جهة التعجب والمدح كقولهم « قاتله الله ما أفصحه » ومنه قول سعد بن كعب فى مرثية أخيه :

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يؤدى الليل وحين يؤوب

يقول : أى شىء يبعث من أخى ، أى اذا أيقظه الصبح تصرف فى فعل ما يرجوه ، وغاديا ، منصوب على الحال ، و يؤوب يرجع، يريد أن اقبال الليل سبب رجوعه الى بيته كما أن اقبال النهار سبب لتصرفه (٢) طارق فى المنام — والأخذ هنا معناه القهر والغلبة والايقاع بالشخص والمؤاخذة

يَأْمُرُهُ بِإِطْلَاقِ الرَّجُلِ وَيَتَوَعَّدُهُ عَلَى حَبْسِهِ ، فَاسْتَدْفَعَ شَأْنَهُ مِرَارًا إِلَى أَنْ عَلِمَ أَنَّهُ نَذِيرٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَدَعَا بِالدَّوَاةِ فِي مَرْقَدِهِ فَكَتَبَ بِإِطْلَاقِهِ وَقَالَ فِي كِتَابِهِ : هٰذَا طَلِيقُ اللّٰهِ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ زَمَانًا بِمَا كَانَ مِنْهُ

***

هيبة المنصور مع جنده

« وَفِي السَّادِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ » مَا نَصُّهُ : انْتَهَتْ هَيْبَةُ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَضَبْطُهُ لِلْجُنْدِ وَاسْتِخْدَامُ ذُكُورِ[1] الرِّجَالِ وَقُوَّامِ الْمُلْكِ إِلَى غَايَةٍ لَمْ يَصِلْهَا مَلِكٌ قَبْلَهُ ، فَكَانَتْ مَوَاقِفُهُمْ فِي الْمَيْدَانِ عَلَى احْتِفَالِهِ[2] مَثَلًا فِي الْإِطْرَاقِ[3] حَتَّى إِنَّ الْخَيْلَ لَتَتَمَثَّلُ إِطْرَاقَ فُرْسَانِهَا فَلَا تُكْثِرُ الصَّهِيلَ

والعقوبة الشديدة » ومن الأخذ بمعنى العذاب والعقوبة قوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد »

(١) الذكر من الرجال : هو القوي الشجاع الشهم الماضي في الأمور والأبي الأنف » والذكر من المطر : الوابل الشديد ، ومن القول : الصلب المتين ، ومن الشعر : ما كان جزلا فحلا » (٢) امتلائه بالجند والناس وكثرة المجتمعين فيه (٣) أي مما يضرب به المثل – وأطرق الرجل اذا سكت ساكتا ، وأطرق بصره اذا أقبل به الى صدره وسكن ساكتا

وَٱلْحَمْحَمَةَ[1] ، وَلَقَدْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى بَارِقَةِ سَيْفٍ قَدْ سَلَّهُ بَعْضُ ٱلْجُنْدِ بِأَقْصَى ٱلْمَيْدَانِ لِهَزْلٍ أَوْ جِدٍّ بِحَيْثُ ظَنَّ أَنَّ لَحْظَ ٱلْمَنْصُورِ لَا يَنَالُهُ ، فَقَالَ عَلَيَّ بِشَاهِرِ ٱلسَّيْفِ ، فَمُثِّلَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِوَقْتِهِ ، فَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ شَهَرْتَ سَيْفَكَ فِي مَكَانٍ لَا يُشْهَرُ فِيهِ إِلَّا عَنْ إِذْنٍ ؟ فَقَالَ إِنِّي أَشَرْتُ بِهِ إِلَى صَاحِبِي مُغْمَدًا فَذَلِقَ[2] مِنْ غِمْدِهِ ، فَقَالَ إِنَّ مِثْلَ هَـٰذَا لَا يَسُوغُ بِالدَّعْوَى ، وَأَمَرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ بِسَيْفِهِ ، وَطِيفَ بِرَأْسِهِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ .

***

جلد المنصور وقوة احتماله

« وَفِي ٱلسَّابِعَةِ وَٱلْأَرْبَعِينَ » أَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ بِهِ دَاءٌ فِي رِجْلِهِ ، وَٱحْتَاجَ إِلَى ٱلْكَيِّ ، فَأَمَرَ ٱلَّذِي يَكْوِيهِ بِذَلِكَ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي مَوْضِعٍ مُشْرِفٍ عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، فَجَعَلَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَفْرِي ٱلْفَرِيَّ[3] فِي أُمُورِهِ وَرِجْلُهُ تُكْوَى

(١) صوت الخيل دون الصهيل ، وصوت الفرس عند طلب العلف ، أو اذا رأى صاحبه الذى كان ألفه فاستأنس اليه (٢) الذلق : القلق ، وربما كانت محرفة عن (ذلق) أو زلق بالزاى « كفرح ونصر » اذا زل وتباعد عن موضعه (٣) يقال هو يفرى الفرى أى يأتى بالعجيب عمله ، وقد يقال « الفرى » بفتح الفاء وسكون الراء وتخفيف الياء وفى حديث الرؤيا : « فلم أر عبقريا

وَالنَّاسُ لَا يَشْعُرُونَ حَتَّى شَمُّوا رَائِحَةَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ .

« وَأَخْبَارُهُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ » تَحْتَمِلُ مُجَلَّدَاتٍ فَلْنُمْسِكِ الْعِنَانَ ، عَلَى أَنَّا ذَكَرْنَا فِي الْبَابِ الرَّابِعِ وَالسَّادِسِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ جُمْلَةً مِنْ أَخْبَارِهِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ فَلْتُرَاجَعْ إِلَى آخِرِهِ .

* * *

المنصور والوزراء والمصحفي

« وَفِي الثَّامِنَةِ وَالْأَرْبَعِينَ » وَكَانَ مِمَّا أُعِينَ بِهِ الْمَنْصُورُ عَلَى الْمُصْحَفِيِّ مَيْلُ الْوُزَرَاءِ إِلَيْهِ ، وَإِيثَارُهُمْ عَلَيْهِ ، وَسَعْيُهُمْ فِي تَرَقِّيهِ ، وَأَخْذُهُمْ بِالْعَصَبِيَّةِ فِيهِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَمِيَّةً[1] أَعْرَابِيَّةً ، فَقَدْ كَانَتْ سَلَفِيَّةً سُلْطَانِيَّةً ، يَقْتَفِي الْقَوْمُ فِيهَا سَبِيلَ سَلَفِهِمْ ، وَيَحْفِلُونَ[2] بِهَا ابْتِذَالَ شَرَفِهِمْ ،

يفري فريه » ، أي يعمل عمله ويقطع قطعه ـ والعرب تقول : تركته يفري الفري : اذا عمل العمل فأجاده وأتقنه (١) أنفة وغيرة ، وحمى من الشيء وعنه « كرضى » حمية ومحمية : أنف منه وداخله عار وأنفة أن يفعله (٢) حفل بالشيء : اذا عني به وبالى بشأنه » وابتذال « هنا مفعول لأجله على حذف مضاف ، أي خوف أو خشية ابتذال شرفهم

غَادَرُوهَا سِيرَةً ، وَتَخَلَّقُوهَا عَادَةً أَثِيرَةً(١) ، تَشَاحَّ الْخَلَفُ فِيهَا تَشَاحَّ(٢) سَلَفِهِمْ أَهْلِ الدِّيَانَةِ ، وَصَانُوا بِهَا مَرَاتِبَهُمْ أَعْظَمَ صِيَانَةٍ ، وَرَأَوْا أَنَّ أَحَدًا لَا يَلْحَقُ فِيهَا غَايَةً ، وَلَا يَتَعَاقَدُ لَهَا رَايَةً(٣) ، فَلَمَّا أَصْطَفَى الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللَّهِ جَعْفَرَ ابْنَ عُثْمَانَ الْمُصْحَفِيَّ وَاصْطَنَعَهُ ، وَوَضَعَهُ مِنْ أَثَرَتِهِ حَيْثُ وَضَعَهُ ـ وَهُوَ نَزِيعٌ(٤) بَيْنَهُمْ وَنَابِغٌ فِيهِمْ ـ حَسَدُوهُ وَذَمُّوهُ ،

والاحتفال: حسن القيام بالأمور ، ورجل حفيل فى أمره وذو حفل : أى مبالغ فيما أخذ فيه من الأمور ، وأخذ للأمر حفلته اذا جد فيه ، وهو محافظ على حسبه محافل : أى يصونه أن يبتذل أو ينال . والتبذل : ترك التصون ، والابتذال ضد الصيانة ، وقد ابتذله : اذا أهانه . وفى بعض المراجع « سليقة » بدل سالفة و « يتصون » بدل يحفلون (١) قديمة منقولة متوارثة ، والأثرة : المكرمة لأنها تؤثر أى تذكر ويذكرها قرن عن قرن يتحدثون بها . والأثير : الذى يؤثر على غيره ويختار لفضله . وفلان أثيرى : أى من خلصائى وذو أثرة عندى فهو مكين مكرم معظم وفى بعض المراجع (وخلفوها) (٢) تشاحا على الأمر : اذا تنازعاه لا يريد كلاهما أن يفوته ، وتشاح القوم فى الأمر وعليه اذا شح به بعضهم على بعض وتبادروا اليه حذر فوته ، وضنا به أن يضيع منهم (٣) أى لا يتولى عليه ولا يعرف به ، وعقد الأمير الراية لفلان اذا ولاه جهة أو عملا ، والعقدة : الولاية على البلد وتعاقدوا : تعاهدوا (٤) النزيع والنازع : الغريب والبعيد ، وفى الحديث « طوبى للغرباء قيل من هم يارسول الله ؟ قال النزاع من القبائل » وهو الذى نزع عن أهله وعشيرته أى بعد وغاب ، أو سمى الغريب نزيعا لأنه ينزع الى وطنه أى يتجذب ويميل ـ والنزيع من أمه سبية

وَخَصُّوهُ بِالْمُطَالَبَةِ وَعَمُّوهُ ، وَكَانَ أَسْرَعَ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ أَعَالِي الْوُزَرَاءِ وَأَعَاظِمِ الدَّوْلَةِ عَلَى مُهَاوَدَةِ الْمَنْصُورِ عَلَيْهِ ، وَالِانْحِرَافِ عَنْهُ إِلَيْهِ ، آلُ أَبِي عُبَيْدَةَ[1] وَآلُ شُهَيْدٍ وَآلُ فُطَيْسٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَأَصْحَابِ السِّدَانَةِ[2] مِنْ أُولِي الشَّرَفِ وَالْأَمَانَةِ ، وَكَانُوا فِي الْوَقْتِ أَزِمَّةَ[3] الْمُلْكِ وَقُوَّامَ الْخِدْمَةِ ، وَمَصَابِيحَ الْأُمَّةِ ، وَأَغْيَرَ الْخَلْقِ عَلَى جَاهٍ وَحُرْمَةٍ ، فَأَحْظَوْا مُحَمَّدَ ابْنَ أَبِي عَامِرٍ مُشَايَعَةً[4] وَبِبَعْضِ أَسْبَابِهِ الْجَامِعَةِ مُتَابَعَةً ،

---

(١) كذا بالأصل وأرى أنها محرفة عن « عبدة » وآل أبي عبدة هم بنو جهور وأبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله ابن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة هو الوزير الذي صار إليه تدبير أمر قرطبة بعد خلع هشام بن محمد المعتمد بالله ، وكان موصوفا بالفضل مقدما في الدهاء ولطف الاحتيال والعقل توفي سنة ٤٣٥ ومولده سنة ٣٦٤ وقد سبق التعريف ببعض أفراد هذه الأسرات الثلاث ، ويأتي حديث عن بعضهم في أثناء الكتاب وفي تعليقنا عليه « أحمد عباني » (٢) سدن : عمل الحجابة فهو سادن . وقال ابن بري : الفرق بين السادن والحاجب أن الحاجب يحجب وإذنه لغيره والسادن يحجب وإذنه لنفسه وفي بعض المراجع (الردافة) بدل السدانة و (الأنافة) بدل الأمانة ، وهو أولى (٣) جمع زمام — ويقال : هو زمام قومه وهم أزمة قومهم » وألقى في يده زمام أمره ، ويصرف أزمة الأمور — و زمام الأمر : ملاكه وقوامه (٤) شايعه على الأمر : إذا تابعه ووافقه وشجعه ، وشايع فلانا : إذا تابعه على أمر أو رأي وقواه وطاوعه .

وَشَادُوا بِنَاءَهُ ، وَقَادُوا إِلَى عُنْصُرِهِ[١] سَنَاءَهُ ، حَتَّى بَلَغَ الْأَمَلُ ، وَاتَّحَفَ بِنَائِهِ وَاكْتَحَلَ[٢] . وَعِنْدَ الْتِئَامِ هَذِهِ الْأُمُورِ لِابْنِ أَبِي عَامِرٍ اسْتَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ عُثْمَانَ لِلْحَادِثَةِ وَأَيْقَنَ بِالنَّكْبَةِ ، وَزَوَالِ الْحَالِ وَانْتِقَالِ الرُّتْبَةِ ، وَكَفَّ عَنِ اعْتِرَاضِ مُحَمَّدٍ وَشَرِكَتِهِ فِي التَّدْبِيرِ ، وَانْقَبَضَ النَّاسُ مِنَ الرَّوَاحِ إِلَيْهِ وَالتَّبْكِيرِ[٣] وَانْثَالُوا عَلَى ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فَخَفَّ مَوْكِبُهُ[٤] ، وَغَارَ مِنْ سَمَاءِ الْعِزِّ كَوْكَبُهُ ، وَتَوَالَى عَلَيْهِ سَعْيُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَطَلَبُهُ إِلَى أَنْ صَارَ يَغْدُو إِلَى قُرْطُبَةَ وَيَرُوحُ وَلَيْسَ بِيَدِهِ مِنَ الْحِجَابَةِ إِلَّا مُجَرَّدُ اسْمِهَا ،

(١) العنصر : الأصل، والسناء : الشرف (٢) كناية عن شدة تمكنه منه واستيلائه على كل ما كان يطمح اليه . والتحف بالشيء : تغطى به ويقال : لحفني فضل لحافه ، أي أعطاني فضل عطائه ، قال جرير :

كم قد نزلت بكم ضيفا فتلحفني فضل اللحاف ونعم الفضل يلتحف

أي أنلتني معروفك وفضلك وزودتني . ولو قال « واشتمل » لكان أولى ، مع وضوح المعنى ومناسبته (٣) الرواح : يكون ليلا ضد البكور والتبكير يريد الاختلاف اليه والتردد عليه — وانثال : تتابع وانصب من كل جهة (٤) الموكب : اسم الجماعة من الناس ركبانا أومشاة أو ركاب الابل للزينة والتنزه وكذلك جماعة الفرسان ، وفي الحديث : أنه كان يسير في الافاضة سير الموكب ، أراد أنه لم يكن يسرع السير فيها «من وكب يكب وكوبا ، ووكبانا ، اذا مشى في تؤدة ودرجان

وَأَنَّ أَبِي عَامِرٍ مُشْتَمِلٌ عَلَى رَمْسِهَا، حَتَّى مَحَاهُ، وَهَتَكَ ظِلَّهُ (١) وَأَضْحَاهُ، قَالَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ رَأَيْتُهُ يُسَاقُ إِلَى مَجْلِسِ الْوِزَارَةِ لِلْمُحَاسَبَةِ رَاجِلًا، فَأَقْبَلَ يَدْرِمُ (٢) وَجَوَارِحُهُ (٣) بِاللَّوَاعِجِ تَضْطَرِمُ، وَوَاثِقٌ (٤) الضَّاغِطُ يَنْهَرُهُ، وَالزَّمَعُ يَقْهَرُهُ، وَالْبُهْرُ وَالنَّفَسُ قَدْ هَاضَاهُ (٥)، وَقَصَّرَا خُطَاهُ،

(١) يقال ضحا ظله، أي مات — وضحا ظله: معناه صار شمسا، واذا صار ظل الانسان شمسا فقد بطل صاحبه، وهتك الستر وغيره: جذبه فقطعه من موضعه أو خرقه عما وراءه موشقه (٢) من درم القنفذ والفأرة والأرنب ونحوها «كضرب» درما، اذا قارب الخطوق عجلة، ومنه سمى الرجل دارما وللدارمة: مشى في ثقل وعجلة (٣) لعل جوارحه هنا محرفة عن «جوانحه» فنسبة الاضطرام اليها أبلغ وأشهر وأكثر استعمالا، والجوانح أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر، وقيل الجوانح الضلوع القصار التى فى مقدم الصدر، واحده جانحة — واللاعج: اللوعة والحرقة. والتعج الرجل: اذا ارتمض وتألم من هم يصيبه، ويقال هوى لاعج، وحزن أو هم لاعج لحرقته الفؤاد، ولعج الحزن فؤاده: اذا استحر فى قلبه (٤) واثق علم، والزمع شبه رعدة تأخذ الانسان من خوف أو نشاط، والزمع: الدهشة والخوف والجزع والقلق. والزمع أيضا: رذال الناس وأتباعهم. وقد يكون (واثق) علم جنس الوثاق لما يوثق به ويربط كالوثاق، ومنه قوله تعالى: «فشدوا الوثاق» (٥) البهر: انقطاع النفس من الاعياء، بهره الحمل وغيره بهرا فانبهر وابتهر، أى تتابع نفسه — والبهر: الكرب يعترى الانسان اذا كلف فوق جهده وهاض العظم يهيضه اذا كسره بعد الجبور وهو أشد مايكون من الكسر، ويستعار لغير العظم والجناح ومنه قول

فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : رِفْقاً بِي فَسَتُدْرِكُ مَا تُحِبُّهُ وَتَشْتَهِيهِ ، وَتَرَى مَا كُنْتَ تَرْتَجِيهِ ، وَيَا لَيْتَ أَنَّ الْمَوْتَ يُبَاعُ فَأُغْلِيَ سَوْمَهُ ، حَتَّى يَرِدَهُ مَنْ أَطَالَ عَلَيْهِ حَوْمَهُ[1]

لَا تَأْمَنَنَّ مِنَ الزَّمَانِ تَقَلُّباً إِنَّ الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ يَتَقَلَّبُ

وَلَقَــدْ أَرَانِيَ وَاللُّيُوثُ تَخَافُنِي

فَأَخَافَنِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الثَّعْلَبُ

حَسْبُ الْكَرِيمِ مَذَلَّةً وَمَهَانَةً

أَلَّا يَزَالَ إِلَى لَئِيمٍ يَطْلُبُ

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَجْلِسَ جَلَسَ فِي آخِرِهِ دُونَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى أَحَدٍ ، أَوْ يُومِيَ إِلَيْهِ بِعَيْنٍ أَوْ يَدٍ ، فَلَمَّا أَخَذَ مَجْلِسَهُ تَسَرَّعَ

عمر بن عبد العزيز وهو يدعو على يزيد بن المهلب لما كسر سجنه وأفلت: اللهم انه قد هاضني فهضه » أي كسرني وأدخل الخلل على ما كسره وجازه بالفعل ، وكل وجع على وجع فهو هيض ونكس ، ومنه : فلان هنا يهيضك إلى مابك أي ينكسك الى مرضك (١) سام الرجل السلعة : اذا عرض على البائع ثمنها . وأغلاه : جعله غاليا . وحام الطير وغيره على الشيء وحوله اذا دار ، وحام فلان على الأمر حوما : اذا رامه وطلبه ، وحام على قرابته اذا عطف كفعل الحائم على الماء

إِلَيْهِ ٱلْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ حَفْصِ بْنِ جَابِرٍ (١) فَعَنَّفَهُ وَٱسْتَجْفَاهُ (٢) ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ تَرْكَ ٱلسَّلَامِ وَجَفَاهُ ، وَجَعْفَرٌ مُعْرِضٌ عَنْهُ ، إِلَى أَنْ كَثُرَ ٱلْقَوْلُ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ يَاهَذَا جَهِلْتَ ٱلْمَبَرَّةَ فَاسْتَجْهَلْتَ مَعْلَمَهَا (٣) ، وَكَفَرْتَ ٱلنِّعَمَ فَقَصَدْتَ بِالْأَذَى وَلَمْ تَرْهَبْ مُقَدِّمَهَا ، وَلَوْ أَتَيْتُ نُكْرًا ، لَكَانَ غَيْرُكَ أَدْرَى ، وَقَدْ وَقَفْتَ فِي أَمْرٍ مَا أَظُنُّكَ تَخْلُصُ مِنْهُ ، وَلَا يَسَعُكَ ٱلسُّكُوتُ عَنْهُ ، وَنَسِيتَ ٱلْأَيَادِيَ ٱلْجَمِيلَةَ ، وَٱلْمَبَرَّاتِ ٱلْجَلِيلَةَ . فَلَمَّا سَمِعَ مُحَمَّدُ بْنُ حَفْصٍ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ قَالَ : هَذَا ٱلْبَهْتُ (٤) بِعَيْنِهِ ، وَأَيُّ أَيَادِيكَ ٱلْغُرِّ ٱلَّتِي مَنَنْتَ بِهَا ، وَعَنَيْتَ أَدَاءَ وَاجِبِهَا ؟ أَيَدٌ كَذَا أَمْ يَدُ كَذَا ؟

---

(١) ليت شعرى أهو غير أبى عامر بن حفص بن أشعث القرطبى الذى كان فى عداد الفقهاء المشاورين والمشرفين باسم الوزارة فى مدة الفتنة ذلك كان عفيفا سهل الخلق أديبا من أماثل طبقته توفى سنة ٤٢٩ ، ولعلنا نبحث ذلك « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) من جفاه اذا ماراه ونازعه فى الكلام ، وبالغ فى مشارته ، وأحق به : أزرى . وقد تكون استجفاه بالجيم (٣) معلم الشيء : مظنته ويقال هو معلم الخير من ذلك ، والعلم ما يستدل به على الطريق من الاثر ، والأولى أن تقرأ معلمها

(٤) بهته « كمنعه » بهتا اذا قال عليه مالم يفعل ، والبهت الكذب والباطل

ـ وعَيَّنَ أشياءَ أنكرَها منهُ أيامَ إمارتِهِ ، وتصرُّفِ الدهرِ طوعَ إشارتِهِ ـ فقالَ جعفرٌ هـذا مالا يُعرَفُ ، والحقُّ الذي لا يُرَدُّ ولا يُصرَفُ ، رفعِي القطعَ عنْ عُنقكَ[1] وتبليغِي لكَ إلى مُناكَ ، فأمرَ محمدُ بنُ حفصٍ على الجحدِ. فقالَ جعفرٌ : أنشُدُ اللهَ منْ لهُ علمٌ بما أذكرُهُ ، إلّا أعترفَ بهِ فلا يُشكِرُهُ ، وأنا أحوجُ اليومَ إلى السكوتِ ، ولا تُحجبُ دعوتِي فيهِ عنِ الملكوتِ . فقالَ الوزيرُ أحمدُ بنُ عبّاسٍ : قدْ كانَ بعضُ ما ذكرتَهُ يا أبا الحسنِ وغيرُ هذا أولى بكَ ، وأنتَ فيما أنتَ فيهِ منْ محنتِكَ وطلبِكَ . فقالَ أحرجنِي الرجلُ فتكلَّمتُ ، وأحوجنِي إلى ما بهِ أعلمتُ . فأقبلَ الوزيرُ ابنُ جهورٍ على محمدِ ابنِ حفصٍ وقالَ : أسأتَ إلى الحاجبِ ، وأوجبتَ عليهِ غيرَ الواجبِ ، أوَ ما علمتَ أنَّ منكوبَ السلطانِ لا يُسلِّمُ على أوليائِهِ ؟ لأنَّهُ إنْ فعلَ ألزمهُمُ الردَّ لقولِهِ تعالى

(١) يتهمه بالسرقة والخيانة واحتجان الأموال

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » . فَإِنْ فَضَلُوا طَافَ بِهِمْ مِنْ إِنْكَارِ السُّلْطَانِ مَا يُخْشَى وَيُخَافُ ، لِأَنَّهُ تَأْنِيسٌ لِمَنْ أَوْحَشَ وَتَأْمِينٌ لِمَنْ أَخَافَ ، وَإِنْ تَرَكُوا الرَّدَّ أَسْخَطُوا اللهَ ، فَصَارَ الْإِمْسَاكُ أَحْسَنَ ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْفَى عَلَى أَبِي الْحَسَنِ . فَانْكَسَرَ ابْنُ حَفْصٍ ، وَخَجِلَ مِمَّا أَتَى بِهِ مِنَ النَّقْصِ . وَبَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا تَوَجَّعُوا لَهُ ، وَتَفَجَّعُوا مِمَّا وَصَلَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ :

أَحِنُّ إِلَى أَنْفَاسِكُمْ فَأَظُنُّهَا
بَوَاعِثَ أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ إِلَى نَفْسِي
وَإِنَّ زَمَانًا صِرْتُ فِيهِ مُقَيَّدًا
لَأَثْقَلُ مِنْ رَضْوَى (١) وَأَضْيَقُ مِنْ أَمْسِ (٢)

---

(١) رضوى : جبل عظيم بالمدينة ، وهو الجبل الذى يزعم الكيسانية أن محمد بن الحنفية به مقيم حى يرزق

تغيب لا يرى فيهم زمانا … برضوى عنده عسل وماء

(٢) يجوز أن تكون أمس محرفة عن «رمس» وهو الأظهر وإلا فقد بالغ فى وصف الزمان بالضيق كما بالغ من قال :

براني الهوى برى المدى وأذابني … صدودك حتى صرت أنحل من أمس
فلست أرى حتى أراك وإنما … يبين هباء الذر فى ألق الشمس

انتهى مَا تُرْجِمَ بِهِ ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ ، وَلْنَرْجِعْ فَنَقُولُ

***

المظفر عبد الملك ابن المنصور

وَلَمَّا تُوُفِّيَ ٱلْمَنْصُورُ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ*

* ترجم له في كتاب المغرب ، في حلى المغرب « ص ٢٦ ج أول » بما يأتي :

« المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر »

ذكر ابن حيان ضبطه للدولة بعد موت أبيه ، وتنقيه من خلف فتنته من الغلمان الى سبتة ، وأحبه الناس ، وانصب التأييد والاقبال عليه انصبابا لم يسمع بمثله ، وسكن الناس منه الى عفاف ونزاهة ، فأخذوا في المكاسب والزينة ، وبلغت الأندلس في أيامه الى نهاية الجمال والكمال « وكان أحمد ابن فارس المنجم قد قال : لم يولد بالأندلس قط أسعد من المظفر على نفسه وعلى أبيه وحاشيته ، نعم وعلى أهل الأندلس طرا ، وانها لاتزال بخير حياته ، فاذا هلك لم تفلح ، فكان كذلك ، وكانت نفائس الأعلاق والآلات الملوكية قد ارتفعت في وقته ارتفاعا عظيما ، وبلغت الأندلس في مدته الى نهاية الهدوء والرفاهية ، وجرى على سنن أبيه من غزو النصارى ، وضبط الدولة ، ورام صهره عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع أن يأخذ الدولة فغطن به وعاجله وقتل في مجلس المنادمة » إلا أنه لم يكن فيه للأدب ما كان له من أبيه ، فقد وصفه ابن حيان بأنه كان مائلا الى مجالسة العجم الجفاة من البرابر والافرنج ، منهمكا في الفروسية وآلاتها ، إلا أن أصحاب أبيه لم يخل بهم ولا جفاهم ، بل أبقاهم على رسومهم .

ٱلْمُظَفَّرُ أَبُو مَرْوَانَ فَجَرَى عَلَى سَنَنِ[١] أَبِيهِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلْغَزْوِ ، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ أَعْيَادًا دَامَتْ مُدَّةَ سَبْعِ سِنِينَ ، وَكَانَتْ تُسَمَّى بِالسَّابِعِ تَشْبِيهًا بِسَابِعِ ٱلْعَرُوسِ ، وَلَمْ يَزَلْ مِثْلَ ٱسْمِهِ مُظَفَّرًا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ فِي ٱلْمُحَرَّمِ ، وَقِيلَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ ، وَكَاتَبَهُ ٱلْمُعِزُّ بْنُ زِيرِي مَلِكُ مَغْرَاوَةَ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَرْجَعَ فَاسًا وَٱلْمَغْرِبَ إِثْرَ مَوْتِ أَبِيهِ[٢] فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْعَهْدَ عَلَى ٱلْمَغْرِبِ ، وَثَارَتْ

---

(١) السنن : الطريقة، وسنن الطريق « بتثليث السين و بضمتين » فيه أربع لغات » نهجه وجهته ومحجته

(٢) بينا فيما سبق كيف انقرض أمر مكناسة من المغرب وانتقلت الدولة الى مغراوة و بني يفرن ، وذلك في مدة حجابة المنصور بن أبي عامر بقرطبة وعقد هشام لخزرون بن فلفول من ملوك مغراوة على سجلماسة وأعمالها وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها حتى توفي ، فولى أمر سلجماسة من بعده ابنه « وانودين بن خزرون » حتى غلب زيري بن مناد على المغرب فعقد على سلجماسة لحميد بن فصل المكناسي » وفر وانودين بن خزرون عنها، ثم أعاده عبد الملك الى سلجماسة بعد ذلك على قطيعة يؤديها اليه ، ثم استقل بها من سنة ٣٩٠ مقيما للدعوة الأموية بالأندلس ،وعاد المعز بن زيري بولاية المغرب عن المظفر بن أبي عامر وحاز عنه ولاية سجلماسة لكونها بيد وانودين الذي عظم ملكه وأضاف الى

الطَّوَائِفُ فِي مَمَالِكِهِمْ ، وَتَحَرَّكَتِ الْجَلَالِقَةُ لِاسْتِرْجَاعِ مَعَاقِلِهِمْ وَحُصُونِهِمْ .

سلجلماسة غيرها من أعمال المغرب ، ولما توفى قام بالأمر بعده ولده مسعود ابن وانودين الى أن خرج عبد الله بن ياسين شيخ المرابطين فقتل مسعودا سنة ٤٤٥ وملك سلجلماسة ، فدخلت فى ملك المرابطين لأول أمرهم وانقرضت دولة بنى خزرون منها ثم تداولها من بعدهم ملوك الموحدين ثم ملوك بنى مرين — وتقدم أن زيرى بن عطية بن عبد الله «من مغراوة» توفى سنة ٣٩١ فبويع من بعده لابنه المعز بن زيرى جرى على سنن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصور من بعده حتى توفى المنصور وقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر و بعث المعز بن زيرى يرغب الى المظفر فى عمل فاس والمغرب الأقصى فأجابه الى ذلك وكتب له عهده به « خلا سلجلماسة كما تقدم » وبقى المعز فى ولايته حتى توفى سنة ٤١٧ وولى من بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية بن زيرى .. ثم افتتح يوسف بن تاشفين مدينة فاس سنة ٤٦٢ « أحمد يوسف نجاتى »

﴿ انتهى الجزء الثالث من كتاب نفح الطيب ﴾
ويليه الجزء الرابع إن شاء الله وأوله
﴿ عبد الرحمن الناصر لدين الله بن أبي عامر ﴾

مسألة كلامية

مسألة عرض، ليوم العرض، لاموضوع فرض، ولا امتحال قرض، فهي روحانية الحوار، أدبية النشوار، نورانية الاصدار، قامت بين أربعة من السلف الأخيار، أئمة العربية الجهابذة الأحبار، عن صديق لهم خامس مختار، وقرين فيما استظهروه من أسفار، وان كان في تواضعه العلمي، وتنكبه عن الأنظار، قد حير العقول، والأفهام، والأبصار.

أما الأربعة الكرام: فهم المرحومون. السيد بن علي المرصفي، والسيد الشنقيطي، والسيد توفيق البكري، وأستاذنا المرحوم السيد حمزة فتح الله، وهم من ذهبوا بعظائم الأدب العربي، وذهبت بهم، وتغلغلوا في مبانيها ومعانيها، بقدر ما تغلغلت في دمائهم، وآثروا العزلة والعلم والدرس والفهم، على لذة الجاه والمنصب، والمال والنشب، فأحبوا من هذه الخلال خلاله، وأجلوا من تلك الخصال خصاله، فراح كل للأدب نصيرا، وباللغة بصيرا، وبمداخلها ومخارجها عليما خبيرا.

أما موضوع العرض؛ فهو نداء إلى مصدر نفح الطيب للمقري، أن يمهد السبيل لنفسه من الآن، ويعد العدة لمال جديد، لأن أجزاءه ستزيد عما حدده من قبل، لاعتبارات سردوها، نشأت عن خصال ركبت في شخص صاحبهم الخامس، الذى أهداه الينا القدر، ليكون مراجع الكتاب

وإني قد صممت أن أنتقم للمال هنا، وإن كنت أكره الانتقام دوما، فأعرض عن ذكر اسمه، وإن كان هو في العرض مدارا، وفي الشرح مكثارا، وان اتى زلات وعثارا، وكيف لا أفعل ذلك، وستزاد الأجزاء حوالي الثلث، ناهيك بليال سيمضي سهدها، ومال سينفد، وصحة ستفنى.

وما يغنيني من ذكر إجماع هؤلاء الأئمة ، لأن خاتمهم هو أستاذنا مزاجع الوزارة ، المنتدب للاشراف على نفح الطيب ، وقول السيد ابن على الزرقى : حياك الله وبياك . خاصمنا فى المهنة والصناعة ، ووافقنا فى الركاوة والبضاعة ، والنزعة والرضاعة . فقد والله أرحت نفوسنا ، وأثلجت صدورنا ، يابن نجاتى ، وقد والله انقصت القلة ، وأعدت الروعة ، فأنت الخليق من بعدنا بوراثة البيان . فى غير إجحاف بما لزملائك الكرام ، من أسهم صائبات ، وحسنات فى خدمة اللغة إثر حسنات ، فكلكم والله باعثو نهضتها ، وناشرو جدتها .

ثم قول الشنقيطى : ولاتنس وقد ذكرت ولدنا « أحمد بن يوسف نجاتى » أن تهتف بالقرآن والعربية ، واللغة والمحمدية ، والبلاغة والعدنانية ، فلنثبت ونحن فى دار البقاء ، ماعجز النفاق نشره فى دار الفناء ، فنقول عنه ونعدد فى سجل حسناته ، ونثبت فى صحيفة بلائه ، أنه كم فى اللغة والأدب ، لمتباين القشر ، وحاتى النأى ، ضم ورأب ، وكم لمتسع الثغر ومستعصى الصدع ، سد وشعب ، وكم خلل أصلح ، وخطأ أصح ، ومبهم أوضح ، وكم فى اصابة هدف الصواب أفلح ، وأنجح وأسجح . وكم لكلام الكلام نكا وأنهر ، ولزيغ مخارق الفساخ أصلح وأظهر ، وكان — علم الله — لطلاسمهم للهاة ، وأحاجيهم للفجاة ، ومبصر عشاة ، وزعيم أساة ، بل كان وايم الحق امام نحاة ، وشيخ رواة .

ولقد أتى صاحب الصهاريج ، وأراجيز العرب ، الا أن يحتج بدلائه ، ويعرض لآلائه فقال عنه :

أما فى الشعر وقوافيه ، وما طار من قوادمه وخوافيه ، أو طمس من أواسطه ومبانيه ، فلقد كان — والله — زميلنا « أحمد » نعم الحادى والرائض والهادى والقارض ، والأصمعى وابن الفارض ، فى براءة من صنعة حماد ، وفى طرفوة من بلاغة ابن العماد .

وهنا أمسك شيخنا السيد حمزة فتح الله بشتونه ، فقال كلامه :

أما فى الشرح والايضاح ، والتذييل وحوك الوشاح ، وصبر أيوب فى الابانة والافصاح ، فان صاحبنا فى هذه الدروب والنواحى ، والفجاج والمناحى — حرسه الله من الحسود الحقود المتشكك — عذيقها المرجب ، وجذيلها المحكك . أقول :

وماذا يعنينا المضى فى اثبات نصوص ذلك الحوار ، بعد ما أصابنا ما أصابنا من وراء جهد صاحبه المختار ، من زيادة الورق والأسفار ، ومواصلة الليالى بالآصال ، والبكور بالأسحار ، فلنصر على انتقامنا — أستغفر الله من هذه الخصلة الذميمة — ولنعرض عن ذكر اسمه كاملا . والحمد لله أولا وآخرا ، عليه توكلى واليه المآب .

احمد فريد رفاعى

دار المأمون فى { ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٥
٥ ديسمبر سنة ١٩٣٦

شُكْرًا شُكْرًا

وَهَلْ يَخْتَفِي اسْمِي أَيْنَ كُنْتُ وَقَدْ وَشَى
بِرَيَّاهُ نَفْحُ الطِّيبِ لَمَّا تَضَوَّعَا ؟

احمد يوسف نجاتى

الجيزة فى { ٢١ من رمضان سنة ١٣٥٥
٦ من ديسمبر سنة ١٩٣٦

فهرس

الجزء الثالث من كتاب نفح الطيب

مطبوعات دار المأمون

الأوفي من دهيت
مكتبة العمارة والثقافة
الأدبية

الدكتور أحمد فريد رفاعي
مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة
المصرية

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الرابع

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن. ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

***

عبد الرحمن الناصر لدين الله

« قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ » ثُمَّ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ أَخُوهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ، وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ وَقِيلَ بِالْمَأْمُونِ ، وَجَرَى عَلَى سَنَنِ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فِي ٱلْحَجْرِ عَلَى ٱلْخَلِيفَةِ هِشَامٍ وَٱلِاسْتِبْدَادِ عَلَيْهِ ، وَٱلِاسْتِقْلَالِ بِالْمُلْكِ دُونَهُ ، ثُمَّ ثَابَ[1] لَهُ رَأْيٌ فِي ٱلِاسْتِئْثَارِ بِمَا بَقِيَ مِنْ رُسُومِ ٱلْخِلَافَةِ ، فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ ٱلْمُؤَيَّدِ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَهْدَهُ فَأَجَابَهُ ، وَأَحْضَرَ لِذٰلِكَ ٱلْمَلَأَ مِنْ أَرْبَابِ ٱلشُّورَى وَأَهْلِ ٱلْحَلِّ وَٱلْعَقْدِ ، فَكَانَ يَوْمًا

---

(١) ثاب له رأى : عرض له .

مَشْهُودًا، فَكَتَبَ عَهْدَهُ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي حَفْصِ بْنِ بُرْدٍ[1] بِمَا نَصُّهُ :

***

عهد هشام المؤيد بالله

هَذَا مَا عَهِدَ بِهِ هِشَامٌ الْمُؤَيَّدُ بِاللهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ، وَعَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ خَاصَّةً ، وَأَعْطَى بِهِ صَفْقَةَ يَمِينِهِ بَيْعَةً تَامَّةً ، بَعْدَ أَنْ أَمْعَنَ فِي النَّظَرِ ، وَأَطَالَ الِاسْتِخَارَةَ[2] وَأَهَمَّهُ مَا جَعَلَ اللهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِمَامَةِ ، وَعُصِبَ[3] بِهِ

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن برد من أهل قرطبة مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد ، كان ابن برد من فحول البيان وأقطاب البلاغة كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا مليح الشعر حسن الديباجة ، وهو من أهل بيت رياسة وأدب ، وله رسالة فى السيف والقلم والمفاخرة بينهما وهو أول من سبق بالقول فى ذلك بالأندلس ، وكان من كتاب ديوان الانشاء فى دولة العامريين وكتب للمظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر وله رسائل كثيرة تدل على قدرته فى البلاغة وطول باعه فى السياسة توفى سنة ٤٢٨ «ومن شعره » أوهو حفيده أبو حفص بن برد الأصغر :

تأمل فقـد شق البهار مغلـا ... كمائمه عن نواره الخضر الندى

مـداهن تبر فى أنامـل فضة ... على أذرع مخروطة من زبرجد

(٢) استخار : طلب الخيرة ، ويقال استخر الله يخر لك ، والله يخير العبد اذا استخاره (٣) العصب الشد ولزوم الشئ ، ويقال عصب الرجل بيته « كضرب » اذا أقام فيه لازما له لايبرحه « وفى حديث على كرم الله وجهه فروا الى الله وقوموا بما عصبه بكم ، أى بما افترضه عليكم وقرنه بكم من أوامره ونواهيه ، وفلان تعصب الأمور برأسه : أى تناط به

مِنْ أَمْرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱتَّقَى حُلُولَ ٱلْقَدَرِ بِمَالَا يُؤْمَنُ ، وَخَافَ نُزُولَ ٱلْقَضَاءِ بِمَالَا يُصْرَفُ ، وَخَشِيَ إِنْ هَجَمَ مَحْتُومُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَنَزَلَ مَقْدُورُهُ بِهِ ، وَلَمْ يَرْفَعْ لِهٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ عَلَمًا تَأْوِي إِلَيْهِ ، وَمَلْجَأً تَنْعَطِفُ عَلَيْهِ ، أَنْ يَكُونَ يَلْقَى رَبَّهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ مُفَرِّطًا سَاهِيًا عَنْ أَدَاءِ ٱلْحَقِّ إِلَيْهَا ، وَتَقَصَّى[1] عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ أَحْيَاءِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهَا مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسْنَدَ هَـٰذَا ٱلْأَمْرُ إِلَيْهِ ، وَيُعَوَّلَ فِي ٱلْقِيَامِ بِهِ عَلَيْهِ ، مِمَّنْ يَسْتَوْجِبُهُ بِدِينِهِ وَأَمَانَتِهِ ، وَهَدْيِهِ وَصِيَانَتِهِ ، بَعْدَ أَطِّرَاحِ ٱلْهَوَى[2] وَٱلتَّحَرِّي لِلْحَقِّ ، وَٱلزُّلْفَى[3] إِلَى ٱللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِمَا يُرْضِيهِ ، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعَ ٱلْأَوَاصِرَ[4] وَأَسْخَطَ ٱلْأَقَارِبَ ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا أَجْدَرَ أَنْ

(١) تقصى في الأمر واستقصى : بلغ غايته القصوى ، وكذا تقصى الأمر واستقصاه وفي الأصل «تقص» محرفة (٢) ميل النفس ومحبة الانسان الشيء وغلبته على قلبه (٣) التقرب ، والمنزلة والرتبة والدرجة ، ومنه قوله تعالى : «وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى» (٤) جمع آصرة : وهو ما يعطف المرء على غيره من رحم أو قرابة أو معروف ومنة ـ يقال ما تعطفني على فلان آصرة ، أي ما تعطفني عليه عاطفة من قرابة أو منة ، و بينهم آصار يرعونها : أي عهود ومواثيق ، وعطف مولاى على بغير آصرة وظفر في أمرى بميل بآصرة

يُوَلِّيهُ عَهْدَهُ، وَيُفَوِّضَ إِلَيْهِ ٱلْخِلَافَةَ بَعْدَهُ، لِفَضْلِ نَفْسِهِ
وَكَرَمِ خِيمِهِ[١] وَشَرَفِ مَرْتَبَتِهِ وَعُلُوِّ مَنْصِبِهِ، مَعَ تُقَاهُ
وَعَفَافِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحَزْمِهِ، مِنَ ٱلْمَأْمُونِ ٱلْغَيْبِ، ٱلنَّاصِحِ
ٱلْجَيْبِ[٢]، أَبِي ٱلْمُطَرِّفِ[٣] عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ ٱلْمَنْصُورِ أَبِي عَامِرٍ
مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ـ وَفَّقَهُ ٱللَّهُ ـ، إِذْ كَانَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ أَيَّدَهُ
ٱللَّهُ تَعَالَى ـ قَدِ ٱبْتَلَاهُ[٤] وَٱخْتَبَرَهُ، وَنَظَرَ فِي شَأْنِهِ وَٱعْتَبَرَهُ
فَرَآهُ مُسَارِعًا فِي ٱلْخَيْرَاتِ، سَابِقًا فِي ٱلْحَلَبَاتِ[٥]، مُسْتَوْلِيًا
عَلَى ٱلْغَايَاتِ، جَامِعًا لِلْمَأْثُرَاتِ، وَمَنْ كَانَ ٱلْمَنْصُورُ أَبَاهُ
وَٱلْمُظَفَّرُ أَخَاهُ، فَلَا غَرْوَ[٦] أَنْ يَبْلُغَ مِنْ سُبُلِ ٱلْبِرِّ مَدَاهُ،
وَيَحْوِيَ مِنْ خِلَالِ ٱلْخَيْرِ مَا حَوَاهُ. مَعَ أَنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ـ أَيَّدَهُ ٱللَّهُ ـ بِمَا طَالَعَ مِنْ مَكْنُونِ ٱلْعِلْمِ، وَوَعَاهُ مِنْ مَخْزُونِ

---

(١) طبعه وسجيته وأصله ـ أو هو الخلق وسعة الصدر وقال الشاعر :

ومن يبتدع ماليس من خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها

(٢) يقال هو ناصح الجيب : أي القلب والصدر يعنى أمينهما قال عنترة :

لعمرى لقد أعذرت لو تعذرينى وخشنت صدرا جيبه لك ناصح

(٣) فى الاصل « المظفر » وهو تحريف ، وأبو المظفر كنية تغلب بهذا فيمن يسمى عبد الرحمن (٤) أى امتحنه وجربه (٥) الحلبات : ميادين الحروب والسباق (٦) لا غرو : لا عجب

ٱلْآثَرِ، يَرَى أَنْ يَكُونَ وَلِيُّ عَهْدِهِ ٱلْقَحْطَانِيُّ ٱلَّذِى حَدَّثَ عَنْهُ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِي وَأَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ ٱلنَّاسَ بِعَصَاهُ»(١).

---

(١) الحديث: رواه البخارى ومسلم. وفى البخارى: حدثنا عبدالعزيز ابن عبد الله قال حدثنى سليان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبى الغيث عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم — قال: لا تقوم الساعة حتى يقوم رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه» اه، وفى رواية حتى يخرج رجل. وقوله «حتى يسوق الناس بعصاه» كناية عن تملكه وغلبته على الناس وانقيادهم له، شبهه بالراعى وشبه الناس بالغنم اشارة الى قوة التصرف الذى يملكه الراعى فى الغنم، ولم يرد العصا نفسها وان كان قد يشار بذكرها الى قسوته عليهم وعنفه بهم وأخذه اياهم بالشدة. وهذا الحديث يدخل فى علامات النبوة من جملة ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم قبل حدوثه ولم يقع بعد، واستدل به بعض العلماء على أن الخلافة يجوز أن تكون فى غير قريش، وأجاب ابن العربى عن ذلك بأنه انذار بما سيكون من الشر فى آخر الزمان من تسور العامة على منازل الامارة والاستقامة، فليس فيه حجة لأنه لا يدل على المدعى ولا يعارض ما ثبت من أن الأئمة من قريش. وفى البخارى فى موضع آخر: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده «بالشام» فى وفد من قريش «عند ما بويع بالخلافة» «سلم له الحسن بن على فأرسل أهل المدينة اليه جماعة منهم ليبايعوه» أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك من قحطان،

فغضب معاوية فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فانه بلغنى أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث ليست فى كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأولئك جهالكم فاياكم والأمانى التى تضل أهلها فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ماأقاموا الدين » اه .

وقول سيدنا معاوية « فأولئك جهالكم » يريد الذين يتحدثون بأمور من حوادث الغيب وشؤون المستقبل لايستندون فيها الى الكتاب أو السنة ومناسبة قوله « فاياكم والأمانى التى تضل أهلها » أن ذكر ذلك تحذير لمن يسمع من القحطانيين من التمسك بالخبر المذكور فتحدثه نفسه أن يكون هو القحطانى ، وقد تكون له عصبية وعشيرة ذات قوة فيطمع فى الملك مستندا الى هذا الحديث فيضل لمخالفة الحكم الشرعى من أن الأئمة من قريش ، وقوله « لايعاديهم الخ » أى لاينازعهم أحد فى أمر الخلافة ولا يبدى لهم صفحته مجاهرا بالخلاف والعداء الا كان مقهورا فى الدنيا معذبا فى الآخرة . وفى انكار سيدنا معاوية ذلك نظر فان الحديث الذى استدل به مقيد باقامة الدين فيحتمل أن يكون خروج القحطانى اذا لم تقم قريش بأمر الدين وقد وجد ذلك فان الخلافة كانت فى قريش والناس فى طاعتهم حتى استخفوا بأمر الدين فضعف أمرهم وتلاشى الى أن لم يبق لهم من الخلافة سوى اسمها المجرد فى بعض الأقطار دون أكثرها ، وانما أنكر معاوية على عبد الله بن عمرو لأنه حمل حديث عبدالله على ظاهره ، وقد يكون الغرض منه أن قحطانيا يخرج فى ناحية من النواحى لا أن حكمه يشمل الأقطار كلها كما تقدم فلا يعارض حديث معاوية ، على أنه يجوز أن يكون ملكا يغلب على الناس من غير أن يكون خليفة ، ولأنه أراد أن يقطع طمع النازعين الى الأمر من غير قريش خشية أن يظن أحد أن الخلافة تجوز فى غيرهم فلما خطب بذلك دل على أن الأمر عندهم كما قال اذ لم ينقل أن أحدا منهم أنكر عليه، وان كان لايلزم من

٭٭٭

فَلَمَّا اسْتَوَى⁽¹⁾ لَهُ الِاخْتِيَارُ ، وَتَقَابَلَتْ عِنْدَهُ فِيهِ الْآثَارُ ، وَلَمْ يَجِدْ عَنْهُ مَذْهَبًا ، وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مَعْدِلًا⁽²⁾ خَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ فِي حَيَاتِهِ ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ الْخِلَافَةَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، طَائِعًا رَاضِيًا مُجْتَهِدًا ، وَأَمْضَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا وَأَجَازَهُ ، وَأَنْجَزَهُ وَأَنْفَذَهُ ، وَلَمْ يَشْرِطْ فِيهِ تفويض الخلافة

عدم انكارهم صحة انكار معاوية ماذكره عبد الله بن عمرو فان فى حديثه مايقوى ماأنكره لقوله «ماأقاموا الدين» فهذا القيد المؤقت يدل على أنه ربما كان فى قريش من لا يقيم الدين فيتسلط القحطانى عليه . وأخرج الطبرانى من طريق قيس بن جابر الصدفى عن أبيه عن جده رفعه : «سيكون من بعدى خلفاء ثم من بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك ومن بعد الملوك جبابرة ثم يخرج رجل من أهل بيتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ثم يؤمر القحطانى فوالذى بعثنى بالحق ماهو دونه » اه . وروى أحمد والطبرانى من حديث ذى مخمر الحبشى مرفوعا : كان الملك قبل قريش فى حمير وسيعود اليهم . اه . هذا خلاصة كل مايتعلق بحديث القحطانى من البخارى ومسلم وغيرهما من كتب الحديث ، ولنا فى هذا الموضوع رأى واليه عودة ان شاء الله . » وذو مخمر » كمنبر الحبشى ويقال مخبر بالباء هو ابن أخى النجاشى ملك الحبشة صحابى خدم النبى صلى الله عليه وسلم وله خمسة أحاديث ونزل الشام وحديثه عند الدمشقيين « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) أى استقام وتم (٢) المذهب : موضع الذهاب والانصراف ، والمعدل : محل العدول عن الشئ والاعراض عنه والابتعاد .

مَثْنَوِيَّةً(١) وَلَا خِيَارًا، وَأَعْطَى عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ عَهْدَ ٱللَّهِ وَمِيثَاقَهُ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَذِمَمَ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَذِمَّةَ نَفْسِهِ أَلَّا يُبَدِّلَ وَلَا يُغَيِّرَ وَلَا يَحُولَ وَلَا يَزُولَ، وَأَشْهَدَ ٱللَّهَ عَلَى ذَٰلِكَ وَٱلْمَلَائِكَةَ، وَكَفَى بِٱللَّهِ شَهِيدًا، وَأَشْهَدَ مَنْ أَوْقَعَ ٱسْمَهُ فِي هَذَا وَهُوَ جَائِزُ(٢) ٱلْأَمْرِ مَاضِي ٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ، بِمَحْضَرٍ مِنْ وَلِيِّ عَهْدِهِ ٱلْمَأْمُونِ أَبِي ٱلْمُطَرِّفِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَٰنِ بْنِ ٱلْمَنْصُورِ — وَفَّقَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى — وَقَبُولِهِ مَا قَلَّدَهُ، وَإِلْزَامِهِ نَفْسَهُ مَا أَلْزَمَهُ، وَذَٰلِكَ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَٰثِمِائَةٍ، وَكَتَبَ ٱلْوُزَرَاءُ وَٱلْقُضَاةُ وَسَائِرُ ٱلنَّاسِ شَهَادَاتِهِمْ بِخُطُوطِ أَيْدِيهِمْ، وَتَسَمَّى بَعْدَهَا بِوَلِيِّ ٱلْعَهْدِ. وَنَقِمَ(٣) عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ذَٰلِكَ، فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ(٤) وَٱنْقِرَاضُ دَوْلَتِهِ وَدَوْلَةِ قَوْمِهِ، وَكَانَ أَسْرَعُ

(١) يقال حلف فلان يمينا ليس فيها ثنيا، ولا ثنوى ولا ثنوية ولا ثنية أى استثناء. وحلفة غير ذات مثنوية أى غير محللة قال النابغة:

حلفت يمينا غير ذى مثنوية ولا علم الا حسن ظن بصاحب

(٢) أى نافذ: ماض (٣) نقم عليه: أنكر عليه وكرهه وعاب (٤) الحتف: الهلاك والموت، وتذكرت عند ذلك قول الشاعر:

واذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

ٱلنَّاسِ كَرَاهَةً لِتِلْكَ ٱلْأُمَوِيِّينَ وَٱلْقُرَشِيِّينَ(١)، فَتَصَوُّا بِأَمْرِهِ(٢) وَأَسِفُوا مِنْ تَحْوِيلِ ٱلْأَمْرِ جُمْلَةً مِنَ ٱلْمُضَرِيَّةِ إِلَى ٱلْيَمَنِيَّةِ، فَاجْتَمَعُوا لِشَأْنِهِمْ، وَتَمَشَّتْ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ رِجَالَاتُهُمْ وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ فِي غَيْبَةٍ مِنَ ٱلْمَذْكُورِ بِبِلَادِ ٱلْجَلَالِقَةِ فِي غَزَاةٍ مِنْ صَوَائِفِهِ، وَوَثَبُوا بِصَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ فَقَتَلُوهُ بِمَقْعَدِهِ مِنْ بَابِ قَصْرِ ٱلْخِلَافَةِ بِقُرْطُبَةَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ وَخَلَعُوا هِشَامًا ٱلْمُؤَيَّدَ.

***

وَبَايَعُوا مُحَمَّدَ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ مِنْ أَعْقَابِ ٱلْخُلَفَاءِ وَلَقَّبُوهُ ٱلْمَهْدِيَّ بِاللهِ، بيعة محمد بن هشـ

---

(١) كذا بالأصل، والأولى أن يكون «الأمويون والقرشيون» بالرفع اسما لكان وأسرع بالنصب خبرها مقدما (٢) مجاز من الغصة «أي تألموا واغتاظوا وحقدوا — وغص بالطعام أو بالماء اذا شرق به أو وقف في حلقه فلم يكد يسيغه — وأغصه بريقه: أضجره وأقلقه

* ترجم له في كتاب الدروس التاريخية «ج ١» الخضري بما يأتي:

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ادريس الملقب بالمهدي. بويع من أهل الدولة عقب خلع هشام المؤيد، وعلى يده قتل عبدالرحمن الحاجب حين رجع من غزوته، وولاية المهدي أثارت ثائرة عصبية جديدة

وَطَارَ ٱلْخَبَرُ إِلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْحَاجِبِ بْنِ ٱلْمَنْصُورِ بِمَكَانِهِ مِنَ ٱلثَّغْرِ فَٱنْفَضَّ جَمْعُهُ ، وَقَفَلَ إِلَى ٱلْحَضْرَةِ مُدِلًّا بِمَكَانِهِ ، زَعِيماً بِنَفْسِهِ، حَتَّى إِذَا قَرُبَ مِنَ ٱلْحَضْرَةِ تَسَلَّلَ[1] عَنْهُ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْجُنْدِ وَوُجُوهِ ٱلْبَرْبَرِ وَلَحِقُوا بِقُرْطُبَةَ

***

قتل عبد الرحمن الحاجب

وَبَايَعُوا ٱلْمَهْدِيَّ ٱلْقَائِمَ بِٱلْأَمْرِ وَأَغْرَوْهُ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْحَاجِبِ لِكَوْنِهِ مَاجِناً مُسْتَهْتِراً[2] غَيْرَ صَالِحٍ لِلْأَمْرِ، فَاعْتَرَضَهُ مِنْهُمْ مَنْ قَبَضَ عَلَيْهِ وَٱحْتَزَّ رَأْسَهُ وَحَمَلَهُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ وَإِلَى ٱلْجَمَاعَةِ، وَذَهَبَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَامِرِيِّينَ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ . وَفِي ٱلْمَهْدِيِّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ :

فان البرابرة الذين جندهم المنصور الحاجب نقم عليهم المهدى وأهل الدولة فلما رأوا ذلك أسروا الخروج على المهدى ومبايعة هشام بن سليمان بن الناصر فظهر أمرهم وأخذ هشام هذا فقتل وطرد البربر خارج قرطبة ولحق بهم سليمان بن الحكم فاتفقوا على خلع المهدى ومبايعته ولقبوه بالمستعين بالله .

(١) هربوا فى خفية بعضهم وراء بعض (٢) المستهتر بالشىء : المولع به لايتحدث بغيره لايبالى بما يقال فيه لأجله ، والذى كثرت أباطيله — وفى حديث ابن عمر «اللهم انى أعوذ بك أن أكون من المستهترين» — وقد استهتر بكذا « بالبناء للمفعول » اذا فتن به وذهب عقله فيه وانصرفت همته اليه حتى أكثر القول فيه بالباطل

قَدْ قَامَ مَهْدِيُّنَا وَلَكِنْ بِمِلَّةِ ٱلْفِسْقِ وَٱلْمُجُونِ(١)
وَشَارَكَ ٱلنَّاسَ فِي حَرِيمٍ لَوْلَاهُ مَا زَالَ بِالْمَصُونِ
مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَا أَجَمًّا(٢) فَالْيَوْمَ قَدْ صَارَ ذَا قُرُونِ

---

(١) المجون صلابة الوجه وقلة الحياء ، من مجن الشيء مجونا اذا صلب وغلظ ، والماجن من لايبالى ماقيل له ولا ماصنع كأنه لقلة استحيائه صلب الوجه – والمجون بهذا المعنى كلمة مولدة دخيلة لاتعرفها العرب وانما تعرف أصلها المتقدم ، وقيل للماجن عند العرب هو الذى يرتكب المقابح المردية والفضائح المخزيه ولا يمنعه عذل عاذله ولا تقريع من يقرعه (٢) الأجم الكبش بغير قرن « ومثله فى البقر الأجلح » والطلاق « قرنان » وذى القرون على من لايغار على عرضه وحريمه عامى مولد كأنهم جعلوه حيوانا لايغار على أهله » وقال ابن طباطبا فى على بن رستم وقد هدم شيئا من من سور أصبهان « الذى بناه ذو القرنين قديما » ليزيد فى داره :

وقد كان ذوالقرنين يبنى مدينة فما بال ذى القرنين يهدم سورها
على أنه لو حل فى صحن داره بقرن له سيناء هـدم طورها

وقال ابن نباتة :

سلبت محاسنك الغزال صفاته حتى تحير كل ظبي فيكا
لك جيـده ولحاظه ونفاره وكذا نظير قرونه لأبيكا

وقال بعض المحدثين :

قالت لجارتها يوما تعيرها قرنت زوجك ذوالقرنين تفضحه
قالت أأترك زوجا بلا قرن يجيء زوجك ذوالقرنين ينطحه

***

الإيقاع برؤساء البربر وزناتة

وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ لَحِقُوا بِالْمَهْدِيِّ لِمَا رَأَوْا مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلْحَاجِبِ وَٱنْتِقَاضِ أَمْرِهِ ، وَكَانَتِ ٱلْأُمَوِيَّةُ تَنْتَقِدُ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ مِنْ مُظَاهَرَتِهِمُ ٱلْعَامِرِيِّينَ، وَتَنْسُبُ تَغَلُّبَ ٱلْمَنْصُورِ وَبَنِيهِ[1] عَلَى ٱلدَّوْلَةِ إِلَيْهِمْ فَسَخِطَتْهُمُ ٱلْقُلُوبُ ، وَخَزَرَتْهُمُ[2] ٱلْعُيُونُ ، وَلَوْلَا مَا لَهُمْ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ لَاسْتَأْصَلَهُمُ ٱلنَّاسُ ، وَلَغَطَتْ أَلْسِنَةُ ٱلدَّهْمَاءِ[3] مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِكَرَاهَتِهِمْ ، وَأَمَرَ ٱلْمَهْدِيُّ أَلَّا يَرْكَبُوا وَلَا يَتَسَلَّحُوا ، وَرَدَّ بَعْضَ رُؤَسَائِهِمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ مِنْ بَابِ ٱلْقَصْرِ ، فَٱنْتَهَبَتِ ٱلْعَامَّةُ دُورَهُمْ ، وَشَكَا بَعْضُهُمْ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ مَا أَصَابَهُمْ ، فَٱعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ وَقَتَلَ مَنْ ٱتُّهِمَ مِنَ ٱلْعَامَّةِ فِي

---

(١) فى الأصل « وغيره » وهو تحريف (٢) خزره خزرا اذا نظر اليه بلحاظ العين يفعل الرجل ذلك كبرا واستخفافا بالمنظور اليه وسخطا عليه وغيظا منه (٣) الدهماء العامة والعدد الكثير وجماعة الناس وكثرتهم ، أو السواد الأعظم من الناس — واللغط الصوت والجلبة أو أصوات مبهمة لا تفهم — وفى الأصل لغطت أى نطقت وصرحت . .

أَمْرِهِمْ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُظْهِرٌ لِتَنْعِيمِهِمْ ، مُجَاهِرٌ بِسُوءِ الثَّنَاءِ(١) عَلَيْهِمْ ، وَبَلَغَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ الْفَتْكَ بِهِمْ ، فَتَمَشَّتْ رِجَالاتُهُمْ وَأَسَرُّوا نَجْوَاهُمْ(٢) ، وَاشْتَوَرُوا فِي تَقْدِيمِ هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ ، وَفَشَا فِي الْخَاصَّةِ حَدِيثُهُمْ ، فَعُوجِلُوا عَنْ مَرَامِهِمْ ذَلِكَ ، وَأُغْرِيَ بِهِمُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ ، فَثَارُوا بِهِمْ وَأَزْعَجُوهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَقُبِضَ عَلَى هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ ، وَأَخِيهِ أَبِي بَكْرٍ ، وَأُحْضِرَا بَيْنَ يَدَيِ الْمَهْدِيِّ فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمَا .

---

(١) الثناء وصف بمدح أو بذم قال الليث : الثناء تعمدك لتثني على انسان بحسن أو قبيح ، أو خاص بالمدح وهو الغالب المستعمل ، وان كان عموم الثناء في الخير والشر هو الذي جزم به كثيرون واستدلوا بالحديث : «من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار» ومثله : ثبوت له خيرا أو شرا اذا وجهته اليه ، وكذلك الثنا ماأخبرت به عن الرجل من حسن أو قبيح ، قال :

فاضل كامل جميل ثناه   أريحي مهذب منصور

وقال جميل :

ألوب الخدر واضحة الجبا   لعوب دلها حسن ثناها

(٢) النجوى : السر ، وناجاه : ساره

***

سليمان بن الحكم

وَلَحِقَ سُلَيْمَانُ(١) ٱبْنُ أَخِيهِمَا ٱلْحَكَمِ * بِجُنُودِ ٱلْبَرْبَرِ، وَقَدِ ٱجْتَمَعُوا بِظَاهِرِ قُرْطُبَةَ وَتَوَامَرُوا(٢)، فَبَايَعُوهُ وَلَقَّبُوهُ ٱلْمُسْتَعِينَ بِاللهِ، وَنَهَضُوا بِهِ إِلَى ثَغْرِ طُلَيْطُلَةَ فَاسْتَجَاشَ(٣) بِابْنِ أَذْفُونْشَ، ثُمَّ نَهَضَ فِي جُمُوعِ ٱلْبَرَابِرَةِ وَٱلنَّصْرَانِيَّةِ إِلَى قُرْطُبَةَ، وَبَرَزَ إِلَيْهِ ٱلْمَهْدِيُّ فِي كَافَّةِ أَهْلِ ٱلْبَلَدِ، وَخَاصَّةِ

---

(١) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر عبد الرحمن

* ترجم له فى كتاب الدروس التاريخية الخضرى «ج ١ ص ١٠٥»

سليمان بن عبد الحكم الملقب بالمستعين بالله

بعد خلع هشام اتفق البربر على مبايعة سليمان بن الحكم وتلقيبه بالمستعين بالله ولدوه رأيهم استجاشوا بملك قشتالة الفونس الخامس فأمدهم بجند كثيف وذهب معهم الى قرطبة فحاربوا المهدى وقتلوا من جنده نحو عشرين ألفا وملك المستعين قرطبة ورجع الفونس الى مقر ملكه فخرج المهدى اليه مستنجدا به فأنجده وهذا هو كل ماينتمناه من وقوع الخلاف بين هؤلاء البله الذين لايريدون الا مصالح أنفسهم فجاء المهدى والفونس الى قرطبةوحارب المستعين بالقرب حتى استولى المهدى ثانية على قرطبة وخرج المستعين والبربر يعيثون فى الأرض فسادا فتعقبهما المهدى والفونس فكر عليهم المستعين وقاتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم

(٢) توامروا وتآمروا : تشاوروا .

(٣) استجاشه: طلب منه جيشا واستغاثه واستنصره

الدَّوْلَةِ ، فَكَانَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ ، وَأُسْتُلِمَ مِنْهُمْ مَا يَزِيدُ
عَلَى عِشْرِينَ أَلْفاً ، وَهَلَكَ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ وَأَئِمَّةِ الْمَسَاجِدِ
وَسَدَنَتِهَا وَمُؤَذِّنِيهَا عَالَمٌ ، وَدَخَلَ الْمُسْتَعِينُ قُرْطُبَةَ خِتَامَ
الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ ، وَلَحِقَ الْمَهْدِيُّ بِطُلَيْطُلَةَ ، وَأَسْتَجَاشَ بِابْنِ
أَذْفُونْشَ ثَانِيَةً فَنَهَضَ مَعَهُ إِلَى قُرْطُبَةَ وَهَزَمَ الْمُسْتَعِينَ وَالْبَرَابِرَةَ
بِعَقَبَةِ الْبَقَرِ[1] مِنْ ظَاهِرِ قُرْطُبَةَ[2] وَدَخَلَ قُرْطُبَةَ أَعْنِي الْمَهْدِيَّ

---

(١) موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلا منها (٢) قتل فى هذه الواقعة كثير ونحن خرجوا مع سليمان المستعين من أكابر الفقهاء والقراء والعلماء ولاسيما من أهل قرطبة. فممن استشهد منهم أبو محمد عبد الله بن عبد العزيز القرطبي قاضى ألبيرة ، وأبو عمر أحمد بن بريل أحد القراء المجودين والحفاظ الفضلاء ، ومنهم أبو الربيع سليمان بن هشام بن وليد بن كليب المقرى المعروف بابن الشهاز كان فى عصره أحفظ الناس وأعرفهم بالقراءات وأكثرهم ملازمة للاقراء ليلا ونهارا وأطيبهم بالذكر الحكيم صوتا وأعذبهم ترتيلا وتلاوة ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن فتد اللغوى كان من أهل البراعة والمعرفة والنفاذ فى الفقه والحديث متفننا فى ضروب العلم مليا بعلم الغريب وحفظ اللغة وكان من أصحاب المستعين وممن رفع ذكره وقرب مجلسه – ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بابن البريلى من أهل تطيلة وقاضيها وفد الى مصر سنة ٣٨١ وأخذ عن علمائها وكان موصوفا بالعلم والصلاح والعفة والشجاعة والجهاد بثغره وخرج مع محمد المهدى بن هشام لنصرته فقتل فى صدر شوال سنة ٤٠٠ – رحمه الله – « أحمد يوسف نجاتى »

وَمَلَكَهَا، وَخَرَجَ الْمُسْتَعِينُ مَعَ الْبَرْبَرِ وَتَفَرَّقُوا فِي الْبَسَائِطِ يَنْهَبُونَ وَلَا يُبْقُونَ عَلَى أَحَدٍ، ثُمَّ ارْتَحَلُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ، فَخَرَجَ الْمَهْدِيُّ وَمَعَهُ ابْنُ أَذْفُونْشَ لِإِتْبَاعِهِمْ فَكَرُّوا عَلَيْهِمْ، فَانْهَزَمَ الْمَهْدِيُّ وَابْنُ أَذْفُونْشَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى، وَأَتْبَعَهُمُ الْمُسْتَعِينُ إِلَى قُرْطُبَةَ

***

بيعة هشام وقتل المهدى

فَأَخْرَجَ الْمَهْدِيُّ هِشَامًا الْمُؤَيَّدَ لِلنَّاسِ وَبَايَعَ لَهُ وَقَامَ بِأَمْرِ حِجَابَتِهِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ وَهَيْهَاتَ، وَحَاصَرَهُمُ الْمُسْتَعِينُ وَالْبَرْبَرُ فَخَشِيَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ مِنَ اقْتِحَامِهِمْ عَلَيْهِمْ فَأَغْرَوْا أَهْلَ الْقَصْرِ وَحَاشِيَةَ الْمُؤَيَّدِ بِالْمَهْدِيِّ، وَأَنَّ الْفِتْنَةَ إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ قِبَلِهِ، وَتَوَلَّى كِبْرَ ذَلِكَ(١) وَاضِحٌ الْعَامِرِيُّ، فَقَتَلُوا الْمَهْدِيَّ(٢) وَاجْتَمَعَ الْكَافَّةُ عَلَى الْمُؤَيَّدِ

---

(١) الكبر: الاثم ومعظم الشيء، وبه فسر قوله تعالى: «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم» يعنى «معظم الافك» وقال قيس بن الخطيم:

تنام عن كبر شأنها فاذا قامت رويدا تكاد تنغرق

(٢) قتل يوم منى سنة ٤٠٠ وواضح العامرى هو واضح الصقلبى. وأم المهدى أم ولد اسمها مزنة وكان له ولد اسمه عبد الله انقرض فلم يكن للمهدى عقب، وكان مولده سنة ٣٦٦ وكان الحكم فى دولة المؤيد عنه قليه

***

فتنة واضح العامري

وَقَامَ وَاضِحٌ بِحِجَابَتِهِ وَٱسْتَمَرَّ ٱلْحِصَارُ وَلَمْ يُغْنِ عَنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ مَافَعَلُوهُ شَيْئًا إِلَى أَنْ هَلَكَتِ ٱلْقُرَى وَٱلْبَسَائِطُ بِقُرْطُبَةَ وَعُدِمَتِ ٱلْمَرَافِقُ وَجَهَدَهُمُ ٱلْحِصَارُ، وَبَعَثَ ٱلْمُسْتَعِينُ إِلَى أَهْلِ أَذْفُونْشَ يَسْتَمِدُّهُمْ لِمُظَاهَرَتِهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ هِشَامٌ وَحَاجِبُهُ وَاضِحٌ يَكُفُّونَهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَتْرُلُوا لَهُمْ عَنْ ثُغُورِ قَشْتَالَةَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْمَنْصُورُ ٱفْتَتَحَهَا، فَسَكَنَ عَنْ مُظَاهَرَتِهِمْ عَزْمُ أَذْفُونْشَ، وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرُ حَتَّى دَخَلَ ٱلْمُسْتَعِينُ قُرْطُبَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ عَنْوَةً سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَقَتَلَ

وفى سنة ٤٠١ بلغ المؤيد أن واضحا كتب الى سليمان المستعين يعرفه أنه يريد الانتقال عن قرطبة سرا ويشير عليه بمنازلته بعد مسيره عنها فقبض عليه وقتله وفتك بكل من يميل الى سليمان. ثم ان البربر وسليمان لازموا الحصار والقتال لأهل قرطبة وضيقوا عليهم حتى اشتد الخطب فيها وفى مدة هذا الحصار ظهر بطليطلة عبيد الله بن محمد بن عبد الجبار وبايعه أهلها فسير اليهم المؤيد جيشا فحصرهم فعادوا الى الطاعة وأخذ عبيد الله أسيرا وقتل فى شعبان سنة ٤٠١ — ثم ملك سليمان قرطبة وقلعة رباح التى اتخذها البربر دارا وأخرج المؤيد من القصر وحمل الى سليمان ودخل سليمان قرطبة فى منتصف شوال سنة ٤٠٣ وبويع له وخرج اليه أهل قرطبة يسلمون عليه فأنشد متمثلا:

اذا ما رأونى طالعا من ثنية   يقولون من هذا وقد عرفونى؟
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبا   ولو ظفروا بى ساعة قتلونى

هِشَامٌ سِرًّا ، وَلَحِقَ بُيُوتَاتِ قُرْطُبَةَ مَعَرَّةٌ(١) فِي نِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ، وَظَنَّ الْمُسْتَعِينُ أَنْ قَدِ اسْتَحْكَمَ أَمْرُهُ

***

استيلاء البرابرة والعبيد على الأعمال

وَتَوَثَّبَتِ الْبَرَابِرَةُ وَالْعَبِيدُ عَلَى الْأَعْمَالِ فَوَلَّوُا الْمُدُنَ الْعَظِيمَةَ ، وَتَقَلَّدُوا الْبِلَادَ الْوَاسِعَةَ مِثْلُ بَادِيسَ بْنِ حَبُّوسَ فِي غَرْنَاطَةَ ، وَالْبَرْزَالِيِّ فِي قَرْمُونَةَ ، وَالْيَفْرَنِيِّ فِي رُنْدَةَ ، وَخَزْرُونَ فِي شَرِيشَ ، وَافْتَرَقَ شَمْلُ الْجَمَاعَةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَصَارَ الْمُلْكُ طَوَائِفَ فِي آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ مِثْلُ ابْنِ عَبَّادٍ بِإِشْبِيلِيَةَ ، وَابْنِ الْأَفْطَسِ بِبَطَلْيَوْسَ ، وَابْنِ ذِي النُّونِ بِطُلَيْطُلَةَ ، وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ بِبَلَنْسِيَةَ ، وَابْنِ هُودٍ بِسَرَقُسْطَةَ ، وَمُجَاهِدٍ الْعَامِرِيِّ بِدَانِيَةَ وَالْجَزَائِرِ .

***

هجو ابن خلدون لسليمان المستعين

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ(٢) : وَكَانَ مَائِلًا لِبَنِي حَمُّودٍ يَهْجُو سُلَيْمَانَ الْمُسْتَعِينَ .

لَا رَحِمَ اللَّهُ سُلَيْمَانَكُمْ ... فَإِنَّهُ ضِدُّ سُلَيْمَانِ

(١) المعرة : الأمر القبيح الشديد والسبة والاهانة والأذى (٢) من وزراء بني عباد وهناك أيضا الأديب ذوالنون بن خلدون من هذا العصر

ذَاكَ بِهِ غُلَّتْ(١) شَيَاطِينُهَا ... وَحَلَّ هَذَا كُلُّ شَيْطَانِ
فَبِاسْمِهِ سَاحَتْ عَلَى أَرْضِنَا ... لِهُلْكِ سُكَّانٍ وَأَوْطَانِ

* * *

أسباب فساد دولة المستعين

« وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ » فِي فَسَادِ دَوْلَةِ الْمُسْتَعِينِ أَنَّهُ قَالَ هَـٰذِهِ الْأَبْيَاتَ مُسْتَرِيحًا بِهَا إِلَى خَوَاصِّهِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ :

حَلَفْتُ بِمَنْ صَلَّى وَصَامَ وَكَبَّرَا
لَأُغْمِدُهَا فِيمَنْ طَغَى وَتَجَبَّرَا
وَأَنْصُرَ دِينَ اللهِ تُحْيَا رُسُومُهُ(٢)
فَبُدِّلَ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُ وَغُيِّرَا
فَوَا عَجَبًا مِنْ عَبْشَمِيٍّ(٣) مُمَلَّكٍ
بِرَغْمِ الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي تَبَرْبَرَا
فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ
وَمَا كُنْتُمْ لِلسَّيْفِ حُكْمًا مُحَرَّرَا(٤)

---

(١) غلت: قيدت وسلسلت (٢) أى أحكامه ، من رسمه كذا اذا أمره به فارتسم أى امتثل (٣) نسبة الى عبد شمس جد بنى أمية (٤) من حرر الشئ اذا قومه وخلصه وضبطه

فإمَّا حيَاةٌ تُسْتَلذُّ بِفَقْدِهِمْ
وإمَّا حِمَامٌ لا تَرَى فِيهِ مَأْزَرَا(١)

وقَدْ سَلَكَ هٰذَا الْمَسْلَكَ الْمُرْتَضَى الْمَرْوانِيُّ فَقَالَ :

قَدْ بَلَغَ الْبَرْبَرُ فِينَا بِنَا ... مَا أَفْسَدَ الأَحْوَالَ وَالنُّظْمَا
كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلَا الَّذِي ... فِيهِ مِنَ الرِّيشِ لَمَا أَصْمَى(٢)
قُومُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمَةً ... تُزِيلُ عَنَّا الْعَارَ وَالرَّغْمَا(٣)
إِمَّا بِهَا نَمْلِكُ أَوْلَا نَرَى ... مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ بِهِ أَعْمَى(٤)

---

(١) أى ضعفاء أو أثما وعارا (٢) أصمى : أصاب وقتل ، وأصمى الصيد اذا رماه فقتله مكانه ، وأصمت القوس الرمية . أنفذتها : وراش السهم اذا ألزق عليه الريش وركبه عليه ومنه يقال : راش فلانا اذا قواه وأعانه على معاشه وأصلح حاله ونعمه كما يقوى الريش السهم ويجعله قاصدا صائبا وسريعا مستقيما وقال الشاعر :

مالقوى عن ضعيف غنى ... لابد للسهم من الريش

يريد للمستعين أنهم هم الذين قووا البربر وأرادوا أن يكونوا ناصرا وعاصبة على أعدائهم فكانوا هم الأعداء ، ونبالهم (٣) الرغم : الكره والذل (٤) أى رؤية ماتتألم منه نفوسهم وتقذى به عيونهم مما يكرهون ويرغمون عليه . هذا وقد كان سليمان المستعين أديبا شاعرا بليغا ، ولكن أريق فى أيامه دماء كثيرة ، وكان البربر هم الحاكمين فى دولته لايقدر على خلافهم لأنهم كانوا عامة جنده وهم الذين قاموا معه حتى ملكوه .

***

دولة بني حمود العلويين

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ* اَلْحَسَنِيُّ وَأَخُوهُ قَاسِمٌ(١) مِنْ

---

* ترجم له في كتاب الدروس التاريخية الخضرى « ج ١ ص١٠٦ » بما يأتى :

على بن حمود الحسنى الملقب بالناصر . كانت قرطبة قاعدة البلاد الكبرى وكانت مشهدا لفظائع متتالية فان الأمويين ضعفوا واستكانوا وكان اذ ذاك بسبتة رجل من العلويين مالكا لها اسمه على بن حمود الحسنى ولما رأى ضعف بنى أمية عبر البحر الى الأندلس وسار الى قرطبة فبايعه أهلها على طاعة هشام المؤيد إن ظهر خبره فأقام على ذلك مدة ، ولما لم يجدوا له أثرا دعا على بن حمود الناس الى بيعته فبايعوه ولقبوه بالناصر . وهو أول الدولة العلوية بالأندلس وكانت هذه الدولة أشبه بحلم النائم فانها لم تمكث كثيرا حتى لم يبق لها أثر وأخذت من أيديها الدولة الأموية فلم يبق بالأندلس أمر خلافة منتظم وتفرقت البلاد ووجد فيها مايسميه التاريخ « ملوك الطوائف » .

(١) على والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله ابن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، من أعقاب بنى ادريس الذين كان لهم دولة بالمغرب الاقصى من نحو سنة ١٧٠ حتى كان آخرهم الحسن بن القاسم بن محمد ابن القاسم بن ادريس الذى قتل بأمر المنصور بن أبى عامر سنة ٣٧٥ وبقتله ركدت ريح العلويين بالمغرب وتفرق جمعهم وانقرضت دولتهم
وتفرقت الأدارسة فى قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء الى أن خلعوا شارة ١
ذلك النسب الشريف واستحالت صبغتهم منه الى البداوة واستمرت الحال على ذلك الى أن أشرفت دولة بنى أمية بالأندلس على الانقراض وكان

عَقِبَ إِدْرِيسَ مَلِكِ فَارِسَ وَبَانِيهَا قَدْ أَجَازُوا مَعَ ٱلْبَرْبَرِ مِنَ ٱلْعُدْوَةِ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ فَدَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ وَٱعْصَوْصَبَ[١] عَلَيْهِمُ ٱلْبَرْبَرُ، فَمَلَكُوا قُرْطُبَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَقَتَلُوا ٱلْمُسْتَعِينَ، وَمَحَوْا مُلْكَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَٱتَّصَلَ ذَلِكَ فِي خَلَفٍ مِنْهُمْ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَجَعَ ٱلْمُلْكُ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ ،

⁂

معارضة المستعين لهارون الرشيد

وَكَانَ ٱلْمُسْتَعِينُ ٱلْمَذْكُورُ أَدِيبًا بَلِيغًا. وَمِنْ شِعْرِهِ يُعَارِضُ هَرُونَ ٱلرَّشِيدَ فِي قَوْلِهِ « مَلَكَ ٱلثَّلَاثُ ٱلْآنِسَاتُ عِنَانِي[٢] » ٱلْأَبْيَاتَ قَوْلُهُ :

بالأندلس هذان الرجلان على والقاسم ابنا حمود من آل ادريس دخلاها في جملة البربر الذين كانوا هناك وكانا من جملة جند سليمان المستعين. فطار لهما ذكر في الشجاعة والاقدام فقواهما على المغاربة وولى عليا سبتة وطنجة وهو أصغرهما وولى القاسم الجزيرة الخضراء، ثم ترقت بهما الأحوال الى أن كانت لهما خلافة بالأندلس ورثوها من يد الأمويين في خبر طويل « أحمد يوسف نجاتى » (١) اعصوصب القوم: اذا اجتمعوا وصاروا عصابة

(٢) الذى أراه أن هذه الأبيات المنسوبة الى أمير المؤمنين هرون الرشيد انما قالها على لسانه العباس بن الأحنف الشاعر الغزلي المشهور ، وهى :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... ونزلن من قلبي بكل مكان

مالى تطاوعنى البرية كلها ... وأطيعهن وهن فى عصيانى

ماذاك الا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطانى

عَجَبًا يَهَابُ ٱللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي
وَأَهَابُ لَحْظَ فَوَاتِرِ ٱلأَجْفَانِ(١)
وَأُقَارِعُ ٱلأَهْوَالَ(٢) لَا مُتَهَيِّبًا
مِنْهَا سِوَى ٱلإِعْرَاضِ وَٱلْهِجْرَانِ
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالدُّمَى(٣)
زُهْرُ ٱلْوُجُوهِ نَوَاعِمُ ٱلأَبْدَانِ
كَكَوَاكِبِ ٱلظَّلْمَاءِ لُحْنَ لِنَاظِرِي
مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَى كُثْبَانِ
حَاكَمْتُ فِيهِنَّ ٱلسُّلُوَّ إِلَى ٱلْهَوَى
فَقَضَى بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِي
هٰذِي ٱلْهِلَالُ وَتِلْكَ بِنْتُ ٱلْمُشْتَرِي
حُسْنًا وَهٰذِي أُخْتُ غُصْنِ ٱلْبَانِ

---

(١) فواتر الأجفان : ناعسات الأطراف فيها فتور وضعف مستحسن ، قابل بين حدة سنانه وفتور أجفانهن ، (٢) أقارع الأهوال : أغالب الشدائد وأجاهد الخطوب (٣) الدمى جمع : دمية : وهي الصورة من العاج ونحوه .

فَأَبَحْنَ مِنْ قَلْبِي ٱلْحِمَى وَتَرَكْنَنِي
فِي عِزِّ مُلْكِي كَالْأَسِيرِ ٱلْعَانِي
لَا تَعْذِلُوا مَلِكًا تَذَلَّلَ فِي ٱلْهَوَى
ذُلُّ ٱلْهَوَى عِزٌّ وَمُلْكٌ ثَانِ
مَا ضَرَّ أَنِّي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً
وَبَنُو ٱلزَّمَانِ وَهُنَّ مِنْ عُبْدَانِي
إِنْ لَمْ أُطِعْ فِيهِنَّ سُلْطَانَ ٱلْهَوَى
كَلَفًا بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ

***

ابن حمود الحسني «وَوَلِيَ» ٱلْأَمْرَ بَعْدَهُ ٱبْنُ حَمُّودٍ ٱلْحَسَنِيُّ[1] تَلَقَّبَ

(١) لما دخل البربر قرطبة مع سليمان وافترق العبيد ملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا بها فراسلهم على بن حمود من الغرب وقد حدث له طمع فى ولاية الأندلس وكتب اليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم اذ كان محاصرا بقرطبة كتب اليه يوليه عهده فاستجابوا له وبايعوه فزحف من سبتة الى مالقة وفيها عامر بن فتوح الفائقى مولى فائق مولى الحكم المستنصر فطاع له ودخل مالقة وتملكها وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف مع خيران الفتى وجماعة العبيد الى قرطبة فخرج اليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر فانهزم محمد بن سليمان ودخل على بن حمود قرطبة وقتل سليمان بن الحكم صبرا ضرب عنقه بيده فى المحرم سنة ٤٠٧

بِالنَّاصِرِ وَخَرَجَ عَلَيْهِ ٱلْعَبِيدُ وَبَعْضُ ٱلْمَغَارِبَةِ ، وَبَايَعُوا ٱلْمُرْتَضَى[١] أَخَا ٱلْمَهْدِيِّ ، ثُمَّ ٱغْتِيلَ[٢] ٱلْمُرْتَضَى ، وَٱسْتَقَامَ ٱلْمُلْكُ لِعَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ نَحْوَ عَامَيْنِ إِلَى أَنْ قَتَلَتْهُ صَقَالِبَتُهُ بِالْحَمَّامِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ

٭٭٭

القاسم بن حمود الملقب بالمأمون

فَوَلِّيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ ٱلْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ وَتَلَقَّبَ بِالْمَأْمُونِ وَنَازَعَهُ ٱلْأَمْرَ بَعْدَ أَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ خِلَافَتِهِ يَحْيَى ٱبْنُ أَخِيهِ «عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ» وَكَانَ عَلَى سَبْتَةَ فَأَجَازَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ سَنَةَ عَشْرٍ

---

(١) لما بويع علي بن حمود أظهر له الفتى خيران العامري الخلاف بعد أن كان يؤيد مودته لأسباب منها أن خيران كان طامعا أن يجد المؤيد الذي كان يميل الى دولته ويرغب فيها فلما لم يجده تغير ، ومنها أنه نقل اليه أن علي بن حمود يريد قتله فخرج عن قرطبة وأظهر الخلاف عليه وأرسل يسأل عن بني أمية فدل على عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وكان قد خرج من قرطبة مستخفيا ونزل بمدينة جيان وكان أصلح من بقي من بني أمية فبايعه خيران وغيره ولقبوه بالمرتضى – و بعد حوادث قتل المرتضى وعمره أربعون سنة وهو أصغر من أخيه هشام وسار أخوه هشام الى البونت وأقام بها الى أن خوطب بالخلافة « أحمد يوسف نجاتي »

(٢) اغتيل : قتل على غرة .

وَٱحْتَلَّ بِمَالَقَةَ وَكَانَ أَخُوهُ إِدْرِيسُ « بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ » بِهَا مُنْذُ عَهْدِ أَبِيهِمَا فَبَعَثَهُ إِلَى سَبْتَةَ ، ثُمَّ زَحَفَ يَحْيَى إِلَى قُرْطُبَةَ فَمَلَكَهَا سَنَةَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَتَلَقَّبَ ٱلْمُعْتَلِي وَفَرَّ عَمُّهُ ٱلْمَأْمُونُ « ٱلْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ » إِلَى إِشْبِيلِيَةَ ، وَبَايَعَ لَهُ ٱلْقَاضِي ٱبْنُ عَبَّادٍ(١) وَٱسْتَجَاشَ بِبَعْضِ ٱلْبَرَابِرَةِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمَلَكَهَا ، ثُمَّ لَحِقَ ٱلْمُعْتَلِي « يَحْيَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ » بِمَكَانِهِ مِنْ مَالَقَةَ وَتَغَلَّبَ عَلَى ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ، وَتَغَلَّبَ أَخُوهُ إِدْرِيسُ « بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ » عَلَى طَنْجَةَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْبَحْرِ ، وَكَانَ ٱلْمَأْمُونُ « ٱلْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ عَمُّ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ وَإِدْرِيسَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ »

(١) هو أبو القاسم « الظافر المؤيد بالله » محمد بن اسمعيل بن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمي من ولد النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة ، وهو جد المعتمد على الله محمد بن عباد ، وهو أول من نبغ من بني نعيم بن عطاف في بلاد الأندلس وتقدم باشبيلية الى أن ولي القضاء بها فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم فرمقته القلوب وتعلقت به النفوس ، وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول . توفي سنة ٤٣٣ . « أحمد يوسف نجاتي »

يَتَّخِذُهَا حِصْنًا لِنَفْسِهِ وَفِيهَا ذَخَائِرُهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ٱلْخَبَرُ ٱضْطَرَبَ وَثَارَ عَلَيْهِ أَهْلُ قُرْطُبَةَ وَنَقَضُوا طَاعَتَهُ وَخَرَجَ فَحَاصَرَهُمْ فَدَافَعُوهُ وَلَحِقَ بِإِشْبِيلِيَةَ فَمَنَعُوهُ ، وَكَانَ بِهَا ٱبْنُهُ فَأَخْرَجُوهُ إِلَيْهِ وَضَبَطُوا بَلَدَهُمْ ، وَٱسْتَبَدَّ ٱبْنُ عَبَّادٍ بِمُلْكِهَا ، وَلَحِقَ ٱلْمَأْمُونُ بِشَرِيشَ

***

بيعة يحيى الملقب المعتلي

وَرَجَعَ عَنْهُ ٱلْبَرْبَرُ إِلَى يَحْيَى * ٱلْمُعْتَلِي ٱبْنِ أَخِيهِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ فَبَايَعُوهُ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَزَحَفَ إِلَى عَمِّهِ ٱلْمَأْمُونِ ٱلْقَاسِمِ بْنِ حَمُّودٍ فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ أَسِيرًا وَعِنْدَ أَخِيهِ إِدْرِيسَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ بِمَالَقَةَ إِلَى أَنْ هَلَكَ بِمَحْبِسِهِ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَقِيلَ : إِنَّهُ خُنِقَ كَمَا سَيَأْتِي ، وَٱسْتَقَلَّ

---

* هو يحيى بن محمد بن ادريس بن ادريس الذى قام بأمر المغرب بعد وفاة أخيه على بن محمد بن ادريس سنة ٢٦٤ هجرية فهو يحيى بن على بن حمود وأخوه ادريس بن على بن حمود الذى زحف الى قرطبة سنة ٤١٢ هجرية وتلقب بالمعتلى والذى قطعت دعوته من قرطبة سنة ٤١٧ هجرية وقتل سنة ٤١٧ . انتهى .

ٱلْمُعْتَلِي يَحْيَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ بِٱلْأَمْرِ ، وَٱعْتَقَلَ ٱبْنَيْ عَمِّهِ ٱلْقَاسِمِ . « وَكَانَ ٱلْمُسْتَكْفِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ مِنَ ٱلْأُمَوِيِّينَ ٱسْتَوْلَى عَلَى قُرْطُبَةَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ عِنْدَ مَا أَخْرَجَ أَهْلُهَا ٱلْعَلَوِيَّةَ » ثُمَّ خَلَعَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ ٱلْمُسْتَكْفِيَ ٱلْأُمَوِيَّ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَصَارُوا إِلَى طَاعَةِ ٱلْمُعْتَلِي يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ حَمُّودٍ

* *

ابن عطاف وَٱسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمُ ٱبْنَ عَطَّافٍ[1] مِنْ قِبَلِهِ ، ثُمَّ نَقَضُوا سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَصَرَفُوا عَامِلَهُمْ ، وَبَايَعُوا ٱلْمُعْتَدَّ بِٱللهِ هِشَامَ بْنَ مُحَمَّدِ

---

(١) هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني من زعماء البربر أرسله المعتلي والياعلى أهل قرطبة ولم يحضر هو باختياره فبقي عبد الرحمن فيها الى شهر المحرم سنة ٤١٧ فسار اليه مجاهد وخيران العامريان فى جيش كثيف فلما دنوا من قرطبة ثار أهلها بعبد الرحمن فأخرجوه وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة ونجا الباقون، وأقام خيران ومجاهد بها نحو شهر ثم اختلفا فخاف كلاهما صاحبه فخرج خيران الى المرية وبقي بها حتى توفى سنة ٤١٨ . وصارت المرية بعده لصاحبه زهير العامرى

ٱلْأُمَوِيَّ أَخَا ٱلْمُرْتَضَى وَبَقِيَ ٱلْمُعْتَلِي بْنُ حَمُّودٍ يُرَدِّدُ لِحِصَارِهِمُ ٱلْعَسَاكِرَ إِلَىٰ أَنِ ٱتَّفَقَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَىٰ إِسْلَامِ ٱلْحُصُونِ وَٱلْمَدَائِنِ لَهُ ، فَعَلَا سُلْطَانُهُ وَٱشْتَدَّ أَمْرُهُ إِلَىٰ أَنْ هَلَكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ (١) ٱغْتَالَهُ أَصْحَابُهُ بِدَسِيسَةِ ٱبْنِ عَبَّادٍ ٱلثَّائِرِ بِإِشْبِيلِيَةَ (٢)

***

إدريس بن حمود فَٱسْتَدْعَى أَصْحَابُهُ أَخَاهُ إِدْرِيسَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ مِنْ سَبْتَةَ ، وَمَلَّكُوهُ وَلَقَّبُوهُ ٱلْمُتَأَيِّدَ ، وَبَايَعَتْهُ رُنْدَةُ وَأَعْمَالُهَا ، وَٱلْمَرِيَّةُ ، وَٱلْجَزِيرَةُ ٱلْخَضْرَاءُ ، وَبَعَثَ عَسَاكِرَهُ لِحَرْبِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبَّادٍ وَالِدِ ٱلْمُعْتَضِدِ بْنِ عَبَّادٍ ، فَجَاءُوهُ بِرَأْسِهِ

---

(١) فى الأصل سنة تسع وعشرين وهى محرفة عن « سبع » كما رجحناه

(٢) كان على بن حمود قد سار الى قرمونة وأقام بها محاصرا لاشبيلية طامعا فى أخذها فبلغه يوما أن خيلا لأهل اشبيلية قد أخرجها القاضى أبو القاسم ابن عباد الى نواحى قرمونة فركب اليهم ولقيهم وقد كمنوا له فلم يكن بأسرع من أن قتل فى المحرم سنة ٤٢٧ وخلف من الولد الحسن وادريس لأمى ولد وكان على بن حمود وقورا هينا لينا وأمه بربرية ، وتوفى عن اثنين وأربعين سنة . « أحمد يوسف نجاتى » .

بَعْدَ حُرُوبٍ (١) ، وَهَلَكَ لِيَوْمَيْنِ بَعْدَ ذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ .

***

بيعة يحيى بن إدريس بن علي ابن حمود ووفاته

وَبُويِعَ ٱبْنُهُ يَحْيَى بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ ، وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ، وَبُويِعَ حَسَنُ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ حَمُّودٍ ٱلْمُعْتَلِي ، وَفَرَّ يَحْيَى إِلَى حِصْنِ كَمَارِشَ (٢) ، فَهَلَكَ بِهَا سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ قَتَلَهُ نَجَا (٣)

(١) فى سنة ٤٣١ سير القاضى أبو القاسم بن عباد ولده اسمعيل فى عسكر ليتغلب على تلك البلاد فأخذ قرمونة وأشبونة واستجة ، فأرسل صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى الى ادريس بن على بن حمود والى باديس بن حبوس صاحب صنهاجة فأتاه صاحب صنهاجة بنفسه وأمده ادريس بعسكر يقوده ابن بقنة مدبر دولته فلم يجسروا على اسمعيل ابن عباد فعادوا عنه ، فسار اسمعيل مجدا ليأخذ على صنهاجة الطريق فأدركهم وقد فارقهم عسكر ادريس قبل ذلك بساعة فأرسلت صنهاجة من ردهم فعادوا وقاتلوا اسمعيل بن عباد فلم يلبث أصحابه أن انهزموا وأسلموه فقتل وحمل رأسه إلى ادريس وكان ادريس قد أيقن بالهلاك وانتقل عن مالقة الى جبل يحتمى به وهو مريض فلما أتاه الرأس عاش بعده يومين ومات وترك من الأولاد يحيى ومحمدا وحسنا المعروف بالسامى وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه على مات فى حياة أبيه وترك ابنا اسمه عبد الله أخرجه عمه ونفاه ولى (٢) حصن كارش أو قارش على ثمانية عشر ميلا من مالقة (٣) نجا : هو الخادم الصقلبي وكان هو وأبو جعفر أحمد بن أبى موسى المعروف بابن بقنة مديرى دولة العلويين

***

وَهَلَكَ حَسَنٌ مَسْمُومًا بِيَدِ ٱبْنَةِ عَمِّهِ إِدْرِيسَ بْنِ عَلِيٍّ ٱبْنِ حَمُّودٍ ثَأَرَتْ مِنْهُ بِأَخِيهَا(١) وهلاك حسن بن يحيى ابن علي بن حمود

***

وَكَانَ إِدْرِيسُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ ٱلْمُعْتَلِي مُعْتَقَلًا بِمَالَقَةَ فَأُخْرِجَ بَعْدَ خُطُوبٍ وَبُويِعَ بِهَا فَأَطَاعَتْهُ غَرْنَاطَةُ وَقَرْمُونَةُ ، وَلُقِّبَ ٱلْعَالِي ، وَهُـوَ ٱلْمَمْدُوحُ بِالْقَصِيدَةِ ٱلْمَشْهُورَةِ بِالْمَغْرِبِ ٱلَّتِي قَالَهَا فِيهِ أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ مَقَانَا ٱلْقَنْدَاقِيُّ ٱلْأَشْبُونِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلذَّخِيرَةِ وَهِيَ : إدريس بن يحيى الملقب العالي

أَلِبَرْقٍ لَائِحٍ مِنْ أَنْدَرِينْ(٢)
ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ بِالْمَاءِ ٱلْمَعِينْ(٣) ؟

(١) وكانت ابنة عمه هـذه زوجة له فيقال انها سمت زوجها حسنا الـامى أسفا على أخيها يحيى بن ادريس بن على بن حمود

(٢) أندرين اسم قرية كانت فى جنوبى حلب وإياها عنى عمرو بن كلثوم بقوله :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبق خمور الأندرينا

وفى هذه المعلقة يقول :

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبينا

(٣) ذرفت : سالت ، والمعين : الجارى الـكثير

لَعِبَتْ أَسْيَافُهُ عَارِيَةً
كَمَخَارِيقَ[1] بِأَيْدِى ٱللَّاعِبِينْ
وَلِصَوْتِ ٱلرَّعْدِ زَجْرٌ وَحَنِينْ
وَلِقَلْبِي زَفَرَاتٌ[2] وَأَنِينْ
وَأُنَاجِى فِى ٱلدُّجَى عَاذِلَتِي
وَيْكِ لَا أَسْمَعُ قَوْلَ ٱلْعَاذِلِينْ
عَيَّرَتْنِي بِسَقَامٍ وَضَنًى
إِنَّ هَـٰذَيْنِ لَدِينُ ٱلْعَاشِقِينْ
قَدْ بَدَا لِي وَضَحُ ٱلصُّبْحِ ٱلْمُبِينْ
فَٱسْقِنِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ ٱلْأَذِينْ[3]

---

(١) المخاريق جمع مخراق وهو السيف ، والمنديل أو نحوه يلف ليضرب به أو يفزع قال :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

(٢) «زفر يزفر كضرب» وزفيرا : أخرج نفسه بعد مده اياه (٣) الوضح : بياض الصبح « وقد يراد به مطلق الضوء والبياض من كل شيء » والأذين الأذان ، والمؤذن ، قال جرير :

هل تشهدون من الشاعر مشعرا أو تسمعون من الأذان أذينا

إِسْقِنِيهَا مُزَّةً مَشْمُولَةً

لَبِثَتْ فِي دَنِّهَا بِضْعَ سِنِينْ

تَتْرُ الْمَزْجُ عَلَى مَفْرِقِهَا

دُرَرًا عَامَتْ فَعَادَتْ كَالْبُرِين[1]

مَعَ فِتْيَانٍ كِرَامٍ نُجُبٍ

يَتَهَادَوْنَ رَيَاحِينَ الْمُجُون

فى الأصل « مرة » وأراها محرفة عن « مزة » وهى الخمر اللذيذة الطعم سميت بذلك للذعها اللسان وليست بالحامضة ، قال الأعشى :

نازعتهم قضب الريحان متكئا   وقهوة مزة راووقها خضل

وقال حسان :

كأن فاها قهوة مزة   حديثة العهد بفض الختام

والمزة « بضم الميم » الخمر التى فيها مزازة وهو طعم بين الحلاوة والحموضة قال عدى بن زيد :

مزة قبــل مزجها فاذاما   مزجت لذ طعمها من يذوق

(١) المفرق فى الأصل وسط الرأس وهو الذى يفرق فيه الشعر ، ومفرق الطريق الموضع الذى يتشعب منه طريق آخر — والبرين جمع برة وهى كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال ونحوها ، وحلقة فى أنف البعير ويقصد بأن الخمر لما مزجت نشأت فيها فقاعات بيض كالدر ثم طمت وانداحت فصارت حلقات مصوغة من هذه الدرر ، وهو خيال بديع

شَرِبُوا الرَّاحَ عَلَى خَدٍّ رَشَا
نَوَّرَ الْوَرْدُ بِهِ وَالْيَاسَمِينُ(١)

وَجَلَتْ آيَاتُهُ عَامِرَةً
سَبَجَ الشَّعْرِ عَلَى عَاجِ الْجَبِينْ(٢)

لَوَتِ الصُّدْغَ عَلَى حَاجِبِهِ
ضَمَّةَ اللَّامِ عَلَى عَطْفَةِ نُونْ(٣)

فَتَرَى غُصْنًا عَلَى دِعْصٍ نَقًا
وَتَرَى لَيْلًا عَلَى صُبْحٍ مُبِينْ(٤)

(١) الرشأ الظبي اذا قوى وتحرك ومشى مع أمه . وأراد بالورد الوجنة وبالياسمين سائر الخد الأبيض (٢) السبج خرز أسود وهو لفظ دخيل (٣) الصدغ : الشعر المتدلى على « الصدغين » من اطلاق اسم المحل على الحال شبهه باللام فى التوائه وأراد بالنون الحاجب ، وقد بالغ أنه يتولد من هذين الحرفين « لن » وان الشاعر ليود أن يجعلها فعل دعاء من لان يلين اذا رق قلبه وعطف ، أما المحبوب فكأنه يكتب بهما « لن » تراني أو « لن » أسمح لك بوصال
ومن التوليد البديع فى هذا المعنى قول بعض الأدباء :

كأن عذاره فى الخد لام ومبسمه الشهى الطعم صاد
وطرة شعره ليل بهيم فلا عجب اذا سرق الرقاد

وقال آخر :

أرى فى صدغك المعوج دالا ولكن نقطت من مسك خالك
فصارت دالك بالنقط ذالا وانى هالك من أجل ذلك

(٤) الدعص والدعصة الكثيب وقطعة من الرمل مستديرة والمجتمع قال:

وَسَيُسْقَوْنَ إِذَا مَا شَرِبُوا
بِأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينْ
وَمَصَابِيحُ ٱلدُّجَى قَدْ طُفِئَتْ
فِي بَقَايَا مِنْ سَوَادِ ٱللَّيْلِ جُونْ(١)
وَكَأَنَّ ٱلطَّلَّ مِسْكٌ فِي ٱلثَّرَى
وَكَأَنَّ ٱلطَّلَّ دُرٌّ فِي ٱلْغُصُونْ
وَٱلنَّدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسِهِ
كَدُمُوعٍ أَسْبَلَتْهُنَّ ٱلْجُفُونْ
وَٱلثُّرَيَّا قَدْ هَوَتْ مِنْ أُفْقِهَا
كَقَضِيبٍ زَاهِرٍ مِنْ يَاسَمِينْ(٢)

خلقت غير خلقة النسوان   ان قمت فالأعلى قضيب بان
وأن توليت فدعصتان   وكل إدّ تفصل العينان

والنقا من الرمل القطعة تنقاد محدودبة ، أو الكثيب منه المجتمع الأبيض الذى لاينبت شيئا « أراد بالنص القد » ودعص النقا : الردف ، وبالليل الشعر وبالصبح : الطرة وبالصبح الوجه أو الجبهة

فتأمل الطرة وجبين   ان فى الليل والنهار عجائب

(١) الجون الأسود « وهو من الأضداد فقد يطلق على الأبيض » أو الأسود المشرب حمرة ، وجمعه جون (٢) الياسمين معروف « معرب » وهو نوعان أبيض وأصفر فالأبيض مشرب حمرة «ولهذا شبه الخد به» والأصفر أعرض منه

وَأَنْبَرَى(١) جُنْحُ الدُّجَى عَنْ صُبْحِهِ
كَغُرَابٍ طَارَ عَنْ بَيْضٍ كَنِينٍ(٢)
وَكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ
فَانْثَنَتْ عَنْهَا عُيُونُ النَّاظِرِينْ
وَجْهُ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَلِـ
ـيٍّ بْنِ حَمُّودٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينْ
مَلِكٌ ذُو هَيْبَةٍ لَكِنَّهُ
خَاشِعٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينْ
خَطَّ بِالْمِسْكِ عَلَى أَبْوَابِهِ
« أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينْ »
فَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاتُهُ
خَفَقَتْ بَيْنَ جَنَاحَيْ جَبْرَئِينْ(٣)
وَإِذَا أَشْكَلَ خَطْبٌ مُعْضِلٌ
صَدَعَ الشَّكَّ بِمِصْبَاحِ الْيَقِينْ(٤)

---

(١) انبرى : انكشف وزال (٢) الكنين : المستور المكنون
(٣) لغة في جبريل من لغات كثيرة (٤) أى كشف وأظهر وأوضح

فَبُشْرَاهُ يَسَارُ الْمُسْيِرِينْ

وَيُمْنَاهُ لِوَاءُ السَّابِقِينْ

يَا بَنِي أَحْمَدَ يَا خَيْرَ الْوَرَى

لِأَبِيكُمْ كَانَ وَفْدُ الْمُسْلِمِينْ

نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ فَاحْتَبَى

فِي الدُّجَا فَوْقَهُمُ الرُّوحُ الْأَمِينْ[1]

خُلِقُوا مِنْ مَاءِ عَدْلٍ وَتُقًى

وَجَمِيعُ النَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَطِينْ

« أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »

إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينْ

من قوله تعالى : فاصدع بما تؤمر « فما قيل فيها » ان المعنى : أظهر ما تؤمر به ولا تخف أحداً . من الصديع : وهو الصبح ، أو من صدع الشيء : أظهره وقيل المعنى افصل بالأمر مستعار من صدع الأجسام أى شقها شبه الجهل « ومثله الشك » بظلمة الليل ، وشبه القرآن « ومثله اليقين » بالنور فصدع به تلك الظلمة كما يصدع الفجر ظلمة الليل .

(١) أو (فاحتبي) أى اختبأ وكأنه يشير الى معنى :

أنا لا أستطيع أمدح قوما كان جبريل خادما لأبيهم

قِيلَ : إِنَّهُ أَنْشَدَهُ إِيَّاهَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ اقْتِفَاءً لِطَرِيقَةِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ :

أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ　　إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينْ

أَمَرَ حَاجِبَهُ أَنْ يَرْفَعَ الْحِجَابَ، وَقَابَلَ وَجْهُهُ وَجْهَ الشَّاعِرِ دُونَ حِجَابٍ ، وَأَمَرَ لَهُ بِإِحْسَانٍ جَزِيلٍ ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَنْبَلِ مَا يُحْكَي عَنْهُ ، وَخُلِعَ الْعَالِي سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ

•••

محمد بن إدريس الملقب الموفق

وَوَلِيَ ابْنُ عَمِّهِ مُحَمَّدُ[1] بْنُ إِدْرِيسَ «بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ» وَلُقِّبَ الْمُوَفَّقَ، وَلَمْ يُخْطَبْ لَهُ بِالْخِلَافَةِ ، وَزَحَفَ الْعَالِي إِدْرِيسُ «ابْنُ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ» الْمَخْلُوعُ الْمَمْدُوحُ بِالْقَصِيدَةِ السَّابِقَةِ ، وَكَانَ بِقُمَارِشَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَالَقَةَ وَأَطْلَقَ أَيْدِيَ عَبِيدِهِ عَلَيْهَا بِحِقْدِهِ عَلَيْهِمْ فَفَرَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَتُوُفِّيَ «مُحَمَّدُ ابْنُ إِدْرِيسَ» الْعَالِي سَنَةَ سِتٍّ أَوْ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَبُويِعَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ وَلُقِّبَ الْمُسْتَعْلِي ، ثُمَّ صَارَ إِلَيْهِ بَادِيسُ

(١) ابن علي وتلقب بالمهدي وتوفي سنة أربع وأربعين ، وبويع ادريس ابن يحيى بن ادريس ولقب بالموفق .

أَبْنُ حَبُّوسَ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَتَغَلَّبَ عَلَى مَالَقَةَ وَسَارَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى إِلَى الْمَرِيَّةِ مَخْلُوعًا ، ثُمَّ أَسْتَدْعَاهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ إِلَى مَلِيلَةَ[١] وَبَايَعُوهُ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَتُوُفِّيَ سَنَةَ سِتِّينَ ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ حَمُّودٍ لَمَّا أُعْتُقِلَ أَبُوهُ الْقَاسِمُ بِمَالَقَةَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ فَرَّ مِنَ الِاعْتِقَالِ وَلَحِقَ بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَمَلَكَهَا وَتَلَقَّبَ بِالْمُعْتَصِمِ[٢] إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ . ثُمَّ مَلَكَهَا بَعْدَهُ أَبْنُهُ الْقَاسِمُ الْوَاثِقُ[٣] إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ خَمْسِينَ ، وَصَارَتِ الْجَزِيرَةُ لِلْمُعْتَضِدِ بْنِ عَبَّادٍ وَمَالَقَةُ لِابْنِ حَبُّوسَ مُزَاحِمًا لِابْنِ عَبَّادٍ ، وَأَنْقَرَضَتْ

---

(١) مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر ينسب إليها أبو جعفر أحمد بن الفتح المليلى وكان قاضيا بها وقدم على الناصر قرطبة سنة ٣٢٥ لما خشي من عساكر الشيعة فأجاره الناصر وسجل له على قضاء ناحيته . كان عظيم القدر جليلا حافظا للأخبار والآداب راويا ثقة وتوفى بمليلة سنة ٣٣٢ وبها ولد أبو سعيد خلف بن مسعود الجراوى الذى قتل بمالقة سنة ٤٠٠ حين ثورة الأندلس بالبرابرة عند قيام المهدى وقتل العامة البرابرة (٢) الذى فى ابن الأثير وغيره أنه تلقب بالمهدى أيضا (٣) لكنه لم يتسم بالخلافة ، وبقى محمد بن ادريس بمالقة حتى توفى سنة ٤٤٥ وكان ادريس بن يحيى العالى عند بنى يفرن بمدينة تاكرنة بالمغرب ــ فلما توفى محمد بن ادريس ردته العامة إلى مالقة واستولى عليها .

دَوْلَةُ ٱلْأَشْرَافِ ٱلْحَمُّودِيِّينَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَدَّعُونَ ٱلْخِلَافَةَ .

***

قرطبة في عصر بني حمود ورد الأمر فيها إلى بني أمية .

وَأَمَّا قُرْطُبَةُ فَإِنَّ أَهْلَهَا لَمَّا قَطَعُوا دَعْوَةَ ٱلْحَمُّودِيِّينَ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِمْ زَحَفَ إِلَيْهِمُ ٱلْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ فِي ٱلْبَرْبَرِ فَهَزَمَهُمْ أَهْلُ قُرْطُبَةَ ، ثُمَّ ٱجْتَمَعُوا وَٱتَّفَقُوا عَلَى رَدِّ ٱلْأَمْرِ لِبَنِي أُمَيَّةَ وَٱخْتَارُوا لِذَٰلِكَ

***

المستظهر بالله الأموي

عَبْدَ ٱلرَّحْمَٰنِ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ أَخَا ٱلْمَهْدِيِّ وَبَايَعُوهُ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَلَقَّبُوهُ ٱلْمُسْتَظْهِرَ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ (١) . وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ :

---

(١) وكان عمره حينئذ اثنين وعشرين سنة ، وكنيته أبو المطرف وأمه أم ولد ، وكان رحب الصدر رقيق الطبع أديبا خطيبا بليغا ولم يعقب ذرية ، وكان سليمان بن المرتضى قد مات قبل قتله بعشرة أيام

طَالَ عُمْرُ ٱللَّيْلِ عِنْدِي   مُذْ تَوَلَّيْتَ بِصَدِّي[1]

يَا غَزَالًا نَقَضَ ٱلْعَهْـــدَ وَلَمْ يُوفِ بِوَعْدِ

أَنَسِيتَ ٱلْعَهْدَ إِذْ بِتْـ   ـنَا عَلَى مَفْرَشِ وَرْدِ؟

وَٱجْتَمَعْنَا فِي وُشَاحٍ   وَٱنْتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ

وَنُجُومُ ٱللَّيْلِ تَحْكِي   ذَهَبًا فِي لَازَوَرْدِ

قَالَ ٱلْحِجَارِيُّ : لَوْ قَالَ لُؤْلُؤًا فِي لَازَوَرْدِ[2] لَكَانَ أَحْسَنَ تَشْبِيهًا ، وَأَنْشَدَ مُتَمَثِّلًا :

---

(١) فى الأصل (قد) محرفة — وقد صدق وأنصف من قال :

وما طال ليلى غير أنى سهرته   فبت على جمر الغضا أتقلب

(٢) حجر معروف يشبه به البنفسج لانه على لونه قال :

ولازوردية تزهى بزرقتها   بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها   أوائل النار فى أطراف كبريت

وانما آثر الحجارى اللؤلؤ على الذهب فى تشبيه نجوم الليل ليكون التشبيه أتم والوجه أظهر لاشراق اللؤلؤ ولمعانه بصفائه وبريقه ، وهو المستعمل فى مثل هذا التشبيه يشبهون النجوم بالدرر واللآلىء ، وأديم السماء صافى الزرقة باللازورد ، قال أبو طالب الرقى :

وكأن أجرام النجوم لوامعا   درر نثرن على بساط أزرق

آخر :

قد رصعت زهر النجوم سماءها   فكأنما هى لؤلؤ موضون

غيره .

كأن الثريا قبة من زبرجد   ترصع فيها لؤلؤ بجلال

آخر :

والثريا كالكأس يظهر فيها   حبب مثل لؤلؤ منثور

إِنَّا عِصَابَتُكَ ٱلْأُلَى   كُنَّا نُكَابِدُ مَا تُكَابِدْ
هَذَا أَوَانُ بُلُوغِكَ ٱلْـ   ـمَسْعَى وَٱنْجَازِ ٱلْمَوَاعِدْ

وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي عُبَيْدَةَ(١) مِنْ وُزَرَاءِ ٱلْمُسْتَظْهِرِ ، وَلَمَّا أَكْثَرَ ٱلْمُسْتَظْهِرُ دُونَهُ ٱلاسْتِبْدَادَ كَتَبَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

إِذَا غِبْتُ لَمْ أُحْضَرْ وَإِنْ جِئْتُ لَمْ أُسَلْ   فَسِيَّانِ مِنِّي مَشْهَدٌ وَمَغِيبُ

ولا بأس أيضا بتشبيه المستظهر فمثله مألوف ولاسيما لدى شعراء المغرب ومنه قول عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي من قصيدة بديعة :

اذا تبلج نجم فوق زرقته   حسبته فرسا دهماء فى بلق
أولاز وردا يجرى بقمته ذهب   فلاح فى شارق من ماء مشرق

وقال أبو بكر الخالدى « وان لم يكن من شعراء المغرب » :

وللمشترى وسط السماء تخاله   وسناه مثل الزئبق المترجرج
مسمار تبر أصفر ركبته   فى فص خاتم فضة فيروزج

(١) أبو عبدة حسان بن مالك بن أبى عبدة الوزير من أهل قرطبة ومن بيت وزارة ورياسة (و بنو أبى عبدة ينتمون الى قبيلة كلب وكانوا مع مروان يوم المرج) وكان الوزير حسان من الأئمة فى اللغة والأدب ومن أجلاء الأدباء وعلمائهم وله تأليف ممتع جامع بين رقيق الآداب والتاريخ والتراجم، وكان شاعرا رقيقا متصرفا فى فنون القول ، وكان ذا صلة بالمنصور بن أبى عامر واستوزره المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المسمى بالخلافة أيام الفتنة ، وتوفى سنة ٤١٦ . وفى الأصل (حسن) بدل حسان وهو تحريف « أحمد يوسف نجاتى » .

فَأَصْبَحْتُ تَيْمِيًّا وَمَا كُنْتُ قَبْلَهَا
لِتَيْمٍ وَلَـكِنَّ الشَّبِيهَ نَسِيبُ

يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ
وَلَا يُسْتَأْمَرُونَ وَهُمْ شُهُودُ

وَعَاتَبَهُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ :

إِذَا كَانَ مِثْلِي لَا يُجَازَى بِصَبْرِهِ
فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُجَازَى عَلَى الصَّبْرِ

وَكَمْ مَشْهَدٍ حَارَبْتُ فِيهِ عَدُوَّكُمْ
وَأَمَّلْتُ فِي حَرْبِي لَهُ رَاحَةَ الدَّهْرِ ؟

أَخُوضُ إِلَى أَعْدَائِكُمْ لُجَجَ الْوَغَى
وَأَسْرِي إِلَيْكُمْ حَيْثُ لَا أَحَدٌ يَسْرِي

وَقَدْ نَامَ عَنْهُمْ كُلُّ مُسْتَبْطِنٍ الْحَشَى
أَ كُولٍ إِلَى الْمُمْسَى نَئُومٍ إِلَى الظُّهْرِ

فَمَا بَالُ هَـٰذَا الْأَمْرِ أَصْبَحَ ضَائِعًا
وَأَنْتَ أَمِينُ اللهِ تَحْكُمُ فِي الْأَمْرِ ؟

وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِنْ كَلَامِ الْوَزِيرِ الْمَذْكُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ قَدْرِهِ ، وَهُنَاكَ نَذْكُرُ تَحْلِيَةَ الْفَتْحِ لَهُ

***

محمد بن عبد الرحمن الملقب المستكفي

ثُمَّ ثَارَ عَلَيْهِ لِشَهْرَيْنِ مِنْ خِلَافَتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ابْنِ عُبَيْدِ اللهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ ، فَاتَّبَعَهُ الْغَوْغَاءُ وَقَتَلَ بِالْمُسْتَظْهِرِ(١) وَتَلَقَّبَ بِالْمُسْتَكْفِي وَاسْتَقَلَّ بِأَمْرِ قُرْطُبَةَ ، وَهُوَ وَالِدُ الْأَدِيبَةِ الشَّهِيرَةِ وَلَّادَةَ . وَلَعَلَّنَا نُلِمُّ بِبَعْضِ أَخْبَارِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا بَعْدُ ، وَكَانَ أَبُوهُ(٢) عَبْدُ الرَّحْمٰنِ قَتَلَهُ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ لِسَعْيِهِ فِي

(١) في الأصل « أبو عبد الرحمن » وهو نقص يفسد المعنى والعبارة

(٢) وكان سبب قتله أنه أخذ جماعة من أعيان قرطبة فسجنهم ليلهم الى سليمان بن المرتضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وأخذ أموالهم فسعوا عليه من السجن وألبوا الناس فأجابهم صاحب الشرطة وغيره واجتمعوا وقصدوا السجن وأخرجوا من فيه ، وكان ممن وافقهم على ذلك أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن الأموي « كنية المستكفي » في جماعة كثيرة فظفروا بالمستظهر فقتلوه في ذي القعدة سنة ٤١٤ .

ٱلْخِلَافَةِ ، ثُمَّ بَعْدَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ بَيْعَةِ ٱلْمُسْتَكْفِي(١) رَجَعَ ٱلْأَمْرُ إِلَى ٱلْمُعْتَلِي يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَخَلَعَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ ٱلْمُسْتَكْفِي وَوَلَّى عَلَيْهِمُ ٱلْمُعْتَلِي مِنْ قِبَلِهِ ، وَفَرَّ ٱلْمُسْتَكْفِي إِلَى نَاحِيَةِ ٱلثَّغْرِ، وَمَاتَ فِي فَرِّهِ(٢) ، ثُمَّ بَدَا لِأَهْلِ قُرْطُبَةَ فَخَلَعُوا ٱلْمُعْتَلِي بْنَ حَمُّودٍ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ

***

هشام بن محمد أخو المرتضى

وَبَايَعَ ٱلْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ جَهْوَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَهْوَرٍ عَمِيدُ ٱلْجَمَاعَةِ وَكَبِيرُ قُرْطُبَةَ لِهِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ* أَخِي ٱلْمُرْتَضَى

---

(١) كان المستكفي هذا همه لابعدو بطنه وفرجه ، وليس له في سواهما هم ولافكير، وثار عليه أهل قرطبة في ربيع الأول سنة ٤١٦ فخلعوه وخرج عن قرطبة ومعه جماعة من أصحابه حتى صار الى أعمال مدينة سالم فضجر منه بعضهم « عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر » فكره التمادى معه فى سخفه فدس له السم فى الدسم فاستراح وأراح ، وكان عمره نحو خمسين سنة .

وانك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

« أحمد يوسف نجاتى » . (٢) أى مات فى أثناء هربه فى ربيع الآخر سنة ٤١٦ ولعلها محرفة عن (مفره) أى المكان الذى فر اليه

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب « ج ١ ص ٤١ » بما يأتى المعتمد بالله أو المعتد بالله أبو بكر هشام بن محمد بن عبدالملك بن الناصر

وَكَانَ بِالثَّغْرِ فِي لَارِدَةَ عِنْدَ ٱبْنِ هُودٍ[1] وَذَلِكَ سَنَةَ ثَمَانَ عَشْرَةَ، وَتَلَقَّبَ ٱلْمُعْتَدَّ بِٱللهِ، وَأَقَامَ مُتَرَدِّدًا فِي ٱلثَّغْرِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ، وَٱشْتَدَّتِ ٱلْفِتَنُ بَيْنَ رُؤَسَاءِ ٱلطَّوَائِفِ، وَٱتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَنْزِلَ دَارَ ٱلْخِلَافَةِ بِقُرْطُبَةَ، فَٱسْتَقْدَمَهُ ٱبْنُ جَهْوَرٍ وَٱلْجَمَاعَةُ، وَنَزَلَ آخِرَ سَنَةِ عِشْرِينَ وَأَقَامَ بِهَا يَسِيرًا، ثُمَّ خَلَعَهُ ٱلْجُنْدُ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ[2]، وَفَرَّ إِلَى لَارِدَةَ فَهَلَكَ بِهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ، وَٱنْقَطَعَتِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْأُمَوِيَّةُ مِنَ ٱلْأَرْضِ، وَٱنْتَثَرَ

الرواني في كتاب الجذوة : أن أهل قرطبة اتفقوا ـ بعد ذهاب الدولة الحمودية بعد طول مدة ـ عليه ، وكان مقيما بالبونت عند صاحبها محمد بن عبد الله بن القاسم ، فبايعوه في ربيع الأول سنة ثمان عشرة وأربعمائة ، فبقي متردداً في الثغور ثلاثة أعوام غير شهرين ، إلى أن سار إلى قرطبة ، ولم يبق إلا يسيرا حتى خلع ، وانقطعت الدولة الروانية من يومئذ في سنة عشرين وأربعمائة .

(١) كان مقيما بالبونت منذ قتل أخوه المرتضى وهو أسن من المرتضى ـ والبونت بلد وحصن بناحية بلنسية ومن عملها . وممن ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن سعيد بن عقال الفهري البونتي كان أديبا كاتبا شاعرا توفي سنة ٥٦٧ (٢) كان سبب خلعه أن وزيره أبا عاصم سعيدا القزاز لم يكن له قديم رياسة ، وكان يخالف الوزراء المتقدمين ويعيده لأخذ أموال التجار وغيرهم ، وكان يصل البربر ويحسن إليهم ويقربهم ، فنفر منه أهل قرطبة فنسبوا إليه من قبله ، فلما قتلوه استوحشوا من هشام فخلعوه بسببه .

سِيفُ الْخِلَافَةِ بِالْمَغْرِبِ ، وَقَامَ الطَّوَائِفُ بَعْدَ انْقِرَاضِ الْخَلَائِفِ ، وَانْتَزَى[1] الْأُمَرَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ مِنَ الْبَرْبَرِ وَالْعَرَبِ وَالْمَوَالِي بِالْجِهَاتِ وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا ، وَتَغَلَّبَ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ وَاسْتَقَلَّ أَخِيرًا بِأَمْرِهَا مِنْهُمْ مُلُوكٌ اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ وَعَظُمَ شَأْنُهُمْ ، وَلَاذُوا بِالْجِزَى[2] لِلطَّاغِيَةِ أَنْ يُظَاهِرَ عَلَيْهِمْ أَوْ يَبْتَزَّهُمْ[3] مُلْكَهُمْ ، وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ حَتَّى قَطَعَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرَ مَلِكُ الْعُدْوَةِ وَصَاحِبُ مَرَّاكُشَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ اللَّمْتُونِيُّ ، فَخَلَعَهُمْ وَأَخْلَى مِنْهُمُ الْأَرْضَ . فَمِنْ أَشْهَرِهِمْ : بَنُو عَبَّادٍ مُلُوكُ إِشْبِيلِيَةَ فِي غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ مِنْهُمُ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ الشَّهِيرُ الذِّكْرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ ، وَفِي الذَّخِيرَةِ وَالْقَلَائِدِ مِنْ أَخْبَارِهِ مَا هُوَ كَافٍ شَافٍ . وَمِنْهُمْ بَنُو جَهْوَرٍ ، كَانُوا بِقُرْطُبَةَ فِي صُورَةِ الْوِزَارَةِ[4] حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ

---

(١) أى وثب مسرعا، وانتزى الى أرض كذا فأخذها أى تسرع اليها (٢) جمع جزية (٣) يسلبهم ، والبز والابتزاز : أخذ الشيء والتغلب عليه بجفاء وقهر (٤) كان لبنى جهور وزارة بقرطبة أيام الدولة العامرية، ثم استبد أبو الحزم

وَأَخَذَ قُرْطُبَةَ وَجَعَلَ عَلَيْهَا وَلَدَهُ[1] ثُمَّ كَانَتْ لَهُ وَعَلَيْهِ حُرُوبٌ وَخُطُوبٌ . وَفَرَّقَ أَبْنَاءَهُ[2] عَلَى قَوَاعِدِ الْمُلْكِ وَأَنْزَلَهُمْ بِهَا ، وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، وَعَلَتْ يَدُهُ عَلَى مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ، مِثْلِ ابْنِ بَادِيسَ[3] بِغَرْنَاطَةَ ▪

جهور بن محمد بقرطبة سنة ٤٢٢ وتوفى سنة ٤٣٥ وقد تقدم ذكره، وولى مكانه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور فخطه أهل قرطبة سنة ٤٦١ وفوض التدبير الى ابنه عبد الملك فأساء السيرة فأخرجوه عن قرطبة وتوفى معتقلا سنة ٤٦٢ (١) ولى عليها ابنه الظافر بالله سراج الدولة وكان صغير السن شجاعا ، ثم قتل فى ثورة سنة ٤٦٧ فأقام المعتمد بها ابنه المأمون حتى أخذها جيش يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة سنة ٤٨٤

(٢) هم الرشيد والمأمون والراضى والظافر وكانوا جميعا علماء فضلاء وأدباء شعراء كأبيهم وجدهم (٣) فى بعض المراجع « حبوس » . وقد ملك غرناطة حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى ثم مات سنة ٤٢٩ فولى بعده باديس فلما توفى سنة ٤٦٧ ولى بعده ابن أخيه أبو محمد عبد الله ابن بلكين بن باديس ، وهو الذى صالح الأذفونش وظاهره على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وبعث اليه بمال واشتغل بتحصين بلده ، وفى ذلك يقول بعض شعراء عصره :

يبنى على نفسه سفاها ... كأنه دودة الحرير
دعوه يبنى فسوف يدرى ... اذا أتت قدرة القدير

واستولى المرابطون على ملكه سنة ٤٨٣ « أحمد يوسف نجاتى » .

وَٱبْنِ ٱلْأَفْطَسِ(١) بِبَطَلْيَوْسَ ، وَٱبْنِ صُمَادِحَ(٢) بِالْمَرِيَّةِ

(١) ملك بطليوس من غرب الأندلس عند الفتنة واحتيازها أبو محمد عبد الله بن مسلمة التجيبي واستبدبها سنة ٤٣١ ولما توفي قام من بعده ابنه المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبي المعروف بابن الأفطس وكان كثير الأدب جم المعرفة محبا لأهل العلم جماعة للكتب ذا خزانة عظيمة ولم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة بل كان أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، واستفحل ملكه وعظم شأنه وتوفي سنة ٤٦٠ وبعد وفاته ولي بعده ابنه المتوكل عمر بن محمد وقتل صبرا مع ولدين له عند تغلب ابن تاشفين على الأندلس سنة ٤٨٩ ورثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور ؟

« وابن الأفطس أصلهم من بربر مكناسة لكن ولد أبوه بالأندلس، ونشئوا بها وتخلقوا بأخلاق أهلها وانتسبوا الى تجيب فكانوا عربا في النشأة والطبع . وللملك المظفر التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشهور باسم الكتاب المظفرى كان في خمسين مجلدا » يشتمل على فنون وعلوم وأدب وتاريخ وكل شيء مفيد ممتع . وليت شعرى أين ذهبت به أيدى الضياع أو أى خزانة كتب غربية ظفرت بهذا الكنز الثمين مع ما ظفرت به؟؟ حتى أشرقت بضوئه شمس العلوم من المغرب » أحمد يوسف نجاتي » .

(٢) كان صمادح وابنه ممن من قواد الملك المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وكانا يتوليان حروبه مع مجاهد العامرى صاحب دانية ــ وكانت المرية قد أخذها خيران العامرى فلما توفى سنة ٤١٩ صارت المرية بعده لصاحبه زهير العامرى واتسع ملكه الى شاطبة الى ما يجاور عمل طليطلة وبقي كذلك حتى قتل سنة ٤٢٩ وصارت مملكته الى المنصور أبي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور

وَغَيْرِهِمْ ، فَكَانُوا يَخْطُبُونَ سِلْمَهُ ، وَيَتَغَلْغَلُونَ فِي مَرْضَاتِهِ ‌.

ابن أبي عامر فولى بعده ابنه محمد ، فلما توفى عبد العزيز ببلنسية أقام ابنه محمد بالمرية وهو بعيد ببلنسية ، فانتهز الفرصة فيها المأمون يحيى بن ذي النون وأخذها منه . وبقي بالمرية الى أن استولى عليها صهره ذو الوزارتين أبو الأحوص المعتصم معن بن صمادح التجيبي ، ودانت له لورقة و بياسة وجيان وغيرها الى أن توفى سنة ٤٤٣ وغزا للوالي العامريين بشاطبة فغلبهم بها وتسمى ذا الوزارتين . وولي بعده ابنه أبو يحيى محمد ابن معن وهو ابن أربع عشرة سنة فكفله عمه أبو عتبة ابن محمد الى أن توفى سنة ٤٤٦ فبقي أبو يحيى مستضعفا لصغره وأخذت منه بلاده البعيدة عنه ولم يبق له غير المرية وما يجاورها ، فلما كبر أخذ نفسه بالعلوم ومكارم الأخلاق فامتدت صيته وارتفع ذكره وعظم سلطانه والتحق بأكابر الملوك، ودام بها الى أن نازله جيش الملثمين فمرض في أثناء ذلك وتوفى في سنة ٤٨٤ هذا وأبو الأحوص هو معن بن محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي صهر عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ووزيره ، كان مرضي السيرة عدلا باسطا للحق حاقنا للدماء عفا نزيها ذا حظ جزيل من العلم . وقد روى عن أبيه أبي يحيى مختصره لغريب القرآن الواقع في تفسير ابن جرير الطبري الكبير ، ولكن شهوة الملك حملته على أن يخرج على صهره وولي نعمته عبد العزيز بن أبي عامر فقد خانه في الأمانة وغدر به وطرده عن الامارة واستقل بالمرية التي كان عبد العزيز قد استخلفه بها حتى قيل انه لم يبق أحد من ملوك الطوائف بالأندلس الا ذمه على هذه الفعلة ولكنه استتب له الأمر وتم . وانتقل ملكه بعد موته الى ولده المعتصم وتسمى بأسماء الخلفاء . وكان رحب الفناء، جزيل العطاء، حليما عن الدماء، طافت به الآمال، واتسع في مدحه المقال، وأعملت الى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن ابراهيم القيسي المعروف بابن الحداد، وله فيه

وَكُلُّهُمْ يُدَارُونَ ٱلطَّاغِيَةَ وَيَتَّقُونَهُ بِالْجِزَى إِلَى أَنْ ظَهَرَ يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ وَٱسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ فَتَعَلَّقَتْ آمَالُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِإِعَانَتِهِ ، وَضَايَقَهُمُ ٱلطَّاغِيَةُ فِي طَلَبِ ٱلْجِزْيَةِ

مدائح سنية. ومنهم أبو القاسم الأسعد بن بليطة من فحول شعراء الأندلسيين فقد مدحه بقصيدته الطائية المشهورة التي مطلعها :

برامة ريم زارني بعد ماشطا ... فقنصته في الحلم بالشط فاشتطا

رعى بكناس في الحشا عن الحشى ... ولم يرع النوار فيها ولا الخطا

وهي طويلة تبلغ تسعين بيتاً أحسن فيها ناظمها وأجاد مع وعورة مسالك رويها.

وأبو يحيى محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح السرقسطي كان واليا على مدينة وشقة ثم تخلى عنها لابن عمه منذر بن يحيى التجيبي حين عزه عليها، وكان مع رياسته من أهل الفضل والعلم والأدب وله اختصار في غريب القرآن استخرجه من تفسير الطبري ورواه عنه ابنه أبو الأحوص معن بن محمد أمير المرية توفي عطبا بالبحر الروي وكان قد ركبه من دانية يريد الحج في مركب تأنق في صنعته واستجاد عدته وآلته وتخير أعدل الأزمنة ومعه خلق كثير تشاحوا في صحبته وتنافسوا في السفر معه فعطب جميعهم سوى نفر منهم تخلصوا للأخبار عنهم، ومضى هو لم يغن عنه حزمه ولا قوته فكان اليم أقصى أثره وذلك سنة ٤١٩ بين جزيرة يابسة والأندلس . وجده محمد بن أحمد بن صمادح كان صاحب مدينة وشقة وأعمالها في أيام المؤيد هشام بن الحكم الأموي وكان صاحب رأي ودهاء ولسان وعارضة ، ولم يكن في أصحاب السيوف من يعدله في هذه الخلال في ذلك العصر . ومن نسل المعتصم أبو يحيى محمد بن عبيد الله بن المعتصم محمد بن معن، كان من ذوي العلم والأدب والرواية

***

قتل اليهودى وهزيمة النصارى

فَقَتَلَ ٱلْمُعْتَمِدُ(١) ٱلْيَهُودِيَّ ٱلَّذِى جَاءَ فِى طَلَبِ ٱلْجِزْيَةِ لِلطَّاغِيَةِ بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالَهَا أَسْفَهُ بِهَا ، ثُمَّ أَجَازَ ٱلْبَحْرَ صَرِيخًا إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ ، فَأَجَازَ مَعَهُ ٱلْبَحْرَ ، وَٱلْتَقَوْا مَعَ ٱلطَّاغِيَةِ فِى ٱلزَّلَّاقَةِ(٢) فَكَانَتِ ٱلْهَزِيمَةُ ٱلْمَشْهُورَةُ عَلَى ٱلنَّصَارَى

(١) أخر المعتمد بن عباد فى سنة من السنين الضريبة التى كان يدفعها للأذفونش عن وقتها ثم أرسلها اليه بعد، فغضب الأذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن فى التجنى حتى طلب أن تأتى زوجه الى الجامع الأعظم بقرطبة فتلد فيه اذ كانت حاملا، وكان بالجانب الغربى من الجامع موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد فأشار عليه أطباؤه و رؤساء دينه أن تسكن زوجه قرب ولادتها بمدينة الزهراء وأن تردد فى أثناء اقامتها الى ذلك الجامع حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة، وكان رسوله فى ذلك يهوديا وكان وزيرا للأذفونش فأبى ابن عباد ذلك فراجعه اليهودى وأغلظ له فى القول ولسعه بكلمة أسفته «وأى أثارت غضبه» فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس ذلك اليهودى فأسقط دماغه فى حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة ، ولما سكت عنه الغضب استفتى الفقهاء فى حكم مافعله باليهودى فأفتوه بالرخصة فيه لتعدى الرسول حكم حدود الرسالة وتجاوزه حد الأدب الى ما استوجب به القتل وليس له ذلك ، ثم كان بعد هذا ما تكفلت كتب التاريخ بشرحه و بسطه . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) الزلاقة مكان أفيح من الأرض بالقرب من بطليوس بينهما أربعة فراسخ ، و واقعة الزلاقة مشهورة انتصر فيها المسلمون نصرا مؤزرا واستحر القتل فى الفرنجة فلم يفلت منهم غير الأذفونش فى دون الثلاثين من أصحابه

وَنَصَرَ ٱللَّهُ تَعَالَى ٱلْإِسْلَامَ نَصْرًا لَا كِفَاءَ لَهُ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ : إِنَّهُ كَانَ عَدَدُ ٱلنَّصَارَى ثَلَثَمِائَةِ أَلْفٍ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ ، وَصَبَرَ فِيهَا ٱلْمُعْتَمِدُ صَبْرَ ٱلْكِرَامِ ، وَكَانَ قَدْ أَعْطَى يُوسُفَ بْنَ تَاشِفِينَ ٱلْجَزِيرَةَ ٱلْخَضْرَاءَ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلْجَوَازِ مَتَى شَاءَ(١).

***

الفقهاء ورفع الظلامات

ثُمَّ طَلَبَ ٱلْفُقَهَاءُ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ رَفْعَ ٱلْمُكُوسِ وَٱلظُّلَامَاتِ عَنْهُمْ ، فَتَقَدَّمَ بِذَلِكَ إِلَى مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ فَأَجَابُوهُ بِالِامْتِثَالِ ، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مِنْ بِلَادِهِمْ رَجَعُوا إِلَى حَالِهِمْ ، وَهُوَ خِلَالَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ

فلحق بأصحابه على أسوأ حال ، وغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاثه وسلبه ماملأ أيديهم خيرا — وكانت تلك الواقعه فى ١٥ رجب سنة ٤٧٩ وتوافق سنة ١٠٨٦ م والأذفونش المقصود هنا هو الفونس السادس .

(١) كان جيش يوسف بن تاشفين قد تأخر فى أثناء المعركة فاستحر القتل فى أصحاب ابن عباد وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف بعض جيشه وفيهم ابنه عبد الله وأثخن هو جراحات فى رأسه و بدنه، وتذكر فى تلك الحال الحرجة ابنا صغيرا يكنى أبا هاشم وكان قد تركه باشبيلية عليلا فقال :

أبا هاشم هشمتنى الشفار ... فلله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج ... فلم يثننى ذكره للفرار

عَسَاكِرَهُ لِلْجِهَادِ، ثُمَّ أَجَازَ إِلَيْهِمْ وَخَلَعَ جَمِيعَهُمْ وَنَازَلَتْ عَسَاكِرُهُ جَمِيعَ بِلَادِهِمْ

***

أسر المعتمد بن عباد

وَٱسْتَوْلَى عَلَى قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَةَ وَبَطَلْيَوْسَ وَغَرْنَاطَةَ وَغَيْرِهَا، وَصَارَ ٱلْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ كَبِيرُ مُلُوكِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي قَبْضَتِهِ أَسِيرًا بَعْدَ حُرُوبٍ، وَنَقَلَهُ إِلَى أَغْمَاتَ قُرْبَ مَرَّاكُشَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَٱعْتَقَلَهُ هُنَالِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ، وَسَنُلِمُّ بِمَا قَالَهُ ٱلْوَزِيرُ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِيهِ لَمَّا زَارَ قَبْرَهُ.

***

أخبار المعتمد

وَلِلْمُعْتَمِدِ هٰذَا أَخْبَارٌ مَأْثُورَةٌ خُصُوصًا مَعَ زَوْجَتِهِ أُمِّ أَوْلَادِهِ ٱلرُّمَيْكِيَّةِ (١) ٱلْمُلَقَّبَةِ بِاعْتِمَادٍ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا رَأَتْ ذَاتَ

(١) كانت سرية المعتمد اشتراها من رميك بن حجاج فنسبت اليه ، وكان قد اشتراها فى أيام أبيه المعتضد ، وأفرط فى الميل اليها وغلبت عليه وكانت ذات جمال فائق وأدب بارع حتى قيل انه لشدة ميله اليها تورط فى الخلاعة ولم يكن يعنى منذ شغفته حبا بأمور دينه حق العناية حتى زعم أهل اشبيلية أنه كان يجاهر لأجلها بالمعاصى و بتعطيل صلوات الجمع فكتبوا عليه بذلك عقودا رفعوها الى يوسف بن تاشفين كانت من أقوى أسباب تغيره عليه ، ومن اسمها اعتماد اختار لنفسه لقبا يناسبه وهو المعتمد وهى

يَوْمٍ بِإِشْبِيلِيَةَ نِسَاءَ الْبَادِيَةِ يَبِعْنَ اللَّبَنَ فِي الْقِرَبِ وَهُنَّ رَافِعَاتٌ عَنْ سُوقِهِنَّ فِي الطِّينِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَاسَيِّدِي أَشْتَهِي أَنْ أَفْعَلَ أَنَا وَجَوَارِيَّ مِثْلَ هٰؤُلَاءِ النِّسَاءِ، فَأَمَرَ الْمُعْتَمِدُ بِالْعَنْبَرِ وَالْمِسْكِ وَالْكَافُورِ وَمَاءِ الْوَرْدِ، وَصَيَّرَ الْجَمِيعَ طِينًا فِي الْقَصْرِ وَجَعَلَ لَهَا قِرَبًا وَحِبَالًا مِنْ إِبْرَيْسَمٍ، وَخَرَجَتْ هِيَ وَجَوَارِيهَا تَخُوضُ فِي ذٰلِكَ الطِّينِ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمَّا خُلِعَ وَكَانَتْ تَتَكَلَّمُ مَعَهُ مَرَّةً فَجَرَى بَيْنَهُمَا مَا يَجْرِي بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ قَالَتْ لَهُ وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا، فَقَالَ لَهَا: وَلَا يَوْمَ الطِّينِ؟ تَذْكِيرًا لَهَا بِهٰذَا الْيَوْمِ الَّذِي أَبَادَ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَالَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَاسْتَحْيَتْ وَسَكَتَتْ. وَوَلِيَ بَعْدَهُ غَيْرُ مَنْ تَقَدَّمَ بَنُو رَزِينٍ[1] أَصْحَابُ السَّهْلَةِ[2].

أم بنيه، وهي التي أغرت المعتمد على قتل وزيره أبي بكر محمد بن عمار سنة ٤٧٧ لكونه هجاها بشعر يقول فيه:

تخيرتها من بنات الهجان ... رميكية لاتساوي عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع ... لئيم التجارب عما وخالا

وقيل ان هذا الشعر ليس لابن عمار وانما نسبته اليه لكي توغر صدر المعتمد عليه — وتوفيت الرميكية بأغمات قبل المعتمد بأيام فلم ترقأ لمعليها عبرة ولا فارقته حسرة حتى قضى نحبه أسفا وحزنا رحمه الله تعالى — « أحمد يوسف نجاتي » (١) في بعض المراجع «ومن أعظم ملوك الطوائف غير من تقدم بنو رزين » الخ وهو أظهر وقد ملك السهلة عبود الخ.
(٢) ملك السهلة عبود بن رزين وأصله بربري ومولده بالأندلس، فلما

وَبَنُو ٱلْفِهْرِيِّ أَصْحَابُ ٱلْبُونْت(١) ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِمَا أَخِيرًا يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ .

***

بنو ذي النون

وَمِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بَنُو ذِي ٱلنُّونِ(٢) مُلُوكُ طُلَيْطُلَةَ مِنَ ٱلثَّغْرِ ٱلْجَوْفِيِّ، وَكَانَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ كَبِيرَةٌ وَبَلَغُوا فِي ٱلْبَذَخِ(٣) وَٱلتَّرَفِ إِلَى ٱلْغَايَةِ .

توفى ولى بعده ابنه عبد الملك وكان أديبا شاعرا، ثم ولى بعده ابنه عز الدولة ومنه ملكها الملثمون — وقال ابن خلدون : وكانت بالأندلس ثغور أخرى دون هذه لم يستول عليها ابن عباد، فمنها بلد السهلة استبد بها هذيل بن خلف بن رزين أول الفتنة الخامسة بدعوة هشام ويسمى مؤيد الدولة وهلك شهيدا سنة ٤٥٠ وملك بعده حسام الدولة عبد الملك ابن خلف، ولم يزل أميرا عليها الى أن ملكها المرابطون من يده عند تغلبهم على الأندلس (١) تغلب على البونت عبد الله بن قاسم الفهري ويسمى نظام الدولة، وهو الذي كان للمعتمد بن عباد عنده عند ماولاه الجماعة بقرطبة ومن عنده جاء اليها وتوفى سنة ٤٢١ فولى ابنه محمد يمين الدولة وكانت بينه وبين أبي الحسن الموفق مجاهد العامري حروب، وملك بعده ابنه أحمد عضد الدولة وتوفى سنة ٤٤٠ وملك بعده أخوه جناح الدولة الى أن خلعه المرابطون سنة ٤٨٥ (٢) جدهم اسمعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان ابن ذى النون أصله من قبائل هوارة، ورأس سلفه في الدولة المروانية . وتوفى الظافر سنة ٤٦٧ فولى بعده ابنه أبو الحسن المأمون يحيى، وقتل القادر يحيى بن اسمعيل بن المأمون يحيى بن ذى النون سنة ٤٨١ .

(٣) البذخ : الكبر والعلو وتطاول الرجل بكلامه وافتخاره، واستعمله المتأخرون بمعنى الاسراف والانغماس في الترف كما هنا

***

الاعتذار الذنوني

وَلَهُمُ ٱلْإِعْذَارُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلَّذِي يُقَالُ لَهُ ٱلْإِعْذَارُ ٱلذُّنُونِيُّ، وَبِهِ يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ بِمَثَابَةِ عُرْسِ بُورَانَ[1] عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ. وَٱلْمَأْمُونُ مِنْ بَنِي ذِي ٱلنُّونِ هُوَ صَاحِبُ ذٰلِكَ، وَهُوَ ٱلَّذِي عَظُمَ بَيْنَ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ سُلْطَانُهُ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلطَّاغِيَةِ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ، وَغَلَبَ عَلَى قُرْطُبَةَ وَمَلَكَهَا مِنْ يَدِ ٱبْنِ عَبَّادٍ ٱلْمُعْتَمِدِ وَقَتَلَ ٱبْنَهُ أَبَا عَمْرٍو، وَغَلَبَ أَيْضًا عَلَى بَلَنْسِيَةَ وَأَخَذَهَا مِنْ يَدِ بَنِي ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ، وَفِي أَيَّامِ حَافِدِ ٱلْمَأْمُونِ وَهُوَ ٱلْقَادِرُ ٱبْنُ ذِي ٱلنُّونِ كَانَ ٱلطَّاغِيَةُ ٱبْنُ أَذْفُونْشَ قَدِ ٱسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ

---

(١) هي بوران بنت الحسن بن سهل تزوجها للمأمون لمكان أبيها منه وعقد عليها واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح مالم يعهد مثله في عصر من الأعصار. وأنفق للمأمون كذلك نفقات باهظة وذلك سنة ٢١٠ وفرش للمأمون في عرشه حصير منسوج بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلىء كثيرة فلما رأى تساقط اللآلىء المختلفة على الحصير المنسوج بالذهب قال: قاتل الله أبانواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال في صفة الحبر والحباب الذي يعلوها عند المزاج:

كأن كبرى وصغرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وتوفى المأمون وهي في صحبته سنة ٢١٨ وبقيت بعده الى أن توفيت ببغداد سنة ٢٧١ عن ثمانين سنة. « أحمد يوسف نجاتي »

لَمَّا خَلَا ٱلْجَوُّ مِنْ مَكَانَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَخَفَّ مَا كَانَ عَلَى كَاهِلِهِ مِنْ أَثَرِ ٱلْعَرَبِ، فَٱكْتَسَحَ ٱلْبَسَائِطَ وَضَايَقَ ٱبْنَ ذِي ٱلنُّونِ حَتَّى أَخَذَ مِنْ يَدِهِ طُلَيْطُلَةَ، فَخَرَجَ لَهُ عَنْهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ كَمَا سَبَقَ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُظَاهِرَهُ عَلَى أَهْلِ بَلَنْسِيَةَ فَقَبِلَ شَرْطَهُ وَتَسَلَّمَهَا ٱلْفُونْشُ، ـ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ ـ وَمِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ ٱلْمَوَالِي ٱلْعَامِرِيُّونَ خَيْرَانُ وَزُهَيْرٌ وَأَشْبَاهُهُمَا، وَأَخْبَارُ ٱلْجَمِيعِ تَطُولُ.

***

بنو هود ملوك سرقسطة

وَمِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِٱلْأَنْدَلُسِ بَنُو هُودٍ[1] مُلُوكُ

(١) كان أبو أيوب سليمان بن أحمد بن محمد بن هود « الداخل الى الاندلس » بن عبد الله بن موسى بن سالم ونسبه الى الأزد الى سالم « وقيل ان هودا من ولد روح بن زنباع » مولى أبي حذيفة الجذامي من أهل نسبهم مستقلا بمدينة لاردة من أول الفتنة، ثم تغلب على المظفر يحيي بن المنذر بن يحيي بن مطرف بن عبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبي صاحب سرقسطة وقتله سنة ٤٣١ وملك سرقسطة والثغر الأعلى من أيديهم » وتحول اليها وتلقب بالمستعين وعظم ملكه، ثم ملك بلنسية ودانية وولى على لاردة ابنه أحمد المقتدر ومات المستعين سنة ٤٣٨ فولى بعده ابنه أحمد المقتدر وولى ابنه يوسف المظفر لاردة وتوفي المقتدر سنة ٤٧٤ فولى بعده ابنه يوسف المؤتمن وتوفي سنة ٤٧٨ فولى بعده

سَرَقُسْطَةَ وَمَا إِلَيْهَا ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ ٱلْمُقْتَدِرُ بِاللهِ وَٱبْنُهُ يُوسُفُ ٱلْمُؤْتَمَنُ ، وَكَانَ ٱلْمُؤْتَمَنُ قَائِمًا عَلَى ٱلْأُمُورِ ٱلرِّيَاضِيَّةِ ، وَلَهُ فِيهَا تَآلِيفُ وَمِنْهَا كِتَابُ ٱلِاسْتِهْلَالِ(١) وَٱلْمَنَاظِرِ ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ ٱلْمُسْتَعِينُ أَحْمَدُ سَنَةَ أَخْذِ طُلَيْطُلَةَ(٢) وَعَلَى يَدَيْهِ كَانَتْ وَقْعَةُ وَشْقَةَ(٣)

***

وَكَانَ زَحْفُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ فِي آلَافٍ لَا تُحْصَى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ لِيُدَافِعَ ٱلطَّاغِيَةَ عَنْ وَشْقَةَ ، وَكَانَ مُحَاصِرًا لَهَا، فَلَقِيَهُ ٱلطَّاغِيَةُ وَهَزَمَهُ ، وَهَلَكَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ نَحْوُ وقعة وشقة

ابنه أحمد المستعين ولم يزل أميرا بسرقسطة الى أن مات شهيدا سنة ٥٠٣ الخ ومن بنى هود أبو عامر بن المستعين بالله أبى جعفر أحمد بن أبى عمر المؤتمن يوسف بن المقتدر بالله أبى جعفر أحمد بن المستعين بالله أبى أيوب سليمان كان ذا عناية بسماع العلم وروايته مقبلا عليه (١) وقيل (الاستكمال)(٢) استولى عليها الافرنج من يد القادر بن ذى النون سنة ٤٧٨ (٣) بليدة من ثغور الأندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم من أشهرهم أبو الحزم خلف بن عيسى ابن سعيد الخير المعروف بابن أبى درهم المحدث توفى سنة ٤٢١ ومنهم أبو مروان عبد الملك بن سليمان بن عبد الملك بن سلمة بن محمد مولى بنى أمية المعروف بابن المقلى كان مقرئا محدثا أديبا لغويا توفى سنة ٥٤٠ وممن استشهد فى واقعة وشقة سنة ٤٨٩ أبو جعفر عبد الوهاب بن محمد ابن حكم الأنصارى المقرىء العالم الفاضل وهذه الواقعة كانت احدى الوقائع الفاجعات بالأندلس . ه أحمد يوسف نجاتى ■

عَشَرَةَ آلَافٍ ، وَهَلَكَ هُوَ شَهِيدًا سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِمِائَةٍ بِظَاهِرِ سَرَقُسْطَةَ فِى زَحْفِ ٱلطَّاغِيَـةِ إِلَيْهَا ، وَوَلِىَ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ عِمَادُ ٱلدَّوْلَةِ ، وَأَخْرَجَهُ ٱلطَّاغِيَةُ مِنْ سَرَقُسْطَةَ سَنَةَ ثِنْتَىْ عَشْرَةَ ، وَتَوَلَّى ٱبْنُهُ سَيْفُ ٱلدَّوْلَةِ وَبَالَغَ فِى ٱلنِّكَايَةِ بِالطَّاغِيَةِ ، ثُمَّ ٱتَّفَقَ مَعَهُ وَٱنْتَقَلَ بِحَشَمِهِ إِلَى طُلَيْطُلَةَ فَكَانَ فِيهَا حِمَامُهُ . وَمِنْ شِعْرِ ٱلْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودٍ قَوْلُهُ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ فِى مَبَانِيهِ :

قَصْرَ ٱلسُّرُورِ وَمَجْلِسَ ٱلذَّهَبِ(١)
بِكُمَا بَلَغْتُ نِهَايَةَ ٱلْأَرَبِ
لَوْ لَمْ يَحُزْ مُلْكِى خِلَافَكُمَا
كَانَتْ لَدَىَّ كِفَايَةُ ٱلطَّلَبِ

⁂

ملوك بنى الأفطس — وَمِنْ مَشَاهِيرِ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بَنُو ٱلْأَفْطَسِ أَصْحَابُ بَطَلْيَوْسَ وَمَا إِلَيْهَا ، وَٱلْمُظَفَّرُ مِنْهُمْ هُوَ صَاحِبُ ٱلتَّأْلِيفِ ٱلْمُسَمَّى

---

(١) كان هذان القصران يعدان من متنزهات مدينة سرقسطة التى كانت قاعدة الثغر الأعلى قد أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء والتفت عليها أربعة أنهار فأضحت بها مرصعة مجزعة . « أحمد يوسف نجاتى »

بِالْمُظَفَّرِيِّ فِي نَحْوِ الْخَمْسِينَ مُجَلَّدًا ، وَالْتَوَى كُلٌّ مِنْهُمْ قُتِلَ عَلَى يَدِ جَيْشِ يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ ، وَفِيهِ قَالَ ٱبْنُ عَبْدُونَ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ ٱلْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
فَمَا ٱلْبُكَاءُ عَلَى ٱلْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ ؟

وَهِيَ مِنْ غُرَرِ ٱلْقَصَائِدِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ فَلَمَّا ٱسْتَوْلَى مُلُوكُ لَمْتُونَةَ عَلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَأَزَالُوا مُلُوكَ ٱلطَّوَائِفِ مِنْهَا ، وَبَقِيَتْ عُمَّالُهُمْ تَتَرَدَّدُ إِلَيْهَا وَبَنُوهُمْ حَتَّى فَشِلَتْ[1] رِيحُهُمْ ، وَهَبَّتْ رِيحُ ٱلْمُوَحِّدِينَ أَعْنِي عَبْدَ ٱلْمُؤْمِنِ ٱبْنَ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ ، فَحَارَبُوا لَمْتُونَةَ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى مُلْكِهِمْ بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ ، ثُمَّ جَازُوا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ وَمَلَكُوا أَكْثَرَ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَمَلَكَ[2] بَنُو مَرْدَنِيشَ شَرْقَ ٱلْأَنْدَلُسِ .

---

(١) فشلت ريحهم : كناية عن قرب زوال ملكهم . (٢) في سنة ٥٦٦ رحل أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب وفي صحبته مائة ألف فارس من المغرب والموحدين الى الأندلس « بعد أن تمهدت له الأمور بالمغرب واستقرت قواعد مملكته » فنزل باشبيلية فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعد الجذامي المعروف بابن مردنيش صاحب شرق الأندلس : مرسية وما انضاف اليها ، وحمل على قلبه فمرض مرضا شديدا ومات في شهر رجب سنة ٥٦٧ باشبيلية ، وكان

(٥ — نفح الطيب — رابع)

قيام دولة للموحدين بالأندلس

وَمُلَخَّصُ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْأَنْدَلُسَ كَانَ مُلْكُهَا مَجْمُوعًا لِلَمْتُونَةَ بَعْدَ خَلْعِهِمْ مُلُوكَ ٱلطَّوَائِفِ ، فَلَمَّا ٱشْتَغَلَ لَمْتُونَةُ فِي ٱلْعُدْوَةِ بِحَرْبِ ٱلْمُوَحِّدِينَ ٱضْطَرَبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْدَلُسُ وَعَادَتْ إِلَى ٱلْفُرْقَةِ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ ، ثُمَّ خَلَصَ أَكْثَرُهَا لِعَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَبَنِيهِ بَعْدَ حُرُوبٍ ، وَمِنْهَا مَا حَصَلَ بَيْنَ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ ٱبْنِ مَرْدَنِيش(١) وَقَائِدِهِ ٱبْنِ

مولده سنة ٥١٨ه ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده أو اخوته الى الأمير يوسف بن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا اليه جميع بلاد شرق الأندلس فأحسن اليهم الأمير يوسف وتزوج أختهم وأصبحوا عنده في أعز مكان.

وكان ابن مردنيش أديبا فاضلا (١) لما شغل لمتونة بحرب الموحدين سنة ٥٣٧ه بايع أهل بلنسية للأمير أبي محمد عبد الله بن سعد بن مردنيش الجذامي وأقام مجاهدا الى أن استشهد سنة ٥٤٠ في بعض أيامه مع النصارى ، ثم بويع لابن أخيه محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش وملك شاطبة ومدينة شقر ومرسية، وكان ابراهيم بن همشك صهره من قواده فعاث في أقطار الأندلس وبقي ابن همشك تحت طاعة محمد بن مردنيش — وكان قد استخلفه على مرسية — الى أن قام عليه بعد سنة ٥٦٠ ثم استخلص البلاد من أيديهم عبد المؤمن بن علي بعد حروب شديدة الخ — وفي سنة ٥٧٥ عقد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن لقائم بن محمد بن مردنيش على أسطوله وأغزاه مدينة أشبونة فغنم ورجع ظافرا وكان بنو مردنيش ذوي عصبية وأولي قوة وأولي بأس شديد. ■ أحمد يوسف نجاتي ■

هَمُشْكَ(١) بِفَحْصِ غَرْنَاطَةَ ، وَقَدِ اسْتَعَانَ ابْنُ مَرْدَنِيشَ بِالنَّصَارَى عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَهَزَمَهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَقَتَلَهُمْ أَبْرَحَ قِتْلَةٍ ، وَاسْتَخْلَصَ غَرْنَاطَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنْ يَدِ ابْنِ مَرْدَنِيشَ . وَوَلِيَ الْأَمْرَ بَعْدَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ابْنُهُ يُوسُفُ ، وَأَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَكَانَتْ لَهُ مَوَاقِفُ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ . وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ الطَّائِرُ الصِّيتِ ، وَكَانَتْ لَهُ فِي النَّصَارَى بِالْأَنْدَلُسِ نِكَايَةٌ كَبِيرَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِهَا غَزْوَةُ الْأَرْكِ(٢) الَّتِي تُضَاهِي وَقْعَةَ الزَّلَّاقَةِ أَوْ تَزِيدُ . وَالْأَرْكُ مَوْضِعٌ بِنَوَاحِي بَطَلْيَوْسَ وَكَانَتْ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَغَنِمَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ مَا عَظُمَ

(١) ابراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك وهى الأصل ، ومفرج أو همشك نصرانى أسلم على يد أحد ملوك بنى هود بسرقسطة ثم اتصل بابن الأحمر بقرطبة ويحيى بن غانية ، ومازال يترقى حتى صاهره محمد بن مردنيش على ابنته فاتصلت له الرياسة والامارة ، ثم كان من ثوار الأندلس ذوى الشوكة الحادة والبأس الشديد حتى قال ابن صفوان :

وديار شكوى الزمان فشتك حدثتنا عن عزة ابن همشك

وتقلبت به الأحوال حتى هلك بمدينة مكناسة بالمغرب حوالى سنة ٥٧٥

(٢) مكان بالقرب من قلعة رباح الى الغرب منها وشمال قرطبة Alarcos

قَدْرُهُ ، وَكَانَ عِدَّةُ مَنْ قُتِلَ مِنَ ٱلْفِرَنْجِ فِيمَا قِيلَ مِائَةَ أَلْفٍ وَسِتَّةً وَأَرْبَعِينَ[١] أَلْفًا ، وَعِدَّةُ ٱلْأَسَارَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، وَعِدَّةُ ٱلْخِيَامِ مِائَةَ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفَ خَيْمَةٍ ، وَٱلْخَيْلِ ثَمَانِينَ أَلْفًا ، وَٱلْبِغَالِ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَٱلْحَمِيرِ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ - جَاءَ بِهَا ٱلْكُفَّارُ تَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا إِبِلَ لَهُمْ - وَأَمَّا ٱلْجَوَاهِرُ وَٱلْأَمْوَالُ فَلَا تُحْصَى ، وَبِيعَ ٱلْأَسِيرُ بِدِرْهَمٍ ، وَٱلسَّيْفُ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ وَٱلْفَرَسُ بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ ، وَٱلْحِمَارُ بِدِرْهَمٍ ، وَقَسَّمَ يَعْقُوبُ ٱلْغَنَائِمَ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِمُقْتَضَى ٱلشَّرْعِ ، وَنَجَا ٱلْفُنْشُ مَلِكُ ٱلنَّصَارَى إِلَى طُلَيْطُلَةَ فِي أَسْوَإِ حَالٍ[٢] ، فَحَلَقَ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ ، وَنَكَّسَ صَلِيبَهُ ، وَآلَى أَلَّا يَنَامَ عَلَى فِرَاشٍ ، وَلَا يَقْرَبَ ٱلنِّسَاءَ ، وَلَا يَرْكَبَ فَرَسًا وَلَا دَابَّةً حَتَّى يَأْخُذَ بِالثَّأْرِ ، وَصَارَ يَجْمَعُ مِنَ ٱلْجَزَائِرِ وَٱلْبِلَادِ ٱلْبَعِيدَةِ وَيَسْتَعِدُّ

***

موازنة بين حكم المسلمين وحكم الفرنج

ثُمَّ لَقِيَهُ يَعْقُوبُ وَهَزَمَهُ ، وَسَاقَ خَلْفَهُ إِلَى طُلَيْطُلَةَ وَحَاصَرَهُ وَرَمَى عَلَيْهَا بِالْمَجَانِيقِ وَضَيَّقَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَتْحُهَا ، فَخَرَجَتْ

---

(١) فى بعض النسخ : وستة وخمسين ألفا . (٢) فر منهزما بعد أن عاين الحمام ونجا برأس طمرة ولجام ، وقنع من الغنيمة بالاياب «أحمد يوسف نجاتى»

إِلَيْهِ وَالِدَةُ ٱلْأَذْفُونْشِ وَبَنَاتُهُ وَنِسَاؤُهُ ، وَبَكَيْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَأَلْنَهُ إِبْقَاءَ ٱلْبَلَدِ عَلَيْهِنَّ ، فَرَقَّ لَهُنَّ وَمَنَّ عَلَيْهِنَّ بِهَا ، وَوَهَبَ لَهُنَّ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْجَوَاهِرِ مَا جَلَّ ، وَرَدَّهُنَّ مُكَرَّمَاتٍ ، وَعَفَا بَعْدَ ٱلْقُدْرَةِ[1] ، وَعَادَ إِلَى قُرْطُبَةَ فَأَقَامَ شَهْرًا يُقَسِّمُ ٱلْغَنَائِمَ ، وَجَاءَتْهُ رُسُلُ ٱلْفُنْشِ بِطَلَبِ ٱلصُّلْحِ فَصَالَحَهُ ، وَأَمِنَ ٱلنَّاسُ مُدَّتَهُ ، وَفِيهِ يَقُولُ بَعْضُ شُعَرَاءِ عَصْرِهِ[2] :

أَهْلٌ بِأَنْ يُسْعَى إِلَيْـهِ وَيُرْتَجَى
وَيُزَارَ مِنْ أَقْصَى ٱلْبِلَادِ عَلَى ٱلرَّجَا
مَنْ قَدْ غَدَا بِٱلْمَكْرُمَاتِ مُقَلَّدًا
وَمُوَشَّحًا وَمُخَتَّمًا وَمُتَوَّجَا

(١) شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا وكان ذلك سنة ٥٩٣ فلم يبق للفرنجة بعد ذلك قدرة على لقائه وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأرسلوا اليه يلتمسون منه الصلح فأجابهم الى ذلك لما بلغه من أخبار على بن اسحق بن محمد بن على بن غانية المستولى اللثم « وأنه قد خرج عليه من جزيرة ميورقة وعاث فى بلاد افريقية » وتوفى الملك المنصور سنة ٥٩٥ وكان مولده سنة ٥٥٤ (٢) مدح بهذا الشعر حين طلب منه الفونس الصلح فأجابه اليه . « أحمد يوسف نجاتى »

عَمَرَتْ مَقَامَاتُ ٱلْمُلُوكِ بِذِكْرِهِ
وَتَعَطَّرَتْ مِنْـهُ ٱلرِّيَاحُ تَأَرُّجَا

***

ما دار بين يعقوب وصلاح الدين الأيوبي

وَلَمَّا أَرْسَلَ لَهُ ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ بْنُ أَيُّوبَ شَمْسَ ٱلدِّينِ بْنَ مُنْقِذٍ (١) يَسْتَنْجِدُ بِهِ عَلَى ٱلْفِرَنْجِ ٱلْخَارِجِينَ عَلَيْهِ بِسَاحِلِ ٱلْبِلَادِ ٱلْمُقَدَّسَةِ وَلَمْ يُخَاطِبْهُ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَمْ يُجِبْـهُ إِلَى مَا طَلَبَهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ سَـنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَمَدَحَهُ ٱبْنُ مُنْقِذٍ بِقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ :

سَأَشْـكُرُ بَحْرًا ذَا عُبَابٍ (٢) قَطَعْتُهُ
إِلَى بَحْرِ جُودٍ مَا لِأُخْرَاهُ سَاحِلُ

(١) هو شمس الدولة أبو الحرث عبد الرحمن بن نجم الدولة أبى عبد الله محمد بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى ، وكان عمه أسامة بن مرشد الملقب مؤيد الدولة مجد الدين من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وكان يسكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم فانتقل الى مصر مكرمة الضيوف وملجأ كل مظلوم ملهوف فبقى بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم الى أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد الى الشام وسكن دمشق وتوفى بها سنة ٥٨٤ وتوفى والده أبو أسامة مرشد سنة ٥٣١ — أما أبو الحرث رسول الملك صلاح الدين فتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ومولده فى شيزر سنة ٥٢٣ وكان أديبا له نظم ونثر جيدان « أحمد يوسف نجاتى » (٢) عباب : موج متلاطم

إِلَى مَعْدِنِ ٱلتَّقْوَى إِلَى كَعْبَةِ ٱلنَّدَى
إِلَى مَنْ سَمَتْ بِالذِّكْرِ مِنْهُ ٱلْأَوَائِلُ

إِلَيْكَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تَزَلْ
إِلَى بَابِكَ ٱلْمَأْمُولِ تُزْجَى ٱلرَّوَاحِلُ(١)

قَطَعْتُ إِلَيْكَ ٱلْبَرَّ وَٱلْبَحْرَ مُؤْمِنًا
بِأَنَّ نَدَاكَ ٱلْغَمْرَ بِالنُّجْحِ كَافِلُ

وَحُزْتُ بِقَصْدِيكَ ٱلْعُلَا فَبَلَغْتُهَا
وَأَدْنَى عَطَايَاكَ ٱلْعُلَا وَٱلْفَوَاضِلُ

فَلَا زِلْتَ لِلْعَلْيَاءِ وَٱلْجُودِ بَانِيًا
تُبَلِّغُكَ ٱلْآمَالُ مَا أَنْتَ آمِلُ

وَعِدَّتُهَا أَرْبَعُونَ بَيْتًا، فَأَعْطَاهُ بِكُلِّ بَيْتٍ أَلْفًا وَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا أَعْطَيْنَاكَ لِفَضْلِكَ وَلِبَيْتِكَ. وَكَانَ عُنْوَانُ ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَرْسَلَهُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ «إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُسْلِمِينَ» وَفِي أَوَّلِهِ

(١) تزجى: تساق، والرواحل جمع راحلة، وهي ما يرحل عليه من الابل، يريد أنه مقصد الطالبين واليه تضرب أكباد الابل، والى بابه يقصد العافون والراجون

ٱلْفَقِيرُ إِلَى ٱللَّهِ تَعَالَى يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ ، وَنَعُدُّهُ مِنْ إِنْشَاءِ ٱلْفَاضِلِ (١) : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي ٱسْتَعْمَلَ عَلَى ٱلْمِلَّةِ ٱلْحَنِيفِيَّةِ (٢) مَنِ ٱسْتَعْمَرَ ٱلْأَرْضَ (٣) ، وَأَغْنَى مِنْ أَهْلِهَا مَنْ سَأَلَهُ ٱلْقَرْضَ (٤) ، وَأَجْرَى مَنْ أَجْرَى (٥) عَلَى يَدِهِ ٱلنَّافِلَةَ

---

(١) هو القاضي الفاضل مجير الدين أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي البيساني العسقلاني المولد المصري الدار ، كان صاحب دواوين الانشاء ووزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن وبرز في صناعة الانشاء وله فيه غرائب ، وهو صاحب الطريقة الفاضلية في الكتابة وهو من الشهرة بحيث لا يخفى ، ولد بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ ، وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان فلهذا نسبوا اليها » وتوفي بالقاهرة سنة ٥٩٦ ودفن هو والشاطبي في قبر واحد بالقرافة (٢) يريد ملة الاسلام وفي الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة » : السهلة والحنيف هو المائل الى الاستقامة ، والمستقيم . قال الشاعر

تعلم أن سيهديكم الينا طريق لا يجور بكم حنيف

(٣) يشير الى قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » وقوله تعالى : « ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » (٤) يشير الى قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه الخ » (٥) أظن أن أجرى الأولى من الجري وهو الوكيل والرسول الجاري في الأمر ، وقد أجراه في حاجته ، وأجرى أرسل وكيلا ، وأجرى الثانية بمعنى جار يا دائما ، وجرت الأمور على يد فلان اذا انتظمت سائرة . وأرى أن أجرى الأولى هنا محرفة عن « آجر » من الأجر وهو حسن الجزاء أو عن (أجزى)

وَٱلْفَرْضَ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ ٱلْمِلَّةِ بِدَرَارِى ٱلدَّرَارِى ٱلَّتِي بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ (١) . وَهُوَ كِتَابٌ طَوِيلٌ سَأَلَهُ فِيهِ أَنْ يَقْطَعَ عَنْهُ مَادَّةَ ٱلْبَحْرِ (٢)، وَٱسْتَنْجَدَهُ عَلَى ٱلْأَفْرَنْجِ إِذْ كَانَتْ لَهُ ٱلْيَدُ عَلَيْهِمْ . وَعَادَ ٱبْنُ مُنْقِذٍ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَبَعَثَ مَعَهُ هَدِيَّةً حَقِيرَةً . وَأَمَّا ٱبْنُ مُنْقِذٍ فَإِنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَغْنَاهُ ، لَا لِأَجْلِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ بَلْ لِبَيْتِهِ وَفَضْلِهِ كَمَا مَرَّ . وَمَا وَقَعَ مِنْ يَعْقُوبَ فِي صَلَاحِ ٱلدِّينِ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يُوَفِّهِ حَقَّهُ فِي ٱلْخِطَابِ (٣) .

(١) يشير الى قوله تعالى : « ذرية بعضها من بعض » والدرارى جمع درى وهو الكوكب الساطع (٢) يريد الاستعانة به فى الحروب الصليبية التى أجلبت فيها الأمم المسيحية بخيلها ورجلها على صلاح الدين وانقضت على البلاد من كل جهة وتتابعت أساطيلهم بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس ، وكان صلاح الدين قد افتتحه سنة ٥٨٣ ، واعترضوا أسطول صلاح الدين فى البحر ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لضعفها يومئذ عن مقاومتهم فبعث صلاح الدين صريخه الى المنصور سنة ٥٨٥ يطلب منه اعانته بالأساطيل وامداده بها لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام، ولتحول فى البحر بين أساطيل الفرنج وامداد دول أوربة بها فيقطع عنهم تلك المادة ويكفى صلاح الدين شر موالاتها

(٣) يعنى أنه تعالى عن خطابه بأمير المؤمنين فلم يرقه ذلك وأمرها فى

استيلاء السادة على الأندلس

« رَجَعَ » وَلَمَّا اسْتَفْحَلَ أَمْرُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ اسْتَعْمَلُوا الْقَرَابَةَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُمُ السَّادَةَ ، وَاقْتَسَمُوا وِلَايَتَهَا بَيْنَهُمْ ، وَلَهُمْ مَوَاقِفُ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ مَذْكُورَةٌ . وَكَانَ صَاحِبُ الْأَمْرِ بِمَرَّاكُشَ يَأْتِي الْأَنْدَلُسَ لِلْجِهَادِ ، وَهَزَمَ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ - كَمَا سَبَقَ قَرِيباً بِالْأَرْكِ - ابْنَ أَدْفُونْشَ مَلِكَ الْجَلَالِقَةِ الْهَزِيمَةَ الشَّنْعَاءَ ، وَأَجَازَ ابْنُهُ النَّاصِرُ[1] الْوَالِي بَعْدَهُ الْبَحْرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمَغْرِبِ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّمِائَةٍ وَمَعَهُ مِنَ الْجُنُودِ مَالَا يُحْصَى ، حَتَّى حَكَى بَعْضُ الثِّقَاتِ مِنْ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ أَنَّهُ اجْتَمَعَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، فَمَحَّصَ[2] اللهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِالْعِقَابِ[3] وَاسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ عِدَّةٌ ، وَكَانَتْ سَبَبَ

نفسه و « لله الأمر من قبل ومن بعد » (١) هو أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله. بويع يوم وفاة أبيه فى شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ وتوفى فى شعبان سنة ٦١٠ (٢) أى بلاهم واختبرهم (٣) التقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان - والعقاب « بكسر العين » جمع

ضَعُفَ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ، أَمَّا ٱلْمَغْرِبُ فَبَخَلَاءٌ[1] كَثِيرٌ مِنْ قُرَاهُ وَأَقْطَارِهِ ، وَأَمَّا ٱلْأَنْدَلُسُ فَبِغَلَبِ ٱلْعَدُوِّ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ لَمَّا ٱلْتَاثَ[2] أَمْرُ ٱلْمُوَحِّدِينَ بَعْدَ ٱلنَّاصِرِ بْنِ ٱلْمَنْصُورِ ٱنْتَزَى ٱلسَّادَةُ بِنَوَاحِي ٱلْأَنْدَلُسِ كُلٌّ فِي عَمَلِهِ ، وَضَعُفَ مُلْكُهُمْ بِرَّا كُشَ ، فَصَارُوا إِلَى ٱلِاسْتِجَاشَةِ[3] بِالطَّاغِيَةِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَإِسْلَامِ حُصُونِ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ فِي ذَٰلِكَ ، فَمَشَتْ رِجَالَاتُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَأَعْقَابُ ٱلْعَرَبِ مُنْذُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَأَجْمَعُوا عَلَى إِخْرَاجِهِمْ، فَثَارُوا بِهِمْ[4] لِحِينٍ وَاحِدٍ وَأَخْرَجُوهُمْ، وَتَوَلَّى كِبْرَ ذَٰلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ هُودٍ ٱلْجُذَامِيُّ ٱلثَّائِرُ بِالْأَنْدَلُسِ وَٱبْنُ مَرْدَنِيشَ وَثُوَّارٌ آخَرُونَ .

عقبة ، وتسمى الواقعة بذلك أيضا ، سمت العرب تلك السهول بهذا الاسم لكثرة ما كان فيها من العقبات التى كانت سببا فى خذلانهم وانتصار جيوش النصرانية عليهم انتصارا باهرا تمزقت معه جيوش المسلمين على كثرتها حتى لم ينج منهم الا عدد قليل وقد تسمى (العقاب) بضم العين أيضا

(١) أى خلو ، وفى بعض المراجع (فبجلاء) (٢) أى اختلط واضطرب (٣) أى الاستعانة وطلب الأمداد بالجيوش (٤) فى الأصل « فساروا به » وفى ابن خلدون «فثاروا بهم» فآثرناه فيه «على كثرة تصحيفه وتحريفه»

دولة بني هود

وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَى ٱبْنِ هُودٍ فِي دَوْلَتِهِ مِنْ أَعْقَابِ دَوْلَةِ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا وَأَهْلِ نَسَبِهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ نَصْرٍ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱبْنِ ٱلْأَحْمَرِ، وَتَلَقَّبَ مُحَمَّدٌ هٰذَا بِٱلشَّيْخِ، فَجَاذَبَهُ ٱلْحَبْلَ، وَكَانَتْ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دَوْلَةٌ أَوْرَثَهَا بَنِيهِ. ٱنْتَهَى.

وَكَانَ ٱبْنُ هُودٍ(١) يَخْطُبُ لِلْعَبَّاسِيِّ صَاحِبِ بَغْدَادَ، ثُمَّ حَصَلَتْ لِٱبْنِ هُودٍ وَأَعْقَابِهِ حُرُوبٌ وَخُطُوبٌ إِلَى أَنْ كَانَ

(١) هو الأمير محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود ثار بجهة مرسية بعد موت المستنصر سنة ٦٢٠ وفشل دولة الموحدين واختلاف السادة الذين كانوا أمراء ببلنسية، وهو من أعقاب بني هود من ملوك الطوائف، وخطب للخليفة المستنصر العباسي، وهزم جيش الموحدين وتسمى بأمير المسلمين، وبعد حروب وثورات استولى على كثير من البلاد حتى بويع السلطان محمد ابن يوسف بن نصر سنة ٦٢٩ بأرجونة، ودعا لأبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية. وتنازع ابن الأحمر وابن هود رياسة الأندلس، وفي سنة ٦٣١ وصل خطاب الخليفة المستنصر العباسي الى ابن هود من بغداد ولقبه المتوكل، وفد به أبو علي الحسن بن علي بن حسن بن الحسين الكرى الملقب بالكمال، وجاء بالراية والخلع والعهد، وقدم على ابن هود بذلك في غرناطة في يوم مشهود — ثم توفي المتوكل سنة ٦٣٥ فولي من بعده بمرسية ابنه أبو بكر محمد وتلقب بالواثق الخ وكانت خطوب استولى الافرنج فيها على كثير من حصون الأندلس، ثم استقرت قدم ابن الأحمر في المملكة وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره « أحمد يوسف نجاتي »

آخِرَهُمُ ٱلْوَاثِقُ بْنُ ٱلْمُتَوَكِّلِ، فَضَايَقَهُ ٱلْفُنْشُ وَٱلْبَرْشِلُونِيُّ، فَبَعَثَ بِالطَّاعَةِ لِابْنِ ٱلْأَحْمَرِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ ٱبْنَ أَشْقِيلُولَةَ[1] وَتَسَلَّمَ مُرْسِيَةَ مِنْهُ، وَخَطَبَ لِابْنِ ٱلْأَحْمَرِ بِهَا، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا رَاجِعًا إِلَى ٱبْنِ ٱلْأَحْمَرِ، فَأَوْقَعَ بِهِ ٱلنَّصَارَى فِي طَرِيقِهِ، ثُمَّ رَجَعَ ٱلْوَاثِقُ إِلَى مُرْسِيَةَ ثَالِثَةً، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا إِلَى أَنْ مَلَكَهَا ٱلْعَدُوُّ مِنْ يَدِهِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَعَوَّضَهُ عَنْهَا حِصْنًا يُسَمَّى بُسْرَ وَهُوَ مِنْ عَمَلِهَا، فَبَقِيَ فِيهِ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَٱنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ ٱبْنِ هُودٍ، وَٱللَّهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

***

دولة بنى الاحمر

« رَجْعٌ » إِلَى ذِكْرِ دَوْلَةِ أَوْلَادِ ٱلْأَحْمَرِ لِأَنَّ لِسَانَ ٱلدِّينِ وَزِيرُ أَحَدِهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ آخِرُ مُلُوكِ ٱلْأَنْدَلُسِ، وَمِنْ يَدِهِمُ ٱسْتَوْلَى ٱلنَّصَارَى عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا سَنَذْكُرُهُ ،

(١) هو عبدالله بن على، وكان بنو أشقيلولة «وهم من سادة البربر» أصهارا لبنى نصر قرابة ابن الأحمر، وبهم كانت له عصبية، وكانوا من وجوه الأندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الأحمر بابنته وأخته وقاموا معه فى رفع قواعد ملكه، ثم انحرفوا عنه الى موالاة بنى مرين، ونزل محمد بن عبد الله بن أبى الحسن منهم الى السلطان يعقوب عن مالقة ، وكان انقراضهم فى آخر دولة بنى مرين . « أحمد يوسف نجاتى »

وَقِيلَ: أَصْلُهُمْ مِنْ أَرْجُونَةَ(١) مِنْ حُصُونِ قُرْطُبَةَ، وَلَهُمْ فِيهَا سَلَفٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْجُنْدِ، وَيُعْرَفُونَ بَنِي نَصْرٍ، وَيَنْتَسِبُونَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ سَيِّدِ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ كَبِيرُهُمْ لِآخِرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ(٢) بْنُ يُوسُفَ بْنِ نَصْرٍ، وَيُعْرَفُ بِالشَّيْخِ وَأَخُوهُ إِسْمَعِيلُ، وَكَانَتْ لَهُ وَجَاهَةٌ فِي نَاحِيَتِهِمْ. وَلَمَّا فَشِلَتْ(٣) رِيحُ الْمُوَحِّدِينَ، وَانْتَزَى(٤) الثُّوَّارُ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَعْطَى السَّادَةُ حُصُونَهَا لِلطَّاغِيَةِ، وَاسْتَقَلَّ بِأَمْرِ الْجَمَاعَةِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ هُودٍ الثَّائِرُ بِمُرْسِيَةَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَغَلَّبَ عَلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ أَجْمَعَ تَصَدَّى الشَّيْخُ هَذَا لِلثَّوْرَةِ عَلَيْهِ، وَبُويِعَ لَهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَدَعَا لِأَبِي زَكَرِيَّا صَاحِبِ إِفْرِيقِيَّةَ(٥)، وَأَطَاعَتْهُ جَيَّانُ وَشَرِيشُ سَنَةَ

(١) أرجونة: بلد من ناحية جيان جنوبي قرطبة (٢) في الأصل (نصر) ابن يوسف وهو خطأ (٣) أي ضعف أمرهم وولت دولتهم (٤) انتزى الثوار الخ: طمحوا ونازعوا اليها. (٥) هو الأمير الولي أبو زكريا يحيي بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر بن يحيي بن محمد « الهنتاتي » « من قبيلة هنتاتة من أكبر قبائل المصامدة جميعاً، وهم القائمون بدعوة المهدي بن تومرت والسابقون اليها » من دولة بني حفص، من بقية الموحدين، ولد الأمير أبو زكريا

ثَلَاثِينَ بَعْدَهَا ، وَاسْتَظْهَرَ عَلَى أَمْرِهِ بِقَرَابَتِهِ مِنْ بَنِي نَصْرٍ
وَأَصْهَارِهِ بَنِي أَشْقِيلُولَةَ ، ثُمَّ بَايَعَ لِبَنِي هُودٍ سَنَةَ إِحْدَى
وَثَلَاثِينَ عِنْدَ مَا بَلَغَهُ خِطَابُ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَغْدَادَ ، ثُمَّ ثَارَ
بِإِشْبِيلِيَةَ أَبُو مَرْوَانَ(١) الْبَاجِيُّ عِنْدَ خُرُوجِ ابْنِ هُودٍ عَنْهَا
وَرُجُوعِهِ إِلَى مُرْسِيَةَ ، فَدَاخَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَحْمَرِ فِي الصُّلْحِ
عَلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ ، فَأَطَاعَهُ وَدَخَلَ إِشْبِيلِيَةَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ
وَثَلَاثِينَ ، ثُمَّ فَتَكَ بِابْنِ الْبَاجِيِّ فَقَتَلَهُ ، وَتَنَاوَلَ الْبَطْشَ بِهِ
عَلِيُّ بْنُ أَشْقِيلُولَةَ ، ثُمَّ رَاجَعَ أَهْلُ إِشْبِيلِيَةَ بَعْدَهَا بِشَهْرٍ دَعْوَةَ
ابْنِ هُودٍ ، وَأَخْرَجَ ابْنُ الْأَحْمَرِ ، ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى غَرْنَاطَةَ سَنَةَ
خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ بِمُدَاخَلَةِ أَهْلِهَا ، حِينَ ثَارَ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ بِدَعْوَتِهِ
فِيهَا ، وَوَصَلَتْهُ بَيْعَتُهَا وَهُوَ بِجَيَّانَ ، فَقَدِمَ إِلَيْهَا عَلِيُّ بْنُ
أَشْقِيلُولَةَ ، ثُمَّ جَاءَ عَلَى أَثَرِهِ وَنَزَلَهَا ، وَابْتَنَى بِهَا حِصْنَ

بمراكش سنة ٥٩٩ وبويع بالقيران فى شهر رجب سنة ٦٢٥ ، ثم بويع له بكثير من مدن الأندلس – وكان من الملوك الصالحين العاملين فقيها أديبا ، وجمعت دولته من رؤساء العلماء والشعراء وأهل الصلاح مالم يجتمع لغيره ، وتوفى سنة ٦٤٧ . (١) هو أحمد بن محمد ، وكان أهل اشبيلية قد ثاروا وأخرجوا ابن هود وبايعوا لأبى مروان الباجى « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْحَمْرَاء لِنُزُولِهِ . ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى مَالَقَـةَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ٱلْمَرِيَّةَ[١] مِنْ يَدِ ٱبْنِ ٱلرُّمَيْمِي[٢] وَزِيرِ ٱبْنِ هُودٍ ٱلثَّائِرِ بِهَا سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ ، ثُمَّ بَايَعَهُ أَهْلُ لُورَقَةَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ . وَكَانَ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ أَوَّلَ أَمْرِهِ وَصَلَ يَدَهُ بِالطَّاغِيَةِ ٱسْتِظْهَارًا عَلَى أَمْرِهِ فَعَضَدَهُ ، وَأَعْطَاهُ ٱبْنُ هُودٍ ثَلَاثِينَ حِصْنًا فِي كَفِّ[٣] غَرْبِهِ ، بِسَبَبِ ٱبْنِ ٱلْأَحْمَرِ ، وَلِيُعِينَهُ عَلَى مِلْكِ قُرْطُبَةَ فَتَسَلَّمَهَا ، ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى قُرْطُبَةَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ـ أَعَادَهَا ٱللهُ ـ ثُمَّ نَازَلَ إِشْبِيلِيَةَ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ ،

---

(١) المرية Almeria مدينة كبيرة من كورة ألبيرة ، وقد سبق التعريف بها ، وهى بين مملكتى مالقة ومرسية على حافة بحر الزقاق . وكانت مسورة حصينة وممدودة باب الشرق ومفتاح الرزق ، ولها بر فضى ، وساحل تبرى ، وبحر زبرجدى ، وأسوارها عالية ، وقلعتها منيعة شاهقة وهواؤها معتدل ، وكان يعمل بها نوع من الحرير يفوق فى جمال الوصف ماعداه ، والمرية ثلاث مدن الأولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخل كان لها سور محفوظ من الأعداء بالسهر والحرس ولا عمارة فيها ، ويليها الى الشرق المدينة القديمة ، وتليها المدينة الثالثة المعروفة بمصلى المرية وهى أكبر الثلاث. وجامعها الكبير بالمدينة القديمة وكان من بديع الجوامع وأفخمها ، وكان بها دار لصناعة السفن وعمارة المراكب

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الملك الأموى الرميمى وزير ابن هود . وكان يدعوه بذى الوزارتين . أحمد يوسف نجاتى .

(٣) غربه : حدته وقوته وشدته .

وَٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ مَعَهُ، ثُمَّ دَخَلَهَا صُلْحًا وَمَلَكَ أَعْمَالَهَا، ثُمَّ مَلَكَ مُرْسِيَةَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ، وَلَمْ يَزَلِ ٱلطَّاغِيَةُ يَقْتَطِعُ مَمَالِكَ ٱلْمُسْلِمِينَ، كُورَةً كُورَةً، وَثَغْرًا ثَغْرًا، إِلَى أَنْ أَلْجَأَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى سِيفِ ٱلْبَحْرِ مَا بَيْنَ رُنْدَةَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى إِلْبِيرَةَ مِنْ مَشْرِقِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَذَلِكَ نَحْوُ عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ ٱلْغَرْبِ إِلَى ٱلشَّرْقِ[1] ثُمَّ سَخِطَ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ، وَطَمِعَ فِي ٱلِاسْتِيلَاءِ عَلَى سَائِرِ ٱلْجَزِيرَةِ، فَٱمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ، وَتَلَاحَقَ بِٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغُزَاةُ مِنْ بَنِي مَرِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَعَقَدَ مَلِكُ ٱلْمَغْرِبِ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَقِّ[2] لِنَحْوِ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْهُمْ

(١) خلاصة ذلك أنه فى أيام الشيخ ابن الأحمر وأيام ابن هود الثائر استعاد العدو المخذول من المسلمين أكثر بلاد الأندلس وحصونها وبقيت بيدهم حتى خرج المسلمون جميعا منها، وقد قال تعالى: « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »، صدق الله العظيم (٢) هو السلطان يعقوب بن عبدالحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد المريني « وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى من مشهوري قبائل زناتة بالمغرب » قام السلطان يعقوب بالأمر سنة ٦٥٧ وتوفى سنة ٦٨٤ وكان ملكا جليل القدر عظيم الشأن بل هو سيد بني مرين وأعظمهم همة وأكثرهم فى العدو جهادا، وهو رابع اخوة أربعة ولوا الأمر بالمغرب من

(٦ ـ نفح الطيب ـ رابع)

فَأَجَازُوا فِي حُدُودِ السِّتِّينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَتَقَبَّلَ ابْنُ الْأَحْمَرِ إِجَازَتَهُمْ، وَدَفَعَ بِهِمْ فِي نَحْرِ عَدُوِّهِ وَرَجَعُوا، ثُمَّ تَنَاسَلُوا(١) إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ. وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ الشَّيْخُ ابْنُ الْأَحْمَرِ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ الْفَقِيهُ(٢) وَأَوْصَاهُ بِاسْتِصْرَاخِ بَنِي مَرِينَ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ الْمُوَحِّدِينَ إِنْ طَرَقَهُ أَمْرٌ أَنْ يَعْتَضِدَ بِهِمْ، فَأَجَازَ الْفَقِيهُ إِلَى يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ سُلْطَانِ فَاسَ وَالْمَغْرِبِ سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ، فَأَجَابَ صَرِيخَهُ وَأَرْسَلَ ابْنَهُ(٣) وَعَسَاكِرَهُ مَعَهُ، ثُمَّ أَجَازَ عَلَى أَثَرِهِ، وَتَسَلَّمَ الْجَزِيرَةَ الْخَضْرَاءَ مِنْ ثَائِرٍ كَانَ بِهَا(٤)، وَجَعَلَهَا رِكَابًا لِجِهَادِهِ وَنَزَلَ إِلَيْهِ ابْنُ الْأَحْمَرِ عَنْ طَرِيفَ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الْحُصُونِ، وَهَزَمَ هُوَ وَابْنُ الْأَحْمَرِ زَعِيمَ النَّصْرَانِيَّةِ

بني عبدالحق. وأمه اسمها أم العين بنت علي، وكان حليما متواضعا صالحا برا مصلحا جوادا مظفرا منصور الراية ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط ولا كسر له جيش ولا غزا عدوا إلا قهره، ولا بلدا إلا افتتحه رحمه الله تعالى. «أحمد يوسف نجاتي»

(١) أو (تسايلوا) من السيل (٢) عرف بالفقيه لانه كان يقرأ الكتب من بين أهل بيته لانتحاله طلب العلم ومطالعة كتبه في صغره (٣) هو القائد المظفر الغازي المنصور الأمير أبو زيان منديل. (٤) يعني ابن هشام

« دِيْنَهُ(١) » وَفَرَّقَ جَمْعَهُ(٢) وَأَوْقَعَ بِجُمُوعِ الطَّاغِيَةِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ وَبُعُوثَهُ فِي أَرْضِ النَّصْرَانِيَّةِ ، ثُمَّ خَافَ ابْنُ الْأَحْمَرِ عَلَى مُلْكِهِ وَصَالَحَ الطَّاغِيَةَ ثُمَّ عَادَ . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ مُلَخَّصًا .

***

ثبوت قدم بنى الأحمر بالأندلس

وَثَبَتَتْ عَقِبُ بَنِي الْأَحْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ مَا بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُلْكِهَا مِثْلِ الْجَزِيرَةِ وَطَرِيفَ وَرُنْدَةَ الَّتِي كَانَتْ بِيَدِ بَنِي مَرِينَ ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ(٣)

---

(١) فى الأصل « دينه » وهو تحريف (٢) كان ذلك سنة ٦٧٤ .

(٣) فى الأصل « وقعد مدة » وهو تحريف غريب مفسد ، وأنما يستقيم المعنى ويصلح الكلام ويطابق الواقع ويوافق التاريخ بما عملناه « وبعد مدة » — وألب القوم اليه اذا أتوه من كل جانب ، وألب الجيش اذا تجمع كتألب ، وقد تألبوا عليه أى تظاهروا ، وألب : أسرع ، وألب اليه « كضرب » عاد ورجع — والألب التدبير على العدو من حيث لا يعلم وهم عليه إلب واحد : أى مجتمعون عليه بالظلم والعداوة — وبيان مايريده أن للواثقين بنى مرين كان قد انقطع غزوهم عن الأندلس حينا من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله فى آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة التى استراح فيها من شدة بنى مرين الذين كانوا شجى فى صدره وغصة فى حلقه وقذى فى عينه ، فاشتد كلبه على ثغور البلاد ، ولما أفضى أمر المغرب الى السلطان أبى سعيد

أَلَّبَ مُلُوكُ ٱلنَّصَارَى سَنَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ وَسَبْعِمِائَةٍ عَلَى غَرْنَاطَةَ، وَجَاءَهَا ٱلطَّاغِيَةُ دُونْ بِطْرُهْ فِي جَيْشٍ لَا يُحْصَى وَمَعَهُ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكاً.

***

وقعة بطرة وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هَـٰذِهِ ٱلْوَقْعَةِ أَنَّ ٱلْأَفْرَنْجَ حَشَدُوا وَجَمَعُوا وَذَهَبَ سُلْطَانُهُمْ « دُونْ بِطْرُهْ » إِلَى طُلَيْطُلَةَ وَدَخَلَ عَلَى مَرْجِعِهِمُ ٱلَّذِي يُقَالُ لَهُ ٱلْبَابَا، وَسَجَدَ لَهُ وَتَضَرَّعَ وَطَلَبَ مِنْهُ ٱسْتِئْصَالَ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكَّدَ عَزْمَهُ، فَقَلِقَ[1] ٱلْمُسْلِمُونَ بِغَرْنَاطَةَ وَغَيْرِهَا، وَعَزَمُوا عَلَى ٱلِاسْتِنْجَادِ بِالْمَرِينِيِّ أَبِي سَعِيدٍ صَاحِبِ فَاسَ، وَأَنْفَذُوا إِلَيْهِ رُسُلًا، فَلَمْ يَنْجَعْ ذَلِكَ ٱلدَّوَاءُ، فَرَجَعُوا إِلَى أَعْظَمِ ٱلْأَدْوِيَةِ وَهُوَ ٱللَّجَأُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى، وَأَخْلَصُوا ٱلنِّيَّاتِ، وَأَقْبَلَ ٱلْأَفْرَنْجُ فِي جُمُوعٍ لَا تُحْصَى، فَقَضَى نَاصِرُ مَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ

عثمان بن يعقوب بن عبد الحق « تولى سنة ٧١٠ » اشتغل فى صدر دولته بأمر والده أبى على عمر وخروجه عليه « وأمه كانت من سبايا الفرنجة » فانتهز العدو بطره بن شانجة هذه الفرصة وارتقب هذه الغرة فى الأندلس وزحف فى جموعه الى غرناطة سنة ٧١٨ وكان منه ماهو مذكور هنا « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) فى الأصل « فلق » وهو تحريف يجعل المعنى مطلقا قلقا .

سِوَاهُ بِهَزْمِ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَقَتْلِ طَاغِيَتِهِمْ « دُونْ بِطْرُهْ »
وَمَنْ مَعَهُ ، وَكَانَ نَصْرًا عَزِيزًا وَيَوْمًا مَشْهُورًا مَشْهُودًا ،
وَكَانَ ٱلسُّلْطَانَ إِذْ ذَاكَ بِالْأَنْدَلُسِ ٱلْغَالِبُ بِاللهِ أَبُو ٱلْوَلِيدِ
إِسْمٰعِيلُ بْنُ ٱلرَّئِيسِ أَبِي سَعِيدٍ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ ٱلْمَعْرُوفِ
بِابْنِ ٱلْأَحْمَرِ[1] رَغِبَ أَنْ يُحَصِّنَ ٱلْبِلَادَ وَٱلثُّغُورَ ، فَلَمَّا بَلَغَ
ٱلنَّصَارَى ذَلِكَ عَزَمُوا عَلَى مُنَازَلَةِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ، فَانْتَدَبَ
ٱلسُّلْطَانَ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ لِرَدِّهِمْ ، وَجَهَّزَ ٱلْأَسَاطِيلَ وَٱلرِّجَالَ .
فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ طَلَبُوا إِلَى طُلَيْطُلَةَ وَعَزَمُوا عَلَى ٱسْتِئْصَالِ
ٱلْمُسْلِمِينَ وَبِلَادِهِمْ ، وَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ غَايَةَ ٱلْأُهْبَةِ ، وَوَصَلَتِ
ٱلْأَثْقَـالُ وَٱلْمَجَانِيقُ وَآلَاتُ ٱلْحِصَارِ وَٱلْأَقْوَاتُ فِي
ٱلْمَرَاكِبِ ، وَوَصَلَ ٱلْعَدُوُّ إِلَى غَرْنَاطَةَ ، وَٱمْتَلَأَتِ ٱلْأَرْضُ بِهِمْ
فَتَقَدَّمَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى شَيْخِ ٱلْغُزَاةِ ٱلشَّيْخِ ٱلْعَالِمِ أَبِي سَعِيدٍ
عُثْمَانَ ٱبْنِ أَبِي ٱلْعَلَاءِ[1] ٱلْمَرِينِيِّ بِالْخُرُوجِ إِلَى لِقَائِهِمْ بِأَنْجَادِ

(١) هو عثمان بن أبي العلاء ادريس بن عبد الله بن عبدالحق، ولي مشيخة الغزاة بالأندلس وكانت له في جهاد الأعداء اليد البيضاء ، وكان بطلا مقداما وعلا أمره بالأندلس ، وزاحم بني الأحمر ملوكها في رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولي على الأمر من أيديهم ، وشرقوا بدائه وطارسهم وطارسوه مدة طويلة ، وعدلوا في أمره الى المصانعة والمجاملة الى أن توفي سنة ٧٣٠

ٱلْمُسْلِمِينَ وَشُجْعَانِهِمْ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ ٱلْمُوَفِّي عِشْرِينَ لِرَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ ، وَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ ٱلْأَحَدِ أَغَارَتْ سَرِيَّةٌ مِنَ ٱلْعَدُوِّ عَلَى سَرِيَّةٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنْ فُرْسَانِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلرُّمَاةِ فَقَطَعُوهُمْ عَنِ ٱلْجَيْشِ ، وَفَرَّتْ تِلْكَ ٱلسَّرِيَّةُ أَمَامَهُمْ إِلَى جِهَةِ سُلْطَانِهِمْ ، فَتَبِعَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَى ٱلصُّبْحِ فَٱسْتَأْصَلُوهُمْ ، وَكَانَ هٰذَا أَوَّلَ ٱلنَّصْرِ (١) ، وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلْأَحَدِ رَكِبَ ٱلشَّيْخُ أَبُو سَعِيدٍ لِقِتَالِ ٱلْعَدُوِّ فِي خَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ أَبْطَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْمَشْهُورِينَ ، فَلَمَّا شَاهَدَهُمُ ٱلْفَرَنْجُ عَجِبُوا مِنْ إِقْدَامِهِمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ فِي تِلْكَ ٱلْجُيُوشِ ٱلْعَظِيمَةِ ، فَرَكِبُوا وَحَمَلُوا بِجُمْلَتِهِمْ عَلَيْهِمْ ، فَٱنْهَزَمَ ٱلْفَرَنْجُ أَقْبَحَ هَزِيمَةٍ ، وَأَخَذَتْهُمُ ٱلسُّيُوفُ ، وَتَبِعَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . وَخَرَجَ أَهْلُ غَرْنَاطَةَ

(١) اياك أن تظن أن ذلك بفضل الدعاء و بركة الذكر وقراءة الأوراد، ولكنه كان بالعمل بقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، و بالاقتداء بالقول المأثور الذي يعمل به كثيرا دول أوربة « الحرب خدعة » وارجع الى كتب التاريخ في هذه الغزوة سنة ٧١٩ تعرف صدق ذلك «أحمد يوسف نجاتي»

لِجَمْعِ ٱلْأَمْـوَالِ وَأَخْذِ ٱلْأَسْرَى ، فَٱسْتَوْلَوْا عَلَى أَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ مِنْهَا مِنَ ٱلذَّهَبِ فِيمَا قِيـلَ : ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ قِنْطَارًا ، وَمِنَ ٱلْفِضَّـةِ مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ قِنْطَارًا ، وَمِنَ ٱلسَّبْيِ سَـبْعَةُ آلَافِ نَفْسٍ ، حَسْبَمَا كَتَبَ بِذَلِكَ بَعْضُ ٱلْغَرْنَاطِيِّينَ إِلَى ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ . وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَسَارَى ٱمْرَأَةُ ٱلطَّاغِيَةِ وَأَوْلَادُهُ فَبَذَلَتْ فِي نَفْسِهَا مَدِينَةَ طَرِيفَ وَجَبَلَ ٱلْفَتْحِ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ حِصْنًا فِيمَا حَكَى بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ ، فَلَمْ يَقْبَلِ ٱلْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ[1] ، وَزَادَتْ عِدَّةُ ٱلْقَتْلَى فِي هَذِهِ ٱلْغَزْوَةِ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفًا ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ هَلَكَ مِنْهُمْ بِٱلْوَادِي مِثْلُ هَذَا ٱلْعَدَدِ ، لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِٱلطَّرِيقِ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ هَلَـكُوا بِٱلْجِبَالِ وَٱلشِّعَابِ فَلَا يُحْصَوْنَ ، وَقُتِلَ ٱلْمُلُوكُ ٱلْخَمْسَةُ وَٱلْعِشْرُونَ جَمِيعُهُمْ ، وَٱسْتَمَرَّ ٱلْبَيْعُ فِي ٱلْأَسْرَى وَٱلْأَسْلَابِ وَٱلدَّوَابِّ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَوَرَدَتِ ٱلْبَشَائِرُ بِهَذَا

(١) قد يكون ذلك فى مثل تلك الأيام، وهذه الأحوال من خطأ الرأى وضعف السياسة أو لعل لهم غرضا من ذلك . «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلنَّصْرِ ٱلْعَظِيمِ إِلَى سَائِرِ ٱلْبِلَادِ. وَمِنَ ٱلْعَجَبِ: أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْأَجْنَادِ سِوَى ثَلَاثَةَ عَشَرَ فَارِسًا، وَقِيلَ عَشَرَةُ أَنْفُسٍ، وَقِيلَ: كَانَ عَسْكَرُ ٱلْإِسْلَامِ نَحْوَ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ فَارِسٍ، وَٱلرَّجَّالَةُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافِ رَاجِلٍ، وَقِيلَ دُونَ ذَلِكَ، وَكَانَتِ ٱلْغَنِيمَةُ تَفُوقُ ٱلْوَصْفَ، وَسُلِخَ ٱلطَّاغِيَةُ «دُونَ بِطْرُهْ» وَحُشِيَ جِلْدُهُ قُطْنًا، وَعُلِّقَ عَلَى بَابِ غَرْنَاطَةَ، وَبَقِيَ مُعَلَّقًا سَنَوَاتٍ، وَطَلَبَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْهُدْنَةَ فَعُقِدَتْ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ مَلَكُوا جَبَلَ ٱلْفَتْحِ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ أَعْمَالِ سُلْطَانِ فَاسَ وَٱلْمَغْرِبِ — وَهُوَ جَبَلُ طَارِقٍ — وَلَمْ يَزَلْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَنِ ٱرْتَجَعَهُ أَمِيرُ ٱلْمُسْلِمِينَ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَرِينِيُّ(١) صَاحِبُ فَاسَ وَٱلْمَغْرِبِ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِ ٱلْأَمْوَالَ، وَصَرَفَ

(١) هو السلطان المنصور بالله أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق قام بالأمر بعد وفاة أبيه السلطان أبى سعيد سنة ٧٣١ وهو أفخم ملوك بنى مرين دولة، وأضخمهم ملكا، وأبعدهم صيتا، وأعظمهم أبهة، وأكثرهم بالمغربين والأندلس آثارا توفى رحمه الله سنة ٧٥٢ — وفد عليه السلطان محمد بن اسمعيل بن الأحمر سنة ٧٣٢ بدار ملكه فاس فأمده بالجند وعقد لابنه أبى مالك على جيش استرد جبل الفتح سنة ٧٣٣ وكان الافرنج قد استولوا عليه سنة ٧٠٩

إِلَيْهِ ٱلْجُنُودَ وَٱلْحُشُودَ وَنَازَلَتْهُ جُيُوشُهُ مَعَ وَلَدِهِ وَخَوَاصِّهِ وَضُيِّقُوا بِهِ إِلَى أَنِ ٱسْتَرْجَعُوهُ لِيَدِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَٱهْتَمَّ بِبِنَائِهِ وَتَحْصِينِهِ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ أَحْمَالَ مَالٍ فِي بِنَائِهِ وَحَصَّنَهُ وَسَوَّرَهُ وَبَنَى أَبْرَاجَهُ وَجَامِعَهُ وَدُورَهُ وَمَخَازِنَهُ(١) ، وَلَمَّا كَادَ يَتِمُّ ذَلِكَ نَازَلَهُ ٱلْعَدُوُّ بَرًّا وَبَحْرًا ، فَصَبَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ وَخَيَّبَ ٱللهُ سَعْيَ ٱلْكَافِرِينَ ، فَأَرَادَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلْمَذْكُورُ أَنْ يُحَصِّنَ سَفْحَ ٱلْجَبَلِ بِسُورٍ مُحِيطٍ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ عَدُوٌّ فِي مُنَازَلَتِهِ ، وَلَا يَجِدَ سَبِيلًا لِلتَّضْيِيقِ بِمُحَاصَرَتِهِ ، وَرَأَى ٱلنَّاسُ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمُحَالِ ، فَأَنْفَقَ ٱلْأَمْوَالَ ، وَأَنْصَفَ ٱلْعُمَّالَ فَأَحَاطَ بِجُمْلَتِهِ إِحَاطَةَ ٱلْهَالَةِ بِالْهِلَالِ ، وَكَانَ بَقَاءُ هَذَا ٱلْجَبَلِ بِيَدِ ٱلْعَدُوِّ نَيِّفًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَحَاصَرَهُ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو ٱلْحَسَنِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَزَادَ فِي تَحْصِينِهِ ٱبْنُهُ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ(٢) . وَلَمَّا أَجَازَ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَذْكُورُ إِلَى

(١) في بعض النسخ (ومخازنه) (٢) هو السلطان المتوكل على الله أبو عنان فارس بن السلطان أبي الحسن . ولد أبو عنان سنة ٧٢٩ وأمه أم ولد رومية توفيت سنة ٧٥٠ وولي الأمر سنة ٧٥٢ وكان سلطانا محبوبا في قومه وعشيرته، أثيرا عند

ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ [١] وَقَاتَلَهُمُ ٱلطَّاغِيَةُ هَزَمَهُمْ فِي وَقْعَةِ طَرِيفَ، وَٱسْتَوْلَى عَلَى ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ حَتَّى قَيَّضَ [٢] ٱللَّهُ مِنْ بَنِي ٱلْأَحْمَرِ ٱلْغَنِيَّ بِٱللَّهِ مُحَمَّدًا ٱلَّذِي كَانَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ [٣] وَزِيرَهُ، فَٱسْتَرْجَعَهَا وَجُمْلَةَ بِلَادٍ كَجَيَّانَ وَغَيْرِهَا، وَكَانَتْ لَهُ فِي ٱلْجِهَادِ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ، وَٱمْتَدَّ مُلْكُهُ وَٱشْتَدَّ حَتَّى حَاوَلَهُ سَلَاطِينُ فَاسٍ مِمَّا وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ وَمَلَكَ جَبَلَ ٱلْفَتْحِ، وَنَصَرَ ٱللَّهُ ٱلْإِسْلَامَ عَلَى يَدِهِ كَمَا سَتَقِفُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ مُكَاتَبَاتِ لِسَانِ ٱلدِّينِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ فِي مَوَاضِعَ

والده وغيره لفضله وعلمه ودينه وعظيم خلقه وتوفى سنة ٧٥٩ (١) كان ذلك سنة ٧٤١ فى مدة سلطان الأندلس أبى الحجاج يوسف بن اسمعيل ابن الأحمر الذى ولى الأمر بعد وفاة أخيه محمد سنة ٧٣٣ (٢) قيض: هيأ ـ وقيض الله فلانا لفلان: جاء به وأتاحه له وسببه، ومنه حديث: «ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله عند سنه من يكرمه» (٣) وكان السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبى عنان عند وفاة والده معزياله، فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلى فى أغراض تلك السفارة وعاد الى غرناطة، ثم توفى السلطان أبو الحجاج سنة ٧٥٥ وبايع الناس ابنه محمد بن يوسف الغنى بالله ـ ثم بعث وزيره ابن الخطيب سفيرا عنه الى السلطان أبى عنان مستمدا له على عدوه « أحمد يوسف نجاتى »

مِنْ هٰذَا ٱلْـكِتَابِ . وَسَنَعُدُّ هٰـذَا ٱلْفَتْحَ بِاللّٰهِ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ ، وَبَقِيَ مُلْكُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي عَقِبِهِ إِلَى أَنْ أَخَذَ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْعَدُوُّ ٱلْـكَافِرُ ، وَٱسْتَوْلَى عَلَى حَضْرَةِ ٱلْمُلْكِ غَرْنَاطَةَ ـ أَعَادَهَا ٱللّٰهُ لِلْإِسْلَامِ ـ كَمَا نُبَيِّنُ ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ . وَخَلَتْ جَزِيرَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ ، فَأُبْدِلَتْ مِنَ ٱلنُّورِ بِالظَّلَامِ ، حَسْبَمَا ٱقْتَضَتْهُ ٱلْأَقْدَارُ ٱلنَّافِذَةُ وَٱلْأَحْكَامُ ، وَٱللّٰهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ .

***

أقارب بني مرين ومشيخة الغزاة

قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَٱتَّفَقَ بَنُو ٱلْأَحْمَرِ سَلَاطِينُ غَرْنَاطَةَ أَنْ يَجْعَلُوا مَشْيَخَةَ ٱلْغُزَاةِ لِوَاحِدٍ يَـكُونُ مِنْ أَقَارِبِ بَنِي مَرِينَ سَلَاطِينِ ٱلْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ أَوَى إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ ٱسْتِيلَاءِ بَنِي عَمِّهِمْ عَلَى مُلْكِ ٱلْمَغْرِبِ لِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ ٱلْمُنَافَسَةِ ، وَكَانَ لِهٰؤُلَاءِ فِي ٱلْجِهَادِ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ ، مِنْهَا : مَا كُتِبَ عَلَى قَبْرِ شَيْخِ ٱلْغُزَاةِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي ٱلْعَلَاءِ لِتَسْتَدِلَّ عِنْدَ ذٰلِكَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ ـ : بِحَمْدِ ٱللّٰهِ تَعَالَى «هٰذَا قَبْرُ شَيْخِ ٱلْحُمَاةِ ، وَصَدْرِ

الأبطال والكماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، وإمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، وقاصم الأعاد، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام المجاهد الأرضى، البطل الباسل الأمضى، المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان بن الشيخ الجليل الهمام الكبير، الأصيل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، كان عمره ثمانياً وثمانين سنة، أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة، وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الرب محتسباً في إدارة الحرب، ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادمًا بين جموعهم تدفق التيار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذكره في الأقطار، أشهر

مِنَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّيَّارِ حَتَّى تُوُفِّيَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وَغُبَارُ ٱلْجِهَادِ طَيَّ أَثْوَابِهِ، وَهُوَ مُرَاقِبٌ لِطَاغِيَةِ ٱلْكُفَّارِ وَأَحْزَابِهِ، فَمَاتَ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، وَفِي مَلْحَمَةِ[1] ٱلْجِهَادِ قَبَضَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَٱسْتَأْثَرَ بِهِ سَعِيدًا مُرْتَضًى، وَسَيْفُهُ عَلَى رَأْسِ مَلِكِ ٱلرُّومِ مُنْتَضًى[2] مُقَدِّمَةَ قَبُولٍ وَإِسْعَادٍ، وَنَتِيجَةَ جِهَادٍ وَجِلَادٍ[3]، وَدَلِيلًا عَلَى نِيَّتِهِ ٱلصَّالِحَةِ وَتِجَارَتِهِ ٱلرَّابِحَةِ، فَارْتَجَّتِ ٱلْأَنْدَلُسُ لِبُعْدِهِ، أَتْحَفَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ - تُوُفِّيَ يَوْمَ ٱلْأَحَدِ ٱلثَّانِي لِذِي ٱلْحِجَّةِ مِنْ عَامِ ثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ. ٱنْتَهَى.

***

كتاب لسان الدين ابن الخطيب في تولية علي بن بدر الدين

وَمِنْهَا مَا كَتَبَ بِهِ لِسَانُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلْخَطِيبِ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فِي تَوْلِيَةِ عَلِيِّ بْنِ بَدْرِ ٱلدِّينِ[4] مَشْيَخَةَ ٱلْغُزَاةِ مَا نَصُّهُ: «هٰذَا شَيْخُ ٱلْغُزَاةِ ٱلَّذِي فُتِحَ بِهِ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ أَبْوَابُ ٱلسَّرَّاءِ،

---

(١) اللحمة: الموقعة العظيمة القتل في الحرب (٢) منتضى: مستل من غمده (٣) جالدوا بالسيوف وتجالدوا: تضاربوا وتقاتلوا

(٤) هو أبو الحسن علي بن بدر الدين بن موسى بن حمو بن عبد الله

وَرَاقَ طِرَازًا مُذَهَّبًا عَلَى عَاتِقِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْغَرَّاءِ ، وَأَعْمَلَ عَوَامِلَ ٱلْجِهَادِ فِي طَاعَةِ رَبِّ ٱلْعِبَادِ ، شَارِعَةً لِأَهْلِ ٱلْكُفْرِ وَٱلْعِنَادِ مِنْ بَابِ ٱلْإِعْمَالِ وَٱلْإِغْرَاءِ ، أَمَرَ بِهِ فُلَانٌ صَدْرُ صُدُورِ أَوِدَّائِهِ ، وَحُسَامِهِ ٱلْمَشْهُورُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَوَلِيُّهُ ٱلَّذِي خَبَرَ صِدْقَ وَفَائِهِ ، وَجَلَّى فِي مِضْمَارِ ٱلْخُلُوصِ لَهُ مُغَبِّرًا فِي وُجُوهِ أَكْفَائِهِ[1] شَيْخُ شُيُوخِ ٱلْمُجَاهِدِينَ ، وَقَائِدُ كَتَائِبِهِ ٱلْمَنْصُورَةِ إِلَى غَزْوِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُعْتَدِينَ ، وَعِتْرَتِهِ ٱلَّتِي

ابن عبد الحق قلد مشيخة الغزاة بعد سنة ٧٦٤ « بعد شيخ الغزاة أبي زكريا يحيي بن عمر بن عبد الله بن عبد الحق » واستمر حتى قفل من غزوة جيان في أوائل سنة ٧٦٩ فتوفي – رحمه الله – حتف أنفه وتولى مشيخة الغزاة بعده الأمير عبد الرحمن بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وذلك في مدة السلطان الغني بالله محمد بن يوسف ابن اسمعيل بن فرج بن اسمعيل بن فرج بن يوسف بن نصر الذي تولى الملك سنة ٧٥٥ « وكان مولده سنة ٧٣٩ هـ توافق سنة ١٣٧٧ م » وخلع سنة ٧٦٠ وكانت فتن وثورات قبض فيها على ابن الخطيب وأودع السجن ، ثم شفع هو والغني بالله السلطان أبو سالم المريني فقدما اليه أول سنة ٧٦١ ، ثم عاد الغني بالله الى ملكه بالأندلس بسعي السلطان المريني فاستدعى اليه ابن الخطيب فأجاب الدعوة حياء لا رغبة، ومكرها لا بطلا ، وتوفي الغني بالله سنة ٧٩٣ « أحمد يوسف نجاتي » (١) غبر في وجهه أي ألقى عليه غبارا كناية عن سبقه اياه، ومنه يقال: فلان لا يشق غباره

يُدَافِعُ بِهَا عَنِ الدِّينِ ، وَسَابِقَ وُدِّهِ الْمُبَرِّزِ فِي الْمَيَادِينِ ، الشَّيْخُ الْأَجَلُّ ، إِلَى آخِرِ مَا وَصَفَهُ بِهِ مِمَّا ضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ مِثْلِهِ . وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ

•••

﴿ الْبَابُ الرَّابِعُ ﴾

فِي ذِكْرِ قُرْطُبَةَ الَّتِي كَانَتِ الْخِلَافَةُ بِمِصْرِهَا لِلْأَعْدَاءِ قَاهِرَةً ، وَجَامِعِهَا الْأُمَوِيِّ ذِي الْبَدَائِعِ الْبَاهِيَةِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْإِلْمَاعِ بِحَضْرَةِ الْمُلْكِ النَّاصِرِيَّةِ النَّاصِرَةِ ، وَالْعَامِرِيَّةِ الزَّاهِرَةِ ، وَوَصْفِ جُمْلَةٍ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ تِلْكَ الْأَقْطَارِ وَمَصَانِعِهَا ذَاتِ الْمَحَاسِنِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، وَمَا يَجُرُّ إِلَيْهِ شُجُونُ[1] الْحَدِيثِ ، مِنْ أُمُورٍ تَقْضِي بِحُسْنِ أَدَائِهَا الْقَرَائِحُ الْوَقَّادَةُ وَالْأَفْكَارُ الْمَاهِرَةُ . وصف قرطبة

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ : مَمْلَكَةُ قُرْطُبَةَ فِي

---

(١) شجون الحديث : فنونه المتشعبة التي يتفرع بعضها عن بعض

ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ ، وَإِمَالَتُهُ لِلشَّمْسِ ، وَفِي هٰذِهِ ٱلْمَمْلَكَةِ مُدُنُ ٱلْفِضَّةِ ٱلْخَالِصَةِ فِي قَرْيَةِ « كَرْتَش(١) » وَمَعْدِنُ ٱلزِّئْبَقِ وَٱلزِّنْجِفْرِ(٢) فِي بَلَدِ « بَسْطَاسَةَ(٣) » وَلِأَجْزَائِهَا خَوَاصُّ مَذْكُورَةٌ فِي مُتَفَرِّقَاتِهَا ، وَأَرْضُهَا أَرْضٌ كَرِيمَةُ ٱلنَّبَاتِ .

انْتَهَى .

---

(١) قد تكون كذلك وقد تكون محرفة عن آركش الى الجنوب الغربي من قرطبة (٢) صبغ أحمر يكتب به ويصبغ وكان المصورون يستعملونه فى تلوين الصور التى يتأنقون فيها، وهو صنفان: معدنى طبيعى ومصنوع، أما المعدنى فهو استحالة شىء من الكبريت الى معدن الزئبق ، وأما المصنوع فأنواع، ويصنع من الكبريت والزئبق ، وكانوا أيضا ربما استعملوه فى أدوية العين وقطع الدم وفى علاج البثور وحرق النار ويدملون به الجراحات ويسكنون به تأكل الأسنان ، والى عمل الزنجفر ينسب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد البغدادى الزنجفرى كان شاعرا جيد الشعر توفى سنة ٣٤٣ « (٣) كذا بالأصل وقد تكون هى « بسطة » مدينة بالأندلس من أعمال جيان ينسب اليها الصليات البسطية، منها أبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن معلى الحضرمى البسطى الوراق سكن قرطبة وأصله من بسطة ولد بها سنة ٣١٧ وتوفى بقرطبة سنة ٣٩٦ ومنها أبو عبد الله محمد بن خلف بن ابراهيم بن أيوب بن ابراهيم بن عبادة بن بالغ الهاشمى من أهل بسطة وصاحب الصلاة والخطبة بها ، كان فقيها محدثا فاضلا صالحا توفى ببلدة بسطة سنة ٦١١ ولعلها « سطاسة » وهى حصن من أعمال أوريط من أعمال فحص البلوط وبه معدن الزئبق وهو الى الشمال الشرقى من قرطبة على نهر متفرع من نهر بطليوس « أحمد يوسف نجاتى » .

وَقَدَّمَ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي الْمُغْرِبِ الْكَلَامَ عَلَيْهَا عَلَى سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَنْدَلُسِ وَقَالَ: إِنَّمَا قَدَّمْنَا هٰذِهِ الْمَمْلَكَةَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَمَالِكِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ لِكَوْنِ سَلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ الْأُوَلِ اتَّخَذُوهَا سَرِيرًا لِسَلْطَنَةِ الْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَعْدِلُوا عَنْ حَضْرَتِهَا قُرْطُبَةَ، ثُمَّ سَلَاطِينِ بَنِي أُمَيَّةَ وَخُلَفَائِهِمْ، وَلَمْ يَعْدِلُوا عَنْ هٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ، وَتَقَلَّبُوا مِنْهَا فِي ثَلَاثَةِ أَقْطَارٍ أَدَارُوا فِيهَا خِلَافَتَهُمْ: قُرْطُبَةَ وَالزَّهْرَاءِ[1] وَالزَّاهِرَةِ، وَإِنَّمَا اتَّخَذُوهَا لِهٰذَا الشَّأْنِ لَمَّا رَأَوْهَا لِذٰلِكَ أَهْلًا. وَقُرْطُبَةُ أَعْظَمُ عِلْمًا وَأَكْثَرُ فَضْلًا بِالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمَمَالِكِ، لِاتِّصَالِ الْحَضَارَةِ الْعَظِيمَةِ وَالدَّوْلَةِ الْمُتَوَارَثَةِ فِيهَا. ثُمَّ قَسَّمَ ابْنُ سَعِيدٍ كِتَابَ «الْحُلَّةِ الْمُذَهَّبَةِ، فِي حُلَى مَمَالِكِ قُرْطُبَةَ» بِالنَّظَرِ إِلَى الْكُوَرِ إِلَى أَحَدَ عَشَرَ كِتَابًا: الْكِتَابُ الْأَوَّلُ «كِتَابُ الْحُلَى الذَّهَبِيَّةِ فِي حُلَى الْكُورَةِ الْقُرْطُبِيَّةِ» الْكِتَابُ الثَّانِي «كِتَابُ الدُّرَرِ

(١) هي المدينة الزهراء التي بناها الناصر الأموي في غربي قرطبة في سفح جبل

ٱلْمَصُونَةِ، فِي حُلَى كُورَةِ بَلْكُونَةَ، «ٱلْكِتَابُ ٱلثَّالِثُ»، «كِتَابُ مُحَادَثَةِ ٱلسِّنِّ، فِي حُلَى كُورَةِ ٱلْقُصَيْرِ(١)» «ٱلْكِتَابُ ٱلرَّابِعُ» «كِتَابُ ٱلْوَشْيِ ٱلْمُصَوَّرِ، فِي حُلَى كُورَةِ ٱلْمُدَوَّرِ» «ٱلْكِتَابُ ٱلْخَامِسُ» «كِتَابُ نَيْلِ ٱلْمُرَادِ، فِي حُلَى كُورَةِ مُرَادٍ(٢)» «ٱلْكِتَابُ ٱلسَّادِسُ» كِتَابُ ٱلْمُزْنَةِ، فِي حُلَى كُورَةِ كُزْنَةَ(٣)» «ٱلْكِتَابُ ٱلسَّابِعُ» «كِتَابُ ٱلدُّرِّ ٱلنَّافِقِ، فِي حُلَى كُورَةِ غَافِقَ» «ٱلْكِتَابُ ٱلثَّامِنُ» كِتَابُ ٱلنَّفْحَةِ ٱلْأَرِجَةِ فِي حُلَى كُورَةِ إِسْتِجَةَ»، «ٱلْكِتَابُ ٱلتَّاسِعُ» «كِتَابُ ٱلْكَوَاكِبِ ٱلدُّرِّيَّةِ، فِي حُلَى ٱلْكُورَةِ ٱلْقَبْرِيَّةِ» «ٱلْكِتَابُ

---

(١) القصير حصن فى شرق قرطبة على النهر وله كورة من أشهر كورها (٢) مراد حصن قريب من قرطبة الى الغرب منها (٣) قال ياقوت: موضع فى فحص البلوط ينسب اليه القاضى المنذر بن سعيد البلوطى: والقاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الكزنى القرطبى توفى سنة ٥٨٩ اهـ «قلت» ومنها أبو مروان عبيد الله محمد بن قاسم الكزنى حدث عنه أبو عمر بن عبد البر وقال: كان من ثقات الناس وعقلائهم رحمه الله ومنها أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن سمدان الكزنى رحل وحج ولقى القاضى عبد الوهاب المالكى ثم عاد وتوفى بغافق سنة ٤٤٥ «أحمد يوسف نجاتى».

الْعَاشِرُ » « كِتَابُ رِقَّةِ الْمَحَبَّةِ ، فِي حُلَى كُورَةِ أَسْتَبَّةَ[1] » ، « الْكِتَابُ الْحَادِي عَشَرَ » « كِتَابُ السُّوسَانَةِ ، فِي حُلَى كُورَةِ الْبَسَّانَةِ[2] » . انْتَهَى .

***

قَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ : إِنَّ الْعِمَارَةَ اتَّصَلَتْ فِي مَبَانِي قُرْطُبَةَ وَالزَّهْرَاءِ وَالزَّاهِرَةِ بِحَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يُمْشَى فِيهَا لِضَوْءِ السُّرُجِ الْمُمْتَدَّةِ عَشَرَةَ أَمْيَالٍ حَسْبَمَا ذَكَرَهُ الشَّقُنْدِيُّ فِي رِسَالَتِهِ . ثُمَّ قَالَ : وَلِكُلِّ مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ قُرْطُبَةَ وَأَعْمَالِهَا ذِكْرٌ مُخْتَصٌّ بِهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسَافَاتِ الَّتِي بَيْنَ مَمَالِكِ قُرْطُبَةَ الْمَذْكُورَةِ فَقَالَ : بَيْنَ الْمُدَوَّرِ وَقُرْطُبَةَ سِتَّةَ عَشَرَ مِيلًا ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَمُرَادٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ مِيلًا ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَالْقُصَيْرِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَغَافِقٍ مَرْحَلَتَانِ ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَأَسْتَبَّةَ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ مِيلًا ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَمَلْكُونَةَ مَرْحَلَتَانِ ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَالْبَسَّانَةِ[2] أَرْبَعُونَ مِيلًا ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَقَبْرَةَ ثَلَاثُونَ مِيلًا ، وَبَيْنَ

قرطبة وأعمالها

(١) سبق القول في مدينة « أستبة » ، وكذلك « قبرة » وهي إلى الجنوب من قرطبة ، وكانت مدينة بيانة قصبة كورة قبرة بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا . (٢) في بعض المراجع (البيانة)

قُرْطُبَةَ وَبَيَّانَةَ مَرْحَلَتَانِ ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَإِسْتِجَةَ ثَلَاثُونَ مِيلًا . وَكُورَةُ رُنْدَةَ(١) كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ مِنْ عَمَلِ قُرْطُبَةَ ثُمَّ صَارَتْ مِنْ مَمْلَكَةِ إِشْبِيلِيَةَ ، وَهِيَ أَقْرَبُ وَأَدْخَلُ فِي الْمَمْلَكَةِ الْإِشْبِيلِيَّةِ . انْتَهَى .

«ثُمَّ قَسَّمَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ «كِتَابَ الْحُلَّةِ الذَّهَبِيَّةِ ، فِي حُلَى الْكُورَةِ الْقُرْطُبِيَّةِ » إِلَى خَمْسَةِ كُتُبٍ : الْكِتَابُ الْأَوَّلُ «كِتَابُ النَّغَمِ الْمُطْرِبَةِ ، فِي حُلَى حَضْرَةِ قُرْطُبَةَ » الْكِتَابُ الثَّانِي «كِتَابُ الصَّبِيحَةِ الْغَرَّاءِ ، فِي حُلَى حَضْرَةِ الزَّهْرَاءِ » الْكِتَابُ الثَّالِثُ « كِتَابُ الْبَدَائِعِ الْبَاهِرَةِ ، فِي حُلَى حَضْرَةِ الزَّاهِرَةِ » الْكِتَابُ الرَّابِعُ كِتَابُ الْوَرْدَةِ فِي حُلَى مَدِينَةِ شَقَنْدَةَ » الْكِتَابُ الْخَامِسُ « كِتَابُ الْجُرْعَةِ السَّيْغَةِ ، فِي حُلَى كُورَةِ وَزَغَةَ » وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ فِي

(١) معقل حصين ومدينة قديمة بين اشبيلية ومالقة على نهر جار كان بها زرع واسع وضرع سابغ ، وكان بها معقل تعمم بالسحاب ، وتوشح بالأنهار العذاب ، وكانت بلدة جليلة كثيرة الفواكه والمياه والحرث والماشية ويتصف أهلها بالجمال ورقة البشرة واللطافة .

كِتَابِ ٱلنَّغَمِ ٱلْمُطْرِبَةِ، فِي حُلَى حَضْرَةِ قُرْطُبَةَ : إِنَّ حَضْرَةَ قُرْطُبَةَ إِحْدَى عَرَائِسِ مَمْلَكَتِهَا ، وَفِي إِصْطِلَاحِ ٱلْكُتَّابِ إِنَّ لِلْعَرُوسِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلزِّينَةِ مِنَصَّةً(١) وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِذِكْرِ ٱلْمَدِينَةِ فِي نَفْسِهَا ، وَتَاجاً(٢) وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِالإِيَالَةِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ، وَسِلْكاً(٣) وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِأَصْحَابِ دُرَرِ ٱلْكَلَامِ ، مِنَ ٱلنُّثَّارِ وَٱلنُّظَّامِ ، وَحُلَّةً(٤) وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِأَعْلَامِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمُصَنِّفِينَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ نَظْمٌ وَلَا نَثْرٌ، وَلَا يَجِبُ(٥) إِهْمَالُ تَرَاجِمِهِمْ ، وَأَهْدَاباً(٦) وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِأَصْحَابِ فُنُونِ ٱلْهَزْلِ وَمَا يَنْحُو مَنْحَاهُ . انْتَهَى

ثُمَّ فَصَّلَ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ ذَلِكَ كُلَّهُ بِمَا تَعَدَّدَتْ مِنْهُ ٱلْأَجْزَاءُ ، وَقَدْ لَخَّصْتُ مِنْهُ هُنَا بَعْضَ مَا ذَكَرَ، ثُمَّ أَرْدَفْتُهُ(٧)

---

(١) المنصة بالكسر : الكرسي الذي ترفع عليه العروس في جلائها. والمنصة بالفتح : الحجلة تعد للعروس (٢) التاج : الذي تلبسه العروس على رأسها وقت زفافها (٣) السلك : الخيط الذي ينظم فيه الخرز ونحوه من حبات العقد (٤) الحلة : الثوب الجديد الجيد ولا تكون حلة الا من ثوبين أو ثلاثة « وقد تكون « حلة » محرفة عن حلية (٥) قد تكون (يحسن)
(٦) هدب الثوب: خمله وطرفه مما يلي طرته، وقد يفتل ويحفظ بطرف الثوب
(٧) أردفته : أعقبته وأتبعته :

بِكَلَامِ غَيْرِهِ، فَأَقُولُ: قَالَ فِي كِتَابِ «إِجَارِ»(١): إِنَّ قُرْطُبَةَ بِالطَّاءِ الْمُعْجَمَةِ، وَمَعْنَاهُ أُجِرَ سَاكِنُهَا، يَعْنِي عُرِّبَتْ بِالطَّاءِ ثُمَّ قَالَ: وَدَوْرُ مَدِينَةِ قُرْطُبَةَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ. انْتَهَى. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّ تَكْسِيرَهَا وَمِسَاحَتَهَا الَّتِي دَارَ السُّورُ عَلَيْهَا دُونَ الْأَرْبَاضِ طُولًا مِنَ الْقِبْلَةِ(٢) إِلَى الْجَوْفِ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةِ ذِرَاعٍ، وَاتَّصَلَتِ الْعِمَارَةُ بِهَا أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ثَمَانِيَةَ فَرَاسِخَ طُولًا وَفَرْسَخَيْنِ عَرْضًا، وَذَلِكَ مِنَ الْأَمْيَالِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ فِي الطُّولِ، وَفِي الْعَرْضِ سِتَّةٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ دِيَارٌ وَقُصُورٌ وَمَسَاجِدُ وَبَسَاتِينُ بِطُولِ ضَفَّةِ الْوَادِي الْكَبِيرِ، وَلَيْسَ فِي الْأَنْدَلُسِ وَادٍ يُسَمَّى بِاسْمٍ عَرَبِيٍّ غَيْرُهُ. وَلَمْ تَزَلْ قُرْطُبَةُ فِي الزِّيَادَةِ مُنْذُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ فَانْحَطَّتْ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْخَرَابُ بِكَثْرَةِ الْفِتَنِ، إِلَى أَنْ كَانَتِ الطَّامَّةُ(٣) الْكُبْرَى عَلَيْهَا بِأَخْذِ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ لَهَا

(١) أظن أنه يريد «روجار» ملك صقلية الذي ألف له الشريف الادريسي كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (٢) في الأصل (القبة) وهو تحريف ظاهر (٣) الطامة: الداهية تفوق ما سواها تطم على ما عداها.

فِي ثَانِي وَعِشْرِي شَوَّالٍ سَنَةَ سِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ

ثُمَّ قَالَ هَذَا الْقَائِلُ : وَدَوْرُ قُرْطُبَةَ الْمُسَوَّرُ(١) مِنْهَا دُونَ الْأَرْبَاضِ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ ، وَدَوْرُ قَصْرِ إِمَارَتِهَا أَلْفُ ذِرَاعٍ وَمِائَةُ ذِرَاعٍ . انْتَهَى . وَعَدَدُ أَرْبَاضِهَا أَحَدٌ وَعِشْرُونَ ، فِي كُلِّ رَبَضٍ مِنْهَا مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْحَمَّامَاتِ مَا يَقُومُ بِأَهْلِهِ وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى غَيْرِهِ . وَبِخَارِجِ قُرْطُبَةَ ثَلَاثَةُ آلَافِ قَرْيَةٍ ، فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْبَرٌ وَفَقِيهٌ مُقَلَّسٌ(٢) تَكُونُ الْفُتْيَا فِي الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ لَهُ ، وَكَانَ لَا يَجْعَلُ الْقَالِسَ مِنْهُمْ عَلَى رَأْسِهِ إِلَّا مَنْ حَفِظَ الْمُوَطَّأَ ، وَقِيلَ : مَنْ حَفِظَ عَشَرَةَ آلَافِ حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَحَفِظَ الْمُدَوَّنَةَ ، وَكَانَ

(١) كذا بالأصل وأظنه محرفا عن « السور » أى المحوط بالسور ، وكان على قرطبة سور ضخم من الحجر ذو سبعة أبواب (٢) أصلها بالسين وهى من القلنسوة ، والمقلس هو الذى يلبس القالس أو القلنسوة ، وقد تكتب بالصاد « قاله دوزى فى ملحقه على المعجمات العربية » والتقليس لبس القلنسوة ، والقلاس صانعها – يعنى انهم كان لعلمائهم زى خاص كالعمائم فوق الرءوس لايتوج رأسه بها الامن كان ذاحظ عظيم من الفقه والحديث ومعرفة الكتاب والسنة . «أحمد يوسف نجاتى »

هؤُلَاءِ ٱلْمُتَلَمِّسُونَ ٱلْمُجَاوِرُونَ لِقُرْطُبَةَ يَأْتُونَ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ لِلصَّلَاةِ مَعَ ٱلْخَلِيفَةِ بِقُرْطُبَةَ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ، وَيُطَالِعُونَهُ بِأَحْوَالِ بِلَادِهِمْ. ٱنْتَهَى. قَالَ: وَٱنْتَهَتْ جِبَايَةُ قُرْطُبَةَ أَيَّامَ ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ إِلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ بِالْإِنْصَافِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مَا فِيهِ مُخَالَفَةٌ لِهٰذَا. فَاللّٰهُ أَعْلَمُ.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ:

دَعْ عَنْكَ حَضْرَةَ بَغْدَادٍ وَبَهْجَتَهَا
وَلَا تُعَظِّمْ بِلَادَ ٱلْفُرْسِ وَٱلصِّينِ
فَمَا عَلَى ٱلْأَرْضِ قَطُّ مِثْلُ قُرْطُبَةٍ
وَمَا مَشَى فَوْقَهَا مِثْلُ ٱبْنِ حَمْدِينِ[1]

***

وصف قرطبة

«قَالَ بَعْضُهُمْ»: قُرْطُبَةُ قَاعِدَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ، وَدَارُ ٱلْمُلْكِ ٱلَّتِي تُجْبَى لَهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ جِهَةٍ، وَخَيْرَاتُ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَاسِطَةٌ بَيْنَ ٱلْكُوَرِ، مُوفِيَةٌ[2] عَلَى ٱلنَّهْرِ، زَاهِرَةٌ مُشْرِقَةٌ، أَحْدَقَتْ بِهَا ٱلْمُنَى، فَحَسُنَ مَرْآهَا، وَطَابَ جَنَاهَا.

(١) تقدمت منا كلمة في التعريف ببنى حمدين فارجع اليها ان شئت
(٢) أى مشرفة مطلة

وَفِي كِتَابِ فَرْحَةِ(١) ٱلْأَنْفُسِ لِابْنِ غَالِبٍ : أَمَّا قُرْطُبَةُ : فَإِنَّهَا لَفْظٌ يَنْحُو إِلَى لَفْظِ ٱلْيُونَانِيِّينَ ، وَتَأْوِيلُهُ ٱلْقُلُوبُ ٱلْمُشْتَرِكَةُ(٢) وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلْبَكْرِيُّ : إِنَّهَا فِي لَفْظِ ٱلْقُوطِ بِالظَّاءِ ٱلْمُعْجَمَةِ . وَقَالَ ٱلْحِجَارِيُّ : ٱلضَّبْطُ فِيهَا بِإِهْمَالِ ٱلطَّاءِ وَضَمِّهَا ، وَقَدْ يَكْسِرُهَا ٱلْمَشْرِقِيُّونَ فِي ٱلضَّبْطِ كَمَا يُعْجِمُهَا آخَرُونَ . ٱنْتَهَى

« وَقَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ » : أَمَّا قُرْطُبَةُ فَهِيَ قَاعِدَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَقُطْبُهَا ، وَقُطْرُهَا ٱلْأَعْظَمُ ، وَأُمُّ مَدَائِنِهَا وَمَسَاكِنِهَا ، وَمُسْتَقَرُّ ٱلْخُلَفَاءِ ، وَدَارُ ٱلْمَمْلَكَةِ فِي ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ ، وَمَدِينَةُ ٱلْعِلْمِ ، وَمُسْتَقَرُّ ٱلسُّنَّةِ وَٱلْجَمَاعَةِ ، نَزَلَهَا جُمْلَةٌ مِنَ ٱلتَّابِعِينَ

---

(١) أنثها (فرجة) (٢)لعل هذا أقرب من غيره لمساعدة اللفظ اللاتينى فهو حينئذ منقول من Dobia — Cœur ، Coeur ومعناه القلب ، و Dobia ومعناه الشك والريب » كما أنى تذكرت الآن بهذه المناسبة أن اسم « أسبانيا » الأقرب فيه أن يكون مأخوذا من اللفظ الفينيقى « أى سفون » spania — I (أى جزيرة الشمال) فهو أولى من الأسباب الأخرى المتقدمة .وفى ذلك آراء « أحمد يوسف نجاتى »

وَتَابِعِي ٱلتَّابِعِينَ . وَيُقَالُ : نَزَلَهَا بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ ، وَفِيهِ كَلَامٌ . وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ مِنْ بُنْيَانِ ٱلْأَوَائِلِ طَيِّبَةُ ٱلْمَاءِ وَٱلْهَوَاءِ، أَحْدَقَتْ بِهَا ٱلْبَسَاتِينُ وَٱلزَّيْتُونُ، وَٱلْقُرَى وَٱلْحُصُونُ ، وَٱلْمِيَاهُ وَٱلْعُيُونُ ، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَبِهَا ٱلْمَحْرَثُ (١) ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ نَظِيرٌ

---

(١) يريد بالحرث أراضيها الزراعية الخصبة ذات الحدائق والبهجة . ولا يبعد ــ وان كان الظاهر ماتقدم ــ أن تكون محرفة عن « محراب » ففي مسجد قرطبة الجامع الذى كان من أعظم مساجد الاسلام محراب لايزال محفوظا ، وهو موضع دهشة وعجب الى اليوم ، وارتفاع قبته نحو تسعة أمتار ، حفر في قطعة واحدة من المرمر الرائق ، وصنع بالفسيفساء ونقشت عليه آيات من القرآن الكريم ، ولعل الأيام تنقذ هذا الأثر الجليل من يد الثورة الأسبانية التي قضت على كثير من الآثار العربية العظيمة بالأندلس ــ وقد كان هذا المسجد الجامع من أفخم الأبنية ، ولا يزال الأثر الباقي منه باعثا على اجلال من شيدوه ورفعوا قواعده وأقاموا عمده ، ومن زاره اليوم ــ ان أفلت من طيش الثورة ــ لا يملك نفسه من التأثر العظيم الذي يستدعي الاعجاب والحسرة معا ، اذ يقف أمام تلك الآثار الماثلة منشدا نفسه :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد مايبين كلامها !

ثم يعود مناجيا نفسه وعبرته :

فاسألنها واجعل بكاك جوابا تجد الدمع سائلا ومجيبا

« أحمد يوسف نجاتي »

وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ بَرَكَةً . وَقَالَ الرَّازِيُّ : قُرْطُبَةُ أُمُّ الْمَدَائِنِ، وَسُرَّةُ الْأَنْدَلُسِ، وَقَرَارَةُ الْمُلْكِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَنَهْرُهَا أَعْظَمُ أَنْهَارِ الْأَنْدَلُسِ ، وَبِهَا الْقَنْطَرَةُ الَّتِي هِيَ إِحْدَى غَرَائِبِ الْأَرْضِ فِي الصَّنْعَةِ وَالْإِحْكَامِ ، وَالْجَامِعُ الَّذِي لَيْسَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِسْلَامِ أَكْبَرُ مِنْهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ أَعْظَمُ مَدِينَةٍ بِالْأَنْدَلُسِ، وَلَيْسَ بِجَمِيعِ الْمَغْرِبِ لَهَا عِنْدِي شَبِيهٌ فِي كَثْرَةِ أَهْلٍ ، وَسَعَةِ مَحَلٍّ ، وَفُسْحَةِ أَسْوَاقٍ ، وَنَظَافَةِ مَحَالَّ، وَعِمَارَةِ مَسَاجِدَ، وَكَثْرَةِ حَمَّامَاتٍ وَفَنَادِقَ . وَيَزْعُمُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِهَا أَنَّهَا كَأَحَدِ جَانِبَيْ بَغْدَادَ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ كَأَحَدِ جَانِبَيْ بَغْدَادَ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَاحِقَةٌ بِهِ . وَهِيَ مَدِينَةٌ حَصِينَةٌ ذَاتُ سُورٍ مِنْ حِجَارَةٍ وَمَحَالَّ حَسَنَةٍ . وَفِيهَا كَانَ سَلَاطِينُهُمْ قَدِيماً ، وَدُورُهُمْ دَاخِلَ سُورِهَا الْمُحِيطِ بِهَا ، وَأَكْثَرُ أَبْوَابِ الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ مِنَ الْبَلَدِ وَجَنُوبِ قُرْطُبَةَ عَلَى نَهْرِهَا . قَالَ : وَقُرْطُبَةُ هَذِهِ بَائِنَةٌ[1]

(١) بائنة : بعيدة، أوظاهرة متميزة

عَنْ مَسَاكِنِ أَرْبَاضِهَا ظَاهِرَةٌ (١)، وَدُرْتُ بِهَا فِي غَيْرِ يَوْمٍ فِي قَدْرِ سَاعَةٍ ـ وَقَدْ قَطَعَتِ الشَّمْسُ خَمْسَ عَشْرَةَ دَرَجَةً ـ مَاشِيًا . وَقَالَ : وَكَانَتْ قُرْطُبَةُ فِي الدَّوْلَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ قُبَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَمُجْتَمَعَ عُلَمَاءِ الْأَنَامِ الْأَعْلَامِ (٢)، بِهَا اسْتَقَرَّ سَرِيرُ الْخِلَافَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ ، وَفِيهَا تَمَحَّضَتْ خُلَاصَةُ الْقَبَائِلِ الْمَعَدِّيَّةِ وَالْيَمَانِيَّةِ، وَإِلَيْهَا كَانَتِ الرِّحْلَةُ فِي رِوَايَةِ الشِّعْرِ (٣) وَالشُّعَرَاءِ ، إِذْ كَانَتْ مَرْكَزَ الْكُرَمَاءِ ، وَمَعْدِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَمْ تَزَلْ تُمْلَأُ الصُّدُورُ مِنْهَا وَالْحَقَائِبُ (٤) ، وَيُبَارِي فِيهَا أَصْحَابُ الْكُتُبِ أَصْحَابَ الْكَتَائِبِ (٥) ، وَلَمْ تَبْرَحْ سَاحَاتُهَا مَجَرَّ عَوَالٍ، وَمَجْرَى سَوَابِقَ (٦)، وَمَحَطَّ مَعَالٍ، وَحِمَى

(١) ظاهرة : خارجة (٢) الأعلام : الظاهرين من ذوى الشهرة والهداية
(٣) ألا يكون الأصل : فى رواية الشريعة الغراء ، وشعر الشعراء ؟
(٤) ملء الصدور كناية عن تحصيل العلم فهو راجع الى العلماء ، وملء الحقائب كناية عن الحصول على الهبات والمال وهو راجع الى الكرماء، قال :

فعابوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(٥) يريد أنها جمعت بين أرباب الأقلام والعلماء، وأرباب السيوف والقواد، ولكل منهما مقامه ومنزلته (٦) العوالى : الرماح، والسوابق: الجياد ، وهو من قول أبى الطيب :

تذكرت مابين العذيب وبارق ... مجر عوالينا ومجرى السوابق

حَقَائِقِ⁽¹⁾ ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ بِمَنْزِلَةِ ٱلرَّأْسِ مِنَ ٱلْجَسَدِ ، وَٱلزَّوْرِ[2] مِنَ ٱلْأَسَدِ ، وَلَهَا ٱلدَّاخِلُ ٱلْفَسِيحُ ، وَٱلْخَارِجُ ٱلَّذِي يُمَتِّعُ ٱلْبَصَرَ بِامْتِدَادِهِ فَلَا يَزَالُ مُسْتَرِيحًا وَهُوَ مِنْ تَرَدُّدِ ٱلنَّظَرِ طَلِيحٌ[3] . وَقَالَ ٱلْحِجَارِيُّ « حَضْرَةُ قُرْطُبَةَ « مُنْذُ ٱفْتُتِحَتِ ٱلْجَزِيرَةُ هِيَ كَانَتِ ٱلْغَايَةَ ، وَمَرْكَزَ ٱلرَّايَةِ ، وَأُمَّ ٱلْقُرَى ، وَقَرَارَةَ أُولِي ٱلْفَضْلِ وَٱلتُّقَى ، وَوَطَنَ أُولِي ٱلْعِلْمِ وَٱلنُّهَى ، وَقَلْبَ ٱلْإِقْلِيمِ ، وَيَنْبُوعَ مُتَفَجَّرِ ٱلْعُلُومِ ، وَقُبَّةَ ٱلْإِسْلَامِ ، وَحَضْرَةَ ٱلْإِمَامِ . وَدَارَ صَوْبِ[4] ٱلْعُقُولِ ،

---

(١) المعالى : جمع معلاة : وهى كسب الشرف ونيل المجد ، والحقائق هنا جمع حقيقة : وهى ما يحق على المرء أن يحميه ويجب عليه أن يذود عنه وما يلزمه حفظه ومنعه والدفاع دونه ، والحقيقة أيضا الراية والعلم ، ويصح ارادته هنا ، ويقال فلان حامى الحقيقة ، قال عامر بن الطفيل بن مالك ابن جعفر بن كلاب :

لقد علمت عليا هوازن أنني   أنا الفارس الحامى حقيقة جعفر

(٢) الزور : الصدر أو وسطه أو أعلاه ، وهو ما ارتفع منه الى الكتفين

(٣) أى متعب ، وطلح البعير « كمنع » طلحا وطلاحة اذا أعيا وكل وبلغ منه الجهد (٤) الصوب : الانصباب كالانصباب ، يقال صاب للطر وانصاب اذا كان كثير الانسكاب ، والعبارة هنا من قول أبى تمام :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت   حياضك منه فى العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول اذا انجلت   سحائب منه أعقبت بسحائب

وَبُسْتَانَ ثَمَرِ الْخَوَاطِرِ ، وَبَحْرَ دُرَرِ الْقَرَائِحِ ، وَمِنْ أُفُقِهَا طَلَعَتْ نُجُومُ الْأَرْضِ(١) وَأَعْلَامُ الْعَصْرِ ، وَفُرْسَانُ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ، وَبِهَا أُنْشِئَتِ التَّأْلِيفَاتُ الرَّائِقَةُ ، وَصُنِّفَتِ التَّصْنِيفَاتُ الْفَائِقَةُ . وَالسَّبَبُ فِي تَبْرِيزِ الْقَوْمِ حَدِيثاً وَقَدِيماً عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ : أَنَّ أُفُقَهُمُ الْقُرْطُبِيَّ لَمْ يَشْتَمِلْ قَطُّ إِلَّا عَلَى الْبَحْثِ وَالطَّلَبِ ، لِأَنْوَاعِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ . انْتَهَى . « وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ » أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّ السُّلْطَانَ الْأَعْظَمَ أَبَا يَعْقُوبَ ابْنَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ قَالَ لِوَالِدِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ : مَا عِنْدَكَ فِي قُرْطُبَةَ ؟ قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : مَا كَانَ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ حَتَّى أَسْمَعَ مَذْهَبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا ، فَقَالَ السُّلْطَانُ : إِنَّ مُلُوكَ بَنِي أُمَيَّةَ حِينَ اتَّخَذُوهَا حَضْرَةَ مُلْكِهِمْ لَعَلَى بَصِيرَةٍ : الدِّيَارُ الْكَثِيرَةُ الْمُنْفَسِحَةُ ، وَالشَّوَارِعُ الْمُتَّسِعَةُ وَالْمَبَانِي الضَّخْمَةُ ، وَالنَّهْرُ الْجَارِي ، وَالْهَوَاءُ الْمُعْتَدِلُ ، وَالْخَارِجُ النَّضِرُ ، وَالْمَحْرَثُ الْعَظِيمُ ، وَالشَّعْرَاءُ(٢) الْكَافِيَةُ ،

---

(١) يريد بنجوم الأرض النابغين في العلوم والمعارف والمبرزين في الفنون والآداب . (٢) الشعراء من الأرض : ذات الشجر أو كثيرته

وَالتَّوَسُّطُ بَيْنَ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ وَغَرْبِهَا(١). قَالَ: فَقُلْتُ مَا أَتَى لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَقُولُ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: وَمِنْ كَلَامِ وَالِدِي فِي شَأْنِهَا: هِيَ مِنْ أَحْسَنِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مَبَانِيَ، وَأَوْسَعِهَا مَسَالِكَ، وَأَبْرَعِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَتَفْضُلُ إِشْبِيلِيَةَ بِسَلَامَتِهَا فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ مِنْ كَثْرَةِ الطِّينِ، وَلِأَهْلِهَا رِيَاسَةٌ وَوَقَارٌ، وَلَا تَزَالُ سِمَةُ(٢) الْعِلْمِ مُتَوَارَثَةً فِيهِمْ، إِلَّا أَنَّ عَامَّتَهَا أَكْثَرُ النَّاسِ فُضُولًا(٣) وَأَشَدُّهُمْ تَشْنِيعًا وَتَشْغِيبًا، وَيُضْرَبُ بِهِمُ الْمَثَلُ مَا بَيْنَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي الْقِيَامِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالتَّشْنِيعِ عَلَى الْوُلَاةِ وَقِلَّةِ الرِّضَا بِأُمُورِهِمْ، حَتَّى إِنَّ السَّيِّدَ أَبَا يَحْيَى بْنَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ لَمَّا انْفَصَلَ عَنْ وِلَايَتِهَا قِيلَ لَهُ: كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَ قُرْطُبَةَ؟ قَالَ: مِثْلُ الْجَمَلِ إِنْ خَفَّفْتَ عَنْهُ الْحِمْلَ صَاحَ، وَإِنْ أَثْقَلْتَهُ بِهِ صَاحَ، مَا نَدْرِي أَيْنَ رِضَاهُمْ فَنَقْصِدَهُ، وَلَا أَيْنَ سَخَطُهُمْ

(١) سبق في الجزء الأول هذه العبارة وشرحها (٢) أوسمة (٣) الفضول: التعرض لما لا يعني والاشتغال بما لا خير فيه ولا عائدة تنفع، وهم في ذلك مثل كثير من طلبة مصر، وورد «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وأحمد يوسف نجاتي

فَتَجْتَنِبَهُ ! وَمَا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ حَجَّاجَ الْفِتْنَةِ(١) حَتَّى كَانَ عَامَّتُهَا شَرًّا مِنْ عَامَّةِ الْعِرَاقِ ، وَإِنَّ الْعَزْلَ عَنْهَا لِمَا قَاسَيْتُ مِنْ أَهْلِهَا عِنْدِي وِلَايَةٌ ، وَإِنِّي إِنْ كُلِّفْتُ الْعَوْدَ إِلَيْهَا لَقَائِلٌ : « لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » .

***

محاسن أهل قرطبة « قَالَ وَالِدِي » وَمِنْ مَحَاسِنِهَا ظَرْفُ اللِّبَاسِ ، وَالتَّظَاهُرُ بِالدِّينِ ، وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَتَعْظِيمُ أَهْلِهَا لِجَامِعِهَا الْأَعْظَمِ ، وَكَسْرُ أَوَانِي الْخَمْرِ حَيْثُمَا وَقَعَ عَيْنُ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا عَلَيْهَا ، وَالتَّسَتُّرُ بِأَنْوَاعِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَالتَّفَاخُرُ بِأَصَالَةِ الْبَيْتِ ، وَبِالْجُنْدِيَّةِ ، وَبِالْعِلْمِ ، وَهِيَ أَكْثَرُ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ كُتُبًا ، وَأَشَدُّ النَّاسِ اعْتِنَاءً بِخَزَائِنِ الْكُتُبِ ، صَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ آلَاتِ التَّعَيُّنِ(٢) وَالرِّيَاسَةِ ، حَتَّى إِنَّ الرَّئِيسَ مِنْهُمُ الَّذِي لَا تَكُونُ عِنْدَهُ مَعْرِفَةٌ يَحْتَفِلُ فِي أَنْ تَكُونَ

(١) يريد الفتنة التي استأصلت كثيرا منهم فكانت عليهم في الشدة والقسوة وكثرة الفتك مثل الحجاج بن يوسف الثقفي عامل العراق لعبد الملك بن مروان والوليد بعده (٢) يظهر أن التعين هنا من « عين » بمعنى سيد، والعين : كبير القوم وجمعه أعيان، وهم الأشراف الأماثل والسادة الأفاضل .

فِي بَيْتِهِ خِزَانَةُ كُتُبٍ، وَيَنْتَخِبُ فِيهَا، لَيْسَ إِلَّا لِأَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ عِنْدَهُ خِزَانَةُ كُتُبٍ، وَالْكِتَابُ الْفُلَانِيُّ لَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، وَالْكِتَابُ الَّذِي هُوَ بِخَطِّ فُلَانٍ قَدْ حَصَّلَهُ وَظَفِرَ بِهِ.

***

ولع أهل قرطبة باقتناء الكتب

«قَالَ الْحَضْرَمِيُّ» أَقَمْتُ مَرَّةً بِقُرْطُبَةَ وَلَازَمْتُ سُوقَ كُتُبِهَا مُدَّةً أَتَرَقَّبُ فِيهِ وُقُوعَ كِتَابٍ كَانَ لِي بِطَلَبِهِ اعْتِنَاءٌ إِلَى أَنْ وَقَعَ وَهُوَ بِخَطٍّ[1] فَصِيحٍ وَتَفْسِيرٍ مَلِيحٍ، فَفَرِحْتُ بِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ، فَجَعَلْتُ أَزِيدُ فِي ثَمَنِهِ، فَيَرْجِعُ إِلَيَّ الْمُنَادِي بِالزِّيَادَةِ عَلَيَّ إِلَى أَنْ بَلَغَ فَوْقَ حَدِّهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا هٰذَا أَرِنِي مَنْ يَزِيدُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ حَتَّى بَلَّغَهُ إِلَى مَا لَا يُسَاوِي، قَالَ فَأَرَانِي شَخْصًا عَلَيْهِ لِبَاسُ رِيَاسَةٍ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ: أَعَزَّ اللهُ سَيِّدَنَا الْفَقِيهَ، إِنْ كَانَ لَكَ غَرَضٌ فِي هٰذَا الْكِتَابِ تَرَكْتُهُ لَكَ، فَقَدْ بَلَغَتْ بِهِ الزِّيَادَةُ بَيْنَنَا فَوْقَ حَدِّهِ، قَالَ فَقَالَ لِي: لَسْتُ بِفَقِيهٍ، وَلَا أَدْرِي مَا فِيهِ، وَلٰكِنِّي أَقَمْتُ خِزَانَةَ كُتُبٍ، وَاحْتَفَلْتُ فِيهَا لِأَتَجَمَّلَ بِهَا بَيْنَ أَعْيَانِ الْبَلَدِ

(١) أي واضح كما هو بين

وَبَقِيَ فِيهَا مَوْضِعٌ يَسَعُ هٰذَا الْكِتَابَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ حَسَنَ الْخَطِّ جَيِّدَ التَّجْلِيدِ اسْتَحْسَنْتُهُ ، وَلَمْ أُبَالِ بِمَا أَزِيدُ فِيهِ ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنَ الرِّزْقِ فَهُوَ كَثِيرٌ . قَالَ الْحَضْرَمِيُّ : فَأَحْرَجَنِي وَحَمَلَنِي عَلَى أَنْ قُلْتُ لَهُ : نَعَمْ لَا يَكُونُ الرِّزْقُ كَثِيرًا إِلَّا عِنْدَ مِثْلِكَ ، يُعْطِي الْجَوْزَ مَنْ لَا لَهُ أَسْنَانٌ وَأَنَا الَّذِي أَعْلَمُ مَا فِي هٰذَا الْكِتَابِ وَأَطْلُبُ الِانْتِفَاعَ بِهِ يَكُونُ الرِّزْقُ عِنْدِي قَلِيلًا ، وَتَحُولُ قِلَّةُ مَا بِيَدِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ .

« قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ » : وَجَرَتْ مُنَاظَرَةٌ بَيْنَ يَدَيْ مَنْصُورِ بَنِي[1] عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ الْفَقِيهِ الْعَالِمِ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ رُشْدٍ وَالرَّئِيسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهْرٍ ، فَقَالَ ابْنُ رُشْدٍ لِابْنِ زُهْرٍ فِي كَلَامِهِ : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ ؟ : غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ عَالِمٌ بِإِشْبِيلِيَةَ فَأُرِيدَ بَيْعُ كُتُبِهِ حُمِلَتْ إِلَى قُرْطُبَةَ حَتَّى تُبَاعَ فِيهَا ، وَإِذَا مَاتَ مُطْرِبٌ بِقُرْطُبَةَ فَأُرِيدَ بَيْعُ تَرِكَتِهِ حُمِلَتْ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ .

---

(١) في الأصل [بن] وهو تحريف

***

« وَسُئِلَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ » عَنْ قَصْرِ قُرْطُبَةَ فَقَالَ: هُوَ قَصْرٌ أَوَّلِيٌّ(١) تَدَاوَلَتْهُ مُلُوكُ ٱلْأُمَمِ مِنْ لَدُنْ عَهْدِ مُوسَى النَّبِيِّ — صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَفِيهِ مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلْأَوَّلِيَّةِ وَٱلْآثَارِ ٱلْعَجِيبَةِ لِلْيُونَانِيِّينَ ثُمَّ لِلرُّومِ وَٱلْقُوطِ وَٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ مَا يُعْجِزُ ٱلْوَصْفَ، ثُمَّ ٱبْتَدَعَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ — مُنْذُ فَتَحَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْدَلُسَ بِمَا فِيهَا — فِي قَصْرِهَا ٱلْبَدَائِعَ ٱلْحِسَانَ، وَأَثَّرُوا فِيهِ ٱلْآثَارَ ٱلْعَجِيبَةَ، وَٱلرِّيَاضَ ٱلْأَنِيقَةَ، وَأَجْرَوْا فِيهِ ٱلْمِيَاهَ ٱلْعَذْبَةَ ٱلْمَجْلُوبَةَ مِنْ جِبَالِ قُرْطُبَةَ عَلَى ٱلْمَسَافَاتِ ٱلْبَعِيدَةِ، وَتَمَوَّنُوا ٱلْمُؤَنَ(٢) ٱلْجَسِيمَةَ حَتَّى أَوْصَلُوهَا إِلَى ٱلْقَصْرِ ٱلْكَرِيمِ، وَأَجْرَوْهَا فِي كُلِّ سَاحَةٍ مِنْ سَاحَاتِهِ وَنَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِيهِ فِي قَنَوَاتِ ٱلرَّصَاصِ، تُؤَدِّيهَا مِنْهَا إِلَى ٱلْمَصَانِعِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةُ ٱلْأَشْكَالِ مِنَ وصف قصر قرطبة

---

(١) لعله أزلي: وأولي منسوب الى أول كأنه يريد أولية الخليقة، وعلى كلا الأمرين فالمراد القدم المجهول الأولية: كما يقال في القديم أيضا عادي نسبة الى عاد (٢) أي أنفقوا النفقات الكبيرة وتحملوا التكاليف الباهظة

الذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ وَالْفِضَّةِ الْخَالِصَةِ وَالنُّحَاسِ الْمُمَوَّهِ(١) إِلَى الْبُحَيْرَاتِ الْهَائِلَةِ، وَالْبِرَكِ الْبَدِيعَةِ، وَالصَّهَارِيجِ الْغَرِيبَةِ فِي أَحْوَاضِ الرُّخَامِ الرُّومِيَّةِ الْمَنْقُوشَةِ الْعَجِيبَةِ. قَالَ: وَفِي هٰذَا الْقَصْرِ الْقِصَابُ(٢) الْعَالِيَةُ السُّمُوِّ، الْمُنِيفَةُ الْعُلُوِّ الَّتِي لَمْ يَرَ الرَّاءُونَ مِثْلَهَا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

« قَالَ » وَمِنْ قُصُورِهِ الْمَشْهُورَةِ وَبَسَاتِينِهِ الْمَعْرُوفَةِ الْكَامِلُ، وَالْمُجَدَّدُ، وَالْحَائِرُ، وَالرَّوْضَةُ، وَالزَّاهِرُ، وَالْمَعْشُوقُ، وَالْمُبَارَكُ، وَالرَّشِيقُ(٣) وَقَصْرُ السُّرُورِ وَالتَّاجُ، وَالْبَدِيعُ(٤)

---

(١) أي المطلي بفضة أو ذهب (٢) لعله يريد أنابيب المياه — ومخرج الماء من القصب وهي مجاري الماء من العيون ومنابعها — ومن معاني القصبة القصر أو جوفه يبنى فيه بناء هو أوسطه — والقصاب مسناة تبنى في المخفض لئلا يجتمع السيل ويوبل فيهدم أصل الحائط بسببه (٣) في الأصل (الرستق) وهو تصحيف (٤) أغلب أسماء هذه القصور والبساتين منقولة عن أسماء قصور مشهورة بناها الخلفاء العباسيون في بغداد وسامراء وضواحيهما وربما أفردنا هذه القصور بمقال خاص ان شاء الله. وكان بوابا على باب الكامل وأمينا في الزهراء محمد بن عبد الحميد بن طالب بن مدرك بن عبد الحميد بن غانم البواب القرطبي مولى معاوية بن هشام وكان من أهل الخير والشرف رحل الى المشرق سنة ٣١٣ فسمع من علمائه وعاد الى بلده فتوفي به سنة ٣٣٢ « أحمد يوسف نجاتي ».

***

« قَالَ » وَمِنْ أَبْوَابِهِ الَّتِي فَتَحَهَا اللهُ لِنَصْرِ الْمَظْلُومِينَ وَغِيَاثِ الْمَلْهُوفِينَ وَالْحُكْمِ بِالْحَقِّ: الْبَابُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّطْحُ الْمُشْرِفُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَعَلَى هَذَا الْبَابِ بَابٌ حَدِيدٌ وَفِيهِ حَلَقٌ لَاطُونٌ(١) قَدْ أُثْبِتَتْ فِي قَوَاعِدِهَا، وَقَدْ صُوِّرَتْ صُورَةَ إِنْسَانٍ فَاتِحٍ فَمَهُ، وَهِيَ حَلَقُ بَابِ مَدِينَةِ أَرْبُونَةَ مِنْ بِلَادِ الْأَفْرَنْجِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ قَدْ افْتَتَحَهَا فَجَلَبَ حَلَقَهَا إِلَى هَذَا الْبَابِ، وَلَهُ بَابٌ قِبْلِيٌّ أَيْضًا وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِبَابِ الْجِنَانِ، وَقُدَّامَ هَذَيْنِ الْبَابَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ عَلَى الرَّصِيفِ الْمُشْرِفِ عَلَى النَّهْرِ الْأَعْظَمِ مَسْجِدَانِ مَشْهُورَانِ بِالْفَضْلِ، كَانَ الْأَمِيرُ هِشَامٌ الرَّضِيُّ يَسْتَعْمِلُ الْحُكْمَ فِي الْمَظَالِمِ فِيهِمَا ابْتِغَاءَ ثَوَابِ اللهِ الْجَزِيلِ، وَلَهُ بَابٌ ثَالِثٌ يُعْرَفُ بِبَابِ الْوَادِي، وَلَهُ بَابٌ بِشَمَالِيِّهِ يُعْرَفُ بِبَابِ قُورِيَةَ، وَلَهُ بَابٌ رَابِعٌ يُدْعَى بِبَابِ الْجَامِعِ وَهُوَ بَابٌ قَدِيمٌ كَانَ يَدْخُلُ مِنْهُ الْخُلَفَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ عَلَى السَّابَاطِ(٢). وَعَدَّدَ أَبْوَابًا بَعْدَ هَذَا

(١) اللاطون: هو النحاس الأصفر (٢) الساباط سقيفة بين دارين

طُمِسَتْ أَيَّامَ فِتْنَةِ ٱلْمَهْدِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ .

***

أبواب قرطبة

« وَذَكَرَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ » أَنَّ أَبْوَابَ قُرْطُبَةَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ : بَابُ ٱلْقَنْطَرَةِ إِلَى جِهَةِ ٱلْقِبْلَةِ(١)، وَيُعْرَفُ بِبَابِ ٱلْوَادِي وَبِبَابِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ، وَهُوَ عَلَى

أو حائطين من تحتها طريق نافذ، وكان الأمير عبد الله بن محمد قد أنشأ ساباطا معقودا على حنايا وصل فيه مابين قصر الامارة وباب فتح فى جدران المسجد ، وفى أيام الحكم المستنصر زيد فى المسجد من جنوبيه فقطع من هذا الجانب ساباط القصر لتتخذ لخروج الخليفة الى الصلاة وبدئ بناء هذا المسجد العظيم فى سنة ١٦٩ فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، وانتهى العمل فيه فى مدة ابنه هشام سنة ١٧٧ فجاء آية فى الفن وحسن الزخرفة والبهاء . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) كان بقرب هذا الباب مقبرة دفن بها كثير من العلماء ، منهم أبو على الحسن بن أيوب بن محمد بن أيوب الأنصارى القرطبي المعروف بالحداد الفقيه العالم المحدث الراوية اللغوى الأديب كان ذا شعر حسن فى الزهد والرثاء وذا دين وفضل ، ولد سنة ٣٣٨ وتوفى سنة ٤٥٢ ودفن خلف باب القنطرة . ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن هرون الفهمى المقرى المعروف بابن الوراق المقرى، تولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة وكان ثقة ولد سنة ٤٤٢ وتوفى سنة ٥٢٢ ودفن بباب القنطرة « أحمد يوسف نجاتى » .

ٱلنَّهْرِ ، وَبَابُ ٱلْحَدِيدِ(١) وَيُعْرَفُ بِبَابِ سَرَقُسْطَةَ ، وَبَابُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ (٢) وَهُوَ بَابُ طُلَيْطِلَةَ ، وَبَابُ رُومِيَةَ ، وَفِيهِ تَجْتَمِعُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلرُّصُفُ ٱلَّتِي تَشُقُّ دَائِرَةَ ٱلْأَرْضِ مِنْ جَزِيرَةِ قَادِسَ إِلَى قَرْمُونَةَ إِلَى قُرْطُبَةَ إِلَى سَرَقُسْطَةَ إِلَى طَرَّكُونَةَ (٣) إِلَى أَرْبُونَةَ مَارَّةً فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ ، ثُمَّ بَابُ طَلَبِيرَةَ وَهُوَ أَيْضًا بَابُ لِيُونَ (٤) ، ثُمَّ بَابُ عَامِرٍ

(١) وفى بعض المراجع الباب الجديد ، وكان بالربض الشرقى من قرطبة

(٢) هو عبد الجبار بن خطاب بن مروان بن نذير مولى مروان بن الحكم ، واليه نسب ذلك الباب الشرقى بقرطبة ، وهو جد بنى خطاب التدمريين ، ومنتماهم فى الأزد ، منهم مروان بن خطاب بن عبد الجبار ابن خطاب — ومن فضلاء ذريته أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك ابن موسى بن عبد الملك بن الوليد بن محمد بن الوليد بن مروان بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار من أهل مرسية كان فقيها جليلا وعالما فاضلا ومحدثا نبيلا وأديبا بليغا ، وله مؤلفات نافعة فى فنون مختلفة وتوفى سنة ٥٩٩ . وسنفرد بنى خطاب بمقال مسهب ان شاء الله « أحمد يوسف نجاتى » (٣) طركونة : هى موضع من أعمال لبلة الى الغرب من قرطبة ، ولبلة كانت قصبة كورة كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونبة ، وهى شرق من أكشونبة وغرب من قرطبة . وتقدم وصفها (٤) أى يسمى أيضا باب « ليون » وليون شمال طليرة وان بعدت عنها جدا ، وطليرة شمال قرطبة ، وبينهما مسافة شاسعة كذلك

ٱلْقُرَشِيُّ ــ وَقُدَّامَهُ ٱلْمَقْبَرَةُ(١) ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ بَابُ ٱلْحُـورِ(٢) وَيُعْرَفُ بِبَابِ بَطْلَيُوسَ ، ثُمَّ بَابُ ٱلْعَطَّارِينَ وَهُوَ بَابُ إِشْبِيلِيَةَ . ٱنْتَهَى .

***

أرباض قرطبة

وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ عَدَدَ أَرْبَاضِ قُرْطُبَةَ عِنْدَ ٱنْتِهَائِهَا فِي ٱلتَّوَسُّعِ وَٱلْعِمَارَةِ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ رَبَضًا ، مِنْهَا ٱلْقِبْلِيَّةُ بِعُدْوَةِ ٱلنَّهْرِ : رَبَضُ شَقُنْدَةَ ، وَرَبَضُ مُنْيَةِ عَجَبٍ(٣) . وَأَمَّا ٱلْغَرْبِيَّةُ فَتِسْعَةٌ : رَبَضُ حَوَانِيتِ

---

(١) ممن دفن بهذه المقبرة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مطرف الكنانى القرطبي المقرى الجليل والفقيه الصالح ولد سنة ٣٨٧ وتوفى سنة ٤٥٤ ودفن عند باب عامر ــ وأبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن بن سليمان بن معاوية بن سوار اللخمي المؤذن القرطبي المقرى الفقيه المحدث كان أحد أئمة المسجد الجامع ولد سنة ٣١٠ وتوفى سنة ٣٨٢ ودفن بمقبرة باب عامر (٢) كذا بالأصل وأظنه باب الجوز وعنده كان مسكن أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن حسان بن يحيى الأموى العطار القرطبي العالم الفقيه ولد سنة ٣٣٠ وتوفى سنة ٤٠٩ (٣) وممن كان يسكن منية عجب خلف بن سعيد المثني المحدث الفقيه المقرئ الفاضل ، توفى شهيدا سنة ٣٠٥ ــ وأبو زيد خالد بن محمد بن أحمد بن خالد القرطبي حفيد أحمد ابن خالد الفقيه المعروف بابن الحباب وكان فقيها صالحا ورعا عالما محدثا توفى سنة ٣١٨ ــ وأبو القاسم محمد بن محمد بن مسرور الأموى الصيدلانى القرطبي المعروف بالحفاء كانت له عناية بالعلم ورواية الحديث وسكناه بمنية عجب ولد سنة ٣١١ وتوفى سنة ٣٩١ «أحمد يوسف نجاتى»

أَلرَّيْحَانِ ، وَرَبَضُ الرَّقَّاقِينَ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ الْكَهْفِ ، وَرَبَضُ بَلَاطِ مُغِيثٍ (١) ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ الشِّفَاءِ (٢) ، وَرَبَضُ حَمَّامِ الْإِلْبِيرِيِّ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ السُّرُورِ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ الرَّوْضَةِ ، وَرَبَضُ السِّجْنِ الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الشَّمَالِيَّةُ فَثَلَاثَةٌ : رَبَضُ بَابِ الْيَهُودِ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ أُمِّ سَلَمَةَ ، وَرَبَضُ الرُّصَافَةِ . وَأَمَّا الشَّرْقِيَّةُ فَسَبْعَةٌ : رَبَضُ شَبْلَارَ (٣) وَرَبَضُ

(١) ممن كان يسكن بلاط مغيث أبو عثمان سعيد بن خير بن عبد الرحمن القرطبي رحل الى المشرق فسمع من يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهما ، وكان يسكن بلاط مغيث فنقله الأمير عبد الله الى المدينة بقرب المسجد الجامع ، فكان يجلس به ويجتمع اليه الناس وكان فقيها عالما فاضلا ولد سنة ٢٣٠ وتوفى سنه ٣٠١ (٢) لاأدرى أهو كذلك كما فى الأصل أم هو مسجد السقاء الذى كان امامه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى الأديب من أهل قرطبة كان عالما فقيها حميد الدين حسن العقل سهل الخلق دمث الطباع مع نبله وبراعته وتقدمه فى علوم العربية والمنثور واية الشعر والأدب وكان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشفيق غيورا على افادتهم متلطفا فى ذلك ، ولد سنة ٣٧٦ وتوفى سنة ٤٣٣ رحمه الله ولنا كلمة مطولة فى مشيختنا ومن ينسب اليه «أحمد يوسف نجاتى» . (٣) فى الأصل سبلار ، وفى ياقوت : «شبلار» وكان يسكن بها عبد الله بن محمد بن جعفر القرطبى المتوفى سنة ٣١٩ ـ اه وأرجح أنها «شبلار» وكان يسكن بها أبو بكر محمد بن سعيد بن عبد الله بن حمدون بن

قَرْنِ بِرِّيلٍ[(١)] وَرَبَضُ ٱلْبُرْجِ : وَرَبَضُ مُنْيَةِ عَبْدِ ٱللَّهِ ، وَرَبَضُ مُنْيَةِ ٱلْمُغِيرَةِ[(٢)] وَرَبَضُ ٱلزَّاهِرَةِ ، وَرَبَضُ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْعَتِيقَةِ .

قَالَ : وَوَسَطَ هَٰذِهِ ٱلْأَرْبَاضِ قَصَبَةُ قُرْطُبَةَ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِالسُّورِ دُونَهَا. وَكَانَتْ هَٰذِهِ ٱلْأَرْبَاضُ بِدُونِ سُورٍ، فَلَمَّا كَانَتْ أَيَّامُ ٱلْفِتْنَةِ صُنِعَ لَهَا خَنْدَقٌ يَدُورُ بِجَمِيعِهَا وَحَائِطٌ مَانِعٌ .

« وَذَكَرَ ٱبْنُ غَالِبٍ » أَنَّهُ كَانَ دَوْرُ هَٰذَا ٱلْحَائِطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ مِيلًا . وَشَقَنْدَةُ مَعْدُودَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِأَنَّهَا مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ كَانَتْ مُسَوَّرَةً[(٣)] .

علقمة الحجرى القرطبي ، قال ابن الفرضي : كان يسكن بشبلار قرب زقاق زرعة ويصلي بمسجد ابن عبيد ، وقد حدث عنه القاضي يونس ابن عبد الله في بعض تصانيفه وكان جاره ، وقال في موضع آخر في ترجمة أبي عبد الله « شمر بن نمير » مولى بني أمية : لما قدم من المدينة الى قرطبة في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ضمه الى تأديب ولده وأنزله في الدار المعروفة بشبلار بدار ابن الشمر ، وكان له ابن شاعر جلس للأمير عبد الرحمن بن الحكم اسمه عبد الله « أحمد يوسف نجاتي » (١) في بعض المراجع « قرن بريل » (٢) وممن كان يسكن منية المغيرة الوزير أبو مروان عبد الملك بن أحمد ابن عبد الملك بن شهيد ، وتقدم التعريف به . ومنهم أبو عبد الله محمد ابن سعيد بن أبي عتبة القشيري النحوى القرطبي الأديب توفى سنة ٣٧٧ وبربض منية المغيرة ولد أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الامام المشهور سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ (٣) تقدم القول في « شقندة »

***

«قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ» فِي الْمُغْرِبِ: وَلْنَذْكُرِ الْآنَ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ وَمَمَاهِدِهَا الْمَذْكُورَةِ فِي الْأَلْسُنِ نَظْمًا وَنَثْرًا مَا انْتَهَى إِلَيْهِ الضَّبْطُ مِنْ غَيْرِ تَغَلْغُلٍ فِي غَيْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهَا وَالْأَهَمِّ، وَنُوَشِّي ذَلِكَ بِجَمِيعِ مَا يَحْضُرُنِي مِنْ مُخْتَارِ النَّظْمِ فِي قُرْطُبَةَ، وَمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ نِطَاقُهَا الْمَذْكُورُ. متنزهات قرطبة

فَأَوَّلُ مَا نَذْكُرُ مِنَ الْمُتَنَزَّهَاتِ مُتَنَزَّهَاتُ الْخُلَفَاءِ الْمَرْوَانِيَّةِ وَهُوَ قَصْرُ الرُّصَافَةِ، فَنَقُولُ: كَانَ هَذَا الْقَصْرُ مِمَّا ابْتَنَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ فِي أَوَّلِ أَيَّامِهِ لِتَنَزُّهِهِ، وَسُكْنَاهُ أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ مُنْيَةُ الرُّصَافَةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا بِشَمَالِ قُرْطُبَةَ مُنْحَرِفَةً إِلَى الْغَرْبِ، فَاتَّخَذَ بِهَا قَصْرًا حَسَنًا، وَدَحَا[1] جِنَانًا وَاسِعَةً، وَنَقَلَ إِلَيْهَا غَرَائِبَ الْغُرُوسِ وَأَكَارِمَ الشَّجَرِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَوْدَعَهَا مَا كَانَ اسْتَجْلَبَهُ يَزِيدُ وَسَفْرٌ رَسُولَاهُ إِلَى الشَّامِ مِنَ النَّوَى الْمُخْتَارِ وَالْحُبُوبِ الْغَرِيبَةِ، حَتَّى نَمَتْ

ومن كان يسكن بها أبو عمر أحمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي القرطبي كان يسكن عدوة النهر بشقندة وكان فقيها محدثا توفى سنة ٣٩١

(١) دحا الله الأرض: بسطها وأوسعها

يمين الجدّ وحسن التربية في المدّة القريبة أشجارًا مُعتَمّة(١)، أثرت بغرائب من الفواكه انتشرت عمّا قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها. وقد سمّاها باسم رُصافة جدّه هشام بأرض الشام الأثيرة لديه، ولميله في اختيار هذه وكلفه بها وكثرة تردّده عليها وسكناه أكثر أوقاته بها طار لها الذكر في أيامه، واتّصل من بعده في إيثارها، قال: وكلّهم فضّلها وزاد في عمارتها، وأنبرى وُصّاف الشعراء لها فتنافوا(٢) في ذلك فيما هو إلى الآن مشهور مأثور عنهم، مُستجاد منهم.

***

رمان الرصافة وقال ابن سعيد: والرمّان السفري الذي فاض على أرجاء الأندلس وصاروا لا يفضّلون عليه سواه أصله من هذه الرصافة، وقد ذكر ابن حيّان شأنه، وأفرد له فصلًا فقال: إنه الموصوف بالفضيلة، المقدّم على أجناس الرمّان

(١) من المجاز قولهم اعتم النبت اذا التف وطال، وروضة معتمة أى وافية النبات طويلته، واعتمت الآكام بالنبات تعممت. (٢) في الأصل (فتنازعوا)

بِعُذُوبَةِ الطَّعْمِ وَدِقَّةِ الْعَجَمِ[١] وَغَزَارَةِ الْمَاءِ وَحُسْنِ الصُّورَةِ. وَكَانَ رَسُولُهُ إِلَى الشَّامِ فِي تَوْصِيلِ أُخْتِهِ مِنْهَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ قَدْ جَلَبَ طَرَائِفَ فِيهَا مِنْ رُمَّانِ الرُّصَافَةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى هِشَامٍ، قَالَ: فَعَرَضَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى خَوَاصِّ رِجَالِهِ مُبَاهِيًا بِهِ، وَكَانَ فِيمَنْ حَضَرَهُ مِنْهُمْ سَفَرُ بْنُ زَيْدٍ[٢] الْكَلَاعِيُّ مِنْ جُنْدِ الْأُرْدُنِّ - وَيُقَالُ: هُوَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمِلُونَ أَلْوِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزَوَاتِهِ قَالَ: وَهُمْ يَحْمِلُونَ الْأَلْوِيَةَ بَيْنَ يَدَيِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ - فَأَعْطَاهُ مِنْ ذَلِكَ الرُّمَّانِ جُزْءًا، فَرَاقَهُ حُسْنُهُ وَخَبَرُهُ، فَسَارَ بِهِ إِلَى قَرْيَتِهِ بِكُورَةِ رَيَّةَ، فَعَالَجَ عَجَمَهُ وَاحْتَالَ لِغَرْسِهِ وَغِذَائِهِ وَتَنْقِيلِهِ حَتَّى طَلَعَ شَجَرًا أَثْمَرَ وَأَيْنَعَ، فَنَزَعَ إِلَى عِرْقِهِ، وَأَغْرَبَ فِي حُسْنِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَإِذَا هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِذَلِكَ الرُّصَافِيِّ، فَسَأَلَهُ الْأَمِيرُ عَنْهُ فَعَرَّفَهُ وَجْهَ حِيلَتِهِ، فَاسْتَبْرَعَ اسْتِنْبَاطَهُ، وَاسْتَنْبَلَ هِمَّتَهُ، وَشَكَرَ صُنْعَهُ، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ، وَاغْتَرَسَ مِنْهُ بِمُنْيَةِ

(١) العجم: بالتحريك: نوى كل شيء، الواحدة عجمة.

(٢) كذا بالأصل، وأظن أنه سفر بن عبيد

ٱلرُّصَافَةِ وَبِغَيْرِهَا مِنْ جِنَانِهِ ، فَٱنْتَشَرَ نَوْعُهُ ، وَٱسْتَوْسَعَ ٱلنَّاسُ فِي غِرَاسِهِ ، وَلَزِمَهُ ٱلنَّسَبُ إِلَيْهِ ، فَصَارَ يُعْرَفُ إِلَى ٱلْآنَ بِالرُّمَّانِ ٱلسَّفْرِيِّ . قَالَ : وَقَدْ وَصَفَ هَذَا ٱلرُّمَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ رَوْحٍ (١) ٱلشَّاعِرُ فِي أَبْيَاتٍ كَتَبَ بِهَا إِلَى بَعْضِ مَنْ أَهْدَاهُ لَهُ فَقَالَ :

وَلَابِسَةٍ صَدَفًا أَحْمَرَا أَتَتْكَ وَقَدْ مُلِئَتْ جَوْهَرَا
كَأَنَّكَ فَاتِحُ حُقٍّ لَطِيفٍ تَضَمَّنَ مَرْجَانُهُ ٱلْأَحْمَرَا
حُبُوبًا كَمِثْلِ لِثَاتِ ٱلْحَبِيبِ رُضَابًا إِذَا شِئْتَ أَوْ مَنْظَرَا
وَلِلسَّفْرِ تُعْزَى وَمَا سَافَرَتْ
فَتَشْكُو ٱلنَّوَى أَوْ تُقَاسِي ٱلسُّرَى
بَلَى فَارَقَتْ أَيْكَهَا (٢) نَاعِمًا رَطِيبًا وَأَغْصَانُهَا نُضَّرَا

(١) كذا بالأصل ، والذى أعرفه أن اسم قائل هذه الأبيات هو أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني وكان شاعرا رقيقا وافر الأدب كثير الشعر وكان يعد فى العلماء والشعراء ، وكان فى أيام الحكم المستنصر — وأخوه سعيد بن محمد بن فرج كذلك كان عالما أديبا شاعرا رقيقا ، ولهم أخ ثالث كذلك وهو عبد الله وكلهم جمعوا بين العلم والأدب وجودة الشعر وبخاصة فى وصف الرياض وحسن مناظر الطبيعة ، ولكل منهم مؤلفات فى الأدب . وسنفردهم بمقال خاص نبين فيه حياتهم وآثارهم فى الأدب ان شاء الله . « أحمد يوسف نجاتى » .
(٢) الأيك : الشجر الكثير الملتف واحده أيكة — ومما جاء فى وصف الرمان قول ابن شاه :

وَجَاءَتْكَ مُمْتَاحَةً إِذْ أَتَتْكَ

بِأَكْرَمَ مِنْ عُودِهَا عُنْصُرَا

بِعُودٍ يُرَى فِيهِ مَاءُ ٱلنَّـدَى

وَيُورِقُ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُثْمِرَا

هَدِيَّةُ مَنْ لَوْ غَدَتْ نَفْسُهُ

هَدِيَّتَـهُ ظَنَّـهُ قَصَّرَا

***

طرفة قاسم بن عبود الرياحي

« وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسَّعِيدِ » وَأَخْبَرَنِي وَالِدِي قَالَ أَخْبَرَنِي ٱلْوَشَّاحُ ٱلْمُبَرِّزُ ٱلْمُحْسِنُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَرِينِيُّ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَشْرَبُ مَعَ نُدَمَائِي بِإِزَاءِ ٱلرُّصَافَةِ إِذْ بِإِنْسَانٍ رَثِّ ٱلْهَيْئَةِ مَجْفُوِّ ٱلطَّلْعَةِ قَدْ جَاءَ فَجَلَسَ مَعَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: مَا هَذَا ٱلْإِقْدَامُ عَلَى ٱلْجُلُوسِ مَعَنَا دُونَ سَابِقِ مَعْرِفَةٍ؟ فَقَالَ لَا تَعْجَلُوا عَلَيَّ، ثُمَّ فَـكَّرَ قَلِيلًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَأَنْشَدَنَا:

ٱسْقِنِيهَا إِزَاءَ قَصْرِ ٱلرُّصَافَهْ

وَٱعْتَبِرْ فِي مَآلِ أَمْرِ ٱلْخِلَافَهْ

ورمانة شبهتها اذ رأيتها	بثدي كعاب أو بحقة مرمر
متممنة صفراء تضد حولها	يواقيت حمر في ملاء معصفر
لها قشر عقيان ورأس مشرق	وأغصان خيري وأوراق عبهر

وَأَنظُرِ ٱلْأُفْقَ كَيْفَ بُدِّلَ أَرْضًا

كَيْ يُطِيلَ ٱللَّبِيبُ فِيهِ ٱعْتِرَافَهْ؟

وَيَرَى أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِيهِ

مِنْ نَعِيمٍ وَعِزِّ أَمْرٍ سَخَافَهْ

كُلُّ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ غَيْرُ شَيْءٍ

مَا خَلَا لَذَّةَ ٱلْهَوَى وَٱلسُّلَافَهْ

قَالَ ٱلْمَرِينِيُّ: فَقَبَّلْتُ رَأْسَهُ، وَقُلْتُ لَهُ بِٱللهِ مَنْ تَكُونُ؟ فَقَالَ: قَاسِمُ بْنُ عَبُّودٍ ٱلرِّيَاحِيُّ ٱلَّذِي يَزْعُمُ ٱلنَّاسُ أَنَّهُ مُوَسْوِسٌ أَحْمَقُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا شِعْرُ أَحْمَقَ، وَإِنَّ ٱلْعُقَلَاءَ لَتَعْجِزُ عَنْهُ، فَبِٱللهِ إِلَّا مَا تَمَّمْتَ مَسَرَّتَنَا بِمُؤَانَسَتِكَ وَمُنَادَمَتِكَ وَمُنَاشَدَةِ طُرَفِ أَشْعَارِكَ! فَنَادَمَ وَأَنْشَدَ، وَمَازِلْنَا مَعَهُ فِي طِيبَةِ عَيْشٍ إِلَى أَنْ وَدَّعْنَاهُ وَهُوَ يَتَلَاطَمُ مَعَ ٱلْحِيطَانِ سُكْرًا، وَيَقُولُ: ٱللَّهُمَّ غَفْرًا. ٱنْتَهَى.

***

قصور ضواحي قرطبة

«قَالَ» وَمِنْ قُصُورِ خَارِجِ قُرْطُبَةَ قَصْرُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي يَحْيَى بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ، وَهُوَ عَلَى مَتْنِ

ٱلنَّهْرِ ٱلْأَعْظَمِ تَحْمِلُهُ أَقْوَاسٌ. وَقِيلَ لِلسَّيِّدِ: كَيْفَ تَأَنَّقْتَ فِي بُنْيَانِ هَذَا ٱلْقَصْرِ مَعَ ٱنْحِرَافِكَ عَنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ؟ فَقَالَ: عَلِمْتُ أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ وَالِيًا بَعْدَ عَزْلِهِ وَلَا لَهُ عِنْدَهُمْ قَدْرٌ لِمَا بَقِيَ فِي رُؤُسِهِمْ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمَرْوَانِيَّةِ - فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَبْقَى لِي فِي بِلَادِهِمْ أَثَرٌ أُذْكَرُ بِهِ عَلَى رَغْمِهِمْ.

« قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ(١) » وَأَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّ نَاهِضَ بْنَ إِدْرِيسَ شَاعِرَ وَادِي آشَ فِي عَصْرِهِ أَنْشَدَ لِنَفْسِهِ فِي هَذَا ٱلْقَصْرِ:

أَلَا حَبَّذَا ٱلْقَصْرُ ٱلَّذِي ٱرْتَفَعَتْ بِهِ
عَلَى ٱلْمَاءِ مِنْ تَحْتِ ٱلْحَوَاجِبِ(٢) أَقْوَاسُ

هُوَ ٱلْمَصْنَعُ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِي أَنِفَ ٱلثَّرَى
وَرَفَّعَهُ عَنْ لَثْمِهِ ٱلْمَجْدُ وَٱلْبَاسُ(٣)

---

(١) هو الأديب نور الدين على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسي المغربي ينتهي نسبه الى عمار بن ياسر، ورد من المغرب وجال في مصر والشرق، وله كتاب المغرب في أخبار المغرب والمشرق في أخبار المشرق، والمرقص والمطرب، وغيرها - توفى بدمشق سنة ٦٧٣ - وستأتي له ترجمة مسهبة. وأبوه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ولد سنة ٥٧٣ وتوفى بالاسكندرية سنة ٦٤٠ (٢) في بعض المراجع «الحجارة» (٣) في الأصل « والناس » وهو تحريف. « أحمد يوسف نجاتي »

فَأَرْكَبُ مَتْنَ ٱلنَّهْرِ عِزًّا وَرِفْعَةً
وَفِي مَوْضِعِ ٱلْأَقْدَامِ لَا يُوجَدُ ٱلرَّأْسُ

فَلَا زَالَ مَعْمُورَ ٱلْجَنَابِ وَبَابُهُ
يَغَصُّ وَحَلَّتْ أُفْقَهُ ٱلدَّهْرَ أَعْرَاسُ

***

قصر الحمائل بقرطبة

وَقَالَ ٱلْفَتْحُ فِي قَلَائِدِهِ ـ لَمَّا ذَكَرَ ٱلْوَزِيرَ ٱبْنَ عَمَّارٍ ـ: وَتَنَزَّهَ بِالنَّمْشَقِ بِقُرْطُبَةَ ، وَهُوَ قَصْرٌ شَيَّدَهُ بَنُو أُمَيَّةَ بِالصِّفَاحِ(١) وَالْعَمَدِ ، وَجَرَوْا فِي إِتْقَانِهِ إِلَى غَيْرِ أَمَدٍ ، وَأَبْدَعَ بِنَاؤُهُ ، وَنُمِّقَتْ سَاحَاتُهُ وَفِنَاؤُهُ ، وَٱتَّخَذُوهُ مَيْدَانَ مَرَاحِهِمْ(٢) ، وَمِضْمَارَ أَفْرَاحِهِمْ وَٱنْشِرَاحِهِمْ ، وَحَكَوْا بِهِ قَصْرَهُمْ بِالْمَشْرِقِ ، وَأَطْلَعُوهُ كَالْكَوْكَبِ ٱلثَّاقِبِ ٱلْمُشْرِقِ . وَأَنْشَدَ فِيهِ لِابْنِ عَمَّارٍ :

---

(١) جمع صفاحة وهو العريض من الحجارة ، ومثله صفيحة وصفائح . والعمد كالعمد «بضمتين» جمع عمود ، ويريد بها هنا أساطين الرخام ، وهو مأخوذ من قول النابغة الذبياني :

وجيش الجن انى قد أمرتهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

(٢) المراح «بفتح الميم» «كمفعل» الموضع الذى يروح اليه القوم أو يروحون منه ، كالمغدى للموضع الذى يغدى منه . والمراح «بكسر الميم» ، فعال ■

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ ٱلدِّمَشْقِ يُذَمُّ
فِيهِ طَابَ ٱلْجَنَى وَلَذَّ ٱلْمَشَمُّ[١]

مَنْظَرٌ رَائِقٌ وَمَاءٌ نَمِيرٌ[٢] وَثَرًى عَاطِرٌ وَقَصْرٌ أَشَمُّ[٣]

بِتُّ فِيهِ وَٱللَّيْلُ وَٱلْفَجْرُ عِنْدِي
عَنْبَرٌ أَشْهَبٌ وَمِسْكٌ أَحَمُّ[٤]

وَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلْحَاجِبِ أَبِي عُثْمَانَ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ ٱلْمُصْحَفِيِّ . وذَكَرَ ٱلْحِجَارِيُّ فِي ٱلْمُسْهِبِ أَنَّ ٱلرَّئِيسَ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ جَعْفَرٍ ٱلْمُصْحَفِيَّ ٱجْتَازَ بِالْمُنْيَةِ ٱلْمُصْحَفِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ لِجَدِّهِ أَيَّامَ حِجَابَتِهِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْحَكَمِ ٱلْمُسْتَنْصِرِ ، فَٱسْتَعْبَرَ[٥] حِينَ تَذَكَّرَ مَا آلَ إِلَيْهِ حَالُ جَدِّهِ مَعَ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَٱسْتِيلَائِهِ عَلَى مُلْكِهِ وَأَمْلَاكِهِ فَقَالَ :

اسم من المرح وهو شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره ، والمرح أيضا التبختر والاختيال (١) الجنى : ما يجنى من الثمار والفواكه ، والمشم ما يشم من الأزهار والرياحين، وفى القلائد «وفاح» بدل «ولذ» وفى البيت اشارة الى قول جرير :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقوام

(٢) نمير : عذب صاف وسهل سائغ (٣) أشم : مرتفع عال (٤) أحم : أسود ، والأشهب ما كان ذا بياض يصدعه سواد فى خلاله ــ أو البياض الذى غلب عليه السواد (٥) أى بكى وجرت عبرات عينه

قِفْ قَلِيلًا بِالْمُصْحَفِيَّةِ وَٱنْدُبْ
مُقْـلَةً أَصْبَحَتْ بِلَا إِنْسَانِ

وَٱسْأَلَنْهَا عَنْ جَعْفَرٍ وَسَطَاهُ[١]
وَنَدَاهُ فِي سَالِفِ ٱلْأَزْمَانِ

جَعْفَرٌ مِثْلُ جَعْفَرٍ[٢] حَـكَمَ ٱلدَّهْـ
ـرُ عَلَيْـهِ بِعِزَّةٍ وَهَوَانِ

وَلَـكَمْ حَذَّرَ ٱلرَّدَى فَضَمِنَّا
لَا أَمَانٌ لِصَاحِبِ ٱلسُّلْطَانِ

بَيْنَمَا يَشْتَلِي غَـدَا خَافِضًا مِنْـ
ـهُ ٱكْتِئَابٌ كَـكِفَّةِ[٣] ٱلْمِيزَانِ

وَمُنْيَةُ ٱلزُّبَيْرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى ٱلزُّبَيْرِ ٱبْنِ ٱلْمَلَثَّمِ عَمِّ مَلِكِ قُرْطُبَةَ[٤].

---

(١) أى سطوته وصولته وشدته (٢) يريد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وزير هرون الرشيد توفى فى سجنه سنة ١٩٠ وفى بعض المراجع «بسرة» بدل «بعزة» فيكون مشيرا الى ختام حياته ومآل حاله — وعلى ماهنا يريد أن الدهر قلبه بين عزة وهوان — والأول أحسن ، ليناسب قوله «حكم الدهر عليه» فانما يحكم الدهر على الانسان بما يسوءه «أحمد يوسف نجاتى» (٣) الكفة «بالكسر» لكل مستدير (٤) هو الزبير بن عمر اللتونى ابن عم يوسف بن تاشفين

« قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ » أَخْبَرَنِي وَالِدِي عَنْ أَبِيهِ[١] قَالَ: خَرَجَ مَعِي إِلَى هَـٰذِهِ ٱلْمُنْيَةِ فِي زَمَانِ فَتْحِ ٱلنُّوَّارِ أَبُو بَكْرِ بْنُ بَقِيٍّ[٢] ٱلشَّاعِرُ ٱلْمَشْهُورُ فَجَلَسْنَا تَحْتَ سَطْرٍ مِنْ أَشْجَارِ ٱللَّوْزِ قَدْ نَوَّرَتْ، فَقَالَ ٱبْنُ بَقِيٍّ:

سَطْرٌ مِنَ ٱللَّوْزِ فِي ٱلْبُسْتَانِ قَابَلَنِي
مَا زَادَ شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ وَلَا نَقَصَا

كَأَنَّمَا كُلُّ غُصْنٍ كُمُّ جَارِيَةٍ
إِذَا ٱلنَّسِيمُ ثَنَى أَعْطَافَهُ رَقَصَا

ثُمَّ قَالَ شِعْرًا مِنْهُ:

عَجِبْتُ لِمَنْ أَبْقَى عَلَى خَمْرِ دَنِّهِ
غَدَاةَ رَأَى لَوْزَ ٱلْحَدِيقَةِ نَوَّرَا

---

(١) هو محمد بن عبد الملك بن سعيد ولد سنة ٥١٤ وتوفي بمدينة غرناطة سنة ٥٨٩

(٢) هو الشاعر المشهور الأديب أبو بكر يحيي بن عبد الرحمن بن بقي القرطبي صاحب الموشحات البديعة والقصائد الرائقة، اتصل بالأمير يحيي بن علي بن القاسم بن حمود فأخذ بضبعه وأشرف به على اليفاع وغمره بنعمه، فصرف فيه أقواله، وشرف بقوافيه نواله. توفي سنة ٥٤٠ هـ وهناك أبو بكر يحيي بن أحمد بن بقي الطليطلي نزل اشبيلية بعد أن جال في الأندلس وكان يتقدم أدباء عصره تفننا في الآداب وتصرفا في النظم. توفي سنة ٥٤٥ - وأحمد يوسف نجاتي»

وَلَا أَذْكُرُ بَقِيَّةَ ٱلْأَبْيَاتِ ـ قَالَ جَدِّي: ثُمَّ أَجْتَمَعْتُ بِهِ بَعْدَ ذَٰلِكَ بِمُرْنَاطَةَ ، فَذَكَّرْتُهُ بِاجْتِمَاعَاتِهِ فِي مُنْيَةِ ٱلزُّبَيْرِ ، فَتَنَهَّدَ وَفَكَّرَ سَاعَةً وَقَالَ : أُكْتُبُوا عَنِّي ، فَكَتَبْنَا :

سَقَى ٱللهُ بُسْتَانَ ٱلزُّبَيْرِ وَدَامَ فِي
ذَرَاهُ(١) مَسِيلُ ٱلنَّهْرِ مَا غَنَّتِ ٱلْوُرْقُ

فَكَانَتْ لَنَا مِنْ نِعْمَةٍ فِي جَنَابِهِ
كَبِزَّتِهِ(٢) ٱلْخَضْرَاءِ طَالِعُهَا طَلْقُ

هُوَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلزَّاهِي عَلَى كُلِّ مَوْضِعٍ
أَمَا ظِلُّهُ ضَافٍ(٣) أَمَا مَاؤُهُ دَفْقُ(٤) ؟

أَهِيمُ بِهِ فِي حَالَةِ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَى
وَحَقٌّ لَهُ مِنِّي ٱلتَّذَكُّرُ وَٱلْعِشْقُ

وَمِنْ ذَٰلِكَ ٱلنَّهْرِ ٱلْخَفُوقِ فُؤَادُهُ
بِقَلْبِيَ مَا غُيِّبْتُ عَنْ وَجْهِهِ خَفْقُ

(١) الذرا «بالفتح» الكن وكل ما استتر به ، يقال : أنا في ظل فلان وفي ذراه : أي في كنفه وستره ودفئه (٢) البزة : الهيئة والشارة والهيئة ، يقال انه لحو بزة حسنة أي هيئة ولباس جيد (٣) أي سابغ كثير ممتد (٤) أي متدفق منصب ـ ودفق النهر والوادي : اذا امتلأ حتى يفيض الماء من جوانبه .

قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: جَمَعَ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي تَشْتَهِي، قَالَ: ذَلِكَ لَكَ، قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَدْفَعُ لِي هَذَا السَّيْفَ الَّذِي تَقَلَّدْتَ بِهِ، أَتَزَوَّدُ مِنْهُ إِلَيْهِ وَأُنْفِقُ الْبَاقِيَ فِيهِ عَلَى مَا تَعْلَمُ، قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: هَـذَا السَّيْفُ شَرَّفَنِي بِهِ السُّلْطَانُ أَبُو زَكَرِيَّا[1] بْنُ غَانِيَـةَ، وَمَا لِعَطَائِهِ سَبِيلٌ،

(١) هو الأمير يحيى بن اسحق بن محمد بن على بن غانية الملثم الصنهاجى كان أبوه أبو ابراهيم اسحق بن محمد صاحب جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة «وهي ثلاث جزائر متجاورة فى غرب البحر الأبيض» وتوفى سنة ٥٨٠ وترك أربعة بنين وهم: أبو عبد الله محمد ذهب بعد وفاة والده الى الموحدين بالأندلس فأعطوه مدينة دانية وبالغوا فى الافضال عليه والاحسان اليه، وأبو زكريا يحيى «وهو هذا» فقد خرج من ميورقة الى بلاد افريقية مع أخيه على سنة ٥٨٠ وفعلا أفعالا عظيمة مشهورة فى التاريخ من الحروب وشن الغارات. وخرج على بن اسحق على يعقوب المنصور وطرق بأسطوله مدينة بجاية على حين غفلة من أهلها. وكان عليها يومئذ السيد أبو الربيع بن عبدالله بن عبد المؤمن بن على. وكان خارجا فى بعض أغراضه. فاستولى عليها ابن غانية سنة ٥٨١ وأتى أعمالا قاسية شديدة، ثم استولى بعد ذلك على مدن أخرى من افريقية، فجهز اليه المنصور جيشا شرد به من خلفه، وفر على بن اسحق الى الصحراء، ثم عاد فعاث فى البلاد وهزم جيش الموحدين، ثم كانت الحرب بينهما سجالا الى أن دارت الدائرة على ابن غانية وأحزابه فنجا بنفسه، حتى توفى على سنة ٦٣٣ وكان أخوه يحيى قد بقى على حاله بعد موت أبيه فطالت مدته

وَلَـكِنْ أُعْطِيكَ قِيمَتَهُ . فَخَرَجَ وَأَتَى بِشَخْصٍ يَعْرِفُ قِيمَةَ السُّيُوفِ فَقَدَّرَهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ: إِنَّهُ سَيْفُ السُّلْطَانِ أَبْنِ غَانِيَةَ - لِيَعْظُمَ قَدْرُهُ فِي عَيْنِهِ فَيَزِيدَ فِي قِيمَتِهِ - ثُمَّ قَبَضَ مَا قَدَّرَ بِهِ وَأَنْشَدَ أَرْتِجَالًا :

أَطَالَ ٱللّٰهُ عُمْرَ فَتًى سَعِيدٍ ... وَهَنَّاهُ وَرَقَّتْهُ ٱلسُّعُودُ
غَدَا لِي جُودُهُ سَبَبًا لِعَوْدِي ... إِلَى وَطَنِي فَهَا أَنَذَا أَعُودُ
وَأَلْثِمُ كَفَّهُ شُكْرًا وَتَتْلُو ... طَرِيقِي[1] آيَ نُعْمَاهُ ٱلنَّشِيدُ
حَبَانِي مِنْ ذَخَائِرِهِ بِسَيْفٍ ... بِهِ لَمْ يَبْقَ لِلْأَحْزَانِ جِيدُ[2]

واستولى على بلاد كثيرة ، وكان معروفا بالشهامة والشجاعة والاقدام وتوفى سنة ٦٣٣ فى البرية من قطر تلمسان ، و بقى أخوه الأصغر وهو أبو محمد عبد الله بن اسحق ملك ميورقة حتى سنة ٥٩٩ فجهز اليه الملك الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على صاحب بلاد المغرب أسطولا نزل بساحل ميورقة فبرز اليهم وكان كذلك شجاعا مقداما وكريما جوادا فكبا به جواده « ولكل جواد كبوة » فسقط الى الأرض فقتلوه وحملوا رأسه الى مراكش وعلقوا جثته على سورها واستولوا على ميورقة ، و بقيت بأيديهم الى أن تغلب عليها الفرنج سنة ٦٢٧ وارتكبوا فيها فظائع الأعمال ، ومنكرات الفعال ، والملك لله يؤتيه من يشاء . « أحمد يوسف نجاتى » . (١) فى بعض النسخ « طريق » و « التليد » بدل « النشيد »
(٢) يعنى أن هذا السيف قضى على أحزانه فكأنه أزهق روحها وقطع جيدها .

***

القصر الفارسي

وَٱلْقَصْرُ ٱلْفَارِسِيُّ مِنَ ٱلْقُصُورِ ٱلْمَقْصُودَةِ لِلنُّزْهَةِ(١) بِخَارِجِ قُرْطُبَةَ، وَقَدْ ذَكَرَهُ ٱلْوَزِيرُ أَبُو ٱلْوَلِيدِ بْنُ زَيْدُونَ فِي قَصِيدٍ ضَمَّنَهُ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ مَا تَقِفُ عَلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ فَرَّ مِنْ قُرْطُبَةَ أَيَّامَ بَنِي جَهْوَرٍ، فَحَضَرَهُ فِي فِرَارِهِ عِيدٌ ذَكَّرَهُ بِأَعْيَادِهِ فِي وَطَنِهِ وَمَعَاهِدِهِ ٱلْأُنْسِيَّةِ مَعَ وَلَّادَةَ ٱلَّتِي كَانَ يَهْوَاهَا وَيَتَغَزَّلُ فِيهَا فَقَالَ:

خَلِيلَيَّ لَا فِطْرٌ يَسُرُّ وَلَا أَضْحَى
فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى؟

وَسَتَأْتِي هَذِهِ ٱلْقَصِيدَةُ فِي هَـٰذَا ٱلْبَابِ، كَمَا سَتَأْتِي قَصِيدَةُ أَبِي ٱلْقَاسِمِ عَامِرِ بْنِ هِشَامٍ ٱلْقُرْطُبِيِّ(٢) ٱلَّتِي أَوَّلُهَا:

* يَا هَبَّةً بَاكَرَتْ مِنْ نَحْوِ دَارِينِ *

وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ. قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ: كَانَ وَالِدِي كَثِيرًا مَا يَأْمُرُنِي بِقِرَاءَتِهَا عَلَيْهِ وَيَقُولُ: وَٱللهِ لَقَدْ أَنْبَأَتْ عَنْ فَضْلٍ لِهَـٰذَا ٱلرَّجُلِ. قَالَ وَكَانَ أَبُو يَحْيَى

---

(١) النزهة: اسم من التنزه، والأصل فيه التباعد واستعماله في الخروج للرياضة مجاز شائع، وفي الأساس: وخرجوا يتنزهون يطلبون الأماكن النزهة

(٢) ينسب للأزد، كان أديبا كاتبا شاعرا مطبوعا، وله مقامات أدبية بديعة كمقامات الحريري، وتوفي سنة ٦٢٣. «أحمد يوسف نجاتي».

ٱلْحَضْرَمِيُّ يَحْفَظُهَا ، وَيَزِينُ بِهَا مَجَالِسَهُ ، وَيَحْلِفُ أَلَّا يُنْشِدَهَا بِمَحْضَرِ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ ، أَوْ حَاسِدٍ لَا يُنْصِفُ فِي ٱلِاهْتِزَازِ لَهَا(١) ، وَإِنَّهُ لَجَدِيرٌ بِذَلِكَ ، فَإِنَّهَا لَمِنْ كُنُوزِ ٱلْأَدَبِ ،

***

مرج الخز ثُمَّ قَالَ : وَٱلْمَرْجُ(٢) ٱلنَّضِيرُ ٱلْمَذْكُورُ بِهَا هُوَ مَرْجُ ٱلْخَزِّ . أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّهُ حَضَرَ فِي زَمَانِ ٱلصِّبَا بِهَذَا ٱلْمَرْجِ عَلَى رَاحَةٍ ، وَمَعَهُ ٱلرَّئِيسُ ٱلْفَاضِلُ أَبُو ٱلْحُسَيْنِ بْنُ ٱلْوَزِيرِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْوَقَّشِيِّ(٣) ، وَٱلْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ(٤) ٱلْمَشْهُورُ بِخِفَّةِ ٱلرُّوحِ ،

---

(١) هذان النوعان : الجاهل والحاسد ، هما الآن آفة العلم والأدب بعصره ولولا أن المصفين المخلصين للغة العربية وعلومها وآدابها قدموا بلنوعها كراما وجعلوا سفاهتهما الجاهد بر آذانهم وتحت أقدامهم لحرمت مصر خيرا كثيرا ، واذن لراج البهرج الزائف ، واحتجب في كنوزه الذهب الابريز الصفى ، ولكن:

أو كلما طن الذباب زجرته   أن الذباب اذن على كريم ! !

(٢) يريد ماذكره في البيت :

الى الرصافة فالمرج النضير فوا   دى الغدير فالعطف من بطحاء عبدون

(٣) نسبة الى وقش مدينة من أعمال طليطلة منها الفقيه الجليل الحافظ أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن سعيد بن خالد الكناني المعروف بالوقشي القاضي الأديب المؤرخ توفي بمدينة دانية سنة ٤٨٩ وكان اماما في اللغة وآدابها متقدما عارفا (٤) كذا بالأصل في غير موضع . ورأيت في الاحاطة في أخبار غرناطة صفحة ٩٧ حديثا يرويه أبو الحسن بن سعيد عن «الحسن بن دويرة» . وهذا هو الأقرب على رجحته . «أحمد يوسف نجاتي»

قَالَ : فَسَبَحَتْ أَمَامَنَا إِوَزٌّ ، وَجَعَلَتْ تَمْرَحُ وَتَنْثُرُ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ فَوْقَ الْمَرْجِ ، وَالْمَرْجُ قَدْ أَحْدَقَ بِهِ الْوَادِي ، وَالشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ عَلَيْهِ لِلْغُرُوبِ — فَقَالَ لِي أَبُو الْحُسَيْنِ : بِاللَّهِ صِفْ يَوْمَنَا وَحُسْنَ هَذَا الْمَنْظَرِ ، فَقُلْتُ : لَا أَصِفُهُ أَوْ تَصِفَهُ أَنْتَ فَقَالَ : وَلَكَ مِنِّي ذَلِكَ ، فَأَفْكَرَ كُلٌّ مِنَّا عَلَى انْفِرَادٍ بَعْدَ مَا ذَكَرْنَا مَا نَصِفُ نَثْرًا ، فَقَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْوَقَّشِيُّ :

لِلَّهِ يَوْمٌ بِمَرْجِ الْخَزِّ طَابَ لَنَـا
فِيهِ النَّعِيمُ بِحَيْثُ الرَّوْضُ وَالنَّهَرُ
وَلِلْإِوَزِّ عَلَى أَرْجَائِهِ لَعِبٌ
إِذَا جَرَتْ بَدَّدَتْ مَا بَيْنَنَا الدُّرَرُ(١)
وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ نَحْوَ الْبَيْنِ مَائِلَةً
كَأَنَّ عَاشِقَهَا فِي الْغَرْبِ يَنْتَظِرُ
وَالْكَأْسُ حَائِلَةٌ بِاللُّبِّ جَارِرَةٌ(٢)
وَكُلُّنَا غَفَلَاتِ الدَّهْرِ نَبْتَدِرُ

قَالَ : فَقُلْتُ :

---

(١) يريد بالدرر رشاش الماء الذى تنثره الأوز عنها فوق المرج :

(٢) فى الأصل حائرة ، وأرى أنه مع قصد الجناس يشير الى قول عمرو بن كلثوم :

تجور بذى اللبانة عن هواه   اذا ماذاقها حتى يلينـا

أَلَا حَبَّــذَا يَوْمٌ ظَفِرْنَا بِطِيبِهِ
بِأَكْنَافِ(١) مَرْجِ ٱلْخَزِّ وَٱلنَّهْرُ يَبْسِمُ

وَقَدْ مَرِحَتْ فِيهِ ٱلْإِوَزُّ وَأَرْسَلَتْ
عَلَى سُنْدُسٍ دُرًّا بِهِ يَتَنَظَّمُ

وَمُدَّ بِهِ لِلشَّمْسِ فَهْوَ كَأَنَّهُ
لِثَامٌ لَهَا مُلْقًى مِنَ ٱلنَّوْرِ مُعْصَمُ

أَدَرْنَا عَلَيْهِ أَكْؤُسًا بَعَثَتْ بِهِ
مِنَ ٱلْأُنْسِ مَيْتًا عَادَ وَهْوَ يُكَلِّمُ

غَدَوْنَا إِلَيْهِ صَامِتِينَ سَكِينَةً
فَرُحْنَا وَكُلٌّ بِالْهَوَى يَتَرَنَّمُ

فَأَظْهَرَ كُلٌّ مِنَّا لِصَاحِبِهِ ٱسْتِحْسَانَ مَا قَالَ تَنْشِيطًا(٢)

---

(١) أى بنواح وجهات وأرجاء (٢) سبب للاستحسان لابأس به والآ فالقطعتان ليستا من جيد الشعر ، وقد عرف الحسن أو «الحسن» بخفة روحه قدرها فأجزل صلتهما صلة تناسب قول ابن الرومى فى البديهة والروية :

نار البديهة نار جد منضجة ... وفى البديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لعاجلها ... لكنه عاجل يمضى مع «الريح»

على أنهما فكرا ورويا ولم يرتجلا على البديهة، ومع هذا كان عاجلهما

وَتَتْمِيماً لِلْمَسَرَّةِ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْسُّنِّ : مَا عِنْدَكَ أَنْتَ تُعَارِضُ بِهِ هَاتَيْنِ الْقِطْعَتَيْنِ ؟ قَالَ بِهٰذَا ـ وَرَفَعَ رِجْلَهُ وَحَبِقَ حَبْقَةً فَرَقِعَتْ[1] مِنْهَا أَرْجَاؤُهُ ـ فَقَالَ لَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ : مَاهٰذَا يَاشَيْخَ السُّوءِ ؟ فَقَالَ : الطَّلَاقُ يَلْزَمُهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَوْزَنَ مِنْ شِعْرِ كُمَا ، وَأَطْيَبَ رَائِحَةً ، وَأَغَنَّ صَوْتاً ، وَأَطْرَبَ مَعْنًى ، فَضَحِكْنَا مِنْهُ أَشَدَّ ضَحِكٍ ، وَجَعَلْنَا نَهْتَزُّ غَايَةَ الِاهْتِزَازِ لِمَوْقِعِ نَادِرَتِهِ ، فَقَالَ : وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّكُمْ طَرِبْتُمْ لِمَا جِئْتُ بِهِ أَكْثَرَ مِمَّا طَرِبْتُمْ مِنْ شِعْرِكُمْ .

***

ثُمَّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : وَمِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ الْمَشْهُورَةِ : فَحْصُ السُّرَادِقِ ، مَقْصُودٌ لِلْفُرْجَةِ يَسْرَحُ فِيهِ الْبَصَرُ . وَتَبْتَهِجُ فِيهِ النَّفْسُ . أَخْبَرَنِي وَالِدِي عَنْ أَخِيهِ أَبِي جَعْفَرِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ الشَّرِيفِ فحص السرادق

ماضيا مع « ريح » ابن دويرة، ولعل القارىء فهم بذلك معنى « حبق حبقة » سبقه بمثلها وهب ، وان كانت الحبقة أخف من فعلة وهب قال ابن دريد : أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال لما قتل عثمان قال عدى بن حاتم « رضى الله عنهما » لاتحبق فيه عنز ، فأصيبت عينه يوم صفين وقتل ابنه طريف، ثم دخل على معاوية بمقتل على « رضى الله عنهما » فقال له معاوية : هل حبقت العنز في قتل عثمان ؟ فقال اى والله والتيس الأعظم. « أحمد يوسف نجاتي » . (١) في بعض المراجع « فرقعت »

ٱلْأَصَمَّ ٱلْقُرْطُبِيَّ إِلَى بَسِيطِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ وَقَدْ تَدَبَّجَ بِالنُّوَّارِ ، فَلَمَّا حَرَّكَنَا حُسْنُ ٱلْمَكَانِ ، وَتَشَوَّقْنَا إِلَى ٱلْأَرْكَانِ (١) ، قَالَ ٱلشَّرِيفُ : لَقَدْ ذَكَّرَنِي هٰذَا ٱلْبَسِيطُ بَسِيطَ فَحْصِ ٱلسُّرَادِقِ ، فَقُلْتُ لَهُ : فَهَلْ ثَارَ فِي خَاطِرِ كَمْ نَظْمٌ فِيهِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، ثُمَّ أَنْشَدَ :

أَلَا فَدَعُوا ذِكْرَ ٱلْعُذَيْبِ وَبَارِقِ
وَلَا تَسْأَمُوا مِنْ ذِكْرِ فَحْصِ ٱلسُّرَادِقِ (٢)

---

(١) فى بعض المراجع «الأوطان» (٢) يريد معارضة أبى الطيب المتنبى فى قوله مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر إيقاعه بقبائل العرب .

تذكرت ما بين العذيب وبارق   مجر عوالينا ومجرى السوابق

« ما بين مفعول تذكرت ومجرى بدل اشتمال منه » . والعذيب وبارق موضعان بظاهر الكوفة — أما العذيب فاسم ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال ، وبارق ماء أيضا وهو الحد بين القادسية والبصرة وهو من أعمال الكوفة يريد أبو الطيب أنهم كانوا يجرون الرماح عند مطاردة الفرسان ، ويجرون الجياد السابقة فى الميدان ، فاستبدل الشريف القرطبى بجر الرماح جر الذيول نشوة وسكرا ، وبمجرى الجياد ادارة الكؤوس مترعة فائضة جارية فى ميدان اللهو متسابقة ، فانظر كيف نظر الشعراء الى العذيب وبارق « ولكل امرئ يومئذ شأن يغنيه » وأمر يعنيه ، والنفس وما تهواه ، وكل يغنى فى الأنام بليلاه . وقد ضمن ابن أبى الأصبع بيت أبى الطيب وزاده نكتة التورية اللطيفة والتشبيه العجيب مع اللف والنشر المرتب فقال :

تَجُرُّ ذُيُولَ ٱلسُّكْرِ مِنْ كُلِّ مُتْرَفٍ

وَمُجْرَى ٱلْكُؤُوسِ ٱلْمُتْرَعَاتِ ٱلسَّوَابِقِ

قَصَرْتُ عَلَيْهِ ٱللَّحْظَ مَا دُمْتُ حَاضِرًا

وَفِكْرِي فِي غَيْبٍ لِمَرْآهُ شَائِقِ

أَيَا طِيبَ أَيَّامٍ تَقَضَّتْ بِرَوْضَةٍ

عَلَى لَمْحِ غُدْرَانٍ وَشَمِّ حَدَائِقِ

إِذَا غَرَّدَتْ فِيهَا حَمَائِمُ دَوْحِهَا

تَخَيَّلْتَهَا ٱلْكُتَّابَ بَيْنَ ٱلْمَهَارِقِ(١)

وَمَا بِاخْتِيَارِ ٱلطَّرْفِ فَارَقْتُ حُسْنَهَا

وَلَكِنْ بِكَيْدٍ مِنْ زَمَانٍ مُنَافِقِ(٢)

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ فَلَمَّا سَمِعْتُ هَـذَا ٱلشِّعْرَ لَمْ أَتَمَالَكْ

إذا الوهم أبدى لي لماها وثغرها تذكرت ما بين العذيب وبارق
ويذكرني من قدها ومدامعي مجر عوالينا ومجرى السوابق

نقل العذيب من مكانه إلى رضاب محبوبته وشفتها ، وبارقا إلى فيها وثغرها وما بينهما هو رضابها الشهي، وترريقتها العذبة « أحمد يوسف نجاتي»

(١) جمع مهرق أي الصحيفة « معرب » والدوح الشجر العظيم

(٢) مثله قول ابن الفارض :

ياجنة فارقتها النفس مكرهة لولا التأسي بدار الخلد مت أسى

مِنَ الِاسْتِبْصَارِ، وَحَرَّكَنِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ قُلْتُ فِي حَوْزِ مُؤَمَّلٍ سَيِّدِ مُتَنَزَّهَاتِ غَرْنَاطَةَ — وَلَمْ يَذْكُرْ هُنَا مَا قَالَهُ فِيهِ، وَذَكَرَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ لَمْ يَحْضُرْنِي الْآنَ حَتَّى أُورِدَهُ هُنَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

***

وَمِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ السُّدُّ، قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّ الشَّاعِرَ الْمُبَرِّزَ أَبَا شِهَابٍ الْمَالَقِيَّ أَنْشَدَهُ لِنَفْسِهِ وَاصِفاً يَوْمَ رَاحَةٍ بِهَذَا السُّدِّ:

وَيَوْمٍ لَنَا بِالسُّدِّ لَوْ رُدَّ عَيْشُهُ
بِعِيشَةِ أَيَّامِ الزَّمَانِ رَدَدْنَاهُ
بَكَرْنَا لَهُ وَالشَّمْسُ فِي خِدْرِ شَرْقِهَا
إِلَى أَنْ أَجَابَتْ إِذْ دَعَا الْغَرْبُ بُدْعَوَاهُ[1]
قَطَعْنَاهُ شَدْواً وَاغْتِبَاقاً وَنَشْوَةً
وَرَجْعَ حَدِيثٍ لَوْ رَقَى الْمَيْتَ أَحْيَاهُ[2]

(١) يريد أنهم قضوا به من قبيل مطلع الشمس الى غروبها (٢) الشدو: الغناء. والاغتباق شرب الغبوق «ضد الصبوح» وهو الشرب مساء ويريد هنا مطلق الشرب، ويريد بعجز البيت أنهم أخذوا بأطراف الأحاديث الطيبة التي لو رقي بها الميت لردت اليه روحه — وفي معنى ذلك يقول

عَلَى مِثْلِهِ مِنْ مَنْزِهٍ تُبْتَغَى الْمُنَى

فَلِلّهِ مَا أَحْلَى وَأَبْدَعَ مَرْآهُ

شَدَتْنَا بِهِ الْأَرْحَا(١) وَأَلْقَتْ نِثَارَهَا

عَلَيْنَا فَأَصْغَيْنَا لَهُ وَقَبِلْنَاهُ

لَئِنْ بَانَ إِنَّا بِالْأَنِينِ لِفَقْدِهِ

وَبِالدَّمْعِ فِي إِثْرِ الْفِرَاقِ حَكَيْنَاهُ(٢)

وَأَنْشَدَنِي وَالِدِي مُوَشَّحَةً لِأَبِي الْحَسَنِ الْمَرِينِيِّ مُعَاصِرِهِ وَصَاحِبِهِ يَذْكُرُ فِيهَا هَذَا السَّدَّ وَهِيَ :

ابن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وماعداه كلام

ولآخر :

حديث لوان الميت توحى ببعضه لأصبح حيا بعد ماضمه القبر

(١) مخفف من أرحاء جمع رحا : وهى الحجر العظيم المستدير الذى يطحن به ، وتجمع على أرح وأرحاء وأرحية « قليلا » وأرحى ورحى وسيأتى القول فى هذه الأرحاء والسد. والنثار اسم لماينثر من نحو فاكهة أو سكر أوغيرهما ،والنثار والنثارة فتات الشئ المتناثر منه — وفى البيت لف ونشر مرتب ، يريد أنه أصغى الى صوت الأرحاء وشدوها وقبل ماألقت به من نثارها(٢) يريد أنه بعد فراقه أكثر من الأنين والبكاء فحكاه فى صوته بأنينه ، وفى جارى مائه بفيض دموعه«أحمد يوسف نجاتى»

« مَطْلَعٌ »

فِي نَغْمَةِ ٱلْعُودِ وَٱلسُّلَافَةْ (١)

وَٱلرَّوْضِ وَٱلنَّهْرِ وَٱلنَّدِيمْ

أَطَالَ مَنْ لَامَنِي خِلَافَهْ

فَظَلَّ فِي نُصْحِهِ مُلِيمْ (٢)

« دَوْرٌ »

دَعْنِي عَلَى مَنْهَجِ ٱلتَّصَابِي

مَا قَامَ لِي ٱلْعُذْرُ بِالشَّبَابْ

وَلَا تُطِلْ فِي ٱلْمُنَى عِتَابِي   فَلَسْتُ أُصْغِي إِلَى عِتَابْ

لَا تَرْجُ رَدِّي إِلَى صَوَابِ (٣)   وَٱلْكَأْسُ تَفْتَرُّ عَنْ حَبَابْ

(١) أى الخمر أو أول مايعصر منها (٢) أى آتيا مايلام عليه ـ وألامه بمعنى لامه ، وألام أتى بما يلام عليه ، يقال لام فلان غير مليم ، وفى المثل : رب لائم مليم . وقال لبيد :

سفها عذلت ولمت غير مليم   وهداك قبل اليوم غير حكيم

(٣) فى الأصل جواب وأرى أنها محرفة صوابها صواب، لينظر فى المعنى إلى قول الشاعر :

يقولون تب والكأس فى كف أغيد   وصوت المثانى والمثالث عالى

وَالْغُصْنُ يُبْدِى لَنَا انْعِطَافَهْ إِذَا هَفَا فَوْقَهُ النَّسِيمْ
وَالرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا قِطَافَهْ وَاخْتَالَ فِي بُرْدِهِ الرَّقِيمْ[1]

« دَوْرٌ »

يَا حَبَّذَا عَهْدِيَ الْقَدِيمْ وَمَنْ بِهِ هِمْتُ مُسْعِدِى
رِيمٌ[2] عَنِ الْوَصْلِ لَا يَرِيمْ مُوَلَّعٌ بِالتَّوَدُّدِ
مَا تَمَّ إِلَّا بِهِ النَّعِيمْ طَوْعًا عَلَى رَغْمِ حُسَّدِى
مُعْتَدِلُ الْقَدِّ ذُو نَحَافَهْ أَسْقَمَنِى طَرْفُهُ السَّقِيمْ
وَرَامَ طَرْفِى بِهِ انْتِصَافَهْ فَخَدَّ[3] فِي خَدِّهِ الْكَلِيمْ

فقلت لهم لو كنت أضمرت توبة وأبصرت هـذا كلـه لبـدا لى

وافتر أى ضحك ضحكا حسنا وأبدى ثغره « وافتر عن ثغره اذا ابتسم ضاحكا ، ومنه الحديث في صفته صلى الله عليه وسلم « ويفتر عن مثل حب الغمام » أى يكشر اذا تبسم في غير قهقهة، وحباب الماء وتحوه طرائقه كأنها الوشى ، ونفاخاته وفقاقيعه التى تطفو فوقه كأنها القوارير ـ ويقال طفا الحباب على الشراب . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) من رقم الثوب : اذا وشاه وخططه وعلمه (٢) الريم والرئم : الظبي الخالص البياض يسكن الرمل ـ ولا يريم أى لايبرح ولايتباعد (٣) خدّ: أثر ، ويقال خد الدمع في خده اذا أثر فيه ، والكليم : الجريح يريد المتضرج حمرة ، ويشير هنا الى القول المشهور :

« دَوْرٌ »

غَصْ[1] الصِّبَا عَاطِرُ الْمُقَبَّلْ   أَحْلَى مِنَ الْأَمْنِ وَالْأَمَلْ

ظَامِى الْحَشَا مُفْعَمُ الْمُخَلْخَلْ[2]

حُلْوُ اللَّمَى[3] سَاحِرُ الْمُقَلْ

لِكُلِّ مَا[4] رَامَهُ تَوَصَّلْ   لَمْ يَخْشَ رَدًّا بِمَا فَعَلْ

أَشْكُو فَيُبْدِى لِىَ اعْتِرَافَهْ   إِنْ حَادَ عَنْ نَهْجِهِ[5] الْقَوِيمْ

لَا أَعْدَمُ الثَّغْرَ فِيهِ رَافَهْ   فَحَقٌّ لِى فِيهِ أَنْ أَهِيمْ

« دَوْرٌ »

لِلّٰهِ عَصْرٌ لَنَا تَقَضَّى   بِالسَّعْدِ وَالْمَنْظَرِ الْبَهِيجْ

ألحاظكم تجرحنا فى الحشا   ولحظنا يجرحكم فى الخدود

جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا   فما الذى أوجب جرح الصدود

وقول الآخر :

جرحت بلحظى خده وهو جارح   بلحظيه قلبي والجروح قصاص

وقال أبو نواس من أبيات :

وقد خنقتها عبرة فدموعها   على خدها خد وفى نحرها نحر

(١) فى الأصل « غمن » محرفة (٢) المخلخل : موضع الخلخال من الساق — ومفعم ممتلئ، ضد ظامى، أى ضامر، ويروى «طاوى» بدل ظامى (٣) اللمى : سمرة فى الشفة واللثات تستحسن ، والألمى : البارد الريق العذب الرضاب ، والمقل : العيون (٤) فى الأصل « من » وأراها تضع من قيمة حبيبه ، و « ما » ترفع من قدره فتأمل : « أحمد يوسف نجاتى » .
(٥) النهج القويم : الطريق المستقيم يريد به طريق الاسعاد والوصل

أَرَى ٱدِّكَارِى إِلَيْهِ فَرْضًا وَشَوْقَهُ دَائِمًا يَهِيجْ
فَكَمْ خَلَعْنَا عَلَيْهِ غَمْضًا وَلِلصِّبَا مَسْرَحٌ أَرِيجْ
وِرْدٌ أَطَالَ ٱلْمُنَى ٱرْتِشَافَهْ حَتَّى ٱنْقَضَى شُرْبُهُ ٱلْكَرِيمْ
لِلّٰهِ مَا أَسْرَعَ ٱنْحِرَافَهْ وَهٰكَذَا ٱلدَّهْرُ لَا يُدِيمْ

« دَوْرٌ »

يَامَنْ يَحُثُّ ٱلْمَطِيَّ غَرْبًا عَرِّجْ عَلَى حَضْرَةِ ٱلْمُلُوكْ
وَٱنْثُرْ بِهَا إِنْ سَفَحْتَ غَرْبًا(١) مِنْ مَدْمَعٍ عَاطِلٍ سُلُوكْ

---

(١) الغرب الدلو العظيمة ، والراوية التي يحمل عليها الماء ، وعرق في مجرى الدمع ، أو عرق في العين يسقي ولا ينقطع سقيه ، يقال بعينه غرب اذا كانت تسيل ولا تنقطع دموعها — والغرب الدمع ، ومسيله انهماله من العين — وسفح الدمع والماء أراقه ، وأصل العاطل المرأة يخلو جيدها من الحلى والقلائد وتتجرد من الزينة ، والتعطيل ترك الشيء ضياعا — والمعطلة الدلو التي انقطع وذمها وعراها فتعطلت من الاستقاء بها وترك استعمالها — والسلك الخيط ينظم فيه العقد — وكأن معنى البيت أن دمعه مادام محبوسا في عينه عاطل فهو يأمره أن ينثر من عيونه دررا تنتظم على خديه ، أو أن خديه لما لم يحليا بدرر الدموع عاطلان من الحلية ، فاذا نثرت درر الدموع عليهما كان ذلك لهما زينة وحلى — ووصف الدمع بالعطل لأنه لم يتمتع بمعنى التحلية حتى ينثر دررمن سلوكها « أحمد يوسف نجاتي »

وَأَسْمِعْ إِلَى مَنْ أَقَامَ صَبًّا　　وَأَحْكِ صَدَاهُ لَا فُضَّ فُوكْ

بَلِّغْ سَلَامِي قَصْرَ ٱلرُّصَافَهْ　　وَذِكْرَهُ عَهْدِيَ ٱلْقَدِيمِ(١)

وَحَيِّ عَنِّي دَارَ ٱلْخِلَافَهْ　　وَقِفْ بِهَا وَقْفَةَ ٱلْغَرِيمْ

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ: وَٱلْمِنْبَرُ ٱلْمَذْكُورُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُوَشَّحَةِ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ ، وَأَلْشَدُّ هُوَ ٱلْأَرْحَاءُ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا فِي زَجَلِهِ(٢) قَاسِمُ بْنُ عَبُّودٍ ٱلرِّيَاحِيُّ ــ رَوَيْتُهُ عَنْ وَالِدِي عَنْ قَائِلِهِ ــ وَهُوَ :

« مَطْلَعٌ »

بِاللهْ أَيْنْ نُصِيبْ　　مَنْ لَيْسْ لِي فِيهْ نَصِيبْ

مَحْبُوبًا مُخَالِفْ　　وَمَعُو رَقِيبْ

« دَوْرٌ »

حِينْ تَقْصِدْ مَكَانُو　　يَقُومْ فِي ٱلْمُقَامِ

وَيَبْخَلْ عَلِينَا　　بِرَدِّ ٱلسَّلَامِ

---

(١) يجوز أن يكون الأصل « وذكرنه عهدى القديم » .

(٢) لايخفى أن هـذا الزجل عماده اللغة العامية، فإياك أن تفسد نظامه بالاعراب ، أو تخطئ قصد الاستقامة فيه بمحاولة الصواب ، بل تناس النحو واللغة هنيهة ، وقل ما على الطرب من معرب « أحمد يوسف نجاتى »

أَدْخَلْتَ يَاقَلْبِي رُوحَكْ فِي زِحَامِ
سَلَامَتَكْ عِنْدِي هِيَ شَيْءٌ عَجِيبْ
وَكَيْفَ بِاللهِ يَسْلَمْ مَنْ هُو فِي لَهِيبْ ؟

« دَوْرْ »

بِاللهْ يَاحَبِيبِي أَتْرُكْ ذَا النَّفَارْ
وَاعْمِدْ أَنْ نَطِيبْ فِي هٰـذَا النَّهَارْ
وَاخْرُجْ مَعِي لِلْوَادِي لِشُرْبِ الْعُقَارْ
نُتَمِّمْ نَهَارْنَا فِي لَذَّهْ وَطِيبْ
فِي الْأَرْحَا وَالَّا فِي الْمَرْجِ الْخَصِيبْ

« دَوْرْ »

أَوْ عِنْدَ النَّوَاعِيرْ وَالرَّوْضِ الشَّرِيقْ[1]
أَوْ قَصْرِ الرُّصَافَهْ أَوْ وَادِي الْعَقِيقْ
رَحِيقْ[2] وَاللهْ دُونَكْ هُوْ عِنْدِي الْحَرِيقْ
وَفِي حُبَّكْ أَمْسَيْتُ فِي أَهْلِي غَرِيبْ

---

(١) الناعورة الدولاب لتحيره أى صوته وهو ما يستقى به ويديره الماء — والشريق الشرق الحسن البهيج و نبت شرق أى ريان (٢) فى الأصل « حرق » محرفة

وَمَا ٱلْمَوْتُ عِنْـدِي   إِلَّا حِينْ تَغِيبْ

« دَوْرْ »

أَتَّـكِلْ عَلَى ٱللهْ   وَكُنْ قَطْ جَسُورْ
وَإِنْ رَإِيْتْ فُضُولِي   قُلْ أَيْ[1] تَمُورْ
كَشْ عَنِّي وَجْهَكْ   فَإِنْ رَآكْ تَفُورْ
يِهْرَبْ عَنَّكْ خَائِفْ   وَيَبْقَى مُرِيبْ
وَامْشِ أَنْتَ مُوَقَّرْ   كَأَنَّكْ خَطِيبْ

« دَوْرْ »

مَا أَعْجَبْ حَدِيثِي   أَيْشْ هَذَا ٱلْجُنُونْ
نُطْلُبْ وِنْدَبَّرْ   أَمْرًا لَا يَكُونْ
وَكَمْ ذَا نُهَوِّنْ   شَيْئًا لَا يَهُونْ
وَإِيشْ مِقْدَارْ مَا نَصْبِرْ   لِبُعْـدِ ٱلْحَبِيبْ
رَبِّ أَجْمَعْنِي مَعُو   عَاجِـلًا قَرِيبْ

***

نهر قرطبة

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : وَأَمَّا نَهْرُ قُرْطُبَةَ فَإِنَّهُ يَصْغُرُ عَنْ

(١) أظنها كلمة أسبانية تفيد معنى « فضول » .

عِظَمِهِ عِنْدَ إِشْبِيلِيَةَ، بِحَيْثُ صُنِعَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةٌ مِنْ حِجَارَةٍ لَا يَتَأَتَّى مِثْلُهَا فِي نَهْرِ إِشْبِيلِيَةَ، وَمَنْبَعُهُ مِنْ جِهَةِ شَقُورَةَ[1] يَمُرُّ النِّصْفُ مِنْهُ إِلَى مُرْسِيَةَ مُشَرِّقًا، وَالنِّصْفُ إِلَى قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَةَ مُغَرِّبًا. وَلَمَّا ذَكَرَ الرَّازِيُّ قُرْطُبَةَ قَالَ: وَنَهْرُهَا السَّاكِنُ فِي جَرْيِهِ، اللَّيِّنُ فِي انْصِبَابِهِ، الَّذِي تُؤْمَنُ مَغَبَّةُ ضَرَرِهِ فِي حَمْلِهِ. وَقَالَ هَذَا لِأَنَّهُ يَعْظُمُ عِنْدَ إِشْبِيلِيَةَ، فَإِذَا حَانَ حَمْلُهُ فِي أَيَّامِ الْأَمْطَارِ أَشْفَتْ إِشْبِيلِيَةُ عَلَى الْغَرَقِ وَتَوَقَّعَ أَهْلُهَا الْهَلَاكَ.

***

وصف قنطرة النهر

وَالْقَنْطَرَةُ الَّتِي عَلَى هَـذَا النَّهْرِ عِنْدَ قُرْطُبَةَ مِنْ أَعْظَمِ آثَارِ الْأَنْدَلُسِ وَأَعْجَبِهَا، أَقْوَاسُهَا سَبْعَةَ عَشَرَ قَوْسًا، وَبَانِيهَا - عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَيَّانَ وَغَـيْرُهُ - السَّمْحُ ابْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ صَاحِبُ الْأَنْدَلُسِ بِأَمْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَشَيَّدَهَا بَنُو أُمَيَّةَ بَعْـدَ ذَلِكَ وَحَسَّنُوهَا. قَالَ ابْنُ حَيَّانَ: وَقِيلَ إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ فِي

(١) شقورة مدينة الى الشمال الغربي من مرسية شرق الأندلس، وبها كانت دار امارة همشك أحد ملوك تلك النواحي «أحمد يوسف نجاتي»

هَذَا الْمَكَانِ قَنْطَرَةٌ مِنْ بِنَاءِ الْأَعَاجِمِ (١) قَبْلَ دُخُولِ الْعَرَبِ

(١) الذى أعرفه أن هذه القنطرة التى على نهر الوادى الكبير بنيت فى أيام يوليوس قيصر قبل الميلاد بنحو نصف قرن ، وجددها على الأكتاف القديمة السمح بن مالك الخولانى عامل عمر بن عبد العزيز لما كانت ذات خطر عظيم فى الحروب والغزوات ولها شأن فى الرى والزراعة مع أنها تكون معبرا يصل مابين شاطئى النهر ويسهل به الانتقال مابين عدوتيه — وانتهى العمل فيها يوم مقتل السمح بن مالك فى يوم عرفات من سنة ١٠٢ هـ ثم جددها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل فأحكم بناءها وأتقن صنعها حتى كانت من أعظم آثار العرب باسبانيا وأوثقها بنيانا وأشدها مقاومة لحوادث الأيام وتحملا لفيضان نهر الوادى الكبير السريع صابرة على ذلك قرونا متطاولة — ثم كانت بعد متنزها عاما جديدا فى مكان تحلت فيه الطبيعة بأجمل حلاها حيث الماء الجارى ، والنسيم العليل ، والخضرة الناضرة ، والوجوه المشرقة السافرة — والذى رواه الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » أن عدد أقواس هذه القناطر سبعة عشر قوسا بين كل قوس خمسون شبرا ، وسعة القوس كذلك خمسون شبرا ، وسعة ظهرها الذى يعبر عليه ثلاثون شبرا ، وكان لها ستائر من كل جهة تستر القامة ، وارتفاعها من مكان المشى الى سطح الماء فى أيام الجفاف وقلة الماء ثلاثون ذراعا ، فاذا كان الفيضان وطمى السيل بلغ الماء فيها الى نحو حلوقها — وتحت القنطرة يعترض الوادى رصيف سد مصنوع من الأحجار والعمد البديعة من الرخام — وكان على ذلك السد ثلاثة بيوت أرحاء فى كل بيت منها أربعة مطاحن مائية » ولكن الذى تثبته الصور والرسوم التى عنى بأخذها لهذه الأماكن علماء الآثار والمهتمون بالآثار الاسلامية بالأندلس أن أقواس هذه القنطرة

بِنَحْوِ مِائَتَيْ سَنَةٍ ، أَثَّرَتْ فِيهَا ٱلْأَزْمَانُ بِمُكَابَدَةِ ٱلْمُدَدِ[١] حَتَّى سَقَطَتْ حَنَايَاهَا ، وَمُحِيَتْ أَعَالِيهَا ، وَبَقِيَتْ أَرْجُلُهَا وَأَسَافِلُهَا ، وَعَلَيْهَا بَنَى ٱلسَّمْحُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَمِائَةٍ . ٱنْتَهَى

وَقَالَ فِي مَنَاهِجِ ٱلْفِكْرِ : إِنَّ قَنْطَرَةَ قُرْطُبَةَ إِحْدَى أَعَاجِيبِ ٱلدُّنْيَا بُنِيَتْ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ عَلَى يَدِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدِ ٱللَّهِ ٱلْغَافِقِيِّ ، وَطُولُهَا ثَمَانُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعَرْضُهَا عِشْرُونَ بَاعًا ، وَٱرْتِفَاعُهَا سِتُّونَ ذِرَاعًا ، وَعَدَدُ حَنَايَاهَا ثَمَانِ عَشْرَةَ حَنِيَّةً ، وَعَدَدُ أَبْرَاجِهَا تِسْعَةَ عَشَرَ بُرْجًا ٱنْتَهَى .

***

منشأ قرطبة « رَجْعٌ إِلَى قُرْطُبَةَ » . ذَكَرَ ٱبْنُ حَيَّانَ وَٱلرَّازِيُّ وَٱلْحِجَارِيُّ أَنَّ ٱلتُّبَّانَ[٢] ثَانِيَ قَيَاصِرَةِ ٱلرُّومِ ٱلَّذِي مَلَكَ

ستة عشر قوسا » وكان بالطرف الشرقى من هـذه القنطرة قلعة بناها العرب سموها القلعة الحرة لها برجان عظيمان وكان فيها نقطة الشرطة — فلا غرو بعد هذا أن كانت متنزها — وسل فؤادك الآن عن غادات النيل تزهى بين الجزيرة وجسر اسماعيل ، وسل بغـداد عن عيون المهابين الرصافةوالجسر ،وعن ظباء القصر ،تلكمعاهدتبعثالهوى ،وتثير الجوى :

تردد فى أرجائها الحسن فاغتدت قرارة من يصبي وتجمة من يصبو

(١) لعلها « للمدود » من مد النهر « ضد الجزر » (٢) كذا بالأصل والمرجع المعروف أن قيصر الأول أغـطس Augustus

أَكْثَرَ الدُّنْيَا وَصَفَّحَ نَهْرَ رُومِيَةَ بِالصُّفْرِ ، فَأَرَّخَتِ الرُّومُ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ ـ وَكَانَ مِنْ قَبْلِ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً ـ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمُدُنِ الْعَظِيمَةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَبُنِيَتْ فِي مُدَّتِهِ قُرْطُبَةُ وَإِشْبِيلِيَةُ وَمَارِدَةُ وَسَرَقُسْطَةُ . وَانْفَرَدَ الْحِجَارِيُّ بِأَنَّ الثُّنْيَانَ(١) الْمَذْكُورَ وَجَّهَ أَرْبَعَةً مِنْ أَعْيَانِ مُلُوكِهِ لِلْأَنْدَلُسِ ، فَبَنَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَدِينَةً فِي الْجِهَةِ الَّتِي وَلَّاهُ عَلَيْهَا وَسَمَّاهَا بِاسْمِهِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْأَرْبَعَةَ كَانَتْ أَسْمَاءَ لِأُولَئِكَ الْمُلُوكِ . وَغَيْرُ الْحِجَارِيِّ ـ جَعَلَ هَذِهِ الْمُدُنَ مُشْتَقَّةً مِمَّا تَقْتَضِيهِ أَوْضَاعُهَا كَمَا مَرَّ . وَذَكَرُوا أَنَّهُ قَدْ تَدَاوَلَتْ عَلَى قُرْطُبَةَ وُلَاةُ الرُّومِ الْأَخِيرَةِ الَّذِينَ هُمْ بَنُو عِيصُو بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ إِلَى أَنِ انْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِيهِمُ الْقُوطُ مِنْ وَلَدِ يَافِثَ الْمُتَغَلِّبُونَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، إِلَى أَنْ أَخَذَهَا مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ ، وَلَمْ تَكُنْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَرِيرًا لِسَلْطَنَةِ

ولى سنة ٢٧ قبل الميلاد ، والثانى « تيبرياس Tiberuis » تولى الملك سنة ١٤ بعد الميلاد (١) فى بعض المراجع « أكتيان » بدل « الثنيان » وكذا فيما تقدم وهو الظاهر « أحمد يوسف نجاتى »

الأندلس بل كرسياً لخاص مملكتها، وسعدت في الإسلام فصارت سريراً للسلطنة العظمى الشاملة، وقطباً للخلافة المروانية، وصارت إشبيلية وطليطلة تبعاً لها بعد ما كان الأمر بالعكس، والله يفعل ما يشاء، بيده الملك والتدبير، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا هو العلي الكبير.

وقال صاحب نشق الأزهار عند ما تعرض لذكر قرطبة: هي مدينة مشهورة دار خلافة، وأهلها أعيان ناس في العلم والفضل، وبها جامع ليس في الإسلام مثله. انتهى.

⁂

اضمحلال قرطبة

ومن الأسباب في سلب محاسن قرطبة عيث البربر بها في دخولهم مع سليمان المستعين الأموي حين استولى على قرطبة في دولته التي افتتحت بالقهر وسفك الدماء. وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان علي بن حمود من بني علي بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن

ٱبْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ — رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ — وَجَدُّهُ إِدْرِيسُ هَرَبَ مِنْ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ إِلَى ٱلْبَرْبَرِ فَتَبَرْبَرَ وَلَدُهُ، وَبَنَى ٱبْنُهُ إِدْرِيسُ مَدِينَةَ فَاسَ، وَكَانَ ٱلْمُؤَيَّدُ هِشَامٌ يَشْتَغِلُ بِٱلْمَلَاحِمِ،[1] وَوَقَفَ عَلَى أَنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ تَنْقَرِضُ بِٱلْأَنْدَلُسِ عَلَى يَدِ عَلَوِيٍّ أَوَّلُ ٱسْمِهِ عَيْنٌ، فَلَمَّا دَخَلَ سُلَيْمَانُ مَعَ ٱلْبَرْبَرِ قُرْطُبَةَ، وَمَحَوْا كَثِيرًا مِنْ مَحَاسِنِهَا وَمَحَاسِنِ أَهْلِهَا، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أُمَرَائِهِمْ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ، وَبَلَغَ هِشَامًا ٱلْمُؤَيَّدَ وَهُوَ مَحْبُوسٌ خَبَرُهُ وَٱسْمُهُ وَنَسَبُهُ، فَدَسَّ إِلَيْهِ: إِنَّ ٱلدَّوْلَةَ صَائِرَةٌ إِلَيْكَ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّ خَاطِرِي يُحَدِّثُنِي أَنَّ هٰذَا ٱلرَّجُلَ يَقْتُلُنِي

---

(١) يريد بالملاحم هنا النظر فى حوادث المستقبل ومعرفتها — زعموا — بطرق مخصوصة واستحال القضايا النسبية والاشارة الى الكوائن الآتية — وانظر فى مقدمة ابن خلدون فى كتاب طبيعة العمران تعرف رأيه فى الملاحم وفى كتاب الجفر الذى ينسبه بعض الناس الى جعفر الصادق وفيه علم ماسيقع لأهل البيت عامة ولبعض الأشخاص منهم خاصة، وفيه يقول أبو العلاء المعرى :

لقد عجبوا لأهل البيت لما　　أتاهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى　　أرتـه كل عامرة وقفر

« المسك » بفتح الميم الجلد والجفر مابلغ أربعة أشهر من أولاد المعز وكانوا يكتبون فى الجلود « أحمد يوسف نجاتى »

ـ يَعْنِي سُلَيْمَانَ ـ فَإِنْ قَسَلَ فَخُذْ بِثَأْرِي ، وَكَانَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ هُوَ ٱلَّذِي قَوَّى نَفْسَ ٱبْنِ حَمُّودٍ عَلَى طَلَبِ ٱلْإِمَامَةِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى ٱلْأَخْذِ بِثَأْرِ هِشَامٍ ٱلْمُؤَيَّدِ ، فَكَانَ ٱلْمُؤَيَّدُ أَحَدَ مَنْ أَخَذَ[1] بِثَأْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ .

***

ولاية على ابن حمود

وَتَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ ، وَبُويِعَ بِقُرْطُبَةَ فِي قَصْرِهَا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي قُتِلَ فِيهِ سُلَيْمَانُ ٱلْمُسْتَعِينُ ، وَأَخَذَ ٱلنَّاسَ بِالْإِرْهَابِ وَٱلسَّطْوَةِ ، وَأَذَلَّ رُءُوسَ ٱلْبَرْبَرِ ، وَبَرَقَتْ لِلْعَدْلِ فِي أَيَّامِهِ بَارِقَةٌ خُلَّبٌ لَمْ تَكَدْ تَقِدُ[2] حَتَّى خَبَتْ ، وَجَلَسَ لِلْمَظَالِمِ ، وَقُدِّمَتْ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ فِي أَجْرَامٍ ، فَضَرَبَ رِقَابَهُمْ وَأَهْلُهُمْ وَعَشَائِرُهُمْ يَنْظُرُونَ ، وَخَرَجَ يَوْمًا عَلَى بَابِ عَامِرٍ[3] ، فَالْتَقَى فَارِسًا مِنَ ٱلْبَرْبَرِ وَأَمَامَهُ حِمْلُ عِنَبٍ ، فَاسْتَوْقَفَهُ وَقَالَ لَهُ : مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ فَقَالَ أَخَذْتُهُ كَمَا يَأْخُذُ ٱلنَّاسُ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،

---

(١) أو « أُخذ » بالبناء للمجهول (٢) وقدت النار تقد « كوعد » اتقدت ضد خبت . (٣) هو من أبواب قرطبة المتقدمة

وَوُضِعَ رَأْسُهُ وَسَطَ ٱلْحَمْلِ وَطِيفَ بِهِ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا مَعَ أَهْلِ قُرْطُبَةَ فِي أَحْسَنِ عِشْرَةٍ نَحْوَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ حَتَّى بَلَغَهُ قِيَامُ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ بِالْمُرْتَضَى ٱلْمَرْوَانِيِّ فِي مَشْرِقِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، فَتَغَيَّرَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، وَعَزَمَ عَلَى إِخْلَاءِ قُرْطُبَةَ وَإِبَادَةِ أَهْلِهَا ، فَلَا يَعُودُ لِأَئِمَّتِهِمْ بِهَا سُلْطَانٌ آخِرَ ٱلدَّهْرِ ، وَأَغْضَى لِلْبَرْبَرِ عَنْ ظُلْمِهِمْ ، فَعَادَ ٱلْبَلَاءُ إِلَى حَالِهِ ، وَٱنْتَزَعَ أَهْلَ قُرْطُبَةَ ، وَهَدَّمَ ٱلْمَنَازِلَ ، وَٱسْتَهَانَ بِالْأَكَابِرِ ، وَوَضَعَ ٱلْمَغَارِمَ ، وَقَبَضَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَغْيَانِهِمْ وَأَلْزَمَهُمْ بِمَالٍ، فَلَمَّا غَرِمُوهُ سَرَّحَهُمْ(١)، فَلَمَّا جِيءَ إِلَيْهِمْ بِدَوَابِّهِمْ لِيَرْكَبُوهَا أَمَرَ مَنْ أَخَذَ ٱلدَّوَابَّ وَتَرَكَهُمْ يَنْزِلُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو ٱلْحَزْمِ(٢) ٱلَّذِي مَلَكَ قُرْطُبَةَ بَعْدُ وَصَارَتْ دَوْلَتُهُ بِوِرَاثَةِ وَلَدِهِ مَعْدُودَةً فِي دُوَلِ ٱلطَّوَائِفِ، فَانْجَحَتْ(٣) عَنْ عَلِيٍّ ٱلنُّفُوسُ ، وَتَوَالَى عَلَيْهِ ٱلدُّعَاءُ ، فَقَتَلَهُ صِبْيَانٌ أَغْمَارٌ(٤) مِنْ صَقَالِبَةِ بَنِي مَرْوَانَ فِي ٱلْحَمَّامِ ، وَكَانَ قَتْلُهُ غُرَّةَ ذِي ٱلْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَكَانَ ٱلصَّقَالِبَةُ

(١) أي أطلقهم (٢) هو جهور بن محمد بن جهور — وتقدمت سيرته (٣) كذا بالأصل يريد انقبضت عنه وانصرفت وانفضت من حوله (٤) جمع غمر أي الجاهل الغر ومن لم يجرب الأمور، وكل من لاغناء عنده ولا رأى له

ثَلَاثَةً فَهَرَبُوا وَاخْتَفَوْا فِي أَمَاكِنَ يَعْرِفُونَهَا ، وَصَحَّ عِنْدَ النَّاسِ مَوْتُهُ فَفَرِحُوا ، وَكَانَتْ مُدَّتُهُ كَمَا مَرَّ نَحْوَ عَامَيْنِ ، وَحَقَّقَهَا بَعْضُ فَقَالَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا وَسِتَّةُ أَيَّامٍ .

وَكَانَ النَّاصِرُ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ عَلَى عُجْمَتِهِ وَبُعْدِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ يُصْغِي إِلَى الْأَمْدَاحِ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا ، وَيَظْهَرُ فِي ذَلِكَ آثَارَ النَّسَبِ الْعَرَبِيِّ وَالْكَرَمِ الْهَاشِمِيِّ ، وَمِنْ شُعَرَائِهِ الْمُخْتَصِّينَ بِهِ ابْنُ الْخَيَّاطِ الْقُرْطُبِيُّ[1] ، وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ :

---

(١) كذا بالأصل فى غير موضع، وأنا أراها محرفة عن «ابن الحناط» وهو أبو عبد الله محمد بن سليمان الرعينى البصير من أهل قرطبة ، كان متقدما فى البلاغة والأدب وعلوم اللغة شاعرا مفلقا مدح للملوك والرؤساء ونال صلاتهم ، وكان أول ظهوره ونجومه فى الدولة الحمودية بقرطبة ، واليهم هاجر وبهم لحق، واتصل بعلى بن حمود فرفع من ذكره وحماه من أبى الحزم بن جهور لما خاف منه ، وله مع أبى عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد أخبار ومناقضات وكانت بينهما منافسة شريفة أدبية لم تمنع ابن الحناط حين نعى له ابن شهيد سنة ٤٢٦ أن يقول على البديهة :

لما نعى الناعى أبا عامـــر أيقنت أنى لست بالصابر

أودى فتى الظرف وترب الندى وسيد الأول والآخـر

وكان ابن الحناط مع مقدرته الشعرية كاتبا مجيدا ومترسلا ومقتناه الرسالة المهرجانية التى سماها «وشى القلم وحلى الكرم» بعث بها الى الحاجب الظافر

رَاحَتْ تُذَكِّرُ بِالنَّسِيمِ الرَّاحَا
وَطْفَاءُ تَكْسِرُ لِلْجُنُوحِ جَنَاحَا(١)

أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدَتْ
مِنْ بَرْقِهَا كَيْ تَهْتَدِي مِصْبَاحَا

أبي بكر بن الأفطس وهي من الرسائل البديعة ــ ولعلنا نخصه بكلمة وافية ونأتي بشيء من شعره ونثره ان شاء الله » توفي ابن الخناط سنة ٤٣٧ « أحمد يوسف نجاتي » .

(١) يقال سحابة وطفاء اذا كانت مسترخية الجوانب لكثرة مائها ، أو هي دائمة السح الحثيثة طال مطرها أو قصر ، وسحابة ذات وطف أي قد تدلت ذيولها ، وكذلك ظلام أوطف وظلمة وطفاء اذا كان ملبسا دانيا وأكثر ما يطلق الوطف في الشعر وهو كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول » والوطف انهمار المطر »والجنوح الليل والانصراف شبه السحابة بطائر وأثبت لها جناحا وساعده على ذلك الوصف بالوطف المشترك بينهما ، فهو يقول ان هذه السحابة مع رقة النسيم ذكرت بالراح وكانوا يستحبون الشرب اذا كانت الطبيعة كذلك حتى قال عضد الدولة ابن بويه من أبيات :

ليس شرب الراح إلا في المطر وغناء من جوار في السحر الخ

وعلل ابن الخناط في البيت الثاني لمع البرق بأنه مصباح أوقدته السحابة لتهدي به الى مسالكها في ظلمات الليل ــ ولعل ألطف منه قول ابن المعتز

عارض أقبل في جنح الدجا يتهادى كتهادي ذي الوجى

أتلفت ريح الصبا لؤلؤه فانبرى يوقد عنها سرجا

والشاعر إنما يستمد من بيئته ، ويستملي مما يحيط به ، ويستوحي ما يحسه بصوتة طبعه وقريحته . « أحمد يوسف نجاتي » .

وَعُبَادَةُ بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ[١] وَكَانَ مَعْرُوفاً بِالتَّشَيُّعِ ، وَفِيهِ يَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

أَبُوكُمْ عَلِيٌّ كَانَ بِالشَّرْقِ بَدْءُهَا
وَرِثْتُمْ وَذَا بِالْغَرْبِ أَيْضًا سَمِيُّهُ
فَصَلُّوا عَلَيْهِ أَجْمَعُونَ وَسَلِّمُوا
لَهُ الْأَمْرَ إِذْ وَلَّاهُ فِيكُمْ وَلِيُّهُ

وَمَدَحَهُ ابْنُ دَرَّاجٍ الْقَسْطَلِّيُّ[٢] بِقَوْلِهِ :

لَعَلَّكِ يَا شَمْسُ عِنْدَ الْأَصِيلْ
شَجِيتِ لِشَجْوِ الْغَرِيبِ الذَّلِيلْ
فَكُونِي شَفِيعِيَ لِابْنِ الشَّفِيعِ
وَكُونِي رَسُولِيَ لِابْنِ الرَّسُولْ

(١) هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء كان من فحول شعراء الأندلس متقدما فيهم مع علم ورواية ومعرفة ودراية، وله كتاب فى أخبار شعراء الأندلس — توفى سنة ٤١٦ (٢) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج القسطلى الشاعر المفلق المجيد الأديب العالم المتفنن كان كاتب المنصور بن أبى عامر وشاعره ، ثم اتصل بابن حمود ومدحه — ولد سنة ٣٤٧ وتوفى سنة ٤٢١ «والقسطلى نسبة الى قسطلة مدينة بالأندلس يقال لها قسطلة دراج » . « أحمد يوسف نجاتى » .

***

اختلاف البربر على الولاة

وَكَانَ أَخُوهُ ٱلْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ أَكْبَرَ مِنْهُ بِعَشْرِ سِنِينَ، وَأُمُّهُمَا وَاحِدَةٌ، وَهِيَ عَلَوِيَّةٌ، وَلَمَّا قُتِلَ ٱلنَّاصِرُ كَانَ ٱلْقَاسِمُ وَالِيًا عَلَى إِشْبِيلِيَةَ، وَكَانَ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ وَالِيًا عَلَى سَبْتَةَ، فَاخْتَلَفَ أَهْوَاءُ ٱلْبَرْبَرِ، فَمَالَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى ٱلْقَاسِمِ لِكَوْنِهِ عُيِّنَ أَوَّلًا وَقُدِّمَ عَلَيْهِ أَخُوهُ ٱلْأَصْغَرُ وَكَوْنِهِ قَرِيبًا مِنْ قُرْطُبَةَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَحْيَى ٱلْبَحْرُ، فَلَمَّا وَصَلَتْ رُسُلُهُمْ إِلَى ٱلْقَاسِمِ لَمْ يُظْهِرْ فَرَحًا بِالْإِمَامَةِ، وَخَافَ أَنْ تَكُونَ حِيلَةً مِنْ أَخِيهِ عَلَيْهِ، فَتَقَهْقَرَ إِلَى أَنِ ٱتَّضَحَ لَهُ ٱلْحَقُّ، فَرَكِبَ إِلَى قُرْطُبَةَ وَبُويِعَ فِيهَا بَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ قَتْلِ أَخِيهِ، وَأَحْسَنَ ٱلسِّيرَةَ، وَأَحَسَّ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْمَيْلَ إِلَى يَحْيَى ٱبْنِ أَخِيهِ عَلِيٍّ صَاحِبِ سَبْتَةَ، فَتَمَالَكَ فِي ٱقْتِنَاءِ ٱلسُّودَانِ وَٱبْتَاعَ مِنْهُمْ كَثِيرًا وَقَوَّدَهُمْ[1] عَلَى أَعْمَالِهِ فَأَنِفَتِ ٱلْبَرْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَٱنْحَرَفُوا عَنْهُ. وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ

(١) جعلهم قوادا لا غراضه السافلة «من القيادة حرفة ذوى النذالة والهمة الساقطة والتي يأنف منها أولو الاباء والحمية كالبربر» «أحمد يوسف نجاتى».

وَأَرْبَعِمِائَةٍ قَامَ عَلَيْهِ بِشَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْمُرْتَضَى عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ مِنْ أَعْقَابِ ٱلنَّاصِرِ – لِأَنَّ أَهْلَ ٱلْأَنْدَلُسِ صَعُبَ عَلَيْهِمْ مُلْكُ بَنِي حَمُّودٍ ٱلْعَلَوِيِّينَ بِسَبَبِ ٱلْبَرْبَرِ، فَأَرَادُوا رُجُوعَ ٱلْإِمَامَةِ إِلَى بَنِي مَرْوَانَ – وَٱجْتَمَعَ لَهُ أَكْثَرُ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ، وَكَانَ مَعَهُ حِينَ أَقْبَلَ لِقُرْطُبَةَ مُنْذِرٌ[1] ٱلتُّجِيبِيُّ صَاحِبُ سَرَقُسْطَةَ وَخَيْرَانُ ٱلْعَامِرِيُّ ٱلصَّقْلَبِيُّ صَاحِبُ ٱلْمَرِيَّةِ، وَٱنْضَافَ إِلَيْهِمْ جَمْعٌ مِنَ ٱلْفِرَنْجِ، وَتَأَهَّبَ ٱلْقَاسِمُ وَٱلْبَرَابِرَةُ لِلِقَائِهِمْ، فَكَانَ مِنَ ٱلِاتِّفَاقِ ٱلْعَجِيبِ أَنْ فَسَدَتْ نِيَّةُ مُنْذِرٍ وَخَيْرَانَ عَلَى ٱلْمُرْتَضَى وَقَالَا: أَرَانَا فِي ٱلْأَوَّلِ وَجْهًا لَيْسَ بِالْوَجْهِ ٱلَّذِي نَرَاهُ حِينَ ٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱلْجَمُّ ٱلْغَفِيرُ! وَهٰذَا مَا كُرِهَ غَيْرُ صَافِي ٱلنِّيَّةِ، فَكَتَبَ خَيْرَانُ إِلَى ٱبْنِ زِيرِي[2] ٱلصِّنْهَاجِيِّ ٱلْمُتَغَلِّبِ

(١) هو منذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم الملقب بالمنصور صاحب سرقسطة والثغر الأعلى توفى سنة ٤١٤ وولى بعده ابنه يحيى وتلقب المظفر، فتغلب عليه أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى من أهل نسبهم وكان من قبل مستبدا بمدينة تطيلة منذ أول الفتنة، وقتل يحيى المظفر سنة ٤٣١ – وقد تقدم ما كان بعد ذلك ■ أحمد يوسف نجاتى»

(٢) هو زاوى بن زيرى بن مناد، وتقدم الحديث عنه

عَلَى غَرْنَاطَةَ وَهُوَ دَاهِيَةُ ٱلْبَرْبَرِ، وَضَمِنَ لَهُ أَنَّهُ مَتَى قَطَعَ ٱلطَّرِيقَ عَلَى ٱلْمُرْتَضَى عِنْدَ ٱجْتِيَازِهِ عَلَيْهِ إِلَى قُرْطُبَةَ خَذَلَ(١) عَنْ نُصْرَتِهِ ٱلْمَوَالِي ٱلْعَامِرِيِّينَ أَعْدَاءَ ٱلْمَرْوَانِيِّينَ وَأَصْحَابَ رِيَاسَةِ ٱلثُّغُورِ ، فَأَصْغَى ٱبْنُ زِيرِي إِلَى ذَلِكَ ، وَكَتَبَ ٱلْمُرْتَضَى إِلَى ٱبْنِ زِيرِي يَدْعُوهُ لِطَاعَتِهِ ، فَقَلَبَ ٱلْكِتَابَ وَكَتَبَ فِي ظَهْرِهِ «قُلْ يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ» ٱلسُّورَةَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَابًا ثَانِيًا يَقُولُ فِيهِ : جِئْتُكَ بِجَمِيعِ أَبْطَالِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَبِالْفَرَنْجِ فَمَاذَا تَصْنَعُ ؟ وَخَتَمَ ٱلْكِتَابَ بِهَذَا ٱلْبَيْتِ :

إِنْ كُنْتَ مِنَّا أَبْشِرْ(٢) بِخَيْرٍ أَوْلَا فَأَيْقِنْ بِكُلِّ شَرٍّ

فَأَمَرَ ٱلْكَاتِبَ أَنْ يُحَوِّلَ ٱلْكِتَابَ وَيَكْتُبَ فِي ظَهْرِهِ « أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ » ٱلسُّورَةَ ، فَازْدَادَ حَنَقُهُ وَحَمَلَهُ ٱلْغَيْظُ إِلَى أَنْ تَرَكَ ٱلسَّيْرَ إِلَى حَضْرَةِ ٱلْإِمَامَةِ قُرْطُبَةَ ، وَعَدَلَ إِلَى مُحَارَبَتِهِ وَهُوَ يَرَى أَنْ يَصْطَلِمَهُ(٣) فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، وَدَامَتِ ٱلْحَرْبُ أَيَّامًا ، وَأَرْسَلَ ٱبْنُ زِيرِي إِلَى خَيْرَانَ يَسْتَنْجِزُهُ وَعْدَهُ

---

(١) أو « خزل » (٢) في الأصل « أشر » وهو تحريف (٣) أي يستأصله . واصطلم القوم أبيدوا من أصلهم

فَأَجَابَهُ: إِنَّمَا تَوَقَّفْتُ حَتَّى تَرَى مِقْدَارَ حَرْبِنَا وَصَبْرِنَا وَلَوْ
كُنَّا بِبَوَاطِنِنَا مَعَكَ ، فَأَثْبِتْ جَمْعَكَ لَنَا وَنَحْنُ نَنْهَزِمُ عَنْهُ
وَنَخْذُلُهُ فِي غَدٍ . وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ رَأَى أَعْلَامَ خَيْرَانَ
وَأَعْلَامَ مُنْذِرٍ وَأَصْحَابِ الثُّغُورِ قَدْ وَلَّتْ عَنْهُ ، فَسُقِطَ[1]
فِي يَدِ الْمُرْتَضَى وَثَبَتَ حَتَّى كَادُوا يَأْخُذُونَهُ ، وَاسْتَحَرَّ[2]
الْقَتْلُ ، وَصُرِعَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا خَافَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ
وَلَّى ، فَوَضَعَ عَلَيْهِ خَيْرَانُ عُيُونًا فَلَحِقُوهُ بِقُرْبِ وَادِي آشَ
وَقَدْ جَاوَزَ بِلَادَ الْبَرْبَرِ وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ ، فَهَجَمُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ
وَجَاءُوا بِرَأْسِهِ إِلَى الْمَرِيَّةِ وَقَدْ حَلَّ بِهَا خَيْرَانُ وَمُنْذِرٌ ،
فَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّهُمَا اصْطَبَحَا[3] عَلَيْهِ سُرُورًا بِهَلَاكِهِ .
وَبَعْدَ هَـٰذِهِ الْوَاقِعَةِ أَذْعَنَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِلْبَرَابِرَةِ ، وَلَمْ
يَجْتَمِعْ لَهُمْ بَعْدَهَا جَمْعٌ يَنْهَضُونَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، وَضَرَبَ الْقَاسِمُ
ابْنُ حَمُّودٍ سُرَادِقَ الْمُرْتَضَى عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ ، وَغَشِيَهُ خَلْقٌ

(١) سقط في يده : ندم وتحير، وتحسر على ما فرط منه (٢) أي اشتد وعظم
(٣) أي شربا الصبوح ، وهو شرب الصباح

مِنَ ٱلنَّظَّارَةِ وَقُلُوبُهُمْ تَتَقَطَّعُ حَسَرَاتٍ ، وَأَنْشَدَ عُبَادَةُ بْنُ مَاءِ ٱلسَّمَاءِ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا :

لَكَ ٱلْخَيْرُ خَيْرَانُ مَضَى لِسَبِيلِهِ
وَأَصْبَحَ أَمْرُ ٱللهِ فِي ٱبْنِ رَسُولِهِ

***

القاسم بن حمود وَتَمَكَّنَتْ أُمُورُ ٱلْقَاسِمِ ، وَوَلَّى وَعَزَلَ ، وَقَالَ وَفَعَلَ إِلَى أَنْ كَشَفَ وَجْهَهُ فِي خَلْعِ طَاعَةِ ٱبْنِ أَخِيهِ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَكَتَبَ مِنْ سَبْتَةَ إِلَى أَكَابِرِ ٱلْبَرَابِرِ بِقُرْطُبَةَ : إِنَّ عَمِّي أَخَذَ مِيرَاثِي مِنْ أَبِي ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدَّمَ فِي وِلَايَاتِكُمْ ٱلَّتِي أَخَذْتُمُوهَا بِسُيُوفِكُمْ ٱلْعَبِيدَ وَٱلسُّودَانَ ، وَأَنَا أَطْلُبُ مِيرَاثِي وَأُوَلِّيكُمْ مَنَاصِبَكُمْ ، وَأَجْعَلُ ٱلْعَبِيدَ وَٱلسُّودَانَ كَمَا هُمْ عِنْدَ ٱلنَّاسِ . فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ ، فَجَمَعَ مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمَرَاكِبِ ، وَأَعَانَهُ أَخُوهُ إِدْرِيسُ صَاحِبُ مَالَقَةَ ، فَجَازَ ٱلْبَحْرَ بِجَمْعٍ وَافِرٍ ، وَحَصَلَ بِمَالَقَةَ مَعَ أَخِيهِ ، وَكَتَبَ لَهُ خَيْرَانُ صَاحِبُ ٱلْمَرِيَّةِ مُذَكِّرًا لَهُ بِمَا أَسْلَفَهُ فِي إِعَانَةِ أَبِيهِ وَأَكَّدَ ٱلْمَوَدَّةَ ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ إِدْرِيسُ : إِنَّ خَيْرَانَ رَجُلٌ

خدّامٌ، فقال يحيى: ونحن مُنخدِعون فيما لا يضرُّنا.

***

ثمّ إنّ يحيى أقبل إلى قرطبة واثقاً بأنّ البرابر معه، فقرّ القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسانٍ من خواصّه ليلة السّبت في الثّامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وحلّ يحيى بقرطبة، فبايعه البرابر والسّودان وأهل البلد يوم السّبت مُستهلّ جمادى الآخرة وكان يحيى من النّجباء، وأمّه فاطميّة، وإنّما كانت آفته العُجب واصطناع السّفلة، واشتطّ[1] أكابر البرابر عليه وطلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السّودان، فبذل لهم ذلك فلم يقنعوا منه، وصاروا يعملون معه ما يخرق الهيبة ويُفرغ بيت المال، وفرّ السّودان إلى عمّه بإشبيلية ومن البرابر ومن جند الأندلس من احتجب عنهم يحيى وتكبّر عليهم، ولم يمل إليه ملوك الطّوائف، وبقي منهم كثيرٌ على الخطبة لعمّه القاسم إلى أن اختلّت الحال بحضرة قرطبة، وأيقن يحيى أنّه متى أقام بها قُبض عليه، وكان

(١) أي تجاوزوا الحد في مطالبهم

قَدْ وَلَّى عَلَى سَبْتَةَ أَخَاهُ إِدْرِيسَ ، وَبَلَغَهُ أَنَّ أَهْلَ مَالَقَةَ خَاطَبُوا خَيْرَانَ وَكَاتَبُوهُ ، فَطَمِعَ خَيْرَانُ فِيهَا ، وَفَرَّ يَحْيَى فِي خَوَاصِّهِ تَحْتَ اللَّيْلِ إِلَى مَالَقَةَ ، وَلَمَّا بَلَغَ الْقَاسِمَ فِرَارُهُ رَكِبَ مِنْ إِشْبِيلِيَةَ إِلَى قُرْطُبَةَ ، فَخُطِبَ لَهُ بِهَا يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَلَمْ تَصْلُحِ الْحَالُ لِلْقَاسِمِ مُنْذُ وَصَلَ إِلَى الْحَضْرَةِ ، وَوَقَعَ الِاخْتِلَافُ ، وَكَانَ هَوَى السُّودَانِ مَعَهُ ، وَهَوَى كَثِيرٍ مِنَ الْبَرَابِرَةِ مَعَ يَحْيَى ، وَهَوَى أَهْلِ قُرْطُبَةَ مَعَ قَائِمٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ يُشِيعُونَ ذِكْرَهُ وَلَا يَظْهَرُ ، وَكَثُرَ الْإِرْجَافُ[1] بِذَلِكَ وَوَقَعَ الطَّلَبُ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَدَخَلُوا فِي أَغْمَارِ[2] النَّاسِ وَأَخْفَوْا زِيَّهُمْ . ثُمَّ إِنَّ الْخِلَافَ وَقَعَ بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَأَهْلِ قُرْطُبَةَ ، وَتَكَاثَرَ الْبَلَدِيُّونَ وَأَخْرَجُوا الْقَاسِمَ

---

(١) أرجف القوم اذا خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها من الأحاديث السيئة ، ومنه قوله تعالى : « والمرجفون فى المدينة » وهم الذين يلفقون الأخبار الكاذبة التى قد يكون معها اضطراب الناس وفتنتهم ـ وقال الراغب : الارجاف إيقاع الرجفة إما بالقول وإما بالفعل .

(٢) الغمر من الناس جماعتهم ولفيفهم وكثرتهم وزحمتهم

وَبَرَابِرَتَهُ، فَضَرَبَ خَيْمَةً بِقُرْبِهَا وَقَاتَلَهُمْ مُدَّةَ خَمْسِينَ يَوْمًا قِتَالًا شَدِيدًا، وَبَنَى ٱلْقُرْطُبِيُّونَ أَبْوَابَ مَدِينَتِهِمْ، وَقَاتَلُوا ٱلْقَاسِمَ مِنَ ٱلْأَسْوَارِ إِلَى أَنْ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْحِصَارُ، فَهَدَمُوا بَابًا مِنَ ٱلْأَبْوَابِ وَخَرَجُوا خَرْجَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَصَبَرُوا فَمَنَحَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَى ٱلظَّفَرَ، وَفَرَّ ٱلسُّودَانُ مَعَ ٱلْقَاسِمِ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ، وَفَرَّ ٱلْبَرَابِرَةُ إِلَى يَحْيَى وَهُوَ بِمَالَقَةَ. وَكَانَ فِرَارُ ٱلْقَاسِمِ مِنْ ظَاهِرِ قُرْطُبَةَ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ

***

وَكَانَ ٱبْنُهُ مُحَمَّدُ بْنُ ٱلْقَاسِمِ وَالِيًا عَلَى إِشْبِيلِيَةَ، وَتَقَبَّتْهُ ٱلْمُدَبِّرُ فرار القاسم
لِأَمْرِهِ مُحَمَّدُ بْنُ زِيرِي مِنْ أَكَابِرِ ٱلْبَرَابِرَةِ، وَقَاضِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ[1] فَعَمِلَ ٱلْقَاضِي لِنَفْسِهِ - وَهُوَ جَدُّ ٱلْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ - وَأَطْمَعَ ٱبْنَ زِيرِي فِي ٱلْمُلْكِ، فَأَغْلَقَ ٱلْأَبْوَابَ فِي وَجْهِ مُصْطَنِعِهِ وَحَارَبَهُ، فَقُتِلَ مِنَ ٱلْبَرَابِرِ وَٱلسُّودَانِ خَلْقٌ كَثِيرٌ

(١) هو ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عباد صاحب إشبيلية تغلب عليها أيام الفتن فساسها وانقادت له، كان له في العلم والأدب باع، ولذوى المعارف عنده سوق وارتفاع، وكان أديبا بليغا ناظما ناثرا توفي حوالي سنة ٤٣٠

وَٱبْنُ عَبَّادٍ يَضْحَكُ عَلَى ٱلْجَمِيعِ ، فَيَئِسَ ٱلْقَاسِمُ وَقَنِعَ أَنْ يُخْرِجُوا إِلَيْهِ ٱبْنَهُ[1] وَأَصْحَابَهُ وَيَسِيرَ عَنْهُمْ ، فَأَخْرَجُوهُمْ إِلَيْهِ فَسَارَ بِهِمْ إِلَى شَرِيشَ ، وَعِنْدَ مَا ٱسْتَقَرَّ بِهَا وَصَلَ إِلَيْهِ يَحْيَى ٱبْنُ أَخِيهِ مِنْ مَالَقَةَ وَمَعَهُ جَمْعٌ عَظِيمٌ ، وَحَاصَرَهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ عِشْرِينَ يَوْمًا كَانَ فِيهَا حُرُوبٌ صِعَابٌ ، وَقُتِلَ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَلْقٌ كَثِيرٌ .

***

أسر يحيى وتـه وَأَجْلَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ قَهْرِ يَحْيَى لِعَمِّهِ وَإِسْلَامِ[2] أَهْلِ شَرِيشَ لَهُ ، وَفَرَّ سُودَانُهُ ، وَحَصَلَ ٱلْقَاسِمُ وَٱبْنُهُ فِي يَدِ يَحْيَى . وَكَانَ قَدْ أَقْسَمَ أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ فِي يَدِهِ لَيَقْتُلَنَّهُ وَلَا يَتْرُكُهُ حَتَّى يَلِيَ ٱلْإِمَامَةَ بِقُرْطُبَةَ مَرَّةً ثَالِثَةً ــ فَرَأَى ٱلتَّرَبُّصَ[3] فِي قَتْلِهِ حَتَّى يَرَى رَأْيَهُ فِيهِ ، فَحَدَّثَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ حَمَلَهُ بِقَيْدٍ إِلَى مَالَقَةَ وَحَبَسَهُ عِنْدَهُ ، وَكَانَ كُلَّمَا سَكِرَ وَأَرَادَ قَتْلَهُ رَغَّبَهُ نُدَمَاؤُهُ فِي ٱلْإِبْقَاءِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى ٱلْخَلَاصِ ، وَكَانَ كُلَّمَا نَامَ رَأَى وَالِدَهُ

(١) أظنها محرفة عن ابنيه ــ وهما محمد والحسن ابنا القاسم بن حمود
(٢) أى خذلان (٣) أى التمهل والانتظار

عَلِيًّا فِي ٱلنَّوْمِ يَنْهَاهُ عَنْ قَتْلِهِ وَيَقُولُ لَهُ : أَخِي أَكْبَرُ مِنِّي وَكَانَ مُحْسِنًا إِلَيَّ فِي صِغَرِي وَمُسْلِمًا إِلَيَّ عِنْدَ إِمَارَتِي أَقَرَّهُ اللّهُ فِيهِ ، وَامْتَدَّتِ ٱلْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ خَنْقًا بَعْدَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ حِينِ ٱلْقَبْضِ عَلَيْهِ ـ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ حَبَسَهُ فِي حِصْنٍ مِنْ حُصُونِ مَالَقَةَ فَنُمِيَ[١] إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ تَحَدَّثَ مَعَ أَهْلِ ٱلْحِصْنِ فِي ٱلْقِيَامِ وَٱلْعِصْيَانِ ، فَقَالَ أَوَ بَقِيَ فِي رَأْسِهِ حَدِيثٌ بَعْدَ هَذَا ٱلْعُمُرِ ؟ فَقَتَلَهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَبَقِيَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ بَعْدَ فِرَارِ ٱلْقَاسِمِ عَنْهَا نَيِّفًا عَنْ عِشْرِينَ يَرَوْنَ رَأْيَهُمْ فِيمَنْ يُبَايِعُونَهُ بِٱلْإِمَامَةِ .

***

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلثُّلَاثَاءِ نِصْفُ شَهْرِ رَمَضَانَ مبايعة المستظهر سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أُحْضِرَ ٱلْمُسْتَظْهِرُ وَسُلَيْمَانُ ٱبْنُ ٱلْمُرْتَضَى وَأُمَوِيٌّ آخَرُ[٢] مَعَهُ فَبَايَعَا ٱلْمُسْتَظْهِرَ وَقَبْلَا

---

(١) أي وصل إليه و بلغه ونقل إليه (٢) هو محمد بن عبدالرحمن بن هشام ابن سليمان القائم على المهدى بن الناصر ـ والمستظهر هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر أخو المهدى المذكور « ولد سنة ٣٩٢ وأمه أم ولد اسمها غانية » « أحمد يوسف نجاتى »

يَدَهُ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ كُتِبَ عَقْدُ ٱلْبَيْعَةِ بِاسْمِ سُلَيْمَانَ بْنِ ٱلْمُرْتَضَى عَلَى مَا ٱرْتَضَاهُ ٱلْأَمَاثِلُ[1] ، فَبُشِرَ[2] ٱسْمُهُ وَكُتِبَ ٱسْمُ ٱلْمُسْتَظْهِرِ ، وَرَكِبَ إِلَى ٱلْقَصْرِ ، وَحَمَلَ مَعَهُ ٱبْنَيْ عَمِّهِ ٱلْمَذْكُورَيْنِ فَحَبَسَهُمَا ، وَكَانَ قَدْ رَفَعَ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْأَتْبَاعِ ذَهَبَ بِهِمُ ٱلْعُجْبُ كُلَّ مَذْهَبٍ ـ كَأَبِي عَامِرِ بْنِ شُهَيْدٍ[3] ٱلْمُنْهَمِكِ فِي بِطَالَتِهِ[4] ، وَأَبِي مُحَمَّدِ بْنِ حَزْمٍ[5] ٱلْمَشْهُورِ بِالرَّدِّ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ فِي مَقَالَتِهِ ، وَٱبْنِ عَمِّهِ عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ بْنِ حَزْمٍ[6] ٱلْغَزِلِ ٱلْمُتْرَفِ فِي حَالَتِهِ ، فَأَحْقَدَ بِذَلِكَ مَشَايِخَ

(١) جمع الأمثل أى الأفضل والأشرف وذو العقل ، وفى الحديث : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، أى الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى فى الرتبة والمنزلة (٢) أى محى وأزيل ـ والبشر والإبشار القشر ، يقال بشر الجلد إذا قشر بشرته أو أخذ باطنه بشفرة .

(٣) أحمد بن عبد الملك بن شهيد تقدمت ترجمته (٤) البطالة اتباع اللهو والجهالة ، والاشتغال عما يعود بنفع دنيوى أو أخروى ، و بطل فى حديثه بطالة إذا هزل وكان بطالا (٥) على بن أحمد وتقدمت ترجمته (٦) هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم الوزير الكاتب من المتقدمين فى الآداب والشعر والبلاغة ، ومن شعره :

لما رأيت الهلال منطويا … فى غرة الفجر قارن الزهره
شبهته والعيان يشهد لى … بصولجان أوفى لضرب كره

ومن غزله :

ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْأَكَابِرَ ، وَبَادَرَ ٱلْمُسْتَظْهِرُ بِاصْطِنَاعِ ٱلْبَرَابِرِ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُمْ ، وَأَحْسَنَ مَأْوَاهُمْ ، وَٱشْتَغَلَ مَعَ ٱبْنِ شُهَيْدٍ وَٱبْنَيْ حَزْمٍ بِالْمُبَاحَثَةِ فِي ٱلْآدَابِ ، وَنَظْمِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّمَسُّكِ بِتِلْكَ ٱلْأَهْدَابِ ، وَٱلنَّاسُ فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ أَجْهَلُ مَا يَكُونُ وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّرِّ فِي ٱلسُّجُونِ ، يَتَمَنَّىْ أَلَّا يَخْرُجَ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ ، فَأَخْرَجَ مِنْهُمْ شَخْصًا يُقَالُ لَهُ أَبُو عِمْرَانَ وَقَدْ كَانَ أَشَارَ بَعْضُ ٱلْوُزَرَاءِ عَلَيْهِ بِعَدَمِ إِخْرَاجِهِ فَأَخْرَجَهُ وَخَالَفَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَقْبَلِ ٱلنَّصِيحَةَ ، وَفَعَلَ مَا أَدَّاهُ إِلَى ٱلْفَضِيحَةِ ، فَسَعَى ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ ٱلْحُبُوسِ ، عَلَى إِفْسَادِ دَوْلَتِهِ وَإِبْدَالِ فَرَحِهِ بِالْبُؤْسِ ، لَمَّا ٱشْتَغَلَ عَنْهُمْ بِالْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ حَسْبَمَا ٱقْتَضَاهُ رَأْيُهُ ٱلْمَنْكُوسُ ، فَسَعَوْا

تلعنـوفى أحداجهامن شكلها　　عين فضحن بحسنهن العينا
ضرن البدور بظل جثل فاحم　　وغرسن فى كثبانهن غصونا
ماأنصفت فى جنب توضح اذقرت
ضيف الوداد بـلابلا وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده　　اذ لم يجد بالرقتين قطينا

توفى بعسكر ابن ذى النون صاحب طليطلة سنة ٤٣٨ ﻫ أحمد يوسف نجاتى

فِي خَلْعِهِ مَعَ ٱلْبَرَابِرِ ، وَقُتِلَ فِي ذِي ٱلْقَعْدَةِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ٱلَّتِي بُويِعَ فِيهَا وَصَارَ كَأَمْسِ ٱلدَّابِرِ ، بَعْدَ سَبْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ يَوْمِ بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ ، وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَمْرًا فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ خِلَافَهُ ، وَعُمْرُهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، كَأَنَّهَا سِنَةٌ . وَمِنْ شِعْرِ ٱلْمُسْتَظْهِرِ ٱلْمَذْكُورِ ، وَهُوَ مِنَ ٱلْقَرِيضِ ٱلْمَمْدُوحِ صَاحِبُهُ بِالْبَلَاغَةِ ٱلْمَشْكُورِ :

طَالَ عُمْرُ ٱللَّيْلِ عِنْدِي ... مُذْ تَوَلَّتْ بِصَدِّي
يَا غَزَالًا نَقَضَ ٱلْعَهْـ ... ـدَ وَلَمْ يُوفِ بِوَعْدِي
أَنَسِيتَ ٱلْعَهْـدَ إِذْ بِتْـ ... ـنَا عَلَى مَفْرَشِ وَرْدِ
وَٱعْتَنَقْنَا فِي وِشَاحٍ ... وَٱنْتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ
وَنُجُومُ ٱللَّيْلِ تَسْرِي ... ذَهَبًا فِي لَازَوَرْدِ

وَكَتَبَ إِلَيْهِ شَاعِرٌ فِي طِرْسٍ مَكْشُوطٍ(١) :

ٱلطِّرْسُ مَبْشُورٌ وَفِيهِ بِشَارَةٌ ... بِبَقَا ٱلْإِمَامِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْمُسْتَظْهِرِ
مَلِكٌ أَعَادَ ٱلْعَيْشَ غَضًّا(٢) مُلْكُهُ ... وَكَذَا يَكُونُ بِهِ طِوَالَ ٱلْأَعْصُرِ

---

(١) كتب البيت الأول في الأصل منثور النظام ، محرف الكلام ، فأعيد الى نظامه ــ وكم كان في الكتاب من تصحيف وتحريف وسقط !.
(٢) أي طريا ناضرا . « أحمد يوسف نجاتي »

فَأَجْزَلَ صِلَتَهُ، وَكَتَبَ فِي ظَهْرِ ٱلْوَرَقَةِ (١):

قَبِلْنَا ٱلْعُذْرَ فِي بَشْرِ ٱلْكِتَابِ
لِمَا أَحْكَمْتَ فِي فَصْلِ ٱلْخِطَابِ

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي ٱلْبَابِ ٱلثَّالِثِ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ ٱلْأَخْبَارِ وَمَا حَصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقُرْطُبَةَ، إِلَى أَنْ تَوَلَّى ٱلْأَمْرَ ٱبْنُ جَهْوَرٍ فِي صُورَةِ ٱلْوِزَارَةِ ، ثُمَّ ٱبْنُهُ إِلَى أَنْ أَخَذَ قُرْطُبَةَ مِنْهُ ٱلْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ حَسْبَمَا ذُكِرَ فِي أَخْبَارِهِ . ثُمَّ آلَ ٱلْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى ٱسْتِيلَاءِ مُلُوكِ ٱلْعُدْوَةِ مِنَ ٱلْمُلَثَّمِينَ وَٱلْمُوَحِّدِينَ عَلَى قُرْطُبَةَ، إِلَى أَنْ تَسَلَّمَهَا ٱلنَّصَارَى - أَعَادَهَا ٱللهُ تَعَالَى - لِلْإِسْلَامِ كَمَا يُذْكَرُ فِي ٱلْبَابِ ٱلثَّامِنِ . وَقَالَ صَاحِبُ مَنَاهِجِ ٱلْفِكَرِ فِي ذِكْرِ قُرْطُبَةَ مَا مُلَخَّصُهُ : فَأَمَّا مَا ٱشْتَمَلَ

(١) ومن شعر المستظهر من قصيدة قالها أيام خطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين :

حمامة بنت العبشميين رفرفت ... فطرت اليهم من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا ... ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا
وانى لطعان اذا الخيل أقبلت ... جوانبها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيف حين ينزل ساحتى ... وجاعل وفرى عند سائله وقرا

عَلَيْهِ غَرْبُ ٱلْجَزِيرَةِ، مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْخَطِيرَةِ، فَمِنْهَا قُرْطُبَةُ وَكَانَتْ مَقَرَّ ٱلْمُلْكِ، وَدَارَ ٱلْإِمَارَةِ، وَأُمَّ مَا عَدَاهَا مِنَ ٱلْبِلَادِ مُنْذُ ٱفْتَتَحَهَا ٱلْمُسْلِمُونَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ زَمَنَ ٱلْوَلِيدِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ إِلَى أَنْ خَرَجَتْ عَنْ أَيْدِيهِمْ، وَتَنَقَّلَتْ فِي أَيْدِي مُلُوكِ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى ٱلنَّاصِرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ فَبَنَى فِي تِجَاهِهَا مَدِينَةً سَمَّاهَا ٱلزَّهْرَاءَ يَجْرِي بَيْنَهُمَا نَهْرٌ عَظِيمٌ. ٱنْتَهَى.

***

وصف الشعراء لقصور قرطبة

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَبَانِيَ دَالَّةٌ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ بَانِيهَا، كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي كَلَامِ ٱلنَّاصِرِ ٱلَّذِي طَابَتْ لَهُ مِنَ ٱلزَّهْرَاءِ مَجَانِيهَا، وَلَمْ يَزَلِ ٱلْبُلَغَاءُ يَصِفُونَ ٱلْمَبَانِيَ، بِأَحْسَنِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي، وَرَأَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ هُنَا بَعْضَ ذَلِكَ، زِيَادَةً فِي تَوْسِيعِ ٱلْمَسَالِكِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ(١) فِي دَارٍ بَنَاهَا ٱلْمُعْتَمِدُ عَلَى ٱللهِ:

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي السرقوسي الشاعر المشهور. قال ابن بسام في حقه: هو شاعر ماهر، يقرطس أغراض المعاني البديعة، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة، ويتصرف في التشبيه المصيب، ويغوص في بحر الكلم على در المعنى الغريب المتوحل الأندلس

وَيَا حَبَّـذَا دَارٌ قَضَى اللهُ أَنَّهَا
يُجَدَّدُ فِيهَا كُلُّ عِزٍّ وَلَا يَبْلَى

مُقَدَّسَةٌ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَلِيمَهُ
مَشَى قَدَمًا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ النَّعْلَا[١]

وَمَا هِيَ إِلَّا خِطَّةُ الْمَلِكِ الَّذِي
يَحُطُّ إِلَيْهِ كُلُّ ذِي أَمَلٍ رِجْلَا[٢]

إِذَا فُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا خِلْتَ أَنَّهَا
تَقُولُ بِتَرْحِيبٍ لِدَاخِلِهَا : أَهْلَا

وَقَدْ نَقَلَتْ صُنَّاعُهَا مِنْ صِفَاتِهِ
إِلَيْهَا أَفَانِينًا[٣] فَأَحْسَنَتِ النَّقْلَا

سنة ٤٧١ ومدح المعتمد بن عباد فأحسن اليه وأجزل عطاياه — وتوفى سنة ٥٢٩ بجزيرة ميورقة » واقتزع الفرنج جزيرة صقلية من المسلمين سنة ٤٦٤ » وهذه الأبيات من قصيدة له عدتها ٥٧ بيتا مطلعها :

أغمر الهوى كم ذا تقطعنى عذلا قتلت الهوى علما أتقتلنى جهلا ؟

والبيت الأول من القطعة التى هنا يروى :

ويا حبذا دار يد الله مسحت عليها بتجديد البقاء فما تبلى

(١) يشير الى قوله تعالى: «فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى» (٢) ويروى : يحط لديه كل ذى أمل رحلا ، وهو ألطف وأبلغ » أحمد يوسف نجاتى ■

(٣) الأفنون : الفن والنوع من الشىء والضرب منه

فَمِنْ صَدْرِهِ رُحْبًا ، وَمِنْ نُورِهِ سَنًى

وَمِنْ صِيتِهِ فَرْعًا ، وَمِنْ حِلْمِهِ أَصْلَا(١)

فَأَعْلَتْ بِهِ فِي رُتْبَةِ ٱلْمُلْكِ نَادِيًا

وَقَلَّ لَهُ فَوْقَ ٱلسَّمَا كَيْفَ أَنْ يُعْلَى

نَسِيتُ بِهِ إِيوَانَ كِسْرَى لِأَنَّنِي

أَرَاهُ لَهُ مَوْلًى مِنَ ٱلْحُسْنِ لَا مِثْلَا

كَأَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ لَمْ تُبِحْ

مَخَافَتُهُ لِلْجِنِّ فِي صُنْعِهِ مَهْلَا(٢)

تَرَى ٱلشَّمْسَ فِيهِ لِيقَةً(٣) تَسْتَمِدُّهَا

أَكُفٌّ أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شَكْلَا

---

(١) الرحب : السعة ، والسنى الضوء ، وفرع كل شيء أعلاه وأرفعه . ويروى « ومن وجهه سنا » (٢) يريد أنه لاتقان بنائه واحكام صنعه كأن الجن صنعته لسليمان ، وحملتهم هيبته أن يتأنقوا في بنائه ويستجيدوا صناعته ، ولم يستبيحوا لأنفسهم فيه امهالا ولا اهمالا — ويروى « شيده » (٣) لاق الدواة يليقها جعل لها ليقة أو أصلح مدادها . والليقة الاسم من ذلك ، وليقة الدواة : ما اجتمع في رقبتها من مدادها . والليقة أيضا الطينة اللزجة تلين باليد ثم يرمى بها الحائط فتلزق به — واستمد اذا طلب المدد ، وأخذ مدة من الدواة « والمدة » اسم ما استمددت من المداد على القلم ، وسمي الحبر مدادا لامداده الكاتب — يصف الشاعر النقوش والصور الذهبية الرائعة « أحمد يوسف نجاتي »

لَهَا حَرَكَاتٌ أُودِعَتْ فِي سُكُونِهَا
فَمَا تَبِعَتْ فِي نَقْلِهِنَّ يَدٌ رِجْلَا (١)

وَلَمَّا عَشِينَا مِنْ تَوَقُّدِ نُورِهَا
تَخِذْنَا سَنَاهُ فِي نَوَاظِرِنَا كُحْلَا (٢)

وَقَالَ مِنْ أُخْرَى يَصِفُ دَارًا بَنَاهَا الْمَنْصُورُ بْنُ أَعْلَى النَّاسِ بِبِجَايَةَ (٣) :

أَعْمِرْ بِقَصْرِ الْمُلْكِ نَادِيكَ الَّذِى
أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيْتُهُ مَعْمُورَا

قَصْرٌ لَوَانَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بِنُورِهِ
أَعْمَى لَعَادَ إِلَى الْمَقَامِ بَصِيرَا

---

(١) يريد أن هذه الصور المختلفة التي تمثل أنواع الحيوان يخيل لرائيها من اتقان صنعها أنها حية متحركة فكأن سكونها متحرك وان لم تنقل المسير رجلا أو يدا (٢) بعد هذا البيت بيت هو ختام القصيدة :

فيادار أغضى الدهر عنك وأكثرت   أسودك نسلا فيه تحتبك الشبلا

(٣) بجاية : مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب أول من اختطها الناصر بن أعلى الناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين فى حدود سنة ٤٥٧ وتسمى الناصرية وكانت قاعدة بنى حماد . « أحمد يوسف نجاتى »

وَأَشْتَقَّ مِنْ مَعْنَى ٱلْجِنَانِ نَسِيمُهُ
فَيَكَادُ يُحْدِثُ بِٱلْعِظَامِ نُشُورَا(١)

نُسِيَ ٱلصَّبِيحُ مَعَ ٱلْمَلِيحِ بِذِكْرِهِ
وَسَمَا فَفَاقَ خَوَرْنَقًا وَسَدِيرَا(٢)

لَوْ أَنَّ بِٱلْإِيوَانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ
مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكُورَا

---

(١) النشر والنشور والانشار احياء الميت ، وفي القرآن الكريم : «وانظر الى العظام كيف ننشزها» : «قرئ بالزاي والراء» ويروى البيت :

« واشتق من ماء الحياة »

كما أن البيت الأول يروى: « واعمر بقصر الملك ناديك الخ »

(٢) الصبيح والمليح من قصور بني العباس ، وفيهما يقول البحتري من قصيدة في مدح المتوكل :

قد صفا جانب الهواء ولانت ... رقة الماء في مزاج المدام
واستتم الصبيح في خير وقت ... فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يسـ ... ـطيع حياه معلنا بالسلام
ألفا بهجة وقابل ذا ذا ... ك فمن ضاحك ومن بسام
كالحبيبين لو أطاقا التقاء ... أفرطا في العناق والالتزام

والخورنق : قصر كان بظاهر الحيرة ،واختلفوا في بنائه : فقيل ان الذي أمر ببنائه هو الملك النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر من يعرب بن قحطان بناه له بناء رومي حاذق يسمى سنمار .والسدير قصر قريب من الخورنق كان النعمان بن الاكبر قد اتخذه لبعض ملوك العجم وقد وصف الشعراء من قديم هذين القصرين وأكثروا وأحسنوا .

« أحمد يوسف نجاتي » .

أَعْيَتْ مَصَانِعُهُ عَلَى ٱلْفُرْسِ ٱلْأُلَى
رَفَعُوا ٱلْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوا ٱلتَّدْبِيرا
وَمَضَتْ عَلَى ٱلرُّومِ ٱلدُّهُورُ وَمَا بَنَوْا
لِمُلُوكِهِمْ شِبْهًا لَهُ وَنَظِيرَا
أَذْكَرْتَنَا ٱلْفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا
غُرَفًا رَفَعْتَ بِنَاءَهَا وَقُصُورَا
فَالْمُحْسِنُونَ تَزَيَّدُوا أَعْمَالَهُمْ
وَرَجَوْا بِذَلِكَ جَنَّةً وَحَرِيرَا
وَٱلْمُذْنِبُونَ هُدُوا ٱلصِّرَاطَ وَكَفَّرَتْ
حَسَنَاتُهُمْ لِذُنُوبِهِمْ تَكْفِيرَا
فَلَكٌ مِنَ ٱلْأَفْلَاكِ إِلَّا أَنَّهُ
حَقَرَ ٱلْبُدُورَ فَأَطْلَعَ ٱلْمَنْصُورَا
أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظَرٍ
ثُمَّ ٱنْثَنَيْتُ بِنَاظِرِي مَحْسُورَا(١)

(١) حسر البصر يحسر «كضرب» حسورا: كل وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، فهو حسير ومحسور أى كليل

فظَنَنْتُ أَنِّى حَالِمٌ فِى جَنَّـةٍ
لَمَّا رَأَيْتُ ٱلْمُلْكَ فِيهِ كَبِيرَا(١)
وَإِذَا ٱلْوَلَائِدُ فَتَّحَتْ أَبْوَابَهُ
جَعَلَتْ تُرَحِّبُ بِالْعُفَاةِ صَرِيرَا(٢)
عَضَّتْ عَلَى حَلَقَاتِهِنَّ ضَرَاغِمٌ
فَغَرَتْ بِهَا أَفْوَاهَهَا تَـكْبِيرَا(٣)
فَـكَأَنَّهَا لَبِدَتْ لِتَهْصِرَ عِنْـدَهَا
مَنْ لَمْ يَـكُنْ بِدُخُولِهَا مَأْمُورَا(٤)
تَجْرِى ٱلْخَوَاطِرُ مُطْلَقَاتِ أَعِنَّـةٍ
فِيهِ فَتَـكْبُو عَنْ مَدَاهُ قُصُورَا(٥)

(١) من قوله تعالى : « واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » (٢) الولائد الاماء والخدم جمع وليدة ، والعفاة : طلاب المعروف والحاجات : جمع عاف وصرير الباب : صوته ـ وفى البيت حسن تعليل لطيف ، اذ تخيل أن صرير الباب انما هو صوته للترحيب بالزائرين (٣) يصف حلقات الأبواب « التى يطرق بها » وكانت مصنوعة بحيث نعض عليها تماثيل أسود فاتحة أفواهها كأنها تكبر الله لعجيب الصنع وبدائع الخلق وعظيم الملك الذى يؤتيه من يشاء . والذى فى الديوان « تكبيرا » بدل « تكبيرا » وهو أظهر ، أى تحاول تكسيرها بأفواهها (٤) هصر الشىء : كسره (٥) كبا : أعيا وعجز ـ يريد أن الخواطر التى تجيش فى النفس مهما أطلقت لها الأعنة تتخيل كا

بِزُخْمِ السَّاحَاتِ تَحْسَبُ أَنَّهُ

فُرِشَ الْمَهَا وَتَوَشَّحَ الْكَافُورَا(١)

وَمُحَصَّبٍ بِالدُّرِّ تَحْسَبُ تُرْبَهُ

مِسْكًا تَضَوَّعَ نَشْرُهُ وَعَبِيرَا

تُسْتَخْلَفُ الْأَبْصَارُ مِنْهُ إِذَا أَتَى

صُبْحًا عَلَى غَسَقِ الزَّمَانِ مُنِيرَا(٢)

***

ثُمَّ ذَكَرَ بِرْكَةً فِيهِ عَلَيْهَا أَشْجَارٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ تَرْمِي فُرُوعُهَا الْمِيَاهَ، وَتَهَقَّنَ فَذَكَرَ أُسُودًا عَلَى حَافَاتِهَا قَاذِفَةً بِالْمِيَاهِ أَيْضًا فَقَالَ : وصف بركة

تتاه وتجول فى الظنون كل مذهب قصرت عن ادراك عظمته وتصور جلاله، وعجزت عن الوصول الى غاية رفعته، مع أن مجال الخواطر فسيح وميدان الظنون لاحد له . ومثل ذلك قول بعض الأدباء :

ديار قد بعدن مراد طرف تسافر فى مسافتها العيون

يضيق مدى نطاق الوصف عنها وتحسر فى محاسنها الظنون

(١) يصف لونه واشراقه وطيبه وتضوع أرجه . والمها هنا جمع مهاة وهى البلورة تبض من بياضها وتوهجها وصفائها ،شبه به الرخام الذى رصف به القصر (٢) يريد أنه يجعل الليل نهارا ،والبيت يروى هكذا :

يستخلف الاصباح منه اذا انقضى صبحا على غسق الظلام منيرا

وهى رواية واضحة والمعنى عليها أحسن « أحمد يوسف نجاتى »

وَضَرَاغِمٍ سَكَنَتْ عَرِينَ رِيَاسَةٍ
تَرَكَتْ خَرِيرَ الْمَاءِ فِيهِ زَئِيرَا[1]

فَكَأَنَّمَا غَشَّى النُّضَارُ جُسُومَهَا
وَأَذَابَ فِي أَفْوَاهِهَا الْبَلُّورَا[2]

أُسْدٌ كَأَنَّ سُكُونَهَا مُتَحَرِّكٌ
فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا

وَتَذَكَّرَتْ فَتَكَاتِهَا فَكَأَنَّمَا
أَقْعَتْ عَلَى أَدْبَارِهَا لِتَثُورَا

وَتَخَالُهَا وَالشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا
نَارًا وَأَلْسُنَهَا اللَّوَاحِسَ نُورَا

فَكَأَنَّمَا سَلَّتْ سُيُوفَ جَدَاوِلٍ
ذَابَتْ بِلَا نَارٍ فَعُدْنَ غَدِيرَا

---

(١) العرين مأوى الأسد ، يجعل صوت المياه المتدفقة من أفواهها زئيرا لها (٢) غشى أى غطى ، يصف لون الأسود وصفاء الماء الذى تقذفه أفواهها . « أحمد يوسف نجاتى »

وَكَأَنَّمَا نَسَجَ ٱلنَّسِيمُ لِمَائِهِ
دِرْعًا فَقَدَّرَ سَرْدَهَا تَقْدِيرَا(١)

وَبَدِيعَةِ ٱلثَّمَرَاتِ تَعْبُرُ نَحْوَهَا
عَيْنَايَ بَحْرَ عَجَائِبٍ مَسْجُورَا(٢)

شَجَرِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ نَزَعَتْ إِلَى
سِحْرٍ يُؤَثِّرُ فِي ٱلنُّهَى تَأْثِيرَا

قَدْ صُوبِجَتْ(٣) أَغْصَانُهَا فَكَأَنَّمَا
قَبَضَتْ بِهِنَّ مِنَ ٱلْفَضَاءِ طُيُورَا

---

(١) قدر سردها : أحكم نسجها وأتقن صنعها من قوله تعالى « وقدر في السرد » (٢) شرع في وصف صور الأشجار ، والمسجور: المملوء ، وشجرية: صور على هيئة الشجر (٣) هذه الكلمة محرفة في كل المراجع فهي في بعضها « صوبحت » وفي بعضها « صوحبت » وفي بعضها « صولجت » « سرحت » ، « سربجت » الخ ولعل أولى هذه الروايات بالقبول — على مافيها « سرحت » ، و « صولجت » ، وسرح الشيء أرسله ومده وتسريح الشعر ترجيله وتخليص بعضه من بعض — وسرج الشيء: حسنه وبهجه — وصولجت » وهي رواية ديوانه » من الصولجان أو الصولجة أو الصولج وهو العود المعوج والعصا يعطف طرفها تضرب بها الكرة « معرب جوكان بالفارسية » فأما العصا التي اعوج طرفها خلقة في شجرتها فهي محجن . وصلج بالعصا: ضرب — والصولج الفضة الخالصة والصافي الخالص . ويروى عجز البيت هكذا . « قبضت لهن من الفضاء طيورا »

وَكَأَنَّمَا تَأْبَى لِوَقْعِ طَيْرِهَا
أَنْ تَسْتَقِلَّ بِنَهْضِهَا وَتَطِيرَا
مِنْ كُلِّ وَاقِعَةٍ تَرَى مِنْقَارَهَا
مَاءٌ كَسَلْسَالِ اللُّجَيْنِ نَمِيرَا
خُرْسٌ تُعَدُّ مِنَ الْفِصَاحِ فَإِنْ شَدَتْ
جَعَلَتْ تُغَرِّدُ بِالْمِيَاهِ صَفِيرَا
وَكَأَنَّمَا فِي كُلِّ غُصْنٍ فِضَّةٌ
لَانَتْ فَأُرْسِلَ خَيْطُهَا مَجْرُورَا
وَتُرِيكَ فِي الصِّهْرِيجِ مَوْقِعَ قَطْرِهَا
فَوْقَ الزَّبَرْجَدِ لُؤْلُؤًا مَنْثُورَا
ضَحِكَتْ مَحَاسِنُهُ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا
جُعِلَتْ لَهَا زُهْرُ النُّجُومِ ثُغُورَا

وقد كانت غصون هذه الأشجار المرسومة تعلوها طيور كأنها وقعت عليها فأمسكت بها وأبت أن ترسلها — ثم أخذ يصف تلك الطيور التي كانت ترسل المياه من مناقيرها بوساطة أنابيب تتصل بهما ، يصف الماء المرسل من طيور هذه الأغصان كأنه خيوط من الفضة الذائبة

وَمُصَفَّحِ الْأَبْوَابِ تِبْرًا نَظَّرُوا

بِالنَّقْشِ فَوْقَ شُكُولِهِ تَنْظِيرَا(١)

تَبْدُو مَسَامِيرُ النُّضَارِ كَمَا عَلَتْ

تِلْكَ النُّهُودُ مِنَ الْحِسَانِ(٢) صُدُورَا

خَلَعَتْ عَلَيْهِ غَلَائِلًا وَرْسِيَّةً(٣)

شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرَا

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ سَقْفِهِ

أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءِ نَضِيرَا(٤)

وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَّافِ عَسْجَدِهِ الَّتِي

حَامَتْ لِتَبْنِيَ فِي ذُرَاهُ وُكُورَا(٥)

(١) أخذ يصف القصر وأبوابه . وفي الديوان « بين » بدل فوق (٢) في الأصل « الجنان » ويروى عجز البيت

* فلك النهود من الحسان صدورا *

وفلك ثدي الفتاة وأفلك وفلك وتفلك : استدار كالفلكة وهو دون النهود، وكل مستدير فلكة (٣) في الأصل « ووسية » وهو تحريف لا معنى له. والورس نبت أصفر يصبغ به (٤) يصف النقوش والصور والرسوم المتألقة المحلى بها السقف (٥) يصف صور طيور الخطاف مع حسن التطليل

وَضَعَتْ بِهِ صُنَّاعُهَا أَقْلَامَهَا

فَأَرَتْكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصْوِيرَا(١)

وَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لِيقَةٌ

مَشَقُوا بِهَا التَّزْوِيقَ وَالتَّشْجِيرَا(٢)

وَكَأَنَّمَا لِلَازَوَرْدِ مُخَرَّمٌ(٣)

بِالْخَطِّ فِي وَرَقِ السَّمَاءِ سُطُورَا

وَكَأَنَّمَا وَشَّوْا عَلَيْهِ مُلَاءَةً

تَرَكُوا مَكَانَ وِشَاحِهَا مَقْصُورَا

ثُمَّ مَدَحَ الْمَنْصُورَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَخَتَمَ الْقَصِيدَةَ بِقَوْلِهِ :

---

(١) الطريدة : ما طردت من صيد ووحش ونحوه (٢) المشق فى الكتابة ومد حروفها ، ومشق الشيء : جذبه ليمتد ويطول ، والمشق خط فيه خفة والمشق « بكسر الميم وفتحها » المغرة وهو ذلك الصبغ الأحمر ، والممشق والمشوق : الثوب المصبوغ به (٣) يروى بالراء والزاى ، خرم الشيء : ثقبه كخرمه ، وكأنه يصف ما يتخلل لون الصور الذهبي من اللون الأزرق — واستعمل المولدون كلمة «مخرومة» لنوع من الفطائر تخرق ، قال ابن نباتة :

لفلان فى الديوان صورة حاضر ... وكأنه من جملة الغياب

لم يدر ما مخرومة وجريدة ... سبحان رازقه بغير حساب

وصدر البيت فى الديوان * وكأنما للازورد مخرم * ويروى : مخزم

يَا مَالِكَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي أَضْحَى لَهُ

مُلْكُ ٱلسَّمَاءِ عَلَى ٱلْعُدَاةِ نَصِيرَا

كَمْ مِنْ قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ

وَٱسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ ٱلتَّأْخِيرَا؟

فَعَمَرْتَهَا وَمَلَكْتَ كُلَّ رِيَاسَةٍ

مِنْهَا وَدَمَّرْتَ ٱلْعِدَا تَدْمِيرَا

قُلْتُ: لَمْ أَرَ لِهَذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مِنْ نَظِيرٍ، فِي مَعْنَاهَا ٱلْبَارِعِ ٱلنَّضِيرِ، وَلَفْظِهَا ٱلْعَذْبِ ٱلنَّمِيرِ، ٱلَّذِي شَمَّرَ فِيهِ قَائِلُهَا عَنْ سَاعِدِ ٱلْإِجَادَةِ أَيَّ تَشْمِيرٍ، غَيْرَ أَنَّ فِيهَا عِنْدِي عَيْبًا وَاحِدًا وَهُوَ خَتْمُهَا بِلَفْظِ ٱلتَّدْمِيرِ(١). وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَٱلْحُسْنُ وَٱلْإِحْسَانُ، يُقَادَانِ فِي أَرْسَانٍ(٢) لِعَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ حَمْدِيسَ ٱلْمَذْكُورِ ذِي ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْحِسَانِ، وَخُصُوصًا فِي

---

(١) لابأس بهذا النقد الأدبي، فلحسن الختام تأثير في النفس قوي حتى أنه لقد يغطي على عيوب سبقته فيكون آخر مايصل الى السمع وغاية مايثبت في النفس «أحمد يوسف نجاتي» (٢) جمع رسن وهو الحبل تقاد به الدابة

وَصْفِ ٱلْمَبَانِي وَٱلْبِرَكِ ، فَمَا أَبْقَى لِسِوَاهُ فِي ذَٰلِكَ حُسْنًا وَلَا بَرَكَ .

***

وصف بركة أخرى

« وَمِنْ ذَٰلِكَ » قَوْلُهُ فِي وَصْفِ بِرْكَةٍ تَجْرِي إِلَيْهَا أَلْمِيَاهُ مِنْ شَاذَرْوَانٍ[١] مِنْ أَفْوَاهِ طُيُورٍ وَزَرَافَاتٍ وَأُسُودٍ ، وَكُلُّ ذَٰلِكَ فِي قَصْرٍ أَطْنَبَ فِي وَصْفِهِ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ[٢]

---

(١) لفظ دخيل ويسمى التأزير لأنه كالازار للبيت ، ويطلق على نوع من آلات المياه : قال ابن تميم فى بركة بشاذروان :

ألا رب يوم قد تقضى ببركة ... ألفت بها فيا جرى متحيرا
بعيني رأيت الماء فيها وقد جرى ... على رأسه من شاهق فتكسرا

وقال شهاب الدين بن أبي حجلة التلمسانى :

وشاذروان ماء بات يجرى ... كعين الصب روع يوم بين
اذا ماقيل جد بالما سريعا ... يقول نعم على رأسى وعينى

ولبرهان الدين القيراطى :

منصب شاذرواننا ... عالى القدر والرتب
نال الغنى الماء به ... حين مشى على الذهب

وقال فيه أيضا :

لحسن شاذرواننا ... كل القلوب تعشق
من أجل ذا الماء له ... قلب به معلق

ومن هذه الصفات يتجلى نعت الشاذروان وعمله « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) عدتها ٣٦ بيتا يمدح بها المنصور بن الناصر بن علناس مطلعها :

أعليت بين النجم والدبران ... قصرا بناه من السعادة بان

وَالْمَاءُ مِنْهُ سَبَائِكٌ مِنْ فِضَّةٍ[١]
ذَابَتْ عَلَى دَرَجَاتِ شَاذَرْوَانِ
وَكَأَنَّمَا سَيْفٌ هُنَاكَ مُشَطَّبٌ
أَلْقَتْهُ يَوْمَ الرَّوْعِ كَفُّ جَبَانِ[٢]
كَمْ شَاخِصٍ فِيهِ يُطِيلُ تَعَجُّبًا
مِنْ دَوْحَةٍ نَبَتَتْ مِنَ الْعِقْيَانِ ؟
عَجَبًا لَهَا تَسْقِي الرِّيَاضَ يَنَابِعًا
نَبَعَتْ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَغْصَانِ
خُصَّتْ بِطَائِرَةٍ عَلَى فَنَنٍ لَهَا
حَسُنَتْ فَأُفْرِدَ حُسْنُهَا مِنْ ثَانِ
قُسُّ الطُّيُورِ الْخَاشِعَاتِ[٣] بَلَاغَةً
وَفَصَاحَةً مِنْ مَنْطِقٍ وَبَيَانِ

---

(١) فى الديوان . . فضية (٢) سيف مشطب ومشطوب: فيه شطب أى طرائق فى متنه ، جمع شطبة مثلثة الشين. ولابن عبد ربه من أبيات فى السيف :

وذى شطب تقضى المنايا بحكمه ... وليس لما تقضى المنية دافع

(٣) كذا بالأصل والديوان ، وأرى أنها محرفة عن « الساجعات »

فَإِذَا أُتِيحَ لَهَا ٱلْكَلَامُ تَكَلَّمَتْ

بِخَرِيرِ مَاءِ دَائِمِ ٱلْهَمَلَانِ

وَكَأَنَّ صَانِعَهَا ٱسْتَبَدَّ بِصَنْعَةٍ

فَخَرَ ٱلْجَمَادُ بِهَا عَلَى ٱلْحَيَوَانِ

أَوْفَتْ عَلَى حَوْضٍ لَهَا فَكَأَنَّهَا

مِنْهَا عَلَى ٱلْعَجَبِ ٱلْعُجَابِ رَوَانِي(١)

فَكَأَنَّهَا ظَنَّتْ حَلَاوَةَ مَائِهَا

شَهْدًا فَذَاقَتْهُ بِكُلِّ لِسَانِ

وَزَرَافَةٍ فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ أُنْبُوبِهَا

مَاءٌ يُرِيكَ ٱلْجَرْيَ فِي ٱلطَّيَرَانِ(٢)

---

(١) أوفت : أشرفت وأطلت مرتفعة ، وروانى أى نواظر ، والرنو: ادامة النظر بسكون الطرف ، والرنو أيضا لهو مع شغل قلب و بصر وغلبة هوى له (٢) ولابن حمديس أيضا فى وصف الزرافة :

ونوبية فى الخلق منها خلائق متى مارق العين فيها تسفل

اذا ما سمها ألقاه فى السمع ذاكر رأى الطرف منه ماعناه بعقول

لها خفنا قرم وأظلاف قرهب وناظرتا ريم وهامة إيل

كأن الخطوط البيض والصفر أشبهت

على جسمها ترصيع عاج بصندل

مِنْ كُوزَةٍ كَالرُّمْحِ حَيْثُ تَرَى لَهَا

مِنْ طَعْنَةِ ٱلْحَلْقِ(١) ٱنْعِطَافَ سِنَانِ

وَكَأَنَّهَا تَرْمِي ٱلسَّمَاءَ بِبُنْدُقٍ

مُسْتَنْبَطٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَجُمَانِ

لَوْ عَادَ ذَاكَ ٱلْمَاءُ نِفْطًا أُحْرِقَتْ

فِي ٱلْجَوِّ مِنْهُ قَمِيصُ كُلِّ عَنَانِ

فِي بِرْكَةٍ قَامَتْ عَلَى حَافَاتِهَا

أُسْدٌ تَذِلُّ لِعِزَّةِ ٱلسُّلْطَانِ

نَزَعَتْ إِلَى ظُلْمِ ٱلنُّفُوسِ نُفُوسُهَا

فَلِذَاكَ ٱنْتُزِعَتْ مِنَ ٱلْأَبْدَانِ

وَكَأَنَّ بَرْدَ ٱلْمَاءِ مِنْهَا مُطْفِىءٌ

نَارًا مُضَرَّمَةً مِنَ ٱلْعُدْوَانِ

تلفت أحيانا بعين كحيلة وجيد على طول الهواء الظلل

وعرف دقيق الشعر تحسب نبته اذا الريح هزته ذوائب سنبل

تنفس كبرا من يراع منقب فتعلى جتو بامنه عن أخنشمأل

وتحسبها من نفسها ان تبختري تزف الى بعل عروسا وتنجلي

وكم منشد قول امرىء القيس عندها

أفاطم مهلا بعض هـــذا التدلل ؟

(١) ويروى : من طعنه الحلق « بنصب الحلق مفعولا للمصدر طعن »

وَكَأَنَّمَا ٱلْحَيَّاتُ مِنْ أَفْوَاهِهَا
يَطْرَحْنَ أَنْفُسَهُنَّ فِي ٱلْغُدْرَانِ
وَكَأَنَّمَا ٱلْحِيتَانُ إِذْ لَمْ تَخْشَهَا
أَخَذَتْ مِنَ ٱلْمَنْصُورِ عَقْدَ أَمَانِ

وَهَاتَانِ ٱلْقَصِيدَتَانِ لِٱبْنِ حَمْدِيسَ - كَمَا فِي ٱلْمَنَاهِجِ - مَعَ طُولِهِمَا - تَدُلَّانِ عَلَى ٱلْإِبْدَاعِ ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ ، وَٱلِاخْتِرَاعِ ٱلَّذِي مَا وَلَجَ سَمْعَ أَحَدٍ مِنَ ٱلْفُضَلَاءِ إِلَّا شَكَرَهُ لَمَّا أَشْكَرَهُ .

***

منزل العز بعصر — وَقَالَ أَبُو ٱلصَّلْتِ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْأَنْدَلُسِيُّ[(١)] يَصِفُ قَصْرًا بِمِصْرَ يُسَمَّى « مَنْزِلَ ٱلْعِزِّ » بَنَاهُ حَسَنُ

(١) هو أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الدانى كان فاضلا فى البلاغة والآداب عارفا بفن الحكمة فكان يقال له الأديب الحكيم . وكان ماهرا فى علوم الأوائل «وصنف كتابه الممتع الذى سماه الحديقة على نمط يتيمة الدهر للثعالبي» وانتقل من الأندلس مع والدته وسكن ثغر الاسكندرية سنة ٤٨٩ ثم انتقل الى المهدية بالمغرب سنة ٥٠٦ فتوفى بها سنة ٥٢٩ وكان قد حل من صاحبها على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس أفضل محل ، وولد له بها ولد سماه عبد العزيز وكان كأبيه شاعرا ماهرا توفى بمدينة بجاية سنة ٥٤٦ وكان مولد أمية بمدينة دانية سنة ٤٦٠ وأخذ العلم عن جماعة من أهل الأندلس كأبى الوليد الوقشى قاضى دانية وغيره

أَبْنُ عَلِيِّ بْنِ تَمِيمِ بْنِ ٱلْمُعِزِّ ٱلْعُبَيْدِيُّ(١) :

مَنْزِلُ ٱلْعِزِّ كَٱسْمِهِ مَعْنَاهُ
لَا عَدَا ٱلْعِزُّ مَنْ بِهِ سَمَّاهُ
مَنْزِلٌ وَدَّتِ ٱلْمَنَازِلُ فِي أَعْـ
ـلَى ذُرَاهُ لَوْ صُيِّرَتْ إِيَّاهُ

(١) يخيل الى أنه غير العبيدى وأن القصر الموصوف ليس بمصر ، بل لعلها الأمير حسن بن على بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ملك إفريقية وصاحب مدينة المهدية « ثم الأمر للأمير حسن يوم وفاة والده على سنة ٥١٥ » وكان فى عصره الملك روجار صاحب صقلية المستولى عليها سنة ٤٨٤ وكان بينهما حلف واتفاق وخضع له الأمير حسن فدانت له المهدية وجزيرة جربة وغيرهما ثم كانت بينهما وحشة فغزا روجار المهدية واستولى عليها وفر الحسن سنة ٥٤٢ حتى كانت سنة ٥٥٥ فاسترد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على المهدية وأعاد اليها الأمير الحسن وهو آخر الصنهاجيين من بنى مناد « وجد المعز تولى الأمر من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٥٣ و بعده ابنه تميم الى سنة ٥٠١ و بعده ابنه يحيي الى سنة ٥٠٩ فابنه على بن يحيي الى سنة ٥١٥ أما الأمير تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى العبيدى فكان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب ، وكان شاعرا ماهرا لطيفا وفاضلا أديبا ظريفا ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه وتوفى الأمير تميم سنة ٣٧٤ بمصر — ومن هذه الخلاصة التاريخية يظهر أن أمية اتصل بقرية الأمير تميم الصنهاجى لا العبيدى والله أعلم (أحمد يوسف نجاتى)

فَأَجِلْ فِيهِ لَحْظَ عَيْنَيْكَ تُبْصِرْ

أَيَّ حُسْنٍ دُونَ الْقُصُورِ حَوَاهُ

سَالَ فِي سَقْفِهِ النُّضَارُ وَلَكِنْ

جَمَدَتْ فِي قَرَارِهِ الْأَمْوَاهُ

وَبِأَرْجَائِهِ مَجَالُ طِرَادٍ

لَيْسَ تَنْفَكُّ مِنْ وَغًى خَيْلَاهُ(١)

تُبْصِرُ الْفَارِسَ الْمُدَجَّجَ فِيهِ

لَيْسَ تَدْمَى مِنَ الطِّعَانِ قَنَاهُ(٢)

وَتَرَى النَّابِلَ الْمُوَاصِلَ لِلنَّزْ

عِ بَعِيدًا مِنْ قِرْنِهِ مَرْمَاهُ(٣)

وَصُفُوفًا مِنَ الْوُحُوشِ وَطَيْرًا

جَوُّ كُلٍّ مُسْتَحْسَنٌ مَرْآهُ

سَكَنَاتٌ تَخَالُهَا حَرَكَاتٍ

وَاخْتِلَافٌ كَأَنَّهُ أَشْبَاهُ

---

(١) الطراد : مطاردة الفرسان ومجالدتهم فى الوغى أى الحرب وحمل بعضهم على بعض (٢) المدجج أى اللابس السلاح (٣) النابل : الرامى بالنبل، والنزع: شد القوس للرمى بها ، والقرن: الخصم والكفء فى الحرب

كَمُحَيَّا ٱلْحَبِيبِ حَرْفًا بِحَرْفِ

مَا تَعَـدَّى صِفَاتِهِ إِذْ حَكَاهُ

وَرْدُهُ وَجْنَتَاهُ ، نَرْجِسُهُ ٱلْفَتَّا

نُ عَيْنَـاهُ ، آسُهُ عَارِضَاهُ

وَكَأَنَّ ٱلْكَافُورَ وَٱلْمِسْكَ فِي ٱلطِّيـ

ـبِ وَفِي ٱللَّوْنِ صُبْحُهُ وَمَسَاهُ

مَنْظَرٌ يَبْعَثُ ٱلسُّرُورَ وَمَرْأًى

يُذْكِرُ ٱلْمَرْءَ طِيبَ عَصْرِ صِبَاهُ

***

وَقَالَ أَبُو ٱلصَّلْتِ أُمَيَّةُ ٱلْأَنْدَلُسِيُّ ٱلْمَذْكُورُ يَذْكُرُ وصف قصر

بِنَاءً بَنَاهُ عَلِيُّ بْنُ تَمِيمِ بْنِ ٱلْمُعِزِّ (ٱلْعُبَيْدِيُّ):

لِلّٰهِ مَجْلِسُكَ ٱلْمُنِيفُ قِبَابُهُ

بِمُوَطَّدٍ فَوْقَ ٱلسِّمَاكِ مُؤَسَّسِ

مُوفٍ عَلَى حُبُكِ ٱلْمَجَرَّةِ تَلْتَقِي

فِيهِ ٱلْجَوَارِي بِٱلْجَوَارِي ٱلْكُنَّسِ(١)

(١) الحبك من السماء : طرائق النجوم ، واحدها حبيكة ، ومنه :

تَتَقَابَلُ ٱلْأَنْوَارُ مِنْ جَنَبَاتِهِ

فَاللَّيْلُ فِيهِ كَالنَّهَارِ ٱلْمُشْمِسِ

عُطِفَتْ حَنَايَاهُ دُوَيْنَ سَمَائِهِ

عَطْفَ ٱلْأَهِلَّةِ وَالْحَوَاجِبِ وَالْقِسِي

وَٱسْتَشْرَفَتْ عُمُدُ ٱلرُّخَامِ وَظُوهِرَتْ

بِأَجَلَّ مِنْ زَهْرِ ٱلرَّبِيعِ وَأَنْفَسِ

فَعَوَالُهُ مِنْ كُلِّ قَدٍّ أَهْيَفٍ

وَقَرَارُهُ مِنْ كُلِّ خَدٍّ أَمْلَسِ

فَلَكٌ تَحَيَّرَ فِيهِ كُلُّ مُنَجِّمٍ

وَأَقَرَّ بِالتَّقْصِيرِ كُلُّ مُهَنْدِسِ

فَبَدَا لِلَحْظِ ٱلْعَيْنِ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ

وَغَدَا لِطِيبِ ٱلْعَيْشِ أَطْيَبَ مَغْرِسِ (١)

«والسماء ذات الحبك» وأراد بالجوارى الكنس : النجوم السيارة «وهى الخنس أيضا» لأنها تكنس فى الغيب أى تستتر ، أو هى كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتكنس « تختفى » نهارا ، قال الزجاج : الكنس : النجوم تطلع جارية ، وكنوسها أن تغيب فى مغاربها التى تغيب فيها — يصف فى البيت علو القصر حتى كأن له حاجة فى السماء، فجواريه الانسية تلتقى بجوارى السماء الفلكية (١) فى الأصل « طيب معرس »

فَاطْلُعْ بِهِ قَمَرًا إِذَا مَا أَطْلَعَتْ

شَمْسُ الْخُدُورِ[1] عَلَيْكَ شَمْسَ الْأَكْؤُسِ

فَالنَّاسُ أَجْمَعُ دُونَ قَدْرِكَ رُتْبَةً

وَالْأَرْضُ أَجْمَعُ دُونَ هٰذَا الْمَجْلِسِ

***

وَيُعْجِبُنِي مِنْ قَوْلِ أَبِي الصَّلْتِ أُمَيَّةَ الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ يَصِفُ حَالَيْ زِيَادَةِ النِّيلِ وَنُقْصَانِهِ[2]: وصف زيادة النيل ونقصانه

وَلِلّٰهِ مَجْرَى النِّيلِ مِنْهَا إِذَا الصَّبَا

أَرَتْنَا بِهِ مِنْ مَرِّهَا عَسْكَرًا مَجْرَى

إِذَا زَادَ يَحْكِي الْوَرْدَ لَوْنًا[3] وَإِنْ صَفَا

حَكَى مَاءَهُ لَوْنًا وَلَمْ يَحْكِهِ مُرًّا

***

وَقَالَ - رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى - يَصِفُ الرَّصَدَ الَّذِي بِظَاهِرِ مِصْرَ: وصف الرصد

يَا نُزْهَةَ الرَّصَدِ الَّتِي قَدِ اشْتَمَلَتْ

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَا فِي جَانِبِ الْوَادِي

---

(١) أو (المخدود) (٢) ارجع الى البيتين وشرحهما بالجزء الاول

(٣) ويروى البيت هكذا :

اذا زاد يحكي الورد غضا وان صفا   حكى ماءه لونا ولم يعده نشرا

فَذَا غَدِيرٌ، وَذَا رَوْضٌ، وَذَا جَبَلٌ

وَالضَّبُّ وَالنُّونُ وَالْمَلَّاحُ وَالْحَادِي

***

قصر أنس بالبصرة

وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ يَصِفُ قَصْرَ أَنَسٍ[1] بِالْبَصْرَةِ :

زُرْ وَادِيَ الْقَصْرِ نِعْمَ الْقَصْرُ وَالْوَادِي

لَا بُدَّ مِنْ زَوْرَةٍ مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ

زُرْهُ فَلَيْسَ لَهُ نِدٌّ يُشَاكِلُهُ

مِنْ مَنْزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شِئْتَ أَوْ بَادِي

تَلْقَى بِهِ السُّفْنَ وَالظُّلْمَانَ حَاضِرَةً

وَالضَّبَّ وَالنُّونَ وَالْمَلَّاحَ وَالْحَادِي

***

الهرمان بمصر

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ يَذْكُرُ الْهَرَمَيْنِ :

---

(١) بالأصل «قوله» والمعروف أن الأبيات لابن أبي عيينة المهلبي في قصر عيسى بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة ، « وقد سبق تعليقنا على الأبيات ـ وقصر أنس بالبصرة أيضا ينسب الى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولكن الشعر لم يقل فيه « أحمد يوسف نجاتي »

بِبَيْتِكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَحْسَنَ مَنْظَرًا
عَلَى طُولِ مَا عَايَنْتَ مِنْ هَرَمَىْ مِصْرِ
أَنَافَا بِأَكْنَافِ(١) السَّمَاءِ وَأَشْرَفَا
عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السِّمَاكِ(٢) عَلَى النَّسْرِ
وَقَدْ وَافَيَا نَشْزًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيًا
كَأَنَّهُمَا نَهْدَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ

وَسَتَأْتِي تَرْجَمَتُهُ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ـ فِي الْبَابِ الْخَامِسِ

***

وَعَلَى ذِكْرِ الْأَنْهَارِ وَالْبِرَكِ فَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ بِرْكَةً عَلَيْهَا عِدَّةُ فَوَّارَاتٍ(٣) : وصف بركة عليها فوارات

غَضِبَتْ مَجَارِيهَا فَأَظْهَرَ غَيْظُهَا
مَا فِي حَشَاهَا مِنْ خَفِيٍّ مُضْمَرِ

---

(١) ويروى « بأعنان » (٢) ويروى « أو » (٣) الفوارة في الأصل : منبع الماء ، وهي بالمعنى المعروف مولدة ، والشعراء فيها معان لطيفة منها :

تخال أنبوبها لصحته ... والماء يعلو بها وينحدر
كصولجان من فضة سبكت ... فواقع الماء تحتها أكر

وقال ابن حجاج « توفي سنة ٣٩١ » :

صنعت في دارك فوارة ... أغرقت في الأرض بها الأنجما
فاض على نجم السما ماؤها ... فأصبحت أرضك تسقي السما

وَكَأَنَّ نَبْعَ ٱلْمَاءِ مِنْ جَنَبَاتِهَا
وَٱلْعَيْنُ تَنْظُرُ مِنْهُ أَحْسَنَ مَنْظَرِ
قُضُبٌ مِنَ ٱلْبِلَّوْرِ أَثْمَرَ فَرْعُهَا
لَمَّا ٱنْتَهَتْ بِٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمُتَحَدِّرِ

***

وصف ماء — وَقَالَ ٱبْنُ صَارَةَ ٱلْأَنْدَلُسِيُّ(١) يَصِفُ مَاءً بِالرِّقَّةِ وَٱلصَّفَا يَجْرِي عَلَى ٱلصَّفَا :

وَٱلنَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غِلَالَةُ خَصْرِهِ
وَعَلَيْهِ مِنْ صِبْغِ ٱلْأَصِيلِ طِرَازُ
تَتَرَقْرَقُ ٱلْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّهَا
عُكَنُ ٱلْخُصُورِ تَهُزُّهَا ٱلْأَعْجَازُ(٢)

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة البكرى من أهل شنترين وسكن اشبيلية وتجول فى بلاد الأندلس شرقا وغربا بالتعليم والوراقة وامتدح الولاة والرؤساء . وكان أديبا ماهرا وشاعرا مفلقا وبليغا مبتكرا ومخترعا موفقا . ضليعا فى اللغة وآدابها وعلومها ، وتوفى سنة ٥١٧ وصدر البيت الأول يروى : والنهر قد رقت غلالة صبغه (٢) عكن : جمع عكنة وهى ماانطوى وتثنى من لحم البطن سمنا وعكن جمع عكناء ، وجارية عكناء ومعكنة : ذات عكن ، وذلك اذا تعكن بطنها ـ وقد أصبحت غاداتنا ينفرن من ذلك و يملن الى الرشاقة والهيف وضمور البطن وان تغالى بعضهن فى ذلك ، وقد كانت جداتهن يأ كلن الكنة ، ليكن ذوات عكنة «أحمد يوسف نجاتى»

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأُدَبَاءِ — وَلَمْ يَحْضُرْنِي ٱلآنَ أَسْمُهُ — :

وَٱلنَّهْرُ مُكْتَسٍ غِلاَلَةَ فِضَّةٍ
فَإِذَا جَرَى سَيْلاً فَثَوْبَ نُضَارِ
وَإِذَا أَسْتَقَامَ رَأَيْتَ صَفْحَةَ مُنْصُلٍ
وَإِذَا أَسْتَدَارَ رَأَيْتَ عَطْفَ سِوَارِ

وَقَالَ أَبْنُ حَمْدِيسَ ٱلْمَغْرِبِيُّ يَصِفُ نَهْرًا بِالصَّفَاءِ :

وَمُطَّرِدِ(١) ٱلْأَمْوَاجِ يَصْقُلُ مَتْنَهُ
صَبًا أَعْلَنَتْ لِلْعَيْنِ مَا فِي ضَمِيرِهِ
جَرِيحٌ بِأَطْرَافِ ٱلْحَصَى كُلَّمَا جَرَى
عَلَيْهَا شَكَا أَوْجَاعَهُ بِخَرِيرِهِ
كَأَنَّ حُبَابًا رِيعَ تَحْتَ حَبَابِهِ
فَأَقْبَلَ يُلْقِي نَفْسَهُ فِي غَدِيرِهِ(٢)

---

(١) جدول مطرد : سريع الجرية يتتابع ماؤه سائلا جاريا (٢) الحباب : الحية — وحباب الماء : معظمه ، وطرائقه كأنها الوشي

وَهٰذَا ٱلنَّهْجُ مُتَّسِعٌ ، وَلَمْ نُطِلِ ٱلسَّيْرَ فِي هٰـذِهِ ٱلْمَهَامِهِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا بَعْضَ كَلَامِ ٱلْمَغَارِبَةِ لِيَتَنَبَّهَ بِهِ مُتَنَقِّصُهُمْ مِنْ سِنَةِ أَوْهَامِهِ ، وَلِأَنَّ فِي أَمْرِهَا عِبْرَةً لِمَنْ عَقَلَ ، إِذْ أَصْدَأَ مِرْآةَ حُسْنِهَا وَلَطَالَمَا كَانَ لِمِثْلِهَا[1] صَقَلَ .

***

مَاقِيلَ فِي عَفَاءِ الدِّيَارِ

وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى كَلَامٍ لِصَاحِبِ ٱلْمَنَاهِجِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَأَحْبَبْتُ ذِكْرَهُ مُلَخَّصًا وَهُوَ : وَنُلْحِقُ بِذِكْرِ ٱلْمَنَازِلِ ٱلَّتِي رَاقَ مَنْظَرُهَا ، وَفَاقَ مَخْبَرُهَا ، وَٱرْتَفَعَ بِنَاؤُهَا ، وَٱتَّسَعَ فِنَاؤُهَا[2] طَرَفًا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَاعَفَاهُ ٱلدَّهْرُ مِنْ رُسُومِهَا ، وَمَحَاهُ مِنْ مَحَاسِنِ صُوَرٍ كَانَتْ أَرْوَاحًا لِجُسُومِهَا : وَصَفَ أَعْرَابِيٌّ مَحَلَّةَ قَوْمٍ ٱرْتَحَلُوا عَنْهَا فَقَالَ نَثْرًا : ٱرْتَحَلَتْ عَنْهَا رَبَّاتُ ٱلْخُدُورِ ، وَأَقَامَتْ بِهَا أَثَافِي[3] ٱلْقُدُورِ ، وَلَقَدْ كَانَ أَهْلُهَا يُعَفُّونَ آثَارَ ٱلرِّيَاحِ[4]

---

(١) في الأصل (لمثلها) (٢) فناء الدار : ما اتسع من أمامها، وما امتد من جوانبها ، وجمعه أفنية وفنى (٣) جمع أثفية ، وهي الحجر توضع عليه القدر وتنصب عليه الآنية . وما كان من حديد ذي ثلاث قوائم يسمى النصب . ويقال : رماه الله بثالثة الأثافي ، أي بالجبل لأنهم كانوا يجعلون صخرتين الى جانبه و ينصبون عليه وعليهما القدور ، فمعناه أنه رماه الله بما لا يقوم له ، أي بداهية شديدة — ويقال المثل أيضا في رمي الرجل صاحبه بالمعضلات (٤) يصفهم بالكثرة والقوة والغنى والكرم « أحمد يوسف نجاتي »

مَحَتِ الرِّيَاحُ آثَارَهُمْ، وَذَهَبَتْ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْقَتْ أَخْبَارَهُمْ، وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ، وَاللِّقَاءُ بَعِيدٌ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ فَأَحْسَنَ:

يَا دَارُ[1] أَمْسَى دَارِسًا رَسْمُهَا
وَحْشًا قِفَارًا مَا بِهَا أَهْلُ
قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ بِهَا ذَيْلَهَا
وَاسْتَنَّ فِي أَطْلَالِهَا الْوَبْلُ[2]

وَمِنْ كَلَامِ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ، فِي قَلَائِدِ الْعِقْيَانِ، يَذْكُرُ آلَ عَبَّادٍ مِنْ فَصْلٍ أَكْثَرَ فِيهِ التَّفَجُّعَ، وَأَطَالَ بِهِ التَّوَجُّعَ: وَالْغُصُونُ[3] تَخْتَالُ فِي أَدْوَاحِهَا، وَالْأَزَاهِرُ يُحْيِي مَيِّتَ الصَّبَابَةِ شَذَا أَرْوَاحِهَا، وَأَطْيَارُ الرِّيَاضِ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَيْهِمْ كَثَكَالَى يَنُحْنَ عَلَى خَرَابِهَا، وَانْقِرَاضِ أَتْرَابِهَا[4]، وَالْوَهْيُ[5] بِمَشِيدِهَا

(١) يروى يادارا امسى (٢) استن الفرس فى مضماره: اذا عدا فى نشاطه على سننه فى جهة واحدة — وفى المثل: استنت الفصال حتى القرعى، يضرب لمن يدخل نفسه فى قوم ليس منهم « يخوض معهم فى حديث لاعلم له به — والوبل والوابل: المطر الشديد الضخم القطر (٣) فى الأصل « والقصور » وهو تحريف (٤) فى القلائد « اطرابها » مصدر أطرب — وأتراب جمع ترب، وهو من ولد معك فى سن واحدة، وأكثر مايكون ذلك فى المؤنث وفى القرآن الكريم: « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » « كواعب أترابا » « عربا أترابا » أى أمثالا (٥) وهى الشىء: ضعف، والحائط: اذا استرخى وأراد أن ينقض وهم بالسقوط. « أحمد يوسف نجاتى »

لَاعِبٌ، وَعَلَى كُلِّ جِدَارٍ مِنْهَا غُرَابٌ نَاعِبٌ ، وَقَدْ تَحْتَ الْحَوَادِثُ صِبَاهَا ، وَقَلَّصَتْ ظِلَالَهَا وَأَفْيَاءَهَا (١) ، وَلَطَالَمَا أَشْرَقَتْ بِالْخَلَائِفِ (٢) وَأَبْتَهَجَتْ ، وَفَاحَتْ مِنْ شَذَاهُمْ وَتَأَرَّجَتْ ، أَيَّامَ نَزَلُوا خِلَالَهَا ، وَتَفَيَّئُوا ظِلَالَهَا ، وَعَمَرُوا حَدَائِقَهَا وَجَنَّاتِهَا ، وَنَبَّهُوا الْآمَالَ مِنْ سِنَاتِهَا ، وَرَاعُوا اللُّيُوثَ فِي آجَامِهَا ، وَأَخْجَلُوا الْغُيُوثَ عِنْدَ انْسِجَامِهَا ، فَأَصْبَحَتْ وَلَهَا بِالتَّدَاعِي تَلَفُّعٌ وَاعْتِجَارٌ (٣)،

---

(١) قلص الظل : اذا انقبض وانضم وانزوى » وقلص : ذهب — والفىء ما كان شمسا فينسخه الظل ، أو ما بعد الزوال من الظل ، وقد يسمى الظل فيئا لفيئه أى رجوعه من جانب الى جانب — والجملة كناية عن تهدم هذه الجدران وعبث الحوادث بها (٢) فى الأصل «الخلائق» وفى القلائد «الخلائف» جمع خليفة وهو أحسن (٣) التلفع فى الأصل : التلحف يقال تلفعت المرأة بمرطها أو ردائها أو لفاعها اذا التحفت به « واللفاع هو الملحفة أو الكساء الغليظ الأسود » وتجللت وتغطت واشتملت به — والاعتجار : لى الثوب على الرأس من غير ادارة تحت الحنك ، ولبسة المرأة شبه الالتحاف — وتداعى الحائط اذا أخذ فى الانقضاض بسرعة ، وتداعى اذا تهادم وآذن بالخراب — وفى الأصل « ولها تلفع واعتجار » بسقوط كلمة « بالتداعى » الثابتة فى القلائد و بسقوطها يقلق المعنى وترك العبارة

وَلَمْ يَبْقَ مِنْ آثَارِهَا ٱلْأَنُؤْيُ[1] وَأَحْجَارٌ، وَقَدْ هَوَتْ قِبَابُهَا، وَهَرِمَ شَبَابُهَا، وَقَدْ يَلِينُ ٱلْحَدِيدُ، وَيَبْلَى عَلَى طَيِّهِ ٱلْجَدِيدُ. وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ[2] ٱلْقُرْطُبِيُّ يَذْكُرُ ذَلِكَ مِنْ أَبْيَاتٍ يَنْعَاهُمْ بِهَا:

دِيَارٌ عَلَيْهَا مِنْ بَشَاشَةِ أَهْلِهَا
بَقَايَا تَسُرُّ ٱلنَّفْسَ أُنْسًا وَمَنْظَرَا

رُبُوعٌ كَسَاهَا ٱلْمُزْنُ مِنْ خِلَعِ ٱلْحَيَا
بُرُودًا وَحَلَّاهَا مِنَ ٱلنَّوْرِ جَوْهَرَا

---

(١) النؤى: أصله الحفير أو الحاجز حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل أو يبعده وجمعه نئى (٢) هو يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث بن محمد بن عبد الله الفقيه الصالح الأديب قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة في زمن المعتمد بالله هشام بن محمد المرواني سنة ٤١٩ كان وافر الحظ من الفقه والحديث والبلاغة والأدب وعلوم اللغة، وأكثر شعره في الزهد وماشابهه وله خطب بليغة كذلك قوية التأثير في النفس لصدورها عن القلب. ومن شعره قوله:

أتوا خشية أن قيل جد نحوله ... فلم يبق من لحم عليه ولا عظم

فعادوا قميصا في فراش فلم يروا ... ولا لمسوا شيئا يدل على جسم

طواه الهوى في ثوب سقم من الضنى ... وليس بمحسوس بعين ولا وهم

وقضى حياته ـ رضي الله عنه ـ في علم وإفادة وورع وعدل وإصلاح القلوب بوعظه الذي كان فيه قدوة بنفسه، وله مؤلفات نفيسة قيمة في فضائل الأعمال والتصوف ولد سنة ٣٣٨ وتوفي سنة ٤٢٩ ـ رحمه الله تعالى ـ «أحمد يوسف نجاتي»

تَسُرُّكَ طَوْرًا ثُمَّ تُشْجِيكَ تَارَةً
فَتَرْتَاحُ تَأْنِيسًا وَتَشْجَى تَذَكُّرَا

« وَمِنْ كَلَامِ أَبِي الْحَسَنِ الْقَاشَانِيّ » يَصِفُ نَادِيَ رَئِيسٍ خَـلَا، مِنِ ازْدِحَامِ الْمَلَا ، وَعَوَّضَهُ الزَّمَانُ عَنْ تَوَاصُلِ أَحْبَابِهِ هَجْرًا وَقِلًا[1] : قَدْ كَانَ مَنْزِلُهُ مَأْلَفَ الْأَضْيَافِ ، وَمَأْنَسَ الْأَشْرَافِ ، وَمُنْتَجَعَ الرَّكْبِ وَمَقْصِدَ الْوَفْدِ ، فَاسْتَبْدَلَ بِالْأُنْسِ وَحْشَـةً ، وَبِالضِّيَاءِ ظُلْمَةً ، وَاعْتَاضَ مِنْ تَزَاحُمِ الْمَوَاكِبِ، تَلَاطُمَ النَّوَادِبِ ، وَمِنْ ضَجِيجِ النِّدَاءِ وَالصَّهِيلِ ، عَجِيجَ الْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ.

« وَمِنْ رِسَالَةٍ لِابْنِ الْأَثِيرِ الْجَزَرِيّ[2] يَصِفُ دِمْنَةَ دَارٍ

---

(١) أي بغضا وكراهة (٢) هو أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ويلقب ضياء الدين، وهو ذلك الأديب الكبير والكاتب القدير صاحب المثل السائر وغيره من كتب الأدب والبلاغة وكلها مفيدة ممتعة دالة على فكر سديد وعقل ناضج وقريحة خصبة وذهن صاف ، وله رسائل كثيرة هي نماذج البلاغة الراقية في عصره ، غير أني آخذ عليه شيئا من الادعاء والاعجاب بالنفس وهما خلتان لاتستريح نفسي اليهما ، وان كان في ذلك يعمل بقول من قال :

وماذا على الانسان في مدح نفسه اذا لم يكن في قوله بكذوب ؟

لَعِبَتْ بِهَا أَيْدِي ٱلزَّمَنِ ، وَفَرَّقَتْ بَيْنَ ٱلْمَسْكَنِ وَٱلسَّكَنِ . كَانَتْ مَقَاصِيرَ جَنَّةٍ ، فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ مَلَاعِبُ جِنَّةٍ ، وَقَدْ عَمِيَتْ أَخْبَارُ قُطَّانِهَا ، وَآثَارُ أَوْطَانِهَا ، حَتَّى شَابَهَتْ إِحْدَاهُمَا فِي ٱلْخَفَاءِ ، ٱلْأُخْرَى فِي ٱلْعَفَاءِ ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا لَا تُسْقَى بَعْدَهُمْ بِغَمَامٍ ، وَلَا تُرْفَعُ عَنْهَا جِلْبَابُ ظَلَامٍ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلسَّحَابَ بَكَاهُمْ فَأَجْرَى بِهَا هَوَامِعَ دُمُوعِهِ ، وَٱللَّيْلُ شَقَّ عَلَيْهِمْ جُيُوبَهُ فَظَهَرَ ٱلصَّبَاحُ مِنْ خِلَالِ صُدُوعِهِ » . وَقَدْ لمح فِي بَعْضِ كَلَامِهِ قَوْلَ ٱلشَّرِيفِ مِنْ أَبْيَاتٍ[1] يَصِفُ فِيهَا مَا كَانَ فِي ٱلْحِيرَةِ مِنْ مَنَازِلِ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ :

مَا زِلْتُ أَطْرُقُ لِلْمَنَازِلِ بِٱللِّوَى
حَتَّى نَزَلْتُ مَنَازِلَ ٱلنُّعْمَانِ

وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله فاذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات » توفي سنة ٦٣٧ رحمه الله . (١) هي من أول قصيدة له قالها وقد خرج الى الكوفة لزيارة مشهد الامام علي — رضي الله عنه — وعرج الى الحيرة فطاف بها ونظر الى عجيب آثارها وبنائها ورأى الظباء ترتع في عراصها ، وذلك في سنة ٣٩٢ وصدر البيت الأول في الديوان :

* مازلت أطرق المنازل باللوى * ، وفي نسخة أخرى : بالنوى

بِالْحِيرَةِ ٱلْبَيْضَاءِ حَيْثُ تَقَابَلَتْ

شُمُّ ٱلْعِمَادِ عَرِيضَةَ ٱلْأَعْطَانِ (١)

شَهِدَتْ بِفَضْلِ ٱلرَّافِعِينَ قِبَابَهَا

وَيَبِينُ بِالْبُنْيَانِ فَضْلُ ٱلْبَانِي

مَا يَنْفَعُ ٱلْمَاضِينَ أَنْ بَقِيَتْ لَهُمْ

خِـــطَطٌ مُعَمَّرَةٌ بِعُمْرٍ فَانِي

وَيَقُولُ فِيهَا :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِدَيْرِ هِنْدٍ مَنْزِلًا

أَلِمًا مِنَ ٱلضَّرَّاءِ وَٱلْحِدْثَانِ (٢)

---

(١) شم : أى عالية مرتفعة جمع أشم وشماء — والأعطان : جمع عطن : وهو وطن الابل ، وغلب على مبركها حول الحوض ومربض الغنم حول الماء — ورفعة العماد يكنى به عن الشرف والسيادة ، وعرض الأعطان كناية عن الغنى والثروة — ويقال هو رحب العطن ، وواسع العطن: أى كثير المال واسع الرحل رحب الذراع (٢) دير هند الكبرى بالحيرة بنته هند أم عمرو بن هند وهى هند بنت الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندى — ودير هند الصغرى بالحيرة أيضا فى موضع ثره ، وهى هند بنت النعمان بن المنذر المعروفة بحرقة — قال هشام الكلبي كان كسرى قد غضب على النعمان فحبسه فنذرت ابنته هند ان رده الله الى ملكه أن تبنى ديرا تسكنه حتى تموت فخلى كسرى عن أبيها النعمان فبنت الدير

بِنَفْسِي كَمُسْتَسِرِّ الْهَوَانِ تَفَيَّتْ
أَنْصَارُهُ وَخَلَا مِنَ الْأَعْوَانِ

بَالِي الْمَعَالِمِ أَطْرَقَتْ شُرُفَاتُهُ
إِطْرَاقَ مُنْجَذِبِ الْقَرِينَةِ عَانِي(١)

وأقامت به حتى ماتت فدفنت فيه — وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا الدير ، وفيه يقول الأمير معن بن زائدة الشيباني وكان منزله قريبا منه :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   لدى دير هند والحبيب قريب
فنقضي لبانات ونلقى أحبة   ويورق غصن السرور رطيب

(١) القرينة النفس ، يقال أسمحت قرينته وأصحبت أى ذلت نفسه وتابعته على الأمر، والقرين الصاحب المقارن، وقرينة الرجل صاحبته وامرأته لمقارنته إياها والقرينة: الناقة تشد إلى أخرى — فلعل المراد من منجذب القرينة الواحد المنفرد الذي لا ناصر له ولا معين أو لعله يشير إلى معنى قول عمرو بن كلثوم

متى نعقد قرينتنا بحبل   تجذ الحبل أو تقص القرينا

قرينته نفسه ، يقول اذا أقرنا القرن غلبناه — أو القرينة الناقة يقول متى قرنا ناقتنا بأخرى قطعت الحبل أو كسرت عنق القرين معها — وهو على المثل أى متى قرنا بقوم فى قتال أو خصام غلبناهم وقهرناهم — واذا كان الشريف الرضى يلمح هذا المعنى جاز أن تكون كلمة « منجذب » فى بيته محرفة عن منجذ — أى منقطع — والعانى الأسير والخاضع الذليل — ويقال : فلان اذا جاذبته قرينته قهرها، أى اذا قرنت به الشديدة أطاقها وغلبها — والخلاصة أن « منجذب القرينة » يراد منه الانفراد والانقطاع عن المعين، والقهر والذل والغلبة «أحمد يوسف نجاتى»

أَمَقَاصِرَ ٱلْغِزْلَانِ غَيَّرَكِ ٱلْبِلَى

حَتَّى غَدَوْتِ مَرَابِضَ ٱلْغِزْلَانِ(١)

وَمَلَاعِبَ ٱلْإِنْسِ ٱلْجَمِيعِ طَوَى ٱلرَّدَى

مِنْهُمْ فَصِرْتِ مَلَاعِبَ ٱلْجِنَّانِ(٢)

وَمِنْهَا :

مِسْكِيَّةُ ٱلنَّفَحَاتِ تَحْسَبُ تُرْبَهَا

بُرْدَ ٱلْخَلِيعِ مُعَطَّرَ ٱلْأَرْدَانِ(٣)

وَكَأَنَّمَا نَسِيَ ٱلتِّجَارُ لَطِيمَةً

جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ بِهَا عَلَى ٱلْغِيقَانِ(٤)

مَلِا كَجَيْبِ ٱلدِّرْعِ يَصْقُلُهُ ٱلصَّبَا

وَنَقًى يُدَرِّجُهُ ٱلنَّسِيمُ ٱلْوَانِي(٥)

(١) الغزلان الأولى ظباء الانس ــ والغزلان الثانية ظباء الفلاة (٢) الجنان : جمع جن (٣) الأردان : الأكمام ، وخص الخليع لأنه يعنى بملابسه فهو يعطر نفسه ، ويجمل زيه ، ليكون ذلك شركا صائدا ، وسببا جاذبا . (٤) اللطيمة واللطيم : المسك ، أو كل طيب يحمل على الصدغ ــ واللطيمة وعاء المسك أو سوقه ، والرواية « على القيعان » (٥) ويروى : « يبنى بموحته النسيم الوانى » . جيب الدرع والقميص : طوقه ، والنقى من الرمل : القطعة تنقاد محدودبة ، والكثيب الأبيض منه المجتمع الذى

زَفَرَ ٱلزَّمَانُ عَلَيْهِمُ فَتَفَرَّقُوا
وَجَلَوْا عَنِ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْأَوْطَانِ

وَقَالَ أَبُو إِسْحٰقَ ٱلصَّابِي ـ وَتَوَارَدَ مَعَ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلْقَافِيَةِ ـ يَصِفُ قَصْرَ رَوْحٍ بِالْبَصْرَةِ

أَحْبِبْ إِلَيَّ بِقَصْرِ رَوْحٍ مَنْزِلًا
شَهِدَتْ بَنِيَّتُهُ بِفَضْلِ ٱلْبَانِي
سُورٌ عَـلَا وَتَمَنَّعَتْ شُرُفَاتُهُ
فَـكَأَنَّ إِحْدَاهُنَّ هَضْبُ أَبَانِ(١)
وَكَأَنَّمَا يَشْـكُو إِلَى زُوَّارِهِ
بَيْنَ ٱلْخَلِيطِ وَفُرْقَةَ ٱلْجِيرَانِ(٢)

لايفبت شيئا ـ شبه مايعلو سطح الماء من الحبك اذا مر فوقه النسيم بغضون الدرع صقلتها الصبا ، أو بالنق الذى يمر به النسيم اللين فيحدث به غضونا وخطوطا متقطعة ـ والنسيم الوانى ضعيف الهبوب ، قال جحدر :

وظهر تنوفة للريح فيها ... نسيم لايروع الترب وانى

وعجز البيت محرف فى الأصل تحريفا غير مفهوم ، فقد كان « ... وريق بدوحته ... » (١) أبان : اسم جبل ـ وهما أبانان أبان الأبيض وهو شرقى الحاجر وهو لبنى فزارة وعبس ، وأبان الأسود وهو لبنى فزارة خاصة ، وبينه وبين الأبيض ميلان ـ وقيل هما لبنى مناف بن دارم بن تميم بن مر ، وكلاهما محدد الرأس كالسنان (٢) البين الفراق والبعد ، والخليط : الصاحب والصديق . « أحمد يوسف نجاتى »

وَكَأَنَّمَا يُبْدِي لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ　　إِطْرَاقَ مَحْزُونِ الْحَشَا حَرَّانِ

وَلِأَحْمَدَ بْنِ فَرَجٍ الْإِلْبِيرِيِّ مِنْ أَبْيَاتٍ:

سَأَلْتَ بِهَا فَمَا رَدَّتْ جَوَابَا

عَلَيْكَ وَكَيْفَ تُخْبِرُكَ الطُّلُولُ؟

وَمِنْ سَفَهٍ سُؤَالُكَ رَسْمَ دَارٍ

مَضَى لِعَفَائِهِ زَمَنٌ طَوِيلُ

فَإِنْ تَكُ أَصْبَحَتْ قَفْرًا خَلَاءً

لِعَيْنِكَ فِي مَغَانِيهَا مُحُولُ

فَقِدْمًا قَدْ نَعِمْتَ قَرِيرَ عَيْنٍ

بِهَا وَبِرَبْعِهَا الرَّشَأُ الْكَحِيلُ

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ الْحَنَّاطِ[1] الْأَنْدَلُسِيُّ الْأَعْمَى:

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ نَارِ

لَمْ تُوقِدِ النَّارَ بِالْهِنْدِيِّ وَالْغَارِ[2]

---

(١) فى الأصل « الخياط » وقد تقدم رأيى فى هذا ـ وزادنى اعتصاما به أن وصفه هنا بالأعمى فهو هو ابن الحناط الذى قدمت ترجمته من قبل « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) الغار: ضرب من الشجر له ورق طيب الريح يقع فى العطر، قال عدى بن زيد العبادى:

يَا دَارَ عَلْوَةَ قَدْ هَيَّجْتِ لِي شَجَنَا
وَزِدْتِنِي حُرَقًا حُيِّيتِ مِنْ دَارِ
كَمْ بِتُّ فِيكِ عَلَى ٱللَّذَّاتِ مُعْتَكِفًا
وَٱللَّيْلُ مُدَّرِعٌ ثَوْبًا مِنَ ٱلْقَارِ؟
كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي ٱلْمِسْحِ مُلْتَحِفٌ
شَدَّ ٱلْمَجَرَّ لَهُ وَسْطًا بِزُنَّارِ(١)
يُدِيرُ فِيهِ كُؤُوسَ ٱلرَّاحِ ذُو حَوَرٍ
يُدِيرُ مِنْ لَحْظِهِ أَلْحَاظَ سَحَّارِ

وَلَا مَزِيدَ فِي ٱلتَّفَجُّعِ عَلَى ٱلدِّيَارِ، وَٱلتَّوَجُّعِ لِلدِّمَنِ وَٱلْآثَارِ، عَلَى قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ يَرْثِي بِهَا ٱلْمُتَوَكِّلَ:

مَحَلٌّ عَلَى ٱلْقَاطُولِ أَخْلَقَ دَاثِرُهْ
وَعَادَتْ صُرُوفُ ٱلدَّهْرِ جَيْشًا تُغَاوِرُهْ(٢)

رب نار بت أرمقها تقضم الهندي والغارا

والمراد بالهندي العود الطيب الذي يأتي من بلاد الهند — وانما توقد النار بالهندي والغار اذا أريد البخور والتعطر بالريح الذكية (١) المسح ثوب غليظ من الشعر، والمجر والمجرة في السماء معروفة، وفي الأصل «المجد» بدل المجرة وهو تحريف، والزنار مايشد على الوسط معروف شبه الليل براهب ملتحف بمسح أسود وجعل نجوم المجرة زناراله (٢) القاطول: نهر

كَأَنَّ الصَّبَا تُوفِي نُذُورًا إِذَا انْبَرَتْ
تُرَاوِحُهُ أَذْيَالُهَا وَتُبَاكِرُهْ

وَرُبَّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ثَمَّ⁽¹⁾ عَهْدُهُ
تَرِقُّ حَوَاشِيهِ وَيُونِقُ نَاضِرُهْ

تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأُنْسُهُ
وَقُوِّضَ بَادِي الْجَعْفَرِيِّ وَحَاضِرُهْ⁽²⁾

« كأنه قطل أى قطع من دجلة » وهو نهر كان فى موضع سامراء قبل أن تعمر ، وكان هرون الرشيد أول من حفره ، وفوق هذا القاطول القاطول الكسروى حفره كسرى أنو شروان يأخذ من جانب دجلة فى الجانب الشرقى أيضا ، وعليه شاذروان فوقه يسقى رستاقا بين النهرين ، وحفر بعده الرشيد هذا القاطول تحته مما يلى بغداد وهو أيضا يصب فى النهروان تحت الشاذروان – وأخلق أى بلى ، ودثر الشىء دثورا درس وعفا وانمحى . وغاور وا وتغاوروا : أغار بعضهم على بعض وغاوره شن عليه الغارة . والبيت فى الأصل فيه تحريفان « الماطول » بدل القاطول و « تنادره » بدل تغاوره » وهو تحريف مفسد – والقصيدة رثى بها المتوكل حين قتل سنة ٢٤٧ بقصره الجعفرى . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) ثم : هناك – وفى الأصل « تم » محرفة – ويونق أى يعجب ، وفى الديوان « يورق » – وعيش رقيق الحواشى : أى ناعم فى دعة

(٢) الجعفرى اسم قصر بناه أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله الخليفة العباسى قرب سامراء واستحدث عنده مدينة وأقطع القواد منها قطائع فصارت أكبر من سامراء ، ولما قتل أيم المتوكل سنة ٢٤٧

تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً

فَعَادَتْ سَوَاءٌ دُورُهُ وَمَقَابِرُهْ (١)

إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الْأَسَى

وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَبْهَجُ زَائِرُهْ

وَلَمْ أَنْسَ وَحْشَ الْقَصْرِ إِذْ رِيعَ سِرْبُهُ

وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَآذِرُهْ (٢)

وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ

عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ

عاد الناس الى سامراء بعد أن كادت تخلو منهم . والشعراء فى ذكرالجعفرى قول كثير . ولعل البحترى أحسن من وصفه وأجاد القول فيه ولاسيما فى قصيدته التى مطلعها :

ان الهواء غـداة سفح محجر   هيجن حرجوى وفرط تذكر

يقول فيها :

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن   ليتم الا بالخليفـــة جعفـــر

فى رأس مشرفة حصاها جوهر   وترابها مسك يشاب بعنبر ....

(١) فى الأصل «ومقاصره» وفى الديوان «ومقابره» وهو أحسن وأظهر لأن الغرض وصف الدور بالوحشة بعد ذعر الساكنين منها وتفرقهم عنها

(٢) الطلاولد الظبي ساعة يولد ، والصغير من كل شئ ، والجؤذر ولد البقرة الوحشية ، ويصح فيهما هنا ارادة الحقيقة وارادة المجاز « أحمد يوسف نجاتى »

وَوَحْشَتَهُ[1] حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ
أَنِيسٌ وَلَمْ تَحْسُنْ لِعَيْنٍ مَنَاظِرُهْ
كَأَنْ لَمْ تَبِتْ[2] فِيهِ ٱلْخِلَافَةُ طَلْقَةً
بَشَاشَتُهَا وَٱلْمُلْكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهْ
وَلَمْ تَجْمَعِ ٱلدُّنْيَا إِلَيْـهِ بَهَاءَهَا
وَبَهْجَتَهَا وَٱلْعَيْشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ[3]
فَأَيْنَ ٱلْحِجَابُ ٱلصَّعْبُ حَيْثُ تَمَنَّعَتْ
بِهَيْبَتِهَا أَبْوَابُهُ وَمَقَاصِرُهْ ؟
وَأَيْنَ عَمِيدُ ٱلنَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ
تَنُوبُ ، وَنَاهِي ٱلدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهْ ؟

وَعَلَى قَوْلِ أَبِي إِسْحَقَ بْنِ خَفَاجَةَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ :

---

(١) كذا رواية الديوان «ووحشته» بالعطف على «وحش القصر» ولعله أولى مما في الأصل «وأوحشه» (٢) في الأصل «تبن» وهو تحريف وإن كان له معنى متكلف (٣) المكسر . مخبر الشيء يقال هو طيب المكسر ورديء المكسر ، ورجل صلب المكسر أي قوي شديد ، وعيش غض المكسر وطيب المكسر إذا كان ناعما لينا ورغدا هنيئا وطيبا سهلا .

وَمُرْتَبَعٍ حَطَطْتُ ٱلرَّحْلَ فِيهِ
بِحَيْثُ ٱلظِّلُّ وَٱلْمَاءُ ٱلْقَرَاحُ(١)
تَخَرَّمَ حُسْنَ مَنْظَرِهِ مَلِيكٌ
تَخَرَّمَ مُلْكَهُ ٱلْقَدَرُ ٱلْمُتَاحُ(٢)
فَجِرْيَةُ مَاءِ جَدْوَلِهِ بُكَاءٌ
عَلَيْهِ وَشَدْوُ طَائِرِهِ نُوَاحُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْبُكَاءِ عَلَى ٱلدِّمَنِ ، وَٱلتَّأَسُّفِ عَلَى مَا فَعَلَتْ بِهَا أَيْدِي ٱلزَّمَنِ ، كَثِيرٌ جِدًّا ، لَا يَعْرِفُ ٱلْبَاحِثُ عَنْهُ لَهُ حَدًّا ، وَذٰلِكَ لِشِدَّةِ وَلُوعِ ٱلنُّفُوسِ بِذِكْرِ أَحْبَابِهَا ، وَحَنِينِهَا إِلَى أَمَاكِنِهَا ٱلَّتِي هِيَ مَوَاطِنُ أَطْرَابِهَا ، وَلِهٰذَا

(١) ارتبع بمكان كنا أقام به فى الربيع، والموضع مرتبع كالمربع،ثم تجوز فيه حتى سمى كل منزل مرتبعا ومربعا . والقراح الماء الصافى النقى والعذب السائغ (٢) تخرمه واخترمه : استأصله واقتطعه ، وفى الديوان « يحرم » فى شطرى البيت بدل « تخرم » والمتاح للقدر المهيأ – والشاعر هو أبو خفاجة ابراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة الشاعر الأديب المشهور كان مقيما بشرق الأندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع تهافتهم على أهل الأدب ، ولد بجزيرة شقر من أعمال بلنسية سنة ٤٥٠ وتوفى بها سنة ٥٣٣ « أحمد يوسف نجاتى »

اقْتَصَرْنَا عَلَى هٰذِهِ النُّبْذَةِ الْقَلِيلَةِ ، وَجَعَلْنَاهَا نَبعَةً(١) يَشْفِي الْمَشُوقُ بِهَا غَلِيلَهُ . وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ التَّأَسُّفَ عَلَى الدِّيَارِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ لَا يُجْدِي ، وَلَا يَدْفَعُ عَادِيَةَ الدَّهْرِ الْخَؤُون وَلَا يُعْدِي(٢) ، وَنَهَوْا عَنْهُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَجْدِيدِ الْمُصَابِ ، الْمُجَرِّعِ لِصَاحِبِهِ الصَّابَ وَالْأَوْصَابَ(٣) ، قَالَ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ(٤) :

عَفَتِ الْمَنَازِلُ غَيْرَ أَرْسُمِ دِمْنَةٍ

حَيَّيْتُهَا مِنْ دِمْنَةٍ وَرُسُومِ

كَمْ ذَا الْوُقُوفُ وَلَمْ تَقِفْ فِي مَنْسَكٍ

كَمْ ذَا الطَّوَافُ وَلَمْ تَطُفْ بِحَرِيمِ ؟(٥)

---

(١) أو « نغبة » وهي الماء القليل ، أو الجرعة (٢) أعداه : قواه وأعانه ونصره ـ يقال استعديت على فلان الأمير فأعدانى أى استعنته فأعانني (٣) الصاب شجر مر ، وقيل هو عصارة الصبر – والأوصاب جمع وصب وهو المرض والألم الشديد الدائم ، والوجع اللازم (٤) هو الامام يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر ، ولد سنة ٣٦٢ وتوفى فى سنة ٤٦٣ وتقدمت ترجمته .

(٥) المنسك : مكان النسك أى العبادة ، والحريم هنا الحرم حرم مكة وما أحاط الى قريب من الحرم ، والحريم ماحرم فلا يمس بأذى وحريم الدار ما أضيف اليها وكان من حقوقها ومرافقها ، والحريم : فناء المسجد

فَكِلِ الدَّيَارَ إِلَى الْجَنَائِبِ وَالصَّبَا

وَدَعِ الْقِفَارَ إِلَى الصَّدَى وَالْبُومِ [1]

انْتَهَى كَلَامُهُ — رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى — بِأَكْثَرِ لَفْظِهِ مَعَ بَعْضِ اخْتِصَارٍ.

«رَجْعٌ إِلَى قُرْطُبَةَ فَنَقُولُ» : وَقَدْ أَلَمَّ لِسَانُ الدِّينِ بْنُ الْخَطِيبِ — رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى — بِذِكْرِ قُرْطُبَةَ وَبَعْضِ أَوْصَافِهَا فِي كِتَابٍ لَهُ كَتَبَهُ عَلَى لِسَانِ سُلْطَانِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ بِجُمْلَتِهِ فِي الْبَابِ الْخَامِسِ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي ، فَلْيُرَاجَعْ ثَمَّةَ ، وَنَصُّ مَحَلِّ الْحَاجَةِ مِنْهُ هُنَا : ثُمَّ كَانَ الْغَزْوُ إِلَى أُمِّ الْبِلَادِ ، وَمَثْوَى الطَّارِفِ وَالتِّلَادِ قُرْطُبَةَ ، وَمَا قُرْطُبَةُ ؟ الْمَدِينَةُ الَّتِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِهَا فِي الْقَدِيمِ ، بِهَذَا الْإِقْلِيمِ ، كَانَ الْعَمَلُ ، وَالْكُرْسِيُّ الَّذِي بِعَصَاهُ رُعِيَ الْهَمَلُ ، وَالْمِصْرُ الَّذِي لَهُ فِي خِطَّةِ الْمَعْمُورِ

(١) الجنائب ، جمع جنوب : وهى ريح تقابل الشمال وتأتى عن يمين القبلة أوما استقبلك عن شمالك اذا وقفت فى القبلة « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلنَّاقَةَ وَٱلْجَمَلَ[١] ، وَٱلْأُفُقُ ٱلَّذِى هُوَ لِشَمْسِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْبَشَمِيَّةِ ٱلْحَمَلُ[٢] ، فَخَيَّمَ ٱلْإِسْلَامُ فِى عُقْرَتِهَا[٣] ٱلْمُسْتَبَاحَةِ وَأَجَازَ نَهْرَهَا ٱلْمُعْيِى عَلَى ٱلسِّبَاحَةِ[٤] ، وَعَمَّ دَوْحَهَا ٱلْأَشِبَ بَوَارًا[٥] ، وَأَدَارَ ٱلْمَحَلَّاتِ[٦] بِسُورِهَا سِوَارًا ، وَأَخَذَ بِمُخَنَّقِهَا حِصَارًا ، وَأَعْمَلَ ٱلنَّصْرَ بِشَجَرَةٍ[٧] أَصْلِهَا ٱجْتِنَاءَ مَا شَاءَ وَٱهْتِصَارًا[٨] ، وَجَدَّلَ مِنْ أَبْطَالِهَا مَنْ لَمْ يَرْضَ ٱنْجِحَارًا[٩] ،

(١) يرى أنه له كل شيء عكس المثل المشهور : لاناقة له ولا جمل . وفى الأصل « وللصر المصور الذى فى خطه الناقة الخ » وفى ذلك نقص وتحريف قد يقع القارىء معه فى حيرة (٢) تحل الشمس فى برج الحمل أول فصل الربيع أطيب الأزمنة وشبابها (٣) عقرة الدار وعقرها : وسطها وأصلها ، وهو محلة القوم ، وفى الحديث ماغزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا (٤) فى الأصل «المنى عن السباحة» وهو تحريف مفسد «أحمد يوسف نجاتى» (٥) أشب الشجر « كفرح فهو أشب » وتأشب اذا التف وكثر حتى صعب المجاز فيه — وموضع أشب وغيضة أشبة : كثيرة الشجر الملتف المشتبك (٦) محلة القوم : منزلهم . وفى الجزء الرابع من النفح « الطبعة القديمة » وأدار الكماة (٧) أو « بشجر نصلها » (٨) هصر الغصن ونحوه واهتصره : كسره ، أو جذبه وأماله وكسره من غير بينونة وانفصال — والاهتصار أيضا سقوط الغصن على الأرض — وفى أصل الرسالة « الباب الخامس من القسم الثانى » وأعمل النصل بدل « النصر » (٩) جدله فانجدل وتجدل اذا رماه وصرعه على الجدالة : أى الأرض — والانجحار مجاز عن الاستكانة والخضوع وأصله الدخول فى الجحر والالتجاء اليه ، والمجحر : المفر والملجأ

فَأَصْحَلَ إِلَى ٱلْمُسْلِمِينَ إِصْحَارًا(١) حَتَّى قُرِعَ بَعْضُ جِهَاتِهَا عِلَانًا جِهَارًا ، وَرُفِعَتِ ٱلْأَعْلَامُ إِعْلَامًا بِعِزِّ ٱلسُّلْطَانِ وَإِظْهَارًا . فَلَوْلَا ٱسْتِهْلَالُ ٱلْغَوَادِي(٢) وَأَنْ أَتَى ٱلْوَادِي ، لَأَفْضَتْ إِلَى فَتْحِ ٱلْفُتُوحِ تِلْكَ ٱلْبَادِي ، وَلَقَضَى تَفَثَهُ(٣) ٱلْعَاكِفُ وَٱلْبَادِي . ٱنْتَهَى .

« وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ لِسَانُ ٱلدِّينِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ فِي وَصْفِ هٰذِهِ ٱلْغَزْوَةِ لِسُلْطَانِ بَنِي مَرِينَ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ ٱلْأَنْدَلُسِ مَا صُورَتُهُ » : ٱلْمَقَامُ ٱلَّذِي نُطَالِعُهُ بِأَخْبَارِ ٱلْجِهَادِ ، وَنُهْدِي إِلَيْهِ عَوَالِيَ ٱلْعَوَالِي صَحِيحَةَ ٱلْإِسْنَادِ(٤) ، وَنُبَشِّرُهُ بِأَخْبَارِ ٱلْفَتْحِ ٱلْبَعِيدِ ٱلْآمَادِ ، وَنَسْأَلُ ٱللَّهَ تَعَالَى لَهُ دَوَامَ ٱلْإِسْعَادِ وَتَوَالِيَ ٱلْإِمْدَادِ ، وَنَرْتَقِبُ مِنْ صُنْعِ ٱللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ تَكْيِيفًا(٥) يَخْرِقُ حِجَابَ ٱلْمُعْتَادِ ، وَٱمْتِعَاضًا يُطْلِعُ بِآفَاقِ

---

(١) أصحر بالأمر : أظهره وجاهر بمكاشفة (٢) استهل المطر : كثر واشتد انصبابه وارتفع صوت وقعه ، والغوادي : جمع غادية وهي السحابة ـ تنشأ غدوة ، والغادية : مطرة الغداة (٣) أصل التفث النسك من مناسك الحج ، والعبارة مقتبسة من قوله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم » يعني قضاء حاجاتهم من الحلق والتنظيف وغير ذلك (٤) توجيه من مصطلح الحديث يريد ونخبره بالأعمال العظيمة التي أتت بها قوة الرماح والاسلام على حقيقتها قوية عظيمة (٥) هذا أصله من استعمال المتكلمين فقد اشتقوا فعلا من « كيف »

ٱلْبِلَادِ نُجُومَ غُرَرِ ٱلْجِيَادِ(١) ، وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ ٱلْفُتُوحِ بِأَقَالِيدِ(٢) ٱلسُّيُوفِ ٱلْحِدَادِ ، وَيُنْبِئُ عَنْ مَكَارِمِ مَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْآبَاءِ ٱلْكِرَامِ وَٱلْأَجْدَادِ ، مَقَامُ مَحَلِّ أَخِينَا ٱلَّذِي نَسْتَفْتِحُ لَهُ بِالْفَتْحِ وَٱلظُّهُورِ(٣) ، وَنُهْدِي إِلَى مَجْدِهِ لِمَا نَعْلَمُ مِنْ فَضْلِ نِيَّتِهِ وَحُسْنِ قَصْدِهِ لَطَائِفَ السُّرُورِ ، وَنَسْتَظْهِرُ بِمُلْكِهِ ٱلْمُؤَيَّدِ ٱلْمُؤَمَّلِ وَبِجَدِّهِ(٤) ٱلْمَشْهُورِ ، وَتَتَوَعَّدُ مِنْهُمَا ٱلْعَدُوَّ بِالْحَبِيبِ ٱلْمَذْخُورِ وَٱلْوَلِيِّ ٱلْمَنْصُورِ ، ٱلسُّلْطَانُ «ٱلْكَذَا» ٱبْنُ ٱلسُّلْطَانِ «ٱلْكَذَا» ٱبْنِ ٱلسُّلْطَانِ «ٱلْكَذَا» ، أَبْقَاهُ ٱللهُ تَعَالَى عَالِيَ ٱلْقَدْرِ ، قَرِيرَ ٱلْعَيْنِ مُنْشَرِحَ ٱلصَّدْرِ ، وَلَا زَالَ حَدِيثُ فَخْرِهِ سَائِرًا مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْبَدْرِ ، مُعَظَّمٌ(٥) سُلْطَانِهِ ٱلْخَلِيقِ بِالتَّعْظِيمِ ، ٱلْوَاثِقُ مِنْهُ بِالْفَخْرِ ٱلْكَرِيمِ ، ٱلْمُثْنِي عَلَى مَجْدِهِ ٱلصَّمِيمِ ، وَفَضْلِهِ ٱلْعَمِيمِ ، أَمِيرُ ٱلْمُسْلِمِينَ عَبْدُ ٱللهِ

فقالوا كيفه فتكيف ، وكيفية ، فهو كلام مولدوان أجروه على قياس كلام العرب – يريدهنا صنعايدبر ماالله كيف يشاء وطريقا عظيما غير مألوف

(١) شبه غرة الجواد بالنجم في بياضها واشراقها (٢) جمع اقليد وهو المفتاح

(٣) من قوله تعالى : «ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» ، والظهور : النصر والغلبة (٤) في الأصل «وبجده» يريد بجده: سيفه، وشهر السيف: استلهمن غمده وشهره : انتضاه ليضرب به، وفي «المشهور» تورية ظاهرة. وفي بعض المراجع «بمجده» بدل «بحده» (٥) في الأصل «معظم» ولا بأس بها والكني وجدت

ٱلْغَنِيُّ بِٱللهِ مُحَمَّدٌ(١) بْنُ أَمِيرِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَبِي ٱلْحَجَّاجِ ٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَبِي ٱلْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ . سَلَامٌ كَرِيمٌ ، بَرٌّ عَمِيمٌ ، يَخُصُّ مَقَامَكُمُ ٱلْأَعْلَى ، وَأُخُوَّتَكُمُ ٱلْفُضْلَى ، وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ . أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعِبَادِ وَمُلْهِمِ ٱلرَّشَادِ ، وَمُكَيِّفِ ٱلْإِسْعَافِ وَٱلْإِسْعَادِ ، ٱلْوَلِيِّ ٱلنَّصِيرِ ٱلَّذِي نُلْقِي إِلَى ٱلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ مَقَالِيدَ ٱلِاعْتِمَادِ ، وَنَمُدُّ إِلَى إِنْجَادِهِ وَإِمْدَادِهِ أَيْدِيَ ٱلِاعْتِدَادِ ، وَنَرْفَعُ إِلَيْهِ أَكُفَّ ٱلِاسْتِمْدَادِ ، وَنُخْلِصُ لِوَجْهِهِ ٱلْكَرِيمِ عَمَلَ

لسان الدين فى كثير من رسائله فى مثل هذه المقامات يلتزم هذا الأسلوب وذلك النظام، فيبدأ بقوله «للمقام الخ» و يصفه بما يناسب ، ثم يعبر عنه بقوله « مقام محل أخينا أو أبينا » كما يقتضيه منزلة المرسل إليه، و يصفه بما يستدعيه المقام ، ثم يبدأ محدثا عن المرسل الذى كتب الرسالة على لسانه بقوله : « معظم سلطانه أو نحو ذلك » ـ انظر كتاب الاحاطة، والاستقصاء «أحمد يوسف نجاتى»

(١) كانت ولايته بعد وفاة أبيه أبى الحجاج يوسف بن اسمعيل سنة ٧٥٥ واستمر حتى توفى سنة ٧٩٨ وقويت شوكته وتوطدت دعائم ملكه لاختلاف ملوك الأسبان وقيام بعضهم على بعض ـ ولقد أحسن الغنى بالله فى انتهاز هذه الفرصة ، فاسترد بحسن سياسته كثيرا من البلاد التى كان الأسبانيون قد استولوا عليها من قبل « وكانوا قد استولوا على قرطبة سنة ٦٣٣ الموافقة سنة ١٢٣٦ م أخذها فرديناند الثالث ملك قشتالة المسمى « سان فردناند » وهو الذى استولى أيضا على مدينة اشبيلية سنة ٦٤٦ الموافقة سنة ١٢٣٦ م ولله الأمر من قبل ومن بعد . «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْجِهَادِ ، فَتَتَعَرَّفُ عَوَارِفَ ٱلْفَضْلِ ٱلْمُزْدَادِ ، وَنَجْتَنِي ثِمَارَ ٱلنَّصْرِ مِنْ أَغْصَانِ ٱلْقَنَا ٱلْمُنْآدِ[1] ، وَنَجْتَلِي وُجُوهَ ٱلصُّنْعِ ٱلْوَسِيمِ أَبْهَرَ مِنْ وَجْهِ ٱلصَّبَاحِ ٱلْبَادِ ، وَنَظْفَرُ بِالنَّعِيمِ ٱلْعَاجِلِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلنَّعِيمِ ٱلآجِلِ يَوْمَ قِيَامِ ٱلْأَشْهَادِ ، وَنَتَفَيَّأُ ظِلَالَ ٱلْجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ أَوْرَاقِ ٱلسُّيُوفِ ٱلْحِدَادِ .

وَٱلصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْهَادِ ، رَسُولِ ٱلْمَلْحَمَةِ ٱلْمُؤَيَّدِ بِالْمَلَائِكَةِ ٱلشِّدَادِ ، وَنَبِيِّ ٱلرَّحْمَةِ ٱلْهَامِيَةِ ٱلْعِهَادِ[2] ، أَكْرَمِ ٱلْخَلْقِ بَيْنَ ٱلرَّائِحِ وَٱلْغَادِ ، ذِي ٱللِّوَاءِ ٱلْمَعْقُودِ ، وَٱلْحَوْضِ ٱلْمَوْرُودِ ، وَٱلشَّفَاعَةِ فِي يَوْمِ ٱلتَّنَادِ[3] ، ٱلَّذِي بِجَاهِهِ تُجْدَعُ أُنُوفُ ٱلْآسَادِ يَوْمَ ٱلْجِلَادِ ، وَبِبَرَكَتِهِ نَنَالُ أَقْصَى ٱلْأَمَلِ وَٱلْمُرَادِ ، وَفِي مَرْضَاتِهِ تَصِلُ أَسْبَابَ ٱلْوِدَادِ ، فَنَعُودُ بِالتَّجْرِ ٱلرَّابِحِ مِنْ مَرْضَاةِ رَبِّ

---

(١) من قول ابن هانئ الأندلسي :

وجنيتم ثمر الوقائع يانعا … بالنصر من ورق الحديد الأخضر

واتآد : اعوج ، وإنما تتآد القنا لكثرة إعمالها وطول الطعن بها وفي بعض المراجع « الباد » (٢) العهاد : مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله فلا يزال يتعاهد الأرض بسيبه (٣) يوم التناد « التنادى » هو يوم القيامة حين ينادى الخلق بعضهم بعضا ، فينادى فيه أهل الجنة أهل النار .

ٱلْعِبَادِ ، وَتَسْتَوْلِي فِي مَيْدَانِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْمُعَادَةِ عَلَى ٱلْآمَادِ ، وَٱلرِّضَا عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَنْصَارِهِ وَحِزْبِهِ ٱلْكُرَمَاءِ ٱلْأَمْجَادِ ، دَعَائِمِ ٱلدِّينِ مِنْ بَعْدِهِ وَهُدَاةِ ٱلْعِبَادِ ، أَنْجَادِ[1] ٱلْأَنْجَادِ وَآسَادِ ٱلْآسَادِ ، ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُ فِي حَيَاتِهِ بِالْحُلُومِ ٱلرَّاجِحَةِ ٱلْأَطْوَادِ ، وَٱلْبَسَالَةِ ٱلَّتِي لَا تُنَالُ بِالْعَدَدِ فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَٱلْأَعْدَادِ ، حَتَّى بَوَّءُوا[2] ٱلْإِسْلَامَ فِي ٱلْقَوَاعِدِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلْبِلَادِ ، وَأَرْغَمُوا أُنُوفَ أَهْلِ ٱلْجَحْدِ وَٱلْإِلْحَادِ ، فَأَصْبَحَ ٱلدِّينُ رَفِيعَ ٱلْعِمَادِ ، مَنْصُورَ ٱلْعَسَاكِرِ وَٱلْأَجْنَادِ ، مُسْتَصْحِبَ ٱلْعِزِّ فِي ٱلْإِصْدَارِ وَٱلْإِيرَادِ . وَٱلدُّعَاءِ لِمَقَامِكُمُ ٱلْأَعْلَى بِالسَّعْدِ ٱلَّذِي يُغْنِي عَنِ ٱخْتِيَارِ ٱلطَّوَالِعِ وَتَقْوِيمِ ٱلْمِيلَادِ ، وَٱلنَّصْرِ ٱلَّذِي تُشْرِقُ أَنْبَاؤُهُ فِي جُنْحِ لَيْلِ ٱلْمِدَادِ[3] ، وَٱلصُّنْعِ ٱلَّذِي

---

(١) الأنجاد: جمع نجد وهو الشجاع الماضي فيما يعجز عنه غيره ، والشديد البأس ، والسريع الاجابة الى مادعى اليه (٢) أنزلوه وأسكنوه (٣) يريد في الصحف المكتوبة ، وهو من قول أبي الطيب :

دعاني اليك العلم والحلم والحجا ... وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وماقلت من شعر تكاد بيوته ... اذا كتبت يبيض من نورها الحبر

وهو من قول ابن الرومي :

تُشْرَعُ[1] لَهُ أَبْوَابُ ٱلتَّوْفِيقِ وَٱلسَّدَادِ ، مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ ـ حَرَسَهَا ٱللَّهُ ـ وَٱلْيُسْرُ قَدْ وَطَّأَ ٱلْمِهَادَ ، وَٱلْخَيْرُ وَاضِحُ ٱلْإِشْهَادِ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فِي ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْمَعَادِ ، وَٱلشُّكْرُ لَهُ عَلَى آلَائِهِ ٱلْمُتَّصِلَةِ ٱلتَّرْدَادِ ، وَمَقَامُكُمْ ٱلذُّخْرُ ٱلْكَافِي ٱلْعَتَادِ[2] ، وَٱلْمُرَدَّدُ[3] ٱلْمُتَكَفِّلُ بِٱلْإِنْجَادِ . وَإِلَى هَذَا وَصَلَ ٱللَّهُ سَعْدَكُمْ ، وَحَرَسَ مَجْدَكُمْ ، وَوَالَى نَصْرَكُمْ وَعَضُدَكُمْ ، وَعَدَدَكُمْ وَعُدَدَكُمْ ، وَبَلَّغَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ٱلْعَمِيمِ أَمَلَكُمْ وَقَصْدَكُمْ ، فَإِنَّنَا نُؤْثِرُ تَعْرِيفَكُمْ بِآفَاقِهِ ٱلْمُتَزَيِّدَاتِ ، وَنُورِدُ عَلَيْكُمْ أَشْتَاتَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمُتَجَدِّدَاتِ ، إِقَامَةً لِرَسْمِ ٱلْخُلُوصِ فِي ٱلتَّعْرِيفِ بِمَا قَلَّ ، وَمَوَدَّةً خَالِصَةً فِي

وليمديك قلتها سائرات هذبت فيك أيما تهذيب
سودت فيك كل بيضاء تسبى ماترا العيون كالتنهيب

وقد فرع الشعراء من ذلك معاني جمة ، وولدوا أخيلة بديعة ، مثل قوله :

حكت معانيه في أثناء أسطره آثارك البيض في أحوالي السود

وتخيل اضاءة المداد أواشراق المعاني في سواده من تجسيم المعاني لايضاحها والمبالغة في معانيها « أحمد يوسف نجاتي »

(١) أشرع الباب الى الطريق اذا فتحه (٢) العتاد: العدة لأمر ماتهيئه ، وتعدها له من قوة، وما أعد من سلاح وآلة حرب ونحو ذلك (٣) كذا بالأصل ، ولعله محرف عن «المورد» أو « المراد » « أحمد يوسف نجاتي »

ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ ٱلتَّعْرِيفُ بِمَا تَهْتَزُّ لَهُ مَنَابِرُ ٱلْإِسْلَامِ [١] ٱرْتِيَاحًا لِوُرُودِهِ ، وَتَنْشَرِحُ ٱلصُّدُورُ مِنْهُ لِمَوَاقِعِ فَضْلِ ٱللَّهِ وَجُودِهِ ، وَٱلْمُكَيَّفَاتِ، ٱلْبَدِيعَةِ ٱلصِّفَاتِ. فِي وُجُودِهِ؛ وَهُوَ أَنَّا قَدَّمْنَا إِعْلَامَكُمْ بِمَا نَوَيْنَاهُ مِنْ غَزْوِ مَدِينَةِ قُرْطُبَةَ أُمِّ ٱلْبِلَادِ ٱلْكَافِرَةِ ، وَمَقَرِّ ٱلْحَامِيَةِ ٱلْمَشْهُورَةِ [٢] وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْوَافِرَةِ ، وَٱلْقُطْرِ ٱلَّذِي عَهْدُهُ بِإِلْمَامِ ٱلْإِسْلَامِ مُتَقَادِمٌ ، وَٱلرُّكْنِ ٱلَّذِي لَا يَتَوَقَّعُ صَدْمَةَ صَادِمٍ ، وَقَدِ ٱشْتَمَلَ سُورُهَا مِنْ زُعَمَاءِ مِلَّةِ ٱلصَّلِيبِ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ بَئِيسٍ [٣] ، وَهِزَبْرٍ خِيسٍ [٤] ، وَذِي مَكْرٍ وَتَلْبِيسٍ [٥] ، وَمَنْ لَهُ سِمَةٌ تُذِيعُ مَكَانَهُ وَتَشِيمُهُ ، وَأَتْبَاعٌ عَلَى ٱلْمَنْشَطِ وَٱلْمَكْرُوهِ [٦] تُطِيعُهُ ، فَٱسْتَدْعَيْنَا ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَقَاصِي

---

(١) من قول الشاعر :

وتهتز أعواد المنابر باسمه فهل ذكرت أيامها وهى أغصان

(٢) فى الأصل المشهودة ، ولا بأس بها أيضا (٣) قوى شديد ، من البأس وهو الشدة فى الحرب (٤) الهزبر : الأسد ، والغليظ الضخم ، والشديد الصلب والخيس : الأجمة وموضع الأسد ، والشجر الكثير الملتف ، وفى بعض النسخ « الخسيس » (٥) التلبيس : التخليط والتدليس « الغش والخداع والمكر » (٦) كذا بالأصل ، وأراها محرفة عن « المكره » والمنشط : مفعل من

ٱلْبِلَادِ ، وَأَذَعْنَا فِي ٱلْجِهَاتِ نَفِيرَ ٱلْجِهَادِ(١) ، وَتَقَدَّمْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ بِسَعَةِ ٱلْأَزْوَادِ(٢) وَأَعْطَيْنَا ٱلْحَرَكَةَ ٱلَّتِي يُخَلِّفُ(٣) ٱلْمُسْلِمُونَ فِيهَا وَرَاءَهُمْ جُمْهُورَ ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْأَعْدَادِ حَقَّهَا مِنَ ٱلِاسْتِعْدَادِ ، وَأَفَضْنَا(٤) ٱلْعَطَاءَ وَٱلِاسْتِلْحَاقَ وَٱلِاسْتِرْكَابَ فِي أَهْلِ ٱلْغَنَاءِ وَأَبْطَالِ ٱلْجِهَادِ وَٱلْجِلَادِ ، فَحُشِرَ ٱلْخَلْقُ فِي صَعِيدٍ ، وَأَخَذُوا ٱلْأُهْبَةَ وَٱلزِّينَةَ فِي عِيدٍ سَعِيدٍ ، وَشَمِلَ ٱلِاسْتِدْعَاءُ كُلَّ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، عَنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ ، وَرَحَلْنَا وَفَضْلُ

النشاط وهو الأمر الذى ينشط له ويخف اليه ويؤثر فعله ــ والمكره من الكراهة ضد النشط « أى الذى تكرهه النفس ولا ترتاح الى عمله » ويشق عليها القيام به، وهما مصدران بمعنى النشاط والكراهية ــ وأصل ذلك حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « بايعت رسول الله ﷺ على المنشط والمكره » أى على كل عمل وأمر تحبه النفس وتنشط له، أو تكرهه ويشق عليها « أحمد يوسف نجاتى »

(١) النفير والنفر : القوم ينفرون معك اذا حزبك أمر ــ واستنفرهم فنفروا معه أى نصروه ومدوه وأعانوه ــ وفى الحديث اذا استنفرتم فانفروا أى استنجدتم واستنصرتم ــ أى اذا طلبت منكم النجدة والنصرة فأجيبوا وانفروا خارجين الى الاعانة . واستنفر الامام الرعية : كلفهم أن ينفروا خفافا وثقالا (٢) جمع زاد وهو مايعد من طعام ومتاع ونحوه مما يحتاج اليه (٣) فى بعض النسخ « تخلف » (٤) فى الأصل « وأفضينا » وهو تصحيف . « أحمد يوسف نجاتى »

ٱللّٰهِ شَامِلٌ ، وَٱلتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ كَافٍ كَافِلٌ . وَخَيَّمْنَا بِظَاهِرِ ٱلْحَضْرَةِ حَتَّى ٱسْتَوْفَى ٱلنَّاسُ آرَابَهُمْ ، وَٱسْتَكْمَلُوا أَسْرَابَهُمْ[1] ، وَدُسْنَا مِنْهُمْ بِلَادَ ٱلنَّصَارَى بِجُمُوعٍ كَثَّرَهَا ٱللّٰهُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَأَنْمَاهَا ، وَأَبْعَدَ فِي ٱلْتِمَاسِ مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْأَجْرِ مُنْتَمَاهَا . وَعِنْدَمَا حَلَلْنَا «قَاشَرَهْ[2]» وَجَدْنَا ٱلسُّلْطَانَ «دُونْ بِطْرَهْ[3]» مُؤَمِّلَ نَصْرِنَا وَإِنْجَادِنَا ،

---

(١) أو «أسبابهم» (٢) فى معجم ياقوت «قاشره» بعد الشين راء مضمومة وهاء ساكنة التى ساكنان الألف والشين فيه ، من أقاليم لبلة و «لبلة» بالجنوب الغربى من أسبانيا على نهر يصب بالبحر عند جزيرة شلطيش ، وكانت قصبة كورة كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية وهى شرقى أكشونية وغربى قرطبة وبينها وبين قرطبة على طريق اشبيلية ٤٤ فرسخا

(٣) خلاصة هذه الوقعة أن السلطان الذى يلقبه ابن الأحمر لما استولى على عرش ملكه بالحمراء كان يمتنا بالظهور والعظمة والترف والعزة على الجلالقة وسائر ملوك الأسبان وعلى ملوك المغرب بما نال دولهم من الحرم بل بدبيب الشقاق والخلاف بين ملوك الأسبان ، وكانت أسبانيا فى القرن الثالث عشر الميلادى « السابع الهجرى » تنقسم الى خمس ممالك ، وهى نافار ، وأراغون ، وقشتالة ، وغرناطة ، والبرتغال — وكانت قشتالة أقوى تلك الممالك ، وكانت تشمل قشتالة وليون وجليقية « غاليسيا » — ولما توفى ملكها الفونس الحادى عشر سنة ١٣٥٠ م الموافقة سنة ٧٥١ هـ قام بالأمر بعده « الفون بطره » الملقب بالعاتى والجاسى ، وكان جبارا عنيدا وغشوما جائرا سفاكا للدماء منهمكا فى لذاته وشهواته حتى كان ذلك سببا فى أن انتقض عليه أهل مملكته وسئموا ملكته ، ولكنه تمكن ممن خرج عليه

ولما استراح منهم وشرد بهم من خلفهم اشتبك فى حرب شعواء مع مملكة أراغون، فانضم إلى أعدائه من كان ينقم عليه من أهل مملكة قشتالة، وتلظت نار الفتنة والخلاف بين المملكتين، وبعد حوادث دامية وخطوب قاسية انتهى الأمر بهما إلى الصلح على شرط أن يتزوج «الدون بطره» ملك قشتالة ابنة «الدون بطره» ملك أراغون، وأن يقترن ولى عهد أراغون بابنة ملك قشتالة — وكان بين ملك قشتالة وأخيه «الدون أزيك» خلاف شديد وفتنة ثائرة، وتمكن أخوه بمعونة فرنسة أن يستوى على عرش قشتالة ملكاً، فالتجأ «دون بطره» إلى انجلترة فنصرته وبعثت قدمه فى مملكته وأعادت إليه ملكه، وهزم أخوه فى معركة ناغاريت فالتجأ إلى حاميته فرنسة، وأبت طباع «دون بطره» وما جبل عليه إلا أن يصرف عنه عطف انجلترة حتى طالبته بنفقات الحرب وتقاضته ثمن النصر، فأخذ يطوف طاغياً فى البلاد، ويكثر فيها العيث والفساد، مستولياً بإراقة الدماء على الأموال، حتى ضاعف إيغار الصدور عليه، فانحاز أهل قشتالة إلى أخيه وشدوا عضده، ونهضت أكثر المدن بدعوته، وعمد «دون بطره» إلى حليفه الغنى بالله ابن الأحمر فحاصر مدينة قرطبة — وكانت من المدن التى استجابت إلى دعوة أخيه — وشدد الجيشان عليها الحصار، وذلك سنة ٧٦٨ هـ، وأخذت الفوتان عليها بالآفاق، وهجم المسلمون على أسوارها فاحتلوا بعض بروجها، غير أن القرطبيين صدقوا فى الكرة على المحاصرين واستماتوا فى مدافعتهم فكشفوهم ونفسوا عن أنفسهم. فأزمع الجيشان العودة، وانتهز الغنى بالله هذه الفرصة وعرف كيف ينتفع بهذه الثغرة من الأسبانيين، فجال فى بلادهم متنقلا منهم ودخل بسائر المسلمين بلادهم، فأثخن فى أرضهم، وخرب معاقلهم، وهدم ما قدر عليه من مدنهم، واستعاد بعض الحصون، واكتسح مدينة جيان وأبذة وغيرهما من المدن والأمصار التى كانت مخالفة للدون أزيك أخى الدون بطره، ثم عاد إلى غرناطة غانماً، واستمرت الفتنة ناشبة بين الأخوين وبعد حوادث تمكن «الدون أزيك» من الفتك بأخيه سنة ١٣٦٩ م

وَمُسْتَمِيدَ حَظِّهِ فِي مَوَاقِعِ [1] جِهَادِنَا ، وَمُقْتَضِي دَيْنَ كَدْحِهِ بِإِعَانَتِنَا إِيَّاهُ وَإِنْجَادِنَا ، قَدْ نَزَلَ بِظَاهِرِهَا فِي مَحَلَّاتٍ مِمَّنْ أَسْتَقَرَّ عَلَى دَعْوَتِهِ ، وَتَمَسَّكَ بِطَاعَتِهِ ، وَشَمِلَهُ حُكْمُ جَمَاعَتِهِ ، فَكَانَ لِقَاؤُنَا إِيَّاهُ عَلَى حَالٍ أَقَرَّتْ عُيُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَتَكَفَّلَتْ بِإِعْزَازِ ٱلدِّينِ . وَمُجْمَلُهَا يُغْنِي عَنِ ٱلتَّبْيِينِ ، وَٱلشَّرْحِ وَٱلتَّبْيِينِ . وَرَأَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي وُفُورِ جَيْشِ ٱللَّهِ مَا هَالَهُمْ ، وَأَشْكَ فِي حَالِ ٱلْيَقَظَةِ خَيَالَهُمْ ، مِنْ جُمُوعٍ تَسُدُّ ٱلْفَضَا ، وَأَبْطَالٍ تُقَارِعُ أُسْدَ ٱلْغَضَى ، وَكَتَائِبَ مَنْصُورَةٍ ، وَرَايَاتٍ مَنْشُورَةٍ ، وَأُمَمٍ مَحْشُورَةٍ ، تَفْضُلُ عَنْ مَرْأَى ٱلْعَيْنِ ، وَتُرْدِي ٱلْعَدُوَّ فِي مَهَاوِي ٱلْحَيْنِ ، فَاعْتَرَفُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِمْ ، وَٱعْتَبَرَ فِي عِزَّةِ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ أُولُو أَلْبَابِهِمْ ، وَإِذَا كَثَّرَ ٱللَّهُ تَعَالَى ٱلْعَدَدَ نَمَا وَزَكَا ، وَإِذَا أَزَاحَ ٱلْعِلَلَ مَا ٱعْتَذَرَ

الوافقة سنة ٧٧٠ هـ وخلص الملك له . وهدأت أحوال ابن الأحمر وهدوءاً ما فانهم لم يجتنوا ثمار هذا النصر المتاح الا الى أجل ، فقد كان داء الهرم أخذ يتمكن ، وأخذ الفتق يتسع على الراقع ، وبق الذنب واستؤصل الرأس ، وتصدع البناء بعد أن وهن منه الأساس ، وتلك الأيام نداولها بين الناس « أحمد يوسف نجاتى » . (١) فى بعض النسخ « من لواحق » بدل « فى مواقع ».

غَارٍ وَلَا شَكَا . وَسَالَتْ مِنَ ٱلنَّدِ ٱلْأَبَاطِحُ بِالِاعْتِرَافِ[١] ، وَسَمَتِ ٱلْهَوَادِي إِلَى ٱلِاسْتِشْرَافِ[٢] ، وَأَخَذَ ٱلتَّرْتِيبُ حَقَّهُ مِنَ ٱلْمَوَاسِطِ ٱلْهَادِيَةِ وَٱلْأَطْرَافِ ، وَأُحْكِمَتِ ٱلتَّعْبِيَةُ ٱلَّتِي لَا تَرَى ٱلْعَيْنُ فِيهَا خَلَلًا ، وَلَا يَجِدُ ٱلِاعْتِبَارُ عِنْدَهَا دَخَلًا[٣] ، وَكَانَ ٱلنُّزُولُ عَلَى فَرْسَخٍ مِنْ عُدْوَةِ ٱلنَّهْرِ ٱلْأَعْظَمِ مِنْ خَارِجِ ٱلْمَدِينَةِ — أَنْجَزَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَعْدَ دَمَارِهَا ، وَأَعَادَهَا إِلَى عَهْدِهَا فِي ٱلْإِسْلَامِ وَشِعَارِهَا ، وَمَحَا ظَلَامَ ٱلْكُفْرِ مِنْ آفَاقِهَا بِمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَنْوَارِهَا — وَقَدْ بَرَزَتْ مِنْ حَامِيَتِهَا

(١) كذا بالأصل ويجوز أن يكون محرفا عن « الأعراف » جمع عرف وهو في الأصل شعر عنق الفرس ، وقيل هو منبت الشعر والريش من العنق ، واستعمله الأصمعي في الانسان فقال : جاء فلان مبرئلا للشر أي نافشا عرفه — يريد كاتب الرسالة أن الوادي قد غص بالخيل والفرسان ، وهو من قول الأول : وسالت بأعناق المطي الأباطح . « أحمد يوسف نجاتي »

(٢) الهادي : المتقدم من كل شيء ، وبه سمي العنق هاديا لتقدمه على سائر البدن ، وجمعه الهوادي — يقال أقبلت هوادي الخيل اذا بدت أعناقها ، والهوادي من الابل : أول رعيل يطلع منها لأنها المتقدمة — واستشرف الشيء اذا رفع بصره اليه وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس يتأمل وينظر (٣) أي عيبا وفسادا وقد تكون « الاعتبار » محرفة عن « الاختيار » « أحمد يوسف نجاتي »

شَوْكَةٌ(١) سَابِغَةُ الدُّرُوعِ ، وَافِرَةُ الْجُمُوعِ ، وَاسْتَجَنَّتْ مِنْ أَسْوَارِ الْقَنْطَرَةِ الْعُظْمَى بِحِمًى لَا يُخْفَرُ(٢) ، وَأَخَذَ عِقَابَهَا(٣) مِنَ الْحُمَاةِ وَالْكُمَاةِ الْعَدَدُ الْأَوْفَرُ ، فَبَادَرَ إِلَيْهِمْ سُرْعَانُ(٤) خَيْلِ الْمُسْلِمِينَ فَصَدَقُوهُمُ الدِّفَاعَ وَالْقِرَاعَ ، وَالْمِصَالَ وَالْمِصَاعَ(٥) ، وَخَالَطُوهُمْ ضَرْبًا بِالسُّيُوفِ ، وَمُبَاكَرَةً بِالْحُتُوفِ ، فَتَرَكُوهُمْ حَصِيدًا ، وَأَذَاقُوهُمْ وَبَالًا شَدِيدًا ، وَجَدَّلُوا مِنْهُمْ جُمْلَةً وَافِرَةً ، وَأُمَّةً كَافِرَةً ، وَمَلَكُوا بَعْضَ تِلْكَ الْأَسْوَارِ فَارْتَفَعَتْ بِهَا رَايَاتُهُمُ الْخَافِقَةُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهَا عَزَمَاتُهُمُ الصَّادِقَةُ ، وَاقْتَحَمَ الْمُسْلِمُونَ الْوَادِيَ سَبْحًا(٦) فِي غَمْرِهِ ، وَاسْتِهَانَةً فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْرِهِ ، وَخَالَطُوا

---

(١) الشوكة : السلاح ، وحدته ، والقوة (٢) أخفر الذمة اذا لم يف بها وانتهكها — وأخفر الرجل : نقض عهده وذمامه ، واستجن : استتر واتقى . وفى الأصل استحمت وهو تحريف عن استجنت واحتمت (٣) كذا بالأصل ، ولعله جمع عقبة يريد بها الأماكن الصعبة — وفى بعض المراجع « وأخذ أعقابها بها » (٤) جمع سريع . (٥) صال على قرنه سطا وحمل عليه ، — وماصعه مماصعة ومصاعا : قاتله وجالده بالسيف وصاع الشجاع أقرانه وغيرهم صوعا ، ومصاعا اذا جاءهم من نواحيهم وحازهم وجمعهم من كل ناحية — وصاع القوم : حمل بعضهم على بعض (٦) كانت فى الأصل « سبيا » وأرى أن تكون محرفة عن « سبحا » كما يدل

حَامِيَةَ ٱلْعَدُوِّ فِي صَفْتِهِ فَاقْتَلَعُوهَا ، وَتَسَلَّقُوا بِأَوَائِلِ ٱلْأَسْوَارِ فَفَرَعُوهَا[١] ، فَلَوْ كُنَّا فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ عَلَى عَزْمٍ مِنَ ٱلْقِتَالِ ، وَتَيْسِيرِ ٱلْآلَاتِ وَتَرْتِيبِ ٱلرِّجَالِ ، لَدُخِلَ ٱلْبَلَدُ ، وَمُلِكَ ٱلْأَهْلُ وَٱلْوَلَدُ ، لَكِنْ أَجَارَ ٱلْكُفَّارَ مِنَ ٱللَّيْلِ كَافِرٌ[٢] ، وَقَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ عَدَدٌ وَافِرٌ ، وَرَجَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَى مَحَلَّاتِهِمْ وَنَصْرُ ٱللهِ سَافِرٌ ، وَٱلْعَزْمُ ظَافِرٌ . وَمِنَ ٱلْغَدِ خُضْنَا ٱلْبَحْرَ ٱلَّذِي جَعَلْنَا ٱلْعَزْمَ فِيهِ سَفِينًا ، وَٱلتَّوَكُّلَ عَلَى ٱللهِ لِلْبَلَاغِ ضَمِينًا ، وَنَزَلْنَا مِنْ صِفَةِ[٣] ٱلْقَوِيِّ ٱلْعَزِيزِ مَنْزِلًا عَزِيزًا مَكِينًا ، بِحَيْثُ يُجَاوِزُ سُورَهَا طُنُبُ[٤] ٱلْقِبَابِ ، وَتُصِيبُ دُورَهَا مِنْ بَيْنِ ٱلْخِيمَاتِ بَوَارِقُ ٱلنُّشَّابِ ، وَبَرَزَتْ حَامِيَتُهَا عَلَى مُتَعَدِّدَاتِ ٱلْأَبْوَابِ ، مُقِيمَةً أَسْوَاقَ ٱلطِّعَانِ وَٱلضِّرَابِ ، فَآبَتْ بِصَفْقَةِ

عليه السياق ويقتضيه المعنى « أحمد يوسف نجاتى » (١) أى علوها (٢) أى ساتر وفيه تورية ، والكافر : الليل لأنه يستر بظلامه كل شيء — ومن لطائف البها زهير مخاطبا الليل :

لى فيك أجر مجاهد ان صح أن الليل كافر

(٣) كذا بالأصل ، وفى بعض المراجع « من صفته القوى » بدل من صفة القوى العزيز ، وهذا ظاهر واضح (٤) الطنب : حبل يشد به الخباء والسرادق . ويصح أن يكون « يجاوز » محرفة عن يطاول — وفى بعض المراجع « ونزلنا من صفة القوى منزلا » الخ

ٱلْخُسْرِ وَٱلتَّبَابِ (١) . وَلَمَّا شَرَعْنَا فِي قِتَالِهَا ، وَرَتَّبْنَا أَشْتَاتَ (٢) ٱلنِّكَايَاتِ لِنَكَالِهَا ـ وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَبْقَ عَلَى مُطَاوَلَةِ نِزَالِهَا ـ أَنْزَلَ ٱللهُ ٱلْمَطَرَ ٱلَّذِي قَدُمَ بِمِهَادِهِ ٱلْعَهْدُ ، وَسَاوَى ٱلنَّجْدَ مِنْ طُوفَانِهِ ٱلْوَهْدُ ، وَعَظُمَ بِهِ ٱلْجَهْدُ ، وَوَقَعَ ٱلْإِبْقَاءُ عَلَى ٱلسِّلَاحِ ، وَٱلْكَفُّ بِالضَّرُورَةِ عَنِ ٱلْكِفَاحِ ، وَبَلَغَ ٱلْمُقَامُ عَلَيْهَا ، وَٱلْأَخْذُ بِمُخَنَّقِهَا وَٱلثَّوَاءُ (٣) لَدَيْهَا ، خَمْسَةَ أَيَّامٍ لَمْ تَخْلُ فِيهَا ٱلْأَسْوَارُ مِنَ ٱفْتِرَاعٍ (٤) ، وَلَا ٱلْأَبْوَابُ مِنْ دِفَاعٍ عَلَيْهَا وَقِرَاعٍ ، وَأَنْفَذَتْ مَقَاتِلُ ٱلسِّتَارِ أَنْقَابًا (٥) ، وَٱرْتُقِبَ ٱلْفَتْحُ ٱلْمَوْعُودُ ٱرْتِقَابًا ، وَفَشَتْ فِي أَهْلِهَا ٱلْجِرَاحُ ، وَٱلْمَيِّتُ ٱلصُّرَاحُ ، وَسَاءَهُمُ ٱلْمَسَاءُ بِعِزَّةِ ٱللهِ وَٱلصَّبَاحُ (٦) ، وَلَوْلَا

(١) أى الهلاك والنقص والخسار المؤدى الى التهلكة (٢) أى الكثير المختلف ونكى العدو نكاية اذا أصاب منه وقتل فيه وجرح فوهن لذلك ، والنكال : العقاب ، ومايصير به المرء عبرة لغيره (٣) أى الاقامة (٤) من فرع الرجل فى الجبل « كمنع » اذا صعد وعلا. وفى الأصل « افتراع » ولعله من الفرع وهو الشق والطرق (٥) فى هذه الجملة قلق ولا بد أنها محرفة، وقد يكون أصلها « وأنفذت المقاتلة فى الأسوار أنقابا » أو نحو ذلك ، فتأمل حتى تهتدى الى تحريرها ـ والنقب هو الثقب « الخرق النافذ » وجمعه أنقاب ونقاب ـ والنقب : الطريق فى الجبل (٦) من قوله تعالى : « فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » .

عَائِقُ ٱلْمَطَرِ لَكَانَ ٱلْإِجْهَازُ وَٱلِاسْتِفْتَاحُ، وَٱللهُ بَعْدَهَا ٱلْفَتَّاحُ.
وَصُرِفَتِ ٱلْوُجُوهُ إِلَى تَخْرِيبِ ٱلْعُمْرَانِ، وَتَسْلِيطِ ٱلنِّيرَانِ، وَعَقْرِ ٱلْأَشْجَارِ، وَتَنْفِيَةِ ٱلْآثَارِ، وَأَتَى مِنْهَا ٱلْعَفَاءُ عَلَى ٱلْمِصْرِ ٱلشَّهِيرِ فِي ٱلْأَمْصَارِ، وَتُرِكَتْ زُرُوعُهَا ٱلْمَائِجَةُ(١) عِبْرَةً لِلْأَبْصَارِ. وَرَحَلْنَا عَنْهَا وَقَدْ أَلْبَسَهَا ٱلدُّخَانُ حِدَادًا، وَنَكَّسَ مِنْ طُغَاتِهَا أَجْيَادًا، فَاعْتَادَتِ ٱلذُّلَّ ٱعْتِيَادًا، وَأَلِفَتِ ٱلْهُونَ قِيَادًا، وَكَادَتْ أَنْ تُسْتَبَاحَ عَنْوَةً لَوْلَا أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهَا مِيعَادًا، وَأَتَى ٱلْقَتْلُ مِنْ أَبْطَالِهَا، وَمَشَاهِيرِ رِجَالِهَا، مِمَّنْ يُبَارِزُ وَيُنَاطِحُ(٢)، وَيُمَاسِي بِالنَّاسِ وَيُصَابِحُ، عَلَى عَدَدٍ جَمٍّ أَخْبَرَتْ سِيمَاهُمُ ٱلْمَشْهُورَةُ بِأَسْمَائِهِمْ، وَنَبَّهَتْ عَلَامَاتُهُمْ عَلَى نُبَهَائِهِمْ(٣)، وَظَهَرَ إِقْدَامُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي

---

(١) كذا بالأصل – ولعله محرف عن «المائجة» من هاج النبت اذا يبس واصفر وطال، ومنه قوله تعالى: «ثم يهيج فتراه مصفرا» – أو «المائجة» أى المضطربة، والأول أولى وأظهر (٢) يقال مجازا: تناطحت الرجال فى الحرب، وبينهما نطاح، وتطحه عنه: دفعه وأزاله – وقد تكون «يناضح» يقال ناضح عنه ونضح: اذا ذب ودفع، ونافح وكافح كذلك
(٣) وفى بعض النسخ «ونبهت علاماتها على نبهائهم» «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْمُعْتَرَكَاتِ، وَبُرُوزُهُمْ (١) بِالْحُدُودِ ٱلْمُشْتَرَكَاتِ، وَتَنْفِيلُهُمُ ٱلْأَسْلَابَ، وَقَوْدُهُمُ ٱلْخَيْلَ ٱلْمُسَوَّمَةَ قَوْدَ ٱلْنِّـلَابِ (٢)، وَكَانَ ٱلْقُفُولُ، وَقَدْ شَمِلَ ٱلْأَمْنُ وَٱلْقَبُولُ، وَحَصَلَ ٱلْجِهَادُ ٱلْمَقْبُولُ، وَرَاعَ ٱلْكُفْرَ ٱلْعِزُّ (٣) ٱلَّذِي يَهُولُ، وَٱلْإِقْدَامُ ٱلَّذِي شَهِدَتْ بِهِ ٱلرِّمَاحُ وَٱلْخُيُولُ، وَخَاضَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ زَرْعِ (٤) ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي رَكِبُوهَا، وَٱلْمَنَازِلِ ٱلَّتِي ٱسْتَبَاحُوهَا وَٱنْتَهَبُوهَا، بُحُورًا بَعُدَ مِنْهَا ٱلسَّاحِلُ، وَفَلَاحَةً مُدْرِكَةً (٥) تَتَعَدَّدُ فِيهَا ٱلْمَرَاحِلُ، فَصَيَّرُوهَا صَرِيمًا (٦)، وَسَلَّطُوا عَلَيْهَا ٱلنَّارَ غَرِيمًا، وَحَلُّوا بِظَاهِرِ حِصْنِ أَنْدُجَرَ (٧) وَقَدْ

(١) وفى بعض المراجع « وبذرهم » (٢) القهر والغلب (٣) قد تكون محرفة عن « الغزو » (٤) فى الأصل « ذرع » والأولى ماذكرناه (٥) فى الأصل « مووكة » وهو تحريف، وأدرك الزرع: نضج وآتى أكله، وأدركت الثمار اذا بلغت أناها وانتهى نضجها (٦) من صرم الشىء اذا قطعه، والصريمة: الأرض المحصود زرعها، والصريم: الجدد المقطوع، وبه فسر قوله تعالى: « فأصبحت كالصريم » أى كأنها صرمت وصارت كالشىء المصروم الذى ذهب مافيه، والصريم: الكدس المصروم من الزرع، ونخل صريم أى مصروم مقطوع، وقوله تعالى: « ان كنتم صارمين » أى عازمين على صرم النخل (٧) حصن بقرب قرطبة، ويقال فيه « أندوشر » وأندوجر، منه أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن سليمان اليحصبى الأندوجرى القروى الأديب

أَصْبَحَ مَأْلَفَ أَذْمَارٍ غَيْرِ أَوْشَابٍ (١) ، وَوَكْرَ طَيْرٍ نُشَّابٍ (٢) ، فَلَمَّا بَلَوْنَا مِرَاسَهُ صَعْبًا ، وَأَبْرَاجَهُ « مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا » ، ضَنِنَّا بِالنُّفُوسِ أَنْ تَفِيضَ دُونَ ٱفْتِتَاحِهِ ، فَسَلَّطْنَا ٱلْفَنَاءَ عَلَى سَاحِهِ ، وَأَغْرَيْنَا ٱلْغَارَاتِ بِاسْتِيعَابِ مَا بِأَحْوَازِهِ وَٱكْتِسَاحِهِ ، وَسَلَّطْنَا ٱلنَّارَ عَلَى حُزُونِهِ وَبِطَاحِهِ (٣) ، وَأَلْصَقْنَا بِالرَّغَامِ (٤) ذَوَائِبَ أَدْوَاحِهِ ، وَٱنْصَرَفْنَا بِفَضْلِ ٱللهِ وَٱلْمَنَاجِلُ دَامِيَةٌ ، وَٱلْأُجُورُ نَامِيَةٌ ، وَقَدْ وَطِئْنَا ٱلْمَوَاطِئَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَى ٱلْمُلُوكِ قَبْلَنَا بَسْلًا (٥) ، وَلَمْ تَتْرُكْ بِهَا

توفى بعد سنة ٥٥٠ — وينسب اليه أيضا أبو محمد عبد الله بن عبيد الله التجيبي الزاهد من أهل قرطبة ويعرف بالأندوجرى لأن أصله منها كان رجلا صالحا مواظبا على العبادة يشار اليه باجابة الدعوة توفى سنة ٥٨٥

(١) أذمار جمع ذمر أى شجاع مدافع . والأوشاب هم أوباش الناس وأخلاطهم، والرعاع منهم « يريد وصف حماة الحصن بالقوة وشدة المراس ، وصدق القراع » والعبارة فى الأصل محرفة بزوال النقط من أذمار وغير

(٢) النشاب : النبل واحده نشابة — شبهه بالطير وجعل الحصن وكرا له

(٣) الحزون: جمع حزن وهو ماغلظ من الأرض فى ارتفاع ، والبطاح: جمع أبطح أو بطيحة وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصا لاينبت شيئا. وفى الأصل «خرونه » بدل حزونه (٤) أى التراب ، والجملة كناية عن قطع الأشجار واستئصالها وجعل عاليها سافلها فكأنه أذلها وأرغمها (٥) البسل: الحرام الممتنع

حَرْثًا[١] يُرْفِدُ وَلَا نَسْلًا ، وَلَا ضَرْعًا يُرْسِلُ رِسْلًا[٢] ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى يَتِمُّ النَّعِيمُ بِحَمْدِهِ ، وَنَسْأَلُهُ صِلَةَ[٣] النَّصْرِ فَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ . عَرَّفْنَاكُمْ بِهَذِهِ الْمُكَيَّفَاتِ الْكَرِيمَةِ الصِّفَاتِ ، وَالصَّنَائِعِ الرَّوَائِعِ الَّتِى بَعُدَ الْعَهْدُ بِمِثْلِهَا فِى هَذِهِ الْأَوْقَاتِ ، عِلْمًا بِأَنَّهَا لَدَيْكُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْهَدِيَّاتِ الْوُدِّيَّاتِ ، وَلِمَا نَعْلَمُهُ لَدَيْكُمْ مِنْ حُسْنِ النِّيَّاتِ وَكَرَمِ الطَّوِيَّاتِ ، فَإِنَّكُمْ سُلَالَةُ الْجِهَادِ الْمَقْبُولِ ، وَالرِّفْدِ الْمَبْذُولِ ، وَوَعْدُ النَّصْرِ الْمَفْعُولِ . وَنَرْجُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْتَقِلَ خَيَالُكُمْ لِلْمَشَاهِدِ الْجِهَادِيَّةِ ، إِلَى الْمُعَايَنَةِ فِى نَصْرِ[٤] الْمِلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَأَنْ يَجْمَعَ اللَّهُ بِكُمْ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ ، عَلَى عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ ، وَيُتِمَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْأَنَامِ . وَوُدُّنَا لَكُمْ مَا عَلِمْتُمْ يَزِيدُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَاللَّهُ يَجْعَلُهُ فِى ذَاتِهِ لَكُمْ مُتَّصِلَ الدَّوَامِ ، مُبَلِّغًا إِلَى دَارِ

(١) فى الأصل « حرفا » وهو تحريف – والحرث الزرع – ويرفد أى يعطى ويعين – وهو يشير الى قوله تعالى : « يهلك الحرث والنسل »

(٢) الرسل اللبن . وأراد بالضرع ذوات الضرع من الحيوان ذى اللبن

(٣) اى اتصال ودوام ، وفى الأصل « حله » (٤) فى الأصل « ونصر »

ٱلسَّلامِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدَكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، وَيُضَاعِفُ ٱلْآلَاءَ عِنْدَكُمْ ، وَٱلسَّلَامُ ٱلْكَرِيمُ يَصْحَبُكُمْ«[1] وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ . ٱنْتَهَى .

⁂

كتاب لسان الدين

« وَمِنْ هَـٰذَا ٱلْمَنْحَى » مَا كَتَبَ بِهِ لِسَانُ ٱلدِّينِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ عَنْ سُلْطَانِهِ ، وَنَصُّهُ : ٱلْمَقَامُ ٱلَّذِي أَحَادِيثُ سَعَادَتِهِ لَا تُمَلُّ عَلَى ٱلْإِعَادَةِ وَٱلتَّكْرَارِ ، وَسَبِيلُ مَجَادَتِهِ ٱلشَّهِيرَةِ أَوْضَحُ مِنْ شَمْسِ ٱلظَّهِيرَةِ عِنْدَ ٱلِاسْتِظْهَارِ ، وَأَخْبَارُ صَنَائِعِ ٱللهِ لِمُلْكِهِ ، وَنَظْمُ فَرَائِدِ ٱلْآمَالِ فِي سِلْكِهِ ، تُخَلِّدُهَا أَقْلَامُ ٱلْأَقْدَارِ ، بِمِدَادِ ٱللَّيْلِ فِي قِرْطَاسِ ٱلنَّهَارِ ، وَتَرْسُمُهَا بِتَذْهِيبِ ٱلْأَشْفَارِ[2] فِي صَفَحَاتِ ٱلْأَقْمَارِ ،

---

(١) أو « يصحبكم » (٢) « الأشفار » جمع شفرة أي السكين العظيم ، وما عرض من الحديد وحدد ، والشفرة : جانب النصل ، وحد السيف ــ وفي الأصل « الأسفار » ولا بأس بها ولكن اخترنا « الأشفار » لعدم التكرار مع الأسفار بعد ، الا اذا راعى الجناس فيكون الأسفار الأولى جمع سفر أي كتاب والثانية جمع سفر » ولأن المعنى عليها أبلغ فانه يريد وصف الممدوح بالجهاد وأنه يخلد مآثره بحد سيفه ، وأن أقلام الأقدار ترسمها بأسنة السيوف المذهبة على صفحات الكواكب « أحمد يوسف نجاتي »

وَتَجْعَلُهَا هِجِّيرَى[1] حُلَاءِ ٱلْأَسْفَارِ وَحُدَاةِ ٱلْقِطَارِ فِي مَسَالِكِ[2]
ٱلْأَقْطَارِ ، مَقَامَ مَحَلِّ أَخِينَا ٱلَّذِي تَقَدَّمَ عَادَةُ هَنَائِهِ مَعَ ٱلْإِعَادَةِ ،
وَتَتَلَقَّى أَنْبَاءَ عَلَائِهِ بِٱلْإِذَاعَةِ وَٱلْإِشَادَةِ[3] ، وَتُطَرِّزُ بِأَعْلَامِ
ثَنَائِهِ صَحَائِفَ ٱلْمَجَادَةِ ، وَنَشْكُرُ ٱللَّهَ أَنْ وَهَبَ لَنَا مِنْ
أُخُوَّتِهِ ٱلْمُضَافَةِ إِلَى ٱلْمَحَبَّةِ وَٱلْوَدَادَةِ ، مَا يَرْجَحُ[4]
فِي مِيزَانِ ٱلِاعْتِبَارِ أُخُوَّةَ ٱلْوِلَادَةِ ، وَعَرَّفَنَا بِيُمْنِ وِلَايَتِهِ
عَوَارِفَ ٱلسَّعَادَةِ ، ٱلسُّلْطَانُ ٱلْكَذَا ٱبْنُ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْكَذَا
ٱبْنِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْكَذَا ، أَبْقَاهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فِي أَعْلَامِ ٱلْمُلْكِ
ٱلسَّعِيدِ بَيْتَ ٱلْقَصِيدِ وَوُسْطَى ٱلْقِلَادَةِ ، وَمَجْلَى ٱلْكَمَالِ
ٱلَّذِي تَبَارَى[5] بِعَيْدَانِ بَأْسِهِ وَجُودِهِ جِنْسَا ٱلْإِبَادَةِ وَٱلْإِفَادَةِ ،

(١) أى دأب وعادة ، وهجيرى الرجل : كلامه الذى صار شأنه وعادته
(٢) « الحلاء » جمع حميل أى غريب ، والأسفار جمع سفر ، وقد تكون حلاء محرفة عن « حملة » ان أريد بالأسفار الكتب . والحداة : جمع الحادى أى السائق ، والقطار : ما قطر من الابل أى قرب بعضها الى بعض على نسق ، يقال جاءت الابل قطارا قطارا أى مقطورة . والجمع قطر ، وقطرات — والأقطار : جمع قطر ، وهو الناحية والجانب : يقول ان هذه الأخبار يترنم بها الغرباء فى أسفارهم ، ويحدو بها الركبان ركائبهم فى كل أقطارهم — ولا يخفى ما فى العبارة من التكلف (٣) أشاد بذكره اذا شهره ورفعه (٤) رجحه : اذا زاد عليه ووفاه (٥) فى الأصل « بارى » والتى مع « تبارى » واضح » وفى العبارة لف ونشر مرتب « أحمد يوسف نجاتى »

وَلَا زَالَتْ آمَالُهُ الْقَاصِيَةُ تَمْتَثِلُ طَوْعَ الْإِرَادَةِ ، وَيُمْنُ نَقِيبَتِهِ(١) يَجْمَعُ مِنْ أَشْتَاتِ الْفُتُوحِ وَالْعِزِّ الْمَمْنُوحِ بَيْنَ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٍ . مُعَظَّمُ سُلْطَانِهِ الْعَالِي ، الْمُثْنِي عَلَى مَجْدِهِ الْمَرْفُوعِ إِسْنَادُهُ فِي عَوَالِي الْمَعَالِي(٢) ، الْمَسْرُورُ بِمَا يُسَنِّيهِ(٣) اللهُ لَهُ مِنَ الصُّنْعِ الْمُتَوَالِي ، وَالْفَتْحِ الْمُقَدَّمِ وَالتَّالِي ، أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَبْدُ اللهِ الْغَنِيُّ بِاللهِ مُحَمَّدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَجَّاجِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ ـ أَيَّدَ اللهُ أَمْرَهُ ، وَأَسْعَدَ نَصْرَهُ(٤) ـ سَلَامٌ كَرِيمٌ يَتَأَرَّجُ فِي الْآفَاقِ شَذَا طِيبِهِ ، وَتُسْمَعُ فِي ذِرْوَةِ الْوُدِّ بَلَاغَةُ خَطِيبِهِ ، وَيَتَضَمَّنُ نُورَهُ سَوَادُ الْمِدَادِ(٥) عِنْدَ مُرَاسَلَةِ الْوِدَادِ

(١) اليمن : البركة ، والنقيبة : النفس والحظ والطبيعة ، ورجل ميمون النقيبة أى مبارك النفس مظفر بما يحاول ، منجح الفعال محمود المختبر .

(٢) فى العبارة توجيه من مصطلح الحديث ، والاسناد فى الحديث : رفعه الى قائله ، والحديث المسند : ما اتصل اسناده حتى يسند الى النبي صلى الله عليه وسلم ـ والمرسل والمنقطع : ما لم يتصل ـ ويقولون : الأسانيد قوائم الأحاديث ـ والمقدم والتالى من اصطلاحات المناطقة (٣) أى يجعله سنيا جزيلا شريفا ، وأسنى له الجائزة : رفعها ـ وسنى الله له الأمر تسنية سهله وفتح وجوهه وهيأ أسبابه (٤) فى بعض النسخ « عصره »(٥) تقدم شرح مثل هذا المعنى من أن العاتق لحسنها تجعل سواد المداد مشرقا وظلامه منيرا وهو من تجسيم العاتق كما تقدم « أحمد يوسف نجاتى »

فَيَكَادُ يَذْهَبُ بِبُؤْسِهِ ٱلْمَجْهُولِ وَتَقْطِيبِهِ ، وَرَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ ٱللَّهِ فَاتِحِ ٱلْأَبْوَابِ بِمَقَالِيدِ(١) ٱلْأَسْبَابِ مَهْمَا ٱسْتَصْعَبَتْ، وَمُيَسِّرِ ٱلْأُمُورِ بِحُكْمِ ٱلْمَقْدُورِ إِذَا أَجْهَدَتِ ٱلْحِيَلُ وَأَتْعَبَتْ، مُخْمِدِ نِيرَانِ ٱلْفِتْنَةِ مَا ٱلْتَهَبَتْ ، وَجَامِعِ كَلِمَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَقَدْ تَصَدَّعَتْ وَتَشَعَّبَتْ ، وَمُسَكِّنِ رَجَفَانِ ٱلْأَرْضِ بَعْدَمَا ٱضْطَرَبَتْ ، وَمُحْيِيهَا بِعِهَادِ ٱلرَّحْمَةِ مَهْمَا ٱهْتَزَّتْ(٢) وَرَبَتْ ، ٱللَّطِيفِ ٱلْخَبِيرِ ٱلَّذِي قَدَّرَتْ حِكْمَتُهُ ٱلْأُمُورَ وَرَتَّبَتْ ، مُنْهِي(٣) كُلُّ نَفْسٍ إِلَى مَا خَطَّتِ ٱلْأَقْلَامُ عَلَيْهَا وَكَتَبَتْ وَنَفَتْ وَأَوْجَبَتْ، شَاءَتْ أَوْ أَبَتْ ، وَمُجَازِيهَا يَوْمَ ٱلْعَرْضِ بِمَا كَسَبَتْ . وَٱلصَّلَاةِ وَٱلسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ هَازِمِ ٱلْأَحْزَابِ لَمَّا تَأَلَّفَتْ وَتَأَلَّبَتْ ، وَجَالِبِ ٱلْحَتْفِ إِلَيْهَا عِنْدَمَا أَجْلَبَتْ ، رَسُولِ ٱلْمَلْحَمَةِ إِذَا ٱللُّيُوثُ وَثَبَتْ ، وَنَبِيِّ ٱلرَّحْمَةِ ٱلَّتِي هَيَّأَتِ ٱلنَّجَاةَ وَسَبَّبَتْ وَأَبْلَغَتِ ٱلنُّفُوسَ ٱلْمُطْمَئِنَّةَ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ مَا طَلَبَتْ ، وَمُدَاوِي

(١) جمع مقلاد وهو المفتاح ، ومثله الأقاليد جمع أقليد (٢) ربت الأرض ربوا : عظمت وانتفخت (٣) أنهى الشيء : أبلغه وأوصله

ٱلْقُلُوبِ ٱلْمَرِيضَةِ وَقَدِ ٱنْتَـكَبَتْ[1] وَٱنْقَلَبَتْ ، بِلَطَائِفِهِ ٱلَّتِي رَاضَتْ وَهَذَّبَتْ ، وَقَادَتْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱلْعُلْيَا وَٱسْتَجْلَبَتْ ، وَأَدَّتْ عَنِ ٱللهِ وَأَدَّبَتْ ، ٱلَّذِي بِجَاهِهِ نَسْتَـكْشِفُ ٱلْغَمَّاءَ إِذَا أَطْنَبَتْ[2] ، وَنَسْتَوْكِفُ[3] ٱلنَّعْمَاءَ إِذَا أَخْلَفَتِ ٱلْبُرُوقُ وَكَذَبَتْ ، وَنَتَحَابُّ فِي طَاعَتِهِ ٱبْتِغَاءَ ٱلْوَسِيلَةِ إِلَى شَفَاعَتِهِ فَنَقُولُ وَجَبَتْ حَسْبَمَا ثَبَتَ[4] ، وَٱلرِّضَا عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَحْزَابِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَحَقَّتِ ٱلْمَزِيَّةَ ٱلْمَرْضِيَّةَ وَٱسْتَوْجَبَتْ ، لَمَّا ٱنْتَمَتْ إِلَى كَمَالِهِ وَٱنْتَسَبَتْ ، وَبِبَذْلِ نُفُوسِهَا فِي ٱللهِ وَمَرْضَاتِهِ تَقَرَّبَتْ ، وَإِلَى نُصْرَتِهِ فِي حَيَاتِهِ ٱنْتَدَبَتْ[5] وَٱلْمَنَاصِلُ قَدْ رَوِيَتْ مِنْ دِمَاءِ ٱلْأَعْدَاءِ وَٱخْتَضَبَتْ[6]

(١) قد تكون محرفة عن « انتكست » أو « تنكبت » أي عدلت عن سواء الصراط وطريق الصواب وتنحت عن قصد السبيل (٢) أي حلت وضربت أطنابها مقيمة (٣) أي نطلب من الله أن تكون واكفة هاطلة (٤) اشارة الى معنى الحديث القدسي : وجبت الجنة — أو الشفاعة — للمتحابين في طاعة الله (٥) ندبه الى الامر « كنصر » دعاه وحثه ، والندب أن يندب انسان قوما الى أمر أو حرب أو معونة » أي يدعوهم اليه فينتدبون « أي يجيبون ويسارعون (٦) ويصح أن تكون « واختضبت »

وَخَلَفَتْهُ فِي أُمَّتِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ بِالْهِمَمِ ٱلَّتِي عَنْ صِدْقِ ٱلْيَقِينِ أَعْرَبَتْ، فَتَدَاعَتْ لِمُجَاهَدَةِ ٱلْكُفَّارِ وَٱنْتَدَبَتْ(١)، وَأَبْعَدَتِ ٱلْمُغَارَ وَأَدْرَبَتْ(٢) حَتَّى بَلَغَ مُلْكُ أُمَّتِهِ أَقَاصِيَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي نَبَتْ(٣)، فَكَسَّرَتِ ٱلصُّلُبَ ٱلَّتِي نُصِبَتْ، وَنَفَّلَتِ ٱلتِّيجَانَ ٱلَّتِي عُصِبَتْ(٤) مَا هَمَتِ ٱلسُّحُبُ وَٱنْسَحَبَتْ، وَطَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَغَرَبَتْ. وَٱلدُّعَاءُ لِمَثَابَتِكُمُ ٱلْعُلْيَا بِالنَّصْرِ ٱلْعَزِيزِ كُلَّمَا جُهِّزَتِ ٱلْكَتَائِبُ وَتَكَتَّبَتْ(٥)، وَٱلْفَتْحِ ٱلْمُبِينِ كُلَّمَا رَكَنَتْ عَقَائِلُ(٦) ٱلْقَوَاعِدِ إِذَا خُطِبَتْ، وَٱلصَّنَائِعِ

---

(١) ندبه الى أمر: وجهه اليه فانتدب له (٢) أدرب القوم اذا دخلوا أرض العدو ودر وبه من بلاد الروم: وكل مدخل الى الروم ضرب من درو بها، وأصل الدرب: المضيق في الجبال، والمغار: الاغارة (٣) نبت: بعدت (٤) عصب التاج وغيره: شده، والعصابة: التاج وما عصب به، وعصبه تعصيبا: شده – واعتصب التاج على رأسه اذا استكف به، والملك المعتصب والمعصب أى المتوج وفى الأصل «ونعلت» وهو تحريف فاسد، ونفل النفل أى الغنيمة وأنفله: اذا أعطاه، ونفل الامام الجند اذا جعل لهم ما غنموا. ويصح بناء «نفلت» للمجهول ورفع «التيجان» أى جعل الله تيجان الملوك أنفالا وغنيمة لهم (٥) أى اجتمعت (٦) العقيلة من النساء: الكريمة المخدرة النفيسة، هذا هو الأصل، ثم استعمل فى الكريم النفيس من كل شيء من الذوات والمعانى – يدعو له بالفتح المبين حين تخطب القواعد النفيسة والمدن الكريمة فتمتنع على غيره وتعز على سواه فيكون ركنت من الركن وهو العز والمنعة والقوة، أو الثبات والاقامة «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلَّتِي مَهْمَا حَدَّقَتْ فِيهَا ٱلْعُيُونُ تَعَجَّبَتْ ، أَوْجَالَتْ فِي لَطَائِفِهَا ٱلْأَفْكَارُ ٱسْتَطَابَتْ مَذَاقَ ٱلشُّكْرِ وَٱسْتَعْذَبَتْ ، حَتَّى تُنْجِزَ لَكُمْ مَوَاعِيدُ ٱلنَّصْرِ فَقَدِ ٱقْتَرَبَتْ . فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ ـ كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ أَغْيَا[1] مَا سَأَلَتِ ٱلْأَلْسُنُ ٱلسَّائِلَةُ وَٱسْتَوْعَبَتْ ـ مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ ـ حَرَسَهَا ٱللَّهُ تَعَالَى ـ وَجُنُودُ ٱللَّهِ بِفَضْلِ ٱللَّهِ تَعَالَى وَنِعْمَتِهِ قَدْ غَلَبَتْ ، وَفَتَحَتْ وَسَلَبَتْ ، وَأُسُودُ جِهَادِهِ قَدْ أَرْدَتِ ٱلْأَعْدَاءَ بَعْدَمَا كَلِبَتْ[2] وَمَرَاعِي ٱلْآمَالِ قَدْ أَخْصَبَتْ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَجْلُو[3] وُجُوهَ ٱلرِّضَا بَعْدَ مَا ٱحْتَجَبَتْ ، وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ ٱلْمَزِيدِ فَكُلَّمَا ٱسْتَقْبَلَهَا ٱلْأَمَلُ رَحَّبَتْ ، وَٱلشُّكْرُ لِلَّهِ شُكْرًا يُقَيِّدُ شَوَارِدَ ٱلنِّعَمِ مِمَّا أَبَقَتْ وَمَا هَرَبَتْ[4] . وَإِلَى هٰذَا وَصَلَ ٱللَّهُ لِمَقَامِكُمْ أَسْبَابَ ٱلظُّهُورِ وَٱلِاعْتِلَاءِ ، وَعَرَّفَكُمْ

(١) من غاية الشيء وهو منتهاه ، وأغيا الرجل بلغ الغاية فى الشرف والأمر ، وأغيا الفرس فى شبابه : بلغ الغاية والمدى ، وفى بعض النسخ « أغياء » ولعله جمع غاية (٢) الكلب الشدة ، والغضب والقوة ، وفى العبارة وصف خفى للأعداء بأنهم « كلاب » بالنسبة « للأسود » جنود الله (٣) يكشف ويظهر (٤) يشير الى معنى قوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » وقولهم الشكر قيد أوابد النعم النافرة ، وأبق أى هرب ونفر — وأبق العبد اذا ذهب بلا خوف ولا كد عمل — أو اذا استخفى ثم ذهب ، وفعله « كسمع وضرب » « أحمد يوسف نجاتى »

عَوَارِفَ ٱلْآلَاءِ عَلَى ٱلْوِلَاءِ(١)، فَإِنَّا لَمَّا وَرَدَ عَلَيْنَا كِتَابُكُمُ ٱلْبَرُّ ٱلْوِفَادَةِ، ٱلْجَمُّ ٱلْإِفَادَةِ، ٱلْجَامِعُ بَيْنَ ٱلْحُسْنَى وَزِيَادَةٍ، جَالِي غُرَّةِ ٱلْفَتْحِ ٱلْأَعْظَمِ مِنْ ثَنَايَا ٱلسَّعَادَةِ، وَوَاهِبُ ٱلْمِنَنِ ٱلْمُتَاحَةِ وَوَاصِفُ ٱلنِّعَمِ ٱلْمُعَادَةِ، فَوَقَفْنَا مِنْ رَقِّهِ ٱلْمَنْشُورِ عَلَى تُحَفٍ سَنِيَّةٍ، وَأَمَانِيَّ هَنِيَّةٍ، وَقِطَافٍ لِلنَّصْرِ جَنِيَّةٍ، ضَمِنَتْ سُكُونَ ٱلْبِلَادِ وَقَرَارَهَا، وَأَنَّ ٱللهَ قَدْ أَذْهَبَ ٱلْفِتَنَ وَأُوَارَهَا(٢)، وَأَخْمَدَ نَارَهَا، وَنَضَحَ(٣) عَنْ وَجْهِ ٱلْإِسْلَامِ عَارَهَا، وَجَمَعَ ٱلْأَهْوَاءَ عَلَى مَنْ هَوِيَتْهُ ٱلسَّعَادَةُ بَعْدَ أَنْ أَجْهَدَ ٱخْتِيَارَهَا، فَأَصْبَحَ ٱلشَّتِيتُ(٤) مُجْتَمِعًا وَجُنْحُ ٱلْجُنَاحِ مُرْتَفِعًا(٥) وَٱلْجَبَلُ ٱلْمُخَالِفُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا، وَأَصْحَبَ(٦) فِي ٱلْقِيَادِ مَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا، فَٱسْتَوْثَقَتْ(٧) ٱلطَّاعَةُ، وَتَبَحْبَحَتِ(٨) ٱلسُّنَّةُ وَٱلْجَمَاعَةُ، وَٱرْتَفَعَتِ ٱلشَّنَاعَةُ، وَتَمَسَّكَتِ ٱلْبِلَادُ

---

(١) أى التوالى والتتابع وعدم الانقطاع (٢) أى حرها وأذاها (٣) أى دفع وكشف وأزال (٤) أى المتفرق المختلف (٥) غاية ما يمكن أن يفهم من هذا التركيب المتكلف أنه يريد زوال الاثم الناشئ من الخلاف — فالجنح الجانب والناحية والظلام، والجناح: الاثم والجناية والجرم وما يحمل من الهم والأذى، ويصح أن تقرأ «وجنح الجناح» من فعل وفاعل أى مال وذهب وقد تكون الجناح، بفتح الجيم أى صعد طائراً قادراً قوة المسلمين (٦) أى انقاد وخضع وذل (٧) أو «فاستوسقت» (٨) لعلها محرفة عن «تبجحت» أى فرحت وافتخرت وتباهت «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْمُكْرَهَةُ بِأَذْيَالِ وَلِيِّهَا لَمَّا رَأَتْهُ ، وَعَادَتِ ٱلْأَجْيَادُ ٱلْعَاطِلَةُ إِلَى حُلِيِّهَا بَعْدَ مَا أَنْكَرَتْهُ ، أَجَلْنَا[1] جِيَادَ ٱلْأَقْلَامِ فِي مَلْعَبِ ٱلْهَنَاءِ وَمَيْدَانِهِ ، لِأَوَّلِ أَوْقَاتِ إِمْكَانِهِ ، عَلَى بُعْدِ مَكَانِهِ ، وَأَجْهَدْنَا عِبَارَةَ ٱلْكَلَامِ فِي إِجْلَالِ هَذَا ٱلصُّنْعِ وَتَعْظِيمِ شَانِهِ ، وَأَغْرَيْنَا ٱلثَّنَاءَ بِشِيَمِ مَجْدِكُمْ فِي شَرْحِهِ لَنَا وَبَيَانِهِ ، رَأَيْنَا أَلَّا نَكِلَ ذَلِكَ إِلَى ٱلْيَرَاعِ ، وَنُفْرِدَهُ فِيهِ بِالِاجْتِمَاعِ ، وَمَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ مُنَّةِ[2] ٱلْقِرَاعِ ، وَأَنْ نَشُدَّ بِرِدْءٍ[3] مِنَ ٱلْمُشَافَهَةِ أَزْرَهُ ، وَنَعْضُدَ بِمُبِينٍ[4] مِنَ ٱللِّسَانِ أَمْرَهُ ، فَعَيَّنَّا لِذَلِكَ مَنْ يُفَسِّرُ مِنْهُ ٱلْمُجْمَلَ ، وَيُمَهِّدُ ٱلْمَقْصِدَ ٱلْمُعْمَلَ ، حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ أَغْرَاضِ ٱلْبِرِّ ، وَٱلْعَلَنِ مِنْهُ وَٱلسِّرِّ ، وَيُقِيمَ شَتَّى ٱلْأَدِلَّةِ عَلَى ٱلْوِدَادِ ٱلْمُسْتَقِرِّ ، وَوَجَّهْنَا فِي غَرَضِ[5] ٱلرِّسَالَةِ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَأَخْتَرْنَا لِشَرْحِهِ بَيْنَ

(١) جواب لما المتقدم « فأننا لما ورد علينا الخ » (٢) المنة: القوة، والقراع: الطاقة والقدرة (٣) الردء : العون والناصر ، قال تعالى : « فأرسله معى ردءا يصدقني » وفلان ردء لفلان أى ينصره ويقوى ظهره ويشد عضده (٤) في بعض الرابع « بمعين » وهو مناسب للردء .(٥) أو « عرض »

يَدَيْكُمْ ، خَطِيبَ ٱلْوُفُودِ ، وَبَرَكَةَ ٱلْمَشَايِخِ فِي هَذَا ٱلْمَقَامِ ٱلْمَحْمُودِ ، ٱلشَّيْخَ ٱلْجَلِيلَ ٱلشَّهِيرَ ٱلْكَبِيرَ ٱلصَّالِحَ ٱلْفَاضِلَ أَبَا ٱلْبَرَكَاتِ ٱبْنَ ٱلْحَاجِّ(١) ــ وَصَلَ ٱللهُ حِفْظَهُ ، وَأَجْزَلَ مِنَ ٱلْحَمْدِ وَٱللُّطْفِ حَظَّهُ ــ ، وَهُوَ ٱلْبَطَلُ ٱلَّذِي لَا يُلْمُّ ٱلْإِجَالَةَ فِي ٱلْمَيْدَانِ ، وَلَا يُبَصَّرُ بِوَظَائِفِ ذَلِكَ ٱلشَّأْنِ(٢) ، وَمُرَادُنَا مِنْهُ أَنْ يُطِيلَ وَيُطِيبَ ، وَيُجِيلَ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِكُمُ ٱللِّسَانَ ٱلرَّطِيبَ(٣) ، وَيُقَرِّرَ مَا عِنْدَنَا لِمَقَامِكُمْ مِنَ ٱلتَّشَيُّعِ ٱلَّذِي قَامَ عَلَى ٱلْحُبِّ ٱلْمُتَوَارِثِ

---

(١) هو أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن موسى بن ابراهيم ابن عبد العزيز بن اسحق بن قاسم النميرى الغرناطى المعروف بابن الحاج من بيت رياسة ونبل ، كان جده الأدنى ابراهيم بن موسى رجلا خيرا فاضلا كتب للرؤساء من بنى اشقيلولة عند انفرادهم بوادى آش ، وكان والده عبد الله صدرا من صدور المستخدمين فى كبار الأعمال بغرناطة وغيرها . ونشأ ابن الحاج نشأة قومه دينا فاضلا أديبا كاتبا شاعرا ، وكان مولده سنة ٧١٣ وانتظم فى كتاب الانشاء لبنى الأحمر سنة ٧٣٤ وكان معدا للسفارة الى الملوك « وارتحل الى الشرق فأفاد منه علما وأدبا ، وله مؤلفات جمة ممتعة » وتوجه رسولا عن السلطان الى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسف بن عبد الرحيم بن يحيى بن زياد سنة ٧٦٨ « أحمد يوسف نجاتى »(٢) هذا فى معنى المثل : ان العوان لاتعلم الخمرة
(٣) كناية عن طلاقته وبلاغته وأن يرطب لسانه بالثناء على الملك

أَسَاسُهُ ، وَاطَّرَدَ حُكْمُهُ وَأُتْبِعَ قِيَاسُهُ ، وَلْيَجْعَلْ تِلْوَ مَقْصِدِ الْهَنَاءِ ، بِمَجْلِسِكُمُ الْبَاهِرِ السَّنَاءِ ، الصَّارِفِ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْغَنَاءِ ، وَجْهَ التَّهَمُّمِ (١) وَالِاعْتِنَاءِ ، عَلَى مَرِّ الْآنَاءِ ، مَا تَجَدَّدَ (٢) لَدَيْنَا مِنَ الْأَنْبَاءِ ، فِي جِهَادِ الْأَعْدَاءِ ، وَإِنْ كَانَ رَسُولُكُمْ ـ أَعَزَّهُ اللهُ تَعَالَى ـ قَدْ شَارَكَ فِي السُّرَى وَالسَّيْرِ ، وَغَنِيَ عَنِ الطَّيْرِ ، وَأَغْنَى فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْغَيْرِ ، فَلَا سَرَفَ فِي الْخَيْرِ . وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا انْصَرَفْنَا عَنْ مُنَازَلَةِ قُرْطُبَةَ نَظَرًا لِلْحُشُودِ الَّتِي تَفِدَتْ مُعَدَّاتُ أَزْوَادِهَا ، وَشَابَتْ بِهَشِيمِ الْغَلَّةِ الْمُسْتَغَلَّةِ (٣) مَفَارِقُ بِلَادِهَا وَإِشْفَاقًا لِفَسَادِ أَقْوَاتِهَا ، بِفَوَاتِ أَوْقَاتِهَا ، رَحَلْنَا عَنْهَا

---

(١) أى الاهتمام والعناية (٢) مفعول لقوله «وليجعل» ومفعوله الثانى مقدم وهو قوله « تلو » يعنى أنه يبدأ بمقام التهنئة ثم يثنى بالأخبار عن حديث الغزوة المنصورة ، وقوله «وجه التهمم» مفعول لاسم الفاعل قبله «الصارف إلى الجهاد»

(٣) أظنه يشير الى احراق الزروع والغلات فجعل ضوء النار شيبا لمفارق البلاد ـ وقد يجوز أن تكون « المستغلة » محرفة عن « المشتعلة » كقوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » ـ والهشيم : النبت اليابس المتكسر ، ومنه قوله تعالى : « فأصبح هشيما تذروه الرياح » ، واستغل الشيء اذا أخذ غلته « أحمد يوسف نجاتى »

وَقَدِ أنطَوَيْنَا مِنْ إِغْفَاءِ أَكْثَرِ تِلْكَ الزُّرُوعِ ، الْمَائِلَةِ الْفُرُوعِ ، الْهَائِلَةِ الرُّوعِ [1] ، عَلَى هَمٍّ مُمِضٍّ [2] ، وَأَسَفٍ لِلْمَضَاجِعِ مُقِضٍّ [3] ، إِذْ كَانَ عَاذِلُ الْمَطَرِ يَكُفُّ أَلْسِنَةَ النَّارِ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْتِهَابِهَا ، وَخَلَاقِ إِهَابِهَا [4] ، وَنَقْضِ أَغْوَارِهَا ، وَنَهْبِ شِوَارِهَا [5] ، وَإِذَاعَةِ أَسْرَارِهَا ، وَهِيَ الْبُحُورُ الْمُتَلَاطِمَةُ ، إِذَا حَطَمَتْهَا الرِّيَاحُ الْحَاطِمَةُ ، وَاللُّجَجُ الزَّاخِرَةُ ،

---

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن « الربوع » من راع الزرع والطعام وغيرهما يريع ريعا وريوعا ورياعا اذا نما وزاد ، وراعت الحنطة اذا زكت ونمت — فان أبى السجع الا الجناس ولزوم ما لا يلزم فلتكن محرفة عن « المروع » من أمرع الوادى ، ومرع اذا أخصب وأكلأ وأعشب فهو مرع (٢) أى مؤلم موجع (٣) أقض عليه المضجع خشن ونبا « من القضض وهو الحصا الصغار ، واذا كان فى الفراش قضض تحت جنب النائم لم يلق جفنه الغمض ، وبات يتقلب منه على مثل جمر الغضا (٤) خلق الأديم ونحوه اذا قدره ليقطعه ، وخلق الثوب بلى ، ولعل كلمة « خلاق » محرفة عن إخلاق وفى بعض النسخ « حلاق » يقال رأس جيد الحلاق ، ولعل ذلك أوضح ، يريد استئصال ما بها من الزرع كما يستأصل بجودة الحلاق شعر الرأس ، والاهاب الجلد (٥) الشوار : الحسن والجمال والهيئة واللباس والزينة والشوار « مثلثة » متاع البيت

إِذَا حَرَّكَتْهَا السَّوَافِي الْمَاخِرَةُ(١) ، تَوَدُّ الْعُيُونُ أَنْ تَتَحَدَّى(٢) حُدُودَهَا الْقَاصِيَةَ فَلَا تُطِيقُ ، وَالرَّكَائِبُ الرَّاكِضَةُ أَنْ تُشْرِفَ عَلَى غَايَاتِهَا فَيَفْضُلُ عَنْ مَرَاحِلِهَا الطَّرِيقُ ، قَدْ جَلَّلَهَا الرَّبِيعُ أَرْزَاقًا تَنُصُّ بِهَا الْخَزَائِنُ وَالْأَطْبَاقُ ، وَحُبُوبًا مُفَضَّلَةً لَا يَرْزَؤُهَا الْإِنْفَادُ وَالْإِنْفَاقُ ، وَلَوِ اعْتَصَبَتْ(٣) عَلَى انْتِسَافِهَا الْآفَاقُ ، فَخَفَقْنَا(٤) فِي سَبِيلِ اللهِ لِتَعْقِيبِ غَزْوِ تِلْكَ الْأَقْطَارِ الْمُخَالِفَةِ ، بِمَحْقِ الصَّائِفَةِ ، وَإِعَانَةِ تِلْكَ الطَّائِفَةِ ، بِكُلُومِ الْمَجَاعِ الْحَائِقَةِ(٥) خُفُوقًا لَمْ

---

(١) السافية : الريح تسف التراب أى تذروه وتحمله ـ والماخرة السفينة تستقبل الريح فى جريتها ، أو التى يسمع صوت جريها بالرياح ، ولذلك جعل الريح نفسها ماخرة لأنها سبب (٢) يصح أن تكون « تتعدى » أى تتجاوز (٣) فى الأصل «اعتصت» ورأينا أنها محرفة عن «اعتصبت» أى اجتمعت واتفقت عصبة واحدة (٤) فى الأصل «خفنا» وهو تحريف يدل عليه قوله بعد « خفوقا » الخ ـ وخفق القوم عن وطنهم خفوقا اذا ارتحلوا (٥) من تحيفه اذا تنقصه من حيفه أى من نواحيه ، ويظهر أنها محرفة عن « الجائفة » بالجيم ، والجائفة : طعنة نافذة تبلغ الجوف بقرينة « الكلوم » والمجاع أى المجاعة ، وقد تكون « اعانة » محرفة عن « اصابة » أو « احاقة » أى اهلاك ـ والمقام يساعد على الاصابة والاحاقة لا الاعانة « أحمد يوسف نجاتى »

تَمْنَعْ فِيهِ بِالاسْتِنَابَةِ ، حِرْصًا عَلَى اسْتِئْصَالِ الصُّبَابَةِ(١) ، وَأَعْفَيْنَا الرَّجْلَ(٢) مِنَ اتِّصَالِ الْكَدِّ ، وَقَابَلْنَا قَبُولَهُمْ عَلَى اسْتِصْحَابِنَا فِيهَا بِالرَّدِّ ، وَأَطْلَلْنَا عَلَى قُرْطُبَةَ بِحِلَّاتِنَا(٣) نَنْسِفُ الْجِبَالَ(٤) نَسْفًا ، وَنَعُمُّ الْأَرْضَ زِلْزَالًا وَخَسْفًا ، وَنَسْتَقْرِي مَوَاقِعَ الْبَذْرِ احْتِرَاقًا ، وَنَخْتَرِقُ أَجْوَابَهَا(٥) الْمُحْتَرِقَةَ بِحَبِّ الْحَصِيدِ احْتِرَاقًا ، وَنُسَلِّطُ عَلَيْهَا مِنْ شَرَرِ النَّارِ أَمْثَالَ الْجِمَالَاتِ الصُّفْرِ مَدَّتْ مِنَ الشُّوَاظِ أَعْنَاقًا ، وَنُوسِعُ الْقُرَى الْوَاسِعَةَ قَتْلًا وَاسْتِرْقَاقًا ، وَنُدِيرُ عَلَى مُسْتَدِيرِهَا كُؤُوسَ الْحُتُوفِ دِهَاقًا(٦) ، وَأَخَذَتِ النِّيرَانُ وَادِيَهَا الْأَعْظَمَ مِنْ كِلَا

---

(١) الصبابة البقية (٢) الكد التعب والسعي ، وفي الأصل « الرحل » وكأن السياق يدل على أنها محرفة عن الرجل بالجيم اسم جمع الرجل ، وهو من لم يكن له ظهر في السفر يركبه فمشى على قدميه ، وهم الشاة خلاف الفرسان (٣) الحلة منزل القوم ، ومحل السكان وبالمكان « كضرب ونصر » نزل به (٤) في بعض المراجع « تنسف جبال النعم » (٥) من جاب البلاد اذا قطعها واخترقها ، ولعلها محرفة عن أجرانها جمع جرن وهو للوضع الذي تجمع فيه الغلال ، وهي كلمة عربية يستعملها أهل مصر ويسمى « البيدر » كما يظهر أن « المحترقة » محرفة عن « المختزنة » فأصل الجملة « وتخترق أجرانها المختزنة » الخ وفي بعض المراجع « وتخترق أجوابها المتلفة » « أحمد يوسف نجاتي » (٦) الكأس الدهاق للمتلئة المترعة .

جَانِبَيْهِ حَتَّى كَأَنَّ الْقُيُونَ[١] أَحْمَتْ سَبِيكَتَهُ فَاسْتَحَالَتْ، وَأَذَابَتْ صَفِيحَتَهُ فَسَالَتْ، وَأَتَتِ الْكُفَّارَ سَمَاؤُهُمْ بِالدُّخَانِ الْمُبِينِ، وَصَارَتِ الشَّمْسُ مِنْ بَعْدِ سُفُورِهَا وَعُمُومِ نُورِهَا مُنَقَّبَةَ الْمُحَيَّا[٢]، مُعَصَّبَةَ الْجَبِينِ، وَخُضْنَا أَحْشَاءَ الْغَرِيرَةِ[٣] ثُمَّ أَشْتَاتَ النَّعَمِ انْتِسَاقًا، وَأَقْوَاتَ أَهْلِهَا إِتْلَافًا، وَآمَالَ سُكَّانِهَا إِخْلَافًا، وَقَدْ بُهِتُوا لِسُرْعَةِ الرُّجُوعِ، وَدُهِشُوا لِوُقُوعِ الْجُوعِ، وَتَسْبِيبِ تَخْرِيبِ الرُّبُوعِ، فَمِنَ الْمُنْكَرِ الْبَعِيدِ، أَنْ يَتَأَتَّى بَعْدُ عُمْرَانُهَا الْمَعْهُودُ، وَقَدِ اصْطُلِمَ الزَّرْعُ وَاجْتُثَّ الْعُودُ، وَصَارَ إِلَى الْعَدَمِ مِنْهَا الْوُجُودُ، وَرَأَوْا مِنْ عَزَائِمِ الْإِسْلَامِ خَوَارِقَ تَشِذُّ عَنْ نِطَاقِ الْعَوَائِدِ، وَعَجَائِبَ تَسْتَرِيبُ فِيهَا عَيْنُ الْمُشَاهِدِ، إِذِ اشْتَمَلَ هَـٰذَا الْعَامُ، الْمُتَعَرَّفُ فِيهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى الْإِنْعَامُ، عَلَى غَزَوَاتٍ[٤] أَرْبَعٍ

(١) فى الأصل « العيون » ولا معنى له — والقيون جمع قين وهو الحداد
(٢) فى بعض المراجع « المجتلى » والمعنى واحد (٣) كذا بالأصل « وقد يكون مراده البلدة الغريرة أى الغافلة » — وفى نسخة أخرى « الفرنتيرة » وأظنها ان كانت كذلك أنها كلمة افرنجية Frontiéres أى الحد ، وقد تقدم قوله « وبروزهم بالحدود المشتركات » (٤) فى الأصل « غرفات » ورأينا أنها محرفة عن « غزوات » وهذه الرسالة فى الأصل جمة التحريف

دُمِّرَتْ فِيهَا ٱلْقَوَاعِدُ ٱلشَّهِيرَةُ تَدْمِيرًا ، وَعَلَا فَوْقَ مَرَاقِيهَا ٱلْأَذَانُ عَزِيزًا جَهِيرًا ، وَضُوِيقَتْ كَرَاسِيُّ ٱلْمُلْكِ تَضْيِيقًا كَبِيرًا ، وَأُذِيقَتْ وَبَالًا مُبِيرًا(١) ، وَرِيَاحُ ٱلْإِدَالَةِ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالَى تَسْتَأْنِفُ هُبُوبًا ، وَبَأْسًا مَشْبُوبًا ، وَٱلثِّقَةُ بِٱللَّهِ قَدْ مَلَأَتْ نُفُوسًا مُؤْمِنَةً وَقُلُوبًا . وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ ٱلْمَسْئُولُ أَنْ يُوزِعَ(٢) شُكْرَ هَـٰذِهِ ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي أَثْقَلَتِ ٱلْأَكْتَادَ(٣) وَأَبْهَظَتِ(٤) ٱلطَّوْقَ ٱلْمُعْتَادَ ، وَأَبْهَجَتِ ٱلْمُسِيمَ(٥) وَٱلْمُرْتَادَ ، فَبِالشُّكْرِ يُسْتَدَرُّ فَرِيدُهَا(٦) ، وَيَتَوَالَى تَجْدِيدُهَا . وَقَطَعْنَا فِي بُحْبُوحَةِ

كثيرة التبديل والتصحيف ، ولذا جهدنا في تصحيحها على قدر الوسع وطالما أرهقنا تحريف الأصل من أمرنا عسرا ، ولكن : اذا الله سنى عقد أمر تيسرا (١) أي مهلكا: ويقال أصبحت منازلهم بورا أي خرابا لاشيء فيها (٢) أي أن يلهم قال تعالى : « رب أوزعني أن أشكر نعمتك » أي ألهمني ، وتأويله في اللغة كفني عن الأشياء الا عن شكر نعمتك ، وامنعني عما يباعدني عنك (٣) أي الكواهل جمع كتد (٤) أي أثقلت وبهظه الأمر اذا غلبه وثقل عليه و بلغ به مشقة — و بهظه الحمل اذا أثقله وعجز عن حمله ، والطوق الطاقة والجهد (٥) في الأصل للشيم وأرى أنها محرفة عن « للسيم » فلم أجد في اللغة «أشام» وسامت الماشية اذا رعت : وأسامها ، أرعاها وأخرجها الى المرعى قال تعالى : «فيه تسيمون » — والارتياد الطلب ، وارتاد لأهله ورادهم مرعى ومنزلا ، والرائد والمرتاد: المرسل في طلب النجعة والتماس الكلأ ومساقط الغيث (٦) استدر الحلوبة: طلب درها ، وأن يمسح الضرع بيده ليدر اللبن ،

تِلْكَ ٱلْمِيَالَةِ ٱلْمُسْتَبْحِرَةِ ٱلْعِمَارَةِ، وَٱلْفُلُجِ[1] ٱلْمُغْنِي[2] وَصْفُهَا عَنِ ٱلشَّرْحِ وَٱلْعِبَارَةِ، مَرَاحِلَ خَتَمْنَا بِالتَّعْرِيجِ عَلَى حَرْبِ[3] جَيَّانَ حَرْبَهَا، فَقَفَلْنَا ثَانِيَةً غَرْبَهَا، وَجَدَّدْنَا كَرْبَهَا وَٱسْتَوْعَبْنَا حَرْقَهَا وَخَرْبَهَا، وَنَظَمْنَا ٱلْبِلَادَ فِي سِلْكِ ٱلْبَلَاءِ، وَحَثَثْنَا فِي أَنْجَادِهَا وَأَغْوَارِهَا رَكَائِبَ ٱلِاسْتِيلَاءِ، فَلَمْ نَتْرُكْ بِهَا مَلْقَطَ طَيْرٍ، فَضْلًا عَنْ مَعْلَفِ عَيْرٍ، وَلَا أَسْأَرْنَا لِفَلِّهَا[4] ٱلْمَحْرُوبِ بُلَالَةَ[5] خَيْرٍ، وَقَفَلْنَا وَقَدْ تَرَكْنَا بِلَادَ ٱلنَّصَارَى ٱلَّتِي مِنْهَا لِكِيَادِنَا ٱلْمَدَدُ، وَٱلْعُدَّةُ وَٱلْعَدَدُ، وَفِيهَا ٱلْخِصَامُ وَٱللَّدَدُ[6] قَدْ لَبِسَتِ ٱلْحِدَادَ حَرِيقًا، وَسَلَكَتْ إِلَى ٱلْخَلَاءِ وَٱلْجَلَاءِ طَرِيقًا، وَلَمْ نَتْرُكْ لَهَا مُضْغَةً تُخَالِطُ رِيقًا، وَلَا نِعْمَةً تَصُونُ مِنَ ٱلْفِرَاقِ فَرِيقًا. وَمَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلنِّعَمُ لَوْلَا أَنْ أَعَانَ

ومن المجاز: بالشكر تستدر النعم (١) الفلج «بضمتين»: الساقية يجرى ماؤها، والفلجات المزارع، والفلج: شق الأرض للزراعة — والفلجة «بفتحتين»: القراح من الأرض الذى اشتق الزرع وفى نسخة «الفلح» (٢) فى نسخة «المبي» أى المعجز (٣) فى نسخة «حزب»

(٤) الفل: الجماعة المنهزمون — والمحروب: الذى سلب ماله وترك بلا شئ

(٥) البلال، والبلالة مايبل به الحلق من ماء أولبن والبلالة: النداوة، وأسأر أبق

(٦) اللدد الخصومة والجدل وفى التنزيل العزيز: «وهو ألد الخصام» والألد: الخصم الجدل الشحيح والذى لايرجع الى الحق، والشديد الخصومة العسر

ٱللّٰهُ تَعَالَى مِنْ عُنْصُرَىِ ٱلنَّارِ وَٱلْهَوَاءِ بِجُنُودِ كَوْنِهِ ٱلْوَاسِعِ، وَمُدْرِكَةِ (١) ٱلْبَعِيدِ ٱلشَّاسِعِ، لِتُولِيَ ٱلْأَيْدِى ٱلْبَشَرِيَّةَ تَثْرِيبَهَا (٢) وَلَا تُرْزَأَ كَثِيرَهَا، إِلَّا لِتَمْتَاحَ بِالِاعْتِرَافِ غَدِيرَهَا (٣). بَلْ لِلّٰهِ ٱلْقُدْرَةُ جَمِيعًا، فَقُدْرَتُهُ لَا تَتَحَامَى رِيعًا (٤) وَلَا حِمًى مَرِيعًا مَنِيعًا؛ وَعُدْنَا وَٱلْعَوْدُ فِى مِثْلِهَا أَحْمَدُ، وَقَدْ بَعُدَ مِنْ شِفَاءِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْأَمَدُ، وَنُسِخَ بِالسُّرُورِ ٱلْكَمَدُ، وَرُفِعَتْ مِنْ عِزِّ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْعَمَدُ. وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ حَمْدَ ٱلشَّاكِرِينَ، وَمِنْهُ نَلْتَمِسُ عَادَةَ ٱلنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِ فَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ. عَرَّفْنَاكُمْ بِهِ لِيُسَرَّ دِينُكُمُ ٱلْمَتِينُ، وَمَجْدُكُمُ ٱلَّذِى رَاقَ مِنْهُ ٱلْجَبِينُ. وَٱللّٰهُ

(١) فى بعض المراجع « ومدركه » أى ادراكه واعانته، وأدرك أى بلغ علمه أقصى الشىء (٢) كذا بالأصل، وفى بعض المراجع « لتتولى الأيدى البشرية تثريبها ولا ترزأ كثيرها، ولا لتمتاح بالاعتراف غديرها » (٣) امتاح الماء من البئر: استقاه « والميح أن تدخل البئر فتملأ الدلو لقلة مائها، كأنه يريد أن يقول: ان الله تعالى يعوض المرء مافقده، ويوليه بحكمته التعزية والصبر، فهو وان فقد الكثير يعزى نفسه بما يساق اليه من القليل، أو يقول: ان الله تعالى أراد أن يسوق اليهم النعم كثيرة متوالية فأعانهم بجنود من النار والهواء ساعدت على سرعة هزيمة الأعداء ومضاعفة بلائهم « ولم يكلهم إلى مجهودهم فيهم فتكون نعمة النصر على الأعداء والفتك بهم قليلة (٤) الريع: المرتفع من الأرض، أو كل فج أو كل طريق أو الطريق المنفرج عن الجبل، أو الجبل المرتفع، أو مسيل الوادى من مكان مرتفع

يصِلُ سَعْدَكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، وَيُبَلِّغُكُمْ أَمَلَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَقَصْدَكُمْ ، بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ : وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يَخُصُّكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ . انْتَهَى .

***

وصف جامع قرطبة

« رَجْعٌ إِلَى مَا كُنَّا بِسَبِيلِهِ » مِنْ أَخْبَارِ قُرْطُبَةَ الْجَلِيلَةِ الْوَصْفِ ، وَذِكْرِ جَامِعِهَا الْبَدِيعِ الْإِتْقَانِ وَالرَّصْفِ[1] فَنَقُولُ : قَدْ شَاعَ وَذَاعَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَغَيْرِهَا أَنَّ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ ثَلَثَمِائَةٍ وَنَحْوَ سِتِّينَ طَاقًا عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ ، وَأَنَّ الشَّمْسَ تَدْخُلُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ طَاقٍ إِلَى أَنْ يَتِمَّ الدَّوْرُ ثُمَّ تَعُودُ . وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ فِي كَلَامِ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَلَوْ كَانَ كَمَا شَاعَ لَذَكَرُوهُ وَتَعَرَّضُوا لَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ مَا يُسْتَطَرُ ، مَعَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا مَا هُوَ دُونَهُ ، فَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ

(١) في الأصل « والوصف » وهو تحريف ظاهر — والرصف : نظم الشيء بعضه إلى بعض — ورصف الحجارة : ينلها ورصها ووصل بعضها ببعض

فِي ذَلِكَ . وَسَتَأْتِي فِي ٱلْبَابِ ٱلسَّابِعِ رِسَالَةُ ٱلشَّقَنْدِيِّ ٱلطَّوِيلَةُ وَفِيهَا مِنْ مَحَاسِنِ قُرْطُبَةَ وَسَائِرِ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلطَّمُّ وَٱلرِّمُّ[1] . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي ٱلْبَابِ ٱلْأَوَّلِ جُمْلَةً مِنْ مَحَاسِنِ قُرْطُبَةَ فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهَا هُنَا ، عَلَى أَنَّ رِسَالَةَ ٱلشَّقَنْدِيِّ تَكَرَّرَ فِيهَا بَعْضُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِأَنَّا لَمْ نُرِدْ أَنْ نُخِلَّ مِنْهَا بِحَرْفٍ ، فَأَتَيْنَا بِهَا بِلَفْظِهَا وَإِنْ تَكَرَّرَ بَعْضُ مَا فِيهَا مَعَ بَعْضِ مَا أَسْلَفْنَاهُ ، وَٱلْعُذْرُ وَاضِحٌ لِلْمُنْصِفِ ٱلْمُغْضِي ، وَٱللّٰهَ نَسْأَلُ سُلُوكَ ٱلسَّبِيلِ ٱلَّذِي يُرْضِي عَنْهُ وَكَرَمِهِ . وَقَالَ صَاحِبُ نَشْقِ ٱلْأَزْهَارِ : إِنَّ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ تَنُّورًا مِنْ نُحَاسٍ أَصْفَرَ يَحْمِلُ أَلْفَ مِصْبَاحٍ ، وَفِيهِ أَشْيَاءُ غَرِيبَةٌ ، مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْعَجِيبَةِ ، يَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهَا

(١) الطم : الماء الكثير ، أو ما على وجهه من الغثاء ونحوه ، أو ما ساقه من غثاء ونحوه ، وبكل ذلك فسر قولهم في المثل : جاء بالطم والرم ، وقيل الطم : البحر والرم الثرى ، وسمى البحر طما لأنه طم على ما فيه ، وأراد بالطم والرم العدد الكثير ، أو جاء بكل شيء مما في البر والبحر . والطم أيضا : العجب العجاب ، وبه فسر المثل — أو الطم الرطب والرم اليابس ، أو الطم التراب والرم الماء ، أو الطم ما يحمله الماء والرم ما تحمله الريح . « أحمد يوسف نجاتي »

ٱلْوَاصِفُونَ . قِيلَ : أُحْكِمَ عَمَلُهُ فِي سَبْعِ سِنِينَ ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَعْمِدَةٍ مِنْ رُخَامٍ أَحْمَرَ مَكْتُوبٌ عَلَى ٱلْوَاحِدِ ٱسْمُ مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى ٱلْآخَرِ صُورَةُ عَصَا مُوسَى وَأَهْلِ ٱلْكَهْفِ ، وَعَلَى ٱلثَّالِثِ صُورَةُ غُرَابِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، ٱلثَّلَاثَةُ خَلَقَهَا ٱللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يَصْنَعْهَا صَانِعٌ . ٱنْتَهَى .

قُلْتُ لَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ مُحَقِّقِي ٱلْمُؤَرِّخِينَ لِلْأَنْدَلُسِ وَثِقَاتِهِمْ ذَكَرَ هَذَا — عَلَى قِلَّةِ ٱطِّلَاعِي — ، وَهُوَ عِنْدِي بَعِيدٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَذَكَرَهُ ٱلْأَئِمَّةُ . وَقَدْ حَكَى ٱلْقَاضِي عِيَاضٌ فِي ٱلشِّفَاءِ أَشْيَاءَ وُجِدَ عَلَيْهَا ٱسْمُ نَبِيِّنَا — صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَلَمْ يَذْكُرْ هَذَا ، وَنَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ بِجَامِعِ قُرْطُبَةَ وَلَا يَذْكُرُهُ . وَٱللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ٱلْأَمْرِ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ : إِنَّ دَوْرَ قُرْطُبَةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِيلًا وَعَرْضُهَا مِيلَانِ ، وَهِيَ عَلَى ٱلنَّهْرِ ٱلْكَبِيرِ ، وَعَلَيْهِ جِسْرَانِ ، وَبِهَا ٱلْجَامِعُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْإِسْلَامِيُّ ، وَبِهَا ٱلْكَنِيسَةُ ٱلْمُعَظَّمَةُ بَيْنَ ٱلنَّصَارَى . وَبِهَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ مَعْدِنُ ٱلْفِضَّةِ وَمَعْدِنُ

ٱلشَّاذَنَجِ وَهُوَ حَجَرٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقْطَعَ ٱلدَّمَ[١] ــ وَكَانَ يُجْلَبُ مِنْهَا ٱلْبِغَالُ ٱلَّتِي تُبَاعُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ مِنْ حُسْنِهَا وَعُلُوِّهَا ٱلزَّائِدِ . ٱنْتَهَى .

***

دلال البنيان « رَجْعٌ إِلَى أَخْبَارِ ٱلْبُنْيَانِ » وَلَا خَفَاءَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ بَانِيهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْمَرْوَانِيُّ بَانِي ٱلزَّهْرَاءِ ــ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ــ حَسْبَمَا نَسَبَهُمَا لَهُ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَبَعْضٌ يَنْسِبُهُمَا لِغَيْرِهِ ، وَسَيَأْتِيَانِ فِي تَرْجَمَةِ نُورِ ٱلدِّينِ بْنِ سَعِيدٍ[٢] عَلَى مَنْسُوبَيْنِ ــ :

هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ ٱلْبُنْيَانِ
إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ قَدْرُهُ
أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ ٱلشَّانِ

وَتَذَكَّرْتُ هُنَا قَصِيدَةً قَالَهَا بَعْضُ ٱلشَّامِيِّينَ وَهُوَ

(١) ويسمى شاذنه ، وحجر الدم ــ وكانوا يعالجون به بعض أمراض العين وخشونة الأجفان . (٢) كانت كلمة « سعيد » ساقطة من الأصل

ٱلْأَدِيبُ ٱلْفَاضِلُ ٱلشَّيْخُ أَسَدُ بْنُ مُعِينِ ٱلدِّينِ مِمَّا يُكْتَبُ عَلَى أَبْرَاجِ دَارِ ٱلْحَسِيبِ ، ٱلنَّسِيبِ ، ٱلشَّهِيرِ ٱلْبَيْتِ ، ٱلْكَبِيرِ ٱلْحَيِّ وَٱلْمَيِّتِ ، ٱلْقَاضِي عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ ٱلْفَرْفُورِ ٱلدِّمَشْقِيِّ »[1]
وَضَمَّنَهَا بَيْتَيِ ٱلنَّاصِرِ ٱلْمَذْكُورَيْنِ :

زُرْ مَجْلِسًا أَضْحَى أَعَزَّ مَكَانِ
وَمَحَلَّ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعِرْفَانِ
ٱلْمَجْدُ خَيَّمَ فِي ذُرَا أَبْرَاجِهِ
وَٱلسَّعْدُ عَبْدُ ٱلْبَابِ طُولَ زَمَانِ
كَٱلْخُلْدِ مَرْفُوعُ ٱلْبِنَاءِ وَأَرْضُهُ
مَفْرُوشَــــةٌ بِٱلدُّرِّ وَٱلْعِقْيَانِ

---

(١) بيت الفرفوري بيت كان في الشام «في القرنين العاشر والحادي عشر» من بيوتات الحسب والعراقة وأرباب اللسن والطلاقة ، وفي أحدهم «أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد المتوفى سنة ١٠٣٧» يقول الأديب أبو بكر بن أحمد الجوهري :

أبناء فرفور لقد حازوا العلا … حتى علوا في المجد هام الفرقد
ورثوا الفضائل كابرا عن كابر … وكمال ذلك بالشهاب الأحمد

بَيْتٌ بِهِ فَخَرَ ٱلْبُيُوتُ لِأَنَّهُ
بَيْتُ ٱلْقَصِيدِ (١) وَمَنْزِلُ ٱلضِّيفَانِ

مَعْنًى فَسِيحٌ فِيهِ مَعْنًى مُفْصِحٌ
عَنْ قَدْرِ بَانِيهِ بِغَيْرِ لِسَانِ

قَدْ قَالَ بَعْضُ ذَوِى ٱلْفَضَائِلِ قَبْلَنَا
قَوْلًا بَدِيعًا وَاضِحَ ٱلتِّبْيَانِ

هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ ٱلْبُنْيَانِ

إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ قَــدْرُهُ
أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ ٱلشَّانِ

قَدْ شَادَهُ مَنْ سَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ
بِالْأَصْلِ وَٱلْإِفْضَالِ وَٱلرُّجْحَانِ

وَرِثَ ٱلسِّيَادَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ
وَسَمَا بِرِفْعَتِهِ عَلَى كِيوَانِ (٢)

قَاضِي ٱلْقُضَاةِ وَمَفْخَرُ ٱلْعَصْرِ ٱلَّذِي
قَدْ جَاءَ فِيهِ سَابِقَ ٱلْأَقْرَانِ

(١) تورية يريد بها أنه منزل الشعر والأدب كما أنه بيت الكرم (٢) اسم لكوكب زحل أبعد السيارات السبع عند القدماء. أحمد يوسف نجاتي ■

فِي ٱلْعِلْمِ بَحْرٌ لَا يُنَالُ قَرَارُهُ
فِي ٱلْحُكْمِ مِثْلُ مُهَنَّدٍ وَسِنَانِ
يَرْوِي عَطَاءٌ[١] عَنْ يَدَيْهِ، قَدِ ٱقْتَفَى
آثَارَ آبَاءٍ ذَوِي إِحْسَانِ
لَا زَالَ يَبْقَى شَائِدًا بَيْتَ ٱلْعُلَا
وَعَدُوُّهُ فِي ٱلْوَهْنِ وَٱلنُّقْصَانِ
يَاأَيُّهَا ٱلْمَوْلَى ٱلَّذِي يَجْرِي مَعَ ٱلْ
إِقْبَالِ وَٱلْإِسْعَادِ طَلْقَ عِنَانِ[٢]
دُمْ شَامِخَ ٱلْمِقْدَارِ مُرْتَفِعَ ٱلْبِنَا
وَٱلنَّاسُ تَحْتَ رِضَاكَ كَٱلْغِلْمَانِ
مُتَمَتِّعًا بِبَنِيكَ سَادَاتِ ٱلْوَرَى
فِي عِزِّ رَبٍّ دَائِمِ ٱلسُّلْطَانِ
مَا رَجَّعَ ٱلْقُمْرِيُّ فِي تَغْرِيدِهِ
فِي ٱلرَّوْضِ فَوْقَ مَنَابِرِ ٱلْأَغْصَانِ

(١) في « عطاء » تورية باسم عطاء بن أبي رباح التابعي كان من أجلاء فقهاء مكة وزهادهم توفي سنة ١١٥ — ومرادهنا البذل والنجح
(٢) أي مطلق العنان ومرسله قد أرخي له يعدو بجهد طاقته .

***

وَكَانَ ٱلْقَاضِي عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ فُرْفُورٍ ٱلْمَذْكُورُ عَالِيَ ٱلْهِمَّةِ تَضِيقُ يَدُهُ(١) عَمَّا يُرِيدُ ، فَلِذَٰلِكَ كَانَ كَثِيرًا مَا يَبُثُّ شَكْوَاهُ فِي ٱلطُّرُوسِ وَٱلدَّفَاتِرِ ، وَيَعْتِبُ عَلَى ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي أَخْنَى(٢) عَلَى أَهْلِ ٱلْأَدَبِ وَقَطَعَ آمَالَهُمْ بِحُسَامِهِ ٱلْبَاتِرِ ، وَيَرْحَمُ ٱللهُ ٱلْقَائِلَ : عبد الرحمن بن فرفور

هٰـــذَا زَمَانُ دُرَيْهِمِي لَا غَيْرِهِ

فَدَعِ ٱلدَّفَاتِرَ لِلزَّمَانِ ٱلْفَاتِرِ

فَمِنْ نَظْمِ ٱلْمَذْكُورِ وَقَدْ أَبْطَأَ بِجُزْءٍ ٱسْتَعَارَهُ مِنْ بَعْضِ إِخْوَانِهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعْتَذِرًا ، وَأَدْمَجَ شَكْوَى ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ شَمَاتَةِ ٱلْأَعْدَاءِ بِهِ حَذِرًا :

أَبْطَأْتُ فِي ذَا ٱلْجُزْءِ يَاسَيِّدِي

كِتَابَةً مِنْ جَوْرِ دَهْرٍ بَغِيضْ

---

(١) حقه أن ينشد:

أرى نفسي تتوق الى أمور ويقصر دون مبلغهن مالى

فنفسي لاتطاوعني ببخـل ومالى لايبلغنى فـعـالى

(٢) أخنى عليهم الدهر : أتى عليهم وأهلكهم ، وخنى الدهر : آفاته ونوائبه

صَابَرْتُهُ فَالْجِسْمُ مِنِّى لَقًى[١]

تَجَلُّدًا وَالْقَلْبُ مِنِّى مَرِيضْ

فَإِذْ أَبَى إِلَّا تَلَافِى وَقَـــدْ

أَحَلَّنِى مِنْــــهُ مَحَلَّ النَّقِيضْ

وَاقْتَادَنِى قَسْرًا إِلَى مَصْرَعٍ

قَدْ رَقَّ مِنْهُ اللَّحْمُ وَالْعَظْمُ هِيضْ

سَلَّمْتُ لِلْأَقْدَارِ مُسْتَشْرِعًا

لِبَابِ مَوْلًى ذِى عَطَاءٍ عَرِيضْ

نُجُومُ صَبْرٍ كُنْتُ أَسْطُو بِهِ

عَلَى رَزَايَا[٢] الدَّهْرِ بِالْهَمِّ غِيضْ[٣]

فَلَا تَلُمْ يَاصَاحِ مِنْ بَعْـدِ ذَا

إِذَا تَمَثَّلْتُ : بِحَالَ الْجَرِيضْ[٤]

(١) اللقى : الشىء الملقى على الأرض يريد أنه طريح (٢) فى الأصل (روايا) مصحفة (٣) جمع الماء يجم جموما : كثر واجتمع ضد غاض (٤) يريد المثل المشهور وهو « حال الجريض دون القريض » يضرب لمن يشغله أمر بعض مؤلم عن المطلوب منه ، وللأمر يعوق دونه عائق ، ويقال عند كل أمر كان مقدورا عليه فحيل دونه ، وقال الميدانى : يضرب لأمر يقدر عليه آخرا حين لا ينفع .

وَرَأَيْتُ بِخَطِّهِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ مِمَّا نَسَبَهُ جَدُّهُ الْقُطْبُ الْخَيْضَرِيُّ الْحَافِظُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ نَصْرٍ الْحَمَوِيِّ ثُمَّ الْمِصْرِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْفَقِيهِ :

يَازَمَانًا كُلَّمَا حَا … وَلْتُ أَمْرًا يَتَمَنَّعْ
إِنْ تَعَصَّبْتَ فَإِنِّي … بِاصْطِبَارِى أَتَقَنَّعْ(١)

وَهٰذِهِ تَوْرِيَةٌ بَدِيعَةٌ لِلْغَايَةِ فِي التَّعَصُّبِ وَالتَّقَنُّعِ ، مَعَ حَلَاوَةِ النَّظْمِ وَجَوْدَةِ السَّبْكِ وَخِفَّةِ الْوَزْنِ . وَاللهُ سُبْحَانَهُ يُرَوِّحُ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ فِي الْجِنَانِ ، وَيُعَامِلُنَا وَإِيَّاهُمْ بِمَحْضِ الْفَضْلِ وَالِامْتِنَانِ ، وَيَكْفِينَا شُجُونَ دَهْرٍ جَرَى بِنَا طَلْقَ الْعِنَانِ .

والجريض الغصة ـ وقال الرياشي : الجريض والقريض يحدثان بالانسان عند الموت ، فالجريض تبلع الريق والقريض صوت الانسان » وفى معنى المثل : حال الأجل دون الأمل » وقريب منه قول ابن الفارض :

دنت وحياض الموت بيني وبينها … وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وأول من قال هذا المثل عبيد بن الأبرص أو جوشن بن منقذ الكلابي حين منعه أبوه من قول الشعر حسدا له لتبريزه كان عليه فجاش الشعر فى صدره فمرض منه حزنا فرق له أبوه وقد أشرف على الموت فقال يا بني انطلق بما أحببت ، فقال : حال الجريض دون القريض ـ وأرى أن القريض يراد به معناه الظاهر وهو الشعر ونظمه (١) فى الأصل «يتمنع» « أتقنع » والأولى ما أثبتناه بدليل قول المؤلف بعد « التعصب والتقنع»

« رَجْعٌ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ » وَ كُنْتُ وَقَفْتُ فِي كَلَامِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ الْمَنْسُوبَيْنِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ الْمَرْوَانِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - قَالَهُمَا فِي الزَّهْرَاءِ الَّتِي بَنَاهَا ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُهَا قَرِيباً . وَقَالَ الشَّيْخُ سَيِّدِي مُحْيِي الدِّينِ بْنُ الْعَرَبِيِّ(١) فِي الْمُسَامَرَاتِ : قَرَأْتُ عَلَى مَدِينَةِ الزَّهْرَاءِ بَعْدَ خَرَابِهَا وَصَيْرُورَتِهَا مَأْوَى الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ - وَبِنَاؤُهَا عَجِيبٌ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ قُرْطُبَةَ - أَبْيَاتًا تُذَكِّرُ الْعَاقِلَ ، وَتُنَبِّهُ الْغَافِلَ ، وَهِيَ :

دِيَارٌ بِأَكْنَافِ الْمَلَاعِبِ تَلْمَعُ
وَمَا إِنْ بِهَا مِنْ سَاكِنٍ وَهْيَ بَلْقَعُ(٢)

يَنُوحُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَيَصْمُتُ أَحْيَانًا وَحِينًا يُرَجِّعُ

---

(١) ستأتي ترجمته في النفح مبسوطة (٢) من المجاز : لعبت الريح بالمنزل وتلاعبت اذا درسته ، وملاعب الرياح : مدارجها - والبلقع الأرض القفر التي لاشيء بها . « أحمد يوسف نجاتي »

فَخَاطَبْتُ مِنْهَـــا طَائِرًا مُتَغَرِّدًا
لَهُ شَجَنٌ فِي ٱلْقَلْبِ وَهْوَ مُرَوَّعُ
فَقُلْتُ عَلَى مَاذَا تَنُوحُ وَتَشْتَكِي ؟
فَقَالَ عَلَى دَهْرٍ مَضَى لَيْسَ يَرْجِعُ

***

مدينة الزهراء

« ثُمَّ قَالَ » وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ مَشَايِخِ قُرْطُبَةَ عَنْ سَبَبِ بِنَاءِ مَدِينَةِ ٱلزَّهْرَاءِ أَنَّ ٱلنَّاصِرَ مَاتَتْ لَهُ سُرِّيَّةٌ وَتَرَكَتْ مَالًا كَثِيرًا ، فَأَمَرَ بِأَنْ يُفَكَّ بِذَلِكَ ٱلْمَالِ أَسْرَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَطَلَبَ فِي بِلَادِ ٱلْفِرَنْجِ أَسِيرًا فَلَمْ يُوجَدْ ، فَشَكَرَ ٱللهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَتْ لَهُ جَارِيَتُهُ ٱلزَّهْرَاءُ ــ وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا : أَشْتَهِيتُ لَوْ بَنَيْتَ لِي بِهِ مَدِينَةً تُسَمِّيهَا بِاسْمِي وَتَكُونُ خَاصَّةً لِي ، فَبَنَاهَا تَحْتَ جَبَلِ ٱلْعَرُوسِ مِنْ قِبْلَةِ ٱلْجَبَلِ وَشَمَالِ قُرْطُبَةَ ــ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ ٱلْيَوْمَ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ ــ وَأَتْقَنَ بِنَاءَهَا ، وَأَحْكَمَ ٱلصَّنْعَةَ فِيهَا ، وَجَعَلَهَا مُتَنَزَّهًا وَمَسْكَنًا لِلزَّهْرَاءِ وَحَاشِيَةِ أَرْبَابِ دَوْلَتِهِ ، وَنَقَشَ صُورَتَهَا عَلَى ٱلْبَابِ ، فَلَمَّا قَعَدَتِ ٱلزَّهْرَاءُ فِي مَجْلِسِهَا

نَظَرَتْ إِلَى بَيَاضِ ٱلْمَدِينَةِ وَحُسْنِهَا فِي حِجْرِ ذٰلِكَ ٱلْجَبَلِ ٱلْأَسْوَدِ فَقَالَتْ: يَاسَيِّدِي أَلَا تَرَى إِلَى حُسْنِ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةِ ٱلْحَسْنَاءِ فِي حِجْرِ ذٰلِكَ ٱلزِّنْجِيِّ؟ فَأَمَرَ بِزَوَالِ ذٰلِكَ ٱلْجَبَلِ، فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَائِهِ: أُعِيذُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْطُرَ لَهُ مَا يَشِينُ ٱلْعَقْلَ سَمَاعُهُ، لَوِ ٱجْتَمَعَ ٱلْخَلْقُ مَا أَزَالُوهُ حَفْرًا وَلَا قَطْعًا، وَلَا يُزِيلُهُ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ شَجَرِهِ وَغَرْسِهِ تِينًا وَلَوْزًا، وَلَمْ يَكُنْ مَنْظَرٌ أَحْسَنَ مِنْهَا، وَلَا سِيَّمَا فِي زَمَانِ ٱلْأَزْهَارِ، وَتَفَتُّحِ ٱلْأَشْجَارِ، وَهِيَ بَيْنَ ٱلْجَبَلِ وَٱلسَّهْلِ، ٱنْتَهَى بِبَعْضِ ٱخْتِصَارٍ.

وَقَالَ ٱبْنُ خَلِّكَانَ فِي تَرْجَمَةِ ٱلْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ مَا صُورَتُهُ: ٱلزَّهْرَاءُ بِفَتْحِ ٱلزَّايِ وَسُكُونِ ٱلْهَاءِ وَفَتْحِ ٱلرَّاءِ بَعْدَهَا أَلِفٌ مَمْدُودَةٌ، وَهِيَ مِنْ عَجَائِبِ أَبْنِيَةِ ٱلدُّنْيَا، أَنْشَأَهَا أَبُو ٱلْمُظَفَّرِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُلَقَّبُ بِالنَّاصِرِ أَحَدُ مُلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ بِالْقُرْبِ مِنْ قُرْطُبَةَ فِي أَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ، وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهُمَا

أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ وَثُلُثَا مِيلٍ ، وَطُولُ ٱلزَّهْرَاءِ مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ أَلْفَانِ وَسَبْعُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعَرْضُهَا مِنَ ٱلْقِبْلَةِ إِلَى ٱلْجَنُوبِ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعَدَدُ ٱلسَّوَارِي ٱلَّتِي فِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ سَارِيَةٍ وَثَلَثُمِائَةِ سَارِيَةٍ ، وَعَدَدُ أَبْوَابِهَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسَةَ عَشَرَ بَابًا[1] . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ يُقَسِّمُ جِبَايَةَ ٱلْبِلَادِ أَثْلَاثًا : فَثُلُثٌ لِلْجُنْدِ ، وَثُلُثٌ مُدَّخَرٌ ، وَثُلُثٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِمَارَةِ ٱلزَّهْرَاءِ . وَكَانَتْ جِبَايَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ[2] ، وَمِنَ ٱلسُّوقِ وَٱلْمُسْتَخْلَصِ[3] سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُّونَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَهِيَ مِنْ أَهْوَلِ مَا بَنَاهُ ٱلْإِنْسُ[4] وَأَجَلِّهِ خَطَرًا وَأَعْظَمِهِ شَأْنًا . ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ فِي تَارِيخِ ٱلْأَنْدَلُسِ . ٱنْتَهَى كَلَامُهُ .

(١) كذا فى ابن خلكان ، وعدلنا عما فى الأصل « خمسة عشر ألف باب » (٢) كذا فى ابن خلكان، أما الأصل الذى عدلنا عن روايته فهو يزيد كلمة ألف فيقول « خمسة آلاف ألف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف » (٣) الخ كذا فى ابن خلكان وفى موضع آخر من الأصل — وفى الأصل هنا « ومن السوق المستخلصة » وهنا تحريف (٤) فى ابن خلكان « وهى من أهول بناء الأندلس » . « أحمد يوسف نجاتى »

***

أطلال قصور الأمويين

وَحَكَى فِي ٱلْمَطْمَحِ أَنَّ ٱلْوَزِيرَ ٱلْكَبِيرَ ٱلشَّهِيرَ أَبَا ٱلْحَزْمِ (١) بْنَ جَهْوَرٍ قَالَ - وَقَدْ وَقَفَ عَلَى قُصُورِ ٱلْأُمَوِيِّينَ ٱلَّتِي تَقَوَّضَتْ أَبْنِيَتُهَا ، وَعُوِّضَتْ مِنْ أُنِيسِهَا بِالْوَحْشِ أَفْنِيَتُهَا :

قُلْتُ يَوْمًا لِدَارِ قَوْمٍ تَفَانَوْا

أَيْنَ سُكَّانُكِ ٱلْعِزَازُ عَلَيْنَا ؟

فَأَجَابَتْ : هُنَا أَقَامُوا قَلِيلًا

ثُمَّ سَارُوا ، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا !

وَفِيهِ أَنَّ أَبَا عَامِرِ بْنَ شُهَيْدٍ بَاتَ لَيْلَةً بِإِحْدَى كَنَائِسِ قُرْطُبَةَ وَقَدْ فُرِشَتْ بِأَضْغَاثِ (٢) آسٍ ، وَعُرِشَتْ (٣) بِسُرُورٍ وَٱسْتِئْنَاسٍ ، وَقَرْعُ ٱلنَّوَاقِيسِ يَبْهَجُ (٤) سَمْعَهُ ، وَبَرْقُ ٱلْحُمَيَّا

---

(١) فى الأصل الشهير بالحزم وهو تحريف ناقص (٢) جمع ضغث وهو نحو الحزمة – وأصل معنى الضغث قبضة من حشيش أو مقدارها مختلطة الرطب باليابس – أو كل ماملأ الكف من النبات (٣) عرش الكرم ونحوه عرشا وعروشا وعرشه: جعل له عريشا « وهى عيدان تجعل كهيئة السقف فتجعل عليها قضبانه وترفع عليها دواليه » وفى بعض النسخ « وعرشت ببشر واستئناس » (٤) فى المطمح « يبهج » وفيه « يسرج » بدل يسرع »

يُشْرِعُ لَمْحَهُ ، وَٱلْقَسُّ قَدْ بَرَزَ فِي عَبَدَةِ ٱلْمَسِيحِ ، مُتَوَشِّحًا بِالزُّنَّارِ أَبْدَعَ تَوْشِيحٍ ، قَدْ هَجَرُوا ٱلْأَفْرَاحَ ، وَأَطْرَحُوا ٱلنَّعِيمَ(١) كُلَّ أُطَّرَاحٍ :

لَا يَعْمِدُونَ إِلَى مَاءٍ بِآنِيَةٍ

إِلَّا ٱغْتِرَافًا مِنَ ٱلْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ(٢)

وَأَقَامَ بَيْنَهُمْ يُعْمِلُهَا حُمَيًّا ، كَأَنَّمَا يَرْشُفُ مِنْ كَأْسِهَا شَفَةً لَمْيَا ، وَهِيَ تَنْفَحُ لَهُ بِأَطْيَبِ عَرْفٍ ، كُلَّمَا رَشَفَهَا أَعْذَبَ رَشْفٍ ، ثُمَّ ٱرْتَحَلَ ، بَعْدَ مَا ٱرْتَحَلَ ، فَقَالَ :

وَرُبَّ حَانٍ قَدْ شَمَمْتُ(٣) بِدَيْرِهِ

خَمْرَ ٱلصِّبَا مُزِجَتْ بِصِرْفِ عَصِيرِهِ

فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا ٱلسُّرُورَ شِعَارَهُمْ

مُتَصَاغِرِينَ تَخَشُّعًا لِكَبِيرِهِ

وهو أحسن عبارة لما فيه من ترصيع السجع الذى يقصده الفتح بن خاقان كثيرا (١) فى الأصل والمطمح «النعم» وأرى أنها محرفة عن «النعيم» كما لايخفى (٢) تر تظلم هنا البيت فى الأصل مهما محرفا مكتوبا بهيئة كتابة النثر وفيه «باية» بدل بآنية (٣) ويروى: أدرت «أحمد يوسف نجاتى»

وَٱلْقَسُّ مِمَّا شَاءَ طُولَ مُقَامِنَا
يَدْعُو بِعُودٍ حَوْلَنَا بِزَبُورِهِ

يُهْدِي لَنَا بِالرَّاحِ كُلَّ مُصَفَّرٍ
كَالْخِشْفِ خَفَّرَهُ ٱلْتِمَاحُ خَفِيرِهِ(١)

يَتَنَاوَلُ ٱلظُّرَفَاءُ فِيهِ وَشُرْبُهُمْ
لِسُلَافِهِمْ(٢) وَٱلْآكِلُ مِنْ خِنْزِيرِهِ

أنتهى.

***

بناء الزهراء « رَجْعٌ إِلَى أَنْبَاءِ ٱلزَّهْرَاءِ » قَالَ بَعْضُ مَنْ أَرَّخَ ٱلْأَنْدَلُسَ : كَانَ يَتَصَرَّفُ فِي عِمَارَةِ ٱلزَّهْرَاءِ كُلَّ يَوْمٍ

---

(١) كذا بالأصل والطبع، وقد تكون «مصفر» وربما كان أصل البيت هكذا:

يهدي لنا بالراح كل مخفر كالخشف نفره التماح خفيره

والمخفر للممنوع، من قولك خفره وخفر عليه يخفر خفرا، وخفره اذا أجاره ومنعه وأمنه وكان له خفيرا يحرسه، والتخفير: التسوير والتحصين، والخفر: شدة الحياء كالتخفر - والخشف «بكسر الخاء وضمها مع سكون الشين» ولد الظبي أول مايولد، وقال الأصمعي أول مايولد الظبي طلا ثم خشف - والتمحه ولمحه ولمح اليه اذا اختلس النظر اليه أي أبصره بنظر خفيف سريع، واللمحة: النظرة العجلة، وقيل لايكون اللمح الامن بعيد - فمعنى البيت على ماأراه أنه يدير الراح عليهم ساق أهيف كالظبي الأغن للمنع حياء ودلال يزيد نفوره وامتناعه رقابة خفيره وملاحظة رقيبه. «أحمد يوسف نجاتي». (٢) في بعض المراجع «لسلافه» وهو أظهر.

مِنَ ٱلْخُدَّامِ وَٱلْفَعَلَةِ عَشَرَةُ آلَافِ رَجُلٍ ، وَمِنَ ٱلدَّوَابِّ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةِ دَابَّةٍ ، وَكَانَ مِنَ ٱلرِّجَالِ مَنْ لَهُ دِرْهَمٌ وَنِصْفٌ وَمَنْ لَهُ ٱلدِّرْهَمَانِ وَٱلثَّلَاثَةُ ، وَكَانَ يُصْرَفُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنَ ٱلصَّخْرِ ٱلْمَنْحُوتِ ٱلْمُعَدَّلِ سِتَّةُ آلَافِ صَخْرَةٍ سِوَى ٱلْآجُرِّ وَٱلصَّخْرِ غَيْرِ ٱلْمُعَدَّلِ . انْتَهَى . وَسَيَأْتِي فِي ٱلزَّهْرَاءِ مَزِيدُ كَلَامٍ

وَقَالَ ٱبْنُ حَيَّانَ : ٱبْتَدَأَ ٱلنَّاصِرُ بِنَاءَ ٱلزَّهْرَاءِ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنَ ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ ، وَجَعَلَ طُولَهَا مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ أَلْفَيْنِ وَسَبْعَمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَتَكْسِيرُهَا تِسْعُمِائَةِ أَلْفِ ذِرَاعٍ وَتِسْعُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ . كَذَا نَقَلَهُ بَعْضُهُمْ ، وَلِلنَّظَرِ فِيهِ مَجَالٌ ، قَالَ : وَكَانَ يُثِيبُ عَلَى كُلِّ رُخَامَةٍ كَبِيرَةٍ أَوْ صَغِيرَةٍ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ سِوَى مَا كَانَ يَلْزَمُ عَلَى قَطْعِهَا وَنَقْلِهَا وَمَئُونَةِ حَمْلِهَا ، وَجُلِبَ إِلَيْهَا ٱلرُّخَامُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْمَرِيَّةِ ، وَٱلْمُجَزَّعُ مِنْ رَيَّةَ(١) ، وَٱلْوَرْدِيُّ

---

(١) رية كورة واسعة متصلة بالجزيرة الخضراء وهي قبل قرطبة، وكانت كثيرة الخيرات ذات مدن وحصون ورستاق واسع ، وفيها حمة أي عين تخرج حارة ، وهي أشرف حمات الأندلس لأن فيها ماء حارا وباردا

وَالْأَخْضَرُ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ مِنْ سَفَاقُسَ[١] ، وَقَرْطَاجَنَّةَ ، وَالْحَوْضُ الْمَنْقُوشُ الْمُذَهَّبُ مِنَ الشَّامِ - وَقِيلَ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَفِيهِ نُقُوشٌ وَتَمَاثِيلُ وَصُوَرٌ عَلَى صُوَرِ الْإِنْسَانِ ، وَلَيْسَ لَهُ قِيمَةٌ[٢] .

***

قصر الخلافة بالزهراء

وَلَمَّا جَلَبَهُ أَحْمَدُ الْفَيْلَسُوفُ - وَقِيلَ غَيْرُهُ - أَمَرَ النَّاصِرُ بِنَصْبِهِ فِي وَسَطِ الْمَجْلِسِ الشَّرْقِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْمُؤْنِسِ، وَنَصَبَ عَلَيْهِ اثْنَيْ عَشَرَ تِمْثَالًا ، وَبَنَى فِي قَصْرِهَا الْمَجْلِسَ الْمُسَمَّى بِقَصْرِ الْخِلَافَةِ ، وَكَانَ سَمْكُهُ[٣] مِنَ الذَّهَبِ وَالرُّخَامِ الْغَلِيظِ فِي جِرْمِهِ ، الصَّافِي لَوْنُهُ ، الْمُتَلَوِّنَةِ أَجْنَاسُهُ ، وَكَانَتْ حِيطَانُ هَذَا الْمَجْلِسِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَجُعِلَتْ فِي وَسَطِهِ الْيَتِيمَةُ الَّتِي أَتْحَفَ النَّاصِرَ بِهَا الْيُونُ مَلِكُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَكَانَتْ قَرَامِدُ[٤] هَذَا الْقَصْرِ

(١) مدينة من نواحي افريقية على شفة الساحل، وكان لها سور من صخر وآجر، وجل غلاتها الزيتون والزيت (٢) يعني أنه ذو قيمة غالية باهظة وهذا كقول الشاعر :

ملئا قرت به العين   ناه من هذا ثمن

وقولهم ماالحديث الموموق من ثمن

(٣) السمك : السقف ، أو من أعلى البيت الى أسفله (٤) جمع قرمد وهو

مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّةِ ، وَهَذَا ٱلمَجْلِسُ فِي وَسَطِهِ صِهْرِيجٌ
عَظِيمٌ مَمْلُوءٌ بِالزِّئْبَقِ ، وَكَانَ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ هَـذَا
ٱلمَجْلِسِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ قَدِ ٱنْعَقَدَتْ عَلَى حَنَايَا مِنَ ٱلعَاجِ
وَٱلْآبَنُوسِ ٱلمُرَصَّعِ بِالذَّهَبِ وَأَصْنَافِ ٱلجَوَاهِرِ ، قَامَتْ عَلَى
سَوَارٍ مِنَ ٱلرُّخَامِ ٱلمُلَوَّنِ وَٱلبِلَّوْرِ ٱلصَّافِي ، وَكَانَتِ
ٱلشَّمْسُ تَدْخُلُ عَلَى تِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ فَيَضْرِبُ شُعَاعُهَا فِي
صَدْرِ[1] ٱلمَجْلِسِ وَحِيطَانِهِ ، فَيَصِيرُ مِنْ ذَلِكَ نُورٌ يَأْخُـذُ
بِالْأَبْصَارِ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْزِعَ أَحَدًا مِنْ
أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَوْمَأَ إِلَى أَحَدِ صَقَالِبَتِهِ فَيُحَرِّكُ ذَلِكَ ٱلزِّئْبَقَ
فَيَظْهَرُ فِي ٱلمَجْلِسِ كَلَمَعَانِ ٱلبَرْقِ مِنَ ٱلنُّورِ ، وَيَأْخُذُ
بِمَجَامِعِ ٱلقُلُوبِ ، حَتَّى يُخَيَّلَ لِكُلِّ مَنْ فِي ٱلمَجْلِسِ أَنَّ
ٱلمَحَلَّ قَدْ طَارَ بِهِمْ مَا دَامَ ٱلزِّئْبَقُ يَتَحَرَّكُ . وَقِيلَ : إِنَّ هَذَا
ٱلمَجْلِسَ كَانَ يَدُورُ وَيَسْتَقْبِلُ ٱلشَّمْسَ ، وَقِيلَ : كَانَ ثَابِتًا

كل ماطلى به الزينة كالزعفران والجص — والقرمد والقرميد أيضا حجارة
لها خروق يوقد عليها حتى إذا نضجت قرمدت بها الحياض والبرك أي طليت
(١) فى بعض المراجع « سمك » بدل « صدر » . « أحمد يوسف نجاتى »

عَلَى صِفَةِ هَذَا ٱلصَّهْرِيجِ . وَهَـذَا ٱلْمَجْلِسُ لَمْ يَتَقَدَّمْ لِأَحَدٍ بِنَاؤُهُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي ٱلْإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا تَهَيَّأَ لَهُ لِكَثْرَةِ ٱلزِّئْبَقِ عِنْدَهُمْ . وَكَانَ بِنَاءُ ٱلزَّهْرَاءِ فِي غَايَةِ ٱلْإِتْقَانِ وَٱلْحُسْنِ ، وَبِهَا مِنَ ٱلْمَرْمَرِ وَٱلْعُمُدِ كَثِيرٌ ، وَأَجْرَى فِيهَا ٱلْمِيَاهَ ، وَأَحْدَقَ بِهَا ٱلْبَسَاتِينَ ، وَفِيهَا يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ ٱلسُّمَيْسِرُ(١) :

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا مُعْتَبِرًا أَنْدُبُ أَشْتَاتَا
فَقُلْتُ يَا زَهْـرَا أَلَا فَارْجِعِي
قَالَتْ : وَهَـلْ يَرْجِـعُ مَنْ مَاتَا ؟
فَلَمْ أَزَلْ أَبْـكِي وَأَبْـكِي بِهَا
هَيْهَاتَ يُغْنِي ٱلدَّمْـعُ هَيْهَاتَا
كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَـدْ مَضَى
نَوَادِبُ يَنْـدُبْنَ أَمْـوَاتَا

(١) فى الأصل « الشميس » وهو تصحيف يضل القارئ - والسميسر شاعر مشهور من أهل قرطبة « فى أواخر القرن الخامس والقرن السادس» أكثر شعره فى الحكم والنصائح والزهد . « أحمد يوسف نجاتى »

انْتَهَى كَلَامُ هَذَا الْمُؤَرِّخِ مُلَخَّصًا . وَسَيَأْتِي مَا يُوَافِقُ جُلَّهُ، وَيُخَالِفُ قَلَّهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ الْأَمْرَ كُلَّهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَنْظُرُ الْمُتَأَمِّلُ هَذَا الْكِتَابَ فَيَجِدُ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ تَخَالُفًا ، فَيَحْمِلُ ذَلِكَ عَلَى الْغَلَطِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا السَّبَبُ الْحَامِلُ لِذَلِكَ جَلْبُ كَلَامِ النَّاسِ بِعِبَارَاتِهِمْ ، وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ لَا يَخْفَاهُ مِثْلُ هَذَا ، وَرُبَّمَا يَقَعُ التَّكْرَارُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ مَا ذُكِرَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

***

قصر طليطلة

وَتَذَكَّرْتُ بِمَا وَصَفَهُ مِنْ مَجْلِسِ النَّاصِرِ غَيْرُ وَاحِدٍ[(١)] مَا حَكَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ الْقَصْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي شَادَهُ مَلِكُ طُلَيْطِلَةَ الْمَأْمُونُ بْنُ ذِي النُّونِ بِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتْقَنَهُ إِلَى الْغَايَةِ ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ أَمْوَالًا طَائِلَةً ، وَصَنَعَ فِي وَسَطِهِ بُحَيْرَةً ، وَصَنَعَ فِي وَسَطِ الْبُحَيْرَةِ قُبَّةً مِنْ زُجَاجٍ مُلَوَّنٍ مَنْقُوشٍ بِالذَّهَبِ ، وَجَلَبَ الْمَاءَ عَلَى رَأْسِ الْقُبَّةِ بِتَدْبِيرٍ أَحْكَمَهُ الْمُهَنْدِسُونَ ، فَكَانَ الْمَاءُ يَنْزِلُ مِنْ أَعْلَى الْقُبَّةِ عَلَى جَوَانِبِهَا مُحِيطًا بِهَا

(١) « غير واحد » غير موجود فى بعض المراجع .

وَيَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . فَكَانَتْ قُبَّةُ الزُّجَاجِ فِي غِلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ سَكْبٍ(١) خَلَقَهُ الزُّجَاجُ لَا يَفْتُرُ مِنَ الْجَرْيِ ، وَالْمَأْمُونُ قَاعِدٌ فِيهَا لَا يَمَسُّهُ مِنَ الْمَاءِ شَيْءٌ وَلَا يَصِلُهُ ، وَتُوقَدُ فِيهَا الشُّمُوعُ فَيُرَى لِذَلِكَ مَنْظَرٌ بَدِيعٌ عَجِيبٌ ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِيهَا مَعَ جَوَارِيهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِذْ سَمِعَ مُنْشِدًا يُنْشِدُ :

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا
مُقَامُكَ فِيهَا لَوْ عَقَلْتَ قَلِيلُ ؟
لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ(٢) كِفَايَةٌ
لِمَنْ كُلَّ يَوْمٍ يَقْتَضِيهِ رَحِيلُ

فَنُغِّصَ عَلَيْهِ حَالُهُ وَقَالَ : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » أَظُنُّ أَنَّ الْأَجَلَ قَدْ قَرُبَ . فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَهَا غَيْرَ شَهْرٍ

(١) في الأصل « ماء سكب » وهو تحريف (٢) الأراك شجر من الحمض ■ حمل كحمل عناقيد العنب ، وفروعه أفضل مايستاك به وأطيب مارعته الماشية رائحة لبن — ولبعض الأدباء فيه :

هنئت ياعـود الأراك بثغـرها — اذ أنت في الأوطان غير مفارق
إن كنت فارقت العذيب وبارقا — فلأنت مابين العذيب وبارق

وَتُوُفِّيَ وَلَمْ يَجْلِسْ فِي تِلْكَ ٱلْقُبَّةِ بَعْدَهَا ، وَذَلِكَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ـ تَجَاوَزَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ . هَـكَذَا حَـكَاهُ بَعْضُ مُؤَرِّخِي ٱلْمَغْرِبِ . وَقَدْ ذُكِرَ فِي غَيْرِ هَذَا ٱلْمَوْضِعِ مِنْ هَذَا ٱلْـكِتَابِ حِكَايَةُ هَذِهِ ٱلْقُبَّةِ بِلَفْظِ ٱبْنِ بَدْرُونَ شَارِحِ ٱلْعَبْدُونِيَّةِ فَلْيُرَاجَعْ . وَتَذَكَّرْتُ هُنَا قَوْلَ أَبِي مُحَمَّدٍ ٱلْمِصْرِيِّ فِي وَصْفِهِ قَصْرَ طُلَيْطِلَةَ :

قَصْرٌ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاهُ ٱلْفَرْقَدُ[1]
عَذُبَتْ مَصَادِرُهُ وَطَابَ ٱلْمَوْرِدُ
نَشَرَ ٱلصَّبَاحُ عَلَيْهِ ثَوْبَ مَكَارِمٍ
فَعَلَيْهِ أَلْوِيَةُ ٱلسَّـعَادَةِ تُعْقَدُ
وَكَأَنَّمَا ٱلْمَأْمُـونُ فِي أَرْجَائِهِ
بَدْرٌ تَمَامٌ قَابَلَتْهُ أَسْـعُدُ[2]

(١) الفرقدان نجمان لايفترقان، وقد جاء في الشعر مفردا ومثنى ومجموعا «كأنهم جعلوا كل جزء منهما فرقدا » (٢) سعود النجوم هي الكواكب التي يقال لكل واحد منها سعد ، وهي لدى العرب عشرة ، وشرحها يطول ، وقد تقدم لنا وصف بعضها ـ وأحد هذه الكواكب سعد السعود وهو كوكبان أو كوكب غير منفرد ، وهو من منازل القمر «أحمد يوسف نجاتي»

وَكَأَنَّمَا ٱلْأَقْدَاحُ فِي رَاحَاتِهِ

دُرٌّ تُجَانُ ذَابَ فِيهِ ٱلْعَسْجَدُ

وَلَهُ فِي صِفَةِ ٱلْبِرْكَةِ وَٱلْقُبَّةِ عَلَيْهَا:

شَمْسِيَّةُ ٱلْأَنْسَابِ بَدْرِيَّةٌ

يَحَارُ فِي تَشْبِيهِهَا ٱلْخَاطِرُ

كَأَنَّمَا ٱلْمَأْمُونُ بَدْرُ ٱلدُّجَى

وَهْيَ عَلَيْهِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّائِرُ

وَكَانَ مُلُوكُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي غَايَةِ ٱلِاحْتِفَالِ بِالْمَجَالِسِ وَٱلْقُصُورِ.

***

وصف مجلس المنصور بن أبي عامر

وَلِلْوَزِيرِ ٱلْجَزِيرِيِّ[1] - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - فِي وَصْفِ مَجْلِسٍ لِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ مَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَتَوَسَّطَتْهَا لُجَّةٌ فِي قَعْرِهَا

بِنْتُ[2] ٱلسَّلَاحِفِ مَا تَزَالُ تُنَقْنِقُ

(١) هو أبو مروان عبد الملك بن ادريس الأزدي الجزيري الكاتب الأديب وزير من وزراء الدولة العامرية وكاتب من كتابها وشاعر بليغ غزير المادة حاضر البديهة توفي سنة ٣٩٤ - وكان ابنه أبو أحمد عبد العزيز كاتبا أديبا وان لم يلحق شأو والده (٢) في الأصل « نبت » وهو تحريف

تَنْسَابُ مِنْ فَكِّيْ هِزَبْرٍ إِنْ يَكُنْ

ثَبْتَ الْجَنَانِ فَإِنَّ فَاهُ أَخْرَقُ(١)

صَاغُوهُ مِنْ تِبْرٍ وَخَلْقَ صَحِيفَتَيْ

هَادِيهِ مَحْضُ الدُّرِّ فَهْوَ مُطَوَّقُ(٢)

لِلْيَاسَمِينِ تَطَلُّعٌ فِي عَرْشِهِ

مِثْلُ الْمَلِيكِ عَرَاهُ زَهْوٌ مُطْرِقُ(٣)

وَنَضَائِدٌ مِنْ نَرْجِسٍ وَبَنَفْسَجٍ

وَجَنِيُّ خِيرِيٍّ وَوَرْدٌ يَعْبَقُ(٤)

والنقنقة أيضا صوت الضفدع والعقرب والدجاجة والهر والحجلة والرخمة والظليم (١) فى الأصل « تنساب من فلكى » وهو تحريف ، فاسد وثبت الجنان أى جرىء قوى القلب ، والخرق : الطيش ضد الرفق (٢) البيت فى الأصل هكذا :

صاغوه من ند وخلق صفحتى   هاديه محض الدر فهو مخلق

وهى رواية ان لم تكن محرفة كان معناها غير واضح ، والاصلاح الذى آثرناه من بعض المراجع يجعل المعنى ظاهرا — والهادى العنق (٣) عجز البيت فى الأصل هكذا : مثل المليك غداة وهو مطوق . ومعناه غامض أو فاسد أو تافه ، والزهو : الكبر والاعجاب (٤) نضائد جمع نضيدة أى باقات متضدة منتظمة . والخيرى هو المعروف بالمنثور وله ألوان مختلفة . « أحمد يوسف نجاتى »

تَرْنُو بِسِحْرٍ عُيُونُهَا وَتَكَادُ مِنْ
طَرَبٍ إِلَيْكَ بِلَا لِسَانٍ تَنْطِقُ
وَعَلَى يَمِينِكَ سَوْسَنَاتٌ أَطْلَعَتْ
زَهَرَ الرَّبِيعِ فَهُنَّ حُسْنًا تُشْرِقُ
فَكَأَنَّمَا هِيَ فِي اخْتِلَافِ رُقُومِهَا
رَايَاتُ نَصْرِكَ يَوْمَ بَأْسِكَ تَخْفِقُ
فِي مَجْلِسٍ جَمَعَ السُّرُورَ لِأَهْلِهِ
مَلِكٌ إِذَا جَمَعَتْ قَنَاهُ يُفَرِّقُ(١)
حَازَتْ بِدَوْلَتِهِ الْمَغَارِبُ رِفْعَةً
فَغَدَا يَحْسُدُهَا عَلَيْهِ الْمَشْرِقُ
وَمِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :
أَمَّا الْغَمَامُ فَشَاهِدٌ لَكَ أَنَّهُ
لَاشَكَّ صِنْوُكَ أَوْ أَخُوكَ الْأَوْثَقُ(٢)

---

(١) من قول أبي تمام :
اذا ماأغاروا فاحتووا مال معشر — أغارت عليهم فاحتوته الصنائع
ومثله قول أبي الطيب :
وتحيي له المال الصوارم والقنا — ويقتل ماتحيي التبسم والجدا
(٢) الصنو : الأخ الشقيق

وَأَتَى ٱلصَّنِيعَ فَحِينَ تَمَّ تَمَامُهُ

فِي ٱلصَّحْوِ أَنْشَأَ وَدْقُهُ يَتَدَفَّقُ(١)

وَأَظُنُّهُ يَحْكِيكَ جُودًا إِذْ رَأَى

فِي ٱلْيَوْمِ بَحْرَكَ زَاخِرًا يَتَفَهَّقُ(٢)

وَكَانَ ٱلسَّبَبُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ أَنَّ ٱلْمَنْصُورَ صَنَعَ فِي ذٰلِكَ ٱلْأَوَانِ صَنِيعًا لِتَطْهِيرِ ٱبْنِهِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ، وَكَانَ عَامَ قَحْطٍ، فَارْتَفَعَ ٱلسِّعْرُ بِقُرْطُبَةَ، وَبَلَغَ رُبْعُ ٱلدَّقِيقِ إِلَى دِينَارَيْنِ، فَجَلَا ٱلنَّاسُ مِنْ قُرْطُبَةَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ذٰلِكَ ٱلصَّنِيعِ نَشَأَتْ فِي ٱلسَّمَاءِ سَحَابَةٌ عَمَّتِ ٱلْأُفُقَ، ثُمَّ أَتَى ٱلْمَطَرُ ٱلْوَابِلُ، فَاسْتَبْشَرَ ٱلنَّاسُ، وَسُرَّ ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ، فَقَالَ ٱلْجَزِيرِيُّ بَدِيهَةً: أَمَّا ٱلْغَمَامُ الخ، وَهُوَ ٱلْقَائِلُ عَلَى لِسَانِ نَرْجِسِ ٱلْعَامِرِيَّةِ(٣):

حَيَّتْكَ يَا قَمَرَ ٱلْعُلَا وَٱلْمَجْلِسِ

أَزْكَى(٤) تَحِيَّتِهَا عُيُونُ ٱلنَّرْجِسِ

---

(١) الودق: المطر (٢) فهق الاناء «كفرح» امتلأ حتى تصبب، وتفهق: اتسع وامتلأ وطم ماؤه (٣) يريد وصف أزهار المنية العامرية ورياحين روضتها، وكان المنصور قد سمى كرائمه بأسماء هذه الأزهار «نرجس» «بهار»، «بنفسج» (٤) أو أذكى

زَهْرٌ تُرِيكَ بِحُسْنِهَا وَبِلَوْنِهَا
زُهْرَ ٱلنُّجُومِ ٱلْجَارِيَاتِ ٱلْكُنَّسِ

مُلِّكْنَ أَفْئِدَةَ ٱلنَّدَامَى كُلَّمَا
دَارَتْ بِمَجْلِسِهِمْ مَدَارَ ٱلْأَكْؤُسِ

مُلْكُ ٱلْهُمَامِ ٱلْعَامِرِيِّ مُحَمَّدٍ
لِلْمَكْرُمَاتِ وَلِلنُّهَى وَٱلْأَنْفُسِ

قَالَ ٱبْنُ بَسَّامٍ : وَمِنْ شِعْرِ ٱلْجَزِيرِيِّ مَا ٱنْدَرَجَ لَهُ أَثْنَاءَ مَدْحِهِ ٱلَّذِي مَلَّحَ(١) فِيهِ مُخَاطَبَتَهُ لِلْمَنْصُورِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَسْمَاءِ كَرَائِمِهِ بِزَهْرِ رِيَاضِهِ ، فَمِنْ ذَٰلِكَ عَنْ بَهَارِ(٢) ٱلْعَامِرِيَّةِ :

حَدَقُ ٱلْحِسَانِ تُقِرُّ لِي وَتَغَارُ
وَتَضِلُّ فِي صِفَتِي ٱلنُّهَى وَتَحَارُ

---

(١) لعله من التمليح أو التلميح وهو فى البديع أن يشير الشاعر فى شعره الى قصة معلومة أو نكتة بديعة مشهورة، ويسميه بعضهم التلميح كأن الناظم أتى فى بيته بنكتة زادته ملاحة (٢) البهار ويسمى العرار : نبت جعدله فقاحة صفراء تنبت أيام الربيع — ومن أحسن من وصفه أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الشاعر الأندلسى المشهور بقوله :

تأمل فقد شق البهار مقلبا ... كمائمه عن نوره الخضر الندى
مداهن تبر فى أنامل فضة ... على أذرع مخروطة من زبرجد

طَلَعَتْ عَلَى قُضُبِي عُيُونُ كَمَائِمِي(١)

مِثْلَ ٱلْعُيُونِ تَحُفُّهَا ٱلْأَشْفَارُ

وَأَخَصُّ شَيْءٍ بِي إِذَا شَبَّهْتَنِي

دُرَرٌ تَنَطَّقَ سِلْكَهَا دِينَارُ(٢)

أَهْدَى لَهُ قُضُبُ(٣) ٱلزُّمُرُّدِ سَاقَهُ

وَحَبَاهُ أَنْفَسَ عِطْرِهِ ٱلْعَطَّارُ

أَنَا نَرْجِسٌ حَقًّا بَهَرْتُ عُقُولَهُمْ

بِبَدِيعِ تَرْكِيبِي فَقِيلَ بَهَارُ

وَمِنْ أُخْرَى عَنْ بَنَفْسَجِ ٱلْعَامِرِيَّةِ : إِذَا تَدَافَعَتِ ٱلْخُصُومُ - أَيَّدَ ٱللهُ مَوْلَانَا ٱلْمَنْصُورَ - فِي مَذَاهِبِهَا ،

---

(١) في الأصل « عيون تمائمي » وهو تحريف لامعنى له - والكمائم جمع كامة ، وهي غطاء النور ووعاؤه . ويقال عين الشجر : اذا نضر ونور والأشفار : منابت الأهداب من الجفون (٢) تنطق سلكها : أي جعله نطاقا ، وانتطق وتنطق : شد وسطه بمنطقة وهي كل ما يشد به الوسط (٣) ويصح « قصب » ولا يخلو بعض الأبيات من شيء من التكلف « أحمد يوسف نجاتي »

وَتَعَاقَرَتْ(١) فِي مَفَاخِرِهَا ، فَإِلَيْهِ مَفْزَعُهَا(٢) وَهُوَ الْمَقْنَعُ(٣) فِي فَصْلِ الْقَضِيَّةِ بَيْنَهُمَا ، لِاسْتِيلَائِهِ عَلَى الْمَفَاخِرِ بِأَسْرِهَا ، وَعِلْمِهِ بِسِرِّهَا وَجَهْرِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ الْبَهَارُ وَالنَّرْجِسُ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِهِمَا ، وَالْمَفْخَرِ بِمُشَابِهِهِمَا ، كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا ذُو فَضِيلَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ فَضْلِي عَلَيْهِمَا أَوْضَحُ مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي تَعْلُونَا ، وَأَعْذَبُ مِنَ الْغَمَامِ الَّتِي يَسْقِينَا ، وَإِنْ كَانَا قَدْ تَشَبَّهَا فِي شِعْرِهَا بِبَعْضِ مَا فِي الْعَالَمِ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ وَمَصَابِيحِ السَّمَاءِ — وَهِيَ مِنَ الْمَوَاتِ الصَّامِتِ — فَإِنِّي أَتَشَبَّهُ بِأَحْسَنِ مَا زَيَّنَ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ وَهُوَ الْحَيَوَانُ النَّاطِقُ ، مَعَ أَنِّي أَعْطَرُ مِنْهُمَا عِطْرًا ، وَأَحْمَدُ خُبْرًا ، وَأَكْرَمُ إِمْتَاعًا ، شَاهِدًا

(١) عاقره اذا فاخره، وتعاقرا اذا تفاخرا ، وأصله أن يتبارى الرجلان فى عقرا بلهما ليرى أيهما أعقر لها فيكون أجود فيعقر كلاهما حتى يعجز أحدهما، ومن ذلك معاقرة غالب بن صعصعة أبى الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحى — ويروى : تنافرت ، والمنافرة: المفاخرة أيضا (٢) فزع اليه اذا لجأ ، وفزع اليه اذا استغاثه ، وفزعهم: أغاثهم ، والمفزع: الملجأ عند نزول الخطب (٣) يقال شاهد مقنع أى عدل يقتنع به ويرضى برأيه ويعزل على حكمه وتقبل شهادته أو قضاؤه. قال البعيث .

وبايعت ليلى بالخلاء ولم يكن شهود على ليلى عدول مقانع

وَغَائِبًا ، وَبَائِنًا وَذَا بِلًا ، وَكِلَاهُمَا لَا يُنْيِعُ ، إِلَّا رَيْثَمَا يَيْنَعُ⁽¹⁾ ثُمَّ إِذَا ذَبُلَ تَسْتَكْرِهُ النُّفُوسُ شَمَّهُ ، وَتَسْتَدْفِعُ الْأَكُفُّ ضَمَّهُ ، وَأَنَا أُمْتِعُ يَابِسًا وَرَطْبًا ، وَتَدَّخِرُنِي الْمُلُوكُ فِي خَزَائِنِهَا وَسَائِرُ الْأَطِبَّا ، وَأُصْرَفُ فِي مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ ، فَإِنْ فَخَرَا بِاسْتِقْلَالِهِمَا عَلَى سَاقٍ هِيَ أَقْوَى مِنْ سَاقٍ ، فَلَا غَرْوَ أَنَّ الْوَشْيَ ضَعِيفٌ ، وَالْهَوَى⁽²⁾ لَطِيفٌ ، وَالْمِسْكَ خَفِيفٌ ، وَلَيْسَ الْمَجْدُ يُدْرَكُ بِالصِّرَاعِ⁽³⁾. وَقَدْ أَوْدَعْتُ - أَيَّدَ اللهُ مَوْلَانَا - قَوَافِيَ الشِّعْرِ مِنْ وَصْفِ مُشَابِهِي مَا أَوْدَعَاهُ ، وَحَضَرْتُ بِنَفْسِي لِئَلَّا أَغِيبَ عَنْ حَضْرَتِهِمَا : فَقَدِيمًا فُضِّلَ الْحَاضِرُ وَإِنْ كَانَ مَفْضُولًا ، وَلِذَا قَالُوا : أَلَذُّ الطَّعَامِ مَا حَضَرَ لِوَقْتِهِ ،

(١) ينع الثمر « كمنع وضرب » أى نضج وحان قطافه ، وأينع يونع أكثر استعمالا - ويراد باليتع هنا بقاء الزهرة غضة ناضرة (٢) يراد الهواء

(٣) هو من قول أبى تمام من قصيدة بديعة غراء يمدح بها مهدى بن أصرم مطلعها :

خذى عبرات عينك عن زماعى ... وصونى ما أذلت من القناع

يقول فيها :

توجع أن رأت جسمى نحيلا ... كأن المجد يدرك بالصراع

وختمها بهذا البيت الذى لا مزيد عليه فى المدح :

فلو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

وَأَشْعَرُ ٱلنَّاسِ مَنْ أَنْتَ فِي شِعْرِهِ ، فَلِمَوْلَانَا أَتَمُّ ٱلْحُكْمِ فِي أَنْ يَفْصِلَ بِحُكْمِهِ ٱلْعَدْلَ ، وَأَقُولُ :

شَهِدَتْ لِنُوَّارِ ٱلْبَنَفْسَجِ أَلْسُنٌ
مِنْ لَوْنِهِ ٱلْأَحْوَى وَمِنْ إِينَاعِهِ
لِمُشَابِهِ ٱلشَّعْرِ ٱلْأَحَمِّ أَعَارَهُ
قَمَرُ ٱلْمُنِيرِ ٱلطَّلْقُ نُورَ شُعَاعِهِ
وَلَرُبَّمَا جُمِعَ ٱلنَّجِيعُ مِنَ ٱلطُّلَى
فِي صَارِمِ ٱلْمَنْصُورِ يَوْمَ قِرَاعِهِ(١)
فَحَكَاهُ غَيْرَ مُخَالِفٍ فِي لَوْنِهِ
لَا فِي رَوَائِحِهِ وَطِيبِ طِبَاعِهِ
مَلِكٌ جَهِلْنَا قَبْلَهُ سُبُلَ ٱلْعُلَا
حَتَّى وَضَحْنَ بِنَهْجِهِ وَشِرَاعِهِ(٢)
فِي سَيْفِهِ قِصَرٌ لِطُولِ نِجَادِهِ
وَتَمَامِ سَاعِدِهِ وَفُسْحَةِ بَاعِهِ(٣)

---

(١) النجيع : الدم ، أو دم الجوف خاصة ـ والطلى : الأعناق أو أصولها جمع طلية (٢) النهج والمنهاج : الطريق المستقيم ، والشراع والشرعة والشريعة : الظاهر المستقيم من المذاهب (٣) يصفه بطول القامة وتمام الخلق وبالقوة والشجاعة والقدرة « أحمد يوسف نجاتى »

ذُو هِمَّةٍ كَالْبَرْقِ فِي إِسْرَاعِهِ

وَعَزِيمَةٍ كَالْحَيْنِ فِي إِيقَاعِهِ(١)

تَلْقَى الزَّمَانَ لَهُ مُطِيعًا سَامِعًا

وَتَرَى الْمُلُوكَ الشُّمَّ مِنْ أَتْبَاعِهِ(٢)

***

وصف حديقة — وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ حَدِيقَةً :

وَحَدِيقَةٍ مُخْضَرَّةٍ أَثْوَابُهَا

فِي قُضْبِهَا لِلطَّيْرِ كُلُّ مُغَرِّدِ

نَادَمْتُ فِيهَا فِتْيَةً صَفَحَاتُهُمْ(٣)

مِثْلُ الْبُدُورِ تُنِيرُ بَيْنَ الْأَسْعُدِ

وَالْجَدْوَلُ الْفِضِّيُّ يَضْحَكُ مَاؤُهُ

فَكَأَنَّهُ فِي الْعَيْنِ صَفْحُ مُهَنَّدِ

وَإِذَا تَجَعَّدَ بِالنَّسِيمِ حَسِبْتَهُ

لَمَّا تَرَاهُ مُشْبِهًا لِلْمِبْرَدِ

---

(١) الحين: الهلاك وانقضاء الأجل (٢) الشم جمع الأشم وهو السيد ذو الأنفة الشريف النفس (٣) صفح كل شيء وصفحته :جانبه ، وصفيحة الوجه: بشرة جلده .

وَتَنَاثَرَتْ نُقَطٌ عَلَى حَافَاتِهِ
كَالْعِقْدِ بَيْنَ مُجَمَّعٍ وَمُبَدَّدِ
وَتَدَحْرَجَتْ(١) لِلنَّاظِرِينَ كَأَنَّهَا
دُرٌّ نَثِيرٌ فِي بِسَاطِ زَبَرْجَدِ

***

وصف صورة بحمام الشطارة

وَكَانَ بِحَمَّامِ ٱلشَّطَّارَةِ بِإِشْبِيلِيَةَ صُورَةٌ بَدِيعَةُ ٱلشَّكْلِ، فَوَصَفَهَا بَعْضُ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ بِقَوْلِهِ:

وَدُمْيَــــةِ مَرْمَرٍ تُزْهَى بِجِيدٍ
تَنَاهَى فِي ٱلتَّوَرُّدِ وَٱلْبَيَـاضِ
لَهَـا وَلَدٌ وَلَمْ تَعْرِفْ حَلِيـلًا
وَلَا أَلِمَتْ بِأَوْجَاعِ ٱلْمَخَاضِ
وَنَعْلَمُ أَنَّهَا حَجَرٌ وَلٰـكِنْ
تُتَيِّمُنَـا بِأَلْحَـاظٍ مِرَاضِ

***

وصف مجلس الذهب

وَكَانَ بِسَرَقُسْطَةَ فِي ٱلْقَصْرِ ٱلْمُسَمَّى بِدَارِ ٱلسُّرُورِ — أَحَدِ قُصُورِ ٱلْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودٍ — مَجْلِسُ ٱلذَّهَبِ، وَفِيهِ يَقُولُ

(١) ويروى : وترجرجت

ذُو ٱلْوِزَارَتَيْنِ بْنُ غُنْدَ شَلْبَ(١) يَهْجُو وَزِيرًا كَانَ يُنْبَزُ بِمَحْقُونَ:

ضَجَّ مِنْ مَحْقُونَ بَيْتُ ٱلذَّهَبِ
وَدَعَا مِمَّــا بِهِ وَاحَرَبِي
رَبِّ طَهِّرْنِي فَقَــدْ دَنَّسَنِي
عَارُ مَحْقُونَ أُلُوفِ ٱلذَّنَبِ(٢)

***

كتاب بعض كبراء الأندلس إلى إخوانه

« وَكَتَبَ » بَعْضُ كُبَرَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى إِخْوَانِهِ :

(١) فى الأصل « عبد شلب » وهو تحريف فظيع ، وهو لعمرى فى الحال بديع — ولكنه ذو الوزارتين أبو عمر السرقسطى « ابن غند شلب » وكان ذا قدر عال ومنزلة عظيمة وجاه رفيع ونفوذ قوى فى دولة بنى هود بمملكة الثغر الأعلى أى مملكة سرقسطة فى شرقى الأندلس ، وقد تقدم القول فى بنى هود من ملوك الطوائف وهذا الاسم اسبانى محض Gonzalo، Gonzalve، Gonzalez ولا يزال لقباً فى اسبانيا لكثير من الأسرات الى اليوم — وكان ابن غند شلب شاعرا مجيداً ذا حظ عظيم من الأدب وتوفى حوالى سنة ٥٠٠هـ « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) ذنب الناس وأذنابهم وذنباتهم: سفلتهم ورعاعهم — ويجوز أن تكون « الذنب » محرفة عن « الريب » جمع ريبة وهى الظنة والشك مع التهمة — هذا وفى بعض النسخ « للتوف الذنب » أى ذى الآفة فى ذنبه، وهو هجاء مقذع ، والغرض القبيح المراد منه ظاهر « أحمد يوسف نجاتى »

كِتَابِي هٰذَا مِنْ وَادِي الزَّيْتُونِ ، وَنَحْنُ فِيهِ مُخْتَلُونَ(١) ، بِغُمَّةٍ اكْتَسَتْ مِنَ السُّنْدُسِ الْأَخْضَرِ ، وَتَحَلَّتْ بِأَنْوَاعِ الزَّهَرِ ، وَتَخَايَلَتْ بِأَنْهَارٍ تَتَخَلَّلُهَا وَأَشْجَارٍ تُظَلِّلُهَا ، تَحْجُبُ أَدْوَاحُهَا الشَّمْسَ لِالْتِفَافِهَا(٢) ، وَتَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ فَيَمِيلُ مِنْ أَعْطَافِهَا ، وَمَا شِئْتُمْ مِنْ مَحَاسِنَ تَرُوقُ وَتُعْجِبُ ، وَأَطْيَارٍ تَتَجَاوَبُ بِأَلْحَانٍ تُلْهِي وَتُطْرِبُ ، فِي مِثْلِهَا يَعُودُ الزَّمَانُ كُلُّهُ صِبًا ، وَتَجْرِي الْحَيَاةُ عَلَى الْأَمَلِ وَالْمُنَى ، وَأَنَا فِيهَا — أَبْقَاكُمُ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ — بِحَالِ مَنْ طَابَ غِذَاؤُهُ ، وَحَسُنَ اسْتِمْرَاؤُهُ ، وَصَحَا مِنْ جُنُونِ الْعُقَارِ ، وَاسْتَرَاحَ مِنْ مَضَضِ الْخُمَارِ(٣) ، وَزَايَلَتْهُ وَسَاوِسُهُ ، وَخَلَتْ مِنَ الْخُبَاطِ(٤) هَوَاجِسُهُ . ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا مِنْ هٰذَا النَّمَطِ فِي وَصْفِ الْخُمَارِ ، وَالدُّعَاءِ إِلَى الْعُقَارِ ،

(١) أو « مختفلون » وفى الأصل « مختلفون » وهو تحريف مفسد

(٢) قالت حمدونة الأندلسية من أبياتها فى وصف الوادى :

يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم ؟

(٣) العقار : الخمر ، وخمارها : صداعها وأذاها ، والمضض : الألم والوجع

(٤) الخباط : داء كالجنون وليس به ، وفى بعض المراجع « خلصت » بدل « خلت » « أحمد يوسف نجاتى »

***

فَرَاجَعَهُ أَبُو ٱلْفَضْلِ بْنُ حَسْدَاي[١] بِرُقْعَةٍ[٢] قَالَ فِي صَدْرِهَا : إِلَى سَيِّدِنَا ٱلَّذِي أَلْزَمَنَا بِٱمْتِنَانِهِ ٱلشُّكْرَ، وَكَبِيرِنَا ٱلَّذِي عَلَّمَنَا بِبَيَانِهِ ٱلسِّحْرَ ، وَعَمِيدِنَا ٱلَّذِي عَقَدَنَا بِحَرَمِهِ ٱلْحِلَّ[٣] ، وَرَمَانَا بِدَائِهِ وَٱنْسَلَّ[٤] ، أَبْقَاكَ ٱللهُ تَعَالَى لِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ تَمْرُهَا ، وَيَمِينٍ غَمُوسٍ تُبِرُّهَا . وَرَدَ ـ أَبْقَاكَ ٱللهُ تَعَالَى ـ كِتَابُكَ ٱلَّذِي أَنْفَذْتَهُ مِنْ مُعَرَّسِكَ[٥] بِوَادِي ٱلزَّيْتُونِ ، وَوَقَفْنَا عَلَى

رقعة بن حسداى

---

(١) أبو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى من سرقسطة ومن بيت اسرائيلى وجيه ، عنى بالمعارف على مراتبها ، وتناول المعارف من طرقها، فأتقن اللغة العربية وآدابها ، ونال حظا جزيلا من البلاغة والشعر ، وبرع فى علوم الرياضة والطب وتوفى حوالى سنة ٥٠٠ ، وأبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى كان من الفضلاء فى صناعة الطب وسافر الى الديار المصرية واتصل بالخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى ، وتوفى نحو سنة ٥٢٥ أو بعدها

(٢) فى الأصل « برقعة » وهو تحريف (٣) فى بعض المراجع « واتحل » وأراه أليق بالسجع وألصق بالمعنى الآتى بعده

(٤) يضرب المثل « رمتنى بدائها وانسلت » لمن يعير صاحبه بعيب هو فيه ، وهو لاحدى ضرائر رهم بنت الخزرج بن تيم الله امرأة مالك بن سعد بن زيد مناة ، رمتها رهم بعيب كان فيها فقالت الضرة المثل . « يظهر أن ابن حسداى يريد بذلك أن الكاتب تنصل من الشراب وعرض بمن يعاقر الخمر ، وقد كان ابن حسداى مولعا بها لا يقبل اللوم فيها » أحمد يوسف نجاتى » (٥) موضع نزولك ومحل اقامتك

مَا لَقِيتَ فِي أَوْصَافِهِ مِنْ حُجَّةِ ٱلْمَفْتُونِ، وَإِعْجَابِكَ بِالْتِفَافِ شَجَرِهِ وَدَوْحَاتِهِ، وَٱهْتِزَازِكَ بِلَطِيفِ بَوَاكِرِهِ[1] وَرَوْحَاتِهِ، وَسُرُورِكَ بِهِ وَهُوَ حُوٌّ[2] تِلَاعُهُ، مَوْرُودَةٌ هِضَابُهُ وَأَجْرَاعُهُ، وَكُلُّ ٱلْمَشَارِبِ مَا خَلَاهُ ذَمِيمٌ[3]، وَمَاؤُهُ ٱلدَّهْرَ خَصِرٌ وَٱلْمِيَاهُ حَمِيمٌ، وَتِلْكَ عَادَةُ تَلَوُّنِكَ، وَسَجِيَّةُ تَحَضْرُمِكَ[4]، وَشَاكِلَةُ مَلَالِكَ وَسَأَمِكَ. وَأَشْعَرُ ٱلنَّاسِ عِنْدَكَ مَنْ أَنْتَ فِي شِعْرِهِ، وَأَحَبُّ ٱلْبِلَادِ إِلَيْكَ مَا أَنْتَ

(١) بريهار تياحه لهوائه صباحا ومساء لحسن الجو فيه دائما، ويروى: لطيب بدل بلطيف (٢) فى الأصل «جو» محرفة. والحو جمع أحوى، وحواء من الحوة وهو سواد الى الخضرة، واحووت الأرض واحواوت اذا اخضرت. والأحوى: النبات الضارب الى السواد لشدة خضرته، وذلك أنعم ما يكون من النبات — والتلاع جمع تلعة وهى ما ارتفع من الأرض وأشرف، وما اتسع من فوهة الوادى، وهى مكرمة النبات (٣) أخذ هاتين الفقرتين من قول أبى القمقام الأسدى من أبيات يتشوق الى الوشل «وهو جبل عظيم بناحية تهامة فيه مياه عذبة»:

اقرأ على الوشل السلام وقل له كل المشارب مذ هجرت ذميم

سقيا لظلك بالعشى وبالضحى ولبرد مائك والمياه حميم

(٤) لعله من المخضرمة وهى الخلط. وقد تكون محرفة عن «تعصرمك» بالصاد المهملة — يقال رجل عصرم اذا كان ضيق الخلق قليل الخير، أو لعل من كتب الرسالة اليه حضرمى فهو يعرض بأخلاقه المتلونة «أحمد يوسف نجاتى»

فِي عَفْرِهِ(١)، فَأَيْنَ مِنْكَ بَسَاتِينُ جِلَّقَ وَجِنَانُهُ، وَرِيَاضُهُ الْمُونِقَةُ وَخُلْجَانُهُ، وَقِبَابُهُ الْبِيضُ فِي حَدَائِقِهِ الْخُضْرِ، وَجُونُ(٢) الْعِطْرِ فِي جِنَانِهِ النُّضْرِ، وَمَا تَضُمُّهُ حِيطَانُهُ وَتَمُجُّهُ أَنْجَادُهُ وَغِيطَانُهُ، مِنْ أُمَّهَاتِ الرَّاحِ الَّتِي هَجَرْتَهَا بِرَغْمِكَ، وَمَوَادِّ(٣) الشَّمُولِ الَّتِي طَلَّقْتَهَا بِرَغْمِكَ؟ وَهَيْهَاتَ فَوَاللهِ مَا فَارَقْتَكَ(٤) تِلْكَ الْأَجَارِعُ وَالْمَجَانِي، وَلَاشَاقَتْكَ تِلْكَ الْمَنَازِلُ وَالْمَغَانِي، إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَا لَدَيْنَا مِنْ طَيِّبِ الْمَعَاهِدِ، وَحَنِينًا لِمَا عِنْدَنَا مِنْ جَمِيلِ الْمَشَاهِدِ؛ وَأَيْنَ مِنَ الْمُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مُغْرِبٍ(٥)؟. ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا فِي جَوَابِ

(١) العفر وجه الأرض وظاهرها — وأرى أن الكلمة محرفة عن «عقره» والعقر — بفتح العين وضمها — : محلة القوم ومنزلهم، ووسط الدار (٢) جمع جونة وهي في الأصل سليلة مستديرة مغشاة أدما تكون مع العطارين «بائعي العطر» (٣) في الأصل «ومورد» وهو تحريف الا اذا كانت «موارد» — يريد الشاعر ما بحدائق دمشق من الكروم — والرسالة تشرف بعض الشعر الذي قيل في وصف دمشق وجنانها (٤) ألا يصح أن تكون محرفة عن «راقتك»؟ (٥) عجز بيت لأبي الطيب وصدره: أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم ... ويقال عنقاء مغرب على الاضافة والوصف، وهو من قولهم: أغرب في البلاد اذا أبعد وذهب. يقول انه في شدة الشوق الى أهله وقد حال بينه وبينهم بعد الشقة فاشتياقه اليهم كمن اشتاق الى عنقاء مغرب وأين هي فانها بعيدة عن الناس؟

مَا مَرَّ مِنَ ٱلْعُمَارِ لَمْ يَتَعَلَّقْ لِي بِهِ غَرَضٌ .

***

وصف متنزه وَمَا أَحْلَى مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو إِسْحَقَ بْنُ خَفَاجَةَ مِنْ رِسَالَةٍ فِي ذِكْرِ مُتَنَزَّهٍ : وَلَمَّا أَكَبَّ ٱلْغَمَامُ إِكْبَابًا ، لَمْ أَجِدْ مِنْهُ إِغْبَابًا[1] ، وَٱتَّصَلَ ٱلْمَطَرُ ٱتِّصَالًا ، لَمْ أَلْفِ مِنْهُ ٱنْفِصَالًا ، أَذِنَ ٱللهُ تَعَالَى لِلصَّحْوِ أَنْ يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ ، وَيَنْشُرَ صَحِيفَتَهُ ، فَقَشَعَتِ ٱلرِّيحُ[2] ٱلسَّحَابَ ، كَمَا طَوَى ٱلسِّجِلُّ[3] ٱلْكِتَابَ ، وَطَفِقَتِ ٱلسَّمَاءُ تَخْلَعُ جِلْبَابَهَا ، وَٱلشَّمْسُ تُمِيطُ[4] نِقَابَهَا ، وَطَلَعَتِ ٱلدُّنْيَا تَبْتَهِجُ كَأَنَّهَا عَرُوسٌ تَجَلَّتْ ، وَقَدْ تَحَلَّتْ ، ذَهَبْتُ فِي لُمَّةٍ[5] مِنَ ٱلْإِخْوَانِ نَسْتَبِقُ إِلَى ٱلرَّاحَةِ رَكْضًا ، وَنَطْوِي ٱلتَّفَرُّجَ[6]

(١) أكب على الشيء اذا لزمه وأقبل عليه دائما ، والاغباب : البعد (٢) أي كشفت وفرقت (٣) السجل : اسم لكتاب العهد ونحوه ، ويطلق على الكاتب . «وبهما فسر قوله تعالى : «كطي السجل للكتب» (٤) أي تنحى وتبعد . ويروى تحط (٥) اللمة : الرفقة والأصحاب في السفر يطلق على الواحد والجمع (٦) أو التفرج وهو أحسن « أحمد يوسف نجاتي »

أَرْضًا ، فَلَا تُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ نَمِيرٍ ، قَدِ اسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةِ سَمَاهٍ[1] ، سَحَابَةٌ غَمَاءُ[2] ، وَأَنْسَابَ[3] فِي تَلْعَتِهِ حُبَابٌ ، جِلْدُهُ حَبَابٌ ، فَتَرَدَّدْنَا بِتِلْكَ الْأَبَاطِحِ تَتَهَادَى تَهَادِي[4] أَغْصَانِهَا ، وَتَتَضَاحَكُ تَضَاحُكَ أُقْحُوَانِهَا . وَلِلنَّسِيمِ ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْوَسِيمِ ، تَرَاسُلُ[5] مَشْيٍ ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ ، فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ دِرْعًا[6] ، وَأَحْكَمَهُ صُنْعًا ، وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَبَ[7] مِنْهُ نَصْلًا ، وَأَخْلَصَهُ

(١) القرارة : المطمئن من الأرض يندفع اليه الماء فيستقرفيه ، وهى من مكارم الأرض اذا كانت سهولة (٢) الغماء : السحاب المرتفع ، أو الكثيف المطر المطبق ، أو الذى أراق ماءه ولم يتقطع ، أو هو شبه الدخان يركب رءوس الجبال « وسحابة غماء يصح فيها الاضافة والاتباع مثل عنقاء مغرب » هذا والذى فى الذخيرة : فى كل قرارة سماء » سحائبها غماء . والسحاب الأغم هو الكثيف الذى لافرجة فيه (٣) انسابت الحية مضت تجرى مسرعة ، وانساب اذا خرج من مكمنه « وفى الاصل : انثاب » محرفة ، والحباب : الحية ، يصف الجداول التى يطرد ماؤها ويلتوى كانسياب الأراقم ، (٤) أى تمايل طربا (٥) تتابع وتوال واطراد (٦) شبه ما يحدثه النسيم عند مروره على سطح الماء بالدرع « وذلك مألوف كثير (٧) سيف مشطب ومشطوب فيه شُطَب أى طرائق فى متنه « أحمد يوسف نجاتى »

صَقْلًا ، فَلَا تَرَى إِلَّا بِطَاحًا ، مَمْلُوءَةً سِلَاحًا ، كَأَنَّمَا انْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ فَأَلْقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقُولٍ ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ .

« وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا » فَاخْتَلْنَا قُبَّةً خَضْرَاءَ مَمْدُودَةً أَشْطَانِ(١) الْأَغْصَانِ ، سُنْدُسِيَّةَ رُوَاقِ(٢) الْأَوْرَاقِ ، وَمَا زِلْنَا نَلْتَحِفُ مِنْهَا بِبُرْدِ ظِلٍّ ظَلِيلٍ ، وَنَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بِرِدَاءِ نَسِيمٍ عَلِيلٍ ، وَنُجِيلُ الطَّرْفَ فِي نَهْرٍ صَقِيلٍ ، صَافٍ لُجَيْنِ الْمَاءِ ، كَأَنَّهُ مَجَرَّةُ السَّمَاءِ ، مُؤْتَلِقُ جَوْهَرِ الْحَبَابِ(٣) ، كَأَنَّهُ مِنْ ثُغُورِ الْأَحْبَابِ ، وَقَدْ حَضَرَنَا مُسْمِعٌ يَجْرِي مَعَ النُّفُوسِ لَطَافَةً ، فَهُوَ يَعْلَمُ غَرَضَهَا وَهَوَاهَا ، وَيُغَنِّي لَهَا مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا ، فَصِيحٌ لِسَانِ النَّقْرِ ، يَشْفِي مِنَ الْوَقْرِ(٤) ، كَأَنَّهُ

(١) جمع شطن وهو الحبـل (٢) الرواق: بيت كالفسطاط أو سقف في مقدم البيت ، أو ستر يمد دون السقف (٣) حباب الماء : معظمه ، وتفاخاته وفقاقيعه التي تطفو على سطحه كأنها القوارير ، وتسمى اليعاليل . والحباب أيضا : الطل على الشجر يصبح عليه ، وقال الشاعر :

تخال الحباب المرتقي فوق نورها   الى سوق أعلاها جمانا مسردا

(٤) أى ثقل السمع يعني أنه يطرب الأذن فتستريح إليه « أحمد يوسف نجاتى »

كَاتِبٌ، حَاسِبٌ، تَمْشُقُ(١) يُمْنَاهُ، وَتَعْقِدُ(٢) يُسْرَاهُ.

مُحَرِّكٌ حِينَ يَشْدُو سَاكِنَاتٍ
وَتَنْبَعِثُ الطَّبَائِعُ لِلسُّكُونِ

انْتَهَى.

***

كتاب أبي إسحق لبعض أصدقائه

« وَكَانَتْ » بَيْنَ أَبِي إِسْحٰقَ وَبَعْضِ إِخْوَانِهِ مُقَاطَعَةٌ فَاتَّفَقَ أَنْ وَلِيَ ذَلِكَ الصَّدِيقُ حِصْنًا، فَخَاطَبَهُ أَبُو إِسْحَقَ بِرُقْعَةٍ مِنْهَا: أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي النَّبِيهَةِ أَوْصَافُهُ النَّزِيهَةِ عَنِ الِاسْتِثْنَاءِ، الْمَرْفُوعَةِ إِمَارَتُهُ الْكَرِيمَةُ بِالِابْتِدَاءِ، مَا انْحَذَفَتْ يَاءُ يَرْمِي لِلْجَزْمِ، وَاعْتَلَّتْ وَاوُ يَغْزُو لِمَوْضِعِ الضَّمِّ. كَتَبْتُ عَنْ وُدٍّ قَدِيمٍ هُوَ الْحَالُ، لَمْ يَلْحَقْهَا انْتِقَالٌ، وَعَهْدٍ كَرِيمٍ هُوَ الْفِعْلُ لَمْ يَدْخُلْهُ الِاعْتِلَالُ، وَاللهُ يَجْعَلُ هَاتِيكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ، وَيَعْصِمُ هَذَا بَعْدُ مِنَ الْحُرُوفِ الْجَازِمَةِ، وَإِنَّمَا اسْتَنْهِضُ طَوْلَكَ(٣)

(١) تكتب وتجيد الكتابة (٢) تحسب وتعد — وفي العبارة لف ونشر مرتب (٣) الطول: المنة والفضل. « أحمد يوسف نجاتي ».

إلَى تَجْدِيدِ عَهْدِكَ بِمُطَالَعَةِ أَلِفِ الْوَصْلِ ، وَتَعْدِيَةِ فِعْلِ الْفَصْلِ ، وَعُدُولِكَ عَنْ بَابِ أَلِفِ الْقَطْعِ ، إلَى بَابِ الْوَصْلِ وَالْجَمْعِ ، حَتَّى يَسْقُطَ لِدَرْجِ الْكَلَامِ بَيْنَنَا هَاءُ السَّكْتِ ، وَيَدْخُلَ الِانْتِقَالُ حَالَ الصَّمْتِ ، فَلَا تَتَخَيَّلْ ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ أَنَّ رَسْمَ إِخَائِكَ عِنْدِي ذُو حُسًا[1] قَدْ دَرَسَ عَفَاهُ ، وَلَا أَنَّ صَدْرِي دَارُمَيَّةَ أَمْسَى مِنْ وُدِّكَ خَلَاءً[2] ، وَإِنَّمَا أَنَا فِعْلٌ إِذَا ثَنَّى ظَهَرَ مِنْ ضَمِيرِ وُدِّهِ مَا بَطَنَ[3] ، وَبَدَا مِنْهُ مَا كَمَنَ ، وَهَيْنًا ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ أَنَّ فِعْلَ وِدَادِكَ حَاضِرٌ

---

(١) يلمح الى قول النابغة :

عفا ذو حسا من أهله فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

وكلها أسماء أمكنة، وذو حسا مكان فى بلاد مرة . وفى الأصل « دوحة » بدل « ذو حسا » وهو تحريف بعيد غريب

(٢) فيه تلميح الى قول النابغة الذبيانى :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد

(٣) يشير الى أن الضمير المستتر فى الفعل يبرز ويظهر اذا أسند الى ألف الاثنين التى لاتكون الا ضميرا ظاهرا غير مستتر ـ ورمز بتثنيته مرورة واهتزازه لمكارم الممدوح وما المخفيه تورية « أحمد يوسف نجاتى »

لَا يَلْحَقُ رَفْعَهُ تَغْيِيرٌ ، وَأَنَّ فِعْلَ سَيْفِكَ مَاضٍ مَا بِهِ لِلْعَوَامِلِ تَأْثِيرٌ ، وَأَنْتَ بِمَجْدِكَ جَامِعُ أَبْوَابِ الظَّرْفِ ، تَأْخُذُ تَمَسُّكَ الْعِلِّيَّةَ بِمُطَالَعَةِ بَابِ الصَّرْفِ ، وَدَرْسِ حُرُوفِ الْعَطْفِ ، وَتُدْخِلُ لَامَ التَّبْرِئَةِ عَلَى مَا حَدَثَ مِنْ عَتْبِكَ ، وَتُوجِبُ بَعْدَ النَّفْيِ مَا سَلَفَ مِنْ عَبْدِكَ[1] ، وَتَدَعُ أَلِفَ الْأُلْفَةِ أَنْ تَكُونَ بَعْدُ مِنْ حُرُوفِ اللِّينِ ، وَتَرْفَعُ بِالْإِضَافَةِ بَيْنَنَا وُجُودَ التَّنْوِينِ ، وَتَسُومُ سَاكِنَ الْوُدِّ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَمُعْتَلَّ الْإِخَاءِ أَنْ يَصِحَّ : وَكِتَابِي هَذَا حَرْفُ صِلَةٍ فَلَا تَحْذِفْهُ حَتَّى تَعُودَ الْحَالُ الْأُولَى صِفَةً ، وَتَصِيرَ هَذِهِ النَّكِرَةُ مَعْرِفَةً ، فَأَنْتَ ـ أَعَزَّكَ اللَّهُ ـ مَصْدَرُ فِعْلِ السُّرُورِ وَالنُّبْلِ ، وَمِنْكَ اشْتِقَاقُ اسْمِ السُّؤْدُدِ وَالْفَضْلِ ، وَإِنَّكَ ـ وَإِنْ تَأَخَّرَ الْعَصْرُ بِكَ ـ كَالْفَاعِلِ وَقَعَ مُؤَخَّرًا ، وَعَدُوَّكَ ـ وَإِنْ تَكَبَّرَ ـ كَالْكُمَيْتِ[2] لَمْ يَقَعْ إِلَّا مُصَغَّرًا ،

---

(١) كذا بالأصل وأظنها محرفة عن « قربك » أو أعتابك ، أي رضاك مثلا أو نحو ذلك مما يلائم المعنى ويبقى بحق السجع (٢) أي أن لفظ الكميت لم يستعمل الا بصيغة التصغير ـ يريد تحقير عدوه

وَلِلأَيَّامِ عِلَلٌ تَبْسُطُ وَتَقْبِضُ، وَعَوَامِلُ تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ، فَلا دَخَلَ عَرُوضَكَ قَبْضٌ، وَلا عَاقَبَ[1] رَفْعَكَ خَفْضٌ، وَلا زِلْتَ مُرْتَبِطاً بِالفَضْلِ شَرْطُكَ وَجَزَاؤُكَ، جَارِياً عَلَى الرَّفْعِ سَرْوُكَ[2] الكَرِيمُ وَسَنَاؤُكَ، حَتَّى يُخْفَضَ الفِعْلُ[3]، وَيُبْنَى عَلَى الكَسْرِ قَبْلُ - إِنْ شَاءَ اللهُ -.

***

كتاب آخر لأبي إسحق

«وَكَتَبَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - يَسْتَدْعِي عُودَ غِنَاءٍ» أَنْتَظِمُ مِنْ إِخْوَانِكَ - أَعَزَّكَ اللهُ تَعَالَى - عِقْدَ شَرْبٍ يَتَسَاقَوْنَ فِي وُدِّكَ، وَيَتَعَاطَوْنَ رَيْحَانَةَ شُكْرِكَ وَحَمْدِكَ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا شَرِهُ المَسَامِعِ إِلَى رَنَّةِ حَمَامَةِ نَادٍ، لَا حَمَامَةِ بَطْنِ وَادٍ[4]، وَالطَّوْلُ لَكَ فِي صِلَتِنَا بِجَمَادٍ نَاطِقٍ قَدِ اسْتَعَارَ

---

(١) القبض والمعاقبة والعلة من مصطلحات العروض (٢) السرو: الشرف والرفعة - وفى الأصل «مرورك» وهو تحريف (٣) تعليق على مستحيل - يدعو له بدوام الرفعة والشرف والسرور وما دعا له به من قبل (٤) يريد أنهم راغبون فى سماع مغنية وعود «الاكتفاء» بتغريد الحمائم - ويلمح الى قول الشاعر:

حمامة بطن الواديين ترنمى ... سقاك من الغر الغوادى مطيرها

وقول الآخر:

أحمامة الوادى بشرق الغضا ... ان كنت مسعدة الكئيب فرجعى

مِنْ بَنَانٍ(١) لِسَانًا ، وَصَارَ لِضَمِيرِ صَاحِبِهِ تَرْجُمَانًا ، وَهُوَ عَلَى ٱلْإِسَاءَةِ وَٱلْإِحْسَانِ لَا يَنْفَكُّ مِنْ إِيقَاعٍ بِهِ ، مِنْ غَيْرِ إِيجَاعٍ لَهُ ، فَإِنْ هَفَا عُرِكَتْ أُذُنُهُ وَأُدِّبَ ، وَإِنْ تَأَبَّى(٢) وَٱسْتَوَى بُسِجَ بَطْنُهُ وَضُرِبَ ، لَا زِلْتَ مُنْتَظِمَ ٱلْجَذَلِ(٣) ، مُلْتَئِمَ ٱلْأَمَلِ . ٱنْتَهَى .

***

«وَمِنْ نَظْمِهِ» ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ يَتَفَجَّعُ، وَيَتَوَجَّعُ(٤) : قصيدة لأبي إسحق في التفجع والتوجع

(١) بنان : اسم مغنية مجيدة وشاعرة بليغة فى العصر العباسى ، وكانت مولاة لحمد بن حماد فى عصر الخليفة المتوكل ـ وبنان بن عمرو مغن أيضا فى العصر العباسى كان يغنى للمنتصر بن المتوكل ـ والبنان أيضا : الأصابع أو أطرافها التى تحرك العود فينطق «فنى لفظ بنان تورية بديعة» وكذا فى لفظ «ايقاع» بعد (٢) أى امتنع ـ ويروى : تأبى ـ وفى معناه قول الشاعر فى جارية عوادة :

وكأنه فى حجرها ولد لها ... تحنو عليه عند كل أوان
أبدا تدغدغ بطنه فاذا هفا ... عركت له أذنا من الآذان

ومثله قول مجير الدين بن تميم :

ومهاة قد راضت العود حتى ... عاد بعد الجماح وهو ذلول
خلف من عرك أذنه اذ عصاها ... فلهـذا كما تقول يقول

(٣) أى الفرح والسرور (٤) ويرثى الوزير أبا محمد عبد الله بن ربيعة

شَرَابُ ٱلْأَمَانِي لَوْ عَلِمْتَ سَرَابُ
وَعُتْبَى⁽¹⁾ ٱللَّيَالِي لَوْ عَرَفْتَ عِتَابُ
إِذَا أَرْتَجَعَتْ أَيْدِي ٱللَّيَالِي هِبَاتِهَا
فَغَايَةُ هَاتِيكَ ٱلْهِبَاتِ ذَهَابُ
وَهَلْ مُهْجَةُ ٱلْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ
يَحُومُ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عُقَابُ؟
تَخُبُّ⁽²⁾ بِهَا مِنْ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
مَطَايَا إِلَى دَارِ ٱلْبِلَى وَرِكَابُ
وَكَيْفَ يَفِيضُ ٱلدَّمْعُ أَوْ يَبْرُدُ ٱلْحَشَا
وَقَدْ بَادَ أَقْرَانٌ وَفَاتَ شَبَابُ؟
أُقَلِّبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ لَيْلَةٍ
وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجْهِ ٱلصَّبَاحِ نِقَابُ
كَأَنِّي ـ وَقَدْ طَارَ ٱلصَّبَاحُ ـ حَمَامَةٌ
يَمُدُّ جَنَاحَيْهِ عَلَيَّ غُرَابُ

(١) العتبي: الرضا (٢) خب: عدا وأسرع في المشي، ومضارعه يخب مضموم العين على غير قياس لأن القاعدة في الفعل اللازم المضاعف أن يكون مضارعه مكسور العين الا ما شذ فجاء بالضم وهي ٢٨ فعلا منها خب

فَيَالَهُمْ مِنْ رَكْبٍ صَحْبٍ تَتَابَعُوا

فُرَادَى وَهُمْ مُلْدُ الْغُصُونِ شَبَابُ

دَعَا بِهِمُ دَاعِي الرَّدَى فَكَأَنَّمَا

تَبَارَتْ بِهِمْ خَيْلٌ هُنَاكَ عِرَابُ

فَهَامُ مُوسَلْمُ الدَّهْرِ حَرْبٌ كَأَنَّمَا

جَثَا(١) بَيْنَهُمْ طَعْنٌ لَهُمْ وَضِرَابُ

هُجُودٌ وَلَا غَيْرُ التُّرَابِ حَشِيَّةٌ(٢)

لِجَنْبٍ وَلَا غَيْرُ الْقُبُورِ قِبَابُ

وَلَسْتُ بِنَاسٍ صَاحِباً مِنْ رَبِيعَةٍ

إِذَا نَسِيَتْ رَسْمَ الْوَفَاءِ صِحَابُ

وَمِمَّا شَجَانِي أَنْ قَضَى حَتْفَ أَنْفِهِ

وَمَا أَنْدَقَ رُمْحٌ دُونَهُ وَكِعَابُ(٣)

---

(١) جثا اذا جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها — ويروى «له» بدل لهم ، يعود الضمير على الدهر وعجز البيت يروى : جثا بهم طعن له وضراب (٢) الحشية : الفراش المحشو وجمعه حشايا (٣) يقال مات فلان حتف أنفه » أي على فراشه من غير قتل ولاضرب ولا غرق ولا حرق ولا سبع ولا غيره — وهي عبارة بليغة قيل ان أول

وَأَنَّا تَجَارَيْنَا ثَلَاثِينَ حِقْبَةً
فَمَاتَ سِبَاقًا وَالْحِمَامُ قِصَابُ(١)

كَأَنْ لَمْ نَبِتْ فِي مَنْزِلِ الْقَصْفِ لَيْلَةً
نُجِيبُ بِهَا دَاعِي الصِّبَا وَنُجَابُ(٢)

إِذَا قَامَ مِنَّا قَائِمٌ هَزَّ عِطْفَهُ
شَبَابٌ أَرَقْنَاهُ بِهَا وَشَرَابُ

جَمَحْنَا بِعِيدَانِ الصِّبَا ثُمَّ إِنَّنَا
كَرَرْنَا فَكَانَتْ فَيْئَةٌ وَمَتَابُ

من قالها النبي صلى الله عليه وسلم « وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه لأن الميت على فراشه من غير قتل يتنفس حتى ينقضي رمقه » ولكنه ورد في شعر السموءل :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

وكعب الرمح: عقدة مابين الأنبوبين منه ، أو طرفه الناشز ، وجمعه كعوب وكعاب — ويروى « وذباب » وهو أحسن — وذباب السيف : حده

(١) قصاب جمع قصبة ، يعني قصب السباق ، ويقال السابق أحرز قصب السبق ، لأن الغاية التي يسبق اليها كانت تذرع بالقصب وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية فمن سبقها حازها واستحق الخطر — ثم استعمل ذلك في كل سابق الى غاية ومنته الى أمد ، وأرى أن « مات » في البيت محرفة عن « فات » (٢) القصف يعني اللهو استعمله المولدون في أشعارهم ، وأصل معناه : كسر غصن صغير ، ويقال رعد قاصف أي في صوته تكسر ،

وَلَمَّا تَرَاءتْ لِلْمَشِيبِ بُرَيْقَةٌ

وَأَقْشَعَ مِنْ ظِلِّ الشَّبَابِ سَحَابُ (١)

نَهَضْنَا بِأَعْبَاءِ اللَّيَالِي جَزَالَةً

وَأَرْسَتْ بِنَا فِي النَّائِبَاتِ هِضَابُ (٢)

فَيَا ظَاعِناً قَدْ حَطَّ مِنْ سَاحَةِ الْبِلَى

بِمَنْزِلِ بَيْنٍ لَيْسَ عَنْهُ إِيَابُ

كَفَى حَزَناً أَنْ لَمْ يَرِدْنِي عَلَى النَّوَى

رَسُولٌ وَلَمْ يَنْفُذْ إِلَيَّ كِتَابُ

وَأَنِّي إِذَا يَمَّمْتُ قَبْرَكَ زَائِراً

وَقَفْتُ وَدُونِي لِلتُّرَابِ حِجَابُ

وَلَوْ أَنَّ حَيًّا كَانَ جَاوَرَ مَيِّتاً

لَطَالَ كَلَامٌ بَيْنَنَا وَخِطَابُ

ومنه قيل لصوت المعازف قصف ، وتجوز به فى كل لهو (١) البريقة: تصغير برقة وهى القدار من البرق ، وقرئ « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » بضم الباء وفتح الراء (٢) جزل فلان جزالة اذا كان ذا رأى جيد وتدبير قوى محكم

وَأَعْرَبَ عَمَّا عِنْدَهُ مِنْ جَلِيَّةٍ
فَأَقْشَعَ عَنْ شَمْسٍ هُنَالِكَ ضَبَابُ[1]

وَقَدْ أَبْعَدْنَا عَمَّا كُنَّا بِصَدَدِهِ مِنْ ذِكْرِ قُرْطُبَةَ أَعَادَهَا اللهُ لِلْإِسْلَامِ، فَنَقُولُ:

***

مساجد قرطبة ومبانيها

قَالَ بَعْضُ مَنْ أَرَّخَ الْأَنْدَلُسَ: انْتَهَتْ مَسَاجِدُ قُرْطُبَةَ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الدَّاخِلِ إِلَى أَرْبَعِمِائَةٍ وَتِسْعِينَ مَسْجِدًا، ثُمَّ زَادَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ كَثِيرًا كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَانَتْ قُرْطُبَةُ قَاعِدَةَ الْأَنْدَلُسِ، وَأُمَّ الْمَدَائِنِ، وَقَرَارَةَ الْمُلْكِ، وَكَانَ عَدَدُ شُرُفَاتِهَا[2] أَرْبَعَةَ آلَافٍ وَثَلَثِمِائَةٍ، وَكَانَتْ عِدَّةُ الدُّورِ فِي الْقَصْرِ الْكَبِيرِ أَرْبَعَمِائَةِ دَارٍ وَنَيِّفًا وَثَلَاثِينَ، وَكَانَتْ عِدَّةُ دُورِ الرَّعَايَا وَالسَّوَادِ بِهَا الْوَاجِبِ عَلَى أَهْلِهَا الْمَبِيتُ فِي السُّورِ مِائَةَ أَلْفِ دَارٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دَارٍ حَاشَا دُورَ الْوُزَرَاءِ وَأَكَابِرِ النَّاسِ وَالْبَيَاضِ. وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ هٰذَا الْعَدَدَ كَانَ أَيَّامَ لَمْتُونَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ. قَالَ: وَكَانَتْ

(١) فى الاصل « طباب » محرفة . وقد كان فى القصيدة تحريف كثير تلافيناه وأثبتنا بها منقحة محررة « أحمد يوسف نجاتى ». (٢) الشرفة ما يبنى على أعلى الحائط منفصلا بعضه عن بعض على هيئة معروفة .

دِيَارُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ إِذْ ذَاكَ سِتَّةَ آلَافِ دَارٍ وَثَلَثُمِائَةِ دَارٍ ، انْتَهَى . وَعَدَدُ أَرْبَاضِهَا ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ ، وَقِيلَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ ، وَمَبْلَغُ الْمَسَاجِدِ بِهَا ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ مَسْجِدًا ، وَعَدَدُ الْحَمَّامَاتِ الْمُبْرَزَةِ لِلنَّاسِ سَبْعُمِائَةِ حَمَّامٍ ، وَقِيلَ ثَلَثُمِائَةِ حَمَّامٍ . وَقَالَ ابْنُ حَيَّانَ : إِنَّ عِدَّةَ الْمَسَاجِدِ عِنْدَ تَنَاهِيهَا فِي مُدَّةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةِ مَسْجِدٍ ، وَالْحَمَّامَاتِ تِسْعُمِائَةِ حَمَّامٍ . وَفِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ الْقَدِيمَةِ : كَانَ بِقُرْطُبَةَ فِي الزَّمَنِ السَّالِفِ ثَلَاثَةُ آلَافِ مَسْجِدٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ مَسْجِدًا ، مِنْهَا بِشَقُنْدَةَ[1] ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسْجِدًا وَتِسْعُمِائَةِ حَمَّامٍ وَأَحَدَ عَشَرَ حَمَّامًا ، وَمِائَةُ أَلْفِ دَارٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دَارٍ لِلرَّعِيَّةِ خُصُوصًا ، وَرُبَّمَا نِصْفُ الْعَدَدِ أَوْ أَكْثَرُ لِأَرْبَابِ الدَّوْلَةِ وَخَاصَّتِهَا . هٰكَذَا نَقَلَهُ فِي الْمُغْرِبِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَأْتِي وَيَذَرُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَالَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ - بَعْدَ

(١) شقندة كانت كضاحية لقرطبة على عدوة النهر، وتقدم القول فيها

ذِكْرِهِ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ : وَوَسَطَ ٱلْأَرْبَاضِ قَبَّةُ قُرْطُبَةَ ٱلَّتِي تُحِيطُ بِالسُّورِ[1] دُونَهَا. وَأَمَّا ٱلْيَتِيمَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلْبَدِيعِ فَإِنَّهَا كَانَتْ مِنْ تُحَفِ قَيْصَرِ[2] ٱلْيُونَانِيِّينَ، بَعَثَ بِهَا صَاحِبُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَى ٱلنَّاصِرِ مَعَ تُحَفٍ كَثِيرَةٍ سَنِيَّةٍ. ٱنْتَهَى.

وَنَحْوُهُ لِابْنِ ٱلْفَرَضِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، لَٰكِنْ خَالَفَهُمْ صَاحِبُ ٱلْمَسَالِكِ وَٱلْمَمَالِكِ، فَذَكَرَ أَنَّ عَدَدَ ٱلْمَسَاجِدِ بِقُرْطُبَةَ أَرْبَعُمِائَةِ مَسْجِدٍ وَأَحَدٌ وَسَبْعُونَ مَسْجِدًا، وَهُوَ بَعِيدٌ. وَقَالَ قَبْلَهُ : إِنَّ دَوْرَ قُرْطُبَةَ فِي كَمَالِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ. وَتَفْسِيرُهَا بِاللِّسَانِ ٱلْقُوطِيِّ « ٱلْقُلُوبُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ[3] » وَهِيَ بِالْقُوطِيَّةِ بِالطَّاءِ ٱلْمُشَالَةِ، وَقِيلَ إِنَّ مَعْنَى قُرْطُبَةَ « إِجْرِ فَاسْكُنْهَا[4] » قَالَ : وَبِقُرْطُبَةَ أَقَالِيمُ

---

(١) فى بعض المراجع « تختص » (٢) فى الأصل قصر محرفة عن « قيصر » والتحفة : المدية الثمينة النفيسة (٣) قد سبق رأينا فى ذلك (٤) فى الأصل « أجز » بدل « اجر » وهو تحريف كما يدل عليه اللفظ اللاتينى Corre ومنه الكلمة الفرنسية Courir والأسبانية Corèr « أحمد يوسف نجاتى »

كَثِيرَةٌ وَكُوَرٌ جَلِيلَةٌ . وَكَانَتْ جِبَايَتُهَا فِي أَيَّامِ الْحَكَمِ ابْنِ هِشَامٍ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ وَعِشْرِينَ دِينَارًا — وَسَبَقَ مَا يُخَالِفُ هٰذَا — وَمِنَ الْقَمْحِ أَرْبَعَةُ آلَافِ مُدْيٍ[1] وَسِتُّمِائَةِ مُدْيٍ، وَمِنَ الشَّعِيرِ سَبْعَةُ آلَافِ مُدْيٍ وَسِتُّمِائَةِ مُدْيٍ وَسَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ مُدْيًا . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أُحْصِيَتْ دُورُ قُرْطُبَةَ الَّتِي بِهَا وَأَرْبَاضِهَا أَيَّامَ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فَكَانَتْ مِائَتَيْ أَلْفِ دَارٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دَارٍ وَسَبْعَةً وَسَبْعِينَ دَارًا ، وَهٰذِهِ دُورُ الرَّعِيَّةِ، وَأَمَّا دُورُ الْأَكَابِرِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَالْأَجْنَادِ وَخَاصَّةِ الْمُلْكِ فَسِتُّونَ أَلْفَ دَارٍ وَثَلَاثُمِائَةِ دَارٍ سِوَى مَصَارِي الْكِرَاءِ وَالْحَمَّامَاتِ وَالْخَانَاتِ ، وَعَدَدُ الْحَوَانِيتِ ثَمَانُونَ أَلْفَ حَانُوتٍ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ. وَلَمَّا كَانَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ غُيِّرَتْ رُسُومُ

(١) المدى : مكيال ضخم يأخذ جريبا كان بالشام ومصر ،وفي الصحاح هو القفيز الشامي، وقال ابن الأثير هو مكيال لأهل الشام يسع خمسة عشر مكوكا، والمكوك صاع ونصف ، وقيل أكثر من ذلك » وقيل انه يسع خمسة وأربعين رطلا — وجمع المدى أمداء . « أحمد يوسف نجاتي »

ذَلِكَ ٱلْعُمْرَانِ ، وَمُحِيَتْ آثَارُ تِلْكَ ٱلْقُرَى وَٱلْبُلْدَانِ .
أَنْتَهَى مُلَخَّصًا .

وَسَيَأْتِي فِي رِسَالَةِ ٱلشَّقَنْدِيِّ مَاهُوَ أَشْمَلُ مِنْ هٰـذَا .

٭٭٭

أبو القاسم بن هشام يصف متنزهات قرطبة

وَلَمَّا رَقَّتْ حَالُ أَبِي ٱلْقَاسِمِ عَامِرِ بْنِ هِشَامٍ ٱلْقُرْطُبِيِّ (١) بِقُرْطُبَةَ ، وَزَيَّنَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ ٱلرِّحْلَةَ إِلَى حَضْرَةِ مَلِكِ ٱلْمُوَحِّدِينَ مَرَّاكُشَ قَالَ : وَذَكَرَ ٱلْمُتَنَزَّهَاتِ ٱلْقُرْطُبِيَّةَ :

يَاهَبَّةً بَاكَرَتْ مِنْ نَحْوِ دَارِينِ (٢)
وَافَتْ إِلَيَّ عَلَى بُعْدٍ تُحَيِّينِي
سَرَتْ عَلَى صَفَحَاتِ ٱلنَّهْرِ نَاثِرَةً
جَنَاحَهَا بَيْنَ خِيرِيٍّ وَنِسْرِينِ
رَدَّتْ إِلَى جَسَدِي رُوحَ ٱلْحَيَاةِ وَمَا
خِلْتُ ٱلنَّسِيمَ إِذَا مَا مُتُّ يُحْيِينِي
لَوْ لَا تَنَسُّمُهَا عَنْ نَشْرِ أَرْضِكُمُ
مَا أَصْبَحَتْ مِنْ أَلِيمِ ٱلْوَجْدِ تُبْرِينِي

---

(١) هو أبو القاسم عامر بن هشام الأزدي القرطبي الكاتب الأديب والشاعر المطبوع ، توفي سنة ٦٣٣ وقد تقدمت ترجمته . (٢) سبق التعريف بها

مَرَّتْ عَلَى عَقِدَاتِ(١) الرَّمْلِ حَامِلَةً
مِنْ سِرِّ كُمْ خَبَرًا بِالْوَحْيِ يَشْفِينِي
عَرَفْتُ مِنْ عَرْفِهِ مَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ
لَمَّا تَنَسَّمَ(٢) فِي تِلْكَ الْمَيَادِينِ
نَزَوْتُ مِنْ طَرَبٍ لَمَّا هَفَا سَحَرًا
وَظَلَّ يَنْشُرُنِي طَوْرًا وَيَطْوِينِي(٣)
خِلْتُ الشَّمَالَ شَمُولًا(٤) إِذْ سَكِرْتُ بِهَا
شُكْرًا بِمَا لَسْتُ أَرْجُوهُ يُمَنِّينِي
أَهْدَتْ إِلَيَّ أَرِيجًا(٥) مِنْ شَمَائِلِكُمْ
فَقُلْتُ قَرَّبَنِي مَنْ كَانَ يُقْصِينِي
وَخِلْتُ مِنْ طَمَعٍ أَنَّ اللِّقَاءَ عَلَى
إِثْرِ النَّسِيمِ، وَأَضْحَى الشَّوْقُ يَحْدُونِي

---

(١) العقدة: ماتراكم من الرمل وجمعه عقد، وعقدات (٢) فى الأصل «تبسم» مصحفة (٣) نزا أى وثب: يريد أنه اهتز طربا ومرحا - وهفا النسيم: تحرك وخف مسرعا - يريد أن السرور قد استولى عليه وتمكن منه (٤) فى الأصل «شمالا» وآثرنا أن تكون محرفة عن «شمولا» مراعاة للمعنى كما هو ظاهر - والشمول: الخمر (٥) الأريج: الريح الطيبة - والشمائل

فَظِلْتُ أَلْثَمُ(١) مِنْ تَعْظِيمِ حَقِّكُمُ
تُجَرُّ أَذْيَالُهَا وَالْوَجْدُ يُغْرِينِي
مَسَارِحُ كَمْ بِهَا سَرَّحْتُ مِنْ كَمَدٍ
قَلْبِي وَطَرْفِي وَلَا سُلْوَانَ يَثْنِينِي ؟
بَيْنَ الْمُصَلَّى إِلَى وَادِي الْعَقِيقِ ــ وَمَا
يَزَالُ مِثْلَ اسْمِهِ(٢) مُذْ بَانَ يُبْكِينِي
إِلَى الرُّصَافَةِ فَالْمَرْجِ النَّضِيرِ فَوَا
دِي الدَّيْرِ فَالْمَعْطِفِ مِنْ بَطْحَاءِ عَبْدُونِ(٣)
لِبَابِ عَبْدٍ سَقَتْهُ السُّحْبُ وَابِلَهَا
فَلَمْ يَزَلْ بِكُؤُوسِ الْأُنْسِ يَسْقِينِي
لَا بَاعَدَ اللهُ عَيْنِي عَنْ مَنَازِهِهِ
وَلَا يُقَرِّبُ لَهَا أَبْوَابَ جَيْرُونِ(٤)

جمع شمال وهو الخلق والسجية والطبع (١) لثم « كسمع وضرب » أى قبل (٢) يريد أنه أبكاه دما كالعقيق. والمصلى ووادى العقيق من مواضع بلاد العرب يجعلهما مثلا لمواطنه التى يتشوق اليها ــ والمصلى موضع فى عقيق المدينة ، والمصلى الجديد بمرسية بالأندلس ــ وفى الأصل « ان بان » وهو خير ظاهر (٣) هذه أماكن أندلسية معروفة والرصافة معروفة ، و ربض الرصافة بجوف قرطبة (٤) كذا بالأصل وقد يكون فى العبارة تحريف وأصلها

حَاشَا لَهَا مِنْ مَحَلَّاتٍ[1] مُفَارَقَةً
مِنْ شَيِّقٍ دُونَهَا فِي الْقُرْبِ مَحْزُونِ
أَيْنَ الْمَسِيرُ وَرِزْقُ اللهِ أَدْرَكَهُ
مِنْ دُونِ جَهْدٍ وَتَأْمِيلٍ يُمَنِّينِي[2]؟
يَا مَنْ يُزَيِّنُ لِي التَّرْحَالَ عَنْ بَلَدِي
كَمْ ذَا تُحَاوِلُ نَسْلًا عِنْدَ عِنِّينِ؟
وَأَيْنَ يَعْدِلُ عَنْ أَرْجَاءِ قُرْطُبَةٍ
مَنْ شَاءَ يَظْفَرُ بِالدُّنْيَا وَبِالدِّينِ

مثلا ـ فلا تقر لها أبواب جيرون ، أو : اذ لاتقر لها الخ يريد أن أبواب جيرون التى أكثر الشعراء من ذكرها والحنين اليها لاتقر لبنيه بمنازه قرطبة ومعاهد الأندلس ـ وجيرون هى دمشق ، أو باب من أبوابها ـ وكان بجامع دمشق باب يسمى باب جيرون هو بابه الشرقى وفيه فوارة ينزل عليها بدرج كثيرة فى حوض من رخام وقبة خشب يعلو ماؤها نحو الرمح

(١) فى الأصل « ...من محلات » وأراها محرفة ، فانه يريد أن يحاشى المنازل أن يفارقها من غلبه الشوق اليها كل أحواله ، ويوضح ذلك ما بعده وما قبله

(٢) التأميل : مصدر أمل ، وعناه الى أتعبه ، يريد أن الأمانى متعبة والمطامع مردية ـ وهذا مذهب له لايرضاه ذوو الهمم العلية فكل مكان ينبت العز طيب ، واذا نبا بك منزل فتحول . وسيرجع الى ذلك بعد

قُطْرٌ فَسِيحٌ وَنَهْرٌ مَا بِهِ كَدَرٌ

حَفَّتْ بِشَطَّيْهِ أَلْفَافُ الْبَسَاتِينِ(١)

يَا لَيْتَ لِي عُمْرَ نُوحٍ فِي إِقَامَتِهَا

وَأَنَّ مَالِيَ فِيهِ كَنْزُ قَارُونِ

كِلَاهُمَا كُنْتُ أُفْنِيهِ عَلَى نَشَوَا

تِ الرَّاحِ نَهْبًا وَوَصْلِ الْحُورِ(٢) وَالْعِينِ

وَإِنَّمَا أَسَفِي أَنِّي أَهِيمُ بِهَا

وَأَنَّ حَظِّيَ مِنْهَا حَظُّ مَغْبُونِ

أَرَى بِعَيْنَيَّ مَالَا تَسْتَطِيلُ يَدِي

لَهُ وَقَدْ حَازَهُ مَنْ قَدْرُهُ دُونِي

وَأَنْكَدُ النَّاسِ عَيْشًا مَنْ تَكُونُ لَهُ

نَفْسُ الْمُلُوكِ وَحَالَاتُ الْمَسَاكِينِ

---

(١) الألفاف : الأشجار الملتفة بعضها ببعض ، جمع لف وهو الروضة الملتفة بالنبات ، والبستان المجتمع الشجر ، وحديقة لف ولفة أى قد التفت أشجارها ، ومنه قوله تعالى . « وجنات ألفافا » أى بساتين ملتفة (٢) فى بعض المراجع « الخرد العين » وهو أحسن . « أحمد يوسف نجاتى »

يَغُضُّ طَرْفَ التَّصَابِي حِينَ تَبْهَتُهُ(١)

قُضْبَانُ نَعْمَانَ فِي كُثْبَانِ يَبْرِينِ(٢)

قَالُوا: أَلْكَفَافُ مُقِيمٌ، قُلْتُ ذَاكَ لِمَنْ

لَا يَسْتَخِفُّ إِلَى بِنْتِ الزَّرَاجِينِ(٣)

وَلَا يُبَلْبِلُهُ(٤) هَبُّ الصَّبَا سَحَرًا

وَلَا يُلَطِّفُهُ عَرْفُ الرَّيَاحِينِ

وَلَا يَهِيمُ بِتُفَّاحِ الْخُدُودِ وَرُمَّا

نِ النُّهُودِ وَتَرْجِيعِ التَّلَاحِينِ

---

(١) تبهته تحيره وتدهشه ، وقد بهت اذا تحير مرأى شيئا فبهت ينظر نظر التعجب (٢) نعمان ــ ويسمى نعمان الأراك ــ : واد ينبته بين مكة والطائف ، ويبرين : رمل عظيم لا تدرك أطرافه من أصقاع البحرين بينه وبين الأحساء وهجر مرحلتان ، وفيه يقول أبو زياد الكلابي :

أراك الى كثبان يبرين صبة ... وهذا لعمري لو قنعت كثيب

وان الكثيب الفرد من أيمن الحمى ... الى وان لم آته لحبيب

ويريد بقضبان نعمان قدود الغيد ، وبكثبان يبرين الأرداف والأعجاز (٣) الزراجين جمع زرجون وهو الخمر أو الكرم أى شجرة العنب ، وهو لفظ فارسي معرب ــ يريد أن المولع بالشراب والذى يهفو فؤاده الى الحسان ويحن الى الرياض ويستميله النسيم العليل لا يقنع بالكفاف الذى لا يرضى به الا خامل جامد (٤) أى يهيجه ويحركه . أحمد يوسف نجاتى .

لَا تُجْتَنَى رَاحَةٌ إِلَّا عَلَى تَعَبٍ

وَلَا تُنَالُ ٱلْعُلَا إِلَّا مِنَ ٱلْهُونِ

وَصَاحِبُ ٱلْعَقْلِ فِي ٱلدُّنْيَا أَخُو كَدَرٍ

وَإِنَّمَا ٱلصَّفْوُ فِيهَا لِلْمَجَانِينِ

يَا آمِرِي أَنْ أَحُثَّ ٱلْعِيسَ عَنْ وَطَنِي

لَمَّا رَأَى ٱلرِّزْقَ فِيهِ لَيْسَ يُرْضِينِي

نَصَحْتَ، لَـكِنَّ لِي قَلْبًا يُنَازِعُنِي

فَلَوْ تَرَحَّلْتُ عَنْهُ حَـلَّهُ دُونِي

لَأَلْزَمَنْ وَطَنِي طَوْرًا تُطَاوِعُنِي

قُودُ[1] ٱلْأَمَانِي وَطَوْرًا فِيهِ تَعْصِينِي

مُدَلَّلًا بَيْنَ عِرْفَانِي، وَأَضْرِبُ عَنْ

سَيْرٍ لِأَرْضٍ بِهَا مَنْ لَيْسَ يَدْرِينِي[2]

(١) جمع أقود ، يقال فرس أقود وقيد « بتشديد الياء مكسورة » أي ذلول منقاد طائع (٢) اضرب عن الشيء اذا كف عنه وأعرض — وفي الأصل « مذللا بين عرفاني » « بالذال المعجمة » ولا أرضى للشاعر ذلك فرأيت أنها محرفة ، وآثرت أن يكون « مدللا » بين اخوانه ومن يعرفه من بني وطنه ومحيط خبرا بأمله وحاله ، فهو إذا أبى الاغتراب نفرة من الذل . « أحمد يوسف نجاتي » .

هَذَا يَقُولُ غَرِيبٌ سَاقَهُ طَمَعٌ

وَذَاكَ حِينَ أُرِيهِ (١) ٱلْبِرَّ يَجْفُونِي

إِلَيْكِ عَنِّيَ آمَالِي فَبُعْدُكِ بِي

حِينٌ وَقُرْبُكِ يُطْغِينِي وَيُغْوِينِي (٢)

يَالَحْظَ كُلِّ غَزَالٍ لَسْتُ أَمْلِكُهُ

يَدْنُو (٣) وَمَالِيَ حَالٌ مِنْهُ تُدْنِينِي

وَيَامُدَامَــــةَ دَيْرٍ لَا أُلِمُّ بِهِ

لَوْلَا كَمَا كَانَ مَا أُعْطِيتُ يَكْفِينِي

لَأَصْبِرَنَّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ كَدَرٍ

لِمَنْ عَطَايَاهُ بَيْنَ ٱلْكَافِ وَٱلنُّونِ

وَتُسَمَّى هَذِهِ ٱلْقَصِيدَةُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ كَنْزَ ٱلْأَدَبِ.
وَقَدْ أَشَرْنَا فِي ٱلْبَابِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقُرْطُبَةَ

---

(١) فى الأصل « أريد » بدل « أريه » التى تجعل المعنى أوضح وأعف وتبين سوء مجازاةالناس الغريب غير المعروف بينهم. « أحمد يوسف نجاتى »
(٢) اليك عنى : أى تنحى وابتعدى ويمكن أن يقرأ هذا البيت بخطاب صاحبه لا آماله ، ويكون : اليك عنى آمالى الخ (٣) ويجوز أن تكون محرفة عن « يرنو » أى ينظر لمناسبة لحظ الغزال، وكم كان فى القصيدة من تحريف أصلحناه، و نبهنا على ما أبقيناه شاكين فيه . « أحمد يوسف نجاتى » .

ـ أَعَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الإِسْلَامِ ـ فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ ذِكْرُهُ هُنَا أَنْسَبَ ، لِأَنَّ مَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا هُوَ فِي ذِكْرِهَا مَعَ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهَذَا الْبَابُ لَهَا بِالاسْتِقْلَالِ.
وَأَنْشَدَ أَبُو الْعَاصِي غَالِبُ بْنُ أُمَيَّةَ الْمَوْزُورِيُّ (١) لَمَّا جَلَسَ

(١) فى الأصل « المروزى » وهو تحريف غيرمغفور ، يبعد الرجل عن وطنه بعد مرو عن موزور ، وهو غالب بن أمية بن غالب الموزورى سكن قرطبة وهو أديب شاعر بليغ ، منسوب الى موزور وهى كورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة، وهى من قرطبة بين الغرب والقبلة كثيرة الفواكه والزيتون ، و بينها و بين قرطبة عشرون فرسخا ـ هذا وقد تصرف صاحب النفح فى الأبيات التى اختارها من القصيدة تصرفا أخل ميزان بعضها وأخرجها عن بحرها ، فقد كان البيت الأول فى الأصل:

يا قصر كم حويت من نعم　　عادت لنا بعوارض الـكلك

فجعل عجز البيت من بحر الكامل ، ولكن صدره لايقام له وزن الا اذا ضعفت عين حوى ، وتأبى اللغة ذلك الاشتكاف . والقصيدة فى « بغية الملتمس » قال فيه أنشدنا أبو عمر بن عبد البر قال أنشدنى أبو الأصبغ عبد العزيز ابن أحمد النحوى الأخفش سنة ٣٨٩ قال أنشدنى أبو العاصى غالب بن أمية بن غالب وقد جلس على نهر قرطبة ناظرا الى القصر على البديهة ـ ثم ساق القصيدة وأولها الأبيات الثلاثة و بعدها :

وقل الدنيا اليك مقبلة　　تختال فى خزها وفى الفنك
خادعة الخلق عن عقولهم　　بعدا وسحقا فالظلم وفك

وآخرها :

ياصاحب العقل أنت أنت لها　　فطأ اليها نوافذ الحنك
واعدده عهدا منفشا نظرا　　منك لنب الأمور وادرك

عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ بِإِزَاءِ الرَّبَضِ مُلْتَفِتاً إِلَى الْقَصْرِ بَدِيهَةً :

يَا قَصْرُ كَمْ قَدْ حَوَيْتَ مِنْ نِعَمٍ
عَادَتْ لَنَا فِي عَوَارِضِ السِّكَكِ ؟
يَا قَصْرُ كَمْ قَدْ حَوَيْتَ مِنْ مَلِكٍ
دَارَتْ عَلَيْهِمْ دَوَائِرُ الْفَلَكِ[1] ؟
أَبْقِ مَا شِئْتَ كُلُّ مُتَّخَذٍ
يَعُودُ يَوْماً بِحَالِ مُتَّرَكِ[2]

***

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ عِيَاضٌ[3] عِنْدَ ارْتِحَالِهِ عَنْ قُرْطُبَةَ : توديع القاضي عياض لقرطبة

يحمد عند الصباح كل سرى اذا انقرى نوره عن الحلك
فالقصيدة من بحر المنسرح لا من الكامل كما أرادالقرى ، ولعله لم يصل اليه الا الابيات الثلاثة الاولى محرفة فأصلحها بما يجعلها من الكامل لولا ماعرفت . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) فى الأصل « ياقصركم حويت من ملك * دارت عليه الخ » ويكون عجز البيت من المنسرح اذا أشبعت الهاء فى عليه اشباعا تتولد منه الياء ويبقى صدر البيت من الكامل لكن بتضعيف عين حوى (٢) كان أصله

ماشئت فابق فكل متخذ يوما يعود بحال مترك

وهو مستقيم الوزن ان كان من بحر الكامل لولا سائر القصيدة (٣) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي القاضي الجليل الفقيه

أَقُولُ وَقَدْ جَدَّ ارْتِحَالِي وَغَرَّدَتْ

حُدَاتِي وَزُمَّتْ[١] لِلْفِرَاقِ رَكَائِبِي

وَقَدْ غَمِصَتْ مِنْ كَثْرَةِ الدَّمْعِ مُقْلَتِي

وَصَارَتْ هَوَاءً مِنْ فُؤَادِي تَرَائِبِي[٢]

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَقْفَةٌ يَسْتَحِثُّهَا

وَدَاعِيَ لِلْأَحْبَابِ لَا لِلْحَبَائِبِ[٣]

رَعَى اللّٰهُ جِيرَانًا بِقُرْطُبَةِ الْعُلَا

وَجَادَ رُبَاهَا بِالْعِهَادِ السَّوَاكِبِ[٤]

وَحَيَّا زَمَانًا بَيْنَهُمْ قَدْ أَلِفْتُهُ

طَلِيقَ الْمُحَيَّا مُسْتَلَانَ الْجَوَانِبِ

المحدث الأديب توفى بمراكش سنة ٥٤٤ (١) زم الركائب اذا شدها بالزمام وعلقه عليها — وزم: تقلص فى السير (٢) فى الاصل « وقد غمضت » وهو تحريف على ما أرى ، وغمصت العين « كفرح » اذا كان بها رمص وقذى ، أو ما كان فى العين أبيض مثل الزبد يكون فى ناحية العين والرمص ما يكون فى أصل الهدب ، يريد أن كثرة بكائه أرمد عينه حتى صارت غمصاء — والترائب عظام الصدر ، وهواء أى خالية فارغة ، يريد أن فؤاده فارق جوانحه وخلا منه صدره (٣) يعنى أن له أحبابا يحن اليهم لا صاحبات يهواهن (٤) العهاد : جمع عهد وعهادة وهو المطر « أحمد يوسف نجاتى »

أَإِخْوَانَنَا بِاللهِ فِيهَا تَذَكَّرُوا

مَوَدَّةَ[1] جَارٍ أَوْ مَوَدَّةَ صَاحِبِ

غَدَوْتُ بِهِمْ مِنْ بِرِّهِمْ وَاحْتِفَالِهِمْ[2]

كَأَنِّيَ فِي أَهْلِي وَبَيْنَ أَقَارِبِي

---

(١) ويروى « معاهد جار » ولعله أولى (٢) أو « واحتفائهم »
« أحمد يوسف نجاتي »

(انتهى الجزء الرابع من كتاب نفح الطيب)
ويليه الجزء الخامس إن شاء الله وأوله

(وصف جامع قرطبة)

الدكتور احمد فريد رفاعى

فهرست

الجزء الرابع من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب